فــواز حــداد

السوريون الأعداء

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

السوريون الأعداء

فوّاز حدّاد

السوريون الأعداء

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Syrian Enemies

Fawwaz Haddad

First Published in September 2014

Copyright ©**Riad El-Rayyes Books S.A.L.**

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb — www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-590-7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, elctronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: أيلول (سبتمبر) ٢٠١٤

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebok.com

لوحة الغلاف: فرانز كلاين (Franz Kline)

التصميم والإخراج الفني: آرتيستو— علي الحاج حسن

إلى عزمي بشارة
صديق الأزمنة المضطربة
الذي لم يفقد إيمانه بسورية والسوريين
هذا كتابي
عن الضمير... تلك هي المسألة.

المحتويات

الجزء الأول: بلاد الخلود والموت ١١
الفصل الأول: حياة تمضي على أحسن وجه ١٣
الفصل الثاني: الإيمان بأن العدالة ممكنة ٤٩
الفصل الثالث: كان موتهن يحمل لهن نفحة من الهناء.............٨٩
الفصل الرابع: حضور التذكارات.................................. ١١٣
الفصل الخامس: ما يفعله الله لا يبقى سراً ١٤١
الفصل السادس: مشيئته كانت قاسية ١٧٣
الفصل السابع: ليس الأمل إلا خديعة............................ ٢٠٧
الفصل الثامن: القانون نشاط هدام............................... ٢٢٩
الفصل التاسع: نقاط سوداء في جبين العدالة ٢٥٧
الفصل العاشر: إدارة القضايا المستعجلة.......................... ٢٩١
الفصل الحادي عشر: الملفات الاشكالية........................ ٣٢٧
الفصل الثاني عشر: دولة موازية وفاعلة ٣٥٣
الفصل الثالث عشر: حازم..................................... ٣٧٣

الجزء الثاني: عالم جديد ٣٩٣
الفصل الأول : رجل قادم من القبر ٣٩٥
الفصل الثاني: القدر ٤١٧
الفصل الثالث: المارش الأخير ٤٤٩

الجزء الأول

بلاد الخلود والموت

الفصل الأول

حياة تمضي على أحسن وجه

يوحي شارع النصر في الصباح، بمدينة تنفض عنها أنفاس الليل المحتقنة بالروائح المتخمرة والدخان والغبش المتكاثف، يبددها، على مهل، الايقاع الرتيب للنسائم الباردة، وتهادي السيارات الآتية من دوار محطة الحجاز، وحركة المارّة المتمهلة. تنعشها الأصوات المتباعدة لرفع أغلاق المحلات؛ بائع العصير، يرتب على المصطبة أكوام التفاح والبرتقال، ويعلق أقراط الموز، شرطي السير عند المنصف يلوح بيده، العرضحالجية يفردون طاولاتهم وكراسيهم على الرصيف؛ حياة تمضي على أحسن وجه.

قد يعكر صفو هذا الصباح اشتباك بين مسلحين ودورية للأمن يخلف قتلى وجرحى ودماء، أو تفجير سيارة في شارع قريب، أو سوق مزدحم بالناس. توقع الخطر يشل الحياة أحياناً، غير أن الحياة أقوى، أو هذا ما كنت آمله.

لم يفارقني الشعور بالخطر منذ مغادرتي حماه قبل ثلاث سنوات، حملته معي من مدينتي، وإذا كان تضخم، فلأنني أصبحت بعيداً عن العائلة، لم تكن معي سوى زوجتي. في العام الماضي،

بلغ بي الشعور بعدم الأمان أقصاه. ما خلّف في داخلي حاجزاً إزاء دمشق المدينة التي تقت للعيش والعمل فيها. بعدما تحققت أمنيتي، رغبت في مغادرتها. تبدو لي خلاف ما ألفته فيها، باهتة وموحشة. لا أجهل أن العطب فيَّ وليس فيها. ما دمت قلقاً، فما يقع عليه بصري أراه باهتاً.

دمشق تغيرت، على غير ما عرفتها ودودة وهادئة؛ الحواجز الاسمنتية اخترقتها وانتشرت أمام دوائر الدولة ومؤسساتها، دوريات الأمن تستوقف المارة، تطلب هوياتهم الشخصية، تفتش وتعتقل أي شخص يثير مظهرُه الريبة؛ اللحية والسبحة والصلاة والاستعانة بالله من المظاهر المريبة. قانون الطوارئ يسمح للدوريات بدخول المساجد واعتقال من تشتبه به. احتياطات استدعتها اغتيالات طالت شخصيات مهمة، وتطلبت تشديد الحراسات على بيوت المسؤولين الكبار، ومنهم حزبيون بعثيون وضباط في الجيش ورجال مقربون من السلطة. الحملات الأمنية تنقض على الأحياء تبحث عن المطلوبين من جماعة الإخوان المسلمين.

هذه هي الحياة التي تمضي على أحسن وجه.

لا يمنحني عملي قاضياً في القصر العدلي امتيازاً عن غيري ما دمت لست بعثياً، فاطلاعي محدود على ما يجري. أتسقط، مثل غيري، أخباراً تقارب الرواية الرسمية عن معارك تدور بين الجيش والإرهابيين الإسلاميين تعلن عنها رسمياً وكالة سانا بعد يوم أو يومين، منقوصة كالمعتاد، فالتشديد على عدم تسريب المعلومات، إلا بقدر ضئيل ومحسوب، كان النهج المعمول به.

أما ما كان يتردد همساً بين الناس عن ممارسات وحشية في أرياف الشمال، فمرعب ومشوش، الجنود يدهمون البيوت ويعتقلون الرجال والنساء والأطفال، ويُنكل بهم دونما تمييز، من قلع الأظافر وقطع الأصابع إلى سمل العيون والحرق بالأسيد ودفن الجرحى أحياء.. وأقاويل عما يدعى «كتيبة الذبح» تقتل، دون سؤال أو جواب، كل من تصادفه أثناء المداهمات، و«كتيبة التعذيب» تستجوب المشبوهين وتذيقهم الويلات. الكثير من الأبرياء حصدتهم الرشاشات، أو اختفوا ولم يظهر لهم أثر.

أعرف منشأ مخاوفي، لم يكن مما يمكن أن يلحق بي من أذى في دمشق، بل مما يدور بعيداً في حماه، تراودني عنها توقعات مفزعة. حماه ليست بخير، وأنا لست بخير. لم أكن متعلقاً بها مثلما أنا الآن. يدهمني إحساس أنني بدأت أفقدها، ولا أرغب في استبدالها بأخرى.

ما يلحّ عليّ من هواجس كان بخصوص عائلتي، أبي وأخي وزوجته وأولاده، ليس أنني أصبحت متطيراً، الأخبار السيئة لا تكف عن التوارد. حماه محاصرة، معزولة عن العالم، قوات الجيش ضربت حولها طوقاً من الدبابات والمدرعات، لا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج منها. الكهرباء والاتصالات الهاتفية قُطعت عن أجزاء منها، طالت بيت العائلة في الكيلانية.

استوقفني الحاجز العسكري قبل وصولي إلى مشارف حماه، كانت مدينتي مغلقة في وجهي. أمرني الجنود المرابطون بالرجوع. رجوت الضابط المسؤول السماح لي بالدخول ساعة واحدة لأطمئن إلى أهلي. لم يقبل أية حجة، طردني بفظاظة وهددني بإطلاق الرصاص عليّ في حال لم أغادر فوراً.

عند الحاجز، سمعت أصوات انفجارات ورأيت أعمدة الدخان تتصاعد في الفضاء. أحياء منطقة الحاضر تقصف بالمدافع وراجمات الصواريخ. في الأخبار الرسمية، الجيش السوري الباسل ينظف حماه من عصابات الإخوان المسلمين. التعتيم يكاد يكون شاملاً، والنزر اليسير مما تسرب منها كان مروعاً. كلما خطرت لي حماه، أتخيلها مدينة غارقة في الظلام.

دمشق أوائل شهر آذار. الشمس ساطعة مع لسعة قارصة من البرد. بدايات الربيع هلّت بشائرها مبكرة قبل أوانها، زهر الليمون فاحت روائحه، شقائق النعمان تزهو بألوانها الحمراء الفاقعة، العرائش الخضراء تسلقت جدران السور الحجري، وتدلت إلى الشارع. استبشرتُ خيراً، لم أدرِ أن هذا اليوم سيكون فاصلة رهيبة في حياتي.

ترافق المنظر الذي أطللت عليه من الشرفة على حديقة جيراننا مع رنين الجرس. أمام الباب طالعني شاب في نحو الخامسة والثلاثين من عمره برفقته زوجته الشابة، وكانت تحمل بين يديها لفافة من القماش. تلكأ الشاب في الكلام، وبدت امرأته بوجهها الناعم الحزين خائفة،

على وشك البكاء، كأنها لو فتحت فمها سيخرج منه صوت عويل. توجست منهما قبل أن يتكلم أحدهما، وتمنيت أن يكونا أخطأا الباب. وإذ حانت نظرة مني إلى اللفافة بين ساعديها، كانت قد انفرجت عن وجه طفل رضيع مغمض العينين بسكينة. عرفته لحظة وقع بصري عليه. كان ابن أخي. أيقنت أنني سأسمع الخبر الأقسى في حياتي.

استرعت ردة فعلي المتوفزة نظر الشاب، فتلكأ ولم يتفوه بكلمة، مددت يديّ وأخذت اللفافة منها. فتح الرضيع عينيه العسليتين وأغمضهما، وهج الشمس ضايقه. كنا لا نزال أمام الباب، فدعوتهما إلى الداخل. لم أتجرأ على سؤالهما. انتظاري لم يطل، تحامل الشاب وقال مغمغماً بصوت مختلج، إن امرأة عجوزاً وجدته حياً بين بضعة قتلى في حي الكيلانية على مقربة من منازل أغلبها كان ركاماً.

أطرقت برأسي أرضاً ولم أنبس بكلمة، كان علي أن أستوعب صدمة لا طاقة لي بها. لم أدر أين شردت في تلك السويعات المقتطعة من زمن فقدت الاحساس به، لم أكن بوعيي، عشرات الخواطر المرعبة مرت كالبرق في ذهني، لم أستوقف واحداً منها. أعادتني زوجته والدموع في عينيها إلى صوابي عندما ناولتني رضاعة بلاستيكية وعلبة حليب مجفف، كانت غذاء الطفل خلال طريقهما إلى دمشق، فقد امتنع عن الرضاعة من أي امرأة؛ الثدي الذي اعتاد عليه غاب عنه.

لم أشكّ لحظة أن الصبي هو حازم ابن أخي، لم أنس ملامحه، أكد يقيني السلسال الذهبي الرفيع حول عنقه ذو القلادة الصغيرة المكتوب عليها «ما شاء الله» وحُفر على خلفها اسمه؛ كل ولد من أولاد أخي يحمل مثلها. لم أخطئه، مع أن ملامح الرضّع تتشابه. ورث الطفل تقاطيع وجه أبيه وعيني أمه. في منتصف شهر أيلول من العام الماضي عقب ولادته، سافرتُ مع زوجتي وباركنا لهما بالوليد، كان ولدهما الرابع، هذا الذي بين يديَّ. ثم زرت حماه قبل شهرين، وقضيت وقتاً طيباً معهم. بعد شهر، انقطعت أخبارهم عني.

تعثرت الكلمات في فمي، والدموع احترقت في عينيَّ، لا يحتاج فهم ما جرى إلى دليل أو شرح، إذا كانت العجوز انتشلته من بين الأموات، فأبي وأخي وزوجته وأولاده كانوا هم الأموات.

سمعت صوت حركة من الداخل، كانت زوجتي تتنصت، اندفعت نحوها وأعطيتها الصبي، أخذته مني وانفجرت بالبكاء.

تشارك الشاب وزوجته في رواية قصة عجيبة ومفجعة. امرأة عجوز انتشلت الصبي الرضيع حياً من حضن أمه الميتة، ونجت بأعجوبة من الرصاص الذي لاحقها. اجتازت الخنادق والأسلاك الشائكة والجنود والدبابات، وتمكنت من الخروج به من حصار يعجز عصفور عن اختراقه. تابعت العجوز السير بحملها مشياً على الأقدام، تصحو وتغفو، لا تعرف الليل من النهار، تسعى للوصول إلى حمص. على الطريق تبرع الرعاة بالحليب للطفل. بعد ثلاثة أيام، وصلت منهكة من التعب. باتت ليلتها في جامع سيدي خالد، وكان يعج بالكثيرين غيرها من الهاربين من الدمار الذي عصف بمدينتهم، ولم يقصر أهالي حمص في مساعدتهم.

اعتقدت العجوز أن الله مدّ في عمرها لتصل إلى جامع سيدي خالد، وتوقعت قبل أن تغمض عينيها مساء ألا تشرق عليها شمس الغد. كانت خائفة من أن تمتد بها الحياة بضعة أيام. صلّت العشاء، ودعت الله رب العزة والجلالة، أن يستجيب لها، رجته أن يأخذ روحها فقد زهقت من الحياة، أمراضها أتعبتها، ولا تتوق إلى المزيد من العيش لما شاهدته من أهوال. كانت رغبتها في مغادرة الحياة عارمة حتى أن صوتها علا بالبكاء، وكان الناجون مثلها يسمعونها ويشهقون معها بالبكاء. أوصت الذين حولها بالطفل، وقالت لهم إن اسمه حازم وأباه الطبيب عدنان الراجي، وأن عمه سليم الراجي قاض في القصر العدلي بدمشق. صباحاً عرفوا بموتها مع مناغاة الرضيع.

تذكرتُها، كانت أم محمد جارة أخي.

أودعت الرضيع في عهدة إمام الجامع ليلاً، وأسلمت الروح صباحاً مطمئنة. ظهراً، بعدما غسّلوها وكفنوها وصلّوا عليها، تنبهوا إلى الرضيع الجائع، فكفله الشيخ عبد الباري ريثما يفي بوعده لها، وكان قد قضى مع العجوز شطراً من الليل يستفسر منها عما جرى معها.

في اليوم التالي، تنادى أهل الخير لاحتضان الطفل، لكن الشيخ عبد الباري قال لهم عمه أولى

به. تطوع شاب متزوج حديثاً يعمل في المحافظة لإيصاله إليّ، اصطحب زوجته الشابة وجاءا إلى دمشق، باتا في الفندق، صباحاً سألا عني، واستدلا إلى عنواني.

كان هذا قبل نحو ثلاثين عاماً.

١

نزل الضابط من سيارة الجيب. كان برتبة نقيب يرتدي سترة عسكرية سميكة مفتوحة الأزرار، ظهر من تحتها المسدس متدلياً على خصره. رفع بصره إلى الأعلى، الغيوم الرمادية تتسارع على صفحة سماء باهتة الزرقة. توقع أن تمطر. التفت إلى السائق وأمره بانتظاره. لن يبقى طويلاً في المدرسة.

تقدم نحو البوابة الحديدية بعدما رسم على وجهه أمارات لامبالاة باردة، أسبغت على ملامحه جموداً يوحي بلاتعبير صلد، مزيج من التحجر والقرف. كان المظهر المثالي للضباط يمنح انطباعاً لا يشجع على التقرب إليهم، يفرض على الآخرين حاجزاً من الاحترام والرهبة. كان من الضعف أن يتيح النقيب لأحد تكهن ما يدور في دخيلته، القسوة أفضل ما ينم عنه.

قبل أن يصل إلى البوابة الحديدية، تأهب جنديا الحراسة ووقفا باستعداد، كانا بملابس الميدان الكاملة. سأل الجندي الأول عن الملازم أول سعد. أشار الجندي بيده إلى بناء أبيض ضخم باهت اللون، يحتل مساحة واسعة بجانب باحة المدرسة، يتميز بواجهة من عدة درجات وشرفة واسعة.

«الغرفة الأولى إلى اليمين».

بعد دخول الجيش إلى حماه، استولت عناصر المتطوعين من الكتائب الحزبية المسلحة على المدرسة الإعدادية للبنين، وحولت قاعاتها إلى مركز انطلاق حملاتهم الداعمة للجيش، تقوم بإرشاد الجنود إلى منازل الأهالي المؤيدين للمتمردين الإسلاميين، ربما كانوا مختبئين لديهم، كان العقاب يطال الجميع.

بعد انتهاء القتال بوشر بتطهير حماه، فأخليت المدرسة من الكتائب المسلحة، وألحقوا بمراكز الحزب عملاً بالأمر القاضي بتخصيص المدارس مركزاً مؤقتاً لتجميع المعتقلين ريثما يتم ترحيلهم أو إطلاق سراحهم. وكلف بالحراسة فصيل من عناصر سرية قيادة اللواء ٤٢ ميكانيكي التابع للفرقة الثالثة.

تجاوز النقيب البوابة بخطى متمهلة واتخذ طريقه نحو البناء الأبيض، لاحظ في الباحة مجموعات متفرقة من الأهالي تلفلفوا بملابسهم، بعضهم بالبيجامات، جالسين القرفصاء، النساء افترشن الأرض، واستندن إلى الجدران وقد احتضنّ أطفالهن. على مقربة منهن جنديان، الأول لفحة حول عنقه، تدلى من كتفه رشاش، يتمشى ذهاباً وإياباً، ويدخّن بشراهة. والثاني نصف نائم، تقوقع على الأرض معانقاً رشاشه، الشمس سربلته بأشعتها مع بدء تسللها من بين الغيوم الرمادية.

لم يستغرب النقيب وجود عدد كبير من النساء والأطفال، الاعتقالات كيفما اتفق، أغلبهم نازحون من الأحياء المهدمة. تابع سيره من دون أن يدقق النظر إليهم، النساء لاحقنه بنظرات ساهمة. صعد الدرج الحجري، اجتاز الشرفة الفسيحة، فالمدخل المؤدي إلى مكاتب الإدارة وقاعات التدريس.

بدأت العمليات القتالية قبل نحو ثلاثة أسابيع على عدة محاور، سبقها قصف بالمدفعية الثقيلة على الأحياء القديمة من المدينة، وحصار من جميع الجهات لمنع المقاتلين المعتصمين في الداخل من الفرار، تلاه قصف مركز على أوكارهم وبؤر تمركزهم، مهّد لاقتحام الدبابات والمدرعات، على رأسهم جنود القوات الخاصة وسرايا الدفاع. باشروا عمليات تمشيط واسعة النطاق، فتشوا البيوت والمساجد والمزارات والقبور والأسواق والأقبية والملاجئ، واشتبكوا في حرب شوارع مع المسلحين.

كان النقيب سليمان يحمل أمراً بتزويده بجنديين مسلحين يرافقانه في جولته بأحياء البارودية والكيلانية والزنبقي. كانت المهمة تفقّد بيوت مازالت قائمة لم تصب إصابات مباشرة، والعمل على إخلائها من السكان تمهيداً لتفجيرها. لم يكن ضابطاً في الوحدات القتالية، اضطر طوال

الحملة إلى البقاء في خيمته مشرفاً على إمدادات الذخيرة والسلاح، لكنه خرق التعليمات.

طلب النقيب أكثر من مرة تكليفه بأية مهمة قتالية ميدانية. لم يستغن عنه رئيسه المقدم، وإن أرسله بجولة في وضح النهار مستقلاً مصفحة محروسة جيداً لئلا تصيبه قذيفة بالخطأ من قوات الجيش، كان الرمي كثيفاً. اهتم المقدم بالمحافظة على حياة النقيب، الذي نجح مرتين في الإفلات من مراقبته، وتجول في المناطق التي سيطر عليها الجيش. وعده المقدم بتلبية طلبه القتالي عندما تخف الاشتباكات، آخذاً بالاعتبار أن النقيب من الضباط المكروهين في اللواء، سيظنون أنه أرسله متعمداً إلى حتفه، إذ ما علاقة ضابط في الشؤون الادارية بجبهات القتال، ولو كان ضابط أمن اللواء؟

البارحة تفقد المقدم إمدادات الطعام والذخيرة، كان التفقد شكلياً، معاونه النقيب لا يعاونه إلا مضطراً، وبقدر محدود. مهماته الأمنية تشغله عن ممارسة مسؤولياته الادارية. كان المقدم يتعامل معه بأسلوب أخوي لئلا يصطدم معه، فاحترم النقيب أقدميته.

أرضاه المقدم بجولة ثانية، واشترط أن يرافقه جنديان من الفصيل المرابط في المدرسة متمنياً له أن يحالفه الحظ باشتباك مع فلول الفارين. لم يتكهن، لن تكون جولة النقيب أكثر من مشوار آمن يتيح له رؤية ساحات معارك سمع عنها ولم يخضها، والتعرف إلى ما تبقى من معالم أحياء حماه القديمة التي دار فيها القتال. لن يغنم سوى بعض الذكريات، لا ضرورة أن تكون مما جرى معه، بوسعه الاستعانة بذكريات الآخرين، لديه فكرة عنها، بإمكانه خلط هذه بهذه، وتركيب بضعة حوادث توحي بأنه خاض معارك، وتعرض إلى أخطارها، وأبلى في القتال، لن يصدق أحد أنه لم يحارب ولم يخاطر.

عزم الملازم سعد لحظة ظهور النقيب سليمان على استغلال مجيئه للتقرب إليه، لم يكن في نيته تجاهل حاجز الأقدمية، كان متلهفاً لعقد أواصر الصداقة مع النقيب ضابط أمن اللواء الذي يتصيد مخالفات تافهة ويحيلها إلى استهتار بأمن الجيش، يسطر تقارير بالضباط الأعلى منه رتبة، أما الأدنى منه رتبة، فلا يتنازل لمخاطبتهم، وإن استحقوا تقارير تؤخر ترفيعهم.

أمل الملازم أن يساعده توثيق التعارف بينهما، بدلاً من السلام الجاف، على تجنب شهادة سيئة بحقه، ريثما تصدر لوائح الترفيع التالية. كانت حالة الطقس والبرد والوحل والمطر تسمح له بالتبسط معه، فأشار إلى الطقس المتقلب، ودعاه إلى كأس من الشاي الساخن ريثما يستعد الجنديان للذهاب معه. لكن عاكسته حالة الطقس التي تحسنت، كما بدا من النافذة.

تجاهل النقيب دعوته، مثلما لم يلتفت لشكواه من الطقس، كانت أشعة الشمس توالي شق صفحة السماء بتؤدة. أعلن عن رغبته في التشمس خارجاً. تمشى نحو الشرفة، وأطل على باحة المدرسة، شملها بنظرة نصف دائرية، لمح بين المحتجزين رجالاً كباراً في السن انتحوا إلى حيث ألقت الشمس بأشعتها.

لحق به الملازم ووقف إلى جواره، جرب أن يعاود الكرة بحديث آخر:

«عمليات التمشيط أوشكت على الانتهاء».

«إن لم تكن هناك جولات قتال أخرى» عقّب النقيب بثقة العارف.

أتى الملازم بحركة من رأسه وقلب شفته، لم يكن متأكداً. تساءل النقيب وعيناه مثبتتان على الأهالي، كانوا يتهامسون بأصوات منخفضة وهم يهزون برؤوسهم:

«ما الذي يتمتمون به؟».

«يتلون القرآن، سورة يسين».

«لماذا سورة يسين؟».

«لتخفف عذاب القبر عن أمواتهم».

«ليس هناك قبور، العسكر يحرقون المعتقلين».

كان الضباط يتباهون بعدم استعمالهم الأساليب التقليدية في القتل. يأمرون الجنود بإشعال النار

في ملابس المعتقلين ولحاهم، ويضحكون عليهم وهم يتقافزون يحاولون إطفاءها، ثم يتبارون في التصويب عليهم بمسدساتهم.

تردد الملازم، خشي أن ينتقد عملهم، الاشادة به مضمونة. تذكر حادثة لا تخلو من تنويع طريف، ستعجب النقيب، عن الضابط الذي اقتاد شيخاً من الملجأ القريب إلى سوق الحدادين، قال له، جرب أن تنقذ نفسك قبل أن نضعك في النار. امتحن ربك، هل سينجدك؟ فتلا الشيخ آيات من القرآن، عسى أن يجد الله له مخرجاً بينما كان الجنود يسكبون عليه المازوت ويحرقونه؛ الله لم يجد له مخرجاً.

أردف الملازم الحادثة بتبرير جاد:

«تعرف، التسالي تكاد تكون معدومة».

ابتسم النقيب، مع أن ما ظهر على وجهه ليس أكثر من استحسان ضئيل لهذا النوع من القتل، حاول التقليل من شأنه:

«إنها عملية لا يقيض لها أن تكون مسلية، تستهلك وقتاً طويلاً، وتنشر رائحة شواء مقززة».

لم يعترض النقيب على الحرق، إلا من ناحية أنه لا يوفر التسلية المرجوة. فزاود الملازم بعملية أكبر:

«في الاسبوع الماضي، لم يتعاملوا مع المتمردين فرادى، أخذوا يجمعونهم في دكان، أو مستودع، حسب المساحة والعدد، ويحرقونهم بالجملة، توفيراً للذخيرة. كانوا عندما يرفعون غلق المحل، أو يفتحون باب المستودع، يجدونهم كتلة واحدة سوداء مكومين في زاوية المكان».

النقيب لم يعلق، سمع بحوادث كهذه. أشار إلى الساحة.

«هل سيحرقون هؤلاء؟».

لم يختصر الملازم جوابه؛ الشاحنات صباحاً أخذت دفعة من الرجال والشبان، لنقلهم إلى جهة،

زعم للأهالي عندما سألوه عن وجهتها، عدم معرفتها. في الحقيقة لم يستطع تحديدها، بعد تحول عدد من الأماكن مثل الثكنة، المطار، المحلجة الخماسية، والمنطقة الصناعية ومعامل الغزل والبورسلان، وبعض المدارس إلى معتقلات تابعة للمخابرات العسكرية، والأمن السياسي، وأمن الدولة. لكن هل سيحرقونهم؟ كل شيء وارد.

«ربما أفلتوا النساء والأطفال، وحققوا مع الرجال».

«هل أطلق سراح أحد من الذين رُحّلوا قبل أيام؟».

«لا عودة من جهنم».

جازف بإرسالهم إلى الحرق، قد ترضي جهنمُ النقيب، ولم يأت على ذكر المعتقلات التي فاضت بالمعتقلين، أعدادهم تجاوزت بضعة آلاف، وكانوا في تناقص مستمر، التصفيات غالباً فورية. توخّى الحذر، قد يظنه ينتقد الإعدامات الميدانية، كل كلمة محسوبة عليه.

صباحاً علا نحيب النساء وصراخهن، عندما انتزعوا رجالهم من الباحة، ودفعوهم بأعقاب البنادق إلى الشاحنات. بعد ساعة، تعبن من البكاء، خفتت أصواتهن، وأصبح أنينهن على إيقاع سورة «يسين» أشبه بصفير قطار منهك خارج من نفق مظلم. أما الأطفال المحمرّة عيونهم، فأخذوا يبكون من الجوع، منذ البارحة لم يوزَع عليهم سوى الماء والخبز اليابس.

لفتت أنظارهما امرأة في الثلاثين من عمرها نهضت ملتاثة من مكانها، واندفعت نحو الباب الحديدي للمدرسة تريد الخروج منه، لحقت بها امرأتان، قاومتهن وأفلتت منهن. لم يفلحن في الإمساك بها، أفلح الجندي ذو اللفحة، سدد الرشاش إليها، بينما السيجارة معلقة بطرف فمه، فارتدت على أعقابها تلطم وجهها. انهارت على الأرض، سارعت النسوة وتحلقن حولها. قرفص شيخ إلى جوارها وواساها، أخذت تشكو له. هدأها قليلاً، ثم نهض وتوجه نحو الشرفة.

الشيخ رجا الملازم السماح للمرأة بالخروج، وتعهد أن تعود.

«إلى أين تريد الذهاب؟».

الشيخ توسم في الملازم شيئاً من اللين.

«لترى زوجها وابنها، لم تعرف ما جرى لهما».

بدت المرأة من بعيد في حالة ذهول كامل.

ابتسم النقيب، كأن من تريد رؤيتهم على بعد خطوات منها، المدى مكشوف، السيارات بالكاد تصل إلى المدرسة، والسكون ينقل أصوات طلقات رصاص متقطعة.

«لن تجدهم. الجرافات بدأت عملها صباحاً، الأحياء التي جاؤوا منها نظفت وسويت بالأرض».

استعطف الشيخ الملازم، المرأة عندما غادرت البيت مع زوجها وابنها في البكور، نسيت أن تأخذ الطاقية الصوفية لابنها، فرجعت إلى البيت لتأتي بها. عندما ارتدت عائدة إليهما، أدركتهما على الأرض والدماء تسيح تحتهما. مرت فوق جثتيهما، الرصاص المنهمر منعها من الوقوف، إلى أن ضبطتها دورية اقتادتها إلى المدرسة.

«تعتقد المسكينة أن زوجها وابنها كانا جرحى، تريد أن تتأكد».

«لولا أنها محظوظة، لكانت قتيلة إلى جوارهما».

«لا تطلب الكثير، توديعهما فقط».

كانت المرأة قد نهضت من مكانها وسارعت واقفة إلى جوار الشيخ، وسمعت ما قاله لهما، فانفجرت بالبكاء:

«أريد دفنهما».

أدركها العسكري، شدها من كتفها ووضع فوهة الرشاش في ظهرها، وأعادها إلى حيث

النسوة.

أبدى الملازم عجزه للشيخ:

«الجرافات جرفتهما سواء كانوا أحياء أو أمواتاً».

ألح الشيخ يستحث لديه مشاعر الرحمة. أدار الملازم وجهه عنه، وصرفه بإشارة من يده، حتى القليل من الشفقة لا محل لها، النقيب لا يرحم، سيفسر السماح لها بتوديعهما، أو حتى بدفنهما، على محمل التعاون مع الإرهابيين. بقي الشيخ واقفاً مطأطئاً برأسه مثل متسول يستجدي صدقة، نحيلاً، لحيته مشعثة، جلبابه يصطفق على عظام صدره البارزة، تمتم:

«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

لم يزح النقيب عينيه عن الأهالي، هؤلاء إذا عاشوا سيبكون كثيراً، لن يعرفوا الهناء، فقط الخوف والحزن لسنوات طويلة آتية. هذا ما جنوه على أنفسهم. آووا الإرهابيين في بيوتهم، وأطعموهم وسقوهم. حول بصره إلى الشيخ، حتى هذا الشيخ الفاني الذي يستنهض انسانية الملازم، اعتاد على أكاذيب كثيرة، سمع بالرحمة وصدق ما يقال عنها، حان الوقت كي يتعرف إليها، سيفتقدها كثيراً قبل أن يموت. لابد رأى في الأسابيع الماضية العديد من معارفه وجيرانه قتلى وجرحى في هذا الخراب، هل أسعفتهم الإنسانية؟ لا الله ولا الأدعية خففت عنهم. لو أن الشيخ محظوظ، للاقى حتفه في تفجير، أو تبادل إطلاق نيران، المصادفة وحدها تركته حياً، إذا طال به العمر بضعة أيام أو أشهر، فلن تفوته رؤية هذا القبر الكبير الذي سيفارقه، إنه بحجم مدينة، ليست سوى مدفن يضم أمواتاً دماؤهم جفّت واسودّت، ومصابين نزفوا حتى النزع الأخير، وجثثاً منتفخة ومتفسخة. ما عاناه حتى الآن، عينة لا أكثر. إذا بقي من عمره مشوار أخير، فسوف تصحبه مناظره إلى العالم الآخر.

لن يقول له كي يكف عن السؤال والرجاء، إنه ذاهب الآن بمهمة، لو صادفه زوج المرأة وابنها جرحى لن يعطيهما شربة ماء، سيتركهما يتابعان موتهما.

الإنسانية، مثل الرحمة، قصة طويلة لا رجاء منها، تصلح للّغو فقط، ولا توفر الألم.

نبهه قدوم الجنديين إلى أن الوقت آذن بالمغادرة.

٢

شقت سيارة الجيب طريقها في أرض خلاء، نزلت في منحدر قاس، ثم صعدت بصعوبة. لاحت من بعيد ساحة تكدست فيها أكوام الأتربة والحجارة، وتفرعت عنها أزقة ضيقة ومتعرجة تظللها سحابة من الغبار الأسود، الأطلال متفحمة، الهباب يتصاعد ويتبدد في الفضاء، سرعان ما تضخ فيه النيران المشتعلة المزيد من الدخان، كثافة السواد لا تحجب مروحية تحوم في السماء.

المجنزرات سبقت النقيب، واخترقت الحارات المهجورة. البيوت لُغِّمت وفجّرت، هياكل أبنية متصدعة، أعمدة اسمنتية عارية، ألواح توتياء، قضبان حديدية، لافتات المحلات مهشمة ومثقوبة. قصف المدفعية خلّف دماراً على الجانبين، وطال المساجد والكنائس والمزارات والقبور والمقامات والحمامات... دبابة معطلة، رسم على مقدمتها علامة الموت: جمجمة وعظمتان.

اقتربت السيارة من سوق لبائعي الجملة، غراب ينعق فوق أكوام أشياء محترقة لا معالم لها، صناديق البضائع الفارغة مشلوحة على الأطراف، الدكاكين منهوبة، محطمة أبوابها ومخلعة أغلاقها. سيارة جيب وشاحنة زيل، يرافقهما ضابط يحث الجنود على الإسراع بتحميل البضائع في الشاحنة. هناك من كانوا أوفر حظاً منه في سوق الصاغة، ظفروا بالذهب والمجوهرات، حماه مدينة غنية.

تخيل النقيب أن اللحظة مواتية ليظهر شاب ملتح، يشهر بندقيته ويطلق الرصاص، ستكون سيارته العابرة على مهل هدفاً سهلاً له. وضع يده على الساموبال التشيكي، وباليد الأخرى تحسس المسدس. في كل شبر توقع لمعركة طاحنة. لكنه جاء متأخراً بعدما انتهت المعارك.

مرت الجيب أمام حاجز عسكري، وقف الجنود باستعداد وحيّوه. تناهت إلى سمعه صلية رشاش، لم يأبهوا بها، رفاقهم تمترسوا وراء أكياس الرمل وفوق الأسطح، وخلف رشاشاتهم في

العربات المدرعة. لا مخلوق يمشي على قدميه، سوى بعض الجنود يجرون جثث القتلى المتفسخة من أرجلها، تفوح منها روائح كريهة.

اقترب الضابط المسؤول عن الحاجز، أدى له التحية؛ القطاع آمن جداً، غير مسموح للأهالي بالخروج من المنازل، ولو للحصول على خبز أو طعام أو وقود، القناصة بالمرصاد، منعاً للالتباس، لا يستثنى الأطفال والنساء.

أحس بالبرد مع هبوب الريح، وانسحاب الشمس، وانتشار الغيوم الرمادية. أحكم أزرار سترته، الزمهرير يلوّن الفضاء، ينذر بعاصفة تكنس روائح النفايات وزنخ الدم الأسود وتخمرات الجثث المنتفخة. تابعت السيارة توغلها بين الحارات، لا حارة تتميز عن أخرى، البارودية والكيلانية والزنبقي، بيوتها ودكاكينها ومساجدها تداعت أنقاضاً. المنظر اللافت؛ مئذنة أصيبت إصابة مباشرة، وسقطت متكئة على كوم أحجار بين بقايا معالم تناثرت محطمة. الخراب أصبح مرتعاً للقطط الجائعة والكلاب الشاردة، لا تجد ما تأكله، تسرح بين القمامة المتعفنة المتراكمة منذ أسابيع.

في حي الكيلانية، سمع تفجير عبوة ناسفة، أعقبه صوت بلدوزر، الجنود بعيداً على الطرف المقابل يزيلون ما تهدم. العمل جار على ردم الزاوية الكيلانية، حيث كان الأهالي يدفنون موتاهم. ركام على مد النظر، رذاذ المطر بدأ بالتساقط.

تابعت السيارة طريقها، أصوات الجرافات خفتت. توقفت السيارة عند منعطف زقاق جانبي ضيق، كان مسدوداً بالأتربة. تميز على طرفه مسجداً اقتلعت قذيفة قاعدة ميضأته، المياه تسيل من المواسير على الأرض، قذيفة أخرى أحدثت فجوة كبيرة في جداره الجانبي، لم يبق من المئذنة إلا بضعة أحجار. على الجانب المقابل، انهارت سلسلة من البيوت المتداخلة، وتداعت أرضاً؛ واجهات مزخرفة، تيجان كانت تزين الأعمدة الرخامية، الحجر الأبلق، والفسيفساء الملون... لم يبق سوى جدران مهشمة.

من نافذة عربة الجيب، لمح ظلاً انسحب إلى داخل منزل محاذ للجامع، انكشفت غرفه الداخلية

العلوية، الغرف التحتانية ما زالت على حالها، محمية بجدار من الحجر، تصلح مخبأ للإرهابيين. نزل من السيارة حاملاً الساموبال. على الأرض تبعثرت أبواب خشبية، شرفات محطمة، مقرنصات، أقواس ملونة، شمسيات جصية... وتدلت أشرطة الكهرباء والهاتف من الأعمدة المائلة. أشار للجنديين بيده، فنزلا من السيارة، الأول يحمل آر بى جي، والثاني كلاشنكوف، كلاهما اتخذا وضعية الرامي جاثياً.

تناول مكبر الصوت وأطلق تحذيراً هدد ساكنيه بالخروج رافعي الأيدي، وإلا فجّره فوق رؤوسهم.. فظهروا من فجوة مظلمة تحت الأرض. كانوا مختبئين في القبو، غادروه الواحد تلو الآخر، الجد، الأب، والأم يتبعها أولادها الثلاثة، بنتان وصبي، رفعوا أيديهم عالياً، يرتعدون، الهواء البارد يلفحهم. أسبل الأولاد أيديهم، ثم عقدوها حول صدورهم، وأخفوا أكفهم تحت آباطهم طلباً للدفء. الأم لم ترفع يديها، كاد أن يصرخ يأمرها بالامتثال لأمره، انتبه إلى أنها تحمل بين يديها لفافة، بدا منها رأس رضيع. طلب من الجنديين دخول البيت وتفتيشه. لم يطل الوقت، لا أحد في الداخل.

اصطخب شيء في السكون. لا، كان الصخب في رأسه. نظراتهم المذعورة مسلطة عليه، عبقت في داخله مشاعر غامضة، انتفخ صدره بها، لم يستطع احتواءها، تشبثت به، أراد أن يخلو إليها. لم يتيقن منها، كانت قد عصفت به.

حدق إليهم، الجد في نحو السبعين من عمره، بينما الأب لم يبلغ الاربعين، تقاطيع وجهه رقيقة، ممتلئ الجسم، يبدو من شحوبه أنه فقد بعضاً من وزنه، ربما كان موظفاً. تفحصه، بدا رابط الجأش، وإن ظهر القلق على ملامحه. زوجته التي ارتدت سترته الجلدية، غطت بطرفيها الرضيع، كانت أكثر صلابة منه. ضايقه منظر الجد الذي رفع يديه النحيلتين. أشفق عليه، بدا بنحوله وعوده الأعجف أن نسمة هواء قد تهوي به أرضاً. طلب من الجد والأب أن يرخيا أيديهما. لم يقرر شيئاً بشأنهما، سوى أنه لن يرسلهما إلى المدرسة مركز تجميع الأهالي، سيتصرف هو بهم، الأوامر ما زالت سارية؛ حالة قتال، رغم انتهاء القتال.

«لماذا بقيتم في البيت؟».

تلعثم الأب، لجأوا إلى بيت جيرانهم، لأن بيتهم تهدم، الشوارع مغلقة، لا مكان آخر يأوون إليه. تدخلت الأم، وقالت إن أحداً منهم لم يغادر القبو طوال الأسابيع الماضية. تريد القول إن زوجها كان معهم، ولم يشارك في القتال. تصاعد البخار من أفواه الجد والأم وهما يقسمان الأيمان المغلظة أن لا علاقة لهما بالإرهابيين. التفت نحو الأب وسأله عن عمله.

«طبيب في المستشفى الوطني».

«لابد أنقذتَ الكثيرين من الجرحى».

«لقد عالجتهم».

أعجبه الجواب، المخاتلة واضحة، كان في إنقاذ المقاتلين الإسلاميين عقوبة لا أقل من الإعدام الفوري. أما المعالجة دون تحديد، فتبدو محايدة، وكأنها تختلف عن الإنقاذ، لكنها تحتمل التأويل. مهما كان ما فعله، لم يكن بريئاً. مادام أنه طبيب، الأرجح تصنيفه في خانة الأعداء. أحس بالارتياح، لم يعد ما يخالجه غامضاً.

«لدينا ضابط جريح في حقل الرمي، يلزمه علاج».

«ما به؟».

«أصابته شظية».

التفت نحو الجنديين وأمرهما بمرافقة الطبيب إلى قيادة الفوج ٨٨، ثم إلى حقل الرمي. رافقهما الطبيب صاغراً إلى السيارة، ثم توقف، التفت نحو أبيه وزوجته، وطلب منهما انتظاره في القبو. قبل أن يصعد، سأله النقيب عن اسمه، قال بصوت منخفض، عدنان راجي. لم يسمعه جيداً.

والسيارة تنطلق، تعلقت أبصار الجد والأم والأولاد بالأب.

أنجز النقيب جانباً من المهمة التي بدأت للتو، بإرسال الطبيب إلى من سيتكفلون به، كل من يقبض عليه، يسجل في قلم الفوج، ويحول إلى حقل الرمي. مع هذا أحس بالامتعاض، لقد

أفلته. دافع عن تصرفه، لا لم يفلته، مصيره تحدد، إذا فاتته إعدامات اليوم، فسيعدم غداً. عادة لا يحتفظون في حقل الرمي بالمعتقل أكثر من ساعات.

نظر إليهم، الأطفال يرتعشون من البرد، ماذا لو عرفوا أن أنظارهم لن تقع ثانية على أبيهم؟ طوال حياتهم لن ينسوا منظره وهو يركب سيارة الجيب، سيوفر عليهم هذه الذكرى، لن يجعل حياتهم تطول، هذا إذا... لا، لم يتخذ قراراً بشأنهم بعد. إذا توقف عند هذا الحد، فالفرصة التي اقتنصها بدأ يهدرها، كأنه لم يفعل شيئاً. ما الذي يريده بالضبط؟ لن يتخفى على ما يجول في رأسه، وإن تلمّسه في داخله، شيء لا يرغب في التصريح به. أما وقد حان، فلا داعي للمواربة.

وأصبعه على الزناد، بدأ يتوضح أكثر، كان يجب ألا يدع الطبيب لغيره، المفترض أن يتولى أمره بيديه. لم يحسن التصرف. وما يجب فعله الآن، لا رجعة عنه، ولأنه ترك الأب الطبيب لغيره، صار مندفعاً إلى تنفيذه. لم يرسل السائق والجنديين إلى الفوج إلا ليتصرف على هواه، بلا شهود. لن يتسرع. لديه أكثر من سبب وحجة. الأوامر أطلقوا الرصاص على أي شيء يتحرك، يكفي أن يتحرك أحدهم لكي يجهز عليهم، ولمجرد الشك فقط. يريدونهم أمواتاً. الخيار له، ليس لديه الروية ولا الوقت، ولا بوسعه الانتظار. التعليمات واضحة بشأنهم؛ كما أنها مفتوحة، المحبذ إعدام عائلات بأكملها، لا انتقاء أفراد منها. إذا قتل الجد سينقلب المكان إلى مناحة، يشارك فيها الأولاد، وربما جنّت الأم وملأت الفضاء عويلاً.

لن يمعن التفكير، قد يفوّت فرصة أخرى، لن يحظى بها أبداً بمثل هذه البساطة والسهولة. لم يكن توقه العارم إلى إطلاق الرصاص قابلاً للتفسير في هذه العجالة، سوى أنها ينبغي أن تتم بسرعة، ومن دون تلكؤ. كانت البرهان لنفسه لا لأي شخص، على أنه غير عاجز عن القتل، الشفقة لا تحبط هذه الرغبة، بل تضايقه، وكأنه يحتاج لمبرر يفوق الكراهية العمياء، كراهية بلا حدود، مع أنه لا يكرههم فعلاً، كما أنهم لا يأتون بأدنى حركة تسّوغ قتلهم، وهو سبب لكي لا يعفو عنهم. لن يحفل بجميع الموانع، ولن يستدعي الأسباب. إذا لم يجهز عليهم، حقد على نفسه. لن يدعهم عثرة أمام تحقيق رغبة باتت عارمة؛ قتل عائلة بكاملها، ولو كانت تنقص واحداً؛ لا ضير، الأب أمسى في حكم الميت.

والريح تتراخى وتخفت إلى حد التلاشي، بات السكون مثقلاً بوقفتهم البائسة، عيونهم الجاحظة تتضرع إليه، يهيبون به أن يدعهم، تواقتت مع رغبته بإزاحتهم عن مرمى بصره بسرعة، لكن لا بأس في التأني، كانوا بمتناوله، والمنظر مواتٍ لاستنفاد القتل وجهاً لوجه. الفرصة سانحة، من الحماقة خسرانها بالتساؤلات.

الهدوء المفعم بالصمت، أتاح له ملاحظة تعابير وجوههم. ترى كيف ستكون لحظة تلقي الموت؟ الرعب بدأ يمنح ملامحهم طابعاً غريباً، غرابة الموت نفسه، اللحظات التالية، سيشوبها شيء غريزي، لن يزيد عن لمحة خاطفة، لابد أن تكون خارقة، سيتنبه لئلا تفوته. أحس من برودة أعصابه أن العملية كلها، مهما تفاقمت حرارتها، ليست أكثر من مراعاة الدقة في التصويب، لا القدرة على ارتكاب مجزرة صغيرة لا حسيب عليها ولا رقيب، بات من الجبن عدم الإقدام عليها.

نظر إلى موقع قدميه، لا يفصله عنهم سوى قضبان من بقايا بوابة حديدية، وقطع من الرخام المجزع، وعلامات غائرة خطها مرور جنازير الدبابات على التراب، ما الذي سيفقدونه؟ لا بيت لديهم، ولا طعام؛ ثم إنهم يرتجفون من البرد، سيجنبهم البحث عن ملجأ يُدفنون تحت أنقاضه، أو التشرد في البراري والقرى، وفقدان المعيل. يوفر عليهم عذاباتهم وهذا الشتاء القارس. لن يطيل في استعراض أسبابه الكاذبة مع أنها جوهرية. يعرف أنها لا تهمه. لكنه سيتكئ إلى سبب، ليس من الضروري أن يكون حقيقياً؛ إنهم ميتون، جزء من عالم يمضي نحو الفناء، سيحتفظ منه بتذكار.

رفع الرشاش وسدده نحوهم.

تحفزت الأم، نظراتها أوقعت في يقينه أنها حزرت ما سوف يفعله، كاد أن يقول لها ساخراً، قلبك دليلك. لن تنفعها رباطة جأشها، إذ لا وسيلة لإحباط مسعاه، سوى تعمدها ألا يرى الخوف على وجوه صغارها، شدّتهم إليها، تمنعهم من النظر إلى الخلف. أفلحت خلال أقل من لحظة في إبعاد أنظارهم عنه، وباليد الأخرى ضمت الرضيع إلى صدرها، واستدارت تحميه بساعدها.

الصغار التصقوا بأمهم، وجوه الصغيرتين اختفت بين ساقيها. حاول الصبي الالتفات، دفعته نحو جده، فشدّه إليه. استخفّ العجوز بتسديد الضابط رشاشه نحوهم، اعتقد أنه يحاول تخويفهم بتصويبه إليهم، يلهو بإثارة فزع الأطفال. حدق إلى عينيه، يثنيه عن لعبته، فرأى الموت فيهما لا في فوهة الرشاش. فخرج صوته مرتعشاً، تَهتَه يرجوه مهلة ليلقّن الأطفال شهادة أن لا إله إلا الله... ولم ينتظر موافقته، علا الجد بصوته، طالباً من الأطفال الترديد خلفه، فرد سبابته، لا إله إلا...

سارع النقيب وضغط بإصبعه على الزناد. أصلاهم عدة رشقات، انتفض الجد والأم وانفتلا جاحظي الأعين في مكانيهما، جسداهما تشنجا ملتويين، الأيدي ممدودة، والأكف مفتوحة، أخفقا في إبعاد الرصاص عن الأولاد، وتساقطا الواحد تلو الآخر، والأطفال تهاووا أرضاً بلا حراك.

التساؤلات سكنت في رأسه. الجثث هامدة، ولا شاهد سوى الموت الخفيف والسكون العميق، ورياح كانت بلا صوت، تعبث بجلباب الجد وقد انكشفت كعبا قدميه.

تكومت الجثث متماسكة بعضها إلى جوار بعض... الأولاد انكفأوا حول أمهم المحتضنة رضيعها، الجد فاغر فمه، ينظر إلى السماء، يده خلف ظهره، والأخرى تمسك بالصبي، دماؤهم امتزجت في مجرى واحد، وشقت سبيلاً لها بين الأحجار والحصى والنفايات وطلقات الرصاص الفارغة، مخلفة لطخاتها القرمزية على الأجساد النازفة.

السكون ينسحب، والضجيج يتعالى رويداً رويداً، يغلق المدى المفتوح.

أحس بالبرد يخترق عظامه، لكن المنظر كان دافئاً. سمع صوتاً على مقربة منه، اعتقد أنه الصدى الخافت لصوت الرصاص العالق في الهواء. الصوت اخترق الضجيج وأخذ يقترب، لم يأت مع الهواء ولا من الفراغ، كان يتقدم على الأرض. ظن أن السيارة عادت، توضح الصوت؛ دعسات أقدام!! التفت إلى مصدره، امرأة عجوز ظهرت من خلف ركام الأحجار والأتربة، تمشي بخطا متئدة، ساقاها لا تساعدانها، تعثرت وكادت أن تقع، أسندت راحتها إلى جدار

مهشم، وباليد الأخرى اتكأت على سور غير مرئي. توقفت تستريح، أخذت نَفَساً، رمقته بنظرة حادة وتابعت المشي. لدى وصولها إلى الجثث، انحنت على الأم القتيلة المتشبثة يداها بالرضيع، كان يبكي، انتزعته بصعوبة من حضنها، ضمته إلى صدرها، فسكت. مضت بخطوات ثابتة، لم تلتفت نحوه، كانت قد اختطفت الرضيع، وكأنها فازت به.

ابتسم حانقاً، المخبولة، فِعْلتُها سترتد عليها بطلقتين، الأولى تخرق ظهرها، والثانية تثقب رأسها. تابعها ببصره، تمشي الهوينى، جذعها ملفوف بكنزة صوفية مهترئة، الحمل أثقل عليها. منحها لحظات إضافية، لحظات لا أكثر، قبل أن تهوي بحملها أرضاً.

صوّب رشاشه إلى ظهرها الأعجف، رصاصة واحدة تكفي لقتلها مع الرضيع، إذا أصابتها وأخطأته، فسوف تقع فوقه ويموت اختناقاً، أو يتركه للبكاء والجوع والصقيع. استدرك الاحتمالات كلها، لن يدع موته للظروف، جثتها لن تلهيه عن التأكد من موته.

لكنه سها عنها زمناً لم يدر مقداره، لحظة، لحظات، أكثر، أقل... العجوز توارت خلف الدبابة المعطلة عند حاجز الأسلاك الشائكة. لم يهتم، سيلحق بها، ويدركها قبل أن تذهب بعيداً.

تراءى له عندما ارتدّ ببصره عن الدبابة، كأن شيئاً برز من خلف كوم التراب الذي ظهرت منه العجوز، ثمة أحد يراقبه، حدق إليه، رأى رأساً لم يتبين منه سوى الشعر الأسود، اختفى على الفور، كأنه تراءى له وحده. أطلق بضع رصاصات. صوت الخربشة همد، إذا كان هناك أحد ما فهو لم يتحرك من المكان، اقترب من كوم التراب وأطلق النار كالمجنون، سمع صوت دحرجة، أو أن الرصاص أصاب أحجاراً تطايرت منها شظايا، ثم لم يعد يسمع شيئاً.

هرع إلى كوم التراب، التفَّ حوله، لا أحد. الشخص الذي كان مختبئاً، فرّ هارباً.

تذكر العجوز، مهما ابتعدت فليس مسافة كبيرة، سارع نحو الدبابة المعطلة، دار حولها، لم يجدها فواصل الركض لاهثاً. اختفت هي الأخرى. أدركه التعب عند نصب أشبه بشاهدة قبر كُتب عليها: «المظليون مروا من هنا» وتحته سهم يشير إلى سوق يباب لا معالم له، كان أنقاضاً فوق أنقاض. استند بيده إلى النصب، لم يتابع الجري في السوق، كان خالياً. جلس فوق قاعدة

النصب، ثم نهض فجأة، تذكر الأموات. عاد أدراجه يتلمس طريق العودة، سمع صوتاً خلفه، التفت، لاحت سيارة الجيب آتية.

أدى الجنود المهمة، سجل المعتقل في قيادة الفوج ٨٨ ، ثم سلموه إلى العريف المسؤول في موقع حقل الرمي.

أمر السائق ألا يسرع، راقب الطريق، مدّ بصره بعيداً إلى الأمام والجانبين، علّه يصادف العجوز. السيارة تتقدم ببطء، تنعطف حسب أوامره، نحو حارة، أو زقاق. توقع أن يراها. أضاع وقتاً طويلاً وهو يدور ويلف دونما فائدة. عند المفترق، سأله السائق عن وجهته. قال له، تابع إلى المدرسة، قد يجدها هناك بين الأهالي تبحث عن امرأة تتبرع بإرضاع الطفل.

تغير المنظر في الباحة، شاحنتان في الداخل، الملازم سعد يعلو بصوته آمراً الأهالي المصطفّين في رتلين، بالصعود كل منهما إلى شاحنة لنقلهم إلى قرية قريبة. النساء رفضن، سينتظرن عودة رجالهن. صرخ الملازم سعد غاضباً:

«التي لها زوج أو ابن أو أخ أو أب، من الذين رُحِّلوا البارحة، أو أول البارحة، لا تنتظره، اللقاء لن يكون هنا، سيلحقون بكم إلى حيث ستذهبون».

فسكت الجميع.

تفحص النقيب سليمان وجوه النساء والرجال والأطفال، لم تكن العجوز بينهم. اقترب من الملازم وسأله عما وصله من تعليمات.

«لا أحد سيعود من الرجال».

«وهؤلاء؟».

«لا أدري، المركز أغلق».

تجمعوا حول الشاحنتين بصمت؛ النساء يُعِنَّ الشيوخ على الصعود إلى المؤخرة، المرأة التي

تنجح في اعتلاء الشاحنة، تتناول طفل المرأة الواقفة على الأرض، تسلمه لغيرها، ثم تمد يديها ثانية، تمسك برسغيها وتشدها إلى الأعلى.

٣

تسلم العريف كمال المعتقل، لم يستفهم من الجنديين عما فعله، سألهما عمن أرسله. مدّ السائق رأسه من السيارة وهتف، النقيب سليمان ضابط أمن اللواء ٤٢. أعاد النظر إلى المعتقل الذي انتصب بمنتهى البراءة وبلا خوف يفرك كفيه من البرد، كأنه ليس واحداً من عشرات المعتقلين الذين يصلون تباعاً، يلملمهم الجنود من الأحياء كيفما اتفق. المعتاد أن يصِلوا جماعات لا فرادى، ثم يرسلوا فوراً إلى حقل الرمي، دفعة واحدة أو على دفعتين. يتخلصون منهم رمياً بالرصاص بعد الظهر بساعة أو ساعتين، بلا وجبة طعام، لا يدَعونهم يرحلون عطاشاً، يسقونهم القليل من الماء.

التعليمات الجديدة، قبل الإعدام سيواجهون المحكمة الميدانية.

خطر له، إذا كان المعتقل يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن حقل الرمي، فلن يجده بمرمى بصره، حدوده تبدأ بعد الهضبة. سيتعرف إليه بشكل سريع، لن يتسع له الوقت لتأمله، فقط ليغمض عينيه عليه. عدا ذلك لم يحرك الرجل فضوله، وإن استغرب وهو يقترب منه، نظافة ملابسه. قميصه الأزرق المقلم بخطوط فاتحة من اللون نفسه، تظهر منه ياقته منشّاة، والكنزة الصوفية التي حافظت على لونها السكري، ولم تتلوث بالسخام والدم، تشهد أنه انتزع من بيته، لكن رحلته القصيرة التي أوصلته إلى هنا، تركت آثارها لطخات من الطين الجاف على البنطال، وطبعت على وجهه مسحة من الاصفرار. تساءل المعتقل:

«أين الضابط الجريح؟».

لم يفكر العريف بالسؤال، حتى يفكر بالجواب. لم يصحُ تماماً من النوم. تابع المعتقل معرفاً بنفسه:

«أنا الطبيب».

كاد العريف أن يضحك، المعتقل يميز نفسه عن الآخرين، لا يدري أنه سبقه محامون ومهندسون وأطباء من اختصاصات متنوعة. تساءل الطبيب ثانية عن الضابط الجريح.

مادام يبحث عن جريح، فقد تعرض إلى خديعة، ولا يعرف ما ينتظره. يجهل أنه أصبح من عداد الدفعة الجاهزة للمحاكمة. عندما سيعرف، سوف يرهق من حوله بالأسئلة والشكوى. لن يسخر منه؛ هذا الوقت من الضحى، مخادع أيضاً، لا توحي سكينته بما سيعقبه من إجراءات وضجيج.

لوّح العريف بيده للمحرس، منادياً جندي الحراسة؛ خذه إلى المساعد ضرغام، النقيب سليمان أرسله. واستدار إلى خيمته، شحط قدميه نحوها، هناك متسع من الوقت للاسترخاء مع كأسين من المتة وثلاث سجائر طاتلي سرت غليظة.

الجندي الحارس لم يأخذ المعتقل إلى خيمة المساعد ضرغام، قد يكون نائماً. لا ساعة محددة لبدء الدوام، العمل يبدأ مع توافد المعتقلين، هذا لا حساب له. سيُعلم الحاجب بقدومه. وضعه مؤقتاً في المحرس، قبل أن يخرج. سأله المعتقل عن ضابط جريح. قال له، ليس لدينا ضابط ولا جريح.

وصلت جلبة سيارة الجيب الى مسامع المساعد ضرغام، كان قد دخل قبل قليل إلى البراكية، عائداً من حاووظ المياه بعد أن غسل وجهه. مساء علق بطانية على سلك من البلاستيك الثخين ثبت في الزاوية بين الجدارين، وحصل على غرفة نوم معتمة، تحتوي على سرير معدني. المساحة الباقية ستصبح مقر المحكمة الميدانية. وفي الفسحة الأمامية ستعقد هيئة المحكمة جلساتها.

ترك الباب موارباً، ريثما يأتي الحاجب ويشعل مدفأة المازوت. التقط مما تبادله الجنود في الخارج، أنهم جاؤوا بمعتقل أرسله النقيب سليمان. تساءل، ما علاقة النقيب في الوحدة الادارية الملحقة باللواء، بالاعتقالات والمعتقلين؟! مهمته لا تتعدى تدارك النواقص من عتاد وذخيرة. وإن كانت مهماته الأخرى، حسبما يسمع، تفوق بما لا يقاس المهمات القتالية، لا تتوقف على أزمنة القلاقل فقط، بل تطال كل زمان، خاصة الهادئة، كان تعكيرها بالتقارير من أسهل الأمور عليه.

لم يسترسل في خواطره. انهمك بقراءة البرقيات الدورية الواردة وتصنيفها، بعضها يحتاج إلى تعميم لن يُعمل به، أغلبها حول انسحاب الفوج من ظاهر حماه إلى مواقعه الأصلية في الجبهة، لن تنفذ في الوقت المحدد، بل تأجلت. الأَولى بالتنفيذ، البرقية المستعجلة التي وصلت متأخرة حول التحضير للمحكمة الميدانية، ستردهم غداً التعديلات القاضية ببقاء الفوج في موقعه، ريثما تنهي المحكمة أعمالها.

دخل الحاجب يحمل إبريقاً معدنياً للمازوت، وباشر بتعبئة الخزان لتشغيل المدفأة. سمع المساعد حركة، التفت خلفه، لم يكن الحاجب وحده، كان المعتقل معه، واقفاً باعتدال، عيناه تبحثان عن شيء ما في الغرفة، يريد أن يسأله عنه. أدار وجهه عنه صوب المدفأة. لكن سرعان ما ارتد ببصره نحوه. ملامح وجهه لفتت انتباهه، رآه من قبل، أين؟ يشبه أحداً ما، من يكون؟ لم يتذكر، ربما صادفه في حماه. كان دائم التردد عليها خلال الاجازات، يأتي من قريته الدعيبسة القريبة منها إلى سوق الطويل لشراء ما يلزم البيت من حاجيات. في الاجازة الأخيرة تجنبها خشية استهدافه من مقاتلي الاخوان المسلمين.

المعتقل لم يكفَّ عن النظر إليه، بدا على خلاف الآخرين، متوتراً وغير مستكين، كأنه ليس معتقلاً مثلهم، يريد أن يتكلم. كاد أن يحذره ألا يفتح فمه. لكنه تريث، ملامحه الأليفة جعلته يتردد، لم يكن في وجهه ما ينفّر. قد يكون الرجل تذكره، ويريد أن يُسّر إليه بأمر ما، وأحجم لوجود الحاجب إلى جواره. سيصرفه إلى مستودع احتجاز المعتقلين قبل أن يسرد عليه قصة، خلاصتها أنه بريء، لن يصدقها حتى لو دعمها بعشرات الأيمان، ليس لأنه غير بريء، بل لأنه ليس مخولاً بتصديق أي كان. ما الفائدة؟ إذا كان سيرجوه شيئاً، فلن يناله منه. بدلاً من أن يصرفه ، طلب من الحاجب تحضير إبريق شاي. لم يدرِ لماذا أراد الاستماع إليه.

بعد خروج الحاجب، التفت نحوه، كان مستعداً لسماع مشكلته، لن يضيق به، جوابه جاهز؛ لا أستطيع.

فاجأه المعتقل متسائلاً بصوت لم يخل من استغراب عن رجل جريح:

«أي جريح؟».

«أرسلني النقيب كي أعالج ضابطاً جريحاً».

«هل أنت طبيب؟».

أومأ برأسه. عندئذ تذكّره. زاره قبل أقل من عام في عيادته الواقعة في ساحة العاصي مواجهة السرايا. لم ينس اسمه المكتوب على اللافتة: الطبيب عدنان الراجي، داخلية - نسائية - أطفال. قرأه بينما كان يتساءل وحوله أولاده الثلاثة، هل يعرضهم على الطبيب بالجملة، أم يكمل طريقه إلى السوق ليشتري لهم ملابس جديدة؟ عيد الأضحى بعد يومين. لم يكن معه من النقود ما يكفي للطبيب والملابس معاً. أصر الأولاد على الملابس، بينما أصر هو على المعالجة.

عاينهم الطبيب الذي يقف أمامه الآن، وصف للكبير حبوباً مضادة للإسهال، والصغير الذي يشكو من خرير في صدره شراباً ضد الالتهاب وآخر للسعال، والفتاة مسكناً لآلام المعدة. لاحظ الطبيب مأزقه الأبوي من حرد الأولاد ودموعهم ولومهم أباهم لحرمانهم من بهجة العيد، فلم يرض أن يأخذ أجر المعاينة، وكفاه أيضاً شراء الأدوية من الصيدلية، بإعطائه عينات مجانية.

أحرجه تصرفه، فاعتذر عن قبول الأدوية، وألح على تسديد أجور المعاينة. غير أن الطبيب طيّب خاطره، واعتبر المعاينة من أخ لأولاد أخيه. خلّفت أريحيته، ولم تكن متكلفة، أثراً بدد ما يشاع عن كراهية الحمويين للعلويين. في غضون اقل من ربع ساعة، اعتبر الطبيب الأولاد بمثابة أبنائه أيضاً، وأصبحا أخوين، ولو كان بالكلام!! ما كان منه إلا أن سأله أن يتلطف ويقبل هدية منه بعد قطاف الزيتون. أصر الطبيب على عدم تكليف نفسه هذه المشقة، فأصر هو الآخر على الهدية، بداعي الأخوّة أيضاً.

لكن الموسم كان سيئاً، فتأجلت زيارته بضعة أشهر، لا أكثر. ها مرت الأشهر وتلتها أشهر أخرى. لا زيت ولا زيتون، والأسوأ كان آتياً.

تمنى لو يعتذر منه عن عدم وفائه بما وعد به، لكنه تجاهله، لئلا يضطر في حال طالبه بالزيت والزيتون إلى إنكار الواقعة برمّتها. ليته لم يتذكره، ليس بمقدوره مساعدته، حتى لو كانت جريمته لا تتعدى مخالفة حظر التجول، لقاؤهما صادف ظرفاً استثنائياً، المحكمة وحدها ستحسم أمره، ولن يكون لصالحه. النقيب ضحك عليه بقصة الجريح، وأرسله إلى الإعدام.

«لا يوجد جريح، أنت معتقل».

«الجنود نسوا أن يقولوا للعريف لماذا جاءوا بي إلى هنا».

«النقيب يعرف إلى أين أرسلك».

«اتصل به واسأله».

«لا يُرسل إلينا سوى المعتقلين، ولا نستقبل غيرهم».

واجبه يملي عليه أن يبطل أي وهم لديه حول كونه غير معتقل لمجرد أنه ليس متهماً بشيء، لا يعرف أن النقيب لا تعوزه التهم، بوسعه اختلاق أي تهمة لأي شخص، وكان ليخفف عنه، أن يقول له إن أغلب من يأتون بهم لم يرتكبوا شيئاً، التهمة غير مهمة.

لكن والطبيب يحدق إليه، تراءى له أنه عرفه، وتذكر الأخوّة التي ربطت بينهما في العيادة. إذا كان الآن يفكر بمطالبته بدينه الأخوي، فهو لايدري أن الأخوة هنا بلا مفعول، وبالتالي لن يخفي عنه ما ينتظره:

«ستنظر المحكمة في أمرك».

«المحكمة؟!!».

أدرك من صوته المندهش وقد خرج مبحوحاً، أنه خُدع فعلاً. حتى الآن لم يستغلّ الأخوة، بل أغفلها، إذا كان يمتحنه فالموقف لم يعد يتحمل تجاهله. سأله:

«هل كنت مع المجاهدين؟».

وصف المتمردين بالمجاهدين ليقول له إنه يتفهم موقفه إذا كان منهم. الطبيب لم ينتبه لهذه اللفتة، عاد يشرح له مشكلته؛ النقيب أرسله بمهمة إسعافية، وليس إلى محكمة، الجنود جاؤوا به إلى المكان الخطأ!! هناك جريح في مكان ما، بحاجة إلى علاج، وقد يموت من جراء تأخره.

لم يتراجع المساعد، بما أنه جرى تسجيل الطبيب في قلم الفوج، وجيء به إلى حيث لا يوجد جريح، فلا خطأ. الخطوة التالية إرساله إلى المستودع تمهيداً للمحاكمة لا الطبابة.

«ألم تؤوِ أحداً في بيتك، أو لديك أخ أو قريب مطلوب؟».

لوّح الطبيب بيده نافياً، فلفتت انتباهه أصابعه، كانت رفيعة وناعمة، قد يمسك بها سماعة، أو ميزان حرارة، وإذا حمل أداة حادة، فهي مشرط، وليست ساطوراً. لن يسأله أكثر، ربما عالج جرحى مسلحين من أقربائه، أو يمتّون إليه بصلة لأسباب لو سئل عنها سيزعم أنها إنسانية. هذا ما ارتكبه الأطباء من جرائم في الحصار. ومع هذا استغرب أن الطبيب لم يستثمر معرفته به، هل تجاهل رابطة الأخوّة التي جمعت بينهما؟ إن لم يتذكره خلال دقيقة، فسينجو من المعرفة والأخوة.

على خلاف ما فكر فيه، ولسبب مجهول، ركب المساعد رأسه، وحدق إليه يستحث ذاكرته، مدركاً أنه إذا تعرف إليه، فسوف يتحمل عبئاً فوق طاقته. حيرة الطبيب تنم عن إخفاقه، بكل وضوح لم يتذكره. هل يدعه؟ لا زيتون من قبل، ولا اعتراف بالجميل من بعد. ألم يجحف بحق أخيه؟ حتى لو كانت أخوّة عابرة، وليس وقتها. لكنه وللمرة الثالثة وجد نفسه خلافاً لما قرره، يتحرش به، ويسأله بعتب:

«ألم ترني من قبل؟».

حدق الطبيب إليه، لم يستوعب السؤال، ملامحه وشت بالخوف، ظن أن السؤال الأخير اتهام

إضافي، المساعد يريد أن يثبت شيئاً يدينه به. فأنكر بشدة.

لم يفاجأ بإنكاره. من الطبيعي ألا يتعرف إليه؛ يومياً يرى الطبيبُ في عيادته الكثيرين من أمثاله، لا يتميز واحدهم عن الآخر إلا بالمرض والعوز، فيراهم متشابهين. غير أنه للمرة الرابعة لم يقاوم، وجد نفسه يستحثه على إعمال ذهنه:

«حاول أن تتذكر».

رفع الطبيب حاجبيه نافياً. فلمّحَ المساعد:

«أليست عيادتك في ساحة العاصي؟».

هز الطبيب رأسه موافقاً، فاندفع المساعد قائلاً بحرارة:

«لقد كنت إنساناً طيباً معي، طبيباً عظيماً».

وَضَعه اعترافه الذي فلت منه أمام سؤال اضطر إليه، على الإجابة عنه سيترتب تعهد سيكون مخاطرة كبيرة:

«ألم تتذكرني؟».

«لا، لم أتذكرك».

كانت فرصة ليتخلص منه كأن شيئاً لم يكن. لكنه وجد نفسه للمرة التي لا يدري كم أصبح عددها، يحرّض ذاكرة الطبيب، وللسبب المجهول نفسه. مهما كان جوابه، لن يخليه من مسؤوليته تجاهه، مديونيته نحوه تتضاعف، وعلى استعداد للتعهد له بما لا يستطيع فعله... ربما ساعدته الظروف، اندفع قائلاً:

«إذا لم يتابع النقيب قصتك، فسوف تنجو، سأحاول ألا أقدمك للمحكمة».

لم يكمل، في حال انكشف، فسوف يسرح من الجيش، وقد يسجن، وربما كلفته الأخوة حياته.

فاستدرك قائلاً:

«لا تعتمد على كلامي، لكنني سأبذل جهدي».

تاركاً لنفسه فسحة للتراجع، لا ضمانة إلا في حال سنحت فرصة.

لم يستوعب الطبيب في هذه العجالة، كيف انقلب موقف المساعد الاتهامي، إلى التبرع بإنقاذه، ولو كان مشروطاً. ما زاد في حيرته، أن رجلين لا يعرفهما، يتصرفان بحياته كما يحلو لهما؛ الأول يريد قتله، والثاني يريد مساعدته... بلا مبرر معقول!! إلا إذا كان النقيب يمزح معه، والمساعد يلهو به.

ضاق المساعد بتجهم ملامح الطبيب، لم يتذكره بعد. يبدو أنه لم يثق بكلامه. بادر وسرد عليه قصة قديمة عمرها لا يزيد عن عام واحد؛ معالجته لأولاده بلا مقابل!!

تفاصيل الحادثة في ذهن الطبيب كانت غائمة، وإذ تذكر أنه رأف بالأولاد، والأب كان بسيطاً جداً، تعرق كثيراً من فرط خجله. خشي وقتها أن يكون أساء إليه. تعهد الأب أن يسدد له ما عليه في اقرب فرصة، فرد عليه بألا يلقي بالاً للنقود، أقنعه بأنه ليس مديناً له بشيء، لكنه رضي أن يهدي له شيئاً ما، وأن يكون التعاطي بينهما على نمط التعامل بين الإخوة. بيد أن ذاك الأب وهذا المساعد يبدوان كأنهما ليسا الشخص نفسه، ربما بسبب الملابس العسكرية. ثم إن هذا المساعد لا يوحي أنه يحمل هذه الرتبة، كان نحيلاً، عادة المساعدون في الجيش بدينون. في ذلك الحين أعجب بسلامة طوية الأب، ويبدو المساعد من الطراز نفسه.

صادق الطبيب على القصة التي سمعها، وتعززت بالانطباع الذي تركه فيه المساعد، وهو يستخلص العبرة من الحادثة:

«الخير الذي فعلته يا دكتور، لم يذهب هباء، أنت رميته في البحر من دون انتظار جزاء عليه. أرجو أن يهبني الله القدرة على مساعدتك كرمى لما فعلته معي ومع غيري».

لم ينفع ما قاله في رفع معنويات الطبيب، بل هبطت، التطمينات لم تطمئنه، غلبته الدموع

وطفرت من عينيه.

أراد أن يفسر دموعه للمساعد، لا كي يتعاطف معه، بل ليدرك حجم مأساته، إنه عالق هنا، لا يدري ما حل بأبيه وزوجته وأولاده، تركهم في الكيلانية، جاء به الجنود من هناك. ترى هل عادوا إلى مأواهم في القبو؟ طبعاً عادوا، لكنهم سيضطرون للرحيل، الجرافات كانت في الحي عندما غادره. إلى أين سيلتجئون؟ وهل يطول الوقت ريثما يلحق بهم؟!

غرغرت عينا المساعد بالدمع، فأيقن الطبيب أنه عالق فعلاً، وتوقيفه لا خطأ فيه. رأى في سخاء مشاعر المساعد تعبيراً عن قلة حيلته، قدرته لا تزيد عن الاستماع إليه، وإذا كان قد رثى له بعينين دامعتين، فلأن مأساته حقيقية، وتعاطفه معه لأنه متأكد من سوء وضعه، وما ينتظره أمرّ وأدهى. غير أن إحساسه بمشاركته الوجدانية خفف عنه مأساته الغامضة. مهما كانت تحولاتها، ولو كان نحو وضع أفضل، فلن تزيل الغم عنه. ما دام هناك محكمة، فحياته في خطر.

وَدّ المساعد لو يسهم ببعض الكلمات المواسية، عسى أن يخفف عنه، لكن دخول الحاجب حاملاً إبريق الشاي جعله يبتلع ما كان على وشك التفوه به. صرف الحاجب، وأعلمه بما سيفعله، لن يحوله إلى المحكمة، سيعزله عن المعتقلين، ويتخفى عليه، ويطلق سراحه مع انسحاب الجيش من مواقعه في حماه. المهم ألا يسأل النقيب سليمان عنه. المشكلة هي أين يضعه، لا بد من مكان يعزله فيه عن المعتقلين الآخرين.

استبشر المساعد لدى رؤية العريف كمال داخلاً يجرجر قدميه، حاملاً معه برقية مستعجلة لم يفتحها. المشكلة وجدت حلاً لها. العريف لا يفتر عن الإلحاح بخصوص إجازة يومين يقضيها في قريته كانت لا تبعد أكثر من ربع ساعة في السيارة. حان وقتها. وافق على الإجازة، وراعاه أيضاً، سيبلغه بانتهائها قبل عودة الفوج. كان هذا أكثر مما يأمله العريف.

ابتسم وهو يتبادل النظرات مع أخيه الطبيب، متعهداً له، من غير كلام، أن احتمالات إنقاذه أصبحت أفضل. الخطوة الأولى أنجزت، تخلص من رقابة العريف، سيسهل عليه إخفاؤه عن العيون. الخطوة التالية، لن يضم الطبيب إلى المعتقلين إلا عند الضرورة، وسينقله إلى خيمة

العريف بعد مغادرته الموقع. نادى الحاجب وأمره بوضع المعتقل مؤقتاً لديه في الخيمة.

كما توقع، كانت البرقية؛ قرار تشكيل هيئة المحكمة من ثلاثة ضباط عميد ومقدم وملازم، سيصلون غداً، ويقومون بجولة يقابلون خلالها قادة قوات الداخل وقائد الفوج ٨٨.

اتصل بالعقيد قائد الفوج وتلا عليه مضمون البرقية، مع أنهم تبلغوا مضمونها البارحة شفهياً. أما الجولة، فاجتماع ضباط القطعات العسكرية مع ضباط المحكمة لتناول طعام الغداء، وإذا اتسع الوقت ستباشر هيئة المحكمة عملها بعد ظهر الغد، وإذا اتسع الوقت أكثر فسوف يبدأ تنفيذ الأحكام قبل غروب الشمس.

٤

صحا النقيب معكّر المزاج، دفع البطانية عنه جانباً، كان نائماً بملابسه العسكرية. بقي ساهراً إلى ساعة متأخرة من الليل يسترجع أحداث النهار، ثم غافله النوم بضع ساعات، واستيقظ على ضجيج هواجس غامضة أفرزتها أحلام أشبه بالكوابيس، أصواتها ما زالت تعج في رأسه.

أحس بانقباض، وقد انكشف له ما عكّره، الخواطر التي عاودته ليلاً، وكانت محور هلوساته: مقتلة البارحة. هل كانت واقعة صوّرها له الوهم؟ مستحيل، الوهم ليس من مادة صلبة، وإذا خالطها قدر من السيولة، فليس إلا الدم. معالم المقتلة محفورة في رأسه، منذ اللحظة التي ظهر فيها الجد، وتبعه الأب والأم والأولاد، مروراً بإبعاد الأب إلى حقل الرمي، إلى اللحظة التي تساقطوا فيها أمواتاً.

عززت المناظر المتتالية واقعية القتل، لكن أساء إليها الرضيع، لو أنه ظفر به لقطع دابر العائلة. مغامرته أصابها عطب، ما أثار البلبلة في داخله، فأل شؤم، هناك من بقي حياً.

الجانب اللافت في المقتلة الصامتة، اكتشافه لقدرات كان يمتلكها ويجهلها، القتل ليس بالشيء العسير، وما تحريمه إلا تهويلاً، كيلا يستسهله البشر. مارسه كفعل نظيف من الإيحاءات المغالطة والملعونة، لن يتبرأ منه أو ينكره، كان إنجازاً ناجحاً وبارداً، لم تهتز فيه شعرة واحدة،

خشي من فرط بساطته ألا يكون حقيقياً!!

لن يدع وساوسه تشوش عليه فعلته. أخذ مسدسه وأربع قنابل يدوية، انطلق بسيارته الجيب إلى الكيلانية، دخل الموقع، الجرافة تغادره، ترافقها ثلة من رجال القوات الخاصة. كان آخر الواصلين، البيت هُدم قبل قدومه. ردم الأبنية لا يتوقف ليلاً ولا نهاراً.

لم يجد الجثث، هل كانوا أم لم يكونوا؟ غاصت قدماه في الوحل، خطاطات الدم تخثرت فوق التراب، تعاند المطر والرياح. فردة شحاطة رجالية ربما كان الجد ينتعلها، جراب صوفي لطفل، ومنديل رمادي، كانت المرأة تستر شعرها به. هنا كانت الجثث، لم يكن يتخيل، الواقعة صحيحة، والرضيع في مكان ما، أين ذهبت به العجوز؟ الاحتمال الأكبر، إلى أحد الملاجئ.

تجول بين حارات لن يراها بعد اليوم؛ البارودية، المشارقة، الزنبقي والعصيدة والشمالية. يسأل الجنود عند الحواجز عن الملاجئ، ولم تكن سوى أقبية مظلمة، تنز منها رائحة رطوبة عطنة، بلا كهرباء ولا ماء، وأغلبها مقوض. أما المهجورة، فهناك من ترك على جدرانها دليلاً على تمشيطها: «لا إله إلا الوطن، ولا رسول إلا البعث».

لن يتابع البحث. إن لم يمت الرضيع من الجوع، مات من البرد.

عقب عودته، لم يقل لرئيسه المقدم أنه كان اليوم يتأكد مما جرى معه البارحة، ولا أنه كان يبحث عن عجوز اختطفت رضيعاً، بل قصة أخرى؛ مداهمته لوكر للإخوان المسلمين وقتل ثلاثة منهم، وتمكن رابعهم من الفرار، طارده لكنه أضاعه، سيبحث عنه مجدداً.

لا تهتم، قال المقدم، ستعثر عليه قتيلاً.

استرسل في الحديث، الشوارع كانت خالية، لو صادف أحداً ذاهباً الى الجامع لما تردد لحظة في قتله، من دون ندم. الإرهابيون في حماه وحلب، كانوا في الصباح الباكر وهم في طريقهم إلى المسجد لأداء صلاة الصبح، يتدربون على استعمال المسدس بقتل الزبالين، لا لشيء، فقط

لتقسية قلوبهم.

أحجم المقدم عن التعليق، كان رجال المخابرات يغررون بالزبالين المساكين للإبلاغ عن شبان كان حضورهم صلاة الصبح يعتبر عملاً إرهابياً.

تابع النقيب مغامرته وكانت موفقة، قبض على طبيب متعاون مع الإرهابيين وأرسله إلى الفوج.

لم يستفسر المقدم عن التفاصيل، وفّر على النقيب المزيد من الكذب والمبررات؛ لو تعثر بوكر للاخوان المسلمين فلن يتجرأ على مداهمته. على كل حال، لم يرجع خالي الوفاض، تعثر برجل ما، وأنجز بطولة بإرساله الى الإعدام.

وجد المقدم شيئاً يغيّر به الحديث؛ الدعوة التي وجهت إلى الضباط لتناول الغداء مع ضباط المحكمة الميدانية القادمين من دمشق. ستعقد المحكمة جلساتها ابتداء من اليوم.

لماذا المحكمة الميدانية؟ تساءل النقيب مستنكراً.

قال المقدم، تعليمات القيادة.

الساعة قاربت الثانية عشرة ظهراً. تمدد على السرير الميداني، خلال لحظات سقط بين النوم والصحو، غافله مشهد تشكل نصب سمعه وعينيه؛ أكوام قمامة، أبنية محترقة، بقايا جدران، كلاب تحوم بين النفايات... خربشات تعبث بالسكون العميق، كانت على وشك الظهور، دعسات أقدامها سبقتها، هل عادت؟

... ليس على حين غرة، كما ظهرت من قبل، بل على مهل تتيح له استدراك ما تقاعس عنه. هذه المرة، هبطت من السماء وحطت على الأرض، تتلمس بخطواتها الحذرة موطئها فوق الحجارة والحصى. انحنت على الجثث، وكأنها بلمسة منها ستعيدهم إلى الحياة. لم يستبعد هذا الفعل الخارق، لم تنتزع اللفافة من حضن الأم، تناولتها برفق من بين يديها، أشبه بعملية تسلُّم وتسليم. بكى الرضيع، لم يوقظه صوت الرصاص، آلمه ابتعاده عن أمه. ومضت به العجوز من دون أن تعير الضابط، الملجوم بالدهشة، حامل الساموبال اهتماماً.

هل يدع الرضيع يعيش، أم يرميه بالرصاص؟ تساءل وإصبعه على الزناد؛ إذا تركه يحيا فسوف تكون حياته طويلة مادام أفلت من موت محقق. لم يهتم بالعجوز، ستموت عاجلاً، أو تواً، حسب إرادته. في جميع الأحوال كانت ميتة. الرغبة في القتل استولت عليه، واستهوته بشدة، تاق إلى تمزيق جسد الرضيع الغض بالرصاص. كانت العجوز في مرمى بصره. إذا أبقاه حياً، فسوف يهدر منحة لم تُسد إليه عبثاً، ويعارض القدر الذي أكرمه بها. كانت المصادفة في صفه، والقدر يهيب به الضغط على الزناد، لن يُخدع ثانية. إذا كان بمقدوره حرمان الرضيع من الحياة، فلن يهبه إياها.

فتح عينيه، إلى أين شط به هوس التخيل؟ كان ضابطاً محظوظاً حالفه الخلاء والدم وشهوة القتل، يحمل رشاشاً في مدينة مستباحة، أتيحت له فرصة لم يتباطأ في استغلالها، لكنه لم يحسن استخدامها، بخل عليه القدر بتنفيذها كاملة. ترك وراءه ثغرة، هل سيردمها الزمن؟ شيء وحيد سيتأسف عليه، بمعزل عن حماقات القدر الكفيف والمصادفات الركيكة؛ لو اكتملت حلقة القتل، لكانت المجزرة الصغيرة مثالية.

الأمر الحميد عودته إلى الواقع. الأب الطبيب ينتظر دوره في الإعدام!!

تذكر حديثه مع رئيسه المقدم، فقفز من السرير، ربما أنقذته المحكمة الميدانية، من يدري، هذا قد يحدث؟ كانت الإعدامات من دون محاكمة، تسير على ما يرام، ربما يريدون تبرئة بعض الأهالي. لن يترك شيئاً للمصادفة أو للقدر. اتصل بالسنترال وطلب منه إيصاله بحقل الرمي، سمع صوتاً، استفسر عن صفته، كان المساعد ضرغام، سأله:

«متى ستعقد المحكمة الميدانية؟».

«بعد طعام الغداء».

«الطبيب الذي أرسلته إليكم».

«ما به؟».

«قبض عليه وهو يداوي الإرهابيين الجرحى».

رمى السماعة من يده، كان قد حكم عليه بالإعدام.

غير أنه عندما اضطجع، لم يظفر بغفوة تريحه من تلاطم أفكاره. ماذا لو أبدى الطبيب حججه أمام هيئة المحكمة، وأثبت براءته؟ قد يصدقونه بالنظر إلى مهنته الانسانية، إذا كانت المحكمة أرسلت لتخفيف معاناة الأهالي بتقليل عدد الإعدامات؛ فقد تراعي الأطباء بشكل خاص، تعويضاً عما سلف نحوهم، الجنود لم يتسامحوا معهم، أثقلوا عليهم بالقتل والتشويه، اقتلعوا عيني طبيب عيون، واغتصبوا طبيبة نسائية أمام زوجها، وطال بحثهم عن طبيب أمراض تناسلية كي ينتزعوا قضيبه وخصيتيه.

ماذا لو نجا الطبيب وعرف ما حل بعائلته؟ سيثير قضية قد تؤذيه. يعرف، لن يضحوا به من أجل طبيب حموي. لكن من يدري؟!

قرر الذهاب إلى حقل الرمي.

الفصل الثاني

الإيمان بأن العدالة ممكنة

صباحاً اتصل بي الأستاذ رشدي رئيس محكمة النقض ودعاني إلى مكتبه. لم أخمن كثيراً لأدرك أن ما آلت إليه أوضاع حماه بعد توقف العمليات الحربية كان له صلة بدعوته لي إلى فنجان قهوة. ربما حصل على بعض المعلومات؛ مصادره موثوقة.

كان الأستاذ رشدي، على رفعة منصبه، صديقاً ومرشداً لي أعتز بصداقته ونصائحه. تعرفت إليه في بداية عملي بالمحاماة، عندما استدعت إحدى القضايا الموكل بها سفري إلى دمشق، وكانت عائدة إلى المحكمة التي يرأسها. حاججته معترضاً على بعض الإجراءات الشكلية، أراد امتحاني، فاصطدم معي، أعجبه دفاعي المتماسك، وأشاد بأريحيتي لأنني قبلت التوكيل بقضية من دون أتعاب، تبرعاً مني لعائلة فقيرة فقدتْ المعيل.

كنت واحداً من المتخرجين الجدد المتباهين بنزاهتهم، وكانت في ذلك الوقت، وما زالت دليلاً على السذاجة، إن لم نقل على الغباء. يمكن تفسير تلك المثالية بفترة الشباب التي لا تقبل بأقل منها. ما جعلني أكثر عناداً وإصراراً على هذا الخيار، وليس بلا دافع، الإيمان بأن العدالة ممكنة.

حرّضني الأستاذ رشدي على ترك المحاماة والانتقال إلى سلك القضاء في العاصمة، وكان إحدى أمنياتي، فتقدمت إلى مسابقة انتقاء القضاة دونما رجاء كبير. كنت مفتقداً الوساطات الحزبية والعائلية، فلم أكن بعثياً، ولا تربطني صلة نسب مع مسؤولين في الدولة، أو قرابات مؤثرة، أو علاقة بالأجهزة الأمنية وهي الأهم. كان ضباط الأمن يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة، من تعيين الوزراء إلى تعيين الحجاب، فلم آمل كثيراً.

لكنني نجحت، كان الأستاذ رشدي واسطتي الخفية. مع أنه لم يكن حزبياً، كانت علاقاته بالحزب جيدة. ادعى أن كفاءتي كانت مؤهل نجاحي، وما فعله هو أنه زكّاني لدى اللجنة الفاحصة. رئيس اللجنة صرح بأنها من أكثر المسابقات شفافية، ولم تحابِ أحداً. قلت للأستاذ رشدي، المحاباة كانت واضحة، من لم يستطيعوا إسقاطه في الفحص التحريري، أسقطوه في الفحص الشفهي. ولقد أحسست أنني أذنبت في حق غيري، ربما كان هناك من هو أكفأ مني.

حماسة الأستاذ رشدي لي ولعدد محدود من القضاة الشبان، كان وراءها اقتراب بلوغه سن التقاعد، لم يتبق له سوى بضع سنوات، اعتبرها مدة كافية ليحقق ما تمناه، وهو تكوين نواة صلبة من القضاة الشبان، يحرصون على القانون، قبل أن يفقد هيبته بالكامل. كانت سمعة المحاكم والقضاة في انحدار متسارع نحو الحضيض. طمح الأستاذ رشدي إلى إيقاف تدهورها في محاولة يائسة لاستعادة القضاء تأثيره. كانت آماله غير متواضعة، حسب قوله أراد استدراك الكارثة، ولم يكن يبالغ، لكن ما أراده كان مستحيلاً.

في بداية الأحداث، توسط لي للدخول إلى حماه، ثم اعتذر، الأمر فوق طاقته، وإن حاول تبرير اعتذاره، بالتلميح إلى أن ما يجري مُحظَّر الاطلاع عليه. السلطة لا تستجيب لوساطة أي مسؤول، ولا الحزب يغامر بالتوسط لمثل هذا الطلب؛ مسألة حماه خرجت من أيديهم، وأصبحت في عهدة الجيش، تتحكم بها قواعد الميدان.

تولى حصار حماه واقتحامها، وبشكل رئيسي سرايا الدفاع والقوات الخاصة، كانتا القوة الضاربة الموثوق بها في سحق أي تمرد أو احتجاج، استخدمتا للانتقام من مجزرة كلية المدفعية التي ذهب ضحيتها عشرات من طلاب الضباط العلويين، شبان صغار، الواحد منهم لا يزيد

عن عشرين عاماً. جمعهم الضابط المناوب مع رفاقه من قوات الطليعة الاسلامية المقاتلة في الندوة، وفتحوا عليهم النار، ثم ولّوا هاربين. شن الجيش على الأثر عدة حملات عسكرية على حلب وجسر الشغور وحماه. ما تسرب من أخبار، دلّ إلى أن وحشيته تفوقت على وحشية المتمردين الاسلاميين. يحاصر الحي أو القرية، تقصف بالمدافع، ثم تدهم البيوت، ينتزعون الشبان والرجال، وربما النساء والأطفال من أسرتهم، يجمعونهم في ساحة ويطلقون عليهم النار، يعقبها النهب والسلب، والمزيد من القتل لكل من يظهر اعتراضاً.

ما عرفه الأستاذ رشدي عن أحداث حماه الأخيرة، كان عن طريق معارفه من المسؤولين. الطليعة الاسلامية المقاتلة المنشقة عن الاخوان المسلمين، افتعلت مجزرة بمهاجمة مراكز الحزب والأمن ومخافر الشرطة ليلاً، وقتلت حزبيين بعشيين مع عائلاتهم، فحاصر الجيش حماه، وتشدد في معالجة الانتفاضة، استخدم المدفعية والدبابات. بلغ من شدة القصف وكثافة النيران، تدمير أحياء بكاملها، وقتل الآلاف من الأهالي المدنيين الأبرياء عمداً، ودون تمييز بالقصف العشوائي.

بالكاد خرج صوتي مرتجفاً:

«هل كان هذا ضرورياً؟».

«ليس الأمر تقدير من أخطأ أكثر. أنا لست على ثقة من شيء، لأنني لا أعرف إلا القليل، ومن مصادر حزبية. للأسف، جيش البلاد تصرف مثل الغزاة البرابرة، الجنود انساقوا لغريزة القتل. لن أقول إن هناك غياباً كاملاً للقانون فقط، بل وإلى القليل من الرحمة. لكن ليتنا نؤجل الحديث في توزيع المسؤوليات ريثما نعرف أكثر».

ونصحني حرصاً على سلامتي، بعدم التورط بأية انتقادات، الحالة في القيادة لا تتحمل إبداء أي رأي، نحن أحوج إلى التعقل، الظرف الذي يمر به البلد دقيق وشائك، والأفضل عدم الإصغاء للإشاعات، أو الانجرار وراء العواطف.

اعتقد الأستاذ رشدي أنه بحديثه هذا، كان يحضّرني للأسوأ، ما وصله من أخبار كان مقلقاً،

يعرف بأن عائلتي تسكن في منطقة خطرة دارت فيها اشتباكات بين الطرفين، ورجا ألا يكون أصابهم سوء، فلم أجب لأن الأسوأ حدث، وفات الأوان على طمأنتي أو مواساتي.

أنبأه وجومي أن أخباراً سيئة وصلتني، فلم يستفسر، وأنا ترددت، لم أرغب في الإتيان على فجيعتي. أسهب الأستاذ رشدي في ما اعتبره وقائع أليمة يمر بها البلد، كانت محنتنا جميعاً.

«ما الذي كنت ستفعله في حماه؟».

«أردت إخراج العائلة منها».

«بوسعك استدراك ما فاتك».

لم أحر جواباً، كنت أصغي إليه، صوته يأتيني من عالم آخر، وهو يعتذر مؤكداً أنه كان عاجزاً بالفعل عن مساعدتي، وسوف يطلب من الوزير أن يستحصل لي على إذن من السلطة العسكرية تسمح لي فيه بدخول حماه لأطمئن إلى العائلة. وإذا كنت قد تكلمت، فلكي أقول له أن لا فائدة:

«لم أعد مستعجلاً على الذهاب، لقد عرفت ما حدث لهم».

حدق إليّ مستغرباً. أردت ألّا أرحم نفسي، وأن أتذكر ما حاولت نسيانه:

«قتلوا جميعاً، لم يبق حياً سوى ابن أخي، طفل رضيع، عمره أشهر».

بهتت ملامحه، وتجمدت عيناه في محجريهما، فقلت:

«ليتك ساعدتني، كنتُ قُتلتُ معهم».

لم أرغب في أن أحمّله خطأ، كان تأنيب الضمير واحداً من أمراضه المستعصية.

نهضت واقفاً وخرجت، لحق بي، أدركني في الردهة والدموع في عينيه.

شدّ على يديّ. لم نقل شيئاً، أخفينا دموعنا.

١

انطلق موكب أعضاء المحكمة باكراً من دمشق، كانوا ثلاثة في سيارتي جيب وسيارة حراسة ومرافقة. ضمت الهيئة رئيس المحكمة، وهو ضابط برتبة عميد، يعاونه ضابط برتبة مقدم، وضابط برتبة ملازم، سيتولى كتابة محضر جلسات المحاكمة. أضيف إليهم ضابط برتبة رائد بلا صفة، ولا عمل، عُيّن قبل ساعات، والتحق بالموكب متأخراً، أدركهم بسيارته الجيب في النبك، لم يعرفوا عنه سوى أنه مرسل من قبل المخابرات العسكرية في دمشق، أي أنه سيكون الرقيب العتيد عليهم.

تبين قبل بدء المحكمة، أن الرائد هو الوحيد من بينهم، الأكثر فاعلية ويحمل أكثر من صفة، إذ عند مدخل حمص استوقفهم الحاجز العسكري، وأبلغهم بالبرقية الواردة من الأركان. بدت تعليمات حول ترتيبات المحكمة، والاجراءات المتبعة فيها، بينما كانت إشعاراً بصلاحيات الرائد مروان السنطري... سيكون المرجع في المحكمة، والآمر الناهي بكل ما يحتاج إلى اتخاذ قرار سريع. القرار الفصل يعود إليه، ما يخوّله التدخل في الشاردة والواردة.

بعد تناولهم طعام الغداء مع ضباط الجيش، انتقلوا إلى موقع حقل الرمي. أعقب وصولهم قدوم أربعة ضباط يمثلون تحالف ضباط الداخل من السرايا والقوات الخاصة، سبقهم خصمهم العقيد قائد الفوج. كانوا على الرغم من الجفاء الحاصل بينهم، قد اجتمعوا معاً على مائدة الغداء، وكانت فرصة لحلحلة إشكالات، عزيت إلى سوء تفاهم لا يستحسن جلاء أسبابه الحقيقية، لئلا يجري تبادل الاتهامات من جديد. السبب اعتقاد ضباط الداخل أن العقيد قائد الفوج وراء تشكيل المحكمة الميدانية، ليسلبهم المعتقلين لحسابه، بعد أن اتهمهم بالإفراج عن الموسرين منهم لقاء فديات كبيرة. أمارات الغضب على وجوههم، كشفت أن أزمة الثقة على حالها، وشيئاً لم يحل، ولن يحل؛ خسائرهم بلغت ملايين الليرات.

استعد المساعد ضرغام بتجهيز طاولة وأربعة كراسي للأعضاء الثلاثة، والملازم كاتب المحضر، استعار كرسيين من قيادة الفوج، وأوكل تأمين الخدمات إلى عسكري نشيط، أعدّ إبريقين من

الماء المغلي، واحداً للمته والثاني للشاي. سيبقى العسكري على مقربة منهم بغية مساعدتهم على قضاء حاجاتهم الشخصية، سيقودهم إلى مرحاض الضباط، كان ميدانياً أسوة بالمحكمة الميدانية، أعد على عجل؛ وجهز بصابونة وإبريق معدني للماء.

بما أن المحكمة تعقد جلساتها على الارض الواقعة تحت سيطرة قائد الفوج، لاح شغب على وشك الاندلاع، ليس مبعثه المعتقلين، بل حضور ضباط الداخل الأربعة، جاؤوا ليتأكدوا أن المحاكمة ليست صورية، ولا تلاعب في أعداد المعتقلين. قصد من تشكيلهم مناصفة، اثنين من سرايا الدفاع، واثنين من القوات الخاصة، ألا يكون قائد الفوج عقد صفقة مع السرايا من خلف القوات، أو بالعكس. عللوا قدومهم لمراقبة سير المحاكمة، ليس من ناحية الإجراءات، بل كشهود إذا احتاج الأمر، لئلا يفلت المجرمون من العقاب.

ساد التوتر الجو المكهرب أصلاً، وأنذر تراشق النظرات بينهم بالشر، كل طرف يُحمّل اللوم للآخر. العراك المتوقع يحتاج إلى بضع نظرات أخرى، وكلمة نابية يطلقها أحدهم لتبدأ مشادة، تتطور إلى اشتباك ليس بالأيدي، على الأغلب بالمسدسات، وقد يستعان براجمات الصواريخ. كان الاستعداد للمعركة جاهزاً، كل طرف أوقف سرية من قواته على مسافة تضمن المدى المجدي لقصف الموقع.

تبرع المقدم والرائد بتهدئة الفرقاء، انتحيا بهم جانباً وأبلغاهم لتهدئة خواطرهم: لن يخرج أحد من المعتقلين حياً، تعليمات القيادة صريحة وواضحة، الأحكام لن تقلّ عن الإعدام. وإذا كانوا قد منعوا من التصرف بالمعتقلين، فالعقيد أيضاً لا يحق له التصرف بهم. لم يعد هناك ما يختلفون بصدده أو يتقاتلون حوله. عادوا من حيث أتوا، بعد تفقد المعتقلين في المستودع، والتأكد من عددهم حسب لوائح التسلّم والتسليم، وأن الأحكام المسبقة ضدهم نهائية.

كان من حسن تدبير المساعد أنه أخلى الطبيب من الخيمة في الصباح، وألحقه بالموقوفين. لم يكن مخطئاً في تقديراته، توقع قدوم بعض الضباط من باب الفضول، وفي حال تجولهم في المكان، سيكتشفون مخبأ الطبيب، مع أنه كاد أن يطلق سراحه، كي لا يتحير في إخفائه، لكن ماذا لو جاء النقيب سليمان ولم يجده؟ عندئذ، سيقف مع المعتقلين على قدم المساواة أمام هيئة المحكمة

نفسها. خطته تبدأ بالعمل، بعد إصدار الأحكام، وإرسال المعتقلين إلى الحقل، هناك بعيداً عن الأنظار، لا يوجد سوى جنود فصيل الإعدام، مهمتهم حفر الخنادق، والضغط على الزناد. عدا ذلك لا يعرفون شيئاً. ولقد أسعده أن الطبيب تفهم خطته.

بعد تطييب خواطر الضباط وانصرافهم، بات الوضع في المحكمة، بالنسبة للعميد رئيس المحكمة، بلا تبعات ثقيلة، مادام الرائد هو المسؤول، لن يظهر اهتماماً جدياً بالإجراءات ولا بالأحكام، سيتعامل معها على أنها عمل إداري ليس من اختصاصه العسكري، اضطر للقيام به تنفيذاً للأوامر. كان قد قضى حياته العسكرية في الخنادق، وعانى في الحرب من الانسحابات الكيفية، ولم يحرز تقدماً إلا في السلام، كان في انتقاله إلى مكتب مكيف، ووظيفة بلا عمل. كانت رئاسة المحكمة العمل الوحيد الذي أسند إليه مقابل ما تقاضاه من رواتب طوال نحو ثماني سنين، قضاها بلا مسؤوليات. قرر، خلال سير المحكمة أن يتعمد الاعتراف بجهله الإجراءات، لا بد من عمل حساب لتقلب الأحوال، هل سيُفسح له المجال في يوم ما، قد يكون مشابهاً لما سيجري الآن، ليدلي بدفاعه أمام قضاة من أمثاله ملولين ولامبالين. تمنى شيئاً واحداً، ألا تكون على هذا المنوال، لا تبرئ أحداً، ولو كان بريئاً.

التمثيلية لم ترق للمقدم، مضيعة للوقت. كشّر عن ملامح متجهمة، وجادل العميد، لكي يسمعه الرائد، مقترحاً عدم استدعاء المعتقلين، واعتماد الاتهام الوارد أمام اسم كل واحد منهم؛ الجيش قبض عليهم بالجرم المشهود، والعقوبة معروفة، ما المبرر للتسويف؟ الأجدى نقلهم دفعة واحدة إلى حقل الرمي، مآلهم في النهاية هناك.

ثم بصوت منخفض للعميد لئلا يسمعه الرائد؛ المحاكمة ستكون مؤلمة، الأحكام ستورطنا بمشاهد هيستيرية، سيحيلون المكان إلى مأتم، مشاعر الرحمة قد تزلّ، وتدفعنا إلى التساهل معهم.

«أنا لن أتساهل».

احتاط العميد؛ المقدم لا يؤمن له.

على المائدة التي دعاهم إليها العقيد قائد الفوج، كان الغداء مشاوي شقف وكباب مع تشكيلة من المقبلات الشهية، طاب للمقدم أن يتناول مع الكبة النيئة كأس عرق، فشرب بطحة ونصف، تاق بعدها إلى نوم لا سبيل إليه، المحكمة ستنعقد، والسكْرة ستطير من رأسه، ويتعكر مزاجه الرائق.

«كنت أمزح».

تصحيحاً لما قد يظنه العميد تفريطاً بالأوامر، وتعاطفاً مع المعتقلين. تابع مبدياً حجته:

«إذا لم يكن هناك بدّ من المحاكمة الوجاهية، فيجب اختصارها إلى الحد الأدنى، وعلى أن تكون بالجملة؛ مادام الإعدام جماعياً، فلم لا تكون المحاكمة جماعية، التهمة تنطبق عليهم جميعاً؟».

اضطر العميد إلى مسايرته، وابتسم مبدياً له أنه أخذ كلامه على محمل التنكيت، مادام المقدم تعلل به، وإن كان نوعاً من الجد السخيف:

«الغاية ليست الأحكام، بل انعقاد المحكمة حسب الأصول الميدانية».

المقدم الثرثار يتجاهل الأصول، ويلح على الجماعي، ليظفر بساعة نوم، تعقبها سكرة مسائية. لذلك يدفعه إلى الواجهة ويتوارى خلفه، مع أن كلمة المقدم مسموعة في القيادة، لكنه لا يتحمل نتائجها في المحكمة. وكي يصرفه عنه، حضه على اقتراح فكرته على الرائد.

امتعض المقدم، لن يتنازل إلى الطلب منه.

عقّب العميد، تعلم بيده الحل والربط.

كان من الممكن للعميد أن يظهر بعض اللين، ولا يتقيد بمراعاة إجراءات لا يعرفها، لكن قانون الإعدام الأعمى لا يسمح للمبصرين إلا بالعمى؛ الحكم بالموت لا راد له بموجب هذا اللا قانون، لولاه لأنهى هذه المهزلة وأطلق سراحهم، لكن الرائد الطموح، حارس المحكمة النجيب، سيعمل على إرسال المعتقلين للموت، وكأنهم سيذهبون إلى مشوار لن يغيبوا فيه طويلاً.

«كل هذه الشكليات لا طائل منها» أصرّ المقدم.

حافظ العميد على برودة أعصابه، وأفهمه أن المحاكم الميدانية تفتقر أصلاً إلى الشكليات، وأبسط ما ينبغي التقيد به هو التأكد من هوية المعتقلين وأسمائهم والاتهامات الموجهة إليهم. لم يسترسل بالكلام معه، طلب من المساعد ضرغام جلب دفعة من الموقوفين من المستودع إلى الفسحة المقابلة. عندما يجهزون، سيستدعيهم الواحد تلو الآخر.

لم يزد عددهم عن العشرين، أغلبهم شبان، بينهم ثلاثة أولاد عمر الواحد منهم لا يزيد عن الخامسة عشرة، اقتعدوا الأرض، وأحاط بهم الجنود ووجهوا أسلحتهم نحوهم. نهض الرائد وتمشى بينهم لاوياً شفتيه ناقماً عليهم، ملامحهم مكدودة، مشعثو الهيئة، متورمو العيون، كدمات على الوجوه، جروح غائرة، ملابسهم ممزقة، أغلبهم حفاة، حرارة الشمس لا تحميهم من لسعات البرد.

هل بقي أحد في الداخل؟ قال الرائد للمساعد ضرغام.

بعض الرجال الكبار في السن، رد المساعد.

لا تترك أحداً. أمره الرائد.

صدع المساعد ضرغام بما طلبه منه، غاب قليلاً في المستودع، وجاء بعشرة رجال، كان معهم الطبيب. استنكر العميد إضافتهم، كان يرغب بمنحهم يوماً إضافياً.. بينما دمدم المقدم حانقاً. ظن الرائد أنهما يريدان منه محاكمتهم وهم في الداخل:

«لا تجوز محاكمتهم غيابياً».

لم يستطع المقدم السكوت:

«ستكون بمثابة الوجاهي، لا يفصلنا عنهم سوى أمتار».

بينما احتج العميد بضيق الوقت:

«لماذا لا نؤجلهم إلى الغد؟».

قال الملازم من دون أن يلتفت إليه:

«قد تصل ليلاً دفعة أخرى».

«تؤجل إلى ما بعد الغد» قال المقدم.

«عمل المحكمة لن يستمر أكثر من ثلاثة أيام، بعدها لا معتقلون ولا أحياء».

كان يعرف أكثر منهم، ثم للرائد الكلمة الفصل.

القادمون الجدد كانوا من الوجهاء ومشايخ المساجد ومخاتير الحارات. يتعكزون بعضهم على بعض، ويجرجرون أقدامهم منهكين، بعضهم يسعل، وأحدهم يعرج؛ ملامحهم وقورة وعيونهم كسيرة. اقتعدوا الأرض بهدوء إلى جوار الآخرين.

لم تزد الأسئلة عن تلك الروتينية منها، بغية التأكد من ورود أسماء المعتقلين في اللوائح المرسلة من الكتائب، والاستفسار عن المهنة والعمر. لم يسمح لأغلبهم بالكلام، استوقف العميد صغرُ سن الأولاد، الرائد تجاهله. طلب العميد من الملازم ذكره في المحضر، كي لا ينالهم الحكم بالإعدام. فما كان من الرائد إلا أن أمر برفع أعمارهم إلى العشرين. تعلل:

«لا يغرك منظرهم، هؤلاء أخطر من الكبار».

لاحظ العميد أن الرائد يمرر المعتقلين دون أن يسألهم عن الاتهامات الموجهة إليهم، فتدخل وسأل رجلاً متقدماً في السن عن جريمته المذكورة في إفادته، وكانت تفجير دبابة. فأنكر ما نسب إليه، الضابط الذي قبض عليه، طلب منه التوقيع على محضر الاستجواب مقابل الإفراج عنه. علق المقدم بملل:

«إذا كنا سنأخذ بأقوالهم، فالجميع أبرياء».

علق العميد مغتاظاً، المحكمة لا تسير حسب الأصول، على الأقل يجب أن يعرف المعتقل تهمته.

«مادام قبض عليهم بالجرم المشهود، فلا موجب للسؤال» عقب الرائد.

تظاهر العميد بأنه لم يسمعه.

انحنى الرائد على الملازم كاتب الضبط وأمره بشطب أقوال المتهم، والاكتفاء بالموافقة على الاتهامات لا أكثر. ثم أخذ ينادي على المعتقلين، كلٌ باسمه، يأمر الرقيب بكتابة السؤال، ثم يلقنه جواب المعتقل الذي ليس هناك غيره، أو يستعيض عنه بمثله، يختصره، أو يزيد عليه، ولا يسجل استدراك المعتقلين لما يعترضون عليه.

غير أن محاضر الاعتقال ستعاند الرائد، وتُعطل سير المحكمة، بعضها لم يذكر فيه الاتهام، فارتأى، كيلا يفلت أي منهم مما اقترفه، تدبيج اعترافات من بنات أفكاره، أوجزها بعبارة كانت جملة واحدة: أقر في إفادته بمشاركته في الهجوم على... ولم يكن عسيراً عليه تحديد الهدف؛ مبنى الحزب، المحافظة، مخفر الشرطة، مكتب الشبيبة، دورية للجيش ...

العميد بقي صامتاً، لا يعترض أو يتدخل، أرسلوه للتوقيع على الأحكام فقط، ومعه المقدم ليضع توقيعه إلى جواره. هذه هي المهمة، لا ينبغي تجاوزها. القيادة والمخابرات فوَّضا الرائد بالمخالفات كلها، ها هو يقوم بعمله، أجاد ولم يقصر.

والشمس تنحدر نحو المغيب، تبرّم المقدم من البرد، واقترح الاكتفاء بما أنجز، ما تبقى من المعتقلين على شاكلة من سبقهم، والنتيجة نفسها. خلال وقت مهما طال فهو قصير، سيواجهون العقاب نفسه، إن كان بعد ساعة أو ساعتين، لا مبرر للمطمطة، ماذا إذا ماتوا بعد نصف ساعة، لا ساعة؟ الزمن لا يشكل فارقاً كبيراً. ما الذي سيفعلونه خلاله؟ لا شيء سوى القفقفة من البرد.

العميد لم يعلّق، بينما انتظر الملازم ما سيملى عليه. قال الرائد؛ لا يمكن كتابة هذا في المحضر.

«لن يطّلع عليه أحد» قال المقدم.

انعكس لغو هيئة المحكمة بالحيرة على وجوه المعتقلين. العميد ذهب بنظرة بعيداً، ملامحه تنم عن الغيظ. المقدم ينفخ بفمه، يتذمر ويبربر. الرائد ناشط مع الملازم، منغمسان في الأوراق.

نظرات المعتقلين تلاحقهم، تنتقل من واحد لآخر؛ يترصدون إيماءاتهم، ويتنبأون بفحواها، يتفاءلون تارة ويتشاءمون تارات. تتقلب تخميناتهم بين التصديق وعدم التصديق، لم يفهموا لماذا لا تؤخذ إجاباتهم، وما يقولونه لا يؤبه به. ترى ما مصيرهم؟ باتوا على يقين، المحكمة لن تطلق سراحهم.

تابعت المحكمة عملها، الأسئلة باتت أقل، والشتائم فاترة، والاتهامات باردة. لم يعد العمل يتقدم بالحماسة المطلوبة.

عندما حلّ دور الطبيب، لاحظ العميد عدم وجود اسمه في الجدول، واستغرب عندما عرف مهنته فسجل الرقيب اسمه. تدخل المساعد ضرغام قائلاً إن اسمه سقط سهواً، لكنه موجود على لوائح الاستلام. انتهز الطبيب الفرصة وقال، إن ضابطاً برتبة نقيب أرسله إلى هنا لمعالجة جريح، وهو ليس متهماً بشيء.

«لا يأتي إلى هنا بريء» علق الرائد.

أردف المقدم ينهي استجواباً، قبل أن يبدأ:

«لا جرحى لدينا، فقط أحياء أو أموات».

حاول الطبيب الرد. فصرخ الرائد:

«لا تجادل، انقلع إلى مكانك».

عبّر العميد عن انزعاجه للمقدم، دعوه يتكلم. فأجابه، لقد تكلم. علق الرائد، حتى لو كان طبيباً، فهو يكذب.

عاد الطبيب إلى مكانه مكفهّر الوجه، تعثر بأحد الجالسين، لم ير طريقه، ولم ير النقيب سليمان

الذي وقف جانباً يراقب المحاكمة من بعيد. المساعد ضرغام تنبه إلى وجوده، وحمد الله على أنه ضم الطبيب إلى المعتقلين، كان على صواب في تصرفه.

لم تفارق عينا المساعد وجه النقيب، تلمح على ملامحه الجامدة ابتسامة تشفٍ. لم يفته، عندما دارت المناقشة بين هيئة المحكمة، وانتهت بطرد الطبيب، كيف تحولت ملامحه المتوترة إلى ارتياح، ترى ما الذي بينه وبين الطبيب حتى يأتي ليتأكد بنفسه مما حلّ به؟

اختتمت الجلسات لهذا اليوم بمحاكمة رجل مشلول اليد، لم يُقبل له عذراً عدم قدرته على استعمال أي نوع من السلاح. أشار الرائد بيده إلى الشاحنة، فسارع المساعد ضرغام إلى المعتقلين وأمرهم بالاصطفاف.

تضايق النقيب، هل بدأت المحاكمات أم انتهت؟ إلى أين سيأخذونهم؟

انتظر قليلاً، رأى العميد والمقدم ومعهم الملازم يستقلون سيارة الجيب وينطلقون بها، بقي الرائد مروان. لم يتحمس للكلام معه. سمع عنه بعض الأمور، خلال تردده على فرع المخابرات العسكرية. أراد صديق له أن يعرفه إليه، عندما صادفه مرة في نادي الضباط، لكنه تجنبه.

كان الرائد مروان قد حقق خلال عمله في المخابرات نجاحات يحسده عليها زملاؤه ورؤساؤه، ما سمح له أن يكون مغروراً وفظاً ووقحاً. حصد شهرته من قدرته الخارقة على انتزاع اعترافات المتهمين. عرقل أكثر من مرة إطلاق سراح محتجزين، وأعادهم إلى التحقيق، وحصل منهم على معلومات أدت إلى القبض على مقاتلين إسلاميين، عبروا الحدود الأردنية إلى السجن مباشرة، وتسبب بموت معتقلين تحت التعذيب، في سبيل الواجب، كما كان يقول.

تردد النقيب، لم يرغب في الاستفسار منه، لكن لم يبق غيره من هيئة المحكمة، فاضطر إلى أن يسأله:

«الأحكام لم تصدر!! هل هناك جلسات أخرى؟».

لم يرد عليه، كان يراجع القوائم، يبدو أنه لم يسمعه، إذ تركه وتوجه إلى شاحنة الزيل من دون

أن يعنى بالنظر إليه، حيث تجمع المعتقلون، اختار ثلاثة منهم، وطلب من المساعد ضرغام تقييدهم وإرسالهم إلى قيادة الفوج موقوفين لحسابه. أعاد تنظيم الباقين على شكل رتل طويل، أشرف على صعودهم إلى الشاحنة، لم يكمل، تركهم بحراسة الجنود.

رجع، لملم أوراقه من على الطاولة، ثم جلس وأخذ يكتب ملاحظاته. اقترب النقيب وسأله بصوت مسموع:

«إلى أين سيأخذونهم؟».

أجابه من دون أن يلتفت إليه:

«إلى حقل الرمي».

«هل سيباتون هناك؟».

إصرار النقيب دفع الرائد إلى رفع رأسه بانزعاج ليرى الشخص الذي يلحّ في السؤال. وإذ وقع بصره عليه، هبّ من كرسيه، وخاطبه بمودة واحترام.

«النقيب سليمان!! فرصة طيبة».

لم تستوقف النقيب الفرصة الطيبة، سؤاله بقي معلقاً، سارع الرائد يجيب عنه:

«لقد أعددنا لهم مفاجأة».

رفع النقيب حاجبيه مستفسراً، توقع أن تكون مزحة الرائد السخيفة على سوية فظاظته، تابع الرائد:

«سيلتقون بالرفيق الأعلى».

فابتسم. لم يلفت نظره أن الرائد عرفه على الفور، يسهل تفسير الأمر، في الأوساط التي لها صلة بالنشاطات المخابراتية، يتسقط الضباط ذوو السمعة الطائرة بعضهم أخبار بعض ليتقي

كل منهم شر الآخر. الرائد تابع أخباره، وعرف عن علاقاته. سمحت البادرة التي أبدى فيها الرائد تواضعه، بفرصة تعارف أعمق، عزم على ألا يوفرها.

امتدح النقيب قدرته على ضبط سير المحكمة، فشكره الرائد على شهادته، وبادله بشهادة مماثلة، هذا ما يمليه تعارفهما الأولي، ثم أتى على ذكر ما بدا له متوقعاً:

«سمعت أنك تنوي الانتقال إلى الفرع».

الرائد يكذب، فهو لم يقل لأحد فكرته هذه، وإذا كان توقعه صحيحاً، فلأنه لا احتمال غيره. عادةً الضباط يطمحون للعمل في أجهزة المخابرات، ومن الطبيعي ما دام لديه نشاطات مخابراتية، ألا يشذ عنهم، خصوصاً أنه كان معروفاً، ولا يعمل في الخفاء.

«ما رأيك؟».

«مكانك محفوظ في الجهاز، ومرحّب بك، ستكون مكسباً لأي فرع».

لم تخدعه محاولة الرائد أن يبدو كريماً معه، نقطة ضعفه معروفة، كان يسترضيه، والسبب واضح، الرائد ليس علوياً، مؤهلاته أنه سني دمشقي، يحمل قدراً لا بأس به من خطايا النظام. في الفرع يشككون فيه، لا تدعمه غير قسوته، ومبالغته في تنفيذ ما يوكل إليه، كي ينال ثقتهم، تلك التي لا يمكن أن ينالها كاملة ابداً. ومع هذا سوف يظفر بمستقبل زاهر، كم سيدوم هذا المستقبل سنة، سنتين، أكثر أو أقل، لا يهم. سيأتي يوم يذهب فيه ومعه الجرائم التي ارتكبها والتي لم يرتكبها. لو استطاع تبديل مكان ولادته، لما حاول استرضاء أمثاله من الضباط العلويين. لكنه ارتاح إليه، سيكون دليله في عالم يجهل عنه بعض الأمور، بينما ينبغي أن يعرفها كلها. لم يخف عنه حاجته إلى بعض المعلومات ليقرر أي فرع منها.

«لماذا لا تنتقل إلى فرعنا، إنه الأكثر خبرة».

أجاب النقيب ضاحكاً:

«لا يتوفر لديكم إلا الضباط الاشرار».

« الأخيار يأتون مصادفة، نتحمل نوبات طيبتهم...».

«ربما يصبحون أنذالاً».

مجاملة الرائد كانت أقوى، مَحَضَه مودّته دون مقدمات. تلمّح النقيب دون مزيد من التفكير أنه يجمعهما شيء واحد لا يمكن أن يجمعهما غيره، الرغبة الشديدة في التفوق، وحتى تفرق بينهما، يصح أن يترافقا في مشوار قد يكون طويلاً، لكن على أرضية صلبة، وأوراق مفتوحة.

تسارع الحديث وأوشك أن يكون أكثر طرافة وفجاجة، لكن قطعه العقيد قائد الفوج ٨٨ وتوجه بالكلام إلى الرائد مروان، رفض إيداع اي من المعتقلين لديه، شارحاً له أن هناك تعليمات بعدم استبعاد أي منهم من الإعدام، بموجب اتفاق جرى بطلب من تحالف ضباط الداخل، ووافقت عليه الأركان، لذلك لا يتحمل مسؤولية وجود أي معتقل لديه في الفوج، لئلا يظن الضباط أنهم أوقفوا لحسابه.

رد الرائد بأن المصلحة الأمنية العليا تقتضي إرسال المعتقلين الثلاثة إلى الفرع، وهذا لا يعني إعفاءهم من الإعدام، حتى لو ثبتت براءتهم، مادام هناك حكم يدينهم، لكن بعد استكمال التحقيق معهم. إزاء إصرار العقيد على موقفه، طلب الرائد من سائق سيارته الجيب الانطلاق بالمعتقلين الثلاثة إلى دمشق بصحبة جندي مسلح، وإيداعهم الليلة في الفرع.

بعد تأكد النقيب من أن الدفعة الأولى من المعتقلين ستذهب إلى بارئها ومعها الطبيب، أحس بالتوفيق يصاحبه، فلم يبخل على الرائد بنصيحة ثمينة بشأن ضباط السرايا والقوات الخاصة، لأنه لم يقم وزناً للاتفاق المعقود معهم.

«كن على حذر، لا سلطة فوق سلطتهم».

«ومن يجهلهم؟ يظنون أنني سأجني من ورائهم ثروة، بينما سأحقق معهم في الفرع».

استغل الرائد الحادثة ليشير إلى قوة مركزه وصلاحياته، إن ما يقوم به خارج عن سلطة أية جهة، لن يتجرأوا على الاصطدام به، من هذه الناحية لا يمثل نفسه، ولا الجهاز فقط. أشار بأبهامه إلى الأعلى، أعلى سلطة في البلد.

لم يتركه الرائد إلا بعد أن وعده بأن يدرس معه الاحتمالات الأفضل لعمله المقبل. بالمقابل وعده النقيب بزيارته قريباً لدى قدومه إلى دمشق.

سمع صوت تشغيل الشاحنة، التفت، كان المساعد ضرغام قد صعد وجلس إلى جوار السائق. تحركت الشاحنة، كان هناك من يحدق فيه، ولا يحوّل بصره عنه. اصطدمت عيناه بعيني الطبيب، لم ير حزناً ولا حقداً في حياته، اجتمعا معاً، مثل هذا الذي يلمع في هاتين العينين. تمنى لو يلحق به ويقول له، ليس أنك لن تراني بعد الآن، بل لن ترى العالم أيضاً.

كانت الشاحنة قد انعطفت واتخذت طريقها صوب التلة.

٢

والشاحنة تغيب عن بصره، تراءى السهل وقد انبسط الفضاء فوقه بلا لون، وأوشك على المغيب، أشبه بلوحة مثقلة بطبيعة جرداء، وموشحة بسكون بلا نأمة، لم يستهوه التشبيه، كان يكره كل ما له علاقة بالأدب، وما يلتحق به من تعبيرات بلاغية على صلة بالغروب، والشروق، والفجر... في المراهقة جذبه الأدب، اقتبس بعض المقتطفات في تدبيج رسائل الغرام. بعدما نضج، لفظ الأدب مع الغرام، دون أن يسلَمَ منهما. ترك الغرام في داخله غصة لم يبرأ منها، وكراهية ليس للنساء جميعاً، انعكس على واحدة بعينها. خلّف الادب شوائب تظهر بين الحين والآخر، كما الآن، في ما يرمز إليه تقاطع منظر الغروب مع طموحه إلى قلب صفحة من حياته، ما يشرف على بداية تشبه الفجر، غير أن الغسق المضمخ بالأحمر، المتسلل من الثنايا الداكنة للسماء، معتلياً الأرضية القاحلة للسهل، أسفر عن إيحاءات غامضة، ارتدت به إلى مشهد ريفي، لم يتردد بقمع حنينه إليه. كان لا يطيق كل ما يعود به إلى الضيعة.

هذه الوقفة بإطلالتها على مدى، كانت شاعريته ضحلة، بما يعج به من فراغ بارد، وإن ذكّره بضده، حميمية حياة الضيعة ومفرزاتها السقيمة؛ النهارات الطويلة، والليالي الأطول، الوحدة الخانقة، والثرثرات التافهة، البرغل بالحمّص، وباصات الهوب هوب... ورباب خيبته الأولى والوحيدة.

ذاك الماضي انتهى منذ زمن بعيد، غادر الضيعة إلى حلب، أكمل دراسته الثانوية، انتسب في المدرسة إلى شبيبة الثورة. وفي الجامعة إلى حزب البعث، ودرس في كلية الهندسة، لم يفلح، فتطوع في الجيش. بعد تخرجه من الكلية العسكرية، فُرز إلى كتيبة مدرعات، تسلم فيها منصب ضابط الشؤون الإدارية، إضافة إلى ضابط أمن الكتيبة. عقب ترفعه، انتقل إلى فوج مشاة. أمسى تخصصه على الهامش، والأمن عمله الرئيسي، لم يتغير وضعه عندما انتقل إلى اللواء. وفي منظور ما بعد، سيغدو ضابط أمن الفرقة... هذا الما بعد لن يكون، الشؤون الادارية والتعيينات والمؤن والخنادق؛ ليست قدره، ولا خاتمة المطاف. حتى لو كان موعوداً بترقيات دورية واستثنائية، ستمنحه منزلاً وسيارة وامتيازات تُسهّل أموره الحياتية، مثل غيره من الضباط المحظوظين. كان يأمل تحولاً آخر، لا يمت بصلة لهذه السلسلة، لا سيما المرتقبة منها. وظيفة في مكان آخر، منصب كبير، سيلتمسه من الرئيس شخصياً، الوصول إليه ليس متعذراً، ولن يرده خائباً.

لم يكن يحلم، النقيب سليمان قابل الرئيس أكثر من مرة.

عقب حصوله على شهادة البكالوريا، وكانت بمجموع علامات متدَنّ، لا يؤهله لدخول أية كلية في الجامعة، وضعه نجاحه اللامجدي أمام خيارين، قضاء ثلاث سنوات في الجيش مدة الخدمة الإلزامية، قابلة للزيادة، حسب حالة الحرب والسلم، أو إعادة تقديم فحص البكالوريا، فاختار الإعادة.

ذهب إلى الكراج وأرسل إلى أبيه، مع سائق الباص على خط الضيعة، رسالة تعْلمه بعزمه على مناطحة البكالوريا ثانية. فأرسل له أبوه مع السائق: ما الفائدة من شهادة ثانية مادامت الأولى تجيز لك التطوع في الجيش والتخرج برتبة ملازم، مع الوقت ستصبح عميداً، وربما لواء؟

فردَّ عليه: العلم أبقى؛ الرتب مهما علت في الجيش، لا ضمانة لها، العلم ذخر لصاحبه وأبنائه وأحفاده. لقاء هذه البلاغة، امتنع أبوه عن تزويده شهرياً بذلك المبلغ الزهيد من المال، أو بما ترسله أمه من المؤونة، وإن هرّبت له في الأشهر الأولى قدراً لا بأس به من خلف ظهر الأب الغاضب، تناقصت مع الوقت حتى باتت سلامات واطمئناناً إلى أنه لم يمت جوعاً بعد.

عصى سليمان أباه ورمى بنصيحته خلف ظهره، ليس انحيازاً للعلم أو ضد الجيش، كان لحلم اليقظة الذي يراوده، تأثير أقوى من الواقع، لا يتحقق إلا بالتميز عن شباب الضيعة المتهافتين على التطوع في الجيش والمخابرات جنوداً وصف ضباط وضباطاً، لن يختط طريقهم. المستقبل الذي اختاره أقرانه كان متواضعاً لا يزيد عن حجم الثكنة. أما المستقبل المجهول الذي اختاره فكان بحجم حلب، كما كانت عينه تطرف صوب الطريق النازل منها إلى الجنوب، إلى ما يبعد نحو ثلاثمئة كيلومتر عنها، ويصب في دمشق. يجهل أبوه أن الكلية الحربية ليست وحدها المفتوحة أبوابها، بل العاصمة أيضاً؛ دمشق في البال... كانت له فيها جولات غرامية خائبة، ويطمح إلى أخرى تعوضه عنها، ليس فيها ذرة من العاطفة.

كان حظه في الحصول على الشهادة الثانوية، من دون أمل في النجاح بمعدل علامات مرتفع، كان على عداء مع الكتب والمناهج الدراسية، وريثما يحل موعد الفحص، مضى في أسواق حلب يطرق الدكاكين، بحثاً عن عمل يقيه غائلة الجوع، فاشتغل في مطعم شعبي في خان الوزير، يقضي نهاره وراء مقلاة الفلافل، يتنشق رائحة الزيت المحروق حتى ساعة متأخرة من المساء. وعندما كاد أن يختنق، أنقذه خاله الذي التجأ إليه. كان آخر ما يفكر فيه الخال أن يقرع باب ابن أخته في منتصف الليل، ويقول له، أمهلني حتى الصباح.

خاله القيادي المعروف، أحد زعماء الحزب الأوحد، انقلب به الحال إلى معارض ملاحق من رجال المخابرات العسكرية لتزعمه مجموعة من البعثيين، تمسكوا بالشرعية الحزبية، وناهضوا وزير الدفاع الذي استقوى بالجيش عليهم، وبدأ يلملمهم من بيوتهم. لم يكن معروفاً حجم الجماعة المنشقة التي جاهرت بمعارضتها، كانت أعدادهم عرضة للزيادة والنقصان حسب النجاح أو الفشل.

اختبأ البعثي العريق لدى قريبه طالب البكالوريا، على أن يبحث في الصباح عن مخبأ آخر، كان يمقت ابن اخته، لكن الظروف القاهرة اضطرته. حسب الأريحية الريفية، أظهر ابن الأخت كرمه نحو الخال، تخلى له عن سريره، وطعام عشائه، وأصر على استضافته مدة غير معلومة. وطالما كان في خطر، فلن يدعه يغادر، حتى يتوفر له الأمان. أصلح أموره مع خاله، وتبرع بنقل رسائله إلى رجالات الحزب، وكانوا قد بدأوا بتشكيل تنظيم جديد يعتمد خلايا سرية، في سبيلها إلى الانتشار في أرجاء المحافظات والقرى.

كان الخال البعثي قد رفض تزويجه بابنته، تحجج بصغر سنه، وفي الحقيقة، كان يحتقره، مثلما احتقر أباه من قبله، بعدما أغوى أخته وتزوجها رغماً عنه، وسامها العذاب، وما زال. هل يسمح بتكرار مأساة أخته مع ابنته؟ تمنى ألا يشبه الابن أباه، لكنه كان نسخة عنه، حقوداً وحسوداً، لا يتورع عن إيذاء من حوله. حاول من أجل أخته، إصلاح الجانب الوضيع فيه، لكن الشاب المعقد الغيور كان عصياً على الإصلاح. لام الخال نفسه، لما أبداه ابن أخته من شهامة، ألم يبالغ في مآخذه عليه؟ فأعاد تقييمه، وكان للأريحية والشهامة دور كبير في ترجيح كفة الإيجابيات على السلبيات. لو أن ابن أخته أعاد الطلب، فلن يرفض.

سليمان أيضاً راجع نفسه، خاله لن يستعيد أمجاده الحزبية بعدما أصبح مطلوباً، على الأرض خلايا المعارضة مهلهلة وغير ذات وزن. وحَدَسَ أن خاله لن يزوجه بابنته، سواء انتهت محنة فراره رئيساً للوزراء، أو في السجن.

مع نشاط دوريات الجيش والشرطة التي بدأت تجوب حارات حلب بحثاً عن الخال، تنشطت ملامح المستقبل المجهول، رآه سليمان من خلال الظلال الداكنة لأبخرة الزيت المقلي، وكان في الفترة الأخيرة قد راوده بكثرة وراء مقلاة الفلافل. بدا المستقبل المتواري على وشك التجسم والخروج من يقظة الحلم إلى يقظة الواقع، ولكي يتحقق فعلياً، ركب الباص إلى دمشق.

في العاصمة، قصد طالب البكالوريا الضابط وزير الدفاع، وكان عازماً على الإعلان عن حركته التصحيحية بين يوم وليلة، بينما كان التنظيم المعارض على وشك البدء بأولى تحركاته لإجهاض نواياه. كان الوزير بحاجة إلى مؤيدين وأعوان وجواسيس يعملون لحسابه في القطاع

الحزبي المدني الموبوء بالأفكار الراديكالية، يغنيه عن الاعتماد على حزبيين جشعين لديهم مطامع ومطامح، ينظرون بريبة إليه، يساومونه على مقاسمته السلطة، ويتحينون الفرصة للارتداد عليه، لو لاحظوا ضعفاً منه. كان يلزمه بعض الوقت لإخضاعهم وتطويعهم لقوانين المنفعة المكشوفة، لا قوانين الحزب المطاطة، ولم يكن لحلول ساعة الصفر متسع إلا بضعة أيام، قد تتغير فجأة إلى بضع ساعات.

مقابلة وزير الدفاع لم تكن بالسهولة التي تصورها، لهث وراءه من مكان لآخر، تعقّبه من القيادة القطرية إلى القومية، فوزارة الدفاع، فالداخلية، من اجتماع إلى اجتماع. يمنعه عنه عناصر المرافقة. لم يسمحوا لطالب البكالوريا بمقابلة الضابط الانقلابي الذي سيصبح بطل التصحيح، على الرغم من تلويح سليمان أكثر من مرة بصلة قرابته للوزير، وإن كانت بعيدة من الدرجة الخامسة، وقد تكون العاشرة. لم يأبهوا به، طردوه لصغر سنه، رغم ذلك استعصى عليهم، كان كلما اقترب منهم أخضعوه إلى تفتيش دقيق. لم يمل طوال يوم كامل من الانتظار واقفاً على الرصيف، أو في ردهة وزارة، أو أمام كولبة حارس، أو منتحياً إلى جانب الباب الزجاجي الدوار... وقد يسعفه الحظ بجدار يسند ظهره إليه.

لم يكن لتلك المقابلة أن تتم لولا أن الوزير خرج غاضباً من اجتماع عقد في مبنى وزارة الإعلام، فلم يجد سليمان حيلة لاعتراضه على الرصيف عند اقترابه من السيارة إلا الارتماء أمامه على الأرض. ظن الوزير أنه تزحلق، فمد يده وانتشله بحركة غريزية، وبينما كان يُنهضه، انتهز طالب البكالوريا لحظات لا يجود بها الزمن إلا مصادفة، وقال له إنه يعرف مكان عبد اللطيف حسون، كانت كافية ليؤجل وزير الدفاع اجتماعه التالي في اتحاد الفلاحين ساعتين من الزمن، ويأخذه معه بسيارته إلى بيته في شارع الباكستان. في الطريق، استمع إلى وشايته شارداً، انشغل بالليل الدمشقي، وكان مكفهر الظلام، هل يصفو له؟ وعندما تنبه إلى المراهق الثرثار، عدل عن الاهتمام به، مستبعداً إيقاع ابن الأخت بخاله. عند مدخل البناية، تركه في السيارة ونزل، بعد أن قال للسائق، أوصله إلى الكراج. لحق به سليمان، ورجاه ألا يترك خاله حراً.

في اللحظة التي استدار وزير الدفاع إليه، أحس بالتعب، وتذكر أنه جائع، قرر إلغاء اجتماعه

بالفلاحين، وتناول العشاء وأخْذ قسط من الراحة، وأن يمنح المراهق اللحوح فرصة في وقت كان مستقطعاً من الظلام، ريثما يحل اجتماعه في آخر الليل مع ضباط المخابرات لإجراء ترتيبات ساعة الصفر المجهولة. قال له، إذا ظهر أنك تكذب، فسوف آمر بإعدامك. متوقعاً أن يفر الولد هارباً، لكن الولد أظهر صلابة ولم يتراجع عما قاله. فاضطر الوزير إلى التوقف في غرفة الحرس. رفع السماعة وطلب من حامية حلب التوجه إلى العنوان المذكور وإلقاء القبض عليه. أبقاه لدى الحرس يكرع الشاي، الكوب تلو الكوب، إلى أن تبلغ الوزير من قائد حامية حلب، وهو مضطجع على الصوفا بعد العشاء، أنهم قبضوا على المطلوب وهو واقف الآن بالسروال الصوفي الداخلي، مقيد اليدين، ينتعل شحاطة مهترئة. ولكي يكون على يقين مما تبلغه على الهاتف، قال لهم أسمعوني صوته، فضربه الرقيب قائد الدورية ببوز بسطاره على ركبته. فصرخ المقبوض عليه متألماً. فتأكد أنه بغيته من بحة صوته، التي طالما عكّرت عليه مزاجه في الاجتماعات الحزبية، وكانت دائماً مترافقة بخبطة قبضته على الطاولة. الآن قبضة الضابط سبقت قبضة المعارض، وأصابته على أم رأسه. اعتقاله آذن بالخطوة اللاحقة، وهي الأخيرة، قبل أن يشرق فجر التصحيح على البلاد.

استدعى الولد سليمان من غرفة الحرس، وسمع منه قصته كاملة، طبعاً لم يصدق منها الوطنية الزاعقة التي أسبغها على وشايته، لكنه فهم منها أنه عاطل من العمل، وناجح في الثانوية بدرجة شحط، فأخذ اسمه وعنوانه، ثم أعطى أمراً للمحاسب كي يعطيه خمسة آلاف ليرة. فما كان من سليمان إلا أن باح له بأمر الخلايا السرية، فوعده الوزير بمكافأة إضافية في القريب العاجل.

بعد أن تركه توجه إلى اجتماعه في المخابرات، وكان للخبر الذي حمله معه تأثير كبير في الضباط المجتمعين، كان بعضهم غير ميالين إلى المشاركة بأي انقلاب، ولو كان تصحيحاً لما سبقه، فرص التفاهم مع المعارضين لم تستنفد بعد، كانوا خائفين من جبهة الحزب السرية أن تتوسع وتشن عليهم حرب عصابات تنطلق من الأرياف إلى المدن. أما وقد تهاوت وانفرطت بالقبض على الرجل الفاعل فيها، فلم يعد التصحيح معرضاً للإلغاء، ولا للتأجيل؛ ساعة الصفر باتت معلومة.

نجح التصحيح دون كثير معوقات، أسهمت فيه وشاية سليمان، كانت القشة التي قصمت ظهر الطرف المعادي. لذلك أولاه الوزير الذي أصبح رئيساً للجمهورية بعد بضعة أشهر، رعايته الخاصة، وإن كان عن بعد، لكن سليمان سيبالغ بينه وبين نفسه، ويدّعي أنه كان السبب في النصر الذي أحرزه الوزير.

لم يُسَلّم ابن الأخت خاله لأسباب عقائدية، وإن زعم أن عضويته في شبيبة الثورة؛ تملي مبادئها الشبيبية على الطالب الشبيبي الإبلاغ عن الرجعيين معرقلي تقدم الثورة نحو تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية، فكان أميناً لها. أما الخال الذي لم يعرقل أياً من هذه الأهداف، وإنما عارض التصحيح، لانحراف دعاته عن الثورة، والتخلي عن العمال والفلاحين وأخذ جانب البرجوازية الرجعية، بما دعي في كتابات المنظرين اليساريين الكبار، بالثورة المضادة، فلم يدر أنه بعد زمن قصير، سيصبح هو وأمثاله الثورة المضادة، بينما ستكرس الحركة التصحيحية على أنها امتداد للثورة المباركة.

هل كان مديناً للمصادفة أم لعواطفه الجريحة؟ تساءل سليمان. لم يكن متأكداً، ما الذي حرّضه على تسليم خاله إلى خصومه، الثأر للإهانة، أم المستقبل المجهول الذي تهيأ له بمصادفة، لم يدعها تضيع هباء؟ الحقيقة، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، لولا الأول لما كان الثاني. اعتراف لم يبح به لأحد، لئلا تنتقص خصوصية فعلته من سلامة وطنيته، ما دام السبب المتوافر يزيد عن المطلوب: التآمر على الثورة.

كان سليمان طالباً في الصف التاسع، عندما أحب ابنة خاله رباب حباً عذرياً، وكانت تكبره بثلاث سنوات، قد نجحت بالبكالوريا بعلامات مرتفعة اهلتها لدخول الجامعة بدمشق، كلية الهندسة. فتاة مكتملة الأنوثة، جميلة، بيضاء البشرة، عينان خضراوان، مكتنزة الجسم، قامة معتدلة. أحبها من فرط مديح أمه لاجتهادها وجمالها.

وقفت العداوة بين الآباء عثرة أمام حبه، مع أنها لم تنتقل إلى الأبناء، لكن إذا كان سليمان روميو، فرباب لم تكن جولييت، أسقطته من حساباتها العاطفية من دون عداوة، ومع الوقت أسقطته من العائلة، لكنها ستضطر إلى تذكره من الرسالة الغرامية التي دسها في حقيبتها. عندما أمضت

عطلة منتصف العام الدراسي في الضيعة، زار بيتهم مع أمه، لم تنتبه إليه، فلم تشعر بوجوده.

أجهدت رباب عقلها لتربط بين الرسالة العاطفية الحارة والولد الخائب المشعث الشعر، من أين له هذه الإحساسات المرهفة؟! لم يُخف عليها أنه اقتبسها من كتاب فن كتابة الرسائل الغرامية. مزقت الرسالة لئلا تؤدي إلى شجار عائلي. رسائله لم تتوقف، وكانت يومية، يتسلل ليلاً ويرميها من النافذة إلى غرفة نومها. قبل مغادرتها الضيعة وعودتها إلى الجامعة، جمعت الرسائل في رزمة واحدة، لتجد طريقها إلى أمه التي هي عمتها، فحرقت الأم دليل هيام ابنها بابنة خاله، لكن الحب لم يحترق.

كابد في غيابها ما يكابده العشاق الصغار، أرقاً وسهراً، لواعج وأغاني. اعتقدت أمه أن البعاد عن ابنة خاله لفترة من الزمن، سيجعله يكبر سنة، تكفيه ليعقل أن فارق السن والحزازات بين العائلتين كفيلان بإنهاء قصة مراهقته. خاب حزرها، نيرانه لن تخبو تحت الرماد، كانت تتأجج، وسيتجدد حبه على نحو أكثر سماجة. في العطلة الصيفية، قطعت رباب إقامتها في الضيعة وسافرت إلى دمشق فراراً من مضايقاته النهارية والليلية؛ اتصالات هاتفية ورسائل غرامية معطرة، ترصّد واستراق سمع. لحق بها، وعاد من دون الظفر برؤيتها، لم يعرف عنوانها.

مع بداية العام الدراسي، سافر إلى دمشق، ليواصل نشاطه العاطفي. عثر عليها في عنوانها الجامعي: كلية الهندسة في البرامكة، أطل عليها في الكافتيريا جالسة مع زملائها من الفتيات والشبان الدمشقيين، يتبادلون الأحاديث المنمقة اللطيفة. ثارت ثائرته، ما حرمته منه، أنعمت به عليهم. احتل كرسياً بجوارهم وخاطبها بصفته قريبها: يا بنت الخال. ونبهها إلى ضبط تصرفاتها مع الأغراب، كاد أن يسبب لها فضيحة، لولا أنه خاف أن تمنعه من حبها. أمل أنهما سيتصالحان ويتعاهدان على الزواج، كما في الأفلام. أبلغت أباها بما فعله معها، فذهب إلى بيت أخته وهدد الأب، لو حاول ابنك التعرض لابنتي ثانية، فسوف أرميه في السجن. وكان خاله في ذلك الوقت من الحزبيين المرموقين، ليس في الضيعة أو المحافظة، بل في سورية.

على الرغم من أساليبه الجهنمية، وعناده الشرس، أفقدته الصدمة الشهية إلى الطعام، والتركيز في المدرسة، وجافاه النوم ليلاً. غير أن أباه، وعده إذا نجح في البكالوريا، بأنه سيعطل ممانعة

أبيها، فهي ابنة خاله وهو الأولى بها، ويحق له أن يخطفها. لكن ليس قبل الحصول على شهادة بكالوريا مثل شهادتها، وأن ينتسب إلى الجامعة، قبل أن تتخرج هي منها، وتتفوق عليه بشهادتها الجامعية، عندئذ يخطبها له بشكل رسمي أمام أهل الضيعة كلها. الوعود الأبوية كانت محفزات لينجح في الثانوية.

زياراته المحبطة إلى دمشق، ستودي به إلى أن تصبح العاصمة هدفه، هناك العالم والحياة، أما الضيعة فليست عالماً ولا حياة. وسيكره الدمشقيين، ويخطر له التخلص منهم. لم تكن الفكرة غريبة، كان الحزبيون الريفيون يعتقدون أن الثورة، هدفها غزو دمشق. بالاستناد إلى أن البرجوازيين الإقطاعيين، في زمن ما اضطهدوا القرويين عامة وسخروا منهم، خصوصاً الحوارنة والعلويين، وبما أن الدمشقيين برجوازيون وإقطاعيون، فحان أوان سداد الدين.

عانى سليمان في الصف الحادي عشر من مأساة حبه، وبذل من الدموع والأنين، ما أقنع أمه بأن ابنها قد يموت لو أن خاله أصر على عدم تزويجه ابنته، وكان الرفض مضموناً، فأرسلوه عندما نجح إلى الصف الثاني عشر إلى حلب ليدرس البكالوريا، علّه يتلهى وينسى الحبيبة. درس بجد، وظفر بالشهادة من أجلها، نجح وإن بعلامات تافهة. وقبل أن يكرروا الطلب بعد سنة أو سنتين، ويتكرر الرفض، أبلغهم خاله بأسلوب لطيف حرصاً على ألا يؤذي الأب زوجته التي هي أخته، بأن رباب لن تتزوج، لأنها ستحضّر رسالة الماجيستر خارج سورية. كان الجواب نهائياً وحاسماً.

من هذه الناحية، أمكنه تفسير حادثة إبلاغه عن خاله على أنها: كان غرام، وكان انتقام.

بعد سنوات، سوف يستسخف قصة حبه، كأنه لم يكن هو، هل كان ذلك المراهق الأبله؟ كيف أضاع ذكاءه في معمعة عشق بليد؟ ما هي إلا فتاة قروية، حتى لو كانت مهندسة، لم تحصل على العريس المناسب، تعالت على الذين تقدموا للزواج منها، مع أن أباها كان معتقلاً، دونما أمل بإطلاق سراحه. كان يسخر منها كلما جاء ذكرها، لكن في داخله حافظ على حبه لها، وكأنه لم يغادر مراهقته الفجة، وإن حاول نسيانها بممارسة الجنس مع العاهرات، يعقد شبهاً بينهما لإذلالها، وكانت تفلت من المقارنة والإذلال، وتحافظ على صورتها نقية بلا شائبة. لن يسامحها،

سوف تبقى نقطة ضعفه، وكلما يتذكرها، يحس أن زمناً لم يمض، فيستسخف نفسه ثانية، كونه مازال ذلك الولد الغبي.

غير أنه سيعود ويفكر، ثمة سبب آخر مباشر، لا يقل عما سبقه أهمية، غيرته من خاله البعثي صاحب التاريخ النضالي المشرّف، قضى الخال عمره بين السجون والمنافي والملاحقات والمؤتمرات القومية والقطرية. حياته سجلّ حافل بالتخفي والمغامرات السياسية. كان الشخص الوحيد في العائلة والقرية الذي يمتلك المهابة والثقافة، مع سمعة طيبة بأوساط الحزب في العاصمة.

منذ كان سليمان طالباً في الإعدادية، قبل قصة غرامه المشؤومة، عمل حساباً للمستقبل البعيد، ووضع نصب عينيه احتلال موقع مرموق فيه، لا ينازعه فيه أحد، نافسه على هذا الموقع خاله. آنئذ بدت إزاحته ضربة استباقية على المدى الطويل، تمهد له الطريق ليحل محله. كانت الفكرة إجرامية، يمكن هضمها على أنها نوع من الولدنة، ولقد تفهمها سليمان فيما بعد، عندما قرأ بعض الكتب المبسطة في علم النفس، فبدت له على علاقة بالعلم والنفس: إذا كان هناك شيء على وزن قتل الأب، فهو قتل الخال، هذا ما فعله، لم يقتله رمزياً، قتله بإرساله إلى السجن، لو لم يتخلص منه في هذا الظرف الانقلابي، لما تجرأ عليه. لم يطمح إلى بلوغ مكانته، بل تخطيها. كان عقبة يستحيل تذليلها بالأسلوب السلمي، وسائلهما مختلفة، يعتمد خاله الجدل والحجة، أما هو فالمناورة والخداع. كانت أية منافسة، ولو في الخيال، محسومة لصالح خاله، ما سهل عليه أن يخونه. مدركاً أن العظمة تأتي بها الأعمال الحقيرة أيضاً.

لم يظن الخال أنه كان موضوع إحدى العقد المستحكمة بالولد الحقود. ربما عرف بكراهيته له، لكنه لم يعتقد أنها ستقوده إلى حد خيانة رابطة الدم، والاستهانة بالقرابة العائلية ومجتمع الضيعة!! كانت إحدى مآسيه التي استغلقت عليه وهو في غياهب السجن، وتركت جرحاً عميقاً في داخله، لم يلتئم إطلاقاً، مهما يكن فهو ابن أخته. لم يفهم تصرفه إلا على أنه لغز لا تفسير له سوى أمراض الوراثة وانحرافاتها الغامضة.

بعد أيام قليلة من القبض على المعارض الحزبي عبد اللطيف حسون، قام الضابط وزير الدفاع بحركته التصحيحية، وتسنم رئاسة الوزارة الجديدة. سيطر على البلد، وصحح مسيرة الثورة.

ولم يطل الوقت حتى أصبح رئيساً للجمهورية.

لم ينس الرئيس وعده لسليمان بالمكافأة الإضافية، ذكّره به اقتراب بدء العام الدراسي. استدعاه، بعد أن أكبر فعلته الوطنية الجسورة، سأله عن أوضاعه، وكانت سيئة، شهادة البكالوريا التي يحملها لا تؤهله إلا للتسكع في الشوارع. سأله عن الكلية التي يرغب في الانتساب إليها. من دون أي تفكير أجاب: الهندسة. لم يكن في رأسه سواها، أي رباب. أعجب الرئيس بطموحه عندما حدد هدفه بسرعة فائقة. بعد أيام أرسل إليه من أبلغه بقرار الجامعة قبوله في كلية الهندسة. وتحقق بذلك انتقامه الثاني من ابنة خاله، جمعهما مكان واحد، سنة دراسية كاملة، قبل أن تتخرج من الجامعة. خلالها لم يتجرأ على الكلام معها.

سُجل سليمان في الجامعة على أنه ابن شهيد، مع أن أباه كان على قيد الحياة. خبر وشايته عمّ الضيعة، فطأطأ الأب برأسه بين الأقارب والجيران، ولعنه في الصباح والمساء. اختيار رئيس الجمهورية له أن يكون ابن شهيداً لم يكن اعتباطاً، بل على أساس فرضية تبادل الموت بين الأب والخال، أي حلول الخال الذي سيقضي شهيداً في السجن محل الأب، متنبئاً لغريمه بعدم التراجع عن إيمانه بالشرعية البعثية، لسبب قوي، يباسة رأسه، كان قد خبرها مراراً في الجدالات الحزبية الماراثونية.

اختفى أعضاء التنظيم المعارض في المعتقلات ردحاً من الزمن، ثم أرسلوا إلى سجن المزة، محطة الوصول ما قبل الأخيرة، يقرأون الجرائد المحلية، ويشاهدون القنوات الرسمية، وحدهما كانا كافيين لقتلهم بمنتهى الألم وببطء شديد. تبدأ حفلة التعذيب صباح كل يوم مع تتالي الأخبار الملعونة وصور الرفيق الرئيس يستقبل رؤساء الدول، يحضر افتتاح مؤتمرات الحزب، يخطب في الجماهير الغفيرة مستعرضاً إنجازاته الصغرى على أنها كبرى، يعلن الحرب على إسرائيل، يشمل الإخوان المسلمين بالإعدام، ينفح الشعب بالأعطيات والمكرمات، يستقبل المشايخ والبطاركة، يضع نهاية للحرب بالسلام الاستراتيجي، يتلقى برقيات التهنئة بالأعياد الوطنية والقومية والدينية، الجماهير تحتفل بانتصاراته...

بعد سنوات طويلة خرج بعضهم من السجن إلى القبر، وبعضهم الآخر معلولاً، إلا الذين

أعلنوا التوبة واستقالوا من العمل السياسي ليتواروا عن الأنظار خجلاً من تنكرهم لمبادئهم الحزبية، أو كانوا بالغي الوقاحة، تخلوا عن رفاق الدرب، وأصبحوا من رجال النظام القائم. خاله كان من الذين انتهوا في الظلام.

في الجامعة لم يمارس سليمان أي نشاط حزبي، على الرغم من بعثيته، لاعتبارات أمنية، حتى أنه لم ينضم إلى اتحاد الطلبة، أصبح بموجب فعلته المرموقة في موضع متقدم، أصبح اتحاداً لوحده، يبحث عن فريسة لا تقل عن الأولى. لم يفلح في التعلم، الهندسة لم ترق له على الرغم من أفكاره الهندسية التآمرية، فأوشك على الرسوب في السنة الأولى، لكنّ أستاذاً في الكلية أحسن التدخل لصالحه في الوقت المناسب، ورفّعه إلى الصف الثاني، كان على علم بمن فرضه على الجامعة. أما إنجازه في كلية الهندسة، بعد تجربة الخيانة، اضطراره بعدما لم يجد ما يفوقها إلى الاكتفاء بالوشاية، خصوصاً أنها لم تعد تقتصر على صغار المخبرين فقط، باتت الشغل الشاغل لأساتذة الجامعة والطلبة البعثيين المناضلين من شتى الأعمار.

وشى طالب الجامعة بأصدقاء كانوا مخلصين له، متدينين يصلّون ويصومون ويتصدقون على الفقراء، وثقوا بادعائه التوبة عن حياة اللهو والعصيان والزندقة، وكبادرة حسن نية، تَدَيّن وأعلن طلاقه من المذهب العلوي، مع انه يجهله، ولم يُطلب منه التنكر له، وأصر على الانتساب إلى الاسلام الصحيح، وآمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وحسُن إسلامه، أطال لحيته وحفّ شاربيه. باح له زملاؤه بأسرارهم وآمالهم في نشر مبادئ الدين الحنيف، فشجعهم على التفكير بخطوات عملية، بتشكيل «رابطة الشباب السوري المؤمن» لهداية جيلنا الضائع في ظلمات المادية والإلحاد والحزبيات العلمانية الضيقة، بالدعوة إلى الأخلاق الحميدة، وفعل الخير. كان مخلصاً لأصدقائه، لكن كان إخلاصه للمخابرات أكبر. إيمانه الراسخ، لم يتعارض مع إيمانه الخفي الثابت بالحزب وبالقائد الأوحد.

كان من مفاعيل تحريضه توريط أصدقائه في العمل السري، وتحويل فعل الهداية إلى عمل سياسي هدام، ومنذئذ لم ير رفاقه في الايمان إلا النور المنبعث مما حفظوه من القرآن، وسيكون النور الوحيد الذي سينير لهم دربهم في الظلام الدامس للمعتقلات والسجون، تلك التي لا

يفلح نور في إنارتها ، فاقتصر الضياء على أرواحهم. وسوف ترسل بهم تنقلاتهم بين فروع الأمن، وطول إقامتهم في مراكز التحقيق المختلفة إلى سجن تدمر الرهيب، هناك ضاعت أخبارهم. بعد ثماني سنوات، لاقوا حتفهم رمياً بالرصاص، لمصادفة تواجدهم سجناء في أحد المهاجع المخصصة للاخوان المسلمين. في ذلك اليوم، أتاح لهم جنود سرايا الدفاع الشهادة مع رفاق السجن. ليلتها امضوا الوقت يتناقشون حول فريضة الجهاد، النور قادهم إليها، غير أن الرصاص أطفأها.

وصلت إلى الرئيس مأثرته في الإيقاع بفصيل إسلامي شبابي خطير، فلم تذهب سدى. طلبه الرئيس، وأثنى عليه، آخذاً بعين الاعتبار تقريراً بشأنه خلاصته: لا جدوى من دراسته في كلية الهندسة، مع أن نجاحه مضمون. إذا كان سيعمل في الدولة، فسوف يخرب ولا يبني. كان الرئيس قد خرج لتوه من حربه الثانية مع إسرائيل، حرب تشرين المظفرة. كان مرتدياً ملابسه العسكرية لهذه المناسبة برتبة فريق. الغبار عالق على هندامه، على أمل أن تكون هذه الحرب آخر عهده بالغبار والخنادق، وأقبية قيادة العمليات في الملاجئ تحت الأرض.. كان من جملة ما حددته الحرب، أن المفاوضات هي الحل الوحيد للنزاع العربي الاسرائيلي، ولم يكن مستعجلاً على التفاوض.

أوضاع كثيرة تغيرت على أثرها، لم يعد الرئيس بحاجة إلى ضباط للمعارك، حاجته أكبر إلى ضباط موالين حتى العظم، أمناء يدفعون عن الدولة شرور التمرد والانقلابات، ومخبرين على دراية باكتشاف مناهضين لنظام بُدئ بترسيخه على نمط يدوم زمناً يتعدى السنين والعقود.

بدا الطالب الجامعي ملائماً ليكون في صلب مشروعه، ليس كطالب بل كجندي، هذا الشاب شحذ مواهبه على اكتشاف أعداء الثورة التي صححت إلى أمد غير منظور، لا تصحيح آخر لها، ما دامت آخذة بتحقيق أهدافها. كان تفكير الرئيس متجهاً إلى الغاء الثورة كمفهوم وفعل، والاستعاضة عنها بالاستقرار والأمان.

بما أن في استطاعة أي كان أن يصبح مهندساً، نصحه الرئيس بالانتساب إلى الكلية العسكرية، لا ليعمل على استعادة الأراضي المحتلة، السلام كفيل بها، الدولة بحاجة إلى جنود مخلصين، على أن

يُرحّل من الجامعة إلى الجيش، ليتطهر من أدران الحياة المدنية، من دون اعتبار للاختصاص، لأنه سيكون ضابط أمن في القطعات العسكرية، لن يبخل عليه بالترفيعات العادية والاستثنائية، ولن ينساه من الامتيازات. فصدع الجامعي المقدام بأن يكون من حماة الوطن.

جزم الرئيس أن الضابط المقبل سيكون عند حسن ظنه به، لكن خامره سوء الظن، إن لم يكتشف مؤامرة، فسوف يخترعها!! كان هذا هو المطلوب، استباق الخطر، ولو كان مجرد افتراض، أو توهم.

في الكلية الحربية، وما بعد في القطعات العسكرية، لم يهتم الملازم ثم الملازم الأول، فالنقيب، بالمشاريع والتدريبات العسكرية، ولا بالانضباط، قدر اهتمامه بما هو خبير فيه، مارس ما اعتاد عليه من صداقات وثيقة، تعتمد على استدراج معارفه وزملائه إلى الاستطراد في الكلام بحرية، مع أن تنفيذ هذه التكتيكات كان عسيراً بين أخوة السلاح، إن لم يكن مستحيلاً، فالجيش لا يقبل بين صفوفه إلا الشبان العقائديين، وأمثاله من الريفيين المؤمنين بالقائد الفذ المنقذ من نير الإقطاعيين والرأسماليين، مع أنهم لم يعانوا منهم، لكنهم قرأوا في أدبيات الحزب ما تحمله أجدادهم من قهر، وما ترامى إلى مسامعهم من روايات شفاهية عما تعرض له أجداد أجدادهم من مذابح ومجازر.

لن يعوزه الدهاء، اكتشف شبكة من المتآمرين الضباط، كانوا في الحقيقة ضابطين، تكلموا حول أشياء، كانت حلماً عسكرياً قديماً يراود الضباط الصغار، وهو القيام بانقلاب عسكري، أسوة بأكثر من رعيل سبقهم؛ أمست بعدهم الانقلابات جزءاً من الماضي التليد للجيش حامي الديار، ولم يعد للضباط صولات وجولات في العاصمة مهما بلغت رتبهم، سمعتهم أودى بها سجل بائس في ميادين القتال، بعدما خسروا الحروب التي خاضوها، واحتُلت أراض باتت رهينة التنازلات والمساومات.

لماذا القوة العسكرية الضاربة إن لم تكن لتحرير الأرض؟ تساءل الضابط العميل المتطوع للتجسس على زملائه الضباط، وكان قد ترفع حديثاً إلى رتبة ملازم أول، رافضاً المفاوضات، ومحرضاً على استعادة دور الجيش في صناعة مصير الوطن، الجيش لن يتخلى عن أراضيه

المحتلة، لا تحرير قبل الاستيلاء على دولة هي عاجزة عنه، فتجدد حلم الانقلاب، وتهيأت أسبابه، وكانت التوقعات مبشرة، الجيش الخاسر على الحدود، سيربح معركته في إسقاط الحكم.

هذه السلسلة، كانت منطقية فقط، من دون القدرة على تحويلها إلى سلسلة عملية، إذاً كيف ستكون فعالة، الوسائل مفتقدة؟ حول هذا التساؤل الذي طرحه الضابطان، سيدور الجواب، لم يعثرا على خطة تحرك جاهزة مستقاة من أسلافهم ضباط الانقلابات، أو أنهما قبل العثور عليها، قبض عليهما، وأخضعا إلى التحقيق، استدعي على أثرهما رفاقهما ومعارفهما من الضباط، فتضخمت المجموعة. زعم الضابطان أنهما كانا غير جادين على الإطلاق، ولم يكن الانقلاب إلا لغواً أحمق، لتسخين مناوبات الليالي الباردة. إزاء هذا العدد الكبير من الضباط، سواء كانوا مازحين أو جادين، أو كانت لهم علاقة بهذه المطامح، أو لم تكن، ومن دون الدخول في التفاصيل، صداقتهم وحدها كانت تدينهم، الأصدقاء ينفعون في الانقلابات، ويكون بعضهم عوناً لبعض، وما يضاعف في جريمتهم، أنهم عسكريون، وليسوا مدنيين لتقتصر أحلامهم على الثرثرة، ولا تتعداها إلى التنفيذ.

كانت وجهة نظر المحكمة سديدة: ماذا سيفعل ضباط حملة سلاح، بإمرتهم جنود ودبابات، العاصمة بمرمى أبصارهم، والأهداف المطلوبة لا تحتاج إلى نقاط علاّم على الخريطة: القصر الجمهوري معروف مكانه، مبنى الأركان في ساحة الأمويين، إلى جواره على الطرف المقابل مبنى الإذاعة والتلفزيون، وخلفه مبنى آمرية الطيران. أما مراكز المخابرات، فالمركز الذي تعرفه يدلك على المركز الذي لا تعرفه... وبغمضة عين تتحول أحلامهم إلى أمر واقع، وما تبقى تحصيل حاصل، القبض على الرئيس، بث بيانات الانقلاب على الهواء مباشرة، ثم بضعة إعدامات لا أكثر.

ردت عليهم المحكمة العسكرية بالمثل، بضعة أحكام بالإعدام لا أكثر، أما الضباط الأبرياء، فأحكام تراوحت بين السجن المؤبد وعشر سنوات. فعلياً حياتهم انتهت في السجن، والذين خرجوا منه بعد قضائهم المدد المحكومين بها، أو شملهم العفو الرئاسي، سُرّحوا من الجيش وأغلقت في وجوههم وظائف الدولة.

كان إنجازاً ممتازاً، حققه في عقر قطاع الجيش. نهاية المطاف، باتت سمعته تسبقه أينما حلّ، التحايل لن يساعده في الايقاع بضحايا أبرياء أو غير أبرياء. غير أن المنعطف المقبل لن يتأخر، سيواجهه في حماه، التي ستشكل بالنسبة إليه إحباطاً كبيراً وإثارة أكبر.

كانت البطولات سانحة على الأرض، تحققها كثافة النيران أكثر من الشجاعة والجرأة، غير أن تمركزه في الخطوط الخلفية لم يسمح له بتنفيذ إلا ما كلف به؛ تعويض ما ينقص الكتائب والسرايا المقاتلة من الذخيرة، وتزويد الجنود بالمعلبات وخبز الصمون والبرغل والمرقة الخالية من اللحم، بينما صدى ما يدور في جبهات القتال يدوي في أذنيه، حيث حرب الشوارع يخوضها الجنود خلف أكياس الرمل والحواجز في الحميدية والبارودية والعصيدة والزنبقي والشمالية...

اقتصر كضابط أمن على ما أسند إليه من مهام، تنجز خفْية حسب المعتاد. لكن الخفاء الآن لا يقدم شيئاً. اللافت، جحافل الدبابات وراجمات الصواريخ وطائرات الهيلوكوبتر. والمروع، المهمات القتالية الوحشية المسندة إلى عناصر سرايا الدفاع والقوات الخاصة، بينما المطلوب منه هو التنصت سراً على اتصالات الضباط في الصفوف الأمامية ورفع تقارير عن تخاذلهم أو انتقاداتهم، أو حتى تذمرهم، وهي تكاد أن تكون معدومة، مادام الجميع متفانين في التنكيل بالأهالي والاغارة على البيوت.

في حماه فرص لا تعوَّض، السلب والنهب متوافران بسخاء، مع فضاء مفتوح للقتل ولا شيء غير القتل. كان تخلفه في هذا المضمار انتقاصاً من قدراته التي يجهلها، مع أن فكرة القتل راودته عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية، آنئذ أراد التخلص من خاله بهذه الوسيلة، ونبذ الفكرة لخوفه من الإقدام على عمل دموي، جريمة بهذا الحجم، شأن الكبار لا الصغار. الأمنية التي لم تتحقق، جعلته يدرك وهو بعد على مقاعد الدرس جدواها، انتزاع حياة الآخر كأحد أشكال الغلبة النهائية، ليس غير القتل فاعلاً مؤثراً لإنهاء صراعات قد تطول، بينما ينبغي إخمادها بأقصر وقت. تغلب على ما ينقصه، وقتل من دون سبب وبلا مبرر، تجربة نظيفة من الشبهات والمآرب، خالصة لوجه القتل.

شكراً لحماه، أتاحت له هذه التجربة.

قبل أن يكمل الغروب غروبه، تناهى إلى سمعه أصوات إطلاق الرصاص، كأن جبهة من الخنادق انبثقت منها عشرات البنادق، فتحت نيرانها دفعة واحدة نحو جبهة من معتقلين، جرجروا قبل قليل إلى جدار من فراغ... حفلة الإعدام انتهت.

بوسعه الآن العودة من حيث أتى، الطبيب لاقى حتفه، وإن بواسطة غيره، لقد فعلها ثانية: صمم على قتله، ونجح. مجزرته الصغيرة اكتملت، والسبب يمكن اختلاقه، لم لا يكون صحيحاً؟ هذا الطبيب الذي أصبح جثة هامدة، تعاطف مع المسلحين، قاتل معهم، أو عالج جرحاهم، أو آواهم لديه، أو ساعدهم... واحدة منها تفي بالغرض.

الهواء البارد لا يزعجه بقدر ما ينعشه. هذه اللحظة لن ينساها، كان يغادر عالماً لم يعد يعنيه، ليس هذه الساحة، أو تلك الخيام والأبنية القبيحة، أو حقل الرمي، وإنما الجيش، الشؤون الادارية، أمن الفوج... ستصبح كلها جزءاً من ماض ليس حريصاً عليه، ولا يرغب في البقاء مرتبطاً به، انتزع ما يريده منه، ولم يكن قليلاً. عالمه الجديد في طريقه إلى التشكل؛ الانتقال إلى منصب كبير في جهاز المخابرات، لا أقل من رئيس فرع. عندئذ لا وسيط ولا وسطاء، ولا تقارير تُرفع إلى سيادة العميد أو العقيد أو المقدم...

مد بصره نحو الأفق، كان قد تلاشى في تلافيف عتمة هبطت على المكان.

٣

في اللحظة التي غاب فيها النقيب عن عيني الطبيب، صدع رأسَه عنينُ المحرك، وضاق صدره بتزاحم الأجساد المتلاصقة. كان قد احتل حيزاً صغيراً في خلفية الشاحنة. ارتدّت إليه مخاوفه، إذا لم تنجح خطة المساعد، فسوف يُحمّل عائلته عبء انتظار مضن طويل وبلا جدوى. تمنى أن تؤنسه ملامحهم، تذكر عيونهم الهلعة عندما صعد إلى الجيب، فكدرته. كانوا مصيبته، وكان مصيبتهم.

ناءت الشاحنة بحمولتها وهي تعتلي التلة، لا شيء يلوح، أو أنه لا يرى. لم تفلح الريح في تبديد

رائحة الزيوت والشحوم الملطخة أرضية الصندوق. الشاحنة تتقدم مجهدة، متوغلة في الخلاء، بينما السراب في الأفق بدا لامعاً، ينبسط على الرمال بلا انتهاء، كأن العالم سراب في سراب. يتأمل خائفاً فضاء، لم يكن فارغاً ولا مرعباً مثلما هو الآن. بعد قليل، تلامح الجنود، يتمايلون أشبه بسنابل القمح متقاربين ومتباعدين، إلى جوارهم ثلاث خيام منصوبة فوق أرض بدت مقفرة.

الشيخ بجانبه، تغضنت ملامحه وغارت عيناه، لم تنشف دمعته، سأله عن المكان الذاهبين إليه.

سنذهب إلى... وأشار بيده إلى الخيام.

نظر الشيخ إلى حيث أشار، فلم ير شيئاً. سأله، هل سنبيت هناك؟ لم يجب.

انحدرت الشاحنة بتؤدة. أعاد الشيخ سؤاله، فتبرع أحدهم بالجواب: لن يطول احتجازنا، سيفرجون عنا قريباً. كان الذين حولهم يصغون. تابع الرجل الكلام، سيفرجون عن الكبار في السن. أما الشبان، فالعلم عند الله.

تدخل رجل أشيب في الخمسين من عمره، كان من الوجهاء، قال إن محاضر المحكمة سترسل إلى دمشق، هناك يبتون بأمرهم، ستعاد محاكمات الكثيرين، إن لم يكن كلهم، هيئة المحكمة لم تبحث في دواعي توقيفهم، الاتهامات كانت بالجملة، ولا أدلة. فسكنت النفوس.

أثار توقف الشاحنة إثر وصولها إلى الموقع موجة من الغبار، وسلسلة من الشتائم، تعالت من الرقيب المسؤول متوعداً السائق الذي داعبه بمحاولة دهسة. استعدوا للنزول من الشاحنة، ارتفاع الصندوق أعاقهم، أفلح الشبان في القفز منها، الطبيب كان أحدهم، وقف إلى الجانب الأيمن للشاحنة، وعلى الطرف الآخر وقف شاب، عاونا الشيوخ على النزول. وقع عجوز على الأرض، لم يستطع النهوض. انحنى الطبيب ورفعه من تحت إبطيه، ساعده على الوقوف، ركبتاه تنزّان دماً، أسنده إلى دولاب الشاحنة، أخرج منديلاً من جيبه ومسح التراب عن موضع السحجات. هبت الريح محملة بالرمال، فزوى ما بين عينيه.

المعتقلون يجرجرون أقدامهم، متقاربين ومتفرقين، يخطون بحذر أشبه بالعميان، الواحد منهم يصطدم بالآخر، يتلمسون بعضهم بعضاً، ويشقون طريقهم في الفراغ العاصف والبارد. يدورون حول أنفسهم، فلم يتقدموا أو يبتعدوا عن الشاحنة.

خفتت موجة الريح والرمال، فظهر الجنود وقد اسندوا أيديهم إلى المعاول، عددهم لا يزيد عن عشرين، استأنفوا العمل، الرقيب النزق شتمهم على تباطؤهم، وشتم البرد والمطر والخدمة العسكرية وهذا النهار الذي ضاع، لم ينهوا حفر خندق لا يتجاوز طوله عشرة أمتار وعرضه مترين، لو حفروه بأظافرهم لجهز قبل الظهر. أمرهم بالتوقف عن الحفر. رموا المعاول من أيديهم وانسطحوا فوق الأرض. كانوا متعبين، أمهلهم بضع دقائق لا أكثر.

عاد المساعد ضرغام إلى الشاحنة. مازال فيها معتقلون فاجأتهم الريح والرمال فلبثوا فيها، أشرف على إنزالهم بمساعدة الرقيب، جمعوهم مع من سبقهم، واقتادوهم إلى كوم التراب. أوقفهم الرقيب على نسق واحد، وجوههم إلى التراب، ووراءهم الخندق. الجنود نهضوا متكاسلين، وقصدوا الخيام. أمسك المساعد ضرغام بيد الطبيب وجره بعيداً عن المعتقلين، أوقفه على مقربة من الشاحنة، وأمره بألا يتحرك من مكانه. ثم ارتد إلى الرقيب، واستعجله، ما الذي تنتظرونه؟ كان على سباق مع غروب الشمس بعد قليل، وأشار إلى صف المعتقلين، لن يُرى سوى خيالاتهم.

نادى الرقيب الجنود، خرجوا من الخيام يجرّون وراءهم بنادقهم الكلاشنكوف. شكا الرقيب من أنهم متعبون، لم يتناولوا طعام الغداء. أشار المساعد ثانية إلى المعتقلين؛ هؤلاء أيضاً لا يستطيعون الانتظار، إنهم منهكون وجائعون، لم يأكلوا شيئاً طوال النهار.

ترك المساعد ضرغام الرقيب وارتدّ عائداً إلى الطبيب، وأخذ يحادثه، وهو يتمشى معه حول الشاحنة، متوخياً ألا تقع أنظاره على ما يجري خلفهم:

إذا مضى هذا اليوم على خير، فأنت في أمان.

كان خائفاً أن يلحق بهم النقيب إلى حقل الرمي.

نظم الرقيب الجنود على نسق واحد، المعتقلون أمامهم أداروا ظهورهم، يرتجفون من البرد، وبعضهم يتململون، ربما أحسوا بشيء، فساورتهم الظنون. أبقى الرقيب مكاناً له في منتصف نسق الجنود، إلى جوار ما بدا كوماً ضخماً منتفخاً مغطى بشادر، كشفه فبانت تحته سيارة مجهزة برشاش سريع الطلقات. صعد إليها واتخذ مكانه في مقعد الرامي. سدد الجنود بنادقهم إلى ظهور المعتقلين. أطلق الرقيب رشقة من الرشاش، انبثق على أثرها الرصاص رشاً ودراكاً من البنادق، تطاير عشوائياً في الفضاء، والأجساد تهوي عشوائياً على الأرض. لم تهدأ عاصفة الرصاص إلا بعدما فرغت البنادق من الذخيرة. تراجع الجنود إلى الخلف وقد طأطأوا رؤوسهم. تابع الرقيب الرمي كلما لمح جسداً يتحرك، أو رأساً يرتفع.

قفز عدنان إلى الخلف لحظة سمع صوت إطلاق الرصاص، مستطلعاً مصدره. عيناه أدركتا المعتقلين، التفتوا مثله يستطلعون، فوجئوا، جنود فصيل الإعدام يطلقون النار عليهم. رآهم يفقدون السيطرة على أجسادهم، تتشنج على غير إرادة منهم، تنفتل في مكانها، تنتفض وتتقلص، ينشلحون إلى اليمين واليسار، يتشبثون بالهواء المشحون باللهب، وينسطحون أرضاً. تهدج أنفاسهم الأخيرة يقرع صفحة السماء المستكينة للصمت، الغروب وحده ألقى عليهم بأجنحته.

الإعدام تم ببساطة. انصرفوا، الجنود إلى الطعام، والأموات إلى الموت.

كأن ما رآه تراءى له وحده، كانوا بمرمى بصره، تبادل معهم النظرات الأخيرة، ما برحوا أمامه، ملامحهم حائرة بين المفاجأة والرعب والاستغراب، كأنهم اختفوا للحظات في غبش الغبار وصدى ضجيج الرصاص، ولمعان الضوء المتلاشي للنهار، وما انسطاحهم على الأرض بلا حراك، إلا أنهم تساقطوا صرعى تخيلاته.... وسينهضون بعد قليل.

بيد أنهم، وقد استلقوا على ظهورهم، أو انكفأوا على وجوههم وجنوبهم، الدم ينفر من أجسادهم ويسيح تحتهم ومن حولهم، قد اقترفوا الموت. استوقفوا المنية قبل أن تدركهم، وجاهروا بالشهادة مع أنفاسهم الأخيرة، تلمحها والأيدي ترتفع بوهن؛ القبضة مغلقة والسبابة مفتوحة، منهم من همس بها، أو ترددت في دخيلته.

أخفق في استيعاب موتهم، إذا كان تنفيذ الإعدام حقيقياً، فلماذا اتخذ هذا التسلسل اللامبالي، كأنه متفق عليه بين الذين أطلقوا النار والذين تلقوه رغماً عنهم، تواطأا فيه على تمثيل انتصار الظالمين على المظلومين؟ تمثيلية صامتة، رافقها صوت الريح التي أصبحت مسموعة، واخترقتها تمتمات ترددت فيها كلمة الله، تناهت من السكون المحتقن بدخان لا مرئي، وبارود لا رائحة له. التمثيلية انتهت، فلينهض المظلومون ... لم ينهض منهم أحد.

كان ينبغي أن يمر بعض الوقت ليدرك أن الإعدام كان حقيقياً، ومثله الموت، رفاق المستودع، كانوا أحياء، وفارقوا الحياة. لم تصدر عنهم صرخة ألم ولا كلمة توسل، كاد أن يكون واحداً منهم. لو لم يستثنه المساعد، لتلّوى مثلهم، وانطرح مثلهم، وبات بلا حراك مثلهم، ملتحفاً بدمائه، جثة هامدة.

ارتد ببصره عنهم، لم يقل للمساعد ضرغام، إن الإعدام بُيّت على أن يكون غدراً.

قال المساعد من دون سؤال: هكذا أرحم. وفرنا عليهم مخاوف تزيد من آلامهم. قد تظنني مجرماً، لكنني أقوم بعملي، ليس بمقدوري أن أقدم لهم أكثر، لو عرفوا في الفوج لعاقبوني، لأنني لا أدعهم يرون الموت، بعضهم يلفظون أنفاسهم من دون أن يدروا أنهم يموتون.

اتفق المساعد مع الرقيب على مساعدتهم بأن يسبق موتهم خوفهم، أو مع الحد الأدنى منه. كان الإعدام مباغتاً وسريعاً. ومع أنه نفذ على هذا النحو في الأيام الفائتة، واجهتهم المتاعب. في الإعدام الأول، بعض الجنود امتنعوا عن التصويب وأطلقوا الرصاص في الهواء، فاضطر الرقيب في الإعدامات اللاحقة إلى مساندتهم بالرشاش، بعدها تزايدت أعداد الذين لا يطلقون الرصاص على الرغم من التنبيهات. لا يعرفون أنهم يطيلون آلام المعتقلين، لا مفر من قتلهم، الجنود لا يتفهمون هذا، وليسوا راضين عما يفعلونه، لم يعتادوا عليه حتى الآن. كما تراهم، بمجرد انتهائهم يرمون بنادقهم، ويتمددون في الخيام، نفوسهم عافت الطعام.

صوت الرقيب يعلو متذمراً؛ عناصره متعبون، لن يتابعوا العمل، بحاجة إلى الراحة، سينهون حفر الخندق صباحاً باكراً. لن يدفنوا الجثث اليوم، الليلة باردة لن تفوح روائحهم. سيطمرونهم

غداً قبل وصول الدفعة الثانية.

انتحى المساعد بالرقيب وأبلغه بمهمة الطبيب؛ التأكد من موت القتلى قبل دفنهم، والابلاغ عمن لم يمت، ليتلقى رصاصة الرحمة، استثناء لم يظفر به من سبقهم، حظي به هؤلاء بسبب توفر محكمة وطبيب. قبل أن يركب سيارة الزيل، قال للطبيب:

«ادعُ الله، أن يوفقني في مسعاي معك».

بدا مستبشراً، العقبة الكبرى تغلب عليها، أصبح الطبيب في الجداول ميتاً، ولم يعد بين الأحياء، مغادرته حقل الرمي باتت مسألة وقت.

تلكأ الطبيب في تنفيذ مهمته، لم يستعجلوه، طعام الغداء جرى تقاسمه وتوزيعه، بينما كان مغمضاً عينيه، وربما غافله النوم قليلاً. تبرعوا له من طعام العشاء برغيف خبز وعلبة سردين، وضعها على مقربة منه على التراب بين الحصى والأحجار.

مع هبوط الليل، أشعل الجنود ناراً، تحلقوا حولها يتسامرون، أصوات ضحكاتهم تتعالى بين الحين والآخر، أحاديثهم تدور حول ما وصلهم من أخبار حماه، لم يشاركوا في معاركها، سمعوا عن بطولات السرايا والقوات الخاصة، ولم تكن سوى ما نهبوه من حلي ومال، وكانت هناك بطولات إضافية... أحدهم اغتصب ثلاث فتيات، لم يستطعن خداعه، وضعن على وجوههن الوحل والسخام، كي يظهرن بشعات. الجنود والضباط لا يميزون البشاعة من الجمال، مجرد امرأة. جندي قتل فتاة قاومته، خرمشته ورفسته على خصيتيه، فخنقها. بعد يومين، بينما كان ينظف بندقيته، انطلقت رصاصة منها أصابته في رأسه؛ الله انتقم منه.

النقاش لم يشطّ. هناك من تخيل أمه أو أخته... فحلّ السكون على جلسة المسامرة.

تأخر عمداً في تفقد الجثث، لم تكن لديه الرغبة ولا الشجاعة لرؤية من قضى معهم ليلة كاملة، لفظوا نصف حياتهم خلف ظهره، والنصف الآخر تحت بصره. لم يقدم لهم عوناً ولا عزاء، وهل يستطيع؟ عيونهم ستتهمه، لماذا يموتون وهو يعيش؟

نهض من مكانه، تمشى بين الجثث، أصوات الأنين التي سمعها منخفضة قبل ساعات، تلاشت، المنيّة وضعت حداً لآلامهم. أما المصابون الأحياء ففاقدو الوعي وميؤوس منهم، لن يبلغوا الصباح. تبين ثلاثة إصابتهم خطرة، قد يظفرون بالعيش ساعة أخرى، لا يملك مساعدتهم بتسكين آلامهم، ربما أسبغ الله عليهم غشاوة بلا يقظة، أو أنقذتهم رصاصات رحمة الرقيب.

لم يتابع جولته، عاد إلى مكانه. الليل يتقدم، انفضّ جمع الجنود، وانصرف كل منهم إلى خيمته، لم يبق سوى حارس يغالب النوم، استند بظهره إلى عمود الخيمة، بعد قليل ارتخى رأسه على صدره. اطمأن إلى نومه فتسلل في العتمة، كان الذين يعانون من تباطؤ الموت قد فارقوا الحياة. همّ بالعودة فسمع صوتاً، تجمد في مكانه، كان الصوت صادراً عن جثة بدت منتفخة، اقترب منها على ركبتيه، لم تكن جثة، بل جثتين تشابكتا، الأولى لشاب والثانية لرجل عجوز. جثة الشاب ترتعد، تلمس رسغه، أعصابه تنبض، ويداه متشبثتان بجثة العجوز، حاول إفلات أصابعه عنها، يده اليسرى مشدودة حولها، واليمنى توسدها رأس العجوز. الشاب حي، كان يقاومه.

فكر، إذا غادر الشاب المكان قبل الصباح فقد نجا. دنا نحوه وألصق فمه بأذنه، وأمره بأن يفلت جثة العجوز، إنه ميت. لكنه لم يفلته. نهره: أيها المجنون، دعه. فأتى بحركة من رأسه، لن يفلته. فأمسك بشعره، وشدّه: ألا تسمع؟ حرن الشاب، ولم يفتح فمه. كرر، هذا العجوز، رجل ميت. اتركه. خرج صوت الشاب مخنوقاً، دعني، لن أتركه. أصر عليه، انجُ بنفسك. أجابه وقد سالت دموعه، إنه أبي، سأموت معه. أغلق له فمه، إذا بقيت معه، سيقتلونك صباحاً، وإذا تظاهرت بالموت فسيدفنوك حياً. لم يجبه. قبل أن يبتعد عنه. حذره: لن تعيد الروح لأبيك. رد عليه: حماني بجسده. نهره: حماك لأنه أرادك أن تعيش. تابع الكلام وعيناه على الحارس، ازحف نحو كومة التراب، ليست بعيدة، خمسة أمتار لا أكثر، توار خلفها، ستحجبك عنهم. تردد الشاب، لن أستطيع. أجابه، حاول، بعدها تابع طريقك شرقاً.

عاد إلى مكمنه، عيناه لا تفارقان شريط الجثث. بعد قليل سرح في الظلام، ولم يعد يرى شيئاً في العتمة. إذ به ينتفض على صوت اخترق أذنه، صحا من شروده، الليل لم ينقشع، الضباب

يسربل المرئيات. خيمة الجنود متلفلفة بالغبش، سمع صوت شخير الحارس. حدق في العتمة، الشاب يزحف على الأرض، يتقدم ببطء، ويتخبط في الضباب، أقل التفاتة من الحارس تكفي لرؤيته. لم يطمئن إلا عندما رآه ينهض، يعتلي الضباب ويختفي وراء كوم التراب. أغمض عينيه، إذا كتبت له النجاة، فسوف يكسب الشاهد الوحيد على المجزرة حياة أخرى، سيحرص عليها، يغير اسمه، ويتشرد في القرى، ويغيب بين الناس. يوماً ما ستجد شهادته طريقاً لها، مهما أصابها من تأخير.

منذ أرسله النقيب إلى حقل الرمي، لم يخلُ إلى نفسه، فكر بأبيه وزوجته والأولاد، تمنى أن يكونوا ذهبوا إلى بيت أخيه في التعاونية، العسكر لن يدعوهم في القبو، ولن يطيب لأبيه المبيت في الملجأ. عزموا على الانتقال إليه صباح البارحة، الهدوء أغراهم بالرحيل، لو أن أباه استمع إلى نصيحته بالمغادرة منذ بدء الحصار لوفر عليهم هذا الموقف. تحيّن مع زوجته أكثر من مرة توقف القصف للخروج. لكن تعلق أبيه بمنزل العائلة في الكيلانية، اضطرهم تحت إلحاحه إلى البقاء في الحارة حتى بعدما أصيب البيت بقذيفة، ولم يعد آمناً ولا صالحاً للإقامة. كان من المستحيل تركه وحيداً فيه، حتى بعد أن انتقلوا إلى قبو بيت جيرانهم، إلى أن أمرهم النقيب بالخروج. لم يستبعد عودة أبيه إلى الكيلانية، بعد استقرارهم في التعاونية.

طوى ساعده، أسند رأسه إليه وأغمض عينيه. استيقظ متأخراً على أصوات الجنود يحملون الجثث، يرمونها في الخندق ويهيلون فوقها التراب. الرقيب يستعجلهم لحفر خندق آخر، الدفعة الثانية آتية بعد الظهر، سينهون عملهم مبكراً كي يتناولوا طعام الغداء في موعده، وقد يظفرون بقيلولة.

كان موتهن يحمل لهن نفحة من الهناء

ما عذبني كان أكثر مما تطيقه روحي. السؤال الذي ألح عليّ؛ أليس من التسرع التسليم برواية العجوز أم محمد؟ كانت في أيامها الأخيره، ربما خدعها بصرها، أو زاغ عقلها، لا يمكن الثقة بما روته عجوز مريضة، ولا بما قالت إنها صادفته، ربما اختلط ما رأته مع ما سمعته. لم أستبعد أن أبي في البيت الآن ينتظر خبراً عن ابنه وأحفاده، أو زوجة أخي تسأل في المستشفى عن زوجها، أو أخي يبحث في الملاجئ عن ابنه الرضيع، ولا يعرف أن الأقدار حطت به في دمشق.

أدري أنني، رغم الأمل، كنت في قلب اللايقين.

هواجسي أيضاً لم ترحمني، اختلقت أسوأ القصص. عاهدت نفسي على ألا أنساق إليها، ورجوت الله أن يمدني بالصبر ريثما أذهب إلى حماه. يوماً ما سوف يسألني حازم عما فعلته حتى تأكدت من موت أبيه وأمه وأخوته، ولن يغفر لي قعودي عن السؤال عنهم. هل كان في نيتي تبرئة ذمتي تجاه الرضيع الذي سيكبر ويصبح شاباً؟ لا، بل تجاه نفسي، عدنان كان أخي قبل أن يكون أباه. ولا عذر لي في فقدانهم في ظرف أجهل عنه كل شيء، رغم يقيني أن ما سأقوم به، ربما كان استسلاماً لمعرفة ستكون عذاباً آخر، دعوت ربي أن يهبني القدرة على تحملها.

سافرت إلى حماه، بعد مضي ما يزيد عن أسبوع على انتهاء الحصار، كان الجيش قد سمح بالدخول إليها والخروج منها. ولكي أكون أكثر تصميماً كذبت ظنوني المتشائمة، مع أنها كانت أقوى من أن تكون ظنوناً، إذ لم يصلني أي خبر منهم أو عنهم. لم أدعها تثنيني عن التحري عما حلّ بهم. عذري أن من الرعونة ألا نتعلل بالأمل ولو كان كاذباً، فتعلقت به، وكان ضئيلاً. أقول، لولا الأمل لأصبحت الحياة ضياعاً في متاهة مظلمة، لا نعرف إلى أين نتجه، ولا ماذا نفعل، ولا كيف نحيا؟ مهما يكن، ثمة بوصلة، ولو انحرفت عن الصواب.

في طريقي إلى حماه، اعتمدت واقعة موت أم محمد، وقررت البدء بها. توقفت في حمص، وعرجت على جامع سيدي خالد. لم أجد عناء في العثور على الشيخ عبد الباري. إذا كان يصلي الأوقات الخمسة في الجامع، فالمتوقع أنني في الوقت الذي وصلت فيه كان بين المصلين، فصليت معهم صلاة الظهر.

بعد انتهاء الصلاة، سألت عنه صبياً، كان جاثياً أمام ضريح الصحابي خالد بن الوليد يقرأ القرآن، فدلني إليه. كان الشيخ عند المحراب الأوسط واقفاً مع رجل قصير القامة إلى جوار العمود الرخامي المزخرف بنقش هندسي لافت بجمال ألوانه. وقفت على مبعدة منهما، ألوان الرخام الحمراء والسوداء والبيضاء تضيء لحية الشيخ المشذبة التي خالطها الشيب، وتضفي الوقار على ملامحه، والصفاء على عينيه العسليتين.

بدا الرجل الواقف معه مرتبكاً، يتكلم معه بصوت هامس، ويخفض بصره حياء، والشيخ عبد الباري يجيبه بهدوء وتأنّ. بعد قليل انفردت أسارير الرجل وتبدد قلقه. لم يكن عسيراً معرفة كنه حديثهما، ما دام الحياء خالط سؤال الرجل، فالأمر يختص بامرأة، كانت زوجته بلا ريب، السائل يخشى أن يكون أساء إليها بكلمة، أو تصرف، وربما أخذته نزوة حميمة، سها فيها، فخشي أن تخالطها شبهة من حرام.

أعاد الموقف إلى ذاكرتي جامع النوري في حي الباشورة، القريب من بيتنا، كانت تستهوينا أنا وأخي الصلاة فيه يوم الجمعة، كنا نجتمع بأصدقاء لنا في المسجد. نقطع جسر الكيلانية مشياً على الأقدام، من بعيد تلوح مئذنة الجامع رباعية التصميم، المزخرفة أضلاعها بالحجارة البيضاء

والسوداء، أحياناً يفاجئنا صوت المؤذن لصلاة الظهر فنعجل بخطواتنا. بعد انتهاء الصلاة، يتجمع المصلون حول الشيخ نادر أو الشيخ عرفان، يسألونهما عن أمور دينهم ودنياهم، رجال وشبان، تجار وموظفون وحرفيون؛ لكل منهم شيخه، عملاً بقول سائر: من لا شيخ له، فشيخه الشيطان. مع أن المشايخ حذروهم من هذا القول: سبيلنا إلى التفقه في الدين، القرآن كتاب الله، وما روي عن الرسول، ومطالعة الكتب المعروفة بصحة الاعتقاد.

لا يجهل المشايخ أن الوقت لا يتوفر للكثير من الناس لأخذ العلم على أصوله ومن منابعه، الانغماس في العمل يشغلهم، فيعذرونهم، ما دام أنهم يرومون الحلال، ويخافون الحرام، فيفتون لهم في تجارة أو عقد، زواج أو طلاق، لئلّا تزلّ بهم الشهوات والأطماع ويغضبوا الله، ولقد كان من الرجال من لا يتورع عن تسويغ أمر حرام على انه حلال، فيراوغ الشيخ الذي لا يفوته تحايله، فيعيد السؤال عليه، ويردعه عما ينوي إتيانه. مشايخ الحارة يعرفون الأهالي ولا يجهلون مشاكلهم، وكثيراً ما أصلحوا بينهم.

أدركتُ الشيخ عبد الباري بعد أن أنهى حديثه مع الرجل، استوقفته قبل أن يخرج من المسجد. تساءل ببشاشة عن حاجتي. سألته عن العجوز التي فارقت الحياة، هنا في الجامع، قبل ما يزيد عن أسبوعين. تأملني طويلاً، والأصح القول تفحصني، فلم يجد في ملامحي، ولا في سؤالي ما يريب. فاعتذر قائلاً، الحذر واجب.

أغمض عينيه قليلاً، ثم فتحهما، ثمة الكثير مما يمكن استرجاعه من أحداث، لا تتسع لها هنيهات؛ هناك أكثر من عجوز، لو تعلم كم مرّ في الجامع من العجائز والنساء المنكوبات اللواتي نزحن من حماه. أكثر من واحدة توفيت هنا، مساء يسندن رؤوسهن إلى صرة ملابسهن ويسلمن الروح. كم كان مؤثراً تأمل ما آلت إليه حالهن من شقاء، كان موتهن يحمل إليهن نفحة من الهناء.

قلت له كانت تحمل معها رضيعاً. فتذكرها الشيخ.

عرّفته بنفسي، أنا عم الرضيع، وهو في حضانتي. عقب، جزاك الله خيراً. فشكرته على ما قام

به. قال لي، لا تشكرني، أفعالنا مأجورة، لا منة لنا على أحد، حسابنا عند الله في الدنيا والآخرة. فاستوضحته عما سمعه من العجوز أم محمد عشية وفاتها.

احتفظ الشيخ بما سمعه منها أمانة في صدره. كان يعلم أنه في يوم قريب سيأتي من يستفسر منه عما حدث في ذلك اليوم المؤلم من شهر شباط المروع: كان الوقت صباحاً عندما سمعتْ أم محمد صوتاً ينذر ساكني الحي بمغادرة منازلهم، مهدداً بهدمها فوق رؤوسهم، إن لم يصدعوا بالأمر. في الحارة لم يكن غيرها وعائلة الراجي. استرقت النظر من شق باب البيت، فرأت ضابطاً برفقته جنديان شاهري السلاح وسائق في عربة جيب. تابعت خروج أفراد عائلة الراجي واحداً إثر الآخر من القبو المحتمين في داخله. ثم تسللت بين أكوام الردم حتى أصبحت على مقربة منهم. لم تسمع ما قاله الضابط تماماً، لكنها رأت الجنود يصطحبون جارها الطبيب عدنان معهم بسيارة الجيب. اعتقدت أن الضابط سيترك العائلة تتابع طريقها إلى ملجأ قريب بعد اعتقاله للطبيب. عقب انطلاق السيارة انبرى نحوهم وأطلق النار عليهم.

ما قالته كان منافياً للعقل، المفترض أن يقتل أخي لا عائلته. انطباعي كان أن رواية العجوز مشوشة، بسبب اعتلال صحتها، كانت تعاني من الوحدة، وأيضاً من التخيلات. صارحت الشيخ بما خطر لي:

«أم محمد تفتقد التركيز، ولا أدري إذا كان عقلها متزناً».

«كي لا أغمطها حقها، كان عقلها أرجح من عقلي».

«أو أن حالتها المرضية أثّرت في ذاكرتها».

«لا تشكك فيها، تعامل الجنود مع الأهالي بمنتهى القسوة والوحشية، كانوا يقتلون بلا تمييز وبلا سبب، وصلنا الكثير على هذه الشاكلة، قصص تُبكي الحجر».

قلت له، إذا كانت القصة صحيحة، فالمستغرب إبعاد أخي عن المكان. فقال لي، هو أيضاً استغرب تصرف الضابط.

غير أن للقصة بعض التفاصيل: لم تدر أم محمد متى تحركت من مكانها، فوراً أو ريثما نفضت عنها ذهولها. استرعى نظرها أن عفاف زوجة الطبيب ظلت محتضنة رضيعها بعدما سقطت على الأرض، فحدست أنه لم يُصب. اندفعت نحوهم. كان حزرها في محله، وجدته يعبث بأصابعه في وجه أمه، أخذته وتابعت سيرها، توقعت ألا تمشي أكثر من بضع خطوات، وتنهار من الخوف، لا من الرصاص. سمعت الكثير من أصوات العيارات النارية، توقعت رصاصة في رأسها، لكن لم تصبها واحدة منها، ذهبت بها قدماها إلى الزاوية الكيلانية، صادفت قبراً مفتوحاً، اختبأت في قعره. لمحت الضابط بعد حين يركض باحثاً عنها في الاتجاه المعاكس. فنجت ومعها ابن أخيك.

«ما أعرفه أنها كانت تشكو من آلام في الركبتين، لا تساعدانها على المشي».

«أقسمت لي أنها طوال الطريق من حماه إلى حمص، لم تمس قدماها الأرض، وكأنما هناك من حَملها مع حِملها وطار بهما».

حدق الشيخ إليّ مبتسماً:

«الله شد من عزيمتها، وأعماهم عنها».

لم أقل له إن الانسان إذا فقد الإحساس بالعالم، أصبح أسيراً لتخيلاته، وسوف يطير. قلت له:

«كانت أيضاً مريضة مرض الموت».

علل الشيخ وصولها إلى جامع سيدي خالد، بأن الله سدد خطاها، وفاعلي الخير سهلوا لها الطريق، زودوا الرضيع بالحليب، وأعانوها على الوصول إلى حمص.

«قبل أن تسلم الروح؛ صلّت الفجر وهي مضطجعة، ثم ودعت الحياة مع شروق الشمس. ظهراً، صلينا عليها صلاة الجنازة، وطلبنا لروحها الرحمة».

لاحظ الشيخ أنني لم آخذ كثيراً بقصة العجوز، فتذكر شاهداً آخر، كان سبب نجاتها، أتت

العجوز على ذكره، ولد يدعى نوري، لحق بها، رأى ما رأته، وسمع ما سمعته. لا تدري إن كان ميتاً أو حياً. فهي عندما حملت الرضيع ومشت، لم تلتفت خلفها إلا عند سماعها صوت الرصاص ثانية، الضابط لم يصوب رشاشه إليها، بل نحو الأتربة المتواري خلفها الولد نوري. خمنت أنه أحس بوجوده، ظنه أحد المقاتلين فأطلق الرصاص. تمنت ألا يكون الولد أصابه مكروه.

عرفتُ الصبي نوري، كان من أولاد جيراننا في الحارة، لا يتجاوز عمره خمسة عشرة عاماً، بيته في الزقاق المجاور.

توخى الشيخ ألا يمتد حديثنا طويلاً، المساجد تحت الرقابة، والدوريات تتجول في شوارع حمص وأحيائها، يقتادون الناس لأقل شبهة ويحققون معهم. وإذا كان قد أطال في الكلام معي، فلأنه لاحظ غياب المخبرين، قد يظهر واحد منهم في أية لحظة، يشكّون بأي شخص سواء كان شيخاً ملتحياً، أو رجلاً غير ملتح.

ودعت الشيخ عبد الباري، وقبل أن أغادر الجامع، قرأت الفاتحة على روح سيدي خالد، ثم ركبت الباص المتوجه إلى حماه. فور وصولي تابعت طريقي إلى حارتي مشياً على الأقدام، متهيباً اللقاء، وكنت على صواب، لحظة وقع بصري على مدخل الحارة، ووطأت قدماي ترابها، تمنيت لو أنني عدت من حيث أتيت، ليت بصري لم يقع عليها.

١

في طريقه على المدق الترابي المؤدي إلى خيمته في موقع الشؤون الإدارية في اللواء، شرد النقيب عن المناظر الباردة المغلفة بالعتمة. يتنبه، كلما سمع صوت الحارس المناوب ليلاً، يصرخ: قف. فتقف السيارة، يعطي السائق للجندي كلمة السر ثم يتابع السير.

آنسه الظلام، كان خالياً من الأشباح، كانت تعج في رأسه، انزلقت إلى ذهنه مدججة بالأسلحة. كان يفكر في الرائد مروان؛ الغبي أوقع نفسه في مأزق لن ينجو منه بسهولة، كان عليه الاجتماع

مع تحالف الضباط، والتفاوض معهم وإرضاؤهم بشيء ما. صحيح أن صلاحياته مطلقة في الفرع، لكن خارجه، عالم تتقاسمه سرايا الدفاع والقوات الخاصة، ليس مناصفة، حصة السرايا أكبر بكثير. اقتحم الرائد هذا العالم وتطفل عليه دونما دراية، جاهلاً أن يده غير طليقة فيه.

طوال خدمته في الجيش، لم يخطر للنقيب التحرش بهم، مع أن بوسعه جرجرة أكبر ضابط إلى التحقيق، باختلاق فرية مهما كانت ضعيفة، قد تؤذيه، إن لم يكن فيها حتفه. عرف حدوده ولم يتجاوزها، الاصطدام معهم غير مأمون العواقب، قد يخسر الرائد رتبته ومستقبله. مكانتهم لدى الرئيس لا تعادلها مكانة. سرايا الدفاع لا تدافع عن الوطن، ولا عن الدولة، كانت بالدرجة الأولى الضامنة لسلامة الرئيس، والدفاع عن القصر، وحماية النظام. لا أحد مهما علت سلطته، لديه الجرأة على إيقافهم عند حدود مهامهم العسكرية. وإذا كان هناك من يدعم الرائد، فليس الرئيس، بل واحد ممن يزعمون أنهم من المقربين إليه.

أكثر من سبب منعه من كتابة تقرير عن تجاوزاتهم، مع أنه كان شاهد عيان على ما لا يغتفر منهم؛ تصرفاتهم خليط فظ من الرعونة والحماقة والقسوة والطيش. يقبضون على أي شخص، يسجنونه، يحققون معه، يحاكمونه، يختفي داخل ثكناتهم، لا يعرف له أثر، ينفذون عقوبات تصل الى الإعدام، وتتم بأساليب غريبة، أحدها الدفن في أساسات ملجأ، أو في خندق. تجاوزاتهم حسبما يزعمون، ليس لها إلا هدف واحد هو التخلص من أعداء الوطن، وهي تزكية لهم، ودليل على الولاء لقائد مسيرة التصحيح، ولو كانت بطشاً بالوطن نفسه. يمكن لذلك التقرير الذي لم يكتبه، وإن احتفظ به في رأسه، أن يكون سنداً في محاكمتهم، لكن في غير هذا العهد، قائد السرايا، أخو الرئيس، وفي هذا الكفاية.

قبل أن يدخل إلى خيمته، عرج على رئيسه المقدم، ليعرف متى سيغادرون إلى موقعهم في القطيفة، لم يعد هناك ما يفعلونه. تساءل لأنه عزم على رفع طلب بنقله.

«أمر التحرك لم يصدر بعد، المتوقع خلال يومين لا أكثر».

قال المقدم، وخمّن في سره المكان الذي سينتقل إليه النقيب، المخابرات، الضباط الذين لديهم

علاقات مع أجهزة الأمن لا يختارون سواها، عملهم في القطعات العسكرية مؤقت، يتمرنون فيه على التجسس على رفاقهم الضباط، سيذهب النقيب سليمان ويأتي غيره، مثله أو أسوأ، على الأغلب ليس هناك أسوأ منه. الأمر الحميد أنه نجح في إرساء ما يشبه المودة بينهما، لم تكن صداقة ولا عداوة، وإن جعله يثق به، بقدر محدود. هذه الثقة سوف تتبدد لقاء كلمة قد يزلّ بها لسانه.

اعتاد المقدم ألا يخفي عنه ما يصله من أخبار، كان يجري عليها بعض التعديلات، يؤوّلها على الوجه الحسن، كي لا تؤذي أصحابها. أما الأخبار التي ينقلها إليه بحذافيرها، فتلك التي تفضح أمثاله. فلم يخف عنه آخر فصل من مآثر ضباط الداخل، علم به قبل لحظات من دخوله؛ دورية مشتركة من جنود سرايا الدفاع والقوات الخاصة، أوقفت سيارة الجيب العائدة للرائد عضو المحكمة الميدانية، وانتزعوا منها ثلاثة معتقلين. لم يكتفوا بهذا، ضربوا السائق والعنصر المسلح، لو كان الرائد معهم، لما كان نصيبه أقل.

أثاره الخبر، كان أكثر مما توقع، عملية نقل المعتقلين إلى دمشق أحبطت، رد الفعل كان سريعاً، تحالف الضباط وجّه للمخابرات العسكرية ضربة سريعة وقاصمة. المقدم يجهل ما الذي دفع الضباط إلى إجراء كهذا. لم يقاتلوا في حماه، ليأتي رائد من دمشق ويقطف ثمار الغزو. لم يعلق، كي لا يعطي للحادثة أهمية.

قبل أن ينام طلب من عسكري السنترال الاتصال بالفوج ٨٨ وأن يسألهم عن الرائد مروان السنطري . بعد السؤال والبحث، كان الجواب أن الرائد مروان عاد إلى دمشق قبل قليل. لقد أحسن صنعاً، فرّ ناجياً بجلده.

في اليوم التالي، هيئة المحكمة لم تكن كاملة، الرائد مروان طلب من العميد قبل أن يغادر ليلاً التباطؤ في المحاكمة، والمطمطة قدر الإمكان، مع الإيحاء بأن سير المحكمة لم يتغير، وانتظاره ريثما يعود. صباحاً أيقنت هيئة المحكمة أن الرائد سيعلق في العاصمة، فلم يتماهلوا في استجواب المعتقلين، وأنهوا أعمال المحكمة ظهراً، ومع أنه لم يصلهم خبر منه، لم يأخذ العميد على عاتقه ترحيل المحكومين إلى حقل الرمي في هذا الوقت المبكر. وحبذ الانتظار. اقترح المقدم تخفيف

العبء عن المحكمة بإرسال دفعة منهم إلى الإعدام، وتمديد فترة الاستراحة بالنسبة لهما بعد تناول طعام الغداء. كان اقتراح تجزئة المعتقلين إلى دفعتين معقولاً، أعدادهم كبيرة، لا تتسع لهم شاحنة الزيل، هذا كي يجدوا سبباً لعدم تنفيذ تعليمات الرائد بحذافيرها، واتفقوا على أن تكون الدفعة الثانية بعد القيلولة، أي في موعدها قبل المغرب.

في حقل الرمي، تكرر مشهد البارحة، حتى أن معتقلي الدفعة الأولى كانوا يشبهون معتقلي الأمس، أغلبهم من الكبار في السن. أكثر النازلين من الشاحنة تعثروا وتدحرجوا على الأرض، أخذوا يتلمسون طريقهم كالعميان في عز الظهيرة، يدورون حول أنفسهم وحول الشاحنة، وهج الشمس أعشاهم. تمنى الطبيب والدموع تملأ عينيه، ألا يبرأوا من العمى. كلما طال توهانهم، طالت الحياة، البصر سيقودهم، سواء يدرون أو لا يدرون، إلى حتفهم.

أوقفهم المساعد ضرغام، وجوههم إلى كوم تراب، خلفهم خندق حفر لتوه، ثم فصيل الإعدام. سدد الجنود بنادقهم إليهم وأطلقوا النار عشوائياً، فتساقطوا كما البارحة. تراجع الجنود إلى الخلف، وأعاد الرقيب الكرة بالرشاش مثنى وثلاث متصيداً من تصدر عنه حركة. لا صراخ، ألم أخرس، تمتمات مخنوقة، وترددت كلمة الله مكتومة.

تصبب الطبيب عرقاً على الرغم من البرد. لن يعتاد هذا المنظر. مرّ ببصره على الجثث، أغلبهم ماتوا، الذين جراحهم خطيرة لن يطول أجلهم، إنجاز الجنود والرقيب كان متقناً، لا حركة ولا حس، لا عنين ولا أنين. وجوه يتراوح على ملامحها الخوف، الارتياح، الرضا... والقناعة بالمصير. الجنود تكاسلوا عن دفنهم إلى ما بعد العصر، لديهم وقت كاف.

حسب الموعد، عادت شاحنة الزيل قبل المغرب، تحمل الدفعة الثانية. أبعد نظره عنها، بات يعرف ما سوف يجري بتفاصيله.

التفاصيل لم تكتمل. قبل تنفيذ الإعدام، لاحت سيارة جيب تنهب الأرض، يقودها قائد الفوج ومعه هيئة المحكمة، على رأسهم الرائد، أطلقت السيارة زمورها، والجميع مدوا رؤوسهم من نوافذها، يصرخون من داخلها، أوقفوا الإعدام. كانت الأصابع على الزناد، على وشك إطلاق النار.

دفع الصراخ والضجيج بعض المعتقلين إلى الالتفات نحو الخلف، فرأوا فصيل الإعدام، والرقيب خلف الرشاش، وفوهات البنادق مسددة نحوهم، ومثلها الرشاش. انهار اثنان منهم أرضاً، الباقون شكروا الله. جميعهم لن يخطر لهم أن مأساتهم المديدة بدأت بإنقاذهم في اللحظة الأخيرة.

عاد الرائد مروان ظافراً قبل قليل من دمشق، بعد أن استصدر أمراً لم يقتصر على استعادة المعتقلين الثلاثة من الدورية التي اختطفتهم، بل وإيقاف عمل المحكمة الميدانية، وسوق المعتقلين كافة إلى دمشق لتوزيعهم على فروع المخابرات، على ألا يتسرب هذا الاجراء إلى داخل حماه، كي يظن الفارّون والمختبئون في جحورهم، أن أسرار التنظيم التي بحوزة المعتقلين ذهبت معهم إلى القبر.

كان القرار حكيماً، اقترحه ودافع عنه الرائد، من ناحية أن المعلومات التي ستجنى من إيقاف المحاكمات، تعوض الخسارة المؤقتة في رفع عدد الأموات، وهي لا تعدو سوى تأجيل الإعدامات إلى وقت آخر، لا النجاة منها، الأحكام الصادرة بمحاكمة أو من دون محاكمة، كانت قطعية، إن لم تنفّذ اليوم أو غداً، فبعد شهر أو شهرين، إذا لم يسلموا الروح تحت التعذيب في الفروع.

حجة الرائد كانت وجيهة ولصالح الوطن، الخلايا التي استيقظت خلال الحصار، عاد ما تبقى منها إلى البيات بعد الحصار. أما الذين فروا من حماه، فسوف يعاودون نشاطهم، بعد تجميع صفوفهم، لا يمكن الحصول على معلومات عنهم إلا باستجواب المعتقلين، دعونا نقوم بعملنا، وسوف نظفر باعترافات تزوّدنا بما يساعدنا على القبض عليهم.

رُفع الاقتراح إلى الرئيس، إيقاف الإعدامات لا يقرره سواه، وحده يستطيع البت به، حتى لو عارضه قادة سرايا الدفاع والقوات الخاصة وقادة الجيش كلهم. أُبلغ الرائد بموافقة الرئيس بعد الظهر، عاد على أثرها إلى حماه. الرئاسة أصدرت عدة برقيات إحداها وقف الإعدامات، والأخرى إلى قيادات القطعات العسكرية في حماه، ابلغتهم بتسليم المختطفين الثلاثة إلى هيئة المحكمة.

لم يتصل الرائد بهيئة المحكمة، كان متأكداً أن العميد لن يخالف تعليماته. كما لم يتسلم العقيد قائد الفوج البرقية المستعجلة، كان في المبيت الليلي وعاد منه متأخراً ثماني ساعات، سمح لنفسه بعد استنفار شهر كامل، قضاء بضع ساعات إضافية مع أولاده كما زعم، لا بين أحضان زوجته كما نفى.

عندما وصل الرائد إلى الموقع، كانت هيئة المحكمة على أهبة المغادرة، بعد أن أرسلت شحنة المعتقلين الثانية إلى حقل الرمي، فانطلقوا جميعاً، للحاق بهم قبل تنفيذ الإعدام.

تغاضى الرائد مروان عن تأخر قائد الفوج، ومخالفة هيئة المحكمة التي تسببت بإعدام عشرين معتقلاً، تعداد الدفعة الأولى لهذا اليوم، كادوا أن يُلحقوا بهم عدداً مماثلاً، فجرى ضم الذين أعدموا اليوم إلى أعداد البارحة، وكان موفقاً بإنقاذ الدفعة الثانية. نهاية سعيدة كانت بالنسبة للمعتقلين أيضاً، سعيدة الآن، قريباً سيدركون أنها غير سعيدة.

وجد الطبيب نفسه بين المعتقلين، لمجرد أنه كان في حقل الرمي، كل من لم يكن من الجنود، فهو من المعتقلين. لم يستطع المساعد ضرغام إخفاءه عن الأنظار. أمر الرائد بإعادتهم إلى الشاحنة التي جاءت بهم. تنبه العقيد قائد الفوج إلى زيادة العدد واحداً، كان مسؤولاً عن تسليم ما تسلمه، وإبراز الدليل على أنه لم يحتفظ بأحد منهم لاستثماره في صفقة جانبية. عموماً، الزيادة أفضل من النقصان.

لم يتجرأ المساعد على التدخل، كان همّه ألا ينتبه أحد من اللجنة إلى فعلته، سارع قبل كشف تلاعبه بأرقام المعدومين إلى إصلاح الخطأ الحاصل، وعزا الزيادة في العدد إلى خطأ في تسجيل قوائم الدفعتين، كان من المستحيل في هذه العجالة أن يأمر العقيد بفتح القبر الجماعي، وإحصاء عدد الجثث.

الرائد أيضاً، انتبه إلى أن عدد المعتقلين زاد واحداً هو الطبيب، لم ينسه بعد. عندما وقع نظره عليه تذكّر أنه كان في عداد أموات البارحة، أما أن يكون حياً بعد أربعة وعشرين ساعة، فالأمر لا يحتاج إلى ذكاء. لم يسأل المساعد الذي برر للعقيد الزيادة، استعلم من الرقيب قائد الفصيل،

فعرف أن الطبيب كان في الحقل، ليس كمعتقل، بل ليكشف عن جثث المعدومين.

الطبيب وراءه قصة كبيرة. قال الرائد لنفسه، إما أن الفوج مخترق من الاسلاميين، أو أن الطبيب من عائلة ثرية، ويحاول العقيد بالتحالف مع ضباط السرايا والقوات إنقاذه مقابل فدية كبيرة. عموماً، مهما كانت القصة، فهي تحتاج إلى شبكة، تضم ضباط التحالف، والمساعد، ولم يستبعد هيئة المحكمة، إذا ثبت عليهم شيء، فسوف يشحطهم جميعاً إلى الفرع. لن يفعل شيئاً الآن، بل بعد وصوله إلى دمشق، عند توزيع المعتقلين على فروع الأمن، سيكون الطبيب من نصيبه، يحقق معه، ويفهم منه قصته هذه وغيرها، سيسمعها رغماً عنه من فمه وبلسانه.

لم يفت الطبيب ملاحظة الشكوك في عيني الرائد، لم يهتم، الأسوأ حصل. إحساسه بالارتياح طغى على مخاوفه، انفصاله عن المعتقلين أتعبه نفسياً، وعودته إليهم أراحته، أصبح مثلهم لا يتميز عنهم بشيء، يشاركهم المصير. لم يُضِره أنه بات مهدداً بالمجهول ثانية، إحساسه بالذنب طوال اليوم والبارحة، وأنه ارتكب فعل خيانة، لن يغفره لنفسه، عكّرا تطلعه إلى الحرية.

قبل الرحيل إلى دمشق، جاءه المساعد ضرغام، انتحى به واعتذر منه، لقد بذل جهده، ولم يوفق. كان آسفاً، تعثرت الكلمات في فمه:

لكم أشعر بالأسى من أجلك. ما قدمته لي أكثر مما قدمته لك. قدمت لي الأخوة، وتمنيت أن أفيك حقوقها عليّ. نفسي حدثتني ببراءتك.

المساعد عاطفي جداً، تأثر الطبيب من رؤيته يمسح دموعه بظاهر كفه، وهو يسدي إليه بعض النصائح، ربما أنقذته من الأسوأ:

إياك أن تعترف بشيء لم تفعله، وإذا كان بوسعك إنكار ما قد يدينك، فانكره.

وسوف يقول له ما سوف يتذكره طوال السنوات المقبلة:

مهما امتد بك العمر، لن تحظى سوى بالإعدام. ليتك لاقيت حتفك في حقل الرمي، سيصيبك في المخابرات من الأذى ما لا يطاق، وتتمنى الموت ألف مرة.

أما نصيحته له، فكانت أنه لم ينصحه بالحياة.

من حسن طالعك، أنك طبيب، حاول أن تموت بسرعة، لابد تعرف وسيلة مضمونة وسهلة.

٢

مأثرة الرائد سددت ضربة قاصمة لتحالف ضباط الداخل. الغضب أقل ما شعروا به، كانت إهانة لهم، بعد إنجازاتهم في حماه. زاد في غضبهم، تبلغهم القرار، ليس ببرقية صادرة عن وزارة الدفاع فقط، بل وأيضاً باتصالات هاتفية من سكرتير الرئيس أبو حسين، تكلم مع الضباط القادة وأمرهم بضبط عناصرهم.

لم يشك النقيب في أن الرائد حقق معجزة في إقناع الرئاسة بموقفه، وموافقتها على مطالبته بإيقاف المحاكمات الميدانية، وسوق المعتقلين إلى دمشق، مدعوماً بجهاز المخابرات العسكرية. انصياع تحالف الضباط كان فورياً، بتخليهم صاغرين عن المعتقلين الثلاثة. العملية بمجملها كانت نكسة لهم، أسطورة سرايا الدفاع والقوات الخاصة، ليس أنها لا تمس، بل أصابها عطب. هذا كله أضيف إلى سمعة الرائد مروان.

كان في ترحيل المعتقلين الثلاثة تحت أنظار تحالف الضباط، ورغماً عنهم، تحدٍ سافرٌ، لم يسكتوا عليه، أرسلوا له مساء اليوم نفسه تهديداً لا يزيد عن كلمة واحدة: ستندم. وأضاف بذلك أعداءً جدداً إلى أعدائه الكثر، هذه المرة ممن يفترض أنهم حماة الوطن والدولة، ولأنهم كذلك لا تعوزهم المقدرة ولا الشراسة في إيذائه، سيترصدونه على هفوة. لن يتركوا الأمر للمستقبل البعيد، صبرهم نافد دوماً.

ترى من يدفعهم عنه؟ فكّر الرائد مروان. هذه القصة لن تنتهي على خير، ستحتقن بالضغائن طوال أشهر وسنوات، خلالها قد يطالونه، إن لم يستعجلوا تنفيذ تهديدهم في وقت قريب. خطر له النقيب سليمان، كان من طينة هذا الصنف من العسكر، لكن على نحو أقل خسة وفظاظة وأكثر مكراً وبُعد نظر، على دراية باللغة التي يتعاملون بها، سيوكل إليه التفاوض معهم على

حل وسط يرضيهم، ولو كان فيه تسليمهم المعتقلين الثلاثة بعد إنهاء التحقيق معهم، إذا كان من ورائهم صفقة، فلينتفعوا منها.

أجّل الالتحاق بالفرع، سيزور النقيب، ولو كلفه الاجتماع به تأخير يوم بكامله.

فوجئ النقيب سليمان عندما رآه داخلاً عليه ليلاً، تلمّح مأزقه على ملامح وجهه المائل إلى الاصفرار؛ لم يكن سعيداً بالنجاح الذي حققه. بقليل من التفكير، أدرك النقيب مأزق المنتصر، راعته هزيمة خصومه أكثر من انتصارٍ تبعاته لا تحتمل. ورط نفسه بقضية كان في غنى عنها، استعان بالرئاسة، وفرض على ضباط مقاتلين أقدم منه، أمراً لا يمكنهم الاعتراض عليه، سيدفع الثمن مضاعفاً، العقاب لن يُترك للزمن، ولا للمصادفة، سيقع على رأسه قريباً.

فتح الرائد حقيبته وأخرج زجاجة ويسكي بلاك ليبل، قدمها له هدية. امتدحها بأنها أصلية، غير مقلدة. ثم أخرج زجاجة ثانية لتؤنس سهرتهما. اعتذر النقيب عن الفوضى الضاربة في خيمته. نادى الحاجب ليأتي ببعض المازة؛ زيتون ولبنة وشنكليش، مع كأسين فارغين وماء ولوكس إضافي، وتعبئة خزان مازوت المدفأة، لا تحلو السهرة إلا بالإضاءة والدفء.

شكره النقيب على الهدية وابتسم، اكتشف مورد رزقه المتواضع، إن لم يحصل الرائد على زجاجات الويسكي هدية من أحدهم، فهو شريك في تهريب المشروبات الروحية الأصلية، المطلوبة في الكازينوهات والمحلات الراقية، وربما تهريب الأدوات الكهربائية أيضاً، المواد الأكثر طلباً وربحاً في سوق السنجقدار. ودّ لو يطمئنه، إيذاؤه مادياً من تحالف الضباط، لن يتعدى عرقلة تمرير صناديق الويسكي ومصادرتها عند الحدود، عقابيلها تحرير ضبط وغرامة كبيرة، لكنه لن يخادعه بهذه المزحة، من المستحيل أن يكتفوا بعقوبة تافهة، ما جرى لا تُصلحه الغرامات.

كان رأي النقيب في المشكلة بأنها عويصة جداً، لقد حطّ من سمعتهم العسكرية، والأكثر سلطتهم المطلقة، في هذا الوقت، الذي يجب أن تصبح فيه أكثر من مطلقة، وضع الرئيس لها حدوداً، ومتى؟ بعد أن أخضعوا حماه. الرائد أساء إلى انتصارهم.

«ألا يمكن اصلاح الأمر معهم، بالاعتذار مثلاً؟».

«لن يقتنعوا».

بعد الذي جرى، لن يسمعوه، حتى لو بحّ صوته، هؤلاء لا يفهمون ولا ينسون ولا يغفرون.

«تشويهُ سمعتهم هو العقبة، ولا سبيل إلى القفز عنها».

كان من الصعب أن يكون صريحاً معه، لم يستبعد أن تقع الواقعة قريباً. لقد ابتلي بعداوة هي الأشد مراساً. المشكلة لا حل لها.

«إلى من ألجأ؟».

«ستجد من يستمع إلى شكواك، ويتفهم موقفك ويؤيدك، لكنه لن يفعل شيئاً لحمايتك».

لقد وقع في الفخ، صداقات الضباط وعداواتهم تحكمها المصلحة والغدر، ومثلما المنافع متبادلة، الأضرار متبادلة، والعبرة بأحجامها. في حالته، لن تكون متكافئة.

«لقد تعديت على إقطاعياتهم، لديهم أكثر من مصدر للارتزاق، كل واحد منها يعادل الروح».

لم يَخفَ على الرائد أن النقيب لا يرغب في التورط بقصته، هذا فحوى كلامه. لكن سيورطه فيها بمقابل، قبل ذلك، يجب معرفة ما الذي جاء به إلى حقل الرمي، مادام أنه ليس من تحالف الضباط، هل هناك تحالف آخر، أم جاء بمهمة مخابراتية ليرفع تقريراً عن المحاكمة؟

بعد أن شرب كل منهما نخب الآخر، بدا سؤاله عابراً:

«لولا المحاكمة لما تعرفت إليك؟».

أدرك النقيب أن التساؤل يملي عليه تفسير تواجده في الموقع، طبعاً لن يذكر السبب، أجاب بلا مبالاة على السؤال الذي أصبح ما الذي جاء بك؟

«للاطلاع على سير العدالة».

«وكيف وجدتها؟».

«أخذت مجراها».

تبادلا السؤال والجواب بسخرية، كلاهما لا يريدان قول الحقيقة. وإن دار في خلديهما، لو أنها العدالة، لما كان كلانا هناك.

كان بود الرائد أن يخبره بقنبلة أخرى، اليوم أنقذ من الإعدام دفعة من المعتقلين بينهم طبيب، المفترض أنه أعدم البارحة، اسمه حذف من قائمة الإعدام، زعم المساعد أنه سقط سهواً، لابد وراءه قصة تشير الى غنيمة كبيرة تُجنى من ورائه، أبطالها تحالف الضباط والعقيد قائد الفوج، سيحقق معه ويحصل على دليل يدينهم جميعاً. لن يُعلم النقيب بما في حوزته، مادام أنه يحترس منه في كل كلمة يقولها.

بعد مقدمات وتساؤلات لا على التعيين، استغرب النقيب ألا يطلب منه الرائد مساعدته. كان في تجاهله حنكة، بداية يرغب في التأسيس لصداقة تعقد خلال جلسة واحدة، يتبادلان الآراء، ويعززان ثقتهما ببعضهما، لذلك لا غنى عن الحذر الشديد، تحت غطاء ودود يساعد على بث الألفة بينهما ببعض النكات، ثم الإفضاء بقدر لا بأس به من الخصوصيات، ما يكسر الحواجز بينهما، ويكرس صداقة على المدى الطويل... لكن الرائد على غير المتوقع، تعداها إلى الكشف عما يدور في داخله من أمور شائكة، كانت من المسائل الروحية المكتومة التي لا يصرح بها. افتعلها بسؤال بدا بريئاً:

«هل تؤمن بالله؟».

«لا».

السؤال لم يكن بريئاً، فأجاب عنه بشكل قاطع. لكنه فاجأه، كأنه الصدى لما كان يدور في ذهنه من وقت لآخر. هل اتسع الوقت للرائد كي يقرأ أفكاره القديمة؟ طبعاً لا. السؤال شائع جداً،

طرحه عليه لأن الوقت قارب منتصف الليل، وهو وقت تنشط فيه التساؤلات الكونية مع الظلام، وإن كان في الخارج، النور في الداخل لم يكن كافياً. الطريف، كأنه لا يوجد غير هذا السؤال لتمضية الوقت، وتداعياته دائماً مخيبة.

لكنه أثار فضوله، هذا المسلم السني، كيف ينظر إلى الإيمان؟ هناك ما يشغله بشأن الله، بعدما قطع شوطاً في إغضابه، قتل شباناً مسلمين من طائفته، وفاز اليوم بمجموعة لابأس بها على شاكلتهم، أرسلهم إلى الفرع، ولا يستبعد أن يموت منهم واحد أو اثنان تحت إشرافه، بغية الحصول على معلومات يجهلونها، والباقون نصيبهم الموت، وإن لم يكن بيديه. ترى كم برقبته من الضحايا؟ أحس بالغيرة منه، يصعب إحصاء عدد الذين أرسلهم إلى الجنة.

«لا أقصد الإيمان بحد ذاته، بوسعنا الإيمان بأي شيء».

رفع النقيب حاجبيه وقد ازداد عجبه، هذا الجواب دار في خلده وقضّ مضجعه ليلة كاملة، وأنهى مشكلته مع الدين، لا مع الإيمان، لن يؤمن إلا بحقائق الواقع. الواقع يفرض عليه ألا يكون منقاداً لأي عقيدة. ما الذي يهدف إليه الرائد؟

قال الرائد وكأنه سمع تساؤله:

«المسألة هي الله».

يبدو أنه بالغ بخصوص قدرة الرائد على الاستشفاف. قطعاً لا يقرأ الأفكار، المسألة كلها، أنهما في حالة سكر لطيفة، في مرحلة النشوة الخفيفة، لولاها لما طرح الله للمناقشة. ولئلا يُحمّل الويسكي السبب، ينبغي تبين سبب آخر. إذا لم يكن افتعل هذه المسألة، فربما كانت تؤرقه فعلاً.

«أعتقد أن الله غير موجود».

قالها الرائد وكأنه يبوح بسر لأقرب الناس إليه، يزيحه عنه، بعد أن أثقل على روحه.

ضاق النقيب بسر الرائد المفضوح، لا ينبغي أن تؤخذ أفكاره على محمل الذكاء، لماذا؟ ببساطة،

إذا كان الأمر محلولاً بالإيمان بأي شيء، فلماذا الله بالذات؟

الرائد لم يُخيّب ظنه، أخذته الحماسة وقطع الصلة بينهما، ليخلص إلى عدم توفر القناعة لديه بقدرة الله إذا كان موجوداً، لا سلطة له على هذه المليارات من البشر، الكون خرج من يده، هذه الأفكار تؤيدها حقائق ما يجري في العالم، الحروب لا تتوقف، الكوارث على قدم وساق، النازحون بمئات الآلاف، عدا المجازر... لو أنه كان موجوداً لتدخل بالتأكيد.

بدا أنه يشير إلى مجزرة حماه، الرئيس أقدم عليها لأنه لا حساب عليها في الآخرة. غير أن الرائد على الرغم من الويسكي، لم يتخلّ عن حذره، حافظ على السوية الغيبية للفكرة، وخلص إلى أن من الصواب إنكار وجود الله، مادام أنه مثل عدمه لا يغير شيئاً. لكنها من طرف آخر كان فيها تأييد للرئيس، حتى ولو كان الله موجوداً، يكفي تجاهله في سبيل حقيقة واقعية على الأرض؛ الوطن مثلاً. وفي هذا تلاعب بالله والرئيس معاً.

أخفى النقيب ابتسامته، لا جدوى من مناقشة ما يؤرق الرائد، مجرد أن أفكاره تتداعى بلا رابط، لكنها امتدت، وباتت مجرد فكرة عابرة سخيفة. هل لأنها لم تعجبه؟ ربما لأنه باغته، وهو على غير استعداد له، أم لأن القلق لم يعد يعاوده من هذه التساؤلات؟ لم يعثر على إجابة، ذهنه عانده، لم يدر فيما إذا كان رأسه ازداد وزنه من ثقل الأفكار أو من الويسكي، على الأغلب من الأفكار التي لا يرغب في سماعها، هذا ليس وقتها، وربما لأنه لا يفهم تماماً ما يقصده الرائد. ولقد اجتهد وركز على ما يسمعه منه. لاحظ أن الرائد يدلي بالفكرة تلو الفكرة لمجرد الاستعراض والتنفج، الحديث بات من طرف واحد، واتخذ تسلسلاً رتيباً، إلى أين سيؤدي بعد استبعاد الله؟ إلى لاشيء. لن يجاريه، وإذا كان سيعلّق على ما يطرأ على بال محدثه، ففي سره.

كان مخطئاً، الرتابة والسكون ساعدا الرائد على ترتيب أفكاره، ولم تكن سوى مقدمة لما أورده مقسطاً، الفكرة الرئيسة هي: إذا كان الله غير موجود، فكل شيء مباح، حتى القتل؛ هذا ما قاله، معترفاً بأن الفكرة مسروقة من كاتب روسي.

عندما شرحها الرائد، راقت له، التقط ما يعنيه منها: في حال ألجأتنا الظروف إلى القتل، فلا

عائق دينياً، لانتفاء وجود الله. الفكرة تحمل تبريراً لما فعله سابقاً وما سيفعله لاحقاً. هذا الطرح يلائم الرائد أيضاً، مع بعض الاختلاف: الرائد يقتل لحساب الدولة، أما هو فيقتل لحسابه الخاص. تساءل النقيب:

«قد يجد الانسان نفسه مؤمناً من حيث لا يدري».

«ليس بوسعك أن تقتل وأن تؤمن بالله في الوقت نفسه».

«ألا مفر من...؟».

«الإيمان به بالذات، لا مبرر له».

قالها الرائد وانفعل، أكد بعصبية:

«أنا لم ألحظ أثراً له في الكون، أو تأثيراً في الحياة».

ثم هبّ من مكانه، وانتتر قائلاً:

«ليس هناك أولويات، بل اضطرار».

كان وجهه قد احمر واتقدت عيناه. وأخذ يذرع الفراغ الضيق في الخيمة متمهلاً. الفكرة التي لمعت في ذهنه خالجته مراراً من قبل، وتوهجت الآن مكتملة، حلّ الوقت ليعبّر عنها:

«هناك سبل أخرى، هذا عصر الإيمان المفتوح».

كانت الجملة التي ألقاها وهو يلقي بنفسه فوق الكرسي، غير مفهومة، إذا كان من عصر يخلو من الإيمان فهذا العصر.

ستتألق فكرة الرائد عندما سيعرضها للنور؛ كان هناك نور آخر غير ضوء اللوكس كما قال مبتسماً، الإيمان لا يقتصر على الله، إذ ما أكثر ما يمكن للمرء الإيمان به؛ الخيارات كثيرة، يصعب حصرها، ويسهل تعدادها: الفن، العِلم، العروبة، الوحدة، الاشتراكية، المادية الديالكتيكية،

أو بدين ما، لا على التعيين، التوحيدية وغير التوحيدية، ربما البوذية، أو المنقرضة من العبادات القديمة، كالوثنية والزرادشتية، أو القديمة المتجددة، عبادة الشيطان، أو الايمان بالنار، والقمر، الأصنام، حتى قضيب الرجل وفرج المرأة، لم يعدما من يتعبّد لهما، منذ قديم الأزمان حتى اليوم. ختم التشكيلة المقترحة:

«أما أنا، فآمنت بالثورة».

لم يجد النقيب في اعتراف الرائد بدينه العصري، سبقاً نضالياً، أمثاله كثيرون آمنوا بها، ديناً مؤقتاً نظراً للظروف السياسية، أصبح دارجاً في أوساط الأحزاب. لابد لكل حزب، أن ينتسب بشكل ما إلى الثورة مع انعطافة انتهازية نحو اليسار المتطرف، كانت غواية الجميع، حتى بين ضباط الجيش، استدركوا تخلفهم الثقافي بزاد فكري جامع مانع، وأصبحوا لا يقلون معرفة في هذا المضمار عن مثقفي الجامعات. هذه المعرفة لم يكن لينتحلها الرائد إلا لأنه يحتقر الناس، كان مثله، ولهذا فهمه، يتباهى بتميزه، ليسهل عليه التخلص منهم، وبدا له، وربما لم يكن مخطئاً، أن الرائد يتذرع بالثورة ليقتل. سمعته تؤكدها.

غير أنه على الرغم من ضبطه للرائد القاتل المتمرس، متلبساً بمبرراته، لم يجد تفسيراً لحججه الثقافية الظاهرة، سوى ذاك السبب القوي والعميق جداً، كان يلف ويدور كي يثبت أنه ليس مسلماً، توطئة للتخفي على سنيته تحت عباءة الإلحاد.

الويسكي الذي أطلق لسان الرائد، أطلق أيضاً تأملات النقيب، ولم يكن الصمت الذي حل، سوى انتظار النقيب لما سيتفوه به الرائد، قد يضطره إلى مواجهة كونه علوياً، إذا كان الرائد تبرأ من دينه الأصلي، فماذا عليه بالمقابل؟ لم يجد بداً من الخروج عن صمته والاسهام في هذا الحوار الشيق، سوى مجاراته بالاعتراف بنبذه علويته، تاركاً ديانة الأجداد للأجداد.

«أنا أيضاً لا تعنيني الأديان، جميع الأديان».

لم يجد حرجاً في اعترافه، لأن ما يجهله من دينه أكثر مما يعرفه بقدر كبير، حتى أنه وجد نفسه يفتقر إلى دين يرفضه. خفف عنه، إحساسه بأن التنافس بينهما لم يعد على الاديان بعدما أنكراها،

بل على لململة أفكارهما المبعثرة. تأملاته التي سبقت، ساعدته على إسباغ قدْر من المصداقية على ما راوده، لم تكن موثوقة، لكنها أقنعته شخصياً، ولو اعتورها الجهل، بأنه إذا تنصل من الأديان، فمن أيها بالذات؟ ماذا يعني أن يكون مسلماً، أو علوياً، أو نصيرياً، هل هذه مذاهب أم خرافات؟ وإذا كان مسلماً مارقاً، فما هي علاقته بالسنة والشيعة؟ العلويون لا يمارسون الطقوس نفسها، ربما كانوا يتعبدون بطريقة سرية، ما أدراه؟ بعض أقاربه يصلّون ويصومون مثل المسلمين، يتقيدون عن إيمان بنواهي الدين كما تلقوها أو فهموها، ليس عن تقية. وآخرون لا يعبأون بها، ليس عن ارتداد، ومنهم من يشتم ابوبكر وعمر، ويعبد علي بن أبي طالب!! ربما لا يعرفون دينهم، أو أن لهم أكثر من دين، لم يرغب في التعرف إلى الحقيقي منها، المشكلة إذا أراد أن يتدين، عليه اختيار واحد منها، لكنه ليس مضطراً إلى الايمان. ولقد اعتقد أن العلويين سواء كان لهم دين أو لم يكن، فهم مثل غيرهم، لا يختلفون عنهم. وهذا ما ضايقه، ليتهم لا يشبهون ولا يتشبهون بأحد، أن يكونوا متفردين.

تطوع الرائد لإنقاذ النقيب مما بدا محنة إشكالية، واقترح عليه أن يكون علوياً، أو نصيرياً، شيعياً، أو سنياً حسب الحاجة، ما دام أنهم لا يعنون له شيئاً. الموانع الدينية والأخلاقية، تصلح للبرجوازيين والعمال والفلاحين والحرفيين، أما الثورة فلأمثالهما، لكنه سيتجاوز هذه الفكرة إلى أخرى أقوى منها:

«الايمان بحد ذاته مشكلة تقيد المؤمن، بينما ألّا تؤمن بشيء، يعني أن تكون طليقاً، بلا دين ولا مذهب، وحتى بلا ثورة، فهذه هي الحرية».

من أين يأتي الرائد بهذه الأفكار الجريئة؟ كان يقفز من فكرة لأخرى، وينبذهم بالتتالي، حتى الثورة رفضها، اللعين يقرأ الكثير من الكتب التي تقرأ الواقع من دون أن تطلع عليه.

«هل تعرف ما جرى في حماه؟»».

كان قد أخضعه لتساؤلاته: هل كان الجنود مجرمين، أم حولتهم الإباحة إلى قتلة؟ هل لأن العلويين ثأروا من السنة، أم كانت الوحشية متنفساً لغرائز القتل والاغتصاب والتدمير، الذين

أو الكفر، هو الذي شجعهم على عدم الرحمة؟

كان الرائد دون ريب يعرف ما جرى في أحياء حماه، اطلع عليه في جولاته مع العدالة في المحكمة الميدانية، ومن قبل في أقبية التعذيب بالفرع. ولذلك تكلم بثقة:

لم يكونوا منفذين للأوامر فقط. الله لم يكن هاجسهم، تخلصوا منه، وأطلقوا العنان لأحقاد غامضة ملتبسة بالتاريخ والدين والفقر والغزو والحسد والكراهية... كانوا برابرة قتلة ومتوحشين أنذالاً. عزاء الأموات الوحيد؛ الاعتقاد أن ما وقع عليهم مكتوب في سجل محفوظ قبل بدء الخليقة، وما العذاب إلا امتحان لهم.

القتل ضرورة لابد منها، ما دام هناك من يتقبله على أنه نعمة إلهية، من طرف ينظف العالم، ومن طرف آخر يمنح لأنصار النعمة الإلهية مسوغات للموت السعيد. هذا زمان السفلة الأوغاد منقذي العالم من الايمان، يكشفون قدرة الله، الذي بلا قدرة.

أثار الرائد حماسته، بوسعه هو أيضاً أن يبتدع الكثير من الأفكار، قال له، وكأنه يهمس لنفسه:

«ليس هناك إله موحد».

خطرت له هذه الفكرة، لأنها تشير إلى الزي غير الموحد لسرايا الدفاع وجنود القوات الخاصة والشرطة العسكرية والكتائب الشعبية. لكنها لا تكتمل إلا بالتوسع بها إلى المقصود منها:

«تعدد الأرباب، كتعدد الأزياء، كتعدد أنواع المحاربين، منهم الذي قتل، والذي لم يقتل، أطلق النار، ولم يطلق، ذبح أو لم يذبح، ومنهم من اغتصب النساء، ولم يوفر الأطفال من الموت، لم يُجمع الجنود على رب واحد، رب الانتقام وحده كان حاضراً، لينتقم الجنود ممن صوّر لهم انه عدو الوطن».

العداوة التي يحملها للمقاتلين الإسلاميين، كانت لاختلاف الرب، ربهم الذي يخصهم، ويقاتلون تحت رايته. لا يمكن تحييده، ولا تجاهل تأثيره. ترى نحن نقاتل تحت راية أي رب؟ إن كان هناك واحد، فهو رب افتراضي، وليس شيئاً.

هل استوعب الرائد المثقف فكرته؟ ربما، فانتقل إلى الجزء المهم منها:

«القضاء على رب الاسلاميين، يتحقق بالتيئيس منه، فهو عاجز، لا يحمي ولا يساعد ولا ينقذ؛ استغاثاتهم به وبأنبيائه ورسله لا تجديهم نفعاً، ماتوا حتف أنوفهم. أحياناً كان ينتصر لهم، هذا في الزمن الغابر... نقطة ضعفه الرئيسة، أنه لا يظهر».

الفكرة وصلت، بادله الرائد الحماسة، لكن بتؤدة:

«المعتقد الديني لا يتبخر مهما أصابه من انحسار، لا يُمحى إلا بقتل الله القابع في الرؤوس. الله فكرة بحتة، لا وجود مادياً لها، ولا خلاص منها، الأجدى والأسهل قتل المؤمنين بها، دونما تمييز بينهم، مسلحين كانوا أو عزلاً».

بلغت بهما النشوة أقصاها، كان اقتحام العالم بالقتل ممتعاً ولذيذاً، ليس من فعل الويسكي، الذي لا يُحدث هذا التأثير القاتل. توصلا إليها في حديث كان بالغ الإثارة والرحابة؛ أحاطا بالكون وجعلاه يتضاءل تحت تأثير الهجوم الكاسح لأفكارهما، إعادة تشكيله من دون إله مسألة قائمة. أما البشر فلا حساب لهم مادام سحقهم مفروغاً منه.

ابتسم النقيب مسروراً، في هذه النتيجة الكفاية لمخمورين أفصحا عن طموحاتهما، وبدا العالم لناظريهما مباحاً لهما، وأصبح بمتناولهما، بقي أن يذهبا إليه، كانا خارجه.

عند الوداع، تعانقا، الرائد ضَمِنَ تعاضد النقيب معه في يوم أسود، والنقيب اطمأن إلى أنه كسب صديقاً في مشوار العمر، تربطه به أسرار، لا يباح بها، ولا يؤتمن عليها غيرهما، تقيدهما الواحد إلى الآخر، ليس لأحدهما التخلي عن صديقه إلا بقتله.

لوح الرائد بيده، واختفى في الظلام.

بعد قليل سمع النقيب صوت تشغيل السيارة. أدرك أنه أصبح وحيداً في الخيمة، أحس بالمكان، وبرثاثته؛ البواري السوداء، السرير الميداني، البطانيات الرمادية، كوم الأوراق، آثار الشاي على الطاولة، بقايا الويسكي، ضوء اللوكس المتهاوت، عسعسة اللهب في مدفأة تنث الدخان، الريح

تصطفق على جنبات الخيمة. إذا كان للحديث فائدة آنية، فلإبعاد البرد الذي أطبق عليه الآن دفعة واحدة. الأسوأ، كأن النشوة سترتد إلى عكسها.

لن يسخر من نفسه ولا من الرائد، أمضيا وقتاً ممتعاً لم يكونا طواله واعيين تماماً لما كانا يتباريان في التنظير له، قضيا على الله والأديان والمذاهب. خشي أن تنقض صحوته ما تفتق في رأسه من وجهات نظر قوية، يُضعفها أن أفكاره حول الله التي تعاوده، كانت نتاج العزلة، عزلته في الغرف المستأجرة في حلب، وفنادق ساحة المرجة في دمشق، والمهجع في الكلية، وبراكيات الشؤون الإدارية في القطعات العسكرية.. تطورت من موقع إلى موقع، وأوصلته إلى حقيقة أرهقته، أن الله سيشكل خطراً عليه، يتطلّب منه قبل محاربته، إنهاء وجوده في داخله. ومع أن هذه الحقيقة كانت منيعة وشائكة، فوجئ أنها محسومة!!

في داخله فراغ يخلو من الله، لا مكان له في جحيم روحه، مكانه مشغول، كان يؤمن بإله آخر، هذا الذي لا وجود له، هذا الذي لم يكن موجوداً منذ الأزل، ولن يوجد إلى الأبد.

لن يؤمن إلا بالحقائق الأكثر واقعية، ولو جافت الواقع.

في تلك اللحظة، تذكّر الرضيع، فهاجمه الشك، ونغّص عليه بقايا نشوته، إذا كان الرضيع نجا من الموت، فالله موجود، يناصبه العداء، وطموحاته ليست طوع رغباته. أما إذا لم يكن موجوداً، فلا مكر، ولا خديعة، فالله لم ينقذ الرضيع، بل هو الذي تركه ينجو، مستأنساً بإهماله، مستهيناً بأقدار مشلولة، لا خطة لها ولا تخطيط.

قبل أن يغلق عينيه ويسرح في الظلام، اصطحب معه الرائد الذي سوغ القتل، مشترطاً نفي وجود الله، حسب صاحبه الروسي. بينما هو يحق له أن يزهو بما أنجزه: معرفته بقدرته على ممارسة القتل من دون سبب ولا مسوغ، تجربة منحته يدين طليقتين، ومعرفة لا نظير لها، على أن تستغل بدراية، أي أن يكون القتل عمداً، وبهدف، ليكون مثمراً، والأهم بلا ضمير يرهقه بتساؤلات تافهة.

حضور التذكارات

ليتني لم أتابع طريقي إلى حماه، أصابني القنوط لحظة وصولي إليها. حماه غارقة في الحِداد، يلفها السكون، والرعب يسري فيها. المدينة المنكوبة، أعاد الدمار تشكيل معالمها المحترقة على وقع ما أصابها من أهوال. نهر العاصي، هناك من رآه مقبرة تطفو على صفحته جثث القتلى بالعشرات، وهناك من بكى، لم يغفر للمؤذنين عدم سماع أصواتهم تدعو إلى الصلاة. وثمة من تراءى له أن سكة الحديد في محطة القطارات تقود إلى الهلاك، في رحلة سفر، بلا سلامة ولا عودة. رصيف الانتظار، فضاء يدوّي فيه صوت الرصاص، مختلطاً بالسباب والتجديف، وصدى نداءات الاستجارة بالله... وحدها النواعير بدورانها اللامبالي، كانت الشاهد الكفيف على ما عاناه أهلها من فظائع وتنكيل.

الكيلانية، الحي الذي نشأتُ فيه، أطلال خرائب، طفولتي ويفاعتي وشبابي هدرت على أرضه، بيتنا حطام، تبعثرت في أرجائه؛ القناطر الحجرية لليوان، إطارات النوافذ، بلاط باحة الدار، أبواب خزانة غرفة النوم، قوائم السرير، رخام الأعمدة، نباتات ميتة، طاقية أبي الصوفية، ملابس ممزقة، أحواض جفّت تربتها، مريولة المطبخ، أحذية الأولاد المقطعة، أزرار قمصان، وأكمام أرواب وفساتين، عقارب ساعة الحائط، سجادة الصلاة، قطرميزات المونة

مهشمة، شجرة النارنج مقتلعة من شرشها، أغصان يابسة، أوراق محترقة... ثاوية في التراب وعالقة بالوحل.

حارتي لم يسلم شيء منها. مصير بيوتها لم يكن أقل خراباً من بيتنا. الزاوية الكيلانية سويت بالأرض، الجرافات لم توفر حتى القبور، عظام أمواتنا طحنت بترابها، أجساد قتلانا ذهبت بها الشاحنات إلى مقابر جماعية، مثوى أهلنا بات في الذاكرة.

لبثت عاجزاً، ما الذي أحمله، وما الذي أدعه؟ أي شيء سيذكّرني بأهلي، ويجدد آلامي. ما الذي أريد معرفته بعد، بيتنا لن أراه إلا في أحلامي، ما اندثر معه، لن يستعاد أبداً. المنظر الذي تخيلته لمقتل العائلة أرحم مما تخلف وراءهم من ذكريات، أمست أنقاضاً.

لم أكن وحدي، هناك جيران لنا، امرأة وفتاة يرافقهما رجل، يبحثون بين الأنقاض عن تذكار عزيز يحتفظون به، قبل أن تُرحّل إلى مقبرة الذكريات. المرأة تنحني على الأرض تحمل شيئاً، تنفض عنه التراب وتغرورق عيناها بالدموع، تسرد على الرجل قصة، إذ لكل شيء قصة، بينما الفتاة تكفكف دموعها، ترمي المرأة ما حملته أرضاً. لم يعثروا إلا على أشياء صغيرة وتافهة، وكانت تبكيهم. الأشياء الثمينة نهبت. غير أن الجرافات كانت رحيمة بنا، هدرت من حولنا، اقتربت منا، وسحقت ما تناثر وتبعثر من أشياء، وأنقذتنا من عذاباتها، وفرت علينا تذكارات كانت كحد السكين.

تحضر الذاكرة بحضور التذكارات وتضمحل بغيابها.

بقيت في حماه ثلاثة أيام، زرت أقرباء والتقيت بأصدقاء ومعارف، بعضهم يقيمون في مناطق لم تقصف، وبعضهم الآخر كانوا ممن بقي حياً من سكان منطقة الحاضر، هربوا مع اشتداد القصف، ثم عادوا إلى ما تخلف من بيوتهم ودكاكينهم، كانت البيوت ركاماً، والدكاكين رماداً.

سألت عن أخي عدنان، لا أحد رآه أو يعرف عنه، أو عن عائلته شيئاً، لا يداوم في عيادته ولا في المستشفى. افتقدوه في الاسبوع الثالث للحصار. ولقد عزّاني ألا يكون لأخي أثر، اختفاؤه أرحم من موته، يترك متسعاً للظن والتخمين، ولانتظار مهما طال، لا يقطع الرجاء. وإذا كان

لقي حتفه، وهذا ما رغبت في نفيه، ففي ظرف، الأسلم أن أجهل عنه كل شيء.

الناجون من الموت، لدى كل واحد منهم مأساته، أقلها تشرده مع عائلته، أو أسير جدران منزله. حمدت الله بعدما سمعت من ناجين عن مجازر كادوا أن يكونوا من ضحاياها، وأحداث عاصروها يتداولونها همساً: جنود مقنّعون يلبسون الدروع الواقية يركبون العربات المصفحة، يلاحقون الهاربين إلى الملاجئ والأقبية ويعدمونهم فيها. يفجّرون البيوت ومن يخرج منها يردونه قتيلاً. قتلوا المفتي والعلماء، ولم يرحموا الأطفال. الشيوخ العميان لم يكن مصيرهم أفضل، لقوا حتفهم رمياً بالرصاص على جدران مدرسة المكفوفين. في حمام الأسعدية قتلوا نساء التجأن إليه مع أطفالهن. حرقوا الجرحى بالأفران في معمل البورسلان، دهموا الحمامات واغتصبوا النساء والفتيات ثم قتلوهن. خلف عربات القطار، اقتادوا الرجال والشبان وفتحوا النار عليهم، أجسادهم بقيت طوال الليل تنهشها الكلاب. أمام جدران المدرسة الصناعية، وفي باحة مدرسة «المرأة العربية» حصدت بنادق المظليين أفواج المعتقلين. في قسم الإسعاف بالمستشفى الوطني، أجهز جنود القوات الخاصة على الجرحى بالسكاكين وحراب البنادق، الحديقة تحولت إلى مكب للأموات. عمال النظافة يجمعون الجثث، يكدسونها فوق بعضها، ثم تنقل في شاحنات القمامة، لتلقى في حفر جماعية....

لا يمكن تصور الفظائع المرتكبة؛ امرأة خبّأت جثة زوجها الميت أسبوعاً كاملاً، لم تستطع الخروج من بيتها، فارتجّ عقلها. عجوز أصيب بالجنون بعدما أعدموا أبناءه السبعة أمام عينيه، وهو يرجوهم أن يقتلوه معهم. زوجات قتل رجالهن أمام أبواب بيوتهم، ولم يسمحوا لهن بدفنهم. بقيت الجثث عشرة أيام تتفسخ، وتنبعث منها الروائح الكريهة، في كل يوم يأتي العسكر ويتفقدونهم ويهددون من يقترب منهم، لا حيلة لزوجاتهم في النهار سوى البكاء، وفي الليل يزحفن إليهم يمسحن عن وجوههم الوحل، ويقرأن الفاتحة على أرواحهم، ودموعهن تنهمر مع انهمار المطر، إلى أن جاءت الشاحنات وذهبت بهم...

لن أكمل، سمعت الكثير، وكانت أقل مما حدث.

لم أترك حماه قبل السؤال عن الولد نوري، أحد معارفي صادفه قبل أسبوع يبحث عمن تبقى

من أهله. فتركت له خبراً في أكثر من مكان، ليوافيني إلى بيتي في حي التعاونية. كنت عزمت على البقاء مدة أسبوع على الأقل. لكن بعد الذي سمعته، نفدت قدرتي على التحمل والانتظار، فقررت اختصار وجودي والعودة إلى دمشق، لم يعد هناك ما يربطني بمدينتي سوى الألم، والقليل من الأقارب والأصدقاء.

صباحاً نزلت إلى الحي لأستوقف سيارة أجرة تقلّني إلى الكراج فرأيت نوري، كان يسأل عني أبو حمدي صاحب الدكان المجاور لبيتي. لم أر الصبي منذ زيارتي ما قبل الأخيرة، مضى عليها ثمانية أشهر، خلالها كبر عدة سنوات.

بعد أسبوع على بدء الحصار، ذهب نوري ليتفقد أخته المتزوجة وزوجها، البيت مطوق بالآليات، تسلل من بيت جيرانهم، الجنود في غرفة النوم، أخته تصرخ وتبكي ترجوهم ألا يقتلوا زوجها، كان مختبئاً في الخزانة، لكنهم أطلقوا عليهما النار. لم يستطع نوري مغادرة المنزل، الجنود يحومون في الحي. اختبأ يومين تحت السرير، بمتناول نظره، أخته القتيلة، كانت حاملاً في شهرها الثامن، الجنين في بطنها تحرك طوال النهار، ليلاً سكنت حركته.

عندما عاد إلى منزلهم، لم يجد أحداً فيه، بعد انتهاء الحصار، عثر على أبيه وأمه وإخوته الصغار في الملجأ، لكنه فقد أخاه الأكبر.

لم يختلف ما رآه نوري عما رأته العجوز أم محمد، غير أن ما سمعه كان أكثر وضوحاً، الضابط برتبة نقيب، على كل كتف ثلاث نجوم، تبادل الحديث مع أخي، عندما عرف أنه طبيب، طلب من الجنود أن يأخذوه إلى الفوج لمعالجة ضابط جريح. عقب مغادرتهم، أطلق النقيب الرصاص على الجد أبو عدنان وزوجة أخي والأولاد، ثم ظهرت ام محمد، انتشلت الرضيع، فصوّب النقيب رشاشه نحوها. سارع نوري ورمى حجراً بعيداً على الطرف المقابل، فأطلق النقيب الرصاص على مصدر الصوت، كان قد شاغله عنها.

قال نوري، ربما كان الموت نصيب جارهم الطبيب عدنان، لن يفلتوه بعد معالجته الضابط الجريح، على الأغلب تمت تصفيته. ولقد أحس بأنه جرحني بما قاله، ومع هذا عذرته، إن لم

يكن أخي حياً فهو ميت، القتل كان نصيب أغلب المفقودين.

طمأنني مصير أخي المجهول، أما الذي لم يطمئنّي، فهو أن حقل الرمي، حسبما قال أبو حمدي، كان مكاناً لتجميع المعتقلين وإعدامهم بلا محاكمة. في الأيام الأخيرة، سمعوا أن محكمة ميدانية عقدت عدة جلسات، ولم يعد أحد ممن أرسل إلى هناك.

هل كان أخي بينهم؟ لا يمكنه الجزم بذلك، لكن كما وصل إلى سمعه، نجا واحد لا أكثر، استطاع الإفلات حياً، وعدني أبو حمدي بالسؤال عنه.

فأجّلت سفري يوماً آخر.

١

صباحاً نحو الساعة العاشرة، وصل الرائد مروان إلى مبنى المخابرات العسكرية قادماً من حماه، تأكد من وصول دفعة المعتقلين التي أرسلها إليهم البارحة مساء. أحال الطبيب المدعو عدنان الراجي، إلى الفرع ٢٤٤، سيحقق معه شخصياً، بخصوص قضية على علاقة بالمحكمة الميدانية، تتطلب استكمالها قبل البدء معه بالتحقيق الثاني.

كان مرهقاً، لم يشبع نوماً بعد سكرة البارحة. أوصله سائق سيارته البيجو إلى بيته في حي المزرعة، تناول فطوراً دسماً، وأخذ حماماً ساخناً، غسل عنه تعب وغبار أيام أمضاها يلهث جيئة وذهاباً بين حماه ودمشق. سينام ساعتين فقط، لن يتغدى ظهراً، سيتناول تشكيلة من الفواكه، ثم يحظى باستراحة ممتعة بقضاء بقية نهاره في الفراش مع لميس صديقته الجامعية طالبة طب الأسنان، تجدد قواه، ثم ينام ليستيقظ بعد منتصف الليل أو قبله بقليل، ويذهب إلى الفرع، بهمة عالية.

التحقيق ليلاً كان الوقت المفضل لديه لبدء الدوام، يتفرغ خلاله للعمل دون أن يزعجه رنين الهاتف، أو مقاطعة رؤسائه بطلباتهم، عدا وساطات المسؤولين. صفاء الليل يساعده على التركيز، يؤنسه صراخ معتقل عنيد لا يكف عن التوسل وإطلاق الأيمان المغلظة على براءته.

وكلما علا صوته بالبكاء، أرهب جعيره الموقوفين وأتلف أعصابهم، بعضهم كان يستسلم قبل البدء بالتحقيق.

الاستراحة الممتعة في السرير تضمنت عملاً مجهداً أيضاً، لميس لا تخلع ملابسها كلها حين يضمهما الفراش تحت اللحاف، كل قطعة ينجح في تخليصها منها تحتاج إلى معركة لذيذة، هناك حد يقف أمامه صاغراً، القطعة الأخيرة. اللعبة تروق له، لميس أقنعته لن تفرط بعفافها، ستتنازل عن عذريتها بعد عقد الزواج، في ليلة الدخلة. منعته من تجاوز ما دعته بالخط الأحمر، أما هو فدعاه، بخط التماس الناري. تقبّل بكل طيبة خاطر صرامتها في إيقافه عند عتبته، محظرة عليه التقدم ميليمتراً واحداً، كان هديتها إليه في ليلة العمر. احتاج اليوم إلى إرادة حديدية ليمتثل إلى تعليماتها المشددة، كوفئ عليها بما يعادل ليلة العمر وربما أكثر، وإن لم تتوج بهديتها له.

كان على يقين أن هذه الأمسية تفوق الليلة الموعودة. طباع لميس اللطيفة تتبدى في اللمسات الصغيرة التي تخصه بها؛ تلقمه حبات العنب بأصابعها، تقشر له التفاح، تعد له عصير البرتقال، وفنجان القهوة السادة، تضع قطعة البسكويت بين أسنانه، ومن الطرف الثاني بين أسنانها... سحرته رومانسيتها مع أنه تعرّف إليها في ظرف لم يكن رومانسياً. هذا الظرف بالذات، عندما علمت به أمه، غضبت عليه قبل موتها، فأنكر الحادثة كلها، واستعاد رضاها كي لا تزعل منه. عندما تخطر الحادثة في ذهنه، يستل لميس منها، كرمى لذكرى أمه.

أنقذ لميس من براثن فتاتين محجبتين همتا بضربها وشد شعرها بعدما تعدت عليهما. لو تركها لهما لشحطتاها على الأرض، من فرط ما تواقحت عليهما. أثناءها، لم تكن الفتاة الرومانسية بهذه النعومة، كانت لبوة مفترسة. تابعها من شارع لآخر في ظرف لم يكن سيئ الذكر، إلا بسبب أمّه. تعرف إليها، وأوصلها إلى بيتها ـ ولمزيد من الحماية أعطاها رقم هاتفه لتتصل به أي ساعة نهاراً أو ليلاً، في حال احتاجت لأية مساعدة مهما كانت.

الضابط الشهم، الواقع في الغرام، انتظر منها اتصالاً لم يأته. حام حول بيتها عساه يراها داخلة أو خارجة، دونما جدوى، أوصلته تحرياته عنها إلى قراءة اسمها في لائحة المقبولين في كلية طب

الأسنان. بعد أشهر من التردد، أرسل مخبراً رصد تحركاتها في الكلية. كان التقرير دقيقاً، سرد أدق التفاصيل عنها، ولم يهمل تفصيلاً صغيراً، كان مجرد تكهن: أنها ربما كانت على علاقة بأحد زملائها، لوحظ أنه خلال الاستراحة بين المحاضرات يلازمها في الكافتيريا.

لم يشأ الضابط العاشق الإعلان عن حبه إلا بعد إزاحة غريمه، طبعاً ليس بالحسنى.

اعتقل الشاب من الشارع، دفعه عناصر الفرع إلى داخل السيارة، ثم رفسوه إلى داخل الفرع، ورفسة أخرى إلى غرفة التحقيق. الرائد لم يستجوبه، التهمة ثابتة. أوسعه لكماً ورفساً، وكلما استراح من ضربه، تذكر أن هذا الشاب المطروح على الأرض لازم فتاة أحلامه في الكافتيريا، فيعاود من جديد. كاد من فرط ما كانت الحادثة تتكرر في رأسه، أن يقتله بفرم عظامه ولحمه، أخذته شدة الغرام، وتفاهة الشاب. عندما هدده بقصه بالمنشار الكهربائي صرخ المسكين، تذكر الرائد أنه، لكي يكون صالحاً للنشر، لابد من إرغامه على الاعتراف بانتسابه إلى الإخوان المسلمين. صرخة الشاب تسببت أيضاً بصحوته، وهي من الحالات النادرة التي يصحو فيها، ردها الرائد إلى عقله الباطن، بينما عقله غير الباطن لا يشتغل عندما يكون منهمكاً بالضرب. كان يقولها متندراً لزملائه الضباط.

طبقاً للمتعارف عليه في التعذيب، لا يجوز فرم طالب جامعي من أجل طالبة جامعية، حتى لو اغتصبها على رؤوس الأشهاد. القتل تحت التعذيب مسموح به فقط للمتمردين الاسلاميين. لم يطلق سراحه إلا بعدما شارف الشاب على الموت. أطلقه إلى الحياة زحفاً على ركبتيه وكوعيه، بعد تعهده كتابةً، بعدم الاقتراب منها أو حتى النظر إليها، وإلا أفقده السمع والبصر والنطق، هذا ما توعده به الضابط العاشق. أما التعهد الذي وقعه فكان عدم ممارسة أي نشاط سياسي. الشاب لم يقرأه، حتى لو قرأه، سيوقعه صاغراً.

بعدما أزاح غريمه، اعترض الجامعية الشابة في شارع الحمراء، فتذكرته على الفور، وكما في المرة السابقة أوصلها إلى بيتها. ادعت أنها أضاعت رقم هاتفه، فأعطاها إياه ثانية. المصادفة الرائعة، أنه أسر قلبها، مثلما أسرت قلبه. منذئذ، أي قبل عام تقريباً، بدأ مشوارهما الغرامي المرشح إلى نهاية سعيدة.

في تلك الليلة التي قضاها مع النقيب في خيمة، فيما كان البرد المتسرب من الفتحات والشقوق، يخفف من عبق رائحة أبخرة المازوت، ويدير رأسه أكثر من الويسكي، باح له الرائد بطرف من خصوصياته، فحسده النقيب على حبيبته الحسناء، حسب وصف حبيبها، وأيد ضاحكاً عقوبته للشاب المائع الذي تجرأ على الحبيبة. حينها، والرائد يستذكر محاسن لميس، عاد به البرد إلى لحظات دافئة جمعتهما معاً، وهما متخففان من ملابسهما.

بينما النقيب الكاره للنساء، أصبح أكثر كرهاً لهن، إذ تذكر رباب؛ عندما سيتسلم منصبه المخابراتي، سيرسل من يراقبها، إذا لم يضبطها بفضيحة، فسوف يفتعلها، لكن، وهذا ما فكر فيه، سيتعاون مع الفرع الذي يعمل فيه الرائد مروان، سيوكل إليه هذه المهمة. في الضيعة إذا اشتبهوا به سيخفقون في إثبات شكوكهم.

حينها، كانت نشوة تجلّي العالم بلا إله قد عادت بالرائد إلى لحظات جميلة جمعته بلميس، استعادها وأغفل التفاصيل الحميمة، كان من غير اللائق ذكرها عمن ستصبح زوجته. بارك النقيب للرائد زواجه المقبل بالجامعية التي ستصبح طبيبة بعد بضع سنوات، وحسده في سره؛ هؤلاء الشوام لا تطيب لهم المعيشة إلا مع شامية، الفقراء الشوام فقط، الانتهازيون منهم خصوصاً، يخرقون تقاليدهم العنصرية ويتزوجون قرويات من الساحل أو الريف القريب، توفيراً لتكاليف الزواج. الشوام حيسوبون حتى في الحب، فما البال بالزواج.

الأحاديث التي دارت بينهما لن تتكرر بهذه العفوية، هذا كان إحساس النقيب والرائد معاً، دون أن يدريا أن حدسهما في مكانه.

ليلاً، ابتدأ يومه، وكان يوم عمل شاق. لم يتسع له الوقت للتحقيق مع الطبيب، فأمر بعزله في زنزانة منفردة، نبّه على الحراس تزويده بالقليل من الطعام، لئلا يفطس من الجوع. وانهمك بإنهاء ما تراكم من مشاغل في غيابه، أحدها كتابة تقرير عن المحكمة الميدانية، وكان سلبياً، الجانب الإيجابي فيه، أن الرئاسة أحسنت بإنهاء عمل المحكمة، احتياطاً لفقدان معلومات ثمينة. أما بخصوص ابتزاز المعتقلين، فأورده في ملف خاص للرجوع إليه في حال تطلب الأمر ذلك.

فجراً، قبل أن يأخذ غفوة على السرير الميداني في الغرفة الملحقة بمكتبه، أطل على الطبيب، كي يُؤهله للتحقيق الذي سيبدأ بعد ساعات قليلة، باستهلاله قبل موعده، بتمهيد مرعب، يفيد في إشغال بال السجين بشتى الاحتمالات السيئة والتوقعات الأسوأ، فيحرك أسباب القلق لديه، مستغلاً الزمن الضائع بتعذيبه مبكراً، فلا يضيع الوقت سدى.

سمع الطبيب عدنان صوت الرائد قبل أن يراه، إذ بعد أزيز مفصلات الباب الخارجي، أطلق القادم جمجمة ثم تنحنح. أدار الحارس المفتاح في القفل وابتعد، دفع الرائد الباب بقدمه ودخل طبقاً للائحة طقوسه الترهيبية، تلك مفاجأته عندما يزور معتقلاً لدقيقة أو دقيقتين. عادة يُدْهمُ السجين بصرير المفتاح في القفل، فيقفز من مكانه، يسبقه عسكري ينهال على السجين بالضرب، حسب الأنظمة غير المكتوبة، وكانت أقوى من المكتوبة، وهكذا كلما فتح العسكري الباب وأدرك المعتقل في وضعية الجلوس لبطه بقدمه، ليتعلم الوقوف فوراً. عدنان لم يعرف بعد هذه الإجراءات، كما أن الرائد لم يدع العسكري يدخل قبله، فتجاهل عدم وقوفه.

بدا السجين، كما حال الموقوفين الجدد في أيامهم الأولى، وإن كان قاعداً، لم يأكل لقمة واحدة من المائدة الهزيلة، ليس بنيّة الاضراب عن الطعام، أو لأن منظر البرغل وكسرة الخبز اليابس، لم يحرّضا شهيته. كان محصوراً في مكان ضيق، معتم وقذر، تسرح فيه الصراصير والفئران، القلق استولى عليه، وأودى به إلى وضع مثالي كي تنهار أعصابه بالتدريج، ساعد على تسريعها قضاء ليلته أرقاً. هذا ما سيعمل عليه الرائد، تسريع انهيار مقاومته في بداية التحقيق مع الصفعة الأولى. ولم يكن هذا مستبعداً، المعروف عنه أن يستطيع إنطاق الحجر، ومع هذا صادف معتقلين أصلب من الصخر، اعتصموا بالصمت وماتوا في الصمت، لفظوا أنفاسهم دون أن يبوحوا بكلمة، ومن فرط تنكيله بهم أصبح عدو الجهاديين رقم واحد، كانوا يتواصون بحمل قنبلة يدوية إضافية، احتياطاً، يفجرونها بأنفسهم، حتى لا يقبض عليهم أحياء.

لا يستعمل الرائد الضرب بالأيدي ولا الرفس بالأرجل، مادام لديه من يصفع ويرفس، فهو لا يستخدم العنف، إلا في حالات تمس عواطفه، كما جرى مع الشاب، أو في حالة الغضب الشديد، أحياناً كان يغضب، عندئذ لا حدود للضرب، وقد يودي إلى الموت، لهذا يتحرز منه،

متى بدأ به، لا يعرف كيف ينهيه، إلا إذا أنهاه الضحية بموته.

كانت قسوته الهائلة، ليس لخلو قلبه من الشفقة والرحمة، إنما انهماكه في التعذيب، يدفعه إلى المزيد منه، تستأثر به الحماسة في المضي قدماً، بحيث يحتاج إلى من يكبح جماحه. كانت دليلاً في نظر رؤسائه على أداء مهماته بما يفوق المطلوب منه، فحمل عنهم أوزاراً لا يتجرأون على اقترافها.

أحياناً يعتمد الكلام فقط، وكان كافياً، يؤدي الغرض وأكثر. يتلفظ به ببطء، يدعي أولاً أن ليس لديه وقت يضيعه، ثانياً، سيراعيه بمعاملة خاصة، لأنه كبير في السن، أو لأنه أب لديه أولاد صغار، أو لأن هناك من ورّطه...إلخ. بالنسبة لعدنان الراجي، قال له، لأنك طبيب محترم.. لولا ذلك، لما طلب منه التفكير بروية، وخيَّره بين الخروج من الفرع على قدميه، أو محمولاً إلى القبر، لا خيار آخر، لذلك إياك والكذب، سؤالي بسيط وواضح، من الذي كان يعمل على إنقاذك من الإعدام؟ فكّر ملياً.

أرخى الطبيب رأسه، فظن الرائد أنه بدأ بالتفكير، فشجعه:

«إذا تعاونت معي ننتقل إلى الشق الثاني من التحقيق حول نشاطك في حماه، سوف أتساهل معك بخصوصه. أنت لا تعرفني، ولهذا أحذرك، فلا تعاندني، ولا تجرب أن تكون بطلاً. إذا حاولت، فتأكد أنك ستكون بطلاً ميتاً، لست الأول، ولن تكون الأخير».

من الغريب بعد مغادرة الرائد، وخلو عدنان إلى نفسه، زال عنه الخوف، وأحس بالارتياح، عرف ما سيحل به، لن يُخمن، طالما أنه لا نجاة، يستحيل أن يتسبب في أذية المساعد، لن يرمي به إلى عقوبة لن تقل عن الإعدام، جزاء محاولته مساعدته، ولو أنها لم تُجدِ. مصيره تقرر: الموت. كان آجلاً، فأصبح عاجلاً. عدا أن اليومين السابقين اللذين عاشهما كانا زائدين، المفترض أن يكون مدفوناً في الخندق تحت التراب. لن يخرج من الفرع حياً، سيخرج محمولاً، والأغلب مجروراً من قدميه، كان قد لمح وهم يدفعونه إلى الزنزانة، معتقلاً هامد الأنفاس، يجره أحد العناصر على الدرج من قدميه، ورأسه يصطدم بالدرجة تلو الدرجة. سيلقى حتفه في هذا المبنى، إن لم يكن في هذا الجحر.

ترى إلى أي حد يستطيع أن يتحمل الألم؟ ربما يموت.

لم يكن وقت الرائد في اليوم الثاني أفضل من الأول، اضطر إلى حضور سلسلة اجتماعات مع رؤسائه في المخابرات وزملائه في الفروع الأخرى. كانت حول خطة العمل المخابراتي بعد حماه، اتفق فيها على وضع خطوط عامة لبرنامج يتضمن المشاركة في الارشيف، والتعاون في التحقيق بين جميع الفروع، بناء على اقتراح الرئاسة.

أرهقته الاجتماعات، لا مكان له فيها إلا مستمعاً، الضباط الكبار كانوا يهرفون حول تعاون هم أول من ينقضونه ويعملون على إفشاله. منذ التحق بالفرع وفكرة التنسيق بين الأجهزة تتردد من آن لآخر، ولا أحد يعمل على تطبيقها، وحتى عندما توصلوا إلى اتفاق وعلى مضض، ورفعوا اقتراحاً بشأنه، أهملته الرئاسة، ما دفعه إلى التساؤل مراراً، لماذا تعقد الاجتماعات ما دام لا مصلحة لأحد فيها؟ يبدو أن الوطن بغنى عنها، قالها ضابط كبير، لا يميز بين الرئيس والوطن.

عقب خروجه من الاجتماع، تذكر الطبيب، الوقت متأخر، وكان ضجراً، لا مبرر لاستعجال التحقيق؛ اصطدامه بتحالف الضباط، ستعقبه فترة هدوء، لن تمتد طويلاً، سيستغلها بتكبير حجم ملف فسادهم. لا يعرفون أن الطبيب قضية أكبر مما يتوقعون. تثبت عندما يحين الأوان بالدليل القاطع، جريمة تخليص المذكور من حكم الإعدام، لن تتسامح الرئاسة معهم. الطبيب ليس مشبوهاً ولا مشكوكاً بأمره. بل مجرم إرهابي مدان بحكم قضائي من المحكمة الميدانية، لتعامله مع الطليعة المقاتلة. لابد استعلموا عن مكان احتجازه، وعرفوا أنه بات رهينة لديه في مكان منيع. لن يتجرأوا على انتزاعه، أساليبهم لا تنفع هنا، لن يتمكنوا من تحرير الطبيب إلا إذا اقتحموا الفرع، لكن هذا يحتاج إلى انقلاب.

سيُطلع النقيب على مغامرته. صحيح أنه يلعب بالنار، لكن بطرائق آمنة. لا بأس من التلميح إليها، أو الإفصاح عنها، يستمزج رأيه، والأفضل أن يتشاركا بها، عربوناً على شراكة لا ينبغي تأخيرها، فاتصل به.

٢

تلقّى النقيب اتصال الرائد مروان، بينما كان يشرف على إعداد قافلة الشؤون الإدارية للمسير إلى موقع اللواء في القطيفة. دعاه الرائد إلى التوقف في دمشق، لدي ما يهمك. وفاجأه بالحديث عن خطة للبطش بتحالف ضباط السرايا والقوات، فاستفسر عن التفاصيل. قال له، تعال لأخبرك بها.

كان بإمكان النقيب أن يدع القافلة تتابع طريقها، ويقضي مع الرائد بضع ساعات شيقة، ثم يلحق بالقافلة صباحاً، خاصة أن الخطة حسب التلميح الموجز جداً، تبدو مثيرة، لكن كان هناك ما يجب القيام به فور وصوله،أعتذر، أمهلني يوماً فقط.

الأمر العاجل الذي منع النقيب من الاطلاع على خطة الرائد، ما أجراه من تعديل على خطواته اللاحقة، بدلاً من أن يرفع طلب نقل، سيرفع طلب استقالة. أعدّه فور وصوله، وحوّله من قيادة اللواء إلى قيادة الفرقة. تأكد من تحويله إلى الأركان.

رئيسه المقدم فوجئ بتعديل طلبه، اعتقد أنه موعود بمنصب إداري كبير في إدارة أو مؤسسة في الدولة، فأخذ الأمر على محل البراءة وحذّره: قيادة الجيش لا تقبل استقالة الضباط إلا لأسباب على الأغلب صحية بناء على تقارير صادرة عن لجان طبية عسكرية. طلبات الاستقالة العادية غير واردة، لا يُسرح الضابط إلا بعد عدة عقوبات مسلكية تشكك في صلاحيته للجيش، أو في حال الاشتباه بتوجهه القومي، فيخضع للتحقيق، يطرد إن كان بريئاً، وإذا ثبتت عليه مخالفة جسيمة، يحال إلى المحكمة العسكرية.

جواب إدارة شؤون الضباط في الأركان لم يأته كتابياً ولا برقياً. سمعه في اليوم التالي بالهاتف على لسان العميد معاون مدير الإدارة؛ الرفض مع التنبيه بألا يجرب رفعه ثانية، وأنذره بتأخير ترفيعه فيما لو حاول. لم يكلمه العميد شخصياً إلا لأنه لا يريد الإضرار به، وخفف من لهجته، بالقول، إن الجيش لا يستغني عنه، وسوف يعيد إليه الطلب مذيلاً بتوبيخ شديد اللهجة.

النقيب سليمان توقع جواب الإدارة، لم يرفع طلب الاستقالة إلى إدارة شؤون الضباط إلا لإعطاء

طلبه بعض الجدية مع بعض الشوشرة، عندما يقابل الرئيس، سيأتي على ذكر الاستقالة، ويبدي أسبابه، أحدها منصبه في الجيش لا يتيح له خدمة الوطن بالشكل الفعال. إذا طلب منه الرئيس العودة عنها، فلن يتحرج، سيلتمس منه منصباً كبيراً في المخابرات، أي أن يُفرض على الأجهزة فرضاً، من الرئيس بالذات، مركزه سيكون أقوى، نظراً إلى أنه مدعوم منه مباشرة.

يحتاج طلب المقابلة إلى وقت كي يصل إلى الرئيس، ويوافق عليه، وقد يتأخر ريثما يستدعيه. ترويحاً عن نفسه، حصل على إجازة ثلاثة أيام، سيرى خلالها الرائد مروان، ويحاول إيصال الطلب إلى القصر الجمهوري. كان الطريق إليه سالكاً وإن بصعوبة، لن يعتمد على ذاكرة الرئيس، بل على العم صبحي الموظف القديم في القصر، واحد من جهاز سكرتارية الرئيس. تعرف إليه مؤخراً عن طريق صديق له، وعده بتمرير الطلب إليه، لكنه قد يتأخر، الرئيس مشغول جداً في هذه الأيام، سيدبر له مقابلة في غضون الشهر المقبل.

اتصل بالرائد مروان واتفقا على اللقاء مساء باكراً قبل غياب الشمس، الساعة الرابعة والنصف، في مطعم اللاتيرنا، في الدخلة المقابلة لسينما الحمراء في شارع الصالحية، لديه هو أيضاً ما يحدثه به، سيعلمه باستقالته، ثم يتناولان العشاء. أكد عليه الرائد أن يأتي بالملابس المدنية كي لا يلفتا الأنظار.

خرج الرائد من بيته بعد العصر على أن يكون في اللاتيرنا في تمام الساعة الرابعة والنصف. ترك لميس نائمة، لم يدر أنها استيقظت، ووقفت على الشرفة تتابعه وهو يصعد إلى المقعد الخلفي من سيارته البيجو، مع أنه نبهها ألا تظهر لئلا يراها السائق وعنصرا الحماية المسلحان. كان رئيس الفرع خصصهما له لمرافقته في تحركاته اليومية داخل العاصمة، بيته في حي المزرعة معروف للكثيرين. هذا الإجراء اتخذ بعدما أرسل الإرهابيون إليه أكثر من تهديد.

لم تكد السيارة تغادر رصيف الوقوف، وتنعطف متجهة صوب الشارع الرئيسي، حتى برزت سيارة مارسيدس سوداء من الدخلة الجانبية وسدّت الطريق أمامها، نزل منها شابان أخذا يدفعانها، ليخليا الدرب. لم يبد الرائد مروان اهتماماً بها، بينما تحفز السائق والعنصران المسلحان. قال لهم، سيارات المارسيدس لا تستدعي الشكوك. وإذ التفت السائق ليقول له،

إنهما لا يدفعانها بل ينتظران أحداً، إذا بأبواب السيارة تفتح، والرجلان ينتزعان عنصري المرافقة منها، وثالث يضع فوهة المسدس في رأس السائق، ويحذره من تحريك السيارة.

أخرج مروان مسدسه، وقفز من السيارة، وأطلق النار على شاب لحق به، أصابه في يده. اندفع نحو مستودع الأدوية، سيحتمي في داخله، إن لم يكن أغلق أبوابه، يناوشهم ريثما يطلب عمال المستودع نجدة؛ المستودع في منتصف الدخلة، يكفي أن ينعطف حتى يصبح على مقربة منه، ليس أكثر من عشرين متراً. تابع الركض إلى الأمام، الرصاص يلاحقه، عندما قارب على الانعطاف في الدخلة، استقرت رصاصة في ساقه، وأخرى في فخذه، بينما خرج من الدخلة شاب يحمل مسدساً صوبه إليه، كان قد أغلق الطريق بوجهه، وأجبره على التوقف. خطر له أنه رآه في مكان ما، لم يجهد ذهنه، وإن تذكر شيئاً بخصوص رأسه الضخم.

خذلته قدماه، سقط على الأرض، أيقن أنه وقع بين أيديهم، جبينه لامس الأرض. سمع دعسات أقدام. كان الذي سد الدخلة في وجهه قد اقترب منه ودفع فوهة المسدس إلى رأسه، هل سيسمع صوت الرصاصة قبل أن تخترق جمجته؟ لكنها تأخرت. شده من شعره، وأنهضه على ركبتيه. الدم يسيل منه. خمن أنهم لا يريدون قتله، أصابوه في قدميه لكي يأخذوه حياً. انحنى الشاب وانتزع المسدس من يده، ثم جره من ياقته، أفلته بعد قليل، ودفعه بقدمه تجاه سيارة المارسيدس، فزحف نحوها على ركبتيه وكفيه على الاسفلت الساخن، لم تبرد حرارته من شمس الظهيرة.

عنصرا المرافقة ومعهما السائق وجوههم إلى الحائط، تحت تهديد المسدسات، لا يرون ما يجري خلفهم. وصل إلى السيارة، الدم رسم خطاً أحمر فوق سواد الاسفلت. تخيل أن الشاب ذا الرأس الضخم الذي يسير وراءه كان دليله الدم. خطر له أنه سيلوث أرضية السيارة والمقعد الخلفي، رجّح أن يضعوه في الصندوق، لكنهم تركوه على الأرض. كانوا غير مستعجلين، كيف استولوا على سيارة مارسيدس، هل جرى الابلاغ عنها؟ أربعة أشخاص لاعتقاله، حيره أنهم لم يكونوا ملثمين، وفي منتهى الجرأة والهدوء. ما الذي سيفعلونه بعناصر المرافقة والسائق؟ لن يأخذوهم معهم، السيارة لا تتسع لهم، سيجهزون عليهم قبل المغادرة. ما داموا يريدونه

حياً، ما زال لديه الوقت كي يفعل شيئاً. لن ينالوه، إلى أي حد سيتمكن من مقاومتهم؟ ماذا بخصوص القنابل اليدوية التي يحملونها معهم؟ كانت تساؤلات فقط، أدرك أنه مصاب وبلا سلاح، عاجز عن فعل أي شيء.

ألقى نظرة على الشاب ذي الرأس الضخم، كان قد دنا منه، تبادر إلى ذهنه ثانية أنه رآه من قبل، ربما اعتقل لديه في الفرع. كيف أفلته؟ كان رأسه الضخم قد اقترب من وجهه، وثبت عينيه عليه. رفع مسدسه وسدده إلى جبهته بين عينيه تماماً، يهدده به. أصبعه على الزناد. لم يخف، حتى عندما تظاهر الشاب أنه سيطلق عليه النار.

همس في وجهه: قلنا لك ستندم.

لم يحتج إلى وقت ليجري انقلاباً في ما كان يدور في رأسه كالبرق، هؤلاء ليسوا الاسلاميين، من هم؟ الاسلاميون لا يهتمون بالندم، ثم على أي شيء؟ الأفكار تتطاير في رأسه كالنار، حتى أنه لم يدر بأي شيء كان يفكر، طاش صوابه، لو أنه يتذكر أين صادف هذا الرأس الضخم، فسوف يعرف من هم. كان متأكداً أن ما خالجه نحوه ليس أنه رأى وجهه من قبل فقط، بل وتذكر ملاحظته حول كتفيه العريضتين وعضلاته المفتولة، تبادر الى ذهنه وقتها أنه من هواة رياضة تربية العضلات، وعلق ساخراً في سره، أن رفعه للأثقال أسهم بنفخ عضلاته ورأسه معاً، لكن أين ومتى سخر منه؟

تحير الشاب ذو الرأس الضخم، الرائد لم يظهر عليه الندم، كان يحدجه بنظراته، عيناه معلقتان على وجهه لا على المسدس. لم يعد واثقاً من أن المطلوب نفّذ، ربما لم يسمعه، لو أنه ندم، لتوسل إليه الإبقاء على حياته، يبدو مصغياً إليه، استغرب، لماذا لم يندم بعد؟

كرر بالصوت الهامس نفسه: قلنا لك ستندم.

تلمّح الرائد شيئاً لم يعد غامضاً؛ هؤلاء لا يريدونه حياً، يريدونه أن يشعر بالندم فقط. أحس أنه إذا ندم، فسيضغط الرأس الضخم على الزناد. لم يحاول أن يتذكر، كان التذكر يعادل حياته. فكر بها سيفوته، إذا قتل، لميس نائمة، لن تنهض من الفراش حتى لو سمعت صوت الرصاص.

مساءً سيرنّ هاتفه طويلاً ولن يرد أحد عليها، ستظن أنه في الفرع، ما قصة الطبيب؟ لن يعرفها. أمه حذرته مراراً، لم يظفر برضاها قبل أن تموت، سيلحق بها. لن يكون الوسام من نصيبه، القتلة مجهولون، ولن يسعى أحد للكشف عنهم. ثم إن لديه موعداً مع النقيب، لابد أحس بالانزعاج من تأخره، سيغادر اللاتيرنا، لن ينتظره طويلاً. لكن وحده النقيب سيعرف، هل يفعل شيئاً؟

لم يضغط الشاب ذو الرأس الضخم على الزناد فوراً، معالم الندم لم تظهر على وجه الرائد، وإن تغيرت ملامحه من اللامبالاة إلى الذهول. كان كريماً معه، وأتاح له لحظة أخرى للندم، لحظة فقط، هذه اللحظة اتسعت ليتذكر الرائد قبل أن ينفجر رأسه، أنه رأى هذا الذي يطلق النار عليه في حقل الرمي؛ كان ضابطاً من سرايا الدفاع.

٣

دخل النقيب إلى اللاتيرنا متأخراً بضع دقائق عن موعده، شمل المكان بنظرة متفحصة، الرائد لم يصل بعد. طلب زجاجة بيرة، تسلى بشربها وهو يرمق مدخل المطعم. رأى بعض معارفه من الضباط وكانوا ثلاثة، اثنان بملابس مدنية والثالث بملابس عسكرية، جلسوا على الطرف الآخر، في الجناح المكشوف على طول الجدران، مقصورات متلاصقة تفصل بينها حواجز خشبية رفيعة. حيّاهم من بعيد، وتابع ينظر تارة إلى المدخل، وأخرى إلى ساعته. عندما بلغت الساعة الخامسة، أيقن أن الرائد مروان استدعي إلى الفرع لأمر مستعجل. لم يعد ينظر إلى الساعة، أو يتوقع دخوله، طلب زجاجة بيرة ثانية، سيشربها ويغادر. أصغى للموسيقا؛ كانت فيروز تغني.

اقترب الجرسون من مائدة الضباط، انحنى على أحدهم، فنهض وتوجه إلى الهاتف، بمجرد عودته إلى رفاقه؛ اشتبك الحديث بينهم. الضابط تلقى خبراً، أخذوا يتناقشون حوله بأصوات منخفضة. وإذ ألقوا نظرة إليه، وقف أحدهم وسارع نحوه، انحنى عليه، وتكلم همساً:

«اغتالوا الرائد مروان السنطري».

خطر له ألا يفاجأ، كان قد توقع ألا يأتي.

«متى؟».

«قبل نصف ساعة».

مروان لم يخلف موعده، هذا أمر يخصه وحده، تساءل هامساً:

«هل مات؟».

«إصابته خطرة».

انتظر قليلاً، يستوعب الخبر، الطليعة الاسلامية تمكنت منه. غادر المطعم وانطلق إلى مستشفى تشرين. لم يجد صديقه في العناية المشددة، عثر عليه في المشرحة ميتاً بلا حراك، جثمانه مسجى على النقالة، الدماء تغطي صدره وبنطاله، كان وجهه مشوهاً، أكثر من رصاصة اخترقت جبينه.

في الفسحة أمام الباب تجمع بعض الضباط. كانوا من الفرع، وعناصر من الشرطة والمرافقة وأطباء وممرضين، لمح بينهم إلى جوار الحائط فتاة مذهولة، لميس حبيبة مروان، عرفها من النظرة الأولى، ليس من خصلة شعرها الأشقر التي تغطي جبينها، بل من عينيها الزرقاوين، كانتا مغرورقتين بالدموع. إلى جوارها ضابط من المخابرات.

اقترب منهما، الضابط عرفه، كان على وشك اصطحابها معه إلى الفرع ليسجل شهادتها، كانت آخر من رآه حياً. قبل أن يُعرّفها إلى نفسه، أكد على الضابط مراعاتها، إنها خطيبة الشهيد. وتابع قائلاً، خسارتنا بفقد مروان لا تعوض. وافقه الضابط، التفت النقيب إلى لميس وعزّاها:

«مروان كان بمثابة أخ لي».

أفسح له الضابط المجال كي يواسيها. كان سبب ذهولها مقتله تحت أنظارها، رأت القاتل من الشرفة وهو يعدمه، كان مروان جاثياً على ركبتيه، عصابة من أربعة أشخاص، جاؤوا بسيارة مارسيدس سوداء، استهدفوه وحده، لم يقتلوا أحداً من المرافقة.

استمع إليها صامتاً، ثم أعطاها رقم هاتفه، وقال لها، إذا احتجت إلى أي شيء اتصلي بي. أحس بالذنب، عرف القتلة ولن يتجرأ حتى على الإشارة إليهم. قال تكفيراً عن ذنبه:

«مروان لم يكن بمثابة الأخ، كان أخي».

لم يعرفهم من سيارة المارسيدس السوداء التي لا يستعملها غيرهم، ولا من لامبالاتهم وتنفيذهم العملية علناً وعلى مهل، عرفهم من عددهم، العملية مشتركة، اثنان من السرايا واثنان من القوات. تحالفهم المؤقت، لا يضمنه سوى المشاركة مناصفة، وعلى أن يكونوا رقباء بعضهم على بعض. بعدها لا تحالف، بل عودة إلى منافساتهم وخصوماتهم.

لن يعزّيه شيء، مروان خسارة حقيقية، كان سيجمعه معه مشوار طويل، رغم أنه لا ضمانة لتعاونهما معاً، ستحكم علاقتهما المنفعة المخابراتية المتبادلة، ويحكمها أيضاً الحذر والوساوس، لئلا يغدر أحدهما بالآخر، ما الغرابة؟ هكذا العلاقات بين الضباط.

ناسَمَهُ خاطر خفف عنه، يوماً ما سوف يضطر، ليس لإنهاء علاقته به، بل للتخلص منه. من هذه الناحية، بدت النهاية المبكرة مشرفة، حفظت لعلاقتهما القصيرة نظافتها من المكائد، ومشجعة لذكرى لطيفة عن الصديق الشهيد.

أصدرت وزارة الدفاع بياناً وزع على قطعات الجيش، أُبن فيه البطل شهيد التطرف والإرهاب، وأسبغ عليه المكانة التي يستحقها، اعتُبر شهيداً من أنبل بني البشر. في الفرع طالب رفاقه بإطلاق اسمه على شارع أو مبنى... من حسن الحظ في المنطقة التي يسكن فيها، افتتحت مدرسة، فحملت اسمه: «مدرسة الشهيد مروان السنطري».

لم يُسرّ النقيب سليمان لأحد بما عرفه، سوى لصديقه عارف، وكانا يسكنان معاً في شقة بشارع العابد. قال له لست وحدي، رفاقه الضباط أيضاً لا يتجرأون على المطالبة بفتح تحقيق ينحو إلى اتهام تحالف السرايا والقوات، لن ينتج منه سوى خسارته لقب شهيد. سيعتبر ضابطاً عاثر حظ قتل بالخطأ في خصومة مع زملائه الضباط، شيء ما من قبيل الخسائر الجانبية في التدريبات القتالية. بعد أيام، طوى النقيب الحادثة؛ حتى إذا كانت الطليعة المقاتلة لم تغتلْه، لكنه كان على

قوائمها، إذا لم ينالوا منه اليوم، فلن يخطئوه غداً. تذكر أنه لم يبق للطليعة المقاتلة أثر.

ستؤثر الحادثة في النقيب على نحو آخر، بتلاشي رغبته في الانتقال إلى المخابرات، ما دامت السرايا والقوات مسيطرتين على البلد، فما قيمة جهاز المخابرات؟ تستطيع سرايا الدفاع وحدها احتلال العاصمة، وإيداع أجهزة المخابرات بضباطها وعناصرها في السجون. الآمن أن يرفع طلباً يطلب نقله إلى سرايا الدفاع، المستقبل هناك واعد، لكنه لم يعد مستعجلاً على شيء، غير أنه لو خُيّر، فسيكون السرايا.

أهمل طلب مقابلته للرئيس، ولم يلاحِقه، أصلاً لا يكفي الطلب من العم صبحي حتى تحصل المقابلة، بل يستلزم الإلحاح عليه، فَقَدَ الرغبة، ولم يعرف ما حل بطلبه. لم يستغرب، إن لم يحصل تقدم بخصوصه، وحتى إذا استعلم عنه، سيؤجله العم صبحي بضعة أيام أخرى، وهكذا... إذا أراد يوماً تجديد الطلب، فسوف يجرب قناة أخرى.

٤

كما تنبأ المساعد ضرغام، سيتمنى الطبيب الموت مراراً. لن ينتحر حسب نصيحته، مع أنه كان واثقاً من درايته بالأسلوب المستحسن لإنهاء حياته، وبأقل الطرق إيلاماً، الطريقة لم تكن العائق، وإنما افتقاده للعزيمة، مع أن مرضى منهكين ويائسين، تحلوا بالشجاعة، لم يوفروا أساليب في منتهى الجرأة والعنف، كانت عوناً لهم في إنهاء آلامهم المستعصية. الوشائج التي تربطه بالحياة، تمنع عنه أمنية الموت.

الظلام الدامس في الزنزانة أفقد الطبيب الاحساس بالوقت، ظن أنه لا يمضي، أو أن الليل يعقب الليل دونما نهار فاصل، أو أن الزمن ممطوط. الجوع حثه على تلمس العتمة باحثاً عن الطعام الذي حرد عنه، كان البرغل الجاف والخبز اليابس قد أصابهما العفن. خمن أنهم يعاقبونه بالظلام والتجويع.

نسيه عناصر الفرع في زنزانته طوال يومين بلا طعام، وانشغلوا عنه بالضوضاء التي أثارها

اغتيال الرائد... إلى أن تذكره المقدم رئيس الفرع، ما الذي كان الرائد يريده منه؟ لماذا احتجزه لحسابه؟ إذا كان المعتقل غنيمة من حرب حماه، فلابد أنه اختص نفسه بنصيب وافر الربح.

لم يأسف المقدم على اغتيال الرائد، مع أنه يوم رثاه في اجتماع ضم ضباط الفرع وعناصره استفاض في تعداد خصاله الوطنية، أسهب فيها لأنها لم تعد تشكل تهديداً له، الموت أزاحه عن وجهه، لم يستبعد عقب كل نجاح سجله الرائد، أن يكون هو ضحيته التالية. رئيس المخابرات العسكرية وعد الرائد بمكافأة؛ الترفيع في بداية السنة الآتية، وتسليمه إدارة الفرع. علم به مما دار في كواليس المخابرات، في معرض الاعتراض على تمتع الرائد مروان بخصلتين سيئتين؛ دمشقيته وسنيته، تضمنان عدم الثقة به!! كان قبل انتقاله إلى المخابرات، يسكن في زقاق شامي قديم، زواريبه ضيقة، تمتلئ بقبور الأولياء الصالحين، إلى جوار زوايا الصوفية وتكايا الزاهدين، ومساجد تعقد فيها حلقات الذكر، والموالد، وحلقات المولوية!! هل يعقل أنه لم يتأثر بهذه الأجواء الدينية؟ أما أن يكون بيته في حي المزرعة المختلط، فقد سكنه قبل خمس سنوات فقط.

قضية الطبيب كبيرة، مادام الرائد قبل استشهاده اعتبرها كبيرة، كانت ستعود عليه بثناء إضافي، وفيما لو صدقت الأقاويل، فالترفيع الاستثنائي سيصبح أمراً واقعاً، أو بما هو أدهى. أما وقد ذهب إلى بارئه، ففي احتذاء أساليبه وعداً بمرود أكيد.

لم يكن الرائد الشهيد يهتم بمعتقليه كأفراد، كان يفرمهم جملة، عمل جاهداً على ترسيخ سمعة بعيدة كل البعد عن الطائفية، فكان الأجرأ على طائفته، ليكسب رضا رؤسائه، بالفتك بالاخوان المسلمين. حسب قوله؛ كان مسلماً، لكنه ليس مسلماً مثلهم، ولا أخاً لهم. وبما أنه قبل موته خص أحد المعتقلين باهتمامه، وعزله عن الآخرين، وهو نادراً ما حدث، يعني أن القصة لا تخلو من المنفعة أيضاً.

كانت قد ترامت إلى مسامع المقدم قضية الاتجار بالمعتقلين الثلاثة.

اقتيد الطبيب عدنان الراجي إلى مكتبه مطمش العينين. لم يكن منظره بشعاً، وهندامه لم يكن

سيئاً، كأنه لم يمض على اعتقاله سوى ساعات لا أيام. أمرهم بفك عصبة القماش عن عينيه، ولم يكن وارداً لئلا يتعرف إليه المعتقل. تصرف كما الرائد؛ إذا رآه المعتقل، فكأنه صدر عليه حكم بالموت، عيناه لن تقعا عليه في المستقبل، مهما كانت نتيجة التحقيق، سيرسله من الفرع الى السجن، مصحوباً بقرار المؤبد أو الإعدام، إن لم يضع حداً لحياته في التحقيق.

سأله سؤالاً واحداً، ما قصتك؟ فشرح له الطبيب قصة براءته الكاملة.

اعتاد المقدم على قصص البراءة الكاملة، واعتاد التظاهر بتصديقها بإيماءات من عينيه، ما يشجع المعتقل على الاستطراد والإسهاب في تبرئة نفسه. أعطاه ورقة وقلماً وطلب منه كتابة تاريخ حياته بالتفصيل، حسب الأصول في التحقيق. سرد عدنان على الورق محطاتها وبالأرقام: ولادته، حارته، أقرباءه الأقربين والأبعدين، ما يعرفه عنهم.. المدارس التي تعلم فيها، الجامعة، ممارسته الطبابة في المستشفى، ودوامه في عيادته الخاصة.

تصفحها المقدم بنظرة سريعة، لم يكمل قراءتها، وجدها مفككة وضعيفة جداً، مزقها ورماها في سلة المهملات. ونبهه إلى أنها لا تفصح عن شيء، بينما ينبغي أن تكون اعترافاً يغني عن أي سؤال. أعطاه مهلة دقيقة واحدة، ليعترف بما أخفاه، وبالضبط الجرائم التي كان الشهيد الرائد سيحقق معه بخصوصها، لا يهمه غيرها، أو سيدحرجه إلى القبو، هناك يستخرجون الحقيقة من رأسه.

عندئذ عرف الطبيب أن الضابط الشاب الذي حاكمه في حماه، وهدده في دمشق، قد أمسى شهيد الواجب، وهذا المقدم لا يقل عنه رعونة. فكر، ما الذي أراده الشهيد منه؟ كانت قد مضت دقيقة، في الدقيقة التالية كانوا قد دحرجوه إلى القبو، تسلمه أربعة رجال ضخام الجثث وجوههم مقززة، وعيونهم مبحلقة، وعضلاتهم بارزة، تعاونوا على دفعه الواحد نحو الآخر بقبضات أيديهم، أينما وقعت، على صدغه، فكه، أنفه، عينه، أذنه إلى أن وقع أرضاً. نهض، فأعادوا الكرة، فسقط ثم نهض، وهكذا... إلى أن سقط ولم ينهض، فداسوه بأقدامهم، وجروه من ياقته، ومسحوا به القبو. استراحوا قليلاً، ثم علقوه من قدميه إلى السقف مربوط اليدين إلى الخلف، تركوه مشبوحاً يتلقى الصفعات واللكمات، كلما عنّ لهم ضربه.

توقع التعذيب والآلام طوال الأيام الفائتة، لكنه فوجئ بدرجة تحمّله العالية، لم يحس بما ناله من تنكيل. إذا أراد الطب تفسير حالته، وهو ما حاوله كطبيب، فالأرجح أنه من فرط الصفعات واللكمات تبلّد إحساسه بجسده. لو أنه مات لما أحس بالموت.

بعد قليل، لم تعد حالته تشجع على البقاء حياً، هجم الألم عليه ولم يتوقف، شعر به مضاعفاً، مع أنه كان في استراحة، مستنداً بظهره إلى الحائط، الدم تجمد على وجهه، الصمت من حوله تقطعه أصوات تخترق الباب والجدران الثلاثة، لهاث قوي، خوار أجشّ، عويل مفجع، صرخة استعطاف: «دخيل الله». فيضربه الهلع، هذا هو الرعب، نشف ريقه وهرب الدم من رأسه، يداه وقدماه تتقطع. يعرف، بعد قليل، سيطلق رغماً عنه أصواتاً تشبهها، سواء كان صاحياً أو مغمى عليه.

جاء سريعاً ذلك اليوم الذي حسد فيه أولئك الذين تركهم وراءه في حقل الرمي ينعمون بطمأنينة السبات الأبدي، لا تؤرقهم جولات التعذيب الرهيبة، ولا بذاءات السجانين، وتهديدات المحقق. لم يكن مخيّراً، كان مجبراً على البقاء حياً مهما بلغت قسوة المقدم وشراسته. زوجته وأولاده ينتظرونه. يومياً يتخيل أباه في المسجد يصلي ويدعو له بالسلامة، لن يُضيّع رجاءاته سدى. إذا كان في عداد المفقودين، فهو ليس بميت، سيكون المفقود الذي مهما طال غيابه، يعود في يوم ما.

في الأيام التي تلت، لم تفلح معه الفلقة والدولاب وقلع الأظافر، ولا الكرسي الألماني، ولسعات الكهرباء في العينين، الأنف، شحمة الأذن، اللسان، الخصيتين، القضيب... راحته الوحيدة، أن يفقد وعيه، يستعيده في زنزانته وحيداً، يدحرجونه إليها رفساً بأقدامهم، يعاين في الظلام بأصابع بلا أظافر؛ عينيه المنتفختين، وقدميه المتورمتين، وجراحاً غائرة تنزّ دماً.

لم يتمسك ببراءته إلا لأنه يجهل ما يريده المقدم منه، لم يوفق بما يرضيه. كان على استعداد لتحمل وزر أي جريمة، لكن كي تكون قابلة للتصديق، ينبغي توثيقها بالوقائع والأسماء.

كان في عجز المقدم عن إجباره على البوح بالسبب الذي أتى به إلى الفرع إهانة لقدرات اعتقد

أنه يتمتع بها، كان سابقاً يأنف من استخدامها، الرائد ناب عنه، ولم يتورع عن القيام بها، هو أيضاً لن يتورع، لماذا يعجز عما لم يعجز عنه الرائد؟ هذا لا علاقة له بقدراته، بل بأن خصمه الشهيد كان حاقداً وشرساً، لا يمكن تفسير الأمر إلا هكذا، وهو ليس أقل منه شراسة ولا حقداً، وكلما خطر له أنه ربما كان الرائد أذكى منه، أحس بالغبن الشديد؛ غادر الحياة وترك له لغزاً، حلّه كفيل بجعله مشهوراً في عالم المخابرات، غير أنه سيُعزّي نفسه؛ ما واجهه كان سيواجه الرائد، ويواجه معه الفشل.

بعد أيام من التحقيق اللا مجدي، وإزاء ما اعتقد أنه عناد الطبيب، خشي أن يكون الرائد اللعين قد أخذ معه السر إلى القبر. هبط الليل وهو يستجوبه، تهيأ له بغتة أنه لمح بارقة أمل، ويكاد يمسك بطرف الخيط الذي سيقود الطبيب إلى الاعتراف، لكن مضى الليل كله، ولم يظهر للخيط طرف، بلغ به الإرهاق حد الجنون، فقد أعصابه، وشهر مسدسه ودفعه نحو وجه الطبيب.

لامست الفوهة الباردة جبين الطبيب، فأغمض عينيه، سمع صوت تهيئة المسدس، أوشك المقدم على الضغط على الزناد، لولا أن استسلام الطبيب للموت كلية أزعجه، كان دونما رجاء أو بكاء. ما نبهه إلى أن ألعاب المسدس المتهورة لا ينبغي أن تتعدى كونها تسلية، وإن بدت جادة. الرائد خلط بينهما، كان جريئاً وقتل على سبيل التفكه. لديه مبرراته، أولها وآخرها، إثبات ولائه، أما هو فولاؤه لا يشك فيه، فهو ليس سنياً ولا دمشقياً، لماذا يثبت ما لا حاجة لإثباته؟ لكن ماذا لو كان الطبيب بريئاً فعلاً؟ هذا طبعاً مستبعد، الرائد لا يخطئ.

كان الطبيب قد أصبح عقدته ووسواسه اليومي.

بعد تلك الليلة، ذهب بعيداً في ألعاب التسالي الخرقاء، لجأ إليها، بعدما ناكده الطبيب بكتمانه، أو ببراءته، بات خصمه الشخصي، والعقبة الكأداء أمام ارتقاء سمعته في مكافحة الإرهاب، فاستعار الألعاب المفضلة للرائد الشهيد، التي بنى من ورائها سمعته الوطنية غير الطائفية، واعتمدها وسيلة مجربة، لا تعدم الترفيه عن النفس، بإيهام الطبيب أنه بات على شفير الموت. لم تكن مشاهدها تحتاج إلى معدّات، الاكسسوارات متوافرة في القبو بما يزيد عن المطلوب. المشهد الأول: المسدس والسيجار كانا كافيين، المسدس ليسدده نحو الطبيب، والسيجار

لينفث الدخان في وجهه، ريثما يطلق النار عليه، ويخطئه ببضعة سنتيمترات. المشهد الثاني يحتاج إلى كرسي وحبل، الكرسي ليقف الطبيب فوقه، والحبل ليلتف حول رقبته، يزيح الكرسي من تحته، فيهوي جسد الطبيب، يسمع صوت أنفاسه وهو يلفظها. قبل النفس الأخير، يرخي الحبل. المشهد الثالث، سكين كبيرة بنصل يلمع، أو منشار كهربائي، ولقد استعمل الاثنين في مشهدين منفصلين، يلامس حد السكين جفن العين، وعلى وشك اقتلاعها، قد يجرحه وتسيل بضع قطرات من الدم، أو يقرب المنشار الكهربائي إلى عنقه، لو اقترب ميليمتراً آخر، فلن يتوقف قبل أن يتدحرج رأسه على الأرض.

لم تقتصر مناوبات المقدم الليلية على الطبيب، بل شملت سائر المعتقلين، يستأنس ببث الرعب فيهم، يوقع في أذهانهم أنه لم يتبق لهم في الحياة سوى لحظة أو أقل. ويطيب له رؤية ما ينتابهم من هلع؛ وهو يتلو عليهم سلسلة المآسي التي ستلاحقهم إلى القبر: أولادهم سيكبرون من غير أب، يتشردون في الشوارع بلا معيل ولا رقيب، وزوجات جائعات يبعن أجسادهن لقاء لقمة العيش، أمهات يصبن بالعمى من فرط البكاء... فلا تتأسفوا على أولادكم، أبناء الزنى، وزوجات لسن إلا قحبات.

أو يتلو عليهم قرار الحكم بالإعدام، ثم يستدركه؛ التنفيذ تأجل، ليس إلى زمن طويل. يؤجله مساء، على أن ينفّذ صباحاً، ثم لا ينفّذ. حسب ادعائه، الحكم صدر، وفي طريقه إلى التوقيع، ثم تأخر وصوله، الرئيس لم يصادق عليه بعد... يعرض عليهم إنقاذهم على أن يشوا برفاقهم، ليس المهم أن يكون المُبلّغ عنهم منظمين فعلاً، فليكونوا من المعارف، بضعة أسماء لا غير. استغل هذه الفرصة، تظفر بالعفو.

بعضهم، تحت تأثير وعوده، اعترفوا بما لم يفعلوه.

انتهت مدة بقاء الطبيب في الفرع عدة مرات، كان لابد من إرساله إلى الفروع الأخرى ليستكمل دورة الاستجواب، إذ لكل جهاز ملفاته وسجلاته ومخبروه، تنفيذاً للتعليمات التي حثت الأجهزة على التعاون في ما بينها، بخصوص معتقلي حماه، وعدم استئثار أي جهاز بالموقوفين لديه، يستوجب الأمن أن يكونوا مشاعاً تتشارك بتأمينه الأجهزة كلها.

أرسله ولم يذكر في ملفه ما يثير التساؤلات، خشي أن ينجح غيره بما أخفق هو فيه.

أمضى الطبيب عدنان الراجي الشهرين التاليين من اعتقاله متنقلاً بين الأبنية الكالحة المشددة الحراسة، يُساق مكبلاً من فرع التحقيق العسكري في منطقة العدوي، إلى مركز أمن الدولة في كفرسوسة، إلى المخابرات الجوية في القصاع، يتلقفه محقق، ومنه إلى محقق، من استجواب إلى استجواب، ومن قبو إلى قبو، ومن تعذيب إلى تعذيب. يبات في مهجع أو قاووش، أو زنزانة منفردة، أو غرفة تتسع لعشرة أشخاص، يحتجز فيها ما لا يقل عن سبعين معتقلاً؛ شبان ويافعون، ورجال كبار في السن، منهم من اعتقل على الحدود، أو انتزع من فراشه، وبعضهم رهائن عن مطلوبين فارين، أب عن ابنه، أخ عن أخيه... أحياناً لا تسمح شدة الزحام بالنوم إلا بالتناوب، فيغفو متقوقعاً، أو جالساً، واقفاً، أو مستلقياً على جنبه، الواحد ملاصقاً الآخر، فيصطدم وجهه بحذاء أو ركبة أو مؤخرة.

يقتادونه مطمش العينين متحاملاً على قدميه، ويعيدونه مطمش العينين محطم الأعضاء. يُرحلونه من ظلام إلى ظلام عبر دهاليز تعالى من أبوابها المغلقة أصوات العويل وصرخات الألم، وذاك النداء الذي يتكرر في كل الفروع دون استثناء، ويقطع نياط القلب: «دخيل الله»، ولا من شفاعة أو شفقة. لا يرى في أقبيتها سوى أدوات التعذيب، ورجال يجربون تنشيط الذاكرة بالصفعات واللكمات ولسعات الخيزرانات والعصي، فينسى حتى اسمه.

لم يؤخذ باعترافاته السابقة، كانت تفتقر إلى المعلومات والأسماء، فبقي على قيود التعذيب، خشي أن يعترف عن أشخاص كانت لديه شكوك قوية حول انتسابهم الى الاخوان المسلمين، كانوا من رفاقه الأطباء، أو معارفه من الزبائن المرضى، لاقوا حتفهم أو قبض عليهم في الحصار. ولقد حذّره عبد الرحمن سليمه:

«الاعتراف عنهم يعني أنك ورّطت نفسك في التنظيم، وأصدرت على نفسك حكماً مبرماً بالموت».

التقى بعبد الرحمن سليمه في فرع المخابرات الجوية. رجل في الخامسة والخمسين من عمره، وأب لأربعة شبان. قوي البنية، منبسط الأسارير. كان متورم الوجه، تسلخ جلد ظهره،

واقتلعت أظافره. أخذوه رهينة عن ابنه المطلوب، ثم أطلقوا سراحه بعدما قتل الابن في اشتباك مع رجال المخابرات، قبض على رفاقه. بعد جولات من الضرب والصعق، اعترف احدهم بأن أباه أخفاه، فقبضوا عليه ثانية.

«هل أبلغ عن ابني؟».

ولفقوا له تهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين.

تحمل عبد الرحمن التعذيب، واضطر إلى الاعتراف لينقذ الشاب صديق ابنه، لكنه لم ينقذه من الموت، أرسلوه إلى أهله جثة هامدة.

«إذا لم تعترف، يبقى لديك أمل بالإفراج عنك يوماً ما، ولو كان ضئيلاً».

اعتاد الطبيب مواجهة الموت على نحو لم يواجهه في المستشفى الوطني خلال الحصار، هنا كان مقسَّطاً، وفي المستشفى بالجملة. الجرحى يأتون على أقدامهم، أو محمولين، لا ينتظرون مع مرافقيهم طويلاً. فرق الموت تباشر عملها بنشاط وحقد، تجهز عليهم بالسكاكين والسواطير. كان الجيش يرسل إليهم القتلى يومياً من معتقل المدرسة الصناعية القريب بالعشرات، أجسادهم ملأت الممرات وتكدست في الحديقة الخارجية. كان من الصعب ترحيل هذه الأعداد الضخمة على عجل، فتتفسخ بعضها فوق بعض، أكثر الجثث كانت مشوهة، مقطعة أو مهروسة، يستحيل التعرف إلى أصحابها. تجمع في سيارات الزبالة، وتدفن في حفر جماعية، أو تلقى في المجاري بين السخام.

الموت مهما كانت صوره، لم يقلقه، اقترب أو ابتعد، كانت لديه مناعة منه، وإذا كان تمناه فلكي يحرم المحققين من إذلاله. كان على موعد دائم معه، فاعتبر نفسه بحكم الميت.

لن يطول الوقت على مواجهة ما هو أقسى منه. انتزعوه من زنزانته مساء، قيدوا يديه، وكالمعتاد أغمضوا عينيه، وعلى غير المعتاد جرّوه إلى خارج الفرع.

في الساحة المحاطة بالمسلحين، انزاحت الطماشة عن عينه اليسرى، كان على مقربة من الشارع،

فالتقط نظرة، ما كان أروعها! الليل والهواء والأضواء وموسيقا من زمن بدا من فرط جماله يفطر القلب... وبعيداً في مرمى البصر، كان البشر لامبالين يتمشون الهوينى لا يدرون بما يحدث داخل البناء المسوّر بالحواجز الاسمنتية، ربما لمحوه بين آخرين، مجرد ظل منهك يتحامل على نفسه بين ظلال متهتكة، تصعد إلى الباص.

زجّوهم فيه مقرفصين. بعد النعر والدفر، تعالت الأصوات زاعقة بخفض رؤوسهم. لم يروا من عالم حرموا من النظر إليه سوى الأرضية القذرة للباص المنطلق بهم. عنين المحرك ورائحة المازوت، والخضخضة ترافق الصمت المتخم بالأنفاس المتهدجة، والخواطر المتشائمة، يقطعه بين آونة وأخرى تذمر الحراس وشتائمهم يفرّجون بها عن أنفسهم.

عند أول مطب، سأل عبد الرحمن سليمه هامساً، وكان إلى جواره:

إلى أين نحن ذاهبون؟

أجابه عند المطب الثاني: إلى السجن.

ففارقه الخوف. كان ذاهباً إلى التماوت بين الجدران، أحس بنفحة من السلام، سيظفر ببعض الراحة ريثما يحل أوان الراحة الكبرى.

ما يفعله اللّه لا يبقى سراً

عندما تدير البصر في أرجاء حماه تحمد الله على أنه ما زالت هناك حياة تنبض في قلب الخوف، وبشر يشقون درباً لهم وسط الركام سعياً وراء الرزق. كل ما رجوته من محاولاتي البائسة والمخفقة طوال فترة البحث عن أخي، معرفة ما حلّ به، ولم أيأس، طالما هناك أناس مثلي يبحثون عن أقرباء لهم، ونساء لا يكفكفن دموعهن إلا ليشددن العزم بحثاً عن قبور أزواجهن وأولادهن، ربما عثرن عليهم أحياء، لا يفترون عن الكلام عن أحبائهم، وكان الكلام يبث الحياة فيهم.

في اليوم التالي، علمتُ عن طريق أبو حمدي أن الشخص الذي نجا من الموت لا من الإعدام، شاب في العشرين من عمره، لم يصب إصابة مميتة، اكتشفه في العتمة رجل كان من المعتقلين، كُلف بتفقد جثث القتلى وفرز الأموات عن الأحياء. أشفق عليه، ولم يبلغ عنه. نجح الشاب في الهرب من حقل الرمي، واختفى في حماه عدة أيام، ثم اجتاز الحدود إلى بيروت، حتى الآن لم يعد، والأغلب ألا يعود. أما الرجل الذي أنقذه وسهّل هربه، فطبيب محكوم بالإعدام، تنفيذ الحكم فيه تأجل إلى الدفعات التالية. ما الذي حلّ به؟ كل من أرسل إلى حقل الرمي، لم يعد من هناك.

وطنت نفسي على القبول بالأمر الواقع؛ من بين آلاف المعتقلين الذين لم ينجوا من الموت، لا يمكن التعويل على أن الحظ الذي لم يحالف أخي في المحكمة الميدانية، أنقذه من الموت. وفي حال نجا، فإلى أين سيلجأ؟ ليس هناك غيري، لكنه لم يطرق بابي.

فقدت الأمل من عودته أو بقائه على قيد الحياة، لكن حدساً كان أشبه باليقين، حدثتني به نفسي؛ لو كان مصيره ميسراً لعرفته، أخفاه الله عني رحمة بي. لم أرد الرجم بالغيب، ولا تكهن تدابير ربي. لم أجز لنفسي التطفل على هذا الترتيب الإلهي، ولا أقول السر الإلهي، اعتقدت دائماً أن ما يفعله الله لا يبقى سراً، ولا يستغلق فهمه على البشر.

يوماً ما، سأعرف، ولن يبقى مصير أخي طي المجهول.

إذا كانت الأمور مرهونة بأوقاتها، فالوقت لم يفت، لكنه لم يحلّ بعد؛ تقبلت قضاء ربي رغم عدم رضاي به، وقد ترون في هذا تناقضاً لا أرغب في نفيه. بوسع الله فعل ما يشاء، وليس بوسعنا نحن سوى أن نتألم ونبكي، نشكو ونرجو، نعصي ونكفر... كان امتثالي لحكمه استسلاماً لحكمته، وليس اعتراضاً على ما قسمه لي من أفراح وأتراح، لكن ليسمح لي بالشكوى من قضائه وقدره. كنت واحداً من المشككين ضعيفي النفوس، الذين أصابهم قدر كبير من الضيم. عانيت أقصى درجات اليأس، وبلغتُ حالة من الضعف والخور، أن ذهبت بي الظنون إلى أن الله كما يصيب يخطئ أيضاً، فأستغفر الله.

الشيخ عبد الباري لم يكن أكثر مني إدراكاً. أم محمد عشية وصولها ليلاً إلى المسجد، قالت له، إن الله أجّل موتها ليحيا الرضيع. هل تخيل ما قالته؟ لا. اعتقد الشيخ أن الله خصها بنعمة الكشف، هبة لا تمنح إلا للأتقياء الطاهرين، وأن مكانتها توازي مكانة الأولياء الصالحين، وكانت تستحقها. لكنه أخطأ حقيقة حالتها، وكانت نصب عينيه؛ التعب أفرط في إنهاكها، والمرض فرّط في مقاومتها، ما عجل بموتها. ابتدع تفسيراً مما تخيله، لا مما كان يراه. حتى أنه لم يُخف عني ما تراءى له، أنها ربما كانت ميتة، مظاهر الحياة لم تبدُ عليها، بدا له حينها وللحظات أن هناك من كان يضع الكلمات في فمها.

لم آخذ بها سمعته منه، إذ لا يمكن أن ننسب إليها ما يغيب عنا، وهي في حالتها ربما أضاعت شيئاً من عقلها، ما جعلها تظن أنها أدركت ما يشاؤه الله، فلم تتوان عن القيام بما كلفت به، وأن تصاريفه أجّلت منيتها، ومنحتها القدرة على إكمال مشوارها الطويل.

لم أشأ القول للشيخ عما أعرفه عنها، لم تكن على هذه السوية من الإلهام، ما أقدمت عليه كان بوحي إنقاذ الرضيع، ومرجعها غريزة الحياة، تلك حكمة الله، خالق الغرائز والحياة.

وهذا ما يجعلني أرى في الاستسلام الكامل لمشيئة الله، تلك التي لا ندري كنهها ولا آلية عملها، حكمة لا تخطئ، مع أنني حاولت إدراكها، وكانت القناعة أبعد ما تكون عني، حائراً بين الشك واليقين، وأمْيَلُ إلى الشك. تفاؤلي الأكبر في قصة أخي المعلقة، ولو كانت توهماً، أنه إذا كانت هناك قصة أخرى، فهي تجري في مكان آخر، لن أعقد عليها أي رجاء. الآمال التي هدرت كانت تخمينات بلا ذرة يقين.

لم أعول على الله وأتطلب، كي لا أخسره، وأخسر نفسي.

الفاجعة التي لم تكتمل، تركت أثراً عميقاً في حياتي. في البداية، شق عليَّ معاودة العيش كما ألفت. وإذا كنت تحسرت على شيء، فلأنه لم يتح لي مشاطرة عائلتي موتاً ظالماً، تخلفت عن مصير، كان قدرنا جميعاً، لم أتجنبه، لكنني حُرمت منه عمداً.

أصبح كل ما يذكّرني بحماه مروعاً. عشت الشطر الأكبر من حياتي فيها. بعد زواجي سكنت في حي التعاونية، لم أنقطع عن بيت العائلة في الكيلانية، نقضي فيه أنا وزوجتي أيام الجمع، وفي حال حدوث قلاقل أو اشتباكات، يقضون بعض الوقت عندي، وقد تمتد إقامتهم إلى بضعة أيام. تجمعنا المصائب أكثر من الأفراح. لو لم أنتقل إلى دمشق، فربما كان بقائي في حماه نجاة لهم، عندما وقعت الكيلانية في قلب الخطر.

استولى علي ندم انسقت إلى تداعياته، أنني أسهمت بموتهم، وأن مغادرتي حماه كانت تحت تأثير حماستي للعمل في دمشق، طموحي لم يخلُ من الأنانية، كان فرصتي للظهور في العاصمة، والتدرج في المناصب على أنني قاض عادل. كان في حلمي ما يبعث على الخيلاء، قاض عادل

في بلد ظالم!! أحياناً لا تخلو الدوافع النبيلة من سذاجة تصل إلى حدود البلاهة.

لم أكن وحدي، كنت مع مجموعة من القضاة الشبان، أخطأنا التقدير، حاولنا بدعم من الأستاذ رشدي، الاستمرار على ما تعاهدنا عليه، لكن من يستطيع التصدي لوباء الفساد في عقر دار العدالة، وهو الأخطر؟

ولقد أقنعتني شكاوى المظلومين بأن التراجع عنها خيانة. لن آتي على ذكر الخسائر، كان الاستمرار على هذا النحو مخيباً أكثر منه مرهقاً. ومع هذا، روضت نفسي، ولو لبعض الوقت، على ما لا يطاق، وكل ما أنا ضده، وما لا يمكن تحمّله.

١

لم يدر النقيب أن طريقه إلى قصر الجمهوري أصبح سالكاً.

المقابلة لم تُطوَ... الوسيط العم صبحي، الموظف في سكرتارية القصر، صادف الرئيس في استراحته الطارئة، يتمشى مختلساً بضع دقائق بين اجتماعاته المتلاحقة مع مبعوثي الدول الغربية والعربية، وممثلي القوى الوطنية اللبنانية، يروح بها عن نفسه بين الورود والخمائل، بالتجول في أرجاء الحديقة الملحقة بالقصر، العامرة بالأشجار الوارفة، فالربيع أطل على دمشق، ونثر ألوانه الخضراء والصفراء والبيضاء المريحة للنظر. المصادفة لم تكن بحسبان العم صبحي، استراحة الرئيس غير محددة بتوقيت معيّن، كما أنه لا يتجول في الحديقة إلا نادراً.

كانت فرصة كي يخفف عن الرئيس ضيق صدره ببعض الأخبار الخفيفة عن سير العمل في دوائر القصر. لكن الحديث تشعب، تساؤلات الرئيس توالت لا على التعيين، إلى أن قطعتها نسمة لطيفة، أغمض الرئيس عينيه، وعرّض وجهه لأشعة الشمس اللطيفة. فخطر للعم صبحي طلب النقيب، سيُعلم الرئيس به، مهما كانت قصته، فسوف تكون تنويعاً في زحمة مشاغله الدولية، لاسيما أنها ليست لبنانية، ولا إقليمية، ولا داخلية، قد تلقى استجابة منه. كما أنها ليست من تلك الأنواع التي لو أفسح المجال لها لانصبّت على القصر ملايين العرائض

لأشخاص يطلبون أشياء بسيطة تغيّر حياتهم نحو الأحسن. وقت الرئيس لا يتسع إلا للأشياء العظيمة، على رأسها مستقبل سورية.

في الحقيقة، كان الرئيس هو الذي استوقف العم صبحي، كان قد استأنس به منذ اقتحم القصر، في أول انقلاب شارك فيه. وجد في استقباله رجلاً أنيقاً وَخَطَ شعره الشيب، مع أنه يجايله في السن، فخاطبه بالعم، فسرى اللقب بين موظفي القصر، وبات معروفاً به. بعدما استقر الحكم للمد الثوري، رفع العم صبحي استقالته، كبادرة تعني أن لا مكان له في العهد الجديد، فقد خدم في العقود الماضية رؤساء كانوا رجعيين حسب مقاييس القادمين الجدد. لكن الرئيس احتفظ به، ولم يستغن عنه.

لم يكن تحمس العم صبحي للنقيب بمقابل، أغلب من يقصدونه كانوا بحاجة إليه أكثر مما هو بحاجة إليهم. كما لم تكن لوجه الله من دون مقابل، الخدمة التي سيسديها له ستكون اتقاء شره. كانت رغبته ألا يعكّر عليه أحد فترة تقاعده المقبلة، وأن يقضيها بسلام، يتفرج على الأفلام العربية القديمة التي فاتته، ليس لكي يحلم أو يتمنى، فات أوان الأحلام والتمنيات، فقط أن يسترخي مطمئناً في عالمٍ، اللصّ فيه لص، والبريء بريء، والمجرم مجرم، والعاشق عاشق، والعذول عذول... وفي النهاية: انتصار الحب. لم يكن تعاطفه مع الحس الميلودرامي القديم، حيث الأبيض أبيض، والأسود أسود، إلا لأن اللون الرمادي أتاح لجميع أنواع اللصوص، التستر بالثورة والاشتراكية والوطن، وهذا لا يمكن التصريح أو البوح به لأحد، وليس في إخفائه جبن، لم يكن سراً.

وبما أنه عاصر أكثر من رئيس للجمهورية، كان الأدرى بمن جاء الى القصر منتصب القامة مكللاً بالغار، وبمن خرج منه مقيداً، أو على قفاه مكللاً بالدماء. كان قد عزم على الاستقالة لأسباب صحية، الرئيس لن يمانع، في الفترة الأخيرة كان تغيبه لأسباب مرضية ملحوظاً، لكنه أجّلها ريثما تنتهي أزمة لبنان، عساها تنتهي على خير، فالوشايات ناشطة في القصر، الأمل ألا يخرج مطروداً الى حيث لا تشفع له خدماته إلا في النيل منه. سيعتبرون عمله المديد في القصر ذريعة لاعتباره مدسوساً على الرئيس. إخبارية كهذه ولو كانت كاذبة، ستشهّر به.

لم يكن إسراعه بتقديم خدمة لمخبر عتيد آذى أكثر من ضابط، إلا بسبب منصبه المهدد بالدسائس من داخل القصر، قد يؤذيه يوماً ما لو أحس أنه لم يساعده في مقابلة الرئيس، لن تكلفه أكثر من تقرير، ما دام في الفروع من يفبرك من تقرير كيدي فضيحة فساد كبرى، أو حتى مؤامرة على البلد.

عرَّفه إليه ضابط متقاعد، كانت تزكيته له ما زعمه عن معاصرة النقيب للخطوات السرية والعلنية التي قادت الرئيس إلى الرئاسة، ومشاركته في نجاح الحركة التصحيحية في مرحلة حرجة عندما كان طالباً في الثانوية!! وبعدما أصبح راشداً أسهم بها أنقذ الدولة والحزب من جماعات أصولية، وفي الجيش كانت له إسهامات لا تنكر.... ادعاءات أكبر من أن تصدق، لخصها أبو صبحي حسب الدارج بأنه شاب غيور على الوطن، أي مخبر نشيط، عدا ذلك أسقطه من مؤهلاته، كي لا يضع نفسه في مأزق أمام الرئيس الذي من المؤكد، لن يتذكر طالباً صفق له في أحد اللقاءات الجماهيرية، فربت كتفه وسأله عن اسمه، الولد أصبح نقيباً في الجيش، والرجل الذي ربت كتفه، رئيساً للجمهورية.

توقف الرئيس في ممشى الحديقة معجباً بالخميلة الوارفة، كأنه يراها لأول مرة. نسي اسمها، فسأل العم صبحي. الدفلى سيدي الرئيس. ثم تظاهر بأنه تذكر شيئاً عفو الخاطر، فأتى على ذكر النقيب وطلبه المقابلة، وأورد مأثرة عنه لا علاقة لها بمآثره المدّعاة، تبدو معقولة في هذا الوقت؛ مشاركة النقيب مؤخراً في حصار حماه، مفترضاً أنه أبلى بلاء حسناً، مؤدياً مهمته بكفاءة، بتذليل العقبات الإدارية.

لم تكن هناك حاجة لإثبات جدارته، ليتذكره الرئيس. عرفه على الفور:

«تقصد المهندس؟».

«سيدي الرئيس، إنه نقيب في الجيش».

«هذا الشاب كاد أن يكون مهندساً» علّق الرئيس ضاحكاً».

لم يفهم العم صبحي التعليق، وإن استوقفه، النقيب تجاوز كونه ضابطاً مخبراً، بإضافة لغز جديد، عبارة عن قصة، تذكرها الرئيس، لم تكن قصيرة، كان الضابط شاباً يافعاً حاصلاً على شهادة البكالوريا، بإيعاز منه انتسب إلى كلية الهندسة. بعد سنتين في الجامعة بدا أن مواهبه لا ينبغي أن تقتصر على الهندسة. أما الذي لم يقله، بل ظهر ابتسامة على وجهه، فهو أن القدرات الهندسية للطالب الجامعي النجيب، تبدت أكثر ما يكون في إقامة مشاريع في الهواء تعتمد على الحدس، يحوّلها إلى حقيقة صلبة على الأرض، تسهم في التدمير أكثر منها بالبناء، لذلك فكر بالاستفادة منه في مجال آخر، ينبغي تدميره من أجل تنظيفه، فأرسله إلى الجيش، وكان ذا فائدة.

سهّلت وساطة العم صبحي في تعيين موعد للنقيب الذي حلا للرئيس تلقيبه بالمهندس. فاضطر النقيب إلى مقابلة الرئيس، في الوقت الذي لم يكن بحسبانه.

اجتاز النقيب بوابة قصر الضيافة دونما عائق، كان اسمه مسجلاً في مكتب الدخول، صعد الدرج الرخامي، ومنه إلى الردهة، توغل من قاعة إلى قاعة، ومن غرفة إلى غرفة. كانت كثرة الإجراءات، لأنه في كل خطوة ثمة من يستغرب وجوده، فيتصل ليتأكد. لازمه شعور، وهو يتنقل داخل أرجاء القصر، أنه خلّف وراءه جحيم الخنادق والمشاريع العسكرية، وانتقل إلى ملكوت النعيم والقرار. الهواء المنعش، والدفء اللذيذ، يتمازجان كأنما لا تناقض بينهما. الضباط والمستشارون والموظفون في المكاتب على شاكلة واحدة، نسخة طبق الأصل عن ندل المطاعم الراقية، يتبادلون الكلام همساً، يتحركون باعتداد وإن بخفة، يمشون على رؤوس أصابع أقدامهم. وكل منهم في موقعه يمثل السيد الرئيس.

كان الهدوء الشامل مخادعاً، عوالم القصر تلامحت، كأنما من خلف زجاج شفاف، من هنا تمرر الأوامر النهائية التي لا نقاش بعدها؛ جداول الإقالات والترفيعات، أعطيات رفع الرواتب، التشكيلات الوزارية، تعيينات مجلس الشعب، انتخابات اتحادات العمال والفلاحين والأدباء والصحافيين.... تمنى أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يتكلمون بلا صوت، ويسيرون كأنما يسبحون في الهواء، عندئذ سيمتلك مفتاحاً يفتح الأبواب المغلقة، لمجرد أنه في خدمة الرئيس. مع أنه كان في خدمته، منذ ما يزيد عن ثماني سنوات. حان الأوان ليطالب بتعويض عما لحقه من غبن.

صمم، لن يخرج كما دخل.

خالجه حدس أقوى من أي يقين، كل ما خطر له عن قدرات سرايا الدفاع والقوات الخاصة، وقطعات الجيش كلها، لا وزن لها في قلب القصر الجمهوري، بؤرة العمليات الكبرى والحساسة... هنا يحاك كل شيء ويحسم كل شيء، الوزارات والتصفيات والاغتيالات والاقتحامات والمداهمات، عقود السلاح، طلعات الطيران، قواعد الصواريخ، الحرب والسلام والهدنة والاستنزاف، والخوض في المستنقع اللبناني... في هذا الخفاء المسكون بالسكون، تصنع مصائر الجمهورية والشعب.

قبل الدخول لمقابلة الرئيس، زوده مدير مكتبه بالتعليمات، وكأنه يلقي عليه درساً: عندما تتكلم أوجز طلبك، إياك ومقاطعة الرئيس. مدة المقابلة عشر دقائق لا أكثر، حاول أن تختصرها إلى خمس، لدى الرئيس مواعيد كثيرة. لكن المقابلة امتدت إلى نصف ساعة.

طالعه الرئيس جالساً، رحب به من بعيد بهزة من رأسه. وأشار إلى كرسي على مقربة منه، جلس مواجهته ومع هذا كانت المسافة بعيدة بينهما. عاد الرئيس يقرأ في الصحف أمامه على الطاولة، جريدة «تشرين» إلى يمينه، وجريدة «الثورة» إلى يساره، بينما جريدة «البعث» مفتوحة أمامه. مدّ الرئيس يده وأخرج سيجارة من باكيت «الحمراء»، أشعلها بعود من كبريت «الفرس». كان كل ما حوله من صناعة الجمهورية العربية السورية، كما الأخبار التي يقرأها صناعة محلية.

تميز في حركات الرئيس تباطؤاً لم يتلمحه سابقاً عندما اجتمع به، ولا في ظهوراته التلفزيونية، مر زمن على آخر مرة قابله فيها، لا أقل من خمس سنوات. بدت في جلسته وانحناءة رأسه وصمته، مهابة تفوق ما يقال ويسمع عنه. ما يروّجه الإعلام عنه أقل مما يستحقه. كان بحق «بطل التشرينين» تشرين التصحيح وتشرين التحرير، منحاه سمعة، أفقدت خصومه دعاواهم، وأبطلت ما كان يزعم حول جرائمه. بعد حماه، رغم القتلى والدمار والضحايا، يداه نظيفتان من الدماء. عبقريته لا تجارى ولا تبارى.

إعجابه الشديد به، كاد أن يدفعه إلى الهتاف بأعلى صوته مشيداً به وبإنجازاته. هذا ولم يتكلم

الرئيس بعد. في ما بعد سيفسر الصدمة التي حدثت له؛ هو أن فخامة القصر أطارت صوابه، وأسبغت على الرئيس العظمة، مع أن أثاث القصر كان متواضعاً، لكن الرئيس بدا متألقاً تحت بريق كريستال الثريا المعلقة بالسقف، ولم تكن مضاءة، انعكس بريقها عليه، نور النهار كان كافياً. الغرفة واسعة وأنيقة، لم ير مثيلاً لها حتى في أرقى تخيلاته الوثيرة، فرضت عليه تصوراً مثيراً لرجل ظفر بالمستحيل، كان مثله ضابطاً صغيراً، وضع نصب عينيه الاستيلاء على سورية، وفاز بها.

أحس بتفاهته، ماذا كانت آماله، العمل في المخابرات... سرايا الدفاع؟ كلاهما لا يعادل نزراً ضئيلاً من الحلم بسورية. هذا الرجل سبقه إليها. أمام هذه العظمة الصادمة، لم يستطع كظم غيظه. لكن الهدوء والصمت أعادا إليه توازنه، في حضرة الرجل الذي هزم الكثيرين، ونال ما عجزوا عنه، ولم يكن بالانتصار السهل. نظر إلى الساعة، مضت أربع دقائق، إذا نفد الوقت المخصص له، ضاعت المقابلة سدى. قال وكأنه يهمس في سره، خافضاً صوته، متنبهاً ألا يعلو به، وبالكاد سمع صوته يخرج من فمه مبحوحاً، أشبه بالفحيح، كأنه ابتلع لسانه.

«سيدي الرئيس...».

وسكت، رفع الرئيس رأسه، وحدجه بنظرة باردة. ربما نسيه. لكنه طفق يتأمله، منتظراً منه أن يتكلم عما يريده، فتحشرجت الكلمات في حلقه.

ابتسم الرئيس، لاحظ ارتباكه. ارتدّ بجذعه إلى الخلف، وخاطبه بلا تكليف بـ«صديقنا المهندس»، متجاهلاً رتبته العسكرية، رد إليه روحه، وعندما سأله بمودة عن أحواله، رد إليه صوته، وأجاب عن أسئلته بثقة، بصوت منخفض لم يأخذ أبعاده. خشي أن تدمغه المقابلة بطابعها الخافت النبرة، إذا بقي هكذا، فلن يسمح له صوته إلا بالتزلف إليه، وإبداء الإعجاب بحكمته، هذا يمكن قوله له في ما بعد. الوقت يدهمه. قرر أن يدخل في الموضوع مباشرة، ويعاتبه:

«سيدي الرئيس، أنا لم أطلب منك شيئاً لقاء ما قدمته إليك».

كانت وقاحة منه. لاحظها من المفاجأة التي ظهرت على ملامح الرئيس، وإن حاول أن يخفيها

مستفهماً برفع حاجبيه، لكن سرعان ما ابتسم، لم يغبن أحداً ثمن خدماته، مهما كانت ضئيلة، ودائماً أكثر مما يستحق. وإذا كان النقيب لم يطلب شيئاً، فهذا لا يعني أنه لم يعطه الكثير. لكنه سيستمع إليه.

أخطأ النقيب، وكان لابد أن يخطئ، لكي لا يتراجع عما قاله. رمى عنه إحساساته الدونية، قدراته باتت محل اختبار. أفكاره تركزت حول: إذا لم ينجح في الحصول على بغيته خلال ثلاث دقائق، أو أربع، فوداعاً للمستقبل. وبعجالة، حدد الاتجاه، من خلال شكوى كانت بسيطة، الاستقالة من الجيش، لكن القيادة في الأركان رفضت طلبه، إن موافقتك، سيدي ستزيل أي لبس عن هذا الطلب.

«ضابط كفء مثلك، لا يُستغنى عنه».

جواب الرئيس كان مشجعاً على المزيد من الكلام، فارتفعت معنوياته. احتجّ بأن الخدمة في الجيش، ليس أنها لا تعجبه، لكنها ليست مجاله، يريد أن يشق طريقه في مجال آخر.

«يا بني، لا تضحي برتبة نقيب. بعد سنوات قليلة، أتوقع لك منصباً رفيعاً في الجيش».

إشارة إلى أنه لن ينساه، أو يتخلى عنه. فكما أدخله إلى الجامعة، وانتزعه منها، ثم أرسله إلى الكلية الحربية، وأسند إليه بعد تخرجه منصب ضابط أمن الكتيبة ثم اللواء، موصياً بترقيته من دون عوائق.. لن يطول الوقت ليصبح ضابط أمن الفرقة، وفيما بعد رئيساً لفرع في المخابرات. لّمح الرئيس باقتضاب:

«الطريق مفتوح أمامك. لن أبخل عليك بالمكافآت، أنت شاب يعتمد عليه».

كان في كلماته أكثر من وعد، أرضاه أن الرئيس وجده أهلاً للثقة، عند الحاجة سيعتمد عليه، ماذا تكون الحاجة سوى تكليفه بمهمة دقيقة، لا يظفر بها إلا المقربون جداً.

تجاهل النقيب المكافآت، وغمغم شاكراً:

«ثقتك تكفيني».

أمعن الرئيس النظر إليه، مهما يكن هذا الشاب قدم له أكثر من خدمة، وحصل مقابل كل واحدة على ثمن مجز، ولا يخجل من المساومة وطلب المزيد، يبدو أنه وجد المشوار طويلاً، وأراد تقصيره، اعتماداً على ثقته به. غير أن الأمر، كما يبدو الآن، حول التسعيرة المناسبة والتوقيت المناسب... لم يستغرب، كان سابقاً مثله نافد الصبر، حاول حرق المراحل، ولم ينجح إلا بالنفس الطويل.

عرض النقيب حججه على مستوى آخر، منذ سنوات يعاني من العزلة، لا يستطيع الذهاب إلى الضيعة، أهله نبذوه، لا أصدقاء له، يخشاه رؤساؤه ومرؤوسوه ولا يطمئنون إليه، وينفر منه زملاؤه ومعارفه.

كل هذا، ولم يقل بعد ما يريده منه، لكنه أفلح بتذكيره بما آل إليه وضعه:

«وكل هذا جراء ما قدمته لكم».

أحال النقيب مآربه إلى مأساة شخصية، علاجها تعويضه عن محنته المستمرة، لا بأس، لكن لا يغتفر له تسرعه بتحميله مسؤولية وضعه المأساوي. فكر الرئيس، قبل أن يفاقمها النقيب إلى عقدة نفسية لا شفاء منها، يستحسن وضعها في نصابها المتعارف عليه.

«لقد قدمتَها للوطن».

«لكن....».

«غيرك قدم روحه».

فاجأه جوابه؛ تقدمته كانت بخسة إزاء التضحية بالروح. ما دام أن الرئيس أحالها للوطن، فالمفروغ منه أن تكون بلا مقابل. هو أيضاً سيؤكد على وضعها الصحيح:

«سيدي الرئيس، قدمتها لك شخصياً، لا للوطن ولا للحزب ولا للدولة».

وإذ لاحظ تأثر الرئيس من صراحته المكشوفة، أردف قائلاً:

«ليس لي في البلد غيرك».

وبصوت متهدج:

«أنت أبي وأمي وعائلتي».

أخذ نَفَساً، قبل أن يستوعب الرئيس هجمته، وأكمل:

«سيدي الرئيس، نحن أقرباء».

كان وبمهارة، قد أجرى تبادلاً يعوضه عن أهله بالسيد الرئيس، عززها بالقرابة التي تربطه به، ليس المصطنعة بل شبه الحقيقية، وإن كانت قديمة ومعقدة، تشابكاتها وتلوياتها تعود إلى الأعمام والأخوال الأباعد، وربما الجد الأول، تداخلت مع زيجات فوضى، متداولة شفاهياً، لا وثائق تثبتها، وتتلاعب بها الأقاويل، بالزيادة والنقصان. كان تتبعها مرهقاً إلى حد الاعتقاد أنه إذا كانت القرابات على هذا النحو، فالطائفة كلها على قرابة بالرئيس بشكل ما من الأشكال.

أردف الرئيس معلقاً على القرابة، ضاحكاً ومهدئاً من الشحنة العاطفية للضابط الشاب:

«لا، لم أنس أننا من العشيرة نفسها».

اغتبط النقيب، لم يحتج إلى الإفاضة، المحاولة كافية.

لا ينظر الرئيس إلى هذه القرابات بجدية، وإنما من باب المداعبة والنكتة. ما ينبغي النظر إليه بجد القرابات الفعلية التي ضحى بها الضابط، وأصبح منبوذاً من عائلته، ربما كان سيئاً معهم، ويعاملهم بفوقية، في الحقيقة كان وغداً، وشى بخاله، لولا حماقته هذه لما كان نافعاً. وإذا كانت معرفته به محدودة، بسبب فارق السن، لكنه يعرف مجايليه من عائلته.

راق للرئيس أن يسأله عن أقربائهما المشتركين واحداً واحداً، مع أن أغلبهم مزعومون، وثقيلو

الظل. كانوا في زمن مضى أصدقاءه وأصبحوا جزءاً من خصوماته ومناكفاته، لم ينفع معهم النقاش ولا الشجار، استطاع أن يفلت من مصائرهم. في ذلك الوقت كان مؤمناً أنه سيفعل شيئاً لم يسبق لأحد منهم أن حلم به، أو فكر فيه. لم تطب له أخبارهم، إلا لأنه خلّفهم وراءه يلوكون نمائمهم السخيفة، لا يحظون بلفتة، بينما أنظار العالم تتطلع إليه.

بين الآونة والأخرى، كان مدير المكتب يطل برأسه من الباب، يرمق النقيب بعبوس، يستعجله المغادرة، بينما الضابط الشاب مقيد إلى الرئيس الذي أخذته ذكريات المراهقة والمدرسة والشباب وخلافاته السياسية مع أقرانه الطلبة، وما نجم عنها من مظاهرات وشجارات واشتباكات بالأيدي.. وما قطعه في مشوار حياة، كانت أعاصيرها أكبر مساعد له على تحقيق أمجاد سورية.... تلك القصص لم يسردها عليه إلا ليحثه على التأني والصبر. أراد أن يطيل حديثه أكثر، لكن الوقت ضيّق، أنهاه بسؤال:

«ما هو المجال الذي تريد العمل فيه؟».

كان في السؤال تأكيد على أن استقالته قبلت، وعمله في الجيش أصبح من الماضي، والانتقال إلى المكان الذي يريده بات ميسراً.

«أن أكون تحت تصرفك».

فوجئ الرئيس بالطلب. فأردف النقيب بقوة:

«ولائي لك وحدك، ولن يكون لغيرك».

لم يطلب عبثاً، الرئيس لم ينس طبيعة خدماته، كانت وحدها تجبر الشاب على أن يكون وفياً له.

لو تردد الرئيس أو رفض، فلن يخجل من مصارحته بما قدمه إليه بالذات، من خدمات لا يسدد ثمنها دخوله إلى الجامعة ولا رتبة لواء ولا مدير فرع أمني. خدمات لا تقدر بأي بثمن، وحدد ما يعوضه عنها:

«حياتي ومصيري رهنتهما لك سيدي الرئيس».

تفادى الرئيس هذه التضحية، سايره بابتسامة، بدا عليه أن الحديث أراحه، كان رحلة استجمام بعيداً عن الحرب التي يخوضها في لبنان. استغلها النقيب ليروي له على نحو مشذب، مأثرته الأخيرة في حماه، كانت تشبه روايته لرئيسه المقدم عن اضطراره لترك موقعه في الصفوف الخلفية إلى الصفوف الأمامية، وملاحقته ثلة من الإخوان المسلمين، كانوا مسلحين، أجهز عليهم وحده، وصادف مرور امرأة وطفل، كان وضعهما مشكوك فيه، لكنني لم ...

أسكته، الرئيس أحس بالملل:

«اعتبر نفسك أصبحت موظفاً في القصر».

قبل أن يجيب، رن الرئيس الجرس فدخل مدير مكتبه. قال له:

«دع المهندس يتجول في القصر خلال هذا الأسبوع، ريثما نجد له وظيفة».

بقوله هذا، كان قد عينه في القصر وأسبغ عليه لقب المهندس.

بما أن الرئيس أطلق عليه هذا اللقب، فسوف يردده موظفو القصر. كان في التقنع به وداع للجيش، أحس به بشكل لم يكن غامضاً، يقطع الصلة بينه وبين الضابط الذي كانه.

عاد مدير المكتب إلى الرئيس متسائلاً بسخرية:

«ما الذي نفعله به؟».

«لا شيء، دعه».

توقف النقيب عند بوابة الخروج، لم تكن لديه رغبة في مغادرة القصر، كان له ما أراد. ألم يسهم بإيصال الرئيس إلى هذا المكان؟

٢

تركت مقابلة الرئيس لدى النقيب انطباعاً مثيراً، توقع أن يراه محاطاً بعدد كبير من الهواتف، يصدر أوامره إلى ضباط الفرق والألوية، رجال المخابرات، الوزراء، مديري الإدارات والمؤسسات... ينتقد، يزجر، يُقصي، يُقيل، يُسرّح، يعاقب ويسجن... بينما كان يدير من موقعه الهادئ في القصر آلة الدولة، من دون الاتصال بهذا وذاك. وفي الوقت نفسه يتحكم بأوضاع لبنان المعقدة، وبحرب لا تستقر على حال، لم تعد مفهومة من كثرة أطرافها، الجيش السوري، الفصائل الفلسطينية، قوى وطنية، قوى عميلة، سياسيون لبنانيون، موارنة وسنة ودروز وشيعة وأرثوذكس... وتدخلات أميركية وإسرائيلية وفرنسية وسعودية وعراقية وليبية. أثارت لدى النقيب منذ سنوات وما زالت الكثير من الأسئلة، حول دخول القوات السورية إلى لبنان، ليس لنصرة تحالف القوات الوطنية التقدمية، بل لانقاذ القوى الانعزالية حليفة إسرائيل!! الخلافات مع الفلسطينيين لم تفتر، وعلى رأسهم قائدهم ياسر عرفات. أخيراً قبل أشهر قليلة، أقدمت اسرائيل على ضم الجولان واعتبرته جزءاً من أرض إسرائيل التاريخية، لم يصدر من رئاسة الجمهورية أكثر من إدانة ورفض واحتجاج وعدم اعتراف. الرئيس لم يحارب إسرائيل، توعد الفلسطينيين!! كانت مجرد تساؤلات، النقيب لا يتابع مجريات حرب غير مفهومة. لِمَ يهتم بها؟ كانت تدور خارج حدود الدولة.

ما اثار إعجابه، أن الرئيس في معمعة تقلبات الحرب اللبنانية، خاض حرباً أخرى في الداخل، واقتطع من وقته حيزاً، أشرف خلاله على حصار حماه، ثم أدار ظهره لها. لو لم يأت على ذكرها خلال مقابلته معه، لما تطرقا إليها، رغم أن ضجيجها مازال صداه يتردد في أرجاء البلاد. انتهت المعركة بنجاح مؤزر، وبلا خسائر تذكر، إلا سمعة الرئيس التي تضررت قليلاً، رُممت بإنكار عدد القتلى، وتوصيف ما جرى على أنه عملية جراحية استأصلت الإرهابيين من جسد الوطن، أعادت الروح إليه، وحازت على رضا أهالي حماه، باحتفالهم بالخلاص منهم. البلد في حالة ابتهاج، حملة شعبية، شارك فيها الحزب والمنظمات الشعبية والنقابات، رفعت شعبية الرئيس إلى الأوج، وجرى تحويل الإخوان المسلمين إلى إخوان الشياطين.

الانطباع البسيط والخارق عن الرئيس، لم يكن وليد لقائه الأخير، بوادره تشكلت خلال عامه الأخير في حلب، بعد لقائه الأول به. منذئذ ربضت في مخيلة الطالب البعثي، صورة الضابط الذي نجح في انتزاع الحكم من رفاق دربه في اللجنة العسكرية السرية، بالحيلة والقوة معاً، ثم تخلص من معارضيه في الحزب والدولة، واحداً بعد الآخر، وبالجملة أيضاً، أغلبهم معتقلون في السجون من دون محاكمة، إلى مدد غير معلومة. أما الذين هربوا، فأرسل إليهم من اغتالهم في بيروت وباريس.... من دون أن يعبأ بما يثار من صخب إعلامي واحتجاجات واتهامات باطلة. منذ ذلك الوقت تميز فيه خصالاً عديدة تبدت بقوة وصوله إلى السلطة وبقائه فيها. كانت صورته في ذهنه على سوية كفاءاته العتيدة؛ القسوة والحنكة وبعد النظر... بوحي من الوطن السوري وإيمانه به.

هذه الصورة لن تصمد طويلاً.

بعد إنهاء سليمان معاملة تسريحه من الجيش، طلب مقابلة ثانية، ليسأله عن العمل الذي سيُسند إليه. استقبله الرئيس ولم يصغ إليه، لم يسمح لقاؤهما إلا ببضع كلمات، قيلت في المقابلة السابقة. انتظر بعدها صامتاً، جاء مدير مكتبه ومعه أوراق للتوقيع، ثم دخل موظف إثر آخر، ربما لم يكونوا موظفين، قابلوه بشكل خاطف، أخبروه أن الأمور على ما يرام. ما طُلب منهم نُفذ على أحسن وجه. كان كل شيء يتم بإشارة أو تلميح منه. مقابلته أيضاً، انتهت بإشارة من إصبعه، بينما سارع السكرتير عابساً في وجهه، وبحركة عصبية من رأسه طرده، كان الباب مفتوحاً بانتظاره.

بمجرد خروجه، راودته شكوك قوية. هل تنكر الرئيس لوعده له؟ طوال المقابلة لم يسمح له بالكلام، مع أنه حاول أن يذكّره بوجوده. واظب على الحضور إلى القصر الجمهوري على أمل أن يستدعيه، لكنه تركه ضائعاً بين قاعات القصر وغرف الموظفين. لم يكن مبعداً، بل منبوذاً، لا عمل له سوى تضييع الوقت بالجلوس والتسكع. الرئيس غرر به وخدعه، الرئيس خيب ظنه.

أعاد النظر فيه، وكانت الذاكرة خير معين له، حتى أنها أدهشته؛ بقليل من التمحيص، لم يجد لدى الرئيس من قدرات لافتة، سوى البطش، قال إنه يستطيع أن يحكم سورية بثلاثة أو أربعة

زعران، فجمع حوله رعيلاً من الضباط الأنذال. حنكته تدل إلى المكر، ولا ترتقي به إلى شخص استثنائي، المكر لا يصنع رجلاً خارقاً، ولو أحاط به السحر من كل جانب.

ثم ما أشيع عن أن اهالي حماه احتفلوا بانتصار الجيش، كان ادعاء كاذباً، جاؤوا بهم من القرى العلوية المجاورة، وتظاهروا زاعمين أنهم من حماه، رقصوا ودبكوا وغنوا نكاية بالأموات المدفونين تحت التراب!! تجاوزات ضباط الجيش الذين أفلتوا لجنودهم العنان في القتل والنهب، لا يمكن أن تكون إلا بتعليمات وتوجيهات صدرت من القصر الجمهوري، من هذا الهدوء السابغ المنطوي على الأسرار الأشد هولاً... والصمت المصمت، الذي لا يخفي ما يدبر فيه من مؤامرات، لا تُدرك أبعادها ومراميها إلا بعد زمن طويل، أليس من خلال صمت مشابه، استولى قبل سنوات على دولة برمتها؟

تداعت صورته المحنطة في ذهنه، ليظهر خلفها رجل عادي، حركاته بطيئة واهنة، يفتقد الحيوية. جهد في استحضار موقف أو حالة توحي بما يناقض تشخيصه، فظفر بما يؤكده، أحاديثه المطولة وصوته الرتيب، خطاباته الجافة، الحافلة بثرثرة مملة، وأفكار غير مترابطة.

أما رجال القصر المتبارون لمديحه بحضوره وغيابه، والتزلف إليه والتسابق لإرضائه، يظنون أنهم يستمدون سلطتهم منه، ولا يدرون أن السلطة التي يتمتع بها يستمدها منهم. لم يكن إظهار انبهارهم به، إلا رياءً وتملقاً ونفاقاً. الهالة التي أُخذ بها تبخرت.

ما تصوره عنه سابقاً، كان من تداعيات خيال المراهق الذي كانه، والدماغ المفكر لطالب لا يفكر، وهذا الرأس المضطرب بالمخططات المجهضة. أوهامه أخذته بعيداً، ضللته ولم تنجده. كان الواقع مجموعة أوهام. دائماً ما تخيل أن شخصية الرئيس الفذة هي الجامع الأوحد لتفسير ما لا يفسر إلا به، لن تصلح اليوم لجمع ما تهشم من صورته التي تحطمت.

بعدما بلغ به اليأس أقصاه، صادف العم صبحي في بهو... فنصحه بالانتظار، سيُذّكر الرئيس به. وعده، سيأتيك الرد قريباً.

جاءه الرد من أبو حسين، استدعاه إلى مكتبه.

لم يكن أبو حسين من سكرتارية الرئيس، كان وحده سكرتارية خفية قائمة بذاتها، موظفاً من طراز خطير، لا يظهر للعيان، فهو لم يصادفه في سياحاته داخل القصر. كان كما عرف عنه في ما بعد، يدخل ويخرج من الأبواب الخلفية. قد يظنه، لو أن بصره وقع عليه، موظفاً صغير الشأن، بسبب هندامه غير المعتنى به. كان يستمتع بالظهور على غير حقيقة أهمية منصبه.

لم يتح له الجلوس على مقربة منه، الطاولة التي فصلت بينهما كانت ضخمة وواسعة، يفيض ما فوقها عن طاولة الرئيس شبه الخاوية، تناثرت فوقها هواتف وصحف لبنانية وعربية وأجنبية، وعلب شوكولاتة مفتوحة، وأكثر من ركوة قهوة، وفناجين مبعثرة، ومنافض سجائر ممتلئة بالأعقاب. الغرفة مهملة، على خلاف مكاتب الموظفين، خطر له أن الحاجب بعد الدوام يهمل تنظيفها، لأنه لا يقيم لصاحبها وزناً.

للوهلة الأولى نقم عليه، استدعاه لمقابلته كأنه واحد من صغار موظفي القصر المبتدئين، فعامله بالمثل، انجعص على الكرسي بلامبالاة، لكن لهجة أبو حسين المتغطرسة، جعلته يعتدل في جلسته، وينتصب بجذعه، مصغياً إليه بانتباه.

بعد التنبيه الصارم، رمقه بنظرة طويلة، ثم افتتح الجلسة، إذ لم تكن بدأت، بإلقاء ما بدا بياناً سياسياً عن الأوضاع في المنطقة،؛ مصر خرجت من الصراع العربي الاسرائيلي، سورية وحيدة في التصدي لمطامع العصابات الصهيونية، الاردن علاقتنا به سيئة، كان مركزاً لتدريب الاخوان المسلمين، المقاومة الفلسطينية في حالة فوضى عارمة، لا يوثق بعملياتها في لبنان، ولا في الخارج، ياسر عرفات أصبح عبئاً على المقاومة في جبهات القتال، الأحزاب الوطنية اللبنانية لا توفر مناخاً يساعد على منع المسيحيين من التورط مع اسرائيل، بقدر ما تدفعهم إليها. في الداخل، الوضع محسوم، الرئيس اختار في حماه العنف الثوري ضد العنف الرجعي. سورية تمضي نحو المستقبل بخطوات ثابتة، الرئيس وضع كل العوائق في حسبانه، كل خطوة يخطوها تقودنا نحو النصر.

لم يجد النقيب في هذا البيان سوى أن الرئيس في وضع ضعيف، إذا كان قضى على الفتنة في حماه، فلا يعني أنه يملك زمام الأمور في لبنان. غير أنه لم يهتم بالبيان، كان مقحماً، وعلى الأغلب

استعراضياً، لإعلامه عن عظمة سياسة الرئيس الخارجية والداخلية، ليقطع عليه أية محاولة بالتشكيك فيه. لو أنه يعرف عدم اهتمامه بالسياسة، لوفر عليه هذه المحاضرة.

لم يُعن أبو حسين بسماع رأيه، البيان كان مقدمة ليقول له إن سيادة الرئيس منحه إجازة مفتوحة. كانت، كما تلفّظ بها، عقوبة على شيء فعله، أو أنه مذنب، توطئة لطرده من القصر. فتظاهر بأنه لم يفهم:

«توقعت أن الرئيس سيبلغني بوظيفتي».

«حالياً لا شاغر في القصر».

«الرئيس وعدني».

«سوف يطول انتظارك».

لم يفته أن أبو حسين يماطل في الرد، فأحس بتوتر شديد، فأصر:

«وظيفة مؤقتة، ريثما...».

قاطعه أبو حسين مبتسماً:

«جد لنفسك عملاً».

تلمّح في ابتسامته شيئاً لم يدركه لتوه، سوى أنّ ردوده كانت غير جادة. لم يخطىء، كان أبو حسين يداعبه، لم يتوقع أن هذا الشاب القادم من الخنادق والأسلحة، قد ينهار بين لحظة وأخرى، فأوضح له المقصود من الإجازة والعمل، أن يعتبر نفسه في عطلة ريثما يزاول عمله.

«الرئيس لن يحدد لك وظيفة، بل ترك لك الحرية كاملة في ممارسة العمل الذي ترغب فيه».

وضع أبو حسين حداً للمطمطة والمراوغة بجلب انتباهه إلى ما تعنيه هذه المعاملة الاستثنائية جداً، بأنها امتياز لم يحظ به غيره.

حاول النقيب السابق استيعاب أعطية هبطت عليه من السماء، فلم يجد لها تفسيراً سوى أن بصيرة الرئيس الثاقبة تجاوزت الحدود القصوى. ولم يجد كلاماً سوى أنه عاجز عن شكره.

تابع أبو حسين قائلاً بتؤدة:

«حضرة المهندس، الرئيس ترك لك حرية الخيار، وهو واثق أنك ستخدم البلد بشكل أفضل».

كان في مخاطبته بـ«حضرة المهندس»، إشارة لا تخطئ إلى أن النقيب لم يعد نقيباً، الرئيس خلع عنه رتبته العسكرية، وعمم لقبه الجديد على موظفي القصر وعلى رأسهم سكرتير ذو شأن، علاوة على منحه مزية الاختيار، ما يؤكد مكانته الخاصة لديه.

لكن الرئيس... قال أبو حسين مستدركاً، لن يقابلك في الوقت الحاضر، بسبب الأوضاع السياسية والعسكرية، ستكون مؤقتاً تحت إمرتي. وكانت مناسبة كي ينصحه:

«سيكون عملك على مقربة من مركز القرار، أنت الآن على أطرافه، ينبغي ألا يغيب عنك ما يجري في العالم والمنطقة، لاسيما هنا في سورية ولبنان».

وشرح له ما تعنيه مراقبة الأحداث السياسية: أية حركة تقوم بها يجب أن تنسجم مع ما يجري في الظاهر أو في الخفاء، عليك مجاراتها لا اللحاق بها. هذه تعليمات مبدئية، في ما بعد ستتحرك بالسليقة.

تفهم تماماً موقف الرئيس منه، لن يلومه في سره على عدم مقابلته، لديه ما يشغله عن هذه الأمور الصغيرة، تعيين موظف، أو إيجاد عمل لرجل بلا عمل. وأنحى باللائمة على سوء ظنه به، لم يكن ما اختلقه عنه إلا من تضاعيف أوهامه. حسناً هنا ينتهي الوهم، ويبدأ الواقع، مع أنه لم يتجاهل الواقع كلية سواء في الجامعة أو الجيش؛ لم تكن وساوسه إلا لأنه تعجل معرفة وضعه الوظيفي. عموماً انتهت، أصبح من ملاك القصر الجمهوري، ولديه منصب ما في داخله. أما هدية الرئيس، فكانت فرز سيارة بيجو ٥٠٤ ليستعملها في تنقلاته الشخصية. كما أن الإجازة غير مقيدة بمدة محددة، كانت مفتوحة جداً، شهراً أو شهرين وأكثر، هذا لا يهم،

كما قال له أبو حسين؛ سيبقى في القصر، من دون دوام ملزم، ريثما يجد لنفسه عملاً يروق له.

التزم سليمان بداية بالدوام ليضع لقبه في الاستعمال، ثم تخلف عن الحضور أياماً قليلة، انهى أموره المعلقة، ووثق صلاته بأصدقاء، مضى زمن على فراقهم. لكنه لم يُضِع الوقت، نجح في تخيل بعض الوظائف، لم يستقر على واحدة منها.

لدى دوامه في القصر، كان الأهم معرفة العاملين فيه، وثقل كل واحد منهم، ومدى قربه من الرئيس. كان من جملة ما عرفه، أن أبو حسين ليس مجرد موظف كبير في القصر، أو ذي مكانة في سكرتارية الرئاسة، أو مقرب من الرئيس... قد تكون كلها مجتمعة معاً. الأهم أنه كان من الحلقة الضيقة المحيطة بالرئيس، وأحياناً كانت هذه الحلقة الضيقة لا تضم سواهما.

٣

قبل أن يغادر الباص دمشق، لملم عناصر المخابرات المزيد من المعتقلين من الفروع الأخرى. صعدوا مكبلي الأيدي، معصوبي العيون، مهددين بإطلاق النار عليهم إن حاولوا القيام بأية حركة. حذروهم من إزاحة الطماشات عن عيونهم، وأمروهم بإبقاء رؤوسهم منخفضة، وإلا... أعقب التحذير لسعات الخيزرانة وشتائم. خلال الطريق، توقف الباص في الاستراحة. قبل نزول العناصر لتناول الطعام، ربطوا معاصمهم بالمقاعد، وخبطوا رؤوسهم بالمساند، ولعنوا آباءهم وأمهاتهم. تعشى الحراس صفيحة باللحمة وساندويشات جبنة وتحلّوا بهريسة، وروحوا عن أنفسهم بالتدخين وشرب الشاي.

تهامس المعتقلون، يتحزرون إلى أي سجن سيأخذونهم، تعددت بين السيىء والأسوأ، كان أسوأها سجن تدمر. انزاحت الطماشات عن عينيه، وكان جالساً إلى جوار النافذة المغلقة بساتر من المعدن، ثمة شق صغير في طرفها، نظر من خلاله، فرأى نثارات النور المتكسر المنبعث من اللافتات باهتة الاضاءة في عتمة الليل. خمن أحدهم عن الاستراحة التي توقف عندها الباص، إنها تقع على طريق تدمر، فوجموا، ولم يأملوا خيراً.

انطووا على أنفسهم صامتين، أثقلت عليهم عاهات خلّفتها فترات الاعتقال المديدة وإكراهات جلسات التحقيق، لم تخل أجسادهم من ندوب التعذيب بالكهرباء، أكثر ما أصابت أعضاءهم التناسلية، وتشوهات في اليدين وتهتكات في القدمين، لا مفر من اقتلاع الأظافر في المراحل الأولى من الاعتقال، منهم من أدى ضربه على ظهره إلى شلل في يده أو قدمه، أو تمزق أربطة الأطراف؛ كان السجانون يتقصدون تعذيبهم بالضرب على المعدة والرئة والكلية والرأس، ما يؤدي أحياناً إلى نزيف داخلي مميت.

كلها تهون إزاء ما وقع على حمدان الموظف في المالية. في اليوم السابق لمغادرته الفرع، أولج العسكر عنق زجاجة في مؤخرته. اتهموه بكل شيء، ولم يعرف ما هي تهمته الحقيقية. في الباص لم يتمكن المسكين من القعود، فتلقى الصفعات من العسكري، إلى أن أراه بنطاله، كان ما يزال ينزف دماً من التشققات التي أحدثها اغتصابه.

تبادل عدنان الحديث مع الجالسين الأقرب إليه، كان قد صادف بعضهم خلال تنقلاته بين فروع المخابرات، فعدا معرفته بحمدان وعبد الرحمن سليمه، تعرف إلى جميل الضابط المتهم بالانتماء إلى تنظيم الاخوان المسلمين، لأنه كان يصلي خمس مرات في اليوم ويشتم الرئيس، والشيخ كريم خطيب جامع الهدى، لفّقت له تهمة استغلال المسجد لتجنيد الإرهابيين، لعدم تقيده بالخطبة المقررة من وزارة الأوقاف في صلاة يوم الجمعة. وحسن المراسل بين قيادة المجاهدين في الاردن وقيادة دمشق، وهاشم الممرض المتطوع لجمع التبرعات لأسر المعتقلين والشهداء. قال لهم الضابط جميل، ادعوا الله ألا يكون مقصدنا تدمر، إذا كُتب لنا عمر جديد، فقد لايطول، تدمر لا تبشر بالكثير من العمر.

كانوا في طريقهم إلى سجن تدمر، مركز التطهير الوطني.

وصلوا مع جهجهة الضوء. الشرطة العسكرية بانتظارهم. أنزلوهم من الباص، وجمعوهم على مقربة من المدخل. وقفوا بلا حراك، يقفقفون من البرد، شفاههم ترتعش، وأسنانهم تصطك، ملابسهم الممزقة والبالية لا تحميهم من لسعات النسيم الصحراوي الصباحي. تمتم الشيخ كريم بصوت هامس: «اللهم، لا أسألك ردّ القضاء، بل أسألك اللطف فيه».

بعدما انتهت إجراءات التسلّم والتسليم بين عناصر المخابرات وجنود الشرطة العسكرية، عبروا من الباب الصغير للسجن، مطأطئي الرؤوس، محنيّي الظهور، عدنان ممسكاً بكلتا يديه بعبد الرحمن أمامه، بينما هاشم خلفه ممسكاً به، يهرولون، تلاحقهم صفعات رجال الشرطة وركلاتهم، المصطفين إلى جانبي الممر وركلاتهم، فتعثّر منهم من تعثر، ووقع منهم من وقع، تلك كانت: أهلاً وسهلاً بكم في تدمر.

أوقفوهم عند الحائط، فكّوا عنهم القيود، ورفعوا الطماشات عن عيونهم، ثم صفّوهم رتلاً ثنائياً في الباحة الصغيرة، أمام غرفة ذاتية المساجين، جدار مطلي بالأبيض توسطه باب خشبي، كتب أعلاه بالأسود: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون». كلما جاء دور واحد منهم بالدخول إلى الغرفة، نعره عسكري على رأسه، ثم شاطه بقدمه إلى الداخل، يسجل المساعد اسمه وعمره ومهنته...

أغفل عدنان ذكر مهنته عندما سأله المساعد عنها، قال إنه موظف في وزارة الصحة، لم يكن يكذب، كان متعاقداً مع الوزارة بصفته طبيباً، نصيحة أسداها إليه عبد الرحمن في الباص؛ السجانون يشتطون في إيذاء حملة الشهادات العالية، قد يوفر بعض العذاب. المساعد أعطى عدنان الراجي رقم ٧٧ بدلاً عن اسمه ليُعرف وينادى به، فأصبح من قاطني تدمر.

بعد انتهاء التسجيل في الذاتية، جمعوهم في رتل واحد، انقضّ عليهم الجنود، على رأسهم رقيب ضخم الجثة، انهالوا عليهم بالضرب، هرولوا مسرعين في الممر، السياط تدركهم، والخيزرانات تسبقهم، والسباب الفاحش ينصبّ عليهم: يا كلاب، يا حقيرين، يا عرصات، يا حيوانات، يا منايك، يا أخوات القحبة...

الترحيب الثاني بقدومهم، انتهى. بعدئذ بدأ حفل الاستقبال، أعلنه الرقيب.

لم يتبين، هل كان يعبر ممراً آخر، أم في فسحة، وربما ساحة تؤدي إلى ساحة أوسع. كل ما يدريه أنه أصبح في قلب الجحيم، تتعقبه الكرابيج والكابلات، الشرطة توزعت في أرجاء المكان، أينما هرب منهم يجدهم أمامه وخلفه ومن حوله. ترتج المرئيات في عينيه، يلمح القبعات الحمر

للشرطة العسكرية، تبْرم حوله وتطبق عليه. يلوب باحثاً عن مخرج بين الجدران الكاحتة، فتخطف بصره شعارات الحزب والنصر: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. ضربة عصا على كتفه: سورية الثورة، وأخرى على صدغه: سورية الصمود. صفعة على وجهه، ينفتل رأسه صوب: القائد بطل... بترتها رفسة إلى بطنه. أحاط خصره بكلتا يديه، قائد البلاد يحقنهم بشعاراته وجنوده يسحقونهم بجبروتهم. تعثر، حاول إمساك أقرب يد إليه، لم يلحق، كبا على ركبته، ثم انطلق ركضاً إلى ما بدا أنه باب، ظن أنه وصل سالماً إلى خط النهاية، ونجا بلا جراح ولا كسور، وإن ببعض الكدمات. لكن لا باب، ولا أبواب، عسكر وعصي. مازال في الساحة رقم ١ المخصصة لاستقبال الوافدين الجدد.

حفلة الاستقبال التي بدا أنها انتهت، كانت قد بدأت لتوها.

الجحيم جدد قواه، والأرض انشقّت عن المزيد من العسكر، تبعثروا في الساحة وتوازعوها، أمروهم بخلع ملابسهم كلها، وأوقفوهم عرايا. تداعت بعدها طقوس التعذيب الرهيبة، الكابلات والكرابيج والسياط والقضبان الحديدية تنهال عليهم، تصيبهم كيفما اتفق، على الرأس والوجه والظهر والصدر والأيدي والأرجل، لا يكاد يأخذ نفساً حتى يلفظه، خرير اللهاث يفحّ من الأفواه، ويصر في أذنيه، هل كان يلهث مثلهم؟ الضرب لا يفتر، يجهد في تفاديه من دون جدوى، إن أفلت من لسعة سوط، أو كرباج، فاجأته ضربة عصا، قضيب حديدي، ركلة بوط عسكري، يسقط أرضاً وينهض قفزاً، لئلا يتكاثروا عليه ويصبح فريستهم.

يهرب منهم إلى جدران لا تحميه، يلامسها وتبتعد عنه، يبحث عن منفذ، ولا منفذ، حاصروه مع غيره في زاوية الساحة، أغلقوا حتى السماء، من يتجرأ على رفع رأسه نحو الأعلى؟ أفواه تصرخ، تتوسل وتستنجد، وأجساد تزرقّ، خط عليها الدم لونه الفاقع. يتدافعون مذعورين من مطارديهم إلى فراغات مزحومة بالعويل والرعب. السياط والكرابيج تمزق الهواء، تصدر أزيزاً، يخلف أنيناً، وشهقات من حلاوة الروح. الأجساد العارية تنهار مسلوخة، ضامرة وهزيلة، خائرة القوى، تتساقط تتلوى وتكبو على أوجاعها، كأنهم يموتون، ولا موت. ينزلق على الأرض، ليموت مثلهم، فلا يموت، يتفاءل بالأقدام الجريحة تهرول فوق الاسفلت، وتمضي هاربة.

كلما تعالت صرخات الألم، استثيرت شهية العسكر، واشتد بأسهم. يتهاوى هاشم، على أثره حسن، ثم جميل، أما حمدان فالأقدام تدوسه ... ومعهم هؤلاء الذين لم يعرف بعد أسماءهم، يترنحون ويتساقطون. نهض هاشم راوغهم وكان ينزف، تحاوطه عسكريان وأوقعاه أرضاً، فتدحرج بعيداً عنهم، سارعوا نحوه بالهراوات، قطع جميل عليهم الطريق إليه، فانبروا يلحقون به. زحف عدنان نحو هاشم وساعده على الوقوف، قبل أن يعودوا إليه ويتكالبوا عليه. أنهضه بصعوبة، وعندما استقام واقفاً، فاجأته لكمة على جبينه، تراجع إلى الخلف، استدار وركض، لا يبصر أمامه، تعثر بـأجساد تبعثرت من حوله. الكبار في السن مغمىّ عليهم، والذين ما زال فيهم رمق، يحملون المصابين الجرحى فاقدي الوعي.

توقف مأخوذاً لحظة، لحظات، هل ما يراه حقيقيّ؟ شبان صغار في العمر يرتدون الملابس العسكرية المبرقعة، يعذبونهم بحماسة، ويريدون قتلهم، من هؤلاء العسكر؟ ما الذي يعمي عيونهم عن رؤية الألم؟ يشبهون أولاد جيرانه وحارته، يافعون يصادفهم في الأسواق، ويلمحهم من شرفة عيادته، يتمشون على الرصيف أمام السرايا. شبان أقوياء يلاحقون رجالاً عريانين ضعفاء، وجوههم ناحلة، أنفاسهم متقطعة، عظام صدورهم ناتئة، عيونهم غائرة، سواعدهم الملفوفة بالشاش، حملوها معهم من أقبية المخابرات، جراحهم تتفزر بالدم، كأنهم لم يغادروا الكرسي الألماني والفلقة والدولاب، هنا في الساحة يربطونهم إليها ثانية، أو يحشرونهم فيها، الكابلات تنهال على أقدامهم، مائة جلد، مائتي جلدة، ثلاثمائة جلدة... الأقدام تزرقّ وتتورم وتنز دماً.

كان الأهبل الوحيد بين جمع غفير من الظالمين والمظلومين.

جاء دوره، الأهبل لم يهرب، رموه أرضاً. الأهبل لا يحس، يسمع أصوات عظام تتكسر، لم تكن عظامه، جعير بكاء، لم يكن جعيره. الأهبل لا يبكي. رجال ينهارون، أجساد تتدحرج، جثث بلا حراك. هل ما يقع عليهم، يقع عليه؟ أهذا ما يحصل له، أم يحصل لهم وحدهم؟ لماذا لا يحس؟ تراه يتخيل ما يصيبه، أو ما يصيبهم؟

الأهبل يبكي، دموعه التي تجري على خديه، كانت دماء.

وإذ انفتح باب، أو أكثر من باب، انكشف المخرج، تدافعوا نحوه، مجتمعين ومتفرقين، متزاحمين وخائفين. منهم من يعرج، أو يجر قدماً مكسورة، أو يسند مفصلاً مخلوعاً، أو يحمل يداً ملوية. يعاينون الجدران، يتلمسونها منهكين، الأقدام تتقصف، الأجساد تتهاوى، الأيدي تقرع الجدران، يحاولون تسلقها، يزحفون على أيديهم وركبهم...

لم يكن باباً، ولا أبواباً، كان ممراً يسلمهم إلى ممر، يأخذهم إلى المهجع، بر الأمان، تكوموا مذعورين فيه، يلفهم سكون الهلع، صدّعه زمجرة الرقيب والعسكر يلوحون بالعصي. الرقيب يعدد قائمة المحظورات: ممنوع فتح العينين، ممنوع الكلام، الصلاة ممنوعة، الذهاب إلى المرحاض ليلاً ممنوع، لا قراءة ولا سهر، الإتيان بأية حركة في أوقات النوم ممنوع ... لا أسئلة، بالمختصر، غير مسموح بأي شيء.

الرقيب يهدد ويتوعد؛ لم نأت بكم من الشوارع، جرائمكم جاءت بكم إلينا. جنيتم على أنفسكم وعلى عائلاتكم، ستلاقون جزاءكم العادل لقاء ما اقترفتموه من عمالة وخيانة للوطن. ثم حرمهم من الحياة، مستشهداً بقول الرئيس قائد المسيرة: لا حياة في هذا العصر إلا للتقدم والاشتراكية. ستخرجون من هنا إلى القبر، لا مكان غيره. ثم ودعهم العسكر بالخيزرانات والسياط.

لم يصدقوا أن الحفلة انتهت إلا بعدما أغلقوا وراءهم باب الحديد الأسود، وسمعوا الدقر يقفل، تهالكوا على الأرض. كان وداعاً مؤقتاً، مساء سيتحفونهم بزيارة ليلية.

رئيس المهجع، خفف عنهم قيود الممنوعات بتعليمات موازية: الصلاة الجماعية ممنوعة، ومثلها الفردية، يمكنكم الصلاة في الخفاء، على ألا يلاحظكم الحرس. إذا ضُبط أحدكم متلبساً بالصلاة، ولو كان بإيماءة، فعقوبته قد تكون الموت. لا تذكروا اسم الله، وإذا اضطررتم ففي سركم. طأطئوا رؤوسكم على الدوام، مسموح لكم رؤية بساطير العسكر، لن تروا غيرها، إياكم والنظر إلى وجوههم، نظرة واحدة تودي بكم إلى الساحة. العقوبات جماعية، التعذيب لا وقت محدداً له، في الليل والنهار، صباحاً وظهراً ومساء، قبل الطعام وبعده. لا احتجاج، المسموح الوحيد به من الكلام، أن تقولوا: حاضر.

واسى المعتقلون القدامى المعتقلين الجدد، مسحوا دماءهم، داووا جراحهم، أفسحوا لهم أمكنة للمنامة، ومجالاً لرثاء أنفسهم، والبكاء بلا صوت... ونصحوهم بالصبر: توكلوا على الله، فوّضوا أمركم إليه، ليس لكم سواه.

سألوهم عن أخبار البلد، كانوا منقطعين عنها منذ أكثر من سنة، لم يسمعوا بثورة حماه ولا بتدميرها، ومقتلة الثوار، وآلاف المشردين من الأهالي.

حفلات التعذيب الهستيرية، يومية، لا تنقطع إلا لتتواصل، لا فرق بين حَرٍّ لا يطاق، وبرد لا يحتمل. لم ينل منه التعذيب في أجهزة المخابرات، نالت منه تدمر. هناك كانوا يعذبونه لكي يعترف، أما هنا فالتعذيب ليس لكتمانه معلومات يعتقدون أنه يمنعها عنهم، بل لتحويله إلى إنسان آخر، إنسان ليس بإنسان، ولقد تحول إلى ما يشبهه، إلى إنسان لم يعرفه من قبل، بلا كرامة ولا إحساس، رجل مسطول، هذا أفضل ما حصل له.

ومثله هؤلاء تحولوا إلى بقايا بشر، همهم تجنب العذاب، يمضون الوقت في مداراة أوجاعهم، ولملمة ذكرياتهم، عسى ترد إليهم ماضياً، بات كل حياتهم، يتآكل من يوم لآخر، وكأنه لم يحدث، ولم يكونوا فيه مرغمين على الانسياق في حياة أخرى، قدرهم فيها لا يزيد عن قدر الحيوانات والبهائم، كونهم أولاد قحبة وشرموطة ومنيوكة. الآمر الناهي، حضرة الرقيب، ليس وحده، معه جنود وشرطة، يسمعون بذاءاتهم، ولا يرون سوى بساطيرهم.

يقضون الوقت بالتخمينات، هل سيعاقبونهم اليوم؟ ما مزاج الرقيب، ترى من أي مدينة أو قرية، هل هو علوي، مسيحي، سني، اسماعيلي، شيعي...؟ كانوا جميعهم من طائفة واحدة، رسل الجحيم والعذاب، ربهم، الرئيس المفدى.

والأيام تكرر بعضها بعضاً، يدبّ فيها شيء من الحياة مساء قبل النوم، كهذا اليوم؛ الممرض هاشم يتفقد إصابات الجرحى، الشيخ كريم يتلو بصوت راعش بعضاً من آيات القرآن، وإلى جواره من يصغي إليه ويحفظ عنه. المراسل حسن يساعد حمدان موظف المالية المتقاعد، وينفض عنه بطانياته، قبل أن يضطجع بلا حراك حتى الصباح. المقدم جميل يرتق جواربه. عبد

الرحمن سليمه يرقع قميصه. الشابان أسامة وحسان تبرعا بتلطيف الجو في المهجع، أمسك كل منهما بطرف البطانية، يحركنها تجاه النوافذ لطرد الهواء الآسن. جاءا مع الدفعة الأخيرة، ظنهما المعتقلون أخوة، لا يترك أحدهما الآخر، يتباريان في مساعدة المعتقلين. الشيخ كريم، قال عنهما، هؤلاء من شباب الجنة. أسامة محكوم بالإعدام، حسان سيفرج عنه، لا يخفيان خشيتهما من يوم الفراق.

اعتقد قبل وصوله إلى السجن، أنه سيخلو إلى نفسه بين الجدران، يستعيد هدوءه ورشده، ويفكر على مهل، ويقنع نفسه بكابوس، لن يدوم، كابوس مع الوقت الى زوال، ويفكر بطريقة يُطَمئن بها أباه وزوجته وأولاده عن أوضاعه، ويُعلم أخاه بسجنه، ليعمل على إطلاق سراحه. تدمر قلبت حساباته كلها. الباب الحديدي الأسود سد يمنع أي رجاء، حاله كما حال السجناء من حوله، طريقان لا غيرهما، كما قال له عبد الرحمن سليمه، الإعدام أو السجن إن لم يخرج منه بعد سنوات طويلة، فسوف يلاقي حتفه فيه. فأصبح كلما خطرت على باله زوجته وأولاده، يبعدهم عن ذهنه، باتت لهم حياتهم، كما باتت له حياته، فلم يقحم نفسه عليهم، كان يغادر الحلم، لحظة يلمحهم يظهرون في الغبش.

وربما يفرج عنه أو يموت، سيقضي حياته في مهجع ليس إلا جحراً لا تزيد مساحته عن خمسين متراً مربعاً، جدرانه المشققة مطلية بالأخضر الفاتح، لا تستر آثار الرصاص ولا الدماء، النوافذ عالية، فتحات السقف مشبكة بالحديد. الأرض محفّرة، دورة المياه معطلة، الحنفيات صدئة، الماء لونه أصفر. والبرد يتسلل من جميع المنافذ. هذا هو العالم، عزلة وكآبة، والتعذيب بالمرصاد.

كانوا من حوله يبثون فيه اليأس، رجال لا حول لهم ولا قوة، مرضى يسعلون، ويتقيأون، يبصقون بلغماً أو دماً، جراحهم نازفة ومتقيحة، عيونهم تائهة، وجوههم مشوهة، أعضاؤهم مهشمة. حالات مرضية مستفحلة... قد يشفى بعضها بعد حين ليس ببعيد، وبعضها الآخر بعد مدة طويلة، أو تتفاقم نحو الأسوأ، وتتحول إلى عاهات دائمة.

يتميز نفسه، مشلولاً، كسيحاً، طيعاً وخنوعاً، إرادته مكسورة. بصمة تدمر، وُسِم بها، لعنتها التصقت به. كان بينهم، وغائباً عنهم!! ما يهجس به، ينعكس عليهم. إذا كان مثلهم، فلماذا

ليس واحداً منهم؟ يرثي لهم، أم يرثي لنفسه؟ أي عالم هذا؟! المتفرج البليد، أفكاره تتخابط، ولا تركيز، يرى رفاق السجن، وهو معهم على شاشة، لم تعد شاشة، بل لوحة سوداء، كانوا فيها أشد سواداً منها!! إذا كان هو هناك، فمن يكون الناظر إليهم؟ هل كان هو نفسه؟! كيف يستقيم كونه منظوراً إليه، بينما ينظر إليهم؟

ما الذي أصابه؟! ضائع بينهم وعنهم. كانوا أفضل حالاً منه، يحسدهم وجدوا بلسماً لجراحهم، يقاومون جلاديهم بالقرآن والدموع والذكريات والحنين والدعاء... أما هو فبالجنون. لا، لم يكن الجنون، بل ما يشبهه، النوع الأسوأ منه.

لم يدرك ما حلّ به إلا بعدما أحس أنه فقد شيئاً من نفسه، ما تخوف منه، أوغل فيه، وتمكن منه: شطر منه انفصل عنه. ربما كان الوحيد الذي ترك نفسه لهذا الجنون الأسوأ، يشطره إلى اثنين، شيء ولا شيء، يقضمانه على مهل.

لم يأته هذا الخاطر المرعب، إلا عندما تعرف إلى الشيء: شطره الآخر، الرقم ٧٧ الخانع والراضخ لقوانين تدمر، المتقيد بأوامر الجلادين، خافض رأسه، لا يطول سوى أقدامهم، ترهبه أصواتهم، يصدع بما يأمرونه به؛ يكنس الأرض بلحيته، ويمسح الوخم والقاذورات بصدره، يتوسل إليهم، ولا يتوانى عن الركوع أمامهم، ولعق بساطيرهم.... أما هو، فكان لاشيء.

هل أنا هذا الذليل، المعرض للشتم والضرب والدعس بالبوط؟ ليس أنا، بل أنت أيها الرقم ٧٧.

لا يجهل ما أمسى عليه، نأى اللاشيء بنفسه عنه وعنهم، وصان روحه من الدمار والانحطاط، يسوقه زعم البقاء حياً وسليماً، يستعيد صلته مع عائلته، ويعيش خفية من أجل أولاده وزوجته. الطبيب لن يتأذى بعد اليوم. ولن يهان، كرامته مصونة.

يقفل عائداً إلى حماه المهدمة، الذكريات ترممها وتعيده إلى ما كان عليه، يرتدّ إلى حياته اليومية مع عائلته، ينام في بيته، يجتمع مع زوجته وأولاده في وقت الغداء والعشاء، يقبّل أولاده قبل النوم، يعمل صباحاً في المستشفى الوطني، ومساء في عيادته، على اللافتة: «الطبيب عدنان الراجي، داخلية نسائية أطفال». يعالج الأمراض الشائعة، الالتهابات الصدرية بأنواعها

للكبار والصغار، سوء الهضم، القرحة، التهاب الكولون، حالات الإسهال والإمساك، البواسير، واضطرابات النوم، ضعف الانتصاب... وأمراض التخمة وسوء المزاج، فقدان الشهية، نقص الفيتامينات، الوزن الزائد... أمراضٌ أعراضها معروفة وأسبابها غير مجهولة، وأدويتها متوافرة في الصيدليات.

... بينما الرقم ٧٧، يتعثر في دوامة متاهة الإذلال اليومي.

لا تحاول، لا شيء سوى هذا الظلام الحالك، العتمة فقط وبلا نهاية. الحياة لا تعنيك، الإنسان الذي كنته أنا، أنت جزء منه، انشطرتَ عني. تجردتَ من اسمي. غسلوا دماغك، ومسحوا من رأسك كل ما آمنت به، وما تعلمته، ليس لديك ما تدافع عنه، أو تضحّي به سوى نفسك. أنت الشيء الذي أصبح بلا وطن، بلا ذكريات، بلا ماض، ولا مستقبل. اكره هذا الوطن، قبل أن يجهز عليك، تحت رايته تكابد نذالتهم وفجورهم. لا تبتئس، الوطن الذي تعرفه سرق.

شخّص الطبيب ما يعانيه الرقم ٧٧ : حالة لا علاج لها، وسوف تطول، حتى تأخذ مداها. ما يخفف منها، أن صاحبها بلا إحساس.

أبدى أسفه وصارحه؛ لن أستطيع مد يد العون إليك، سامحني.

أما الذين حوله، وإن كانوا لا يشبهونه إلا قليلاً، فما أصيبوا به أسبابه معروفة: جسدية وعصبية ونفسية؛ آلام معدية حادة، قرحة نازفة، كسور، تشوهات في الوجه، كلل في البصر، فقدان السمع، اغتصاب بوسائل طبيعية أو اصطناعية... ناجمة عن التعذيب. أما الناجمة عن سوء التكيف، فالانهيارات العصبية والنوبات الهيستيرية. لا تحتاج إلى طب أو طبيب، تعالج بأقراص بيضاء اللون، يقال إنها مصنوعة من النشاء، لا تضر ولا تنفع، هذا إذا توفرت. العلاج بالأدعية والصلاة أجدى.

ربما سامحه الرقم ٧٧، وإن كان في المسامحة تزيّد، إذ ليس بوسعه التعبير عنها، فهو بلا مشاعر.

أبدى الطبيب أسفه ثانية؛ أعرف أني أستغلك وأستفيد من إبقائك مأزوماً، وإذا كنت على

مسافة بعيدة منك، فهذا من طبيعة الأزمة نفسها.

غادر الرقم ٧٧ ما يشبه الحياة إلى ما يشبه الموت. عبثاً لن يستعيد تلك ولن يظفر بذاك، عالق بينهما، رعب لا خلاص منه إلا بملاقاة المنية، وكانت في علم الغيب، وعزيزة المنال. طالما أن حياته ومماته رهينة الظلم والظلام والظالمين.

مشيئته كانت قاسية

ما ساعدني على تحمّل محنتي، أنني سأؤدي واجباً يغفر لي البقاء حياً. ولم يخفف من شعوري باليأس، سوى توسلي الخيال، ولقد بلغ من القوة، اعتقادي أنني منحت مزيداً من العمر للقيام بدور قُسم لي في الحياة، يبرر استمراري في العيش. ما ذكّرني بأم محمد التي اعتقدت أن الله أجّل موتها ليحيا الرضيع. تحت تأثير هذا الشعور، أخذت على نفسي عهداً ألا يتعرض ابن اخي الطفل الرضيع للأذى، وبذلت ما بوسعي في العناية به. انسجمت مع هذا الدور، حتى بدوت كأنني أبوه، غير أن تحايلي لم يبلغ أن أعتبره ابني، وأنتحل ما ليس لي، وأسلبه من المرأة التي ولدته، والأب الذي أنجبه.

سجلت حازم في دائرة النفوس على أنه ابني تفادياً لما قد ينشأ من تعقيدات إدارية وقانونية مستقبلية. ولقد أفرطت في عواطفي نحوه، وغمرته زوجتي بالحنان. في الحقيقة كنا أحوج إلى بذلها، فنحن لم نرزق بأطفال، كان زواجنا مهدداً بالطلاق، فأعاد الوصل بيننا، وكان رسول رحمة ووفاق. ولقد راودني إحساس أن أخي وزوجته كانا في رحاب الله راضيين عنا، وطاب لي الشعور أنهما يزوراننا للاطمئنان إلى طفلهما. وكثيراً ما رأيتهما في أحلامي بمنزل العائلة في الكيلانية.

للمهندس سوى أن الحرب سجال، لكنه احتل حيزاً كبيراً في اهتمامات أبو حسين ومخاوفه عبّر عنها بغضب:

«الفلسطينيون المجانين، ورطونا في حرب أخرى».

هذه الحرب بالنسبة للمهندس، كانت نفسها، تتقدم وتتراجع، الآن هي في مرحلة تقدم، ما الجديد؟

استطرد أبو حسين يسرد تفاصيل الاختراق، ملامحه أفترت عن ابتسامة خبيثة؛ تبدت ساخرة مع اقتراب ما يزيد عن عشر دبابات اسرائيلية نحو جسر الحمراء، عند الحاجز ستة جنود هولنديين من كتيبة المراقبة التابعة للأمم المتحدة. حاولوا منع الدبابات من العبور بوضع عوائق على الطريق، لكنها استمرت بالتقدم، الجنود الاسرائيليون أعلاها هتفوا بمرح «آسفون هذا غزو». تمكن الهولنديون من إعاقة تقدم دبابتين بصورة مؤقتة، هذا لم يدم طويلاً، إذ أعقبتها ألف ومائة دبابة!!

«قدموا لبيغن فرصة كان يبحث عنها».

لم يقل له لو أن الفلسطينيين لم يقدموها لاختلقها الإسرائيليون.

أغفل أبو حسين السياسة، وركز على ميادين القتال، وكان في إلحاحه على الاستراتيجية الاسرائيلية تسخيفٌ لتكتيكات الفلسطينيين ولحرب العصابات، النتيجة سيطردونهم من لبنان. أما الخطر الحقيقي فاحتلال بيروت، ما سيؤدي إلى...

تضايق المهندس، كأنه لا يزال ضابطاً في الجيش، هل يريد إبلاغه أمراً بالرجوع عن استقالته، تمهيداً لنقله إلى القوات المرابطة في البقاع؟ إذا كان أبو حسين يلف ويدور، فسوف يداور ويناور، لن يكشف عن موقفه، لم ينس لبنان والحروب كلها فقط، بل ونسي الجيش وكونه كان ضابطاً. كيف يقولها بعبارات أقل وطأة، لئلا يوصف بالجبن؟

واجهت القوات الإسرائيلية المندفعة على عدة محاور باتجاه بيروت، مقاومة من الفلسطينيين،

عندما صممت على الرحيل، أفلح الأستاذ رشدي في إقناعي بالبقاء، وإذا كنت قد أقلعت عن الفكرة، فلسبب آخر، ألّا أواجه في حماه، ما أسعى دائماً إلى الإفلات منه؛ الذكريات.

١

أتاح وجود النقيب السابق، الملقب بالمهندس في القصر الجمهوري، ولو من دون عمل، توثيق صلاته مع الموظفين، والتعرف إلى سكرتارية الرئيس. وانتهز الفرصة ليزور العم صبحي زيارة خاصة في مكتبه، ليشكره على ما سلف من وساطته، والمساعدة التي قدمها له مؤخراً. سرّ العم صبحي بزيارته، هذا ما أظهره له، استقبله لمدة لا تزيد عن شرب فنجان قهوة، وكان في انشغاله عنه، اعتذار لبق عن عدم إمكانية تمديد الزيارة لفترة أطول. الأعمال تأخذ دائماً صفة العاجل. وصارحه بأن العلاقات الشخصية غير مرحّب بها في القصر.

لاحظ خلال الزيارة أن العم صبحي أظهر امتعاضه عندما ورد ذكر أبو حسين، بإشارة استخفاف من طرف فمه، ارتسمت خلسة. حبل الود مقطوع بينهما، والسبب من لا يخشى أبو حسين؟! أمنية العم صبحي إنهاء خدمته في القصر بسلام.

تحاشى المهندس الاجتماع بأبو حسين، ولم يكن صعباً، بابه ليس مفتوحاً للجميع، كان يطلب من يريد رؤيته من الموظفين، لاستنطاقه بأسلوب موارب. ويمازحه عن القهوة التي يحضرها بيديه، بأنها تصفّي المزاج، بينما كانت مسمومة، باستجواب حاذق.

بعد نحو أسبوعين، استدعاه. الحديث لم يكن متبادلاً، ولم يستجوبه، استعرض أخبار لبنان الأخيرة وتوقعاته السياسية. كان بذلك قد بدأ بالإشراف عليه، قاصداً تدريبه على التقاط الخبر المهم، وما قد يتداعى عنه من نتائج سياسية.

الخبر موضوع الجلسة، سمعه المهندس قبل ثلاثة أيام عن محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن، وما أعقبه من تهديدات لرئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن للفصائل الفلسطينية، ثم تحرك القوات الاسرائيلية واجتياحها للحدود اللبنانية. هذا الخبر مع نتائجه، لم يعن

رسخ في يقيني أن الصبي أمانة في عنقي، كُلفت برعايته ريثما يكبر ويحمل أعباء الحياة، أحدها الأكثر ثقلاً، عبء صدمة لن أخفيها عنه، كونه يتيم الأب والأم، وهي حالة كنت أعرف أنني سأحاول جاهداً ألا يتأثر بها، سأوفر عليه معرفتها طفلاً ويافعاً، وأصارحه بها عندما يصبح شاباً قادراً على ألا يستلبه الماضي، معوّلاً على نداء المستقبل، وسوف يكون هو الأقوى.

رَافَقَنا أنا وزوجتي شعور بالذنب، أننا مُنحنا طفلاً تمنيناه، ولم نحصل عليه إلا على حساب مقتل أبويه. لكننا تغلبنا على هذا الشعور، كان فيه تخلٍّ عن واجب والالتجاء إلى ذنب، ولم يكن بالأمر السليم ولا الصحيح. لقد سعدنا بوجوده، وحمدنا الله على أنه رزقنا به. لم نعترض على مشيئته، وشكرناه على ما منحنا إياه، ولم نكفر بها كان نقمة وأصبح أشبه بنعمة، ليتها لم تكن على هذا النحو. مشيئته كانت قاسية، ولا أتجرأ على القول إنها كانت ظالمة.

بعد الأحداث، خطرت لي فكرة الانتقال إلى حماه، خشيت أن أفقد نفسي في دمشق، ولم يكن عسيراً في زمن كانت فيه انتصارات الرئيس تضج في العاصمة. كان ذلك في يوم، لم أتمكن من الوصول بسيارة الأجرة إلى القصر العدلي من شدة الزحام، اضطررت إلى النزول في جسر فكتوريا، الحشود تملأ الشوارع في الاتجاهات كلها، الصالحية وساحة المرجة ومحطة الحجاز، تحتفل بانتصار لم يكن إلا هزيمة، طلبة مدارس وموظفون وجماهير المنظمات الشعبية، يرفعون اللافتات وصور الرئيس، يهتفون للوحدة والحرية والاشتراكية، ويفتدونه بالروح والدم... اكتظاظ المكان بالمهللين على مد النظر، وأصواتهم العالية، وأفراحهم وحماستهم، أوقع في دخيلتي، أنهم على صواب، وأنا وحيد بينهم... وعلى خطأ، دمشق لهم، وعلي أن أجد مكاناً لي في حماه.

كدت أن افقد إيماني بالحقيقة، قبل أيام أسقطت إسرائيل سبعين طائرة سورية، وهاهم يحتفلون بهزيمة الجيش الاسرائيلي لأن النظام لم يسقط. كانوا الحقيقة، وأنا في الجانب المضاد لها، غير أنها أعادتني إلى صوابي، إذ لا حرية، ولا وحدة، ولا اشتراكية، كلها كانت أكاذيب. الحقيقة أن جيش البلاد هزم، وليس انتصاره سوى أن الرئيس لم يفرّ هارباً من دمشق. وهذا الاحتفال لأن هناك من يريدهم أن يصرخوا: بالروح، بالدم، نفديك يا حافظ.

لكنها لم تكن كافية؛ من سيوقفهم.. هؤلاء الشراذم؟

«جيشنا، وبالرغم من المباغتة، كان مستعداً لهم».

لابد له من التعليق على ما يسمعه، فقط لأنه كان ضابطاً في الجيش قبل شهرين، وافقه من قبيل الكلام فحسب، ورفع المعنويات.

«سيتكبد الاسرائيليون خسائر كبيرة، فيما لو جربوا التحرش بالجيش السوري».

قالها بثقة، مجارياً اهتمام أبو حسين، ومظهراً ثقته بأن الجيش لن ينهزم في حال جرب الإسرائيليون الاصطدام به. مهما كانت النتيجة، لماذا الإعلام السوري بارع بتحويل الهزائم إلى انتصارات، تطوع من جانبه، وشرح بأسلوب عسكري أن الجيش سواء دحرهم أو لم يدحرهم، فزمام المعركة بيده، كان بذلك قد عمل حساباً لتراجع الجيش لأسباب تكتيكية، سوف يستعيد ما خسره، هذا من ضمن العملية التكتيكية نفسها، كما سيقال.

عقّب أبو حسين على صوابية تقديرات المهندس، بملاحظة كانت إشادة بالنقيب السابق.

«لاشك في أنك كنت ضابطاً ممتازاً في قطعتك العسكرية».

لم يلتفت لهذا المديح، أراد أن يضع الهجمة الإسرائيلية في منظورها العسكري، فقال:

«هذا غزو، فلنتوقع أي شيء».

أكد أبو حسين؛ إذا قرروا مواجهتنا، فالجيش سيمنعهم من تحقيق أهدافهم. وافقه المهندس:

«ليس هناك خيار آخر».

قالها وندم. المفترض إيراد تعليل يختلف عن عدم توفر خيار آخر، وهو أن يبادر الجيش إلى الهجوم، لا الدفاع. لحظتها خطرت له نصيحته التي نبّهه إليها في لقائه الأول به، وطلب منه وضعها نصب عينيه، عين على السياسة، وعين على الأرض. لن يدعها تمر دونما مفعول فوري،

يثبت أنه على مستوى الموقف والنصيحة معاً.

وقف، ولو بدا وقوفه أشبه بتمثيلية عسكرية، على أهبة الاستعداد، وتبرع بالذهاب إلى بيروت لينقل للقصر ما يجري على جبهات القتال. أحس، كما قال، بأنه مدعو ليقدم تقريراً من ساحة المعركة. وطلب تزويده بسيارة جيب مع سائق.

لم ترق لأبو حسين مبادرة المهندس الحديث العهد في القصر، كانت انتهازية بكل ما في الكلمة من معنى، باستعجاله على عمل يبزّ فيه غيره على نحو لا يستطيع الآخرون القيام به؛ بالخروج من الغرف المكيفة إلى الهواء الطلق. المهندس لا يدرك ما تنطّع له، قد تكون رحلة إلى الجحيم بلا عودة، بينما يظن أنه لن يشوبها إلا الدخان. أمر له على الفور بالسيارة والسائق. لم يسأله سوى عن موعد انطلاقه إلى بيروت.

الآن، أجابه المهندس. وكان الوقت صباحاً.

بعد نحو ساعة، اجتاز الحدود اللبنانية، صادف بعد عدة كيلومترات أرتالاً من الجنود يسيرون بخطوات واسعة على طول الطريق، بملابس الميدان الكاملة على رؤوسهم الخوذ المعدنية، ووجوههم ملطخة بالطين للتموية، بينما هدير الطائرات في العالي يضفي الأمان والخوف. لم يرفع رأسه، كانت طائرات صديقة. الآليات العسكرية تتوالى، شاحنات تمتلئ بصناديق الذخيرة، ضباط في سيارات الجيب، مدرعات وسيارات إسعاف، ناقلات تحمل مدافع مضادة للطائرات وراجمات الصواريخ، شاحنات محملة بمدافع المورتر ... بعضها يشق طريقه بسرعة جنونية، ظهرَ منها رؤوس الجنود يصرخون بالسيارات وأرتال الجنود المتعبين إخلاء الطريق لهم.

هذه التعزيزات المتدفقة هل ستمنع الاسرائيليين من التوجه إلى البقاع؟ على الأغلب، سوف يطردون الجيش السوري منها، لكن هذا مستبعد، حسب أخبار إذاعة لندن، هدف الهجوم الاسرائيلي اقتلاع مقاتلي منظمة التحرير من لبنان.

التفت الى اليمين، سيارة جيب محاذاته تزاحمه على الطريق، في داخلها ضابط. سأله عن الأحوال

على الحدود. الخبر وصل للضابط لتوه، تبلغه من عسكري اللاسلكي الجالس في المقعد الخلفي؛ الطائرات الاسرائيلية تقصف في الجنوب. فتح المهندس الراديو على إذاعة إسرائيل: الخبر نفسه، وتُسقط أيضاً منشورات تحذر السكان المدنيين للمناطق الحدودية من إيواء إرهابيي منظمة التحرير في بيوتهم، وتأمرهم برفع الرايات البيضاء على نوافذهم وشرفاتهم. فسأل الضابط، هل حصل اشتباك بين قواتنا والقوات الإسرائيلية؟

«اشتبكنا معهم في جنوب صيدا».

لن تقتصر الحرب على الفلسطينيين، سورية تورطت.

الاسرائيليون أصبحوا على مسافة لا تقل عن عشرين كيلومتراً. الحرب تقترب بسرعة محمومة، رآها تتقدم مع طلائع النازحين من الجنوب والقرى الدرزية، رجال ونساء وعجائز وأطفال، حملوا معهم ما توفر لهم من المتاع، واستقلوا باصات قديمة، وسيارات تنفث الدخان، قد لا تكمل طريقها إلى مقصدها، في رحلة لا يدرون منتهاها، هل يتابعون الطريق إلى سورية، أم يلجأون إلى بلدة قريبة؟.

أشار له سائق سيارة معطلة، في داخلها عائلته، أم وستة أطفال، صبيان وبنات، كانوا قادمين من الاتجاه المعاكس ينقصهم بنزين، محطات الوقود على الطريق مغلقة. كانوا في طريقهم إلى دمشق لديهم أقرباء فيها، فأمر سائقه بإعطائهم ما يكفيهم للوصول إلى الحدود.

تبادل الحديث مع السائق اللبناني، كان قد هرب لأن بيته على مقربة من أحد مواقع تمركز القوات التقدمية، نصبوا فوقه مدفعية مضادة للطائرات، متوقعين إغارة الطائرات الاسرائيلية.

طوال الطريق الى بيروت، لم يكف عن التزود بالمجريات على الأرض من النازحين والجنود المتمركزين بين الأحراش. الأخبار من الإذاعات تتلاحق؛ المطارات توقفت عن استقبال الطائرات أو السماح لها بالاقلاع، طائرة مدنية ضُربت على المهبط. الحركة شبه مشلولة، الأهالي يجوبون الشوارع والأحياء بحثاً عن محلات بيع الخبز والخضار. القذائف الاسرائيلية تضرب الضواحي، سفينتان حربيتان تقصفان الطريق الساحلي من البحر. طريق الدامور يقصف من

السعديات حيث توقفت دبابات السنتورين الاسرائيلية.

منذ لاحت بيروت، لاحت معها مواقع القوات الوطنية من منظمة فتح والاشتراكيين والمرابطون والمقاتلين الدروز. توقف إلى جانب الطريق عند حاجز عسكري سوري، حيث ربضت سيارة الصحية، وعربة اللاسلكي، وسيارة جيب. طمأنه الضابط بعدما اطلع على مهمته الصادرة عن القصر الجمهوري:

«لن نتخلى عن بيروت، سوف ندافع عنها حتى الموت. بيروت خط أحمر».

كان الضابط حمدان برتبة ملازم أول، فرز حديثاً إلى الموقع، ملامح وجهه القروية، لوّحتها الشمس، وانفرج فمه عن ابتسامة متحدية. دعاه إلى تناول الغداء معهم، كانوا في انتظار شاحنة توزيع الطعام.

لم يكن الملازم أول حمدان خائفاً، كان فتياً وشجاعاً، أساريره انبسطت، الحرب منحته فرصة ليثبت قدراته، كان تواقاً للاشتباك مع العدو، لكنه بثه مخاوفه، إذا زحف الاسرائيليون من الشوف الى الشمال وقطعوا طريق بيروت دمشق الدولي، فسوف يفصلون الجيش السوري في بيروت عن القوات في سهل البقاع، ولسوف تكون كارثة.

كان يستمع إليه، ويتابع ببصره جنود السرية المنتشرين في البساتين، كانوا صغاراً في السن لم يبلغوا العشرين من عمرهم، يحفرون الخنادق بحماسة، يتبادلون الأحاديث ويتصايحون بمرح، كأن شيئاً لن يحدث. لا يحميهم سوى مدفع مضاد للطائرات انتصب بين الأشجار، وسواتر من أكياس الرمل.

اعتذر عن مشاركتهم الطعام، عزم على متابعة جولته، وألا يطيل وجوده في بيروت لئلا يعلق في داخلها، زحام السيارات عرقله، الطرقات تعج بالنازحين، افترشوا الشوارع والساحات، واحتلوا الحدائق والمدارس والأبنية المهجورة.

كان الوقت بعد الظهر، عندما ظهر سرب من طائرات ف-١٦ عالياً في السماء، ترامت

أصواتها أشبه بالهمس قبل أن يراها. انقضّت الواحدة تلو الأخرى بسرعة، بهدير يصم الآذان، اقتربت فوق اسطح الأبنية والمنازل، كأنها ستخترقهم، رمت بقنابلها، ثم حلقت عالياً، مخلفة وراءها أعمدة من اللهب والدخان المتصاعد إلى الفضاء. الانفجارات الهائلة، هزت الشوارع وصدعت الأبنية. لاحقتها قذائف المدافع المضادة للطائرات، أطلقت عليها ولم تصبها، المسافة بعيدة جداً بينها وبين الطائرات المنسحبة، أقصى ما حققته تحول القذائف إلى شظايا تناثرت على الأرض. رفعت معنويات المقاتلين الفلسطينيين، شعروا أنهم يقاتلون.

حدد بنظره المواقع التي كانت الطائرات تلقي بقنابلها فوقها، كانت تغير على الفاكهاني، أعمدة الدخان تتصاعد من المخيمات الفلسطينية، تذكر: على مقربة منها كان موقع حاجز الملازم أول حمدان؟ إذا كان حزره في محله، فلن تحميه سواتر الرمال وخنادق لم يكتمل حفرها.

المعركة التي هدأت، أتاحت له التوجه نحو الفاكهاني، كانت الأبنية السكنية التي رآها قبل قليل منتصبة، قد انهارت على الأرض، دُمرت بكاملها، الغارة حوّلتها إلى أنقاض. أما موقع الحاجز، فأصيب إصابة مباشرة، ولا أثر للملازم أول حمدان، ولا لجنوده، التصقت بقاياهم المحترقة بحطام عربة اللاسلكي، سيارتا الصحية والجيب عجينة بلا ملامح، وانقلبت شاحنة توزيع الطعام على قفاها، وتبعثرت أرغفة الخبز، وسالت من الجالونات الممتلئة مرقة رب البندورة، والدماء أصبحت رماداً لزجاً أسود. أما المدفع المضاد للطائرات، فكان مشلوحاً بعيداً في البستان، طالعاً من الأرض القاحلة كشجرة جرداء.

ارتدّت عيناه عنهم، هذا هو المجد الذي طمح إليه الرائد حمدان؛ الموت ليس مجداً، حتى لو ضمه قبر الجندي المجهول، فسوف يكون مجهولاً بين لفيف لا يحصى لهم عدد من المجهولين. تلفّت حوله، لاشيء سوى الغبار، ورائحة البارود، والدخان. هذه الأرض لا تهمه، إنها أرض الموت، أما هو فيريد الحياة، وأن يعيش طويلاً، هناك في دمشق، ومن القصر الجمهوري، يضع عيناً على السياسة، والأخرى على الأرض. حقيقة واحدة، لا غيرها؛ العيش بأي ثمن.

التقرير الذي عاد به كان سلبياً، احتفظ به لنفسه، وأبرز لأبو حسين الجانب الايجابي للمعارك المحتدمة: معنويات الجيش السوري مرتفعة جداً، إرادة المقاومة متوافرة، وحتى النفَس الأخير.

لم يذكر له أنه لم يقابل سوى سرية واحدة من الجنود، قُضي عليها بأجمعها.

وكان لدى أبو حسين خبر جيد:

«جيشنا أوقف تقدم الإسرائيليين إلى ضهر البيدر».

بسبب الظروف الحاضرة، استنكف عن الإجازة المفتوحة، وغرق في متابعة التحركات السياسية والعسكرية؛ هوجمت محطتا رادار سوريتان ودمرتا، تقدمت بعدها القوات الإسرائيلية وطوقت المواقع السورية في جزين. بينما نجحت القوات السورية في تركيب قواعد صواريخ سام في البقاع. وجّه الاسرائيليون إنذاراً إلى سورية لتزيل شبكة الصواريخ. كان الإنذار خدعة، إذ في الوقت نفسه، قامت الطائرات الاسرائيلية بتدميرها. استمرت الاشتباكات يومين متتاليين، زجت سورية خلالها بطائراتها ضد الطائرات الإسرائيلية، وكانت معركة غير متكافئة.

لم يتمكن خلال متابعته الاشتباكات المؤسفة الأخيرة من التنبؤ بمزاج الرئيس، ما وصله عن رباطة جأشه، يؤكد أنه ما زال محافظاً على هدوئه. أبو حسين شاطر الرئيس مصائبه بشكل مبكر، حتى قبل ورود الأخبار. وكان في حالة يرثى لها، خسائر معركة الطائرات كانت هائلة، إسقاط ٧٠ طائرة سورية خلال يومين، خط الدفاع السوري انكشف، الجيش يواجه قوة تفوقه عدداً وتسليحاً، دونما غطاء جوي. الرئيس لم يعد على ما يرام، كان في حالة سيئة.

لم تعد الحرب تدور خارج الحدود، القوات الاسرائيلية قد تعبر إلى الداخل السوري. أصاب الذهول موظفي القصر. أبو حسين داري وجومه بطرح التساؤلات، ولم تكن إجابات المهندس الذي استعان بمعلوماته العسكرية وافية ولا شافية، كانت ترفع من حدة التساؤلات: هل سيندفع الاسرائيليون إلى طريق بيروت دمشق، ويعزلون القوات السورية في بيروت والجبال، أم يستديرون شرقاً ويهددون دمشق، ما الذي سيوقفهم عن السيطرة على العاصمة؟

اعترف أبو حسين، وكان ذلك في لحظات حرجة جداً: إذا لم يُستجب لطلب سورية وقْفُ إطلاق النار، فقد يمسي القصر الجمهوري تحت الاحتلال خلال أقل من أربع وعشرين ساعة، إذا حافظت القوات الاسرائيلية على اندفاعها.

كانت أوقات عصيبة. تكهربت الأجواء في القصر، اجتماعات الرئيس مع المبعوث الأميركي لا تهدأ، يتباحثان في إيقاف تقدم الاسرائيليين، الرئيس مهدد بالذات. وقف إطلاق النار تأخر، وحتى عندما وافق الاسرائيليون، كانوا يكذبون، قواتهم واصلت تقدمها، لكن نحو بيروت. دمشق سلمت منهم، الجيش السوري أوقف هجومهم، قاتل بضراوة، ومنعهم من اختراق طريق بيروت دمشق، كبّد الاسرائيليين خسائر كبيرة، وأرغمهم على التراجع في راشيا، القصر الجمهوري بأمان. الرئيس تنفس الصعداء، أبو حسين تمالك أعصابه.

استطاع الجيش وبتضحيات كبيرة إقامة مواقع دفاعية طوال أربعة أيام من القتال الشامل، والتراجع بانتظام؛ إسرائيل لم تحقق النجاح الذي كانت تأمله، غير أن قواتها حاصرت بيروت، وقطعت عنها الماء والكهرباء والغذاء، وكثفت القصف المدفعي والغارات الجوية، لإرغام المقاتلين في بيروت على الاستسلام.

لم تعد حرب الرئيس، باتت حرب الفلسطينيين بالدرجة الأولى، ولواء من الجنود السوريين الصامدين داخل بيروت. أخيراً نجح المبعوث الأميركي في وقف إطلاق النار والتوسط بإخراج مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، من دون أن توقف إسرائيل حصارها، أو قصفها المتواصل لبيروت بالمدافع والغارات الجوية والقنابل الارتجاجية والفوسفورية.

حصيلة الحرب كانت رهيبة، القتلى والجرحى بالآلاف، سبعون طائرة محطمة، ثلاثمئة دبابة بين مدمرة ومعطوبة، مواقع صواريخ سام مدمرة.

منذ وعى الدنيا، والعرب في حرب مع إسرائيل، غير أن العرب انسحبوا من الحرب، لماذا سورية فقط؟ ولماذا يربط الرئيس نفسه بحروب عبثية بلا جدوى، نكبات ونكسات وخسائر، من المستحيل التغلب على إسرائيل مادامت أميركا كلفت نفسها بحمايتها، واعتبرتها ولاية من ولاياتها. فليدع فلسطين للفلسطينيين، ولبنان للبنانيين، فليهتمّ بالجولان المحتل، ويسترجعه بالمفاوضات، لا بأس ببعض التنازلات، لن يعود علينا السلاح بالنصر.

استعاد المهندس خلال المعارك روحه العسكرية، لكن ليُدحر ويُهزم أكثر من مرة. ولقد فكر في

الفرار الى الضيعة. دمشق ليست مدينة آمنة، كانت بمتناول الطيران الاسرائيلي، يقصفها متى شاء. لم يخلع ملابسه العسكرية ليقاتل على الجبهات، خلعها على أمل القيام بأعمال ومهمات لا يستطيعها غيره، صحيح أنه لا يعرف كنهها بعد، لكنها لن تكون قتالية، القتال مهمة الجنود. من حسن الحظ، استطاع جيش البلاد إنقاذ كرامة الوطن.

كانت النهاية بائسة تماماً، لم يتمكن الرئيس من منع انتخاب عدوه الكتائبي رئيساً للجمهورية اللبنانية في ثكنة عسكرية تحت حماية دبابات الاحتلال. بيروت خرجت عن سيطرته، والمرعب أنها باتت تحت قبضة الاسرائيليين، عميلهم في بيروت سيحكم لبنان.

لم يُبح المهندس بآرائه لأحد، النتيجة، أن الرئيس يصنع أمجاده في الداخل، ويمنى بالهزائم في الخارج، وإن لّمح به لأبو حسين:

«لماذا لا يفكر الرئيس بأعدائه الداخليين، هناك أكثر من حماه».

وافقه أبو حسين؛ إنهم الأشد خطراً.

هذا الاتفاق في الرأي بينهما، حاذر كل منهما مناقشته، أدركا أنهما أخطأا بتحقيقهما تفاهماً جزئياً، تجنباه كأنه لم يكن، كان التوافق على أمر واحد فيه انتقاد لسياسات الرئيس، يوحي بالتآمر على الدولة، ما يشكل خطراً عليهما، فأسقطاه من الاعتبار فور التلفظ به، مجرد كلام عابر. وإن حاول أبو حسين إصلاح ما تفوه به قائلاً، بأن الرئيس لديه أولوياته، ودوافعه العظيمة. لم يعقب المهندس على كلامه، يعرف أن دوافع الرئيس عظيمة فعلاً، يريد بأية وسيلة سواء بالحرب أو السلام، استعادة الجولان التي خسرها عندما كان وزيراً للدفاع. كانت هذه أمنيته الوحيدة ليكتسب الشرعية، بدلاً من اكتسابها بالتقادم.

لم تشغله نتائج الحرب كثيراً، كان لديه ما يؤرقه، العمل الذي سيسنده إلى نفسه. طمأنه أبو حسين؛ ستجده. كان يعرف أنه ليس من السهل إيجاد وظيفة تكون على مستوى توقعات الرئيس منه، ليست على قيود ملاكات القصر الجمهوري، وإلا لأسندت إليه. ترى ماذا تكون؟

لو أنه نظر إلى داخله لعرف أن أي عمل لا يناسبه، سوى العمل الذي سيختاره. لكن ما هو؟! أو ماذا يجب أن يكون، ليس تكهناً، بل أقرب إلى اليقين، ينبغي أن يكون ضرورياً جداً، لا يستغنى عنه، ولا يمكن أن يقوم به غيره، الرئيس بحاجة ماسة إليه، ولا يفكر باستبداله بأي شخص كان؛ بذلك يصبح جزءاً لا يتجزأ من آلية العمل في القصر.

من كثرة ما وضع اشتراطات على عمله المستقبلي، أودى بنفسه إلى مأزق تعجيزي، أخفق في تصور عمل يجمع هذه الامتيازات والاحتياجات كلها. ما ذهب به إلى التوهان بين خيارات لا وجود لها، وفي حال أفضت إلى شيء، فلن يكون إلا أقل مما يريد، فبقي عاطلاً من العمل. لكنه لن يتوقف عن البحث عن عمل لا يلوح إلا ليختفي.

أخرجه من أفكاره السوداء صوت أنثوي على الهاتف.

٢

تذكّر أن هذا الصوت لفتاة قابلها قبل شهرين، أو أكثر، في مستشفى ازدحم بضباط وعناصر رجال المخابرات، وكان هناك محقق يحاول استجوابها. كانت مذهولة يبدو عليها عدم التصديق، أعطاها رقم هاتفه، لتتصل به إذا احتاجت لشيء.

الفتاة طلبت رؤيته، لم يتردد، ضرب موعداً لها في مطعم اللاتيرنا. من سخرية الأقدار أنه سينتظرها في مكان انتظر فيه حبيبها الرائد مروان. الحبيبة ستفي بالموعد الذي فاته.

لم تبد لميس أكثر من فتاة حزينة تلبس الأسود، تسريحة شعر عادية، ووجه خال من الماكياج، كشف عن جمال نضر بريء، بلا ألوان سوى الشحوب. الفجيعة تركت على ملامحها آثاراً ظاهرة؛ ربما رافقتها خفية طوال حياتها. رحب بها وواساها من جديد، صعب عليه حالها، لم يملك نفسه، لامها على ارتدائها الأسود، لا ينبغي لفتاة مثلها أن تدفن نفسها في الأحزان. يعرف أن مصابها أليم، نصحها بألا تنصاع له بكليتها، الحياة للأحياء، والموت للأموات، فلا تخلط بينهما. الحبيب مكانه محفوظ في القلب، هناك ذكراه لا تموت... وبعض الكلمات على هذا المنوال.

لن يختلف ما قاله عما ستقوله؛ ستحافظ على إخلاصها لحبيبها ما بقي من حياتها، لن يمنعها عن الانصراف بجد إلى دراستها الجامعية. ولن يرغمها الألم على التوقف عن الإعداد لمستقبل خططت له بالاتفاق مع مروان، كانت لديهما مشاريع كثيرة، الزواج بعد تخرجها من الكلية، عيادة في الريف، والتسجيل على بيت في جمعية سكنية، والتعاون على توفير المال لتسديد أقساطه الشهرية.

كانت تنظر إلى المستقبل، كما لو كان مروان ما يزال إلى جانبها، مشروعهما المشترك لن يتوقف، وكما فكرت من قبل بتجهيز العيادة، مبكراً قبل التخرج، تريد اليوم وساطة تمكنها من جلب الأجهزة والأدوات والمواد لزوم طبابة الأسنان بالتقسيط من لبنان عن طريق التهريب. كان مروان يعرف ضابطاً في الجمارك، وعده بتسهيل العملية، وتكفل بنقلها بسيارته وتمريرها عبر الحدود السورية. اغتياله أبطل العملية.

لم تكن هناك مشكلة ولا عائق في طلبها منه. هو أيضاً يعرف قائد دورية على خط بيروت دمشق، النقيب عثمان كان صديقاً له في حلب. قال لها ألا تهتم لهذا الأمر، وأن تعتبره محلولاً. لم يؤجل البت فيه، نهض على الفور، واتصل بعثمان من هاتف المطعم، فوعده خيراً، على أن يُعلمه قبل يوم واحد، ليرافقهم في طريق العودة من مركز الحدود اللبنانية، ويجتازا معه الحدود السورية من دون عوائق.

بكل أريحية، عرض عليها الذهاب معها إلى لبنان بسيارته البيجو، تشتري ما تريد ويعودان في اليوم نفسه. فابتسمت للمرة الأولى خلال الجلسة، أقبلت على الطعام، وشربت كأساً من البيرة، ودخنت عدة سجائر، الفتاة الحزينة تورّد خدّاها، واستأنست بالأجواء الخاملة للاتيرنا، ترنمت بصوت فيروز، وارتدّت إلى بساطة طبيعتها الأنثوية.

بعد يومين، انطلقا بسيارته البيجو إلى شتوره، قصدا وكالة بيع تجهيزات عيادة أطباء الأسنان. فوجئ في المستودع بضخامة الكراسي وتعدد أنواعها، أجهزة الأشعة وتحضير المواد والتعقيم... وغيرها، وعشرات وربما مئات من أدوات ومعدّات طبابة الأسنان، تستعمل للتقويم والحفر وإزالة التكلس، والمزج والبرد، والأوعية والملاقط، والحشوات...إلخ. سيارته لا تفي

بالغرض، فلم تشتر شيئاً منها، لكنها أخذت قوائم بأنواعها وأسعارها، ستطّلع عليها وتقرر ما تختاره منها.

في طريق العودة، التقيا بالنقيب عثمان، تعرفت إليه لميس، وأخذت رقم هاتفه. وعد بتولي العملية كلها من شتوره إلى دمشق، كان يعرف مهرّباً سائق سيارة بيك آب سيوصيه بالذهاب إلى الوكالة وتحميل مشترياتها وإيصالها إلى المكان الذي ترغب فيه.

بعد بضعة أيام اتصلت لميس بسليمان وتواعدا على الذهاب معاً إلى شتوره. دفعت ثمن تجهيزات عيادة كاملة. في طريق العودة، حصل الاتفاق مع النقيب عثمان على أن تتصل به بعد أن تدبر مكاناً تضع فيه الأجهزة واللوازم. بعد يومين، أعلمته لميس، المكان جاهز، قريب لها تبرع بإيداع الأجهزة في مستودعه بالقابون.

في طريقهما الى شتورة، كان يتكلم وهي صامتة تستمع إليه، أو تتكلم وهو يستمع إليها. كان الكثير مما يسترعي النظر خلال المشوار صالحاً ليكون مادة للحديث، الحرب في لبنان، شواهد الخراب، السيارات العسكرية على خط الذهاب والاياب، تداعيات الحرب على المدنيين اللبنانيين والسوريين، المآسي التي لا تنفك تتفاقم... وأيضاً السوريون الزاحفون إلى شتوره، يملأون السوبرماركتات، ومحلات الجملة والمفرق، لشراء ما يلزمهم مما تفتقده أسواق دمشق.

أخبره النقيب عثمان أن عملية النقل التي بدأها المهرب ستكون على دفعات، وتأخذ وقتاً لا بأس به. استقبلت لميس الخبر على الهاتف بغمغمة دلت إلى أنها لم تكن بخير، فاعتقد أن سوداويتها عاودتها، فلم يتوان عن لومها، لكنه كان مخطئاً، كانت تتثاءب. استيقظت لتوها من النوم، وصحت على صوته تريد أن تُسرّي عن نفسها، فعزمها على الغداء في اللاتيرنا.

هذه المرة، الفتاة الحزينة لم تعد حزينة، وجهها يضج بالحيوية تحت أضواء اللاتيرنا الخافتة، عيناها تحلقان في الفضاء العابق بالدخان، تتلفت، تشمل الرواد بنظراتها، ثم تحط على عرائش النباتات الخضراء، تتسلق الحواجز الخشبية الرفيعة بين الموائد وزجاج الشبابيك المنخفضة إلى الشبابيك العالية، تحدق إلى ما يتراءى على الجدران الحجرية، وكان مجرد غبش. نظراتها الساهمة

تنوس حالمة، تتناغم مع صوت رشاش نافورة الماء، وإيقاع الموسيقا، وصوت فيروز تغني... ع هدير البوسطة.

تأمّلها بشغف، أمارات القلق اختفت، بريق الأسى انسحب من عينيها، وحققت تقدماً في التخلص من آلامها الظاهرة، لم يبق سوى الخفية، تسرب منها أثر ضئيل إلى يديها، بدت في رعشة أصابعها، وهي تشعل سيجارة المارلبورو.

تحير؛ إذا تعلق بها، فقد أضاف مأزقاً آخر إلى حياته، كان المشواران معها إلى شتوره، قد رفّها عنه، وأحدثا تغييراً مثيراً في حياته بدأ يلحظه، كانا في الوقت المناسب، بعدما ضاقت به السبل وهو يراوح باحثاً عن عمل في القصر، لم يعثر عليه بعد.

المأزق؛ إحساسه بأنه يستلطفها، ويخشى التورط معها، لن يتحمل عبء مراعاة مشاعر فتاة، تهبّ عليها من حين لآخر ذكريات طافحة بالحزن، يرافقها منظر الحبيب راكعاً، خلفه سيارة المارسيدس، ورجل صوب مسدسه إلى وجهه. عدا أنه لم يلحظ تبدلاً طرأ عليها نحوه، ما كبح مشاعره نحوها. كاد اليوم بعد أن دعاها الى اللاتيرنا، وهو في طريقه إلى المطعم، أن يتصل بها ويعتذر عن الموعد. ما حقيقة عواطفها، هل تتحول نحوه؟ لا يدري. تابع إلى اللاتيرنا. رؤيتها ستواسيه في ما بدا محنة شخصية، لرجل عاطل من العمل، بحاجة إلى من يسرّي عنه.

لم يُقبل على الطعام، بينما انفتحت شهيتها على التدخين والأكل على مهل، والانطلاق في الكلام عن ماض ما زال حاضراً، لم تنسه، طاب لها أن تستعيده، احتل حبيبها الجزء الأكبر منه، وتعيش معه بالوهم لحظاتها الآسرة. توقفت عن الكلام، ورمقته بنظرة رقيقة، تعني أنها خصته بذكرياتها الجميلة، زودتها بتعزية متوترة عبّرت عنه ابتسامتها الباهتة وارتجاف شفتيها، وفي العينين يلمع بريق سرعان ما يخبو.

أحس بضيق، لم يرغب في سماع شيء عن حبيبها. إذا كان صلة الوصل الوحيدة بينهما، فالميت حاضر معهما ورقيب عليهما. تركها تسترجع اليوم الذي تعرفت إليه. بدا من فرط تأثرها، تخيلها حضوره، كما حضر فجأة قبل سنتين، وحددت الزمن بدقة، كان يوم ثلاثاء، ما بعد

العصر... كأنه يوم تاريخي!!

الساعة قاربت السادسة مساء، ضوء النهار آخذ بالأفول، كانت برفقة زميلاتها، نحو ثلاثين فتاة، أنزلهن الباص في ساحة عرنوس، وتفرقن في مجموعات، كل مجموعة من خمس فتيات، ذهبت باتجاه؛ ساحة الشهبندر، الصالحية، حديقة السبكي، الشعلان، شلّتها تابعت نحو مستشفى الطلياني...

شرد عنها، وذهب بحساباته إلى حيث لا شوارع ولا حدائق أو ساحات، إلى القصر الجمهوري الذي بات علّة قلقه وأرقه... يسمعها ولا يسمعها، لم تفته مصادفة الفتيات لبضع نساء يقفن أمام واجهة محل للفساتين النسائية. كل اثنتين أو ثلاث أحطن بواحدة من النساء المحجبات...

بعد ذلك فاته الكثير من مغامرتهن الجماعية، لم يسمع بالعجوز التي أحطن بها، أجبرنها على خلع حجابها، فبان شعرها الأبيض. ثم بالمرأة التي شتمتهن ورفضت خلع غطاء رأسها، فانتزعته إحداهن ورمته أرضاً، المرأة خجلت من سفورها، غطت رأسها بيديها، أخذت تبكي وتلعنهن. واحد من الباعة هرع إليها، أدخلها إلى محله وأعطاها شيئاً تستر به رأسها. مرت فتاتان في العشرينيات، اعترضت لميس الأولى، حاولت أن تعيد الكرة وتنتزع منديلها، فهجمت عليها الثانية وضربتها بحقيبتها على وجهها، سارع رجل يمشي على الرصيف، وحجز بينهن. كانت الفتاة الأولى قد اقتربت منها وشدت شعرها...

لم يستوعب مجريات معركة احتدمت فجأة؟ بدا كأن لميس تتحدث عن فيلم كوميدي، مراهقات يتعرضن لفتيات مثلهن، تتغالظ عليهن، أو يتغالظن عليها، وربما خناقة نسوان تختتم بطرفة، حادثة لا علاقة لها بها، مجرد أنها ترويها، لكن لماذا هي في داخلها؟!

أيضاً لم يستوعب كيف عاد مروان مسرعاً إلى الحياة؟ قفز من الرصيف المقابل. لا، كان حياً في ذلك الوقت. ضابط برتبة نقيب، يرتدي ملابس مدنية، ركض نحوها واعترض الرجل الذي حاول الفصل بينهن، ظن أن الفتاتين استقوتا به، دفعه وأخرج مسدسه، صوبه نحوه الرجل، وهدد الفتاتين بالاعتقال. تجمع العابرون وهدّأوه. لم يتحرك مروان من مكانه إلا بعد أن طلب من لميس أن تخلع عن الفتاة الثانية منديلها، وأن تمزقه، وتدوسه بقدميها.

«كانت بعد أن شدت شعري، ستشوّه وجهي بأظافرها، لولا تدخل مروان».

هكذا تعرفت إلى حبيبها في مثل هذا اليوم.

كانت لميس تحتفل بمرور عامين على ظهور مروان في حياتها.

لم يكن النقيب مروان آنئذ، عابر سبيل من المارة، كان برفقته عناصر من المخابرات، وبضعة جنود من سرايا الدفاع، يتابعون عن كثب، الفتيات اللواتي تخرجن من دورة المظليات، وكلفن بمهمة وطنية في شوارع دمشق، نزع الحجاب عن النسوة المحجبات، دون استثناء، حتى ولو كانت المرأة مسنة.

حركة جريئة هدفت إلى القضاء على ظاهرة متخلفة من العهود الرجعية، أخفق الاتحاد النسائي في التوعية منها، فأخذ قائد سرايا الدفاع على عاتقه إخراج النساء من الانغلاق الذي يرزحن فيه بتعريض رؤوسهن للهواء والضوء والعيون... ولو بالقوة.

«أصبن بالهلع، أحسسن أنهن فقدن شيئاً عزيزاً، لم يكن إلا خرقة».

كوفئت المظليات اللواتي قمن بهذه المهمة بتقدير من القائد، غير أن المكافأة المجزية كانت رفع معدلات علاماتهن في فحص البكالوريا، ما أهلهن لدخول الجامعة.

فاجأته لميس بأنها مظلية، أما المفاجأة الأكبر، فهي كيف تكون مظلية وهي دمشقية!! في سردها لحكاية دورة المظليات التي اتبعتها، ستفسر الفرصة التي اغتنمتها، صديقة لها ابنة عقيد في الجيش، توسطت لها، فقبلت بصفتها شبيبية، لولا دورة المظليات، لما كانت الآن في كلية طب الأسنان.

غير أن ما جمع بين مروان ولميس، كما خطر له، ليس أن ضابطاً في المخابرات أنقذ فتاة مظلية فقط، بل كونهما دمشقيين. الأغلبية الساحقة من الشوام يتعصبون لدمشقيتهم، لا يزوجون ولا يتزوجون إلا من بيئتهم، ما سيجنب علاقتها معه انتقادات الأهل والمعارف، لكن كيف تكون دمشقية ومظلية في آن واحد؟! ثمة سبب أقوى من هذا اللغو بالتخلف والتقدم.

لم يناقش الأمر، كان في غنى عن التفكير فيه، يكفي إحساسه أنه يجمعه معها شيء ما، ليس أنها مظلية، تعرف كيف تقفز من الطائرة، بل سبب آخر، لا يمنعها عن أن تكون حبيبة ضابط من الجيش، ولا أن يحميها جنود من سرايا الدفاع، وربما ليس لديها حساسية من العلويين... ووجد نفسه يسألها:

«ماذا لو لم يكن مروان دمشقياً، هل كنت ستحبينه؟».

«ما الذي خطر لك لتسألني هذا السؤال؟».

«الفتيات الدمشقيات ينفرن من الشبان الريفيين».

«صديقاتي أغلبهن من الساحل».

«ماذا عن الشبان؟».

«في البداية اعتقدت أن مروان علوي».

«لماذا؟».

«أغلب الضباط علويون».

أعجب بصراحتها، كانت تتكلم بلا محاذير، فتابع:

«هل كان الحب من أول نظرة؟».

«نعم، وأيضاً مروان، من أول نظرة».

فلمّح مداعباً:

«بالنسبة للمستقبل، هل ستميزين بين المدينة والريف؟».

حدقت إليه طويلاً، حتى أنها أحرجته؛ قالت بعد لحظات كانت طويلة جداً، حتى ظن أنها

لن تنتهي:

«لا، لن أميز».

أحالت سؤاله إلى تساؤل عن نفسه، وتقصدته بالذات. فارتبك.

لم يصمد أمام نظراتها، ولم يجد الكلمات المناسبة، فاجأته صراحتها بقابلية تحولها نحوه، أم أنها لم تقصده، هل تخيل جوابها ونظرتها إليه؟ لم يخطر له سوى أن يغادرا اللاتيرنا، قد يجد ما يقوله خارجه، لن يكونا وجهاً لوجه.

في الزقاق الجانبي المؤدي إلى شارع ٢٩ أيار، امتنع عن الكلام، كان يريد التأكيد على أن ما يربطه بها بات أكثر من كونها حبيبة صديقه، تقاربهما أدى إلى نشوء صلة ما بينهما، لن يحاول تفسيرها، ولا يخشى منها، لابد من قول شيء من هذا القبيل وغيره، ولو كان فيه اختلاق لمشاعر لا يحس بها، أو غير متأكد منها، حالياً ليست واضحة.

هل يثق بما لّمحت إليه؟ لا يجهل أن العلويين مكروهون، والدمشقيين مغلوبون على أمرهم، لا يغفرون لهم تسلطهم عليهم، ولا يتجرأون على إعلان نقمتهم، بينما العلويون يحسون إزاءهم بالدونية، ويرغبون في إخضاعهم. لميس لا تدرك هذه الحقائق، لكن في حال وعتها وتجاوزتها، فلا عائق في علاقتهما.

غير أنه في تلك اللحظات تردد، لا، ليس بحاجة إلى علاقة في النهاية لن تطول، بالنسبة إليها هو ليس إلا صديق حبيبها الفقيد. وبالنسبة إليه هي فتاة صادفها، شاءت الظروف أن يكون بينهما شيء، لا يستطيع الآن التنبؤ بتداعياته، على ألا يكون عاطفياً، لن يكرر هذا الجنون ثانية، استعبده لفترة طويلة، ولم ينج منه تماماً.

ثم ألا يعدّ هذا خيانة للميت، أن يسلبه حبيبته ولمّا يمض على مقتله بضعة أشهر؟

كان في تساؤله مراوغة، صداقتهما كانت مراءاة. لا، لم يصبحا صديقين، بل وعد بصداقة، هذا إذا كان الوعد جدياً، أثمر عن جلسة من بضع ساعات، لم يكونا بوعيهما الكامل، قررا التعاون

مستقبلاً من دون أي تعهد. في الحقيقة، عند أدنى خلاف بينهما، سيتخلى كل منهما عن الآخر، إن لم يغدر به.

لماذا يسترسل في حسابات أصبحت شأن الماضي؟ فليبق في الحاضر. مروان لن يشكل عبئاً عليه، وما قد يحصل بينه وبين لميس لا علاقة له بالخيانات الغرامية، أو خيانات الصداقة، الطرف الثاني شيع إلى القبر. ومعه شيعت الصداقة والغرام. ثم إن ما جمع بين مروان ولميس دمشقيتهما فقط، وشيء آخر قد لا يكون العاطفة. الحب آخر ما يجمع بين الناس.

في خضم أفكاره المتلاطمة، ازدادت الأزقة الضيقة ضيقاً. كان لابد من التسلل في عتماتها وخنق صداقة لا يجوز لها أن تمتد إلى ما بعد الموت. لن يخاتل ما يجول في خاطره، بوسعه أن يرمي بأية صداقة وراء ظهره. ماذا عما كان يريد قوله لها؟ مهما كان، لا يتلاءم مع ما استحوذ عليه. الكلمات عثرة، والتعبير عنها عثرة. ماذا يقول، وعن ماذا يعبر؟

أمسك بكفها وضغط بأصابعه عليها، فكان الجواب: أصابعها تضغط على أصابعه.

في السبع بحرات، أفلت يدها عند موقف باصات القصاع، قالت بضع كلمات كسرت بها صمتاً امتد من اللاتيرنا حتى الموقف. بينما يدها التي أفلتها، ارتدّت وأمسكت به.

«أريد أحداً يقف إلى جواري» قالت.

كانت بحاجة إلى حماية، تخشى الوحدة.

صعدت إلى باص القصور، عيناه لم تفارقها، التفتت ورأته من خلف الزجاج، فابتسمت.

بعد رحيلها، أحس أن لديه القدرة على أن يحبها، من دون الرغبة فيها، وإن لم يكن من أول نظرة، حب جاء على حين غرة، مجرد أنه وقع فيه، بعدما ظنه مستحيلاً. بمجرد وصوله إلى البيت، اتصل بها وصارحها بأنه سيوفر لها شيئاً أكثر من الحماية والرفقة، سمع صوتها منخفضاً:

«ما هو؟».

«الحب».

ردت عليه بخفر:

«هذا ما أنا بحاجة إليه».

في اللحظة نفسها، شفي من قصة رباب، وأصبحت جزءاً من ماض سحيق. أحس أنه على وشك أن يبدأ حياة جديدة. ترى كيف ستكون؟

في الأيام التالية، سيتخلص مما يؤرقه، لن يجهد نفسه باختلاق عمل في القصر، سيتنازل عن طموحاته، ويتواضع؛ لو أن الرئيس أراده في القصر، لوجد له عملاً، لكنه سخر منه، وتركه لأوهامه، سيجد عملاً في مكان آخر، المخابرات أو سرايا الدفاع، الثانية لن ينولها، تحتاج إلى موافقة قائد السرايا، لم يبق غير المخابرات، هذا ما يريده. حسناً لقد عالج نفسه.

ألحت عليه اختياراته، الاستعداد لها، بالذهاب إلى الضيعة، ومصالحة العائلة والأقارب والجيران. خامرته هذه الفكرة منذ سنوات، لكنه لم يجد الجرأة ولا العزيمة على تنفيذها، لن يؤجلها، سيقدم على ما عجز عنه مراراً، إنهاء قطيعة دامت طويلاً.

بعد ثماني سنوات، وطأ أرض الضيعة، لم يخبر أحداً، فلم يعلموا بوصوله. أراد لظهوره في الضيعة أن يكون مفاجأة. وجد الباب مفتوحاً كما تركه عندما غادرهم آخر مرة إلى حلب، كأن شيئاً لم يتغير، سكون ما بعد الظهيرة، غروب الشمس، موعد عودة أبيه من الحقل. كان قد رجع لتوه، أمه في الزاوية، أدارت وجهها عنه صوب الحائط، حاول أن يقبّل يدها، فنترتها من يده، وأخفت كفيها تحت إبطيها. قال أبوه:

«لا تحاول».

أدرك أنها لا تريد رؤيته، ولن تسامحه.

وكي لا يظنوا أنه عاد من أجل رباب، قال لهم إنه سيعقد خطبته على فتاة دمشقية، جامعية،

ستصبح طبيبة بعد سنوات قليلة، لم يقل لهم طبيبة أسنان، في الضيعة لا يعترفون بطبيب الأسنان، منزلته أقل، الطبيب هو الذي يطبب الجسم كله.

كما لم يجد مبرراً ليعلمهم أنه استقال من الجيش وأصبح في القصر الجمهوري.

لم تشفع له عند أبيه رتبته العسكرية، ولا سيارة البيجو. أبوه تضرر بفعلته، مجايلوه من الرجال، لا يغفرون خيانة رجلهم عبد اللطيف ابن الضيعة.

٣

تطلّب التآلف مع الحياة في المهجع، مرور بعض الوقت ليعتاد الرقم ٧٧ على الأنظمة والقوانين المرعية، مع أنها لا أنظمة تُنظّم، ولا قوانين تُراعى، إلا إذا كانت تنظيماً لأوقات التعذيب، ومراعاة لإيقاع أكبر قدر من الأذى، فالدوام في تدمر يبدأ بالضرب وينتهي بالضرب، إلا إذا كان هناك ما هو أكثر، وربما أقل، لكن الخوف ذاته. لم يعتادوا على هذه الاجراءات وترتيباتها التي لا أول لها ولا آخر، طالما تخضع لأمزجة موتورة وحاقدة. لكن ساعدهم رئيس المهجع على التأقلم، وهو ليس رئيساً معتبراً، وإنما واحد من المساجين، يتعرض مثلهم للضرب والإهانة، ونصيبه من الصفعات والبصاق أكثر من غيره. من مهماته تنظيم دور جلب الطعام من خارج المهجع، وهي مخاطرة لها محاذيرها، فالذين يخرجون ليحملوه إلى الداخل ينالون قدراً وافراً من لسعات الكرابيج. كان تعيينه رئيساً لكي يصرخ عند قدوم الرقيب: انتبه، عند سماع صوت المفتاح يدور في قفل الباب.. فيسارع المساجين ويقف كل منهم إلى جانب مكان منامته. بعدها يصرخ بإيعاز: استاعدّ! فيستعدّون، الوجوه مرفوعة للسقف والعيون مغمضة. ثم يقدم الصف: المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب. يعقبه تفتيش وصفع ونعر وشتائم.

حفلات التعذيب، باتت في صلب توقعات الرقم ٧٧ اليومية، يفتعلها الرقيب أو غيره من العسكر، تبدو كأنها انصياع لهوس استحوذ عليهم، يستجلبون به المتعة ببث الهلع في نفوس المساجين بإسالة دمائهم والتسلي بإذلالهم، وكلما تعالت توسلات المرضى والجرحى، زادوا من عياراتها، مع التفنن فيها. كانوا يأنفون من ضربهم بأيديهم على وجوههم، فيدوسونهم

بأقدامهم، ويلبطونهم بأحذيتهم على الظهر والبطن. وإذا استجاروا بالله، يستعينون به على تحمل بلواهم، يصفعونهم بالشحاطات البلاستيكية، ويلقمونهم إياها في أفواههم. أما المزيد منها، فعقوبات بالغة القرف، يجبرونهم على أكل الصراصير والذباب.... لا ضير عليهم أو محاسبة، مهما غالوا في العقوبة، حتى لو تسببوا بموتهم. كان مسموحاً لهم قتل عشرين بالمائة منهم على الأقل، من دون مساءلة أو حساب، إذ هي مسألة تقديم وتأخير، ما الفرق إن تقدم موتهم إعدامهم؟

وكان خروجهم إلى الحمام، أو حلاقة الذقن وشعر الرأس، مناسبات لإيقاع الأذى بهم، بحلاقة تصيب الوجه بالجروح، وأجسامهم بالسياط، بذريعة تنبيههم إلى الاقتصاد في استخدام المياه، مع أنها متوفرة، لكن لئلا يداخلهم الإحساس أنهم بشر مثل غيرهم يحلقون ويتحممون.

أما منحة التريض، ففي باحة التنفس، وهي ساحة صغيرة أشبه بقبر بلا سقف، جدرانها عالية مسوّرة بأسلاك شائكة مكهربة. يمشون رتلاً بشكل دائري، الواحد وراء الآخر، زمناً لا يزيد عن نصف ساعة، لا كلام أو همس، ورؤوسهم منكسة. كانت بالنسبة إلى الرقم ٧٧ وغيره من الأرقام، على الرغم من مثالبها، رفاهيتهم القصوى والوحيدة. تنقل الرقم ٧٧ إلى عالم تنيره أضواء النهار، بخلاف مهجع لا تفلح الكهرباء في تبديد عتمته، يتكدس فوق أرضه الاسمنتية ما لا يقل عن مائة سجين، يختنقون بين جدرانه القذرة، بينما دورة المياه القابعة في زاويته، محاطة بجدران منخفضة، تكشف عمن في داخلها، تفصلها عنهم بطانية بالية، لا تستر عورة، تهب منها روائح الغائط والبول دونما انقطاع، تنتشر وتعشش في الفراغ، وتصبح الهواء الذي يتنفسونه.

يختلس الرقم ٧٧ في باحة التنفس، لحظة أو أقل، يلقي بها نظرة خاطفة بطرف عينه على ما حوله أو ما فوقه، تعيد إلى ذاكرته، عندما لم يكن رقماً ولا سجيناً، تبدل ألوان الفصول في دنيا كان يعرفها، وكاد اليوم أن ينساها، حتى اعتقد أن العام لا يزيد عن فصل أسود كئيب، وتاه عن باله وجود فضاء مفتوح للشمس الحارقة، والبرد القارس، والهواء المنعش، والرياح العاصفة، أو أن هناك سماء زرقاء، وأحياناً غائمة، وغيوماً بيضاء، وأحياناً رمادية.... صور،

يحرضها ما قد يصل إلى سمعه، في لحظات كانت كل سعادته؛ نداء بعيد لمؤذن إلى الصلاة، توشيه زقزقة العصافير...

وأحياناً يحرمون من وقت التنفس، قبل أن يكملوا دورتهم الأولى في الباحة، فتنقلب نشوة الشهيق والزفير إلى فسحة إضافية للشقاء، يبادرونهم بلسعات السياط والنرابيش... يا أخو الشرموطة، يا ابن المنيوكة.. لينسوا حليب أمهاتهم، ثم يحشرونهم الواحد تلو الآخر في الدولاب، يجلدونهم إلى أن تكل أيديهم، بينما مكبرات الصوت تصدح بالأغاني الوطنية في المناسبات القومية:

من قاسيون أطل يا وطني   وأرى دمشق تعانق السحب.

والاغاني الراقصة في الأيام العادية:

جيب المجوز يا عبود   ورقّص أم عيون السود.

عالم آخر، ولو كانت الجدران العالية تحيط به، والسماء مهما كان لونها، قد تنجح نظرة مختلَسة بالتنعم بمرآها، تؤنس الرقم ٧٧ وتعود به إلى عالم مضى، كأنه لم يكن، لكنه كان.

العقوبات لا تفاجئه بعدما أصبحت روتينية. التعذيب مسلط عليهم، يتوقعه في أية لحظة ومع هذا يباغته، يبدو بلا سبب، لكنه بسبب، ما داموا أحياء، فلا مفر منه. وقع أقدامهم يُدِبُّ الذعر في الأرقام كلها، بما تعدهم به من أوجاع لا تطاق. لو أنهم نظروا إلى ما آل إليه حالهم، لما أخطأوا الغاية منها. كانت تؤتي ثمارها، أجساد تذوي، وأرواح تتهاوت.

ولقد ذهب الظن به إلى أن العقوبات كانت من دون سبب، لكنه بعد حين لن يطول سيعرف أن بعضها بسبب. كانت الحرب العراقية الايرانية في أوجها، يتلقى المساجين أخبارها مما يتبادله حراس السجن. كانوا كلما تفاجئهم عقوبة، يعرفون أن صدام حسين سجل انتصاراً على ايران الخميني. كانت شدة التعذيب تتناسب مع حجم هزيمة الايرانيين، لا يكتفون بإخراجهم إلى الساحة وتعذيبهم بضع ساعات، قد يحرمونهم من النوم والطعام. لن تنتهي هذه العقوبات

المتصلة بالحرب إلا بعد سبع سنوات، عندما سمعوا من إذاعة السجن الداخلية صوت قارئ القرآن يتلو ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، فخمنوا أن قريباً لمدير السجن لاقى حتفه غير مأسوف عليه. فصمتوا وترقبوا، ولما طال الأمر، بدأ الرعب يتسلل إلى قلوبهم، إلى أن أطلّ الحراس عليهم من فتحة السقف وأمروهم بالانبطاح، وأخذوا يرمونهم بالأحجار الكبيرة والقرميد، ثم أخرجوهم إلى الباحة وأخذوا يضربونهم بالقضبان الحديدية، ويجلدونهم بالكرابيج، ما ذهب بهم إلى حافة الموت، عادوا منها مغمسين بالدماء والتراب. في مساء اليوم نفسه، وهم يداوون جراحهم، عرفوا بموت الإمام الخميني، كالمعتاد مما تبادله حرس السجن. كان هذا آخر عهدهم بالعقوبات التي أسبابها إيران والعراق.

ما غفل عنه الرقم ٧٧ سيلاحظه الطبيب عدنان، كانت حالة بديله الشقي تتردى من يوم إلى يوم. يجهل الرقم ٧٧ أن جسده لم يعد ملكه، مع أنه يحمله على عاتقه، أمسى بحوزة السجانين يتصرفون به كيفما شاءوا. نصيبه منه القروح والقيح والكدمات. لا يفهم الطبيب لماذا يكابد الرقم ٧٧ هذه الآلام، فشجعه على الانتحار. الرقم ٧٧ لم يصغ إليه، الصفعات أثرت في سمعه.

غير أن الرقم ٧٧ سيلاحظ في ما بعد، الملاحظة نفسها، عندما لمح أجساد رفاقه وهم يبدلون ملابسهم، فتعرف إلى ما حلّ بجسده؛ سحجات حمراء اللون، وجروح غائرة على أديم بشرة ممزقة، حفرت بخطوط عريضة وضيقة تحجرت بالدماء. أما الروح، فلا تستوقفه، كانت لا ترى.

يبدأ الليل، وتبدأ معه الكوابيس، لا يميز الرقم ٧٧ بين أصواته الغامضة ذات الأنفاس القلقة؛ وبين كوابيس المهجع الخشنة، تستمد أصواتها من السعال والخرير، وتستقي حشرجاتها من فساد الهواء وتخمرات المجاري والوخم والقاذورات، تصاحبها أحلام الأنين والشخير والدموع، واختناقات الظلام... رؤوس الحراس تطل من السقف، يراهم مغمض العينين، مشنف الأذنين، يلتقط بسمعه الواني، انسلال رفاق المهجع من تحت البطانيات قبل شروق الشمس، وتقاطرهم إلى دورة المياه، يتوضأون ويعودون متلطئين على رؤوس أصابع اقدامهم، يلتحفون بالبطانيات ويصلّون بالإيماء.

لم يكن الرقم الوحيد الذي غاب عنه وجهه الآخر، الشاب حسان أيضاً أبعدوا عنه أسامة شقيق روحه، فأمسى كالضائع من دونه.

توثقت العلاقة بين عدنان وحسان، بعدما جمعته به عقوبة همجية صباحية، أخذ فيها الرقم ٧٧ نصيبه محشوراً في الدولاب خمسين جلدة بالكابلات في الساحة الغاصة بأمثاله يزحفون على الأرض. لم يكن قد نهض بعد، عندما استفرد به الحراس ثانية ومرغوه على الأرض دفعاً بأحذيتهم. لم يكتفوا، طالوه بالعصا على رأسه، ففقد وعيه. عندما فتح عينيه وجد نفسه في المهجع ممدداً على قفاه، وحسان يمسح وجهه بالماء، لم يكن أقل منه إنهاكاً، بعدما حمله على ظهره وعبر به الساحة، ونال نصيبه من الجلد.

ما فعله حسان كان عادياً، السجانون يظنون أن المساجين الكبار في السن قادة في التنظيم، فيضاعفون لهم العقوبات، فيسارع الشبان إلى تحملها بدلاً عنهم، ولا يترددون بأخذ دورهم في سخرة الطعام، ويراعونهم أيضاً بإيثارهم بالنصيب الأكبر من الطعام.

حسان أنقذه، مع أن عدنان لم يكن من كبار السن، حسان في عشرينياته، وعدنان قارب الأربعين، أصبحا أصدقاء، وأصبح أيضاً صديق صديقه أسامة الشاب ذو الوجه الشاحب والعينين الخضراوين، كانا متقاربين في العمر، حسان يكبر أسامة بسنة واحدة، جمعت بينهما أقبية المخابرات ثم سجن تدمر. قبض على حسان قبل سنتين وهو يحاول الهرب من حي البارودية، إثر مداهمة القوات الخاصة، كان من عناصر المقاومة المدافعة عن الحي، أصيب في قدمه، لم يتمكن من الانسحاب، نجح في الاختباء، نزيف جراحه ترك آثار دماء كشفت عن مكانه بعد يومين قضاهما بلا طعام. قبض عليه وتعرض إلى استجوابات مضنية، صمد ولم يغير روايته، مع أنه أشرف على الموت أكثر من مرة. ادعى أنه كان عابراً في الحي يزور أقرباء له، وأصيب في قدمه من جراء تبادل النيران بين الجيش والعصابات الاسلامية. أخفق رجال المخابرات في الحصول منه على اعتراف يدينه. في المحكمة، لم يُبرّأ، راودهم الشك فيه، لمجرد القبض عليه في منطقة حصلت فيها اشتباكات مع مقاتلين اسلاميين، فحكموا عليه بالسجن خمس سنوات، ولا يعني انتهاء المدة الإفراج عنه، قد يتأخر إلى سبع أو عشر. لو أنهم قبضوا

عليه إبان حصار حماه، لما نفعه إنكاره.

بينما قبض على أسامة في حماه خلال الاشتباكات التي سبقت الحصار، تعرض إلى تعذيب وحشيّ استمر عدة اسابيع متواصلة، وكاد أن يلفظ أنفاسه، إلى أن اعترف باغتيال ضابط في الجيش. جاؤوا به إلى المخابرات العسكرية، وكان مشرفاً على الموت، فالتقى بحسان، لم يتوقع أحد أن يعيش، لكنه تعافى، عناية حسان الفائقة به، ورعايته له طوال أشهر، أنقذتاه من الموت. جاء إلى تدمر موعوداً بحبل المشنقة.

كان سرير حسان بجوار سرير أسامة، ضَبَطَهُما العسكري المناوب يتكلمان ليلاً، فعوقبا في الساحة. عادا إلى المهجع والدماء تسيل من أكواعهما وركبهما. لم يلفتا النظر؛ العقوبات عادية والدماء عادية. اتكأ أسامة على ساعد حسان، مضيا يعرجان إلى مكانهما، ورفعا إشارة النصر، تحدّ لإدارة السجن، وبما أن الإدارة لن تعلم، لم يتوقع أن تخلف عقابيل. لكن الإدارة علمت بها، هناك من وشى بهما.

في التفقد المسائي، دخل الرقيب كالصاعقة ترافقه زبانيته، شتم الإسلام والمسلمين، وعرج على تنظيم الاخوان المسلمين وشبههم بقوم لوط، وأشار بيده إلى حسان وأسامة، فانقض عليهما العسكر وأشبعوهما ضرباً بالعصي، وصوته يلعلع في المهجع، ما شبعتو نياكة يا عرصات، يا اخوات الشرموطة ... سيل من الشتائم، لم يستثن منها الأديان كلها. علا صوت الشيخ كريم مذهولاً، أستغفر الله. فاستشاط الرقيب غضباً، لم يضربه، أهانه بما هو أقسى: قال له، هذا مهجع المنايك، وأنت شيخهم العرصة.

العقوبات لم تؤثر في حسان وأسامة، ولم تردعهما تهديدات الرقيب، أو يأبها لتنبيهات الشيخ كريم. لم يغيّرا عادتهما، كأن شيئاً لم يكن. أما الواشي، ولم يكن مجهولاً، فتوعده حسان بالقتل، فخاف وكف عنهما. تناقل السجناء الحادثة، وأثارت من القيل والقال ثرثرات آنستهم عن العاشق والمعشوق، وجدت طريقها إلى قلب عذاباتهم، وأخذت حيزاً فيها. كانت سلوى لهم في محنتهم، خففت عنهم، ردتهم إلى حياة كانت تعج بأقاويل من هذا النوع وغيره.

الشيخ كريم لم تهن عليه سمعة المهجع، فلم يشفع لحسان أنه حمل السلاح في حماه قبل سنوات نصرة للإسلام، وشارك بحرق مكاتب الحزب الكافر والمؤسسات الاستهلاكية، ولا كون أسامة من القيادات الشابة في الطليعة المقاتلة، وقيامه بالتخطيط لاغتيالات ومشاركته بها. استعاذ بالله من شر صداقة مشبوهة أصبحت مضغة في الأفواه، وهددتهم بالويلات، وأساءت إلى المسلمين والإسلام.

أسرّ الشيخ كريم لعدنان بما يقلقه، إن لم يبتعدا عن بعضهما، فزملاؤهما المساجين سيجبرونهما بالإكراه، هذه العلاقة يجب أن تنفصم، والأفضل بالحسنى.

«حسان يكنّ لك الاحترام، وسوف يستجيب لك».

لم يعرف الشيخ كريم أنه كان يتكلم مع الرقم ٧٧ وهو يظنه عدنان، ومع أن مكان منامته إلى جوار منامة عدنان، لم ينتبه إلى ما طرأ عليه من تغيرات، فلم يكتشف الالتباس الحاصل بينهما. الرقم ٧٧ تفهم الأمر، وهو إقناع حسان بالانتقال من مكانه بجانب أسامة إلى مكان آخر بعيد عنه. تسهيلاً للعملية، سيتنازل الشيخ عن مكانه بجوار عدنان إلى حسان.

تحمس الرقم ٧٧ ، رغب صادقاً في تنفيذ ما طلبه منه، وساطته ستوفر على السجناء، وعلى رأسهم حسان وأسامة، أقاويل وعذابات هم بغنى عنها، هذه الأجساد لا تحتمل وجبات إضافية من التعذيب والإهانات البذيئة، يكفي ما نالها، وما سينالها.

عدنان، سمع ما دار من حديث بينهما، فحرّض الرقم ٧٧ على عدم تنفيذ ما وعد به. غاظه أن تنحو قصة الشابين هذا المنحى التجريصي، والتهويل من تأثيراتها على الاسلام والمسلمين!! نظر إليها بخفة، أثارت في ذاكرته بعض المنسيات الطريفة عن اللواطة واللواطيين، قصة تافهة كهذه، اللغو فيها يسيء إلى الشابين، ويعيب من يتكلم فيها أيضاً، ولا تستأهل هذا التعنت.

بعد يومين، استوقف الشيخ كريم الرقم ٧٧، وعاتبه على تأخره في القيام بالوساطة. وبالمصادفة كان في تلك اللحظة عدنان، فقال له:

«يا شيخنا بإصرارك على ما تطلبه تثبت أن ادعاء الرقيب صحيح».

استاء الشيخ من نكوله عن وعده:

«حتى لو كان الادعاء غير صحيح، فالعلاقة تستثير الشكوك، سيوصم المهجع بما ليس فيه».

«إذا كان الرقيب افتعل هذه القصة، فلا ينبغي موافقته عليها والانسياق فيها».

لم يدافع عدنان عن جهل، كانت معرفته بحسان تؤكد أنه من النوع الذي من طبعه مساعدة الآخرين، من دون غاية أو مقابل، فاستنكر حرمانه من صديقه أسامة الأقرب إليه، وذكّر الشيخ بحادثتين كانا هما الاثنان طرفاً فيهما، عندما حملهما حسان من الساحة، وأنقذهما من التفعيس تحت بساطير العسكر. أليس في مخاطرته مبرر للشك فينا أيضاً؟!

معاذ الله! ما الذي تقوله يا رجل؟ قال الشيخ.

إذاً ما بالك تشكك من غير دليل ولا برهان، حسان وأسامة أصدقاء قبل أن يحلا في تدمر، لا تسئ الظن بهما، وتختلق لهما نوايا ومآرب.

غضب الشيخ؛ ما دام أنهما من هذا العمل براء، فالأولى أن يدرأا الشبهات عن أنفسهما.

فغضب عدنان أيضاً؛ هذا ما يريده الرقيب لنا، هو يتّهم ونحن نردد ما يقوله.

خرج الشيخ عن طوره، وهدد بالاستعانة بغيره للفصل بين حسان وأسامة بالقوة.

رد عدنان ضاحكاً؛ من منا يمتلك القوة؟ انظر حولك، ما الذي تراه؟ أغلبنا إن لم يكن كلنا عاجزون، أنصحك، كفّ عنهما.

من حسن الحظ، مع أنه في تدمر لا محل للحظوظ، مساء اليوم نفسه، غاب عدنان في أحلامه المنزلية. وحضر الرقم ٧٧، انتحى به عبد الرحمن سليمه، وكلّمه همساً: الشيخ كريم، كلفني بخنق حسان غداً ليلاً. فلم يصدقه، فأراه الحبل مربوطاً حول خصره تحت قميصه.

وتوفز الرقم ٧٧، لو عرف العسكر أن حسان مات مخنوقاً، فلن يهتموا بمعرفة ما إذا كانت جريمة، أو أنه مات قضاء وقدراً!! وحتى إذا أرادت إدارة السجن التحري عن الفاعل ومعاقبته، فقد احتاط الشيخ كريم بتوكيل التنفيذ إلى عبد الرحمن المحكوم بالإعدام.

تذكر الرقم ٧٧ حادثة في حماه قُتل فيها شاب لوطي، حينها اضطر عدنان الذي كان في تلك الأيام الخوالي طبيباً، إلى الكشف على القتيل. كان الفاعل طالب دين متشدداً، لم يلمه أحد، بالعكس قالوا سيؤجر على فعلته. قال عبد الرحمن، الشيخ وعده أن عمله سيكفّر عن ذنوبه في الآخرة.

«هل تفعلها؟».

«الشيخ أفتى بقتله غيرة على الدين، لئلا يستغل الرقيب الحقير هذه القصة، ويشين الجهاد والشهداء، وفي هذا إثم عظيم يقع على من علم به، ولم يغيّره، منكر كهذا تنفع فيه اليد، لا اللسان ولا القلب».

لم يكن عبد الرحمن يستشيره، كان يستنجد به ليخلّصه من هذه الورطة، فهو لم يقتل أحداً في حياته كلها، مع أن أعداءه يستحقون الموت. وإذا كان يدور ويلف حول الإثم والمنكر والآخرة، فليُهِبَ به المسارعة إلى التدخل باستعمال الكلام أي اللسان.

أمهلني حتى الصباح، قال الرقم ٧٧.

قبل أن يتكلم مع حسان، تكلم مع الطبيب عدنان، لئلا يُفشل محاولته، بعدما منعه قبل يومين.

في هدأة الليل، خاض معه نقاشاً مطولاً، أورد خلاله الرقم ٧٧ حججه ولم تكن ضعيفة: إذا كنا نجهل كنه هذه العلاقة، فالأفضل تجنب الكلام عنها، ولنأخذ صداقتهما على محمل حسن، لكن لابد من الحيطة، ربما تطورت إلى ما لا تحمد عقباه، ألم نسمع عن علاقة بدأت بريئة، فإذا بها انقلبت إلى فاحشة؟ ماذا تقول في هذا الجو، الجميع يفتقدون ملامسات حميمة، ومنهم حسان وأسامة، خاصة أنهما لا يعرفان المرأة، وتعلق الواحد بالآخر قد يذهب بالصداقة البريئة

إلى مسالك غير بريئة.

ورغم أن الرقم ٧٧ أكد أن بعض الظن إثم، لكن ينبغي إنهاؤها على خير كي لا تنتهي على شر. ما رأيك؟

استوقفت عدنان النهاية الشريرة، ما الشر في هذا الموضوع؟

فأعلمه الرقم ٧٧ بما أوعز به الشيخ كريم لعبد الرحمن. فتزحزح عدنان عما ارتآه دفعاً لجريمة قد ترتكب لقاء عدم تبصره في عواقب رأيه، فأخذ عدنان المهمة على عاتقه.

لم يمض اليوم التالي، إلا ونجح عدنان بإقناع حسان بتغيير مكان نومه. تقبّل حسان الأمر عن طيب خاطر، لم يرد للإسلام والمسلمين، والجهاد والمجاهدين، والشهداء والمعتقلين، أن تلحق بهم وصمة ظالمة من جرائه.

المرارة التي خلّفتها الحادثة في نفس عدنان، ولم يستطع التغلب عليها، أنه لم يقطع الشك باليقين، ربما لأن لكل سجين مأساة أكبر منه، وما ينتظره أقسى مما مر عليه، الأفضل ألا ينشغل بالهم بأمور يجهلونها ولا تعنيهم، وليسوا على يقين منها، لكن الحل طمأنه، وإن على مضض.

في مقبل الأيام، عادت هذه الخواطر تجول في رأسه، فقد لاحظ أن حسان وأسامة يغافلان الجميع ويتبادلان الكلام على الماشي، والتحيات من بعيد، أو يرسل الواحد منهما للآخر تذكاراً صغيراً، مسبحة، أو جزداناً... هذه الحركات كانت لتبدو طبيعية، لولا أن وجه حسان كان يتضرج بالاحمرار!! هل هذه مأساتهما أم سعادتهما؟ ترى إذا كان ما خطر له صحيحاً، فإنكارهما، كان كاذباً. ومع هذا لام نفسه، ونفى هذا الخاطر، مخافة أن ينضم إلى جماعة القيل والقال.

يغرق عدنان في تأملاته، ويغرق الرقم ٧٧ في مخاوفه، ينتاب الأول اليأس، وينتاب الثاني الرعب. كلاهما يتراجعان نحو الداخل، حتى افترقا أكثر مما هما مفترقان، في داخل كان شديد الإظلام، يفقد كل منهما نفسه فيه. لكن مع توالي الأيام، استرعى انتباه عدنان، أن التأمل لا

يعفي من التنبه، الرقم ٧٧ لم يعد كما كان، طرأت عليه بعض التحولات.

لاحظه بات يشتاق إلى الإغماءات التي تدهمه أثناء العقوبات في الساحة، كانت علاجاً مضاداً لحفلات التعذيب الهوجاء، وليس فيه شفاء. خشي عدنان أن يفقده في إحداها. دافع الرقم ٧٧ بأنها رحلاته الهانئة إلى موت أشبه بحلم، يدوم سويعات أو أكثر، يصحو منها على سطل من الماء الوسخ وسيل من الشتائم. عَذَره عدنان، كان الحلم، وسط دوامة العقوبات، فرصة مباركة لطلب الموت عن رضى وقناعة. لم يصبر إلا على أمل تحققه.

لكن حتى الموت، بات سراباً، مع أنه كثيراً ما لاح قريباً.

الساحة موطن الرعب، عندما يبلغ العذاب أقصاه، يصبح الموت رحمة، يتوق إليه هؤلاء الذين تتمرغ وجوههم بالاسفلت وكرامتهم في السخام. عندئذ تتبدى وعن غير قصد ملحمة البقاء على قيد الحياة في ذروتها، يشدّهم شعور مجهول إلى تحمل العذاب، ويجهدون بعناد للإبقاء على أنفاسهم تتردد في صدورهم، يتجاهلون نعمة الموت المتربصة بهم، ويتبارون ليعينوا بعضهم بعضاً على البقاء أحياء.

الرقم ٧٧ استسلم، لا مفر من العيش، ليس لديه خيار آخر.

بينما عدنان لن يفكر ببطولات وأبطال، مادام الرقم ٧٧ يناضل للبقاء حياً، فهذا من قصر نظره، أما هو فليغمض عينيه عما حوله.

الفصل السابع

ليس الأمل إلا خديعة

فجأة أصابني التجميد. أُبلغت صباحاً مع بداية الدوام الرسمي، بإيقافي عن العمل لفترة مؤقتة، هناك شكاوى ضدي. بانتظار النتيجة، تقصّى الأستاذ رشدي عن الأسباب، وكما تبين كانت سياسية، كنت من مدينة عاصية، جرى تصنيفي في اجتماعات الخلية الحزبية على أنني رجعي، طائفي... لا يوثق به، ناشط ضد مبادئ الحزب. التقييم كان كيدياً ومتعسفاً، غير أن الاتهام الذي استندوا إليه في طلب إقالتي من القضاء، كان قوياً، يجيز للحزب التحجج به وهو عدم انحيازي إلى الفقراء. كانت تلك دعوى حزب الكادحين التي لا ترد، وبالتالي لا أستحق أن أكون قاضياً في دولة البعث.

تذكرت أنه في الشهر الماضي اتصل بي مسؤول كبير وطلب مني فصل دعوى لصالح أحد الأطراف، قال إنه الأحق. حاولت أن أبيّن له، أن الدعوى على غير ما فهمها، فرد منهياً النقاش: دبّرها، هذا رجل فقير.

كان أغلب المسؤولين في الدولة يمنحون لأنفسهم حصانة تخولهم خرق القانون، عطاياهم

لأعوانهم لا تأبه بمصالح الناس، فكان الفقر مجرد كلمة، تمنحهم ذريعة لسلب الحقوق والأموال. لم أفهم لماذا عليّ الانحياز إلى اللصوص، حتى لو تحججوا بالفقر. اللصوص لا ينضب تدفقهم، ترحل جماعة أغتنت، لتحل محلها أخرى ستضاهيها، إن لم تفقها ثراء. خلال سنوات قليلة، كان على القضاء الخضوع لما هو سائد في التعامل من وساطات ورشاوى. وكان على العدالة الامتثال لهذا التطور.

تدخل الأستاذ رشدي، بدعم من حزبيين كبار، وتولى الدفاع عني، وأكد كفاءتي وسمعتي، فأعيد النظر بتجميد وضعي، وكُفّ النظر عن إجراءات كانت على وشك أن تتخذ بحقي، بتحويلي إلى المخابرات، تودي بي إلى مساءلات عن انتماءات حزبية محظورة، عادة لا يعود المرء بعدها إلى وظيفته، وقد لا يعود إلى بيته.

أصبحت على حذر من كل ما يصدر عني من فعل أو قول، اتقاء للوشايات والضغائن. كنت في موقف ضعيف، بينما كثير من القضاة كانوا أقدر مني على تسيير أمورهم على أحسن وجه. ولقد أراد بعض العارفين ببواطن الأمور اختباري، تحت زعم إعادتي إلى صوابي، فعرضوا عليّ الانتساب إلى الحزب، لأدرأ عن نفسي مكائد المخبرين، فاعتذرت، تحججت بأنه كان علي الإقدام على هذه الخطوة في وقت مبكر، أما الآن فسوف يفهم على أنه وصولية وانتهازية، ولو كانت من النوع الدارج الذي لا يؤبه به، ولا يُحاسب عليه. أردت أن أُعرف باستقلاليتي، وألا أحيد عنها، لكن ما أردته لم ينفعني.

حسماً لصدامات جارية ومقبلة، طلبت من الاستاذ رشدي استثنائي من القضايا التي قد تثير لغطاً. كان من الواضح أنني أصبحت تحت الرقابة، وكانت نزاهتي رصيدي الوحيد، والتشدد بها، دفاعي الأخير، لم أشأ خسرانها لئلا أخسر نفسي.

أمضيت الشطر الأول من حياتي العملية بعد تخرجي من الجامعة بين المحاماة والقضاء، مهنة ووظيفة حسدت نفسي عليهما، أبليت فيهما بلاءً حسناً، وأشبعت من خلالهما جزءاً من طموحاتي. كنت موعوداً بألا يؤثر عدم إعلاني عن آرائي السياسية على تدرجي الوظيفي، هذا الوعد لم يعد مضموناً. كما أن فجيعتي بعائلتي حطمت الجزء الأكبر من تطلعاتي، زهدت بطموحات شكلت

عامل اندفاعي في العمل، وقضت على أحلام، كان من السخافة أنني تقت إلى تحقيقها في ظل جرائم لا يجوز السكوت عليها، أو النأي بالنفس عنها. وإذا لاح لي عالم آتٍ أفضل، فمجرد حدس، أستعيد به حسن ظني بحياة في علم الغيب. حدسي لم يصب، وأنا أيضاً لم أبتئس.

تصورت أحياناً نهاية سعيدة لانتظار غامض، يعيش البلد على وقعه، وكان ضعفاً مني، الحقيقة لا تتكئ على الأمنيات ولا التمنيات. لا أنكر أن الأمل كان لحظات مسترقة من اللاجدوى، ما ورطني فيه، تحقق آمال راودتني خلال دراستي في كلية الحقوق.

حياة باتت مغلقة، بدا أنها ستمضي هكذا، وأنا سأمضي معها أتعيش على توقعات لن يتحقق شيء منها، وأتشبث برجاءات مخايلة، لا تمنع عني الأمل، إذ نحن نأمل لأننا نتخيل. حتى غدت هذه الكلمة ممقوتة بالنسبة لي، إذ ليس الأمل إلا خديعة، لا ينبغي أن تجوز عليّ. أعرف أن ليس في مثل هذا الزمان يتحقق شيء جيد إلا مصادفة، مع هذا تآلفت معه. على الضد مما كان يتراءى لي بين فترة وأخرى، ولم يكن مشجعاً أبداً، لم تؤثر فيّ العراقيل، وإن انخفض منسوب نشاطي، وبات محدوداً، مقتصراً على ما هو مطلوب مني لا أكثر.

في تلك الظروف غير الملائمة، راودتني بقوة فكرة الانتقال إلى حماه، حتى ولو كنت سأخسر عملي في القضاء، لم أجد ضيراً في العودة إلى المحاماة، كانت مهنتي، وسأكون حراً في ممارستها. لكن سيأتي من يؤجل انتقالي مرة أخرى إلى وقت آخر غير معلوم، ثم سيعقبه من سيفرض عليّ طريقاً آخر، بدا أنه سيعوضني عما سلف، كان هذا في ما بعد.

أما التأجيل، فكان الاستدعاء إلى التحقيق.

١

لم يمض اليوم الأول، حتى انتشر خبر قدوم النقيب سليمان في أرجاء ضيعة مغربال، وربما كان وصفها بالضيعة تقليلاً من حجمها وشأنها، فهي لم تعد قرية صغيرة، بعد الامتدادات العمرانية التي شهدتها طوال العقد الماضي. اشتهرت بأسواقها الضيقة، المتشعبة والمتلوية،

كانت بضائعها تغني أهاليها وأهالي القرى المجاورة عن السفر للتبضع من المحافظات القريبة، بل وتزيد عنها بالمهربات من الآلات الكهربائية الكبيرة كالغسالات والبرادات، والصغيرة كالخلاطات والسيشوارات، ومختلف أنواع السجائر الأجنبية. كانت أحد مصادر البضائع المهربة إلى الداخل. تميزت مؤخراً بمستوصف ومركز ثقافي يغص بالشعراء.

بعد فراق طويل، عانق سليمان صديق العمر أحمد، توارد بعده رفاق اليفاعة والتلمذة إلى رؤيته، وكانت لقاءات بالأحضان حافلة بالدعوات إلى سهرات ليلية امتدت حتى الصباح، وطلعات نهارية إلى مرابع الأمس، لا تزال على حالها، استعادوا فيها سالف الأيام. افتقد لميس، فاتصل بها عدة مرات، هي أيضاً افتقدته. أتاح لهما الهاتف تبادل الأشواق الحارة، تلك التي تعذر تبادلها وجهاً لوجه.

كان برنامجه ألا تزيد الزيارة عن يومين، خصوصاً بعد إخفاقه في مصالحة أبيه وأمه، غير أن الإجازة المفتوحة سمحت ببضعة أيام إضافية. ولقد أتاح له شعوره بالتفوق تجاه أقرانه التمتع بتميزه عنهم، ما زالوا كما تركهم على حالهم. توظف بعضهم في مرفأ طرطوس، وفروع اتحادات الفلاحين والعمال، ومؤسسات الدولة والمشاريع العائدة للمحافظة. أما من عملوا في التهريب، فقد أفلحوا وظهرت عليهم آثار النعم والبطر. لو بقي في الضيعة، لما زادت مساحة العالم عن بضعة كيلومترات مربعة.

ما جرى من متغيرات، سمع بها من رفاق المدرسة الذين تطوعوا في الجيش والمخابرات، جنوداً ورقباء، التقى بهم في أوقات متباعدة، عندما كان طالباً في الجامعة، وصادف العسكريين منهم فيما بعد في قطعات الجيش. زودوه بأخبار الضيعة، كما زودوا الضيعة بأخباره، فعرف أهالي الضيعة عن سلطته كضابط أمن، وما يروج عن معرفته بالرئيس. لم يستغرب تقربهم منه، ومديحهم للرئيس أمامه، على سبيل توثيق علاقتهم به، والزعم أنهم من أصدقائه الحميمين.

المكانة التي بلغها في أنظارهم، كانت أكبر من حجمها، فلم يأت على ذكر استقالته من الجيش، لئلا يستهينوا به، كما لم يتطرق إلى وضعه الجديد، مع أن التبجح بانتقاله إلى القصر الجمهوري، يكفي ليعتقدوا أنه قادر على فعل المعجزات، وقد يكلفه تنفجه ما يثقل عليه، ويحمّله أعباء

مشاجراتهم في شوارع وملاهي دمشق وحلب، يستغلّون ارتداءهم بزّاتهم المبرقعة ولهجتهم العلوية في التعدي على الناس.

لم يقل سوى لصديقه أحمد عن منصبه الجديد المجهول.

أما المتغيرات الأخرى، فكان بحاجة إلى دليل في الضيعة يرشده إلى ما يجري تحت سطح بدا راكداً وآسناً، وكاد أن يغادرها، وهو يظن الليل مثل النهار، يزيد عنه بشرب العرق وسماع السوالف، لولا أن أحمد لازمه في مشاويره، وتقصد أن يطلعه على ما يجري في المنطقة، فجمعه بمشايخ الدين الكبار في السن والذين أثنوا على الرئيس، وأبدوا تذمرهم مما آل إليه حال البلد. لم يلتفت إلى ما قالوه، أحمد نبهه إلى أن الكلام الفصل والوازن هو للشيخ حامد، كان كبيرهم وأكثرهم علماً، ومن الراسخين في الدين، فتعمد سليمان التوجه بالكلام إليه، لكن الشيخ النحيل الضئيل الجسم ذا اللحية القصيرة، اعتصم بالصمت. كانت مهابته ملحوظة.

انتقادات المشايخ كانت متوقعة. يعرف ما يريدون، أن يستقدمهم الرئيس إلى دمشق كل فترة من الزمن، ويستشيرهم في الشاردة والواردة، لكنه تجاهلهم، واستشار أفراد عائلته ومن يلوذون بها. لم يأبه سليمان بشكواهم، مشكلتهم تتلخص في أنهم لم ينالوا حصتهم من عطايا الدولة، بينما غيرهم أخذوا أكثر مما يستحقون. لكن، وهذا ما يعرفونه، لا يستوي الساعون إلى دولة البعث مع النافرين منها. وإذا كانوا لم ينتفعوا، فلتقصيرهم نحوها، ولمخاوفهم منها.

بلا مواربة، يريدون من الرئاسة التمسح بهم، مكانتهم الدينية تمنحهم الأفضلية على الآخرين. ولقد قال أحدهم، لا منّة للدولة علينا، عندما تتقرب منا، لا تباركنا، نحن الذين نباركها، الدولة سائرة إلى الضياع. حجتهم؛ أن الدولة تتعطل بالضلال، وتسير أمورها بالبركات. كان النقاش معهم لا يجدي.

أخيراً تدخل الشيخ حامد، لم يأت على ذكر مناقب الرئيس، بل حدد رأيه فيه، كان غير راض عنه. أهمل مناطقهم الفقيرة، وسلبهم أبناءهم، زين لهم العمل في الجيش والمخابرات،

واستخدمهم أجراء زعران يعيثون فساداً في دمشق وحلب. إن ما يلحقونه من أذى بالناس يلصق بالطائفة، ما أساء لسمعتها، وهي منه براء. فعقّب سليمان على كلامه:

«للسلطة حساباتها، تسكت عن زعرناتهم لتخويف أمثالهم من الزعران».

اضطر للرد، لئلا يُبلغ أحدهم العاصمة أنه اكتفى بالسماع، فتؤوّل على أنه وافقه على انتقاداته. استغل اعتبارهم له ممثل الرئاسة وتكلم عن توجهات الرئيس الوطنية والقومية، ركز على أن لها الأولوية في وقت تحاك فيه المؤامرات ضد سورية، وتتكالب عليها القوى الدولية الاستعمارية. أطال في تبيان حجم الهجمة على البلد كي لا يعطي أحداً منهم فرصة للمماحكة، الموضوع أكبر مما تعتقدون، وكما رأيتم وسمعتم، لا أظنكم غافلين عن الفتنة في حماه، لو أنها لم تسحق، لدكوا الجبل فوق رؤوسكم، وأمسى الساحل خراباً.

قاطعه الشيخ حامد: نسمع مثل هذا الكلام عن المؤامرات يومياً في الإذاعة. الجبل والساحل في أمان وأنتم تعرفون، أما الخراب، فكان دمار حماه. في الضيعة والقرى المجاورة يظنون ماجرى انتصاراً للطائفة على السنة، ليت الرئيس عالج الفتنة بلا شعارات طائفية، واقتص فقط من الذين افتعلوها.

فوجئ بانتقاده، كان أكثر ما يكرهه أن يكون في موضع المتهم، وليس بوسعه الدفاع عما لا يدافع عنه. وعندما أراد التعليق ولو بكلمتين، أسكته الشيخ حامد:

«قتلى حماه بالآلاف والسرقات بالملايين، المنهوبات من البيوت والمحلات كانت تصل إلى القرى ليل نهار، وتباع علانية في الأسواق».

«هذا شيء لم يحدث» قال سليمان.

«المصاغ المسروق، خصوصاً الخواتم، كانت عليها آثار دماء».

«لا يخلو الجيش من ذوي النفوس الضعيفة».

«وهناك من جلب معه تذكارات؛ أياد مقطوعة وآذان مصلومة... ألا تسوّغ هذه الأعمال اضطهاد الطائفة في المستقبل، وكل هذا كي تستأثر فئة بالحكم».

لبث فترة يحدق الواحد في الآخر. لا شيء يقنع الشيخ حامد، أو يرضيه. الله فوضه بمحاسبة الرئيس. ليت الظروف كانت مساعدة، لَوَضَعَ في رأسه رصاصة وأنهى النقاش معه:

«لاتنس، هم الذين بدأوا».

«لا تقل هم، قل مجموعة ناقمة على الدولة».

كان مجبراً على الاستماع إليه، تابع الشيخ حامد:

«ولكي تدرك نتائج ما قد يحصل، المجانين هنا يأملون بالانتقام من السنة، يعتقدون أنهم يحللون قتل العلويين، هذا من مآثر الجيش في حماه، وكل هذا يهون إزاء العبث في الدين».

ثم نهض دونما انتظار جواب. عند الباب استدار قائلاً:

«أنا خائف على الطائفة». وغادر المكان.

تغير الحديث بعدها، تجنبوا التعليق على ما دار من كلام. قالوا وقال، سألوا وأجاب، طلباتهم كثيرة، والخلاف على الحصص، وعدهم بإيصالها إلى سيادة الرئيس، سينظر بها ولن يخيبهم.

في اليوم التالي، أرسل له الشيخ هاني مع أحمد دعوة إلى بيته، واشترط مجيئهما ليلاً، وألا يراهما أحد. لم يكن للدعوة مبرر، الشيخ هاني كان في جلسة البارحة، واستنفد مع المشايخ ما أراد قوله. قال أحمد، يريد أن ينفي عن نفسه أي اتفاق في الرأي مع الشيخ حامد.

تمحور حديث الشيخ هاني حول الرئيس، وكلما أتى على ذكره، لفظ اسمه بإجلال، وأتبعه بـ حفظه الله، وأدامه فوق رؤوسنا، ووفّقه لما فيه خير شعبنا. تململ سليمان، وصبر عليه طويلاً. أخيراً بعد أن دعا للرئيس بالسؤدد، أبلغه بمراده، سيحمّله أمانة، ولكي يضفي عليها الأهمية،

اقترب بإصبعه نحو وجهه، حتى كادت أن تدخل في عينه، ونبهه بصوت خاشع إلى إيصالها الى مقصدها، إلى سيادة رئيسنا الغالي:

إن الشعب العلوي كان موعوداً بقدومه منذ زمن طويل، علامات ظهوره كانت تلوح بين الحين والآخر، لا يراها سوى عباده المصطفين بالبصيرة والعقل، وليس كل من تمشيخ. لقد أرسلت إليه رسائل بهذا المعنى، ولم أتلق جواباً منه. أخشى ألا تكون قد وصلته. قل له، البشائر لا تكذب، إنها صادقة.

ثم أبرز رقعة خُطّ عليها بالحبر الأسود المرقّش باللون الأحمر؛ دوائر ورسومات وأبراج وطوالع وأرقام، كانت عن ولادة الرئيس تحت برج الميزان، وتسلمه عرش سورية عام ١٩٧١ .. وسوف يظفر بمجد ما بعده مجد. أما النبوءة بمدّة حكمه، فمذكورة في كتاب الجفر لعلي بن أبي طالب، أن علوياً سيحكم سورية عدة عقود، ثم يأتي ابنه من بعده...!! لن يكمل، لكنه يحذّره... سوف تفيض الدماء في سورية، وما فتنة السنة في حماه إلا بعضاً منها، وللنبوءة بقية، سيعلنها في حضرة الرئيس شخصياً.

بعد تلاوته لرسالته، قام بتعيينه مرساله الخاص إلى القصر الجمهوري، وكان في تكليفه بهذه المهمة العظيمة تكريم له. أتبعها الشيخ بعبارة ملغزة، لا يخفاني شيء.

دهش سليمان، كأنه كان يعرف بأنه توظف في القصر، فوعده بإبلاغ الرئيس برسالته. وقال لأحمد مستغرباً بعد خروجهما:

«ما أدراه أنني في القصر الجمهوري؟».

«في الضيعة، لا عمل لهم سوى تتبع أخبار العاصمة، وكل منهم يحتفظ بما يرده من معلومات لنفسه».

«تنبؤه لا يخلو من صحة»، قالها ضاحكاً.

«تهبط عليه التنبؤات، وغالباً لا تصيب».

«هل يأخذها أحد على محمل الجد؟».

«العجائز فقط. هذا مجنون خرافات».

تساءل أحمد بعد صمت:

«ألا تشغلُ الطائفةُ بال الرئيس؟».

لم يكن يعرف، وإن كان متيقناً من أن الرئيس لا يأبه بالطائفة، إلا من ناحية أنهم حرز له واحتياط في يوم آتٍ، ولهذا يراعيهم ولا يحاسبهم على مزاعمهم إلا نادراً، لم يكن يخشاهم من هذه الناحية، كان على حذر من الذين فرض عليهم إرادته، ورماهم في السجون، أو انصاعوا له مكرهين.

٢

الزيارة شطت، وآذن وقت العودة إلى دمشق. ليلاً ودع سليمان الأصدقاء، على أن يسافر في الصباح الباكر، لكنه اضطر إلى تأخير رحيله إلى ما بعد الظهر. أحمد طلب منه زيارة صديقهم غالب، كان متوارياً عن الأنظار، المخابرات تسأل عنه.

لم يغب غالب عن ذهن سليمان طوال فترة الزيارة، كان حانقاً عليه، تجاهل قدومه إلى الضيعة، فتجاهله بالمقابل. وازداد حنقه عليه، بعدما عرف أن غالب لم يطلب من أحمد التوسط لديه بشأنه. كان الطلب تبرعاً من أحمد.

رده ذكره إلى صداقات اليفاعة الحميمة. كانوا أربعة، هو، غالب، عارف، وأحمد، ترافقوا منذ حداثة سنهم. نتائجهم في المدرسة كانت متقاربة، تنافسوا في العطل وأوقات الفراغ في مسابقات السباحة وتسلق الأشجار والمرتفعات الجبلية، والاختباء في الكهوف، والمبيت في العراء... مغامرتهم الكبرى اقتحام الغابات العذراء، تخيلوا أنه لم تطأها قدم إنسان قبلهم،

لكن دائماً هناك من سبقهم. تفوّق عليهم غالب في الدراسة، فأرسله أبوه إلى حلب ليدرس البكالوريا، وببعده عن شلة السوء، هيأ الإحباط العاطفي لسليمان حجة للحاق به، فتوثقت صداقتهما، لم يطل الأمر اختلفا. لحق بهم أحمد، انتسب إلى كلية الأدب العربي، ولم تكن تتطلب دواماً، فلم يتردد على حلب إلا فترة الامتحان. قضى سنواته الجامعية في الضيعة يعمل مع أبيه في الحقل، وحصل على إجازة في الأدب، وتوظف أستاذاً للغة العربية في إعدادية محافظة اللاذقية. أما عارف فالتجأ إليهم بعدما طرده أبوه من البيت، قضى معهم شهرين، ثم نزل إلى دمشق موعوداً بوظيفة في جريدة «الثورة»، التقيا في ما بعد، وسكن معه في غرفة مستأجرة في شارع العابد بعد تخرجه من الكلية العسكرية.

مهما حدث بينه وبين غالب، فقد كان صديقه الوحيد الذي اختلف معه على أمور ما زال لها صدى في نفسه، ترى ما حاله؟ كان بوسع غالب الاتصال به، ولن يعجز عن إيجاد مكان يلتقيان فيه. لكنه تعمد ألا يراه، ما زال ناقماً عليه، حتى بعد مضي سنوات طويلة، لم يتبادلا خلالها كلاماً ولا سلاماً. بالنسبة إليه، تضاءل ما كان يشعر به نحوه من غيرة وحسد، بعدما نال ما تمناه، بات على الطريق الصحيح، حقق ما يزيد عما كان يطمح إليه. اليوم مهما حاول غالب، فلن يدركه، سبقه بأشواط. سأل أحمد عن أخباره.

غالب لم يتغير، قنوع كما العهد به، تزوج وأنجب ولداً، وانكفأ بعد وفاة والديه، ورث بستان الزيتون والحمضيات. يظنون في المخابرات أنه ناشط في حزب يساري.

«يريد إسقاط الدولة» قالها سليمان ساخراً.

نفى أحمد أي نشاط سياسي عن غالب، الشائعات حوله بسبب انتقاداته الدائمة وسخرياته من سياسة الدولة وتعديات المسؤولين وتجاوزات تجار المهربات.

«ربما انتسب إلى حزب».

«لو كان في حزب، لدعاني إليه».

حالياً غالب مختبئ في عرزال بأعلى الجبل، كانوا يذهبون إليه معاً أيام الدراسة.

استجاب سليمان لدعوة أحمد إلى زيارة غالب، سيروي فضوله معرفة إلى أين ذهب حرص صديقه القديم على الحقيقة، هل أخذه إلى السياسة؟ لن ينافسه في هذا الحرص، الحقائق القديمة التي تهم غالب لا تهمه. كانت وليدة الفترة التي قضوها في حلب، وباعدت بينهما. كانا نقيضين، ومع هذا ترك كل منهما بصمته على الآخر، جمعتهما بقدر ما فرقت بينهما، وجعلت منهما عدوين لدودين، واقتنعا أن لكل منهما طريقه. غالب لم يحتمل المدينة الكبيرة، التكالب على الحياة فيها ضايقه، لاسيما تكالب شريكه في الغرفة على كل ما يمكن استغلاله، مع أن سليمان كان مشلولاً في ذلك الوقت عن الفعل والتفكير، في دخيلته كان يتحرق لفعل شيء، اهتدى إليه لاحقاً. انفصلا في حلب، غالب عاد إلى الضيعة، أما هو فنزل إلى دمشق ليحقق مأثرته المشهودة الأولى.

أحس بمجرد اتخاذه قراراً برؤيته، أنّ المنافسة القديمة بينهما ستتجدد، غالب سيتحداه، ولم يكن متحمساً لهذا التحدي. وإن كان تواقاً إلى أن يُطلعه على ما آلت إليه أحواله، لم يعد ذلك المتهالك الفج على الحياة، بات بعيد النظر إلى حيث لا يصل إليه بصر غالب، هذا الذي كان يتميز عنه بالنظر الأبعد، لكن في الاتجاه المعاكس. لن يخفي الآن حقيقة إحساسه نحوه، كان خليطاً من الشماتة والاستهزاء بصديقه الخائف والمتخفي. مع هذا كان بحاجة إلى معيار يقيس نفسه به، لن يحس أنه حقق تقدماً إلا بالنسبة إليه، من خلاله يتعرف إلى مقدار نجاحه بالتضاد معه، الرهان بينهما لم يسقط بفعل الزمن.

كان في تسلق المرتفع إلى العرزال عودة إلى ما يزيد عن عشر سنوات، قبل انتقالهما إلى حلب. كان الأصدقاء الأربعة يتسابقون في الصعود إليه بخطوات سريعة ومديدة. الآن يصعده وحيداً على مهل، كلما ارتفع ازداد المنظر خضرة، سحر الجبل يلفّه بأخاديده الحادة والمعشوشبة، يرتقي من مرج إلى مرج، بين أشجار تتنوع، حور، سنديان، أجمات أزهار ونباتات، أيكات ريحان وزال. على الطرف المقابل، يلوح البحر بزرقته السابغة، متلألئاً تحت أشعة الشمس، بينما في الأسفل تتمدد الضيعة، وقد بانت على حقيقتها، بيوت رثة ومتداعية، وحول الأطراف المغمورة بأشجار الزيتون والحمضيات، تبرز فيلات ضباط الحروب والتهريب تتألق تحت أشعة الشمس. بينما روائح الحشائش المتنافرة عابقة يحملها النسيم، تصحبه إلى العرزال المفتوح

بابه على السماء والبحر.

تبدلت مشاعره وهو يقترب، تمنى أن تستعيد صداقته مع غالب مكانتها، بدلاً من القطيعة، بشرط أن يستسلم هذا الذي نافسه طويلاً. هل يفعل؟ لا يهم، كان تشوقه إلى رؤيته توقاً إلى ماض طالما كرهه.

توقف قليلاً عند الباب المفتوح. ثم تقدم بخطوات وئيدة.

غالب لم يفاجأ، سمع صوت خطواته قبل أن يراه. لم يتبادلا السلام، كما كانا تماماً في حلب. جلس سليمان على مقعد قريب، أجال بصره في العرزال. أغصان الأشجار اقتحمته، الأوراق الخضراء عرشت فيه، الكتب تكومت حول غالب، الأقلام والمحبرة، إبريق الماء الساخن، إناء للسكر، علبة المته، وكأسان فارغتان... إذاً كان ينتظره. حافظ غالب على لياقته وابتسامته. عاتبه من دون أسف ولا ضغينة:

«توقعت ألا تتأخر».

لم يجب، لأنه تأخر فعلاً، ولولا أن أحمد حثه على زيارته لما جاء. صديقه القديم، ما زال كما في صباح ذلك اليوم الشتائي من شهر كانون الأول، الآن لا شتاء، لكنهما متحفزان على استعداد للشجار. ربما استعادا النقاش نفسه الذي دار بينهما، وكان خلافهما الأخير. كان قد أصر على أن لاشيء سيردعه عن تحقيق ما يصبو إليه، لا مجتمع ولا قانون ولا قرابة. قالها آنئذ بتصميم. تساءل غالب ببرود: ولا صداقة؟ فوافقه بحدة: ولا صداقة. فاتهمه غالب بالحقارة، ثم صفق الباب خلفه وغادر. منذئذ لم يره. لم يكن ما حدث بينهما يستأهل وصفه بهذا النعت. شتمه لأنه لم يستوعب نواياه الخيالية، كانت نوايا في فراغ، حتى أنه سخر من نفسه، كيف رمى بكل اعتبار، ومن دون تبصر؟ بدا حينها على وشك أن يرتكب جريمة، مع أنه كان بائساً لا يفكر حتى بارتكاب مخالفة، لكن عندما تهيأ له الفعل، لم يتردد، غالب كان على صواب، رأى فيه ما لم يره في نفسه.

بعد شهرين لا أكثر، ارتكب ما يفوق الجريمة، أسلم خاله إلى أعدائه.

«سمعت أنك كنت في حماه مع الجيش».

افتتح غالب الحديث بالهجوم عليه، كأنه مسؤول عما جرى فيها، وإن استغرب للوهلة الأولى إتيانه على ذكرها، لكن الضيعة كلها عرفت أنه كان هناك، وأثاروا تساؤلاتهم حولها. لم يرو فضولهم، وإن أشاد ببطولات الجيش، هذا ما رغبوا في سماعه، واستحسنوه. الآن جاء دور غالب، الوحيد القادر على استفزازه، ليسمعه ما يثير غضبه.

حدق غالب إليه، وأخذ يسرد ما سمعه بنفسه من الجنود العائدين من حماه، كانوا يتباهون بما اقترفوه من جرائم، استمر القتل ما يقارب الشهر!!

«هل بوسعك تخيله، يحتاج إلى ضغائن هائلة، من أين جاؤوا بها؟».

«من مجزرة المدفعية، أعدم الاسلاميون عشرات من طلاب الضباط، شبان لا يزيد عمر الواحد منهم عن عشرين سنة».

«لقد عوقب من ارتكب هذه الفعلة».

«لقد فعلوها مرة أخرى، داخل حماه، قتلوا البعثيين».

«أهالي حماه غير مسؤولين عما حدث».

«لقد آزروا المتمردين».

«هذا ما تزعمونه».

لم يجب، نعم هذا ما يزعم، ربما كان صحيحاً.

تأمله غالب طويلاً، كان يقرأه، وقال:

«هل وجدت متنفساً لأحقادك؟».

«أنا قتلت بلا أحقاد».

توقف قليلاً، إذا أراد غالب الصدام، فليكن. أكمل مؤكداً:

«أنا لا أحتاج إلى دافع».

«لديك دائماً أسبابك التي لا تدرك».

كان يشير إلى ما فعله بخاله، هذا العمل تناساه أهل الضيعة، ما عدا أمه ورباب، ويشير أيضاً من حيث لا يدري إلى مجزرته الصغيرة في حماه. غالب مصمم على إحداث قطيعة ثانية، لكنه لن ينالها، لو سمح له، فسوف يتفوق عليه بادعاءاته الأخلاقية، ويذهب سدى كل ما أنجزه. غالب لا يعرف أن ما فعله يتجاوز ما قد يفكر فيه. ما زال كما تركه، لم يتخل عن فضائله الغبية.

من هذه الناحية خسر الجولة، كان مكشوفاً أمامه. تجاهل تلميحاته، وغيّر الحديث، تطرق إلى ما سمعه عنه من أحمد، انتقاداته للرئيس وأخيه وأجهزة الأمن. لم يجد ما يقوله سوى أن ينصحه:

«الأفضل ألّا تأتي عليهم بكلمة».

فكر غالب قليلاً، ثم سأله:

«أنت أين تقف؟»

فاجأه، كأنه يخوض فعلاً معركة معهم، ويريد معرفة هل هو معه أم معهم؟.

«أنا مع الرئيس».

«هل ستبلغ عني؟»

كانت فرصة كي يبطل فكرته عنه بأنه لا يتورع عن شيء.

«لن أسمح للفرع بإيذائك».

كان قد التزم بمساعدته ليعود إلى حياته الطبيعية، لكنه لن يكون في صفه.

كان غالب قد أعد له كأس المته، تناوله وشفّه ببطء، بصره معلق على رقعة السماء المؤطرة بالباب المفتوح، من هذه الزرقة العميقة يستوحي غالب أفكاره. لم يحسده على ما يشعر به من طمأنينة، تأتي الرياح أيضاً من الخارج. الصفاء قد تتمخض عنه عاصفة.

نهض، نظر إليه، لم يقترب منه، لئلا يتعانقا، أو تبدر من أحدهما كلمة وعد أو عهد، هكذا أفضل، فليحتفظ كل منهما بمشاعره نحو الآخر، علاقتهما ستبقى رهينة التحولات في داخلهما، مع أنها رهينة تحولات الخارج، التي لا يؤمَن لها، لكنها كاشفة.

خرج دونما كلمة، قد يلتقيان ثانية، يوماً ما، وربما لا.

بعد الظهر، قبل أن يغادر، زار فرع المخابرات في المنطقة، وسرّ لأن المقدم الذي استقبله كان يعرف عنه الكثير. أضاف سليمان إلى معلوماته توظفه في القصر الجمهوري. طلب منه كف البحث عن غالب. هناك جهات أخرى تتابع قضيته.

كان قد استجاب لنداء لم يكن غامضاً كلية، الجزء الجلي منه، أنه لن يسمح باعتقال غالب، سيكون مكلفاً، قد يظفر شهيد الفكر الحر بما يتوق إليه. أما الجزء الآخر فتركه للمجريات الآتية.

٣

استقرت الأحوال في المهجع، واعتادوا على ساعات الاستيقاظ والنوم وتناول الطعام، والتعذيب بأوقات معلومة وبأوقات غير معلومة، الخوف والإرهاق والأوجاع، ساعدتهم على الانسجام معها، واستعادوا بالرغم منها قدراً من صوابهم، دفعهم الى تفحص ما حولهم، وكان من جملة ما أطالوا النظر إليه، أن حدقوا إلى بعضهم بعضاً، إذ لم يكن هناك سواهم، التحديق رافقته الشكوك، وكان نصيب عدنان أكثر من غيره.

تعرف أغلب المساجين إليه على أنه الرقم ٧٧، لم يستهجنوا الرقم، كانوا أرقاماً مثله. عندما بدأ التواصل بينهم تراجعت الأرقام، لم يبق سوى حقيقتهم المأساوية، حطام بشر. لكنه لم يكن

مثلهم محطماً بالقدر الكافي، سرعان ما استعاد لياقته الجسدية، وكان قد لفت نظر بعضهم في الباص وهم بطريقهم إلى تدمر، لم يتكلم كثيراً، كان يتنصت على أحاديثهم. في المهجع أثار التخمينات، لم يكن من الاخوان المسلمين، ولا الطليعة المقاتلة، أو حزب التحرير، لتجمعهم به المقادير، وليس من الحزب الشيوعي، أو البعث العراقي، هؤلاء كانوا في مهجع آخر.

الشيخ كريم كان أكثرهم فضولاً وشكوكاً، وهذا من طبيعة حرصه في الجامع على تقصي هوية المترددين عليه، فيأخذ حذره من المخبرين الذين يحلّون في المسجد على أنهم عابرو سبيل، فيكشفهم من عيونهم اللائبة بين المصلين، وآذانهم المشنفة لأي نأمة، وجهلهم بالوضوء والصلاة، وعدم مراعاة السكون أثناء تلاوة القرآن، ولا التواضع في حضرة الله. حرصه لم يُجْدِه نفعاً، اقتحم عناصر الأمن الجامع، اقتادوا الموجودين كلهم، وكان من بينهم.

لفتت انتباههم عينا عدنان الساهيتان، من يدقق النظر إليه يظنه غائباً عن الوعي مفتوح العينين. فُسر شروده على أنه يخدعهم بما يبدو عليه من سهو مقصود، بينما كان يتنصت على ما يتهامسون به. ادّعى الشيخ كريم أنه خبير بهؤلاء البشر، وكثيراً ما صادفهم، ولم تَجُزْ عليه مسكنتهم. وصادف من أطلق كلمة كانت كافية لتسري في المهجع: «الجاسوس»، فاحترس منه الجميع. وكان لافتقار عدنان إلى علامة فارقة يُعرف بها، أن أطلقوا عليه نعتاً بديلاً، فكان «المسطول»، إذ ضبطوه مراراً، شارداً عنهم.

نظرات الشك والحذر لم تغب عنه، لاحظها ولم يعتب عليهم، كانوا يجهلونه فتخوفوا منه. ما يفتقده كان جريمة سياسية أو إرهابية تشفع له وجوده بينهم، فأجهد ذهنه باحثاً عن تهمة تليق باعتقاله وسوقه إلى تدمر. في مراكز المخابرات سألوه مئات الأسئلة، ولم يدر ما وراءها من اتهامات. ولكي يقنع زملاءه بأنه على شاكلتهم، وإن لم يكن مثلهم، انتحل مجريات تحقيق مع موقوف قابله في الأمن العسكري، اعتقل لورود اسمه في دفتر هواتف لرجل مطلوب قتل أثناء ملاحقته. دام التحقيق معه ثلاثة أيام بلياليها، أخفق الموقوف في معرفة، أو حتى تكهن لماذا كان رقم هاتفه مسجلاً لدى الشخص الملاحق، فمات تحت التعذيب. استعار عدنان الاتهام، وأخفق بتوصيفه، جريمة، جنحة، خطأ، التباس... ليسوّغ وجوده بينهم، كان أشبه

بمحنته: بلاء.

لم تقنع الشيخ كريم، كانت لا تستوجب إرساله إلى سجن تدمر بالذات، ولو أنه تعلل بحظه العاثر. لكن كما بدا ليس بعاثر حظ، بل يحاول الإيحاء بذلك، وليس مسطولاً، بل يتظاهر بالانسطال ليتجسس عليهم. المخابرات اعتمدته عميلاً لهم. وإذا كان كما يدّعي ضبطوا اسمه لدى واحد من الإخوان المسلمين، فلماذا لا يشاركهم الصلاة ولا يصوم رمضان؟ مع أنه كان يراعيهم، لا يأكل أمامهم، ويؤخر الغداء إلى ساعة الافطار.

أسكت عبد الرحمن سليمه كل ما دار من أقاويل، طمأنهم، وعلى رأسهم الشيخ كريم، إلى سلامة طوية المعتقل عدنان؛ ما أبعده عن التجسس، لو كان كما تظنون لسبقكم إلى الصلاة. أقول، والله شاهد، إنني صادفته في المخابرات العسكرية، وكدنا نلاقي حتفنا معاً بالمنشار الكهربائي، لكن الله لطف وامتد بنا العيش، وجئنا معاً إلى تدمر، ألا ليت الله قضى أمره معنا في ذلك القبو المعتم، حيث سمعت أنينه، ولمست جراحه، قبل رؤية وجهه. مأساته أنه لا يعرف بأي تهمة سيق إلى تدمر.

دافع عبد الرحمن سليمه عن رفيق عذاباته وسجنه، ولم ينتبه إلى الخلل الحاصل في شخصية الطبيب، بعدما أخلى شخصه للرقم ٧٧، وإن لاحظ تغيراً طفيفاً عليه، لاحظه من كثرة صفناته، كان المنخرط في الصفن عدنان، لا الرقم ٧٧ المنخرط في الصمت، كلاهما لا يحسان بما يدور حولهما. لكن من ذا الذي لا يغيره السجن، ويذهب بصوابه، ويسحق روحه؟ المساجين لم يلحظوا تغييراً، شروده مثل قلة كلامه. عتبوا عليه فقط لتركه فريضة تُعد من أركان الاسلام. الشيخ كريم نصحه، من باب الأمر بالمعروف، بتدارك تقصيره، والتقرب إلى الله بالعبادات وعلى رأسها الصلاة، الله لا يغفر لتاركها، فاضطر الرقم ٧٧ إلى الصلاة، عدنان لم يُصَلِّ.

مشكلة عدنان كانت في الصفن، لا في الشرود، ما الذي يشغل باله غير الزوجة والأولاد والأهل...؟ مادام الكلام ممنوعاً، فالصفن هو الغالب عليهم جميعاً، يستذكرون ماضياً أوغل في الابتعاد، يعتقدون أنهم يستعيدون أنفسهم، ليؤكدوا أنهم كانوا بشراً، وعاشوا من قبل غير هذه

الحياة، فلا يستعيدون الماضي، وإنما أضغاثه، لا يؤنسهم بقدر ما يهيج أشجانهم. ذوو العزيمة منهم، يعرفون أن لا عودة إلى كل ما يمت بصلة إلى الماضي، الأجدى نسيانه، لئلا يتعلقوا به ويتحسروا عليه، لكن أي مأزق إزاء ماض يأبى الرحيل، وأي عذاب، كان استذكاره؟

مع الأيام ازداد الرقم ٧٧ انكماشاً على نفسه، وانعزل عنهم، ولم يكن هذا غريباً، أغلب المساجين تصادفهم بين فترة وأخرى نوبات تعاسة ممضّة، كانت اجتراراً للآلام، تتبدى بالانكفاء والزهد في العيش، مهما تفاقمت لا تطول، إذ لا يمكن تحملها.

لم يخرج الرقم ٧٧ من عزلته، إلا بعدما جمعته عدة لقاءات مع حسني ربعان، أنقذه منها، كان في حالة أسوأ منه، كانت عزاء له عما هو فيه. جمع بينهما الصفن والشرود. بادره حسني بالجلوس معه بلا تحية أو سلام، أو الوقوف إلى جواره من دون أن يوجه إليه كلمة واحدة. كان أكثر انكماشاً منه، يقضي أغلب أوقاته صامتاً، فتصاحبا، انسجما معاً في غمار صمت سقطا فيه بلا عوائق. وبدا للذين يرونهما، أنهما مستغرقان في حديث طويل لا ينبسان فيه بحرف واحد، يعبّران بجلاء عن شراكتهما في محنة غامضة، متفاهمان عليها، لا تحتاج إلى بيان.

حسني ربعان حامل الرقم ٣٢، بداية لم يعرف زملاء المهجع عنه سوى أنه كان موظفاً مسموع الكلمة، يُعنى بالمناسبات الاجتماعية، لا يهمل واحدة، صديق له عاد من العمرة، ذهب ليبارك له، فدُهم المنزل واعتقلوهما. ترى ما الذي اعترف به حتى حُكم بالإعدام؟ عرفوا بقصته من صديقه نفسه، وكان معه في المهجع، يتوارى خجلاً منه، لأنه كان سبب ما ابتلي به وهو بريء، يروي قصته وتسيل دموعه، وعرفوا منه أن حسني كان مديراً لدائرة السجل العقاري، موظفاً مهيباً ومحترماً، انقلب العالم فجأة في رأسه، وفقد عقله من جراء صدمة لم يستوعبها، يعتقد حتى الآن أنه على رأس عمله، يمارسه وهو نائم.

في الصمت، تكاتف الرقم ٧٧، مع الرقم ٣٢، على ما أصابهما، فلم يشكيا أو يبكيا، هذا قدرهما، ولم يعبأا به. الصمت وثّق بينهما أواصر الألفة. تكلم الرقم ٣٢، فأصغى إليه الرقم ٧٧ ، ما حمله الأول في داخله من أسرار أثقل عليه، وأراد أن يُعلم بها الثاني، ما أخرجه عن صمته. فباح له بأسرار خطيرة، لم تؤثر فيه، أو تخرجه عن طوره. شاء أن يكون صديقه على علم بها، ليكون

على حذر منهم؛ المساجين رفاقهم في المهجع، مجانين لا يؤمن جانبهم، ولو كان الجنون لا يظهر عليهم. يتصل به أناس من خارج السجن، ويوافونه بما يصل إليهم من خفايا، أصواتهم تهبّ عليه في هدأة الليل.

كيف؟ تساءل الرقم ٧٧، ما دامت أصواتهم تهبّ، فهي تأتي مع الريح. كان تساؤلاً في محله، الريح لا تهبّ في المهجع، بعدما أحكموا سد الفتحات فيه بغطاء من المشمع الشفاف.

لهم طرائقهم الخاصة، لا تسألني. قال الرقم ٣٢.

لن أسألك. قال الرقم ٧٧.

أنا مثلاً لا أسألهم عن مصادرهم، ما الذي يهمني منها، طالما أنهم لا يخفون عني شيئاً. قال الرقم ٣٢ .

بل وتصله أحياناً معلومات عما يدور في داخل السجن، فعرف أن جواسيس إدارة السجن يراقبونه، ويتنصتون عليه، لهذا لا يتكلم.

لكنك تتكلم الآن. قال الرقم ٧٧.

إنهم غائبون، اليوم عطلة. قال الرقم ٣٢. ثم فكر، هل أنت واحد منهم؟

لا. قال الرقم ٧٧، أنت تعرف.

يجب أن أتأكد، قال الرقم ٣٢.

لكنك متأكد. قال الرقم ٧٧.

لا تقرأ أفكاري. قال الرقم ٣٢ بعصبية.

نادراً ما يجري بينهما مثل هذا الحديث الطويل، عادة من شدة ما يتكلمان بأناة، تُلفظ الكلمة

الواحدة حرفاً حرفاً، ويقطعها الصمت. والحقيقة أن الكلام هو الذي يقطع الصمت. أحياناً لا يفهم الرقم ٧٧ ما يلغو به الرقم ٣٢، يكون هائجاً، مغتاظاً، مم؟! حتى هو لا يدري، سوى ما كان يزعمه، عن أن المخابرات، كانوا يبتزّونه لمعرفة ما يجري في الداخل، يريدون أسماء محددة.

اتصالاتهم تنهال عليّ، لن أبوح باسم أحد. قال الرقم ٣٢.

وكانت العقوبات التي تأتي في وقتها، وفي غير وقتها برهاناً على امتناعه عن الوشاية بالرفاق، ولقد صمد. أما هؤلاء الذين يزعمون أنهم عوقبوا من جرائه، وكانوا ضحيته، فيكذبون، ساقوهم معه، تغطية على عمالتهم للمخابرات بالاتفاق مع إدارة السجن.

لم يكن الرقم ٧٧ رقماً بلا إحساس، كانت صلته بالرقم ٣٢ باعثها الشفقة، تواصل معه، رغم ما واجهه من عسر في الكلام والإنصات. كانت رأفته به، ورعايته له، لما لاحظه عليه بعد فترة من الزمن من تدهور سريع:

الرقم ٣٢ ضمر، وذوى، وشفّ، حتى أمسى ريشة في مهب رياح الأصوات الليلية. كانت تنبهه ألا يأكل، المخابرات أوعزت لعملائها في السجن بدس السم له، فامتنع عن الطعام، من دون إضراب ولا احتجاج. فكان الرقم ٧٧ يأكل أمامه، ليطمئنه إلى أن الطعام غير مسموم، ثم يلقمه بيده، أحياناً يأكل وغالباً يرفض.

لم يكن يؤذيه منه إلا روائحه الكريهة، تطبق على أنفاسه، تحيط صديقه بهالة مقرفة، روائح يخجل من الإشارة إليها، إذ لا يعقل أن الرقم ٣٢ يطلقها بشكل دائم من دون توقف. من أين يأتي بها؟ الرقم ٧٧ لم يعرف حتى بدت له سراً من أسرار الرقم ٣٢.

بعد تكهنات عدة، عرف أن الرقم ٣٢ عندما يدخل الى المرحاض لا ينظف مؤخرته، وينسى أحياناً ويتغوط وهو قاعد أو نائم. عرف بهذه الأمور اللاإرادية، بعد غياب يومين، قضاهما بعيداً عنه، ليتعافى من روائحه التي وخزت حاسة الشم لديه، وعششت في أنفه. ذهب كي يزوره ويطمئن عليه، وجده مستلقياً على ظهره، تبادلا حديثاً طويلاً من الصمت، إلى أن أنزل الرقم ٣٢ البنطال، دس يده في سرواله الداخلي من الخلف، تحسس إليتيه، يبحث عن شيء،

ثم بدا وكأنه يكشط شيئاً، لم يكن سوى الغائط المتيبس على مؤخرته، ألقى به على أنه قشرة من جسده الآخذ في الجفاف والتساقط؛ التآكل بدأ من مؤخرته.

حاول الرقم ٧٧ أن يأخذه إلى حنفية المياه، ليغسل نصفه الأسفل، فرفض بشدة. كان قد امتنع عن مقاربة الماء، منذ أكثر من شهر، الأصوات أبلغته أن الماء ملوث بالجراثيم والطفيليات.

بعد يومين، سقط الرقم ٣٢ مريضاً، بلا مرض جلي، فهو لم يغادر اضطجاعته، لم يشكُ من شيء، امتنع عن الخروج إلى باحة التنفس، ساعات طويلة لا ينبس بكلمة، الجنود لا يقتربون منه، الروائح الكريهة تدفعهم إلى تجنبه، وقرروا مازحين الاستعانة بقناص كي يطلق عليه النار من فتحة السقف. في المهجع تضايق منه جيرانه، ثم امتزجت روائحه مع روائح المهجع فلم يحسوا بها.

أصبح إذا نهض، يلبث واقفاً، أو قاعداً، بلا حركة، لساعات طويلة. يتخشب مستلقياً أو واقفاً أو قاعداً. حالة التخشب، كانت تواتيه في جميع الأوضاع.

من فرط ما تخشب، تخشبت عروقه، وتخشب دمه، أخيراً تخشبت أنفاسه على وضعية زفير دائم، استمر حتى لم تعد لديه أنفاس يلفظها، استهلكها، فمات.

هكذا روى الرقم ٧٧ للطبيب عدنان، الوفاة المؤسفة للرقم ٣٢.

اشد ما أزعج العسكر الذين حملوه أن جسده لم ينطو معهم، حافظ على تصلبه.

علّق الطبيب عدنان على ما سمعه ورآه، قائلاً للرقم ٧٧، ليقرب إليه حالة الرقم ٣٢:

بما أنك صنوي، فاعلم أنك حالة انفصام بسيطة، بالمقارنه مع حالة الرقم ٣٢ المعقدة، تشخيصها حسب اعتقادي: عدة حالات انفصام تجمعت في رجل واحد.

الفصل الثامن

القانون نشاط هدام

توخى الأستاذ رشدي ألا تكون هناك أية دلالة سياسية لعلاقته مع القضاة الشبان. السياسة خارج نطاق الحزب تنذر بالأخطار، فظل بمنأى عنها، كانت صلاته الشخصية مع الحزبيين وبعض رجال السلطة جيدة، ما دفع عنه أذى التقارير الكيدية، غير أنها كانت حماية لا ضمانة لاستمرارها، تقارير المخبرين تركز على النواحي الأمنية، وكانت تحدث أثراً، ولو اختلقوا شيئاً من لا شيء. كان الشك بأي شخص ينزع عنه الحصانة، فحرص على ألا يثير الشكوك. كان متشدداً في القضاء، ولا مبالياً في السياسة. لم أعرف أن الخطر بات يهدده ويهددنا، إلا عندما استدعيت إلى التحقيق في الفرع ٣٤٣.

لا أعرف اختصاص هذا الفرع، ولا لأي جهاز تابع، كانت الأجهزة والفروع اختصاصات، ما يوحي بأن الضباط المحققين يمارسون أعمالاً لا يستقيم حالها إلا بالتخصص. ومع هذا كان تخصص أي منها لا يشكل حائلاً بينها وبين أية قضية، بل يشمل كل ما يضعون أيديهم عليه، ويحمّلون أية قضية ما يشاؤون من شبهات لتتوافق مع تخصصهم. كان جهاز أمن الدولة يزعم أن أي شيء، ولو كان بسطة لبيع الملابس المستعملة مخالفة تمس بأمن الدولة.

ظننت أن لاستدعائي علاقة بقضية كنت أعمل عليها، يريدون الاستفسار عنها، كان أحد

أطرافها ضابطاً كبيراً متقاعداً، باع عقاراً يملكه لعدة أشخاص وقبض ثمنه عدة مرات، كانت قضية احتيال واضحة. الأستاذ رشدي لم يطمئن، قال لي، إذا تأخرت في الفرع، فهذا يعني أنك احتجزت، استدعاؤك ليس بالبراءة التي تظنها. سينتظر انتهاء الدوام، إذا لم أرجع فسوف يجري اتصالاته. كان على صواب، لم ينتصف النهار حتى تسلم قضاة مجموعتنا استدعاءات إلى الفرع نفسه، في الموعد نفسه، صباح اليوم التالي.

في الفرع، تسلموني على الفور، وأدخلوني إلى ممر، جلست فيه على مقعد بانتظار الضابط الذي سأقابله. لم أستغرب إهمالهم لي، الأسلوب المتبع ترك المستدعى ينتظر عدة ساعات، يسمع خلالها أصوات التعذيب، فتتحطم مقاومته قبل التحقيق. لم أكن في وارد المقاومة، الملل وحده حطم أعصابي، أما أصوات التعذيب، فولّدت لدي القناعة بأنني في مكان خصص لتكره حماة أمن الوطن من المؤامرات الخارجية، لأنهم لا يبحثون عن ضحاياهم إلا في الداخل.

قابلني الضابط ظهراً، لم يكن يضع رتبة على كتفيه، نحيل عابس، يتكلم بقرف من طرف فمه، ويبتسم بلؤم واستخفاف، ما يعني أنه يعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي. اعتقد وقد وجدني أنهكت من الانتظار، انني مستسلم لما يريد، وجاهز لأعترف بأي شيء، كي أغادر الفرع بأقصى سرعة، بينما المغادرة ستكون إلى السجن، لمدة غير معلومة. كنت بالفعل أريد المغادرة إلى بيتي، لكن ما الذي أعترف به؟!

أعطاني ورقة مطبوعة، تحتوى على رزمة من الأسئلة، وطلب مني الإجابة عنها بكل دقة، وحذرني في حال ورود معلومات غير صحيحة، فسوف أحاسب حساباً عسيراً. مادام أنه ابتدأ بالتهديد، فالقضية غير ما ظننت، وأنا متهم بشيء ما، بعد قليل سأعرفه. كتبت المطلوب عن تاريخ حياتي، وعن عائلتي، لم أذكر أنهم لقوا حتفهم في حماه، المفترض أنني أجهل الحادثة، ولو سئلت فسوف أقول إنني أجهل مصيرهم.

انصبّت الأسئلة بعدها حول زملائي القضاة، طبيعة علاقتي معهم، أين نجتمع، ما نتبادله من أحاديث، نشاطاتنا... كانت إجاباتي عنها إجمالاً سلبية، فنحن لم نكن على صلة وثيقة ببعضنا إلا بما يتطلبه التعاون الوظيفي المحدود بيننا، وإذا كان جَمَعَنا نشاط واحد فهو القانون، إلا إذا

كان الحرص على القانون يثير الريبة. ولقد كان الضابط عند أسوأ ظنوني؛ القانون نشاط هدام، حتى يثبت العكس.

كان الاتهام جاهزاً، تشكيل خلية نائمة تتخفى في دهاليز القصر العدلي وراء القانون تحت قوس العدالة، يرأسها رئيس محكمة النقض الأستاذ رشدي. طلب مني الضابط الاعتراف بدوري كعضو في الخلية، وإلا استعمل معي أساليب لا تليق بي كقاض محترم، وفي حال تعاوني معه، يطلق سراحي على أن أكون رجل الفرع في القصر العدلي.

حسبته يمزح، فمازحته قائلاً، إن لديكم عملاء يفيضون عن حاجتكم. لكنه كان جاداً، أمهلني إلى الغد، هذه الليلة سأبقى بضيافتهم في الفرع. وأمر بوضعي في زنزانة منفردة. كانت ليلة سيئة، ما خفف عني أن الاتهام كان باطلاً، ولا دليل عليه.

علم الأستاذ رشدي من زوجتي، أنني لم أرجع من الفرع. كما لم يرجع زملائي القضاة، حققوا معهم وباتوا في زنزانات مجاورة، فأجرى اتصالاته. عرف أنه المستهدف، لم يتجرأوا على استدعائه قبل تحضير الاتهامات، بناء على أدلة، ستلفق بالضغط علينا بالترهيب والوعيد، ولن يتورعوا عن تعذيبنا للحصول على اعترافات تدينه. اتصل الأستاذ رشدي بأصدقائه في الحزب، فاعتذروا، ما دام أن المعتقلين مجموعة من القضاة، فالأمر يتعلق بمؤامرة، فلجأ إلى مسؤول صديق له مقرب من القصر الجمهوري.

في الصباح، كنت جالساً في الممر بانتظار الدخول إلى المحقق عندما حضر الأستاذ رشدي برفقة صديقه المسؤول، وكان قد وعده خيراً، لم يطل الوقت، عندما لحق بهم موظف كبير الشأن. كان مهندساً، إذ خاطبه الضابط بكل احترام، بـ«سيدي المهندس».

ولقد كان للمهندس كلمة مسموعة. اطلع على محاضر الاتهام وتقارير الوشاة ضدنا، وكان الواضح أنها كيدية، ولولا علوّ منصبه، لما أوقف التحقيق فوراً، وبما أنه كان يعرف ألاعيبهم، لم يغادر الفرع قبل إطلاق سراحنا، لم يثق بوعد الضابط بأنه يريد استكمال بعض الإجراءات.

سُحب الملف من الفرع، لكن القضية لم تنته، كان وراء الوشاة جهة نافذة واظبت على تحريكها،

فتدخل المهندس ثانية كممثل للقصر، وأسند الملف إلى عميد رئيس فرع آخر بحجة قوية، إذا كانت هناك قضية فلا ينبغي العبث بها، وأن تعالج على أعلى المستويات.

جرى التحقيق على مستوى آخر، لم يكن لديهم قضية موثقة ولا جدية ضد الاستاذ رشدي، لكن الاتهامات كانت ضخمة، بحيث تودي إلى الإعدام، فاقترح القصر تسوية، شجع عليها المهندس، خشية من الأسوأ، فجرى فرط ما قيل عنه: تجمع القضاة، وهو ليس بتجمع أصلاً، إذ لم تكن هناك اجتماعات، ولا تحركات جماعية، لكن، وهذا ما كنا نجهله ويجهله الأستاذ رشدي، أن التكتلات ممنوعة، لاسيما أن التكتل لا يستثني مجموعة أصدقاء، يضطرهم العمل إلى التزاور داخل قصر العدل!! التجمع الوحيد المسموح به هو النقابة، هل هناك نقابة للقضاة؟ لا، إذاً، خصوصاً القضاة لا يسمح لهم بأي تجمع أو تكتل أو...

نقل زملائي القضاة كل منهم إلى محافظة. أما أنا فاستغللت الفرصة، وقدمت استقالتي، فلم يبت فيها، تم إيقافي عن ممارسة القضاء، وتحويلي إلى عمل إداري. أما الأستاذ رشدي، ولئلا يرتبط بأي عمل آخر خارج البلد، وكان قد عرض عليه العمل في الخليج؛ فلم تقبل استقالته ووضع تحت تصرف وزير العدل بزعم مراجعة ملفات على علاقة بالقانون الدولي، وفي الحقيقة، لم يعهد إليه بشيء.

كانت التسوية مع ما أصابنا من غرم، إنقاذاً من اتهامات صممت على أن تكون حقيقية، نوعاً ما من مؤامرة سياسية وأطراف خارجية...إلخ لا يمكن الإفلات منها بسهولة، إذ مجرد توجيهها، يخلف أثراً لا يمكن التسامح فيه. من حسن حظنا كان العقاب بالحد الأدنى؛ زجرياً وتفريقنا بالحسنى.

لكن هل انتهت؟

١

شاب عودة سليمان من الضيعة بعض المرارة، أخفق في تحقيق الغرض من زيارته، صلته بالعائلة تقطعت ثانية. أما مع الضيعة، فأصبحت متينة، اتّصل ما انقطع، وقويت صداقته مع أحمد. غير أن فكرة الزواج أصابها التراجع، ليس هذا وقتها، أصبحت في المرتبة الثانية من اهتماماته،

العمل المؤجل ارتد واحتل المرتبة الأولى في قائمة مشاغله، فعاد يرزح تحت ضغوط الفراغ.

أبو حسين الذي تولى الإشراف عليه، بدا راضياً عن يأسه، وفشله الذريع في اختراع وظيفة. لن يستقل بعمل ويذهب بعيداً عن ناظريه، سيبقى تحت رقابته، مع الوقت سيعتاد العمل تحت إمرته. استدرجه مسنداً إليه بعض المهام خارج القصر، بداية كلفه بقضية عاجلة في الفرع ٣٤٣، الطرف المتهم فيها الأستاذ رشدي، أحد قضاة محكمة النقض المعروفين، إثر وشاية مغرضة. القضية ملفقة برمتها، حاول الفرع أن يحقق ضربة بتضخيمها باعتقال عدة قضاة من محاكم البداية والصلح ليشهدوا ضده. اختصر أبو حسين توجيهاته إلى المهندس، بالإسراع إلى إيجاد حل لها قبل أن تتعقد.

شكلت القضية بالنسبة إلى المهندس تدريباً على ألاعيب المخابرات، ولم يكن يجهلها كلية. لكن أن يكون الفرع موضع شبهة خبرة ثمينة، نادراً ما يحظى بها أحد. وحسبما لاحظ، التنافس محتدم بين الأجهزة الأمنية سعياً إلى الهيمنة على القضاء، والتسارع محموم إلى تقاسم محاكم قصر العدل، لكل جهاز حصة، تكون باصطفاء قضاة، وإقصاء بعضهم وترشيح بدلاء عنهم ليجري التعامل بين الأجهزة على مبدأ التقاص في القضايا. العقبات التي واجهتهم، قاضي محكمة النقض وبضعة قضاة على شاكلته، يتميزون بحسن الأداء والتصلب في العمل القضائي، فكان لابد من إبعادهم.

بداية جمع رئيس الفرع أدلة تصلح شكلياً لاتهام القاضي رشدي بتعطيل سير العدالة!! اختلقت لممانعته طلبات بعض المسؤولين، لكنها لم تكن كافية. حسب العقلية المخابراتية التي تعمل على النفَس القصير، سارع رئيس الفرع إلى تعريض القضاة الشبان إلى تحقيق ترهيبي، خلاصته تنظيم خلية نائمة ضد الدولة في القصر العدلي.

أتقن المهندس العمل، انتزع القضية من الفرع ٣٤٣ . وأتقن العمل أيضاً بتحويلها إلى فرع آخر، لا مصلحة له فيها، لئلا تقع في المأزق نفسه. لكن إزاء ضخامة الاتهامات، تدخل أبوحسين وتولى التسوية على أسس واقعية، اعتبرت القضية مفتقرة إلى ثبوتيات وأدلة. وفي الوقت نفسه، لئلا تستثمر ثانية بعد فترة، فرط ما دعي بخلية القضاة النائمة، ووضع قاضي

محكمة النقض تحت تصرف وزير العدل، ترضية للجهة التي اختلقت القضية، وبشكل ما تحقق الهدف، أقصت القضاة عن القضاء.

الخبرة الثمينة التي اكتسبها، هي أن عمل أجهزة المخابرات الرئيسي، الذي يستهلك جهودها، في سياق الهيمنة على البلد، ليس حمايتها من المؤامرات الأميركية والإسرائيلية، وإنما اختلاق المؤامرات، في معرض التنافس في ما بينهم، ما يدفعهم إلى التجسس بعضهم على بعض، صراع يأخذ حيزاً كبيراً من نشاطاتهم السرية، فوائده تعود على الرابح بحصة أكبر. كان الأستاذ رشدي وأمثاله عراقيل يزيحونها جانباً. هذا لم يكتبه في تقريره الذي رفعه إلى أبو حسين، الذي كان الأدرى بها.

استمرت لقاءاته مع ليس، يجتمعان في اللاتيرنا، محطة الانطلاق، يتناولان الطعام، ثم يتمشيان في شوارع دمشق الهادئة، أبو رمانة والمالكي، يجلسان في مقاهيها ومطاعمها الراقية، ويختتمان اللقاء بفنجان قهوة أو كابوتشينو.

رومانسية الشوارع لم تبلغ هدفها. عواطفها نحوه باردة، انعكست على مشروع الزواج، بتزايد احتمالات تأجيله إلى المستقبل. ليس تنظر صوب الاتجاه المخالف، نحو الماضي، أحاديثها لا تسلم من ذكر الميت، مروان يقف حائلاً بينه وبينها. هل يعقد زواجه على اثنين أحدهما فارق الحياة؟ تتذكره بمناسبة وبلا مناسبة، نسيانها له يُشعرها بالذنب، كأنها بحديثها عنه تردّه إلى الحياة، ولم يكن دفنه سوى أنه غاب عن الأنظار. لن يرحل مادام أنها تتشبث به. مروان عالق في الحياة ما دامت ليس تأبى عليه الانصراف، وتمنعه من الاستقرار في الماضي.

بعدما استنفدت ذكرياتها عن المرحوم، أجرت نقلة نوعية في أحاديثها، الجزء الأكبر منها انصبّ حول نفسها، فاطلع على بعض أسرارها، وفهم الحرية والاستقلالية اللتين تتمتع بهما، بعدما استغلقت عليه تصرفاتها؛ أبوها مات قبل عشر سنوات بمرض غامض، قضى عليه خلال بضعة أيام. أمها أصيبت بخلل في عقلها جراء رحيله السريع، هي الآن امرأة عاجزة، بحاجة لمن يطعمها ويسقيها، ويذكّرها بمواعيد تناول الدواء، ويساعدها على الذهاب إلى المرحاض، تتناول المسكنات والمهدئات لتتغلب على آلامها، تقضي يومها نائمة، وفي حالة الصحو تتذكر

طفولتها، وتتكلم مع أناس كانت تعرفهم قبل أربعين سنة، تتكلم دونما انقطاع حتى تتعب وتسقط في النوم. أخوها يعمل في الخليج يرسل إليهم ما يعينهم على العيش، ريثما تتخرج من الكلية وتبدأ عملها في العيادة. كانت تفكر في المستقبل، وتعد له، لم تكن دورة المظليات إلا استعداداً لهذا القادم الذي أصبح وبشكل مبكر على قائمة اهتماماتها اليومية. كانت في المدرسة الإعدادية، عندما وعت أوضاع العائلة على حقيقتها، وكان عليها أن تعمل حساباً لما بعد.

شاركها الاهتمام في حياتها، طمأنها إلى أنه بجوارها ولن يتخلى عنها، أشعرها أنه رجلها المنشود، لتستعيض به عن مروان، فغاب الميت عن أحاديثهما المستقبلية، لكن ظله الثقيل لم يغادر مكانه بينهما. شق عليه أنه أصبح يفكر فيه أكثر مما كانت هي تذكره، حتى أحس أنه مصاب به. أصبح وسواسه وخصمه. كيف يتخلص منه؟ مجرد مروره العابر في الذاكرة ينتزعه من صفو لقائه معها. ما حرض شكوكه حولها، وراوده أن علاقتها بمروان كانت قوية وحميمة، قطعا شوطاً فيها، أوصلهما إلى الفراش، ما دام أنهما كانا يخططان للزواج، وتقضي في بيته ساعات طويلة، فربما استبقا ليلة الدخلة. لكنه رجح احتمالاً مناقضاً، ولو كان ضعيفاً، هذه الفتاة إذا كانت كما تزعم، تخشى المستقبل، فلن تفرط بعذريتها لقاء وعود ومخططات.

بعد حين، عادت فكرة الزواج تلح عليه، مع أن وجود مروان اللامرئي شكّل تحدياً له. هل يستطيع دفنه في النسيان؟ الزواج سيواريه الثرى، لن يؤجله طويلاً، الإقدام والإحجام دارا في داخله، هي لم تسأله، ولم تلمّح إلى الزواج، مع أنه شاغل كل فتاة. أنسب وقت ليفاتحها به بعد الاستقرار في العمل. حتى الآن لم يجد له مكاناً ولا وظيفة في القصر الجمهوري. راودته من جديد، فكرة النقل إلى المخابرات، سيقدم الطلب عندما تهدأ الأمور في لبنان.

تسارعت علاقتهما، لم يعد متحفظاً، يمشيان متماسكي الأيدي، يقبلها في العتمة، يضمها إلى صدره في سيارة البيجو، يتلمس ثدييها، فتبعد يديه عنها بلطف، كانت لا تريد أن يحصل بينهما أكثر من الضمة والقبلة. لم يستعجل ما يزيد عنهما، في الوقت متسع، والأفضل أن يمهد عرضه للزواج بمداعبات إضافية، لن تضن بها عليه.

تمهيداً لهذا الذي سيأتي، استأجر شقة في مشروع دمر، وأخذ بتجهيزها وشراء ما يلزم من

أثاث، غرفة نوم، غرفة قعود، تلفزيون، غسالة، أدوات مطبخ.... أخبرها عن الشقة، فشاركته باختيار ورق الجدران... رغبته فيها عجلت باستكمال النواقص، فدعاها إلى عش الزوجية، نواياه جلية، يريد الانفراد بها. توقع أن تتردد، لكنها وافقت.

من دون مقدمات، أو تمهيد من الكلام، حتى أن ورق الجدران لم يظفر منهما بنظرة، استسلمت لساعديه وقبلاته وللفراش، كأنهما أمضيا الأيام التي سبقته يستعدان لهذا اللقاء الحار. قبل أن تغيب في أحضانه، طلبت أن ترافقهما الموسيقا، موسيقا فقط، لا أغان ورقص وطرب، وعلى أن تكون هادئة وحالمة. ما أشعره بالضيق والنفور، وعكّر عليه قبلة عميقة، تسطحت بفعل طلبها. إذا كان الغرام مرتبطاً بالموسيقا، فهو على صلة بمروان الذي حضر عارياً بينهما، قبل أن يخلعا ملابسهما.

غاظه أن دوره لن يزيد عن كونه تعويضاً عنه، بدل غائب، كأن موعده معها ضرب له، ليقوده في رحلة الفراش، فتباطأ إقباله عليها. لم يحاول أن يفك أزرار بلوزتها، على الرغم من إحساسه بحرارة ثدييها، وتسارع نبضات قلبها. أحبطته الموسيقا، تخيل ما كان يصاحبها من آهات وتأوهات. كان على أهبة الركوع أمامها، وتقبيل قدميها وفخذيها وبطنها وساعديها.... رغبته الأقوى، باتت، الانتقام منه ومنها... أن يغتصبها.

لن يطاوع ما خطر له، خاف ألا يفلح. لو أنها أبعدته عنها، فستخذله قواه، ولن يستطيع شدها إليه ثانية، ولا تجاوز الحد الذي ستوقفه عنده. انتابه الضعف، ما هدد رغبته فيها بالانحسار، بات بحاجة إلى مبادرة منها، والأفضل استسلامها، ربما حقق انسجاماً يساعده على تجربته الجنسية الأولى، لم يعرف من قبل سوى العاهرات في حلب.

تحقق الأفضل، استسلمت له. ما الذي يرغبه؟ إذا كان يريد سحق جسدها، فبلا جدوى، إذ هي بين يديه، ولا يستطيع امتلاكها... سيطرت عليه مخاوفه الغامضة، تردد إزاء موقف أيقن أنه بات خارجه، ولم يعد داخله، ولا جزءاً منه. كانت هيمنة الميتِ على الموقف متكاملة، وتتصاعد؛ تبدت في إغماضة عينيها، وانفراج شفتيها... وتبلد أحاسيسه؛ الميت النشط سيكون الفاعل، أما المراقبة فمن نصيبه.

وإذ أخذت تتخلص من ملابسها، ألجمه تساقط بلوزتها وتنورتها ونهديتها وكيلوتها عن الامتناع عنها، وحثه على تجاهل المراقب الذي كانه. وإذا كان سايرها، وتلمس ما بدأ ينكشف منها، صدرها، ثدييها، فخذيها، وذلك المثلث الذي خطف بصره، حتى أنه أبعد عينيه عنه، بدا كأنه سيقع تحت سلطان سحره، لمجرد أنه بات بمتناوله دونها قدرة على اقتحامه. لم يجازف، خشي أن يذهب به الميت إلى حتفه، كان الحارس على عفتها، وكأنها له وحده. لكنه لم يستطع المقاومة، ولا ضبط تهيجه أمام فتنة عريها، مدركاً أن العائد من العالم الآخر، إنما عاد بالروح لا بالجسد، وما جسدها إلا خديعة للميت، إذ سيواصل موته.

لن ينجرف إليها بكليته، احتفظ بقدر من التنبه، كان ضرورياً، ليستبدل بتهيبه بعض الجرأة، مع قدر لا غنى عنه من الوعي في حمأة الرغبة، يُذكّره أن المتعة ليست غايته، بل عذريتها، قد تسنح فرصة، التخاذل عنها حماقة، هذا مكسبه من مغامرته الجسدية، واثقاً أن ما سمحت به لمروان، لن تمنعه عنه ما دام أنه لن يتسنى لها التمييز بينهما، في أحبولة العري والموسيقا.

ذلك القدر المحسوب من الوعي، ضاع في غياهب اللاوعي، ولم يكن سوى شهوات بات أسيراً لها، تحكمت هي فيها، تقوده في مساربها، وكان بلا إرادة، لا يدري، أو يهتم، فيما إذا كان مروان يهيمن عليه، أو أنه يتوهم سريانه اللدن بينهما، غير أنه أحس بوجوده، مرسوماً في لهاثها وأنينها، وما عليه لئلا يخفق، التماهي معه، باللحاق به، متأثراً علاماته التي تركها على جسدها. ينشد ألا يقصر عنه، أن يكون مروان المقدام، لا هو نفسه، الرعديد الخواف، الذي حقد عليه وأراد ألا يكونه.

في اللحظة الحاسمة، أو في تلك الفرصة السانحة، تمنعت عنه، حاول وبلا جدوى، كان ألعوبة بين يديها، لم تفلته حتى أفقدته تحكمه بنفسه، أوصلته إلى ذروة الشهيق والنشوة، ثم انزاحت عنه، وسقط إلى جوارها. فتح عينيه ورآه، كان يحلّق حولها.

... وهي إلى جواره، تطلق رعشاتها الأخيرة، بلا أنين، يسمع صوت تنفسها منتظماً، تحدق إلى السقف، ترمش بعينها، ترى ما لا يراه. حزّ في نفسه أن ما تراه لم يكن هو موجوداً في داخله، بل الآخر الذي كان أداته أو أداتها، ما الفرق؟! نهضت بتكاسل إلى الحمام، أوصدت الباب خلفها،

سمع صوت الماء.

لمع في ذهنه، بعدما صحا، مأزقه مع الآخر، ووعى أمراً زلزل كيانه، كان هو المأزق لا الآخر، كان يريد أن يماثله، ووعى بشكل أكثر حدة، أنه لن يستطيع طرده من حياة، كان دليله فيها، دونه سيضيع، على ألا يشكل عائقاً أمامه.

وكان لا بد أن يصحو ثانية، ليدرك ما حاول إنكاره، كان قد تلمسه، وإن بغموض، أنها عذراء، الذي لم تمنحه له، لم تمنحه لمروان، لم تميز أحدهما عن الآخر، كانا بالنسبة إليها سواسية. ما استغربه، أن عذريتها أزاحت عقبة كبرى أمام هواجسه، وشجعته على الزواج بها، كأنها حافظت عليها من أجله، مذ كان رجلاً مجهولاً ينتظرها في المستقبل، كان من قبل مروان، والآن هو، هل عاكسها القدر؟ ربما، وكانت على حذر دائم منه، ولم تفلح. ها هي ربطته إليها، عذريتها تلزمه بها، أما مشاعرها، فسوف تتحول نحوه مع مرور الوقت.

غابت في المطبخ، وجاءت بفنجانين من القهوة، أشعلت سيجارة، قالت إنها اعتادت السيجارة مع القهوة ليس دائماً، وإنما في بعض المواقف فقط، كما هي الآن جالسة في الفراش، ظهرها إلى المخدات، شرشف يغطي النصف الأسفل من جسدها، ورجل عار إلى جوارها، يتأثر الأسلوب نفسه، بعدما تشاركا لعبة واحدة. أشعل سيجارة، ومع شفة قهوة، طلب منها الزواج. ابتسمت، ولم تردّ. وفهم جوابها الذي لا حاجة إلى فهمه، الصمت علامة القبول.

دعمت النقلة الجديدة عزوفه عن وظيفته المرتقبة التي لم يكتشفها في القصر الجمهوري، وعززت مشروعه الخاص، فرع المخابرات، أشرك به لميس من دون علمها، كانت في صميم تصوراته عن حياته المقبلة. بلغ به الاطمئنان أقصاه، في تحديد الخطوة القادمة، عندئذ بلغه الخبر الذي اجهض كل ما فكر فيه، وقضى على مشروعه المستقبلي المشترك.

جاءه الخبر من حيث لا يمكن توقعه، وبأمر نافل ليس له علاقة بطموحاته، خرب كل ما حاول البناء عليه. الخبر كان من النقيب عثمان، يشكو له الفتاة التي أوصاه بها!! كانت الفتاة التي ستصبح طبيبة أسنان بعد سنوات قليلة، قد افتتحت خطاً يومياً للتهريب لم ينته حتى الآن، ظن

سليمان أن البضائع تعبر الحدود بالتقسيط. ما المشكلة؟ بل أخطأ الظن، ما نقلته من بيروت إلى دمشق، كان عدة عيادات بكامل تجهيزاتها، تكفي عشرة أطباء أسنان، عززتها بتجارات أخرى، أدوية ومعقمات وأدوات تجميل... مشترياتها بالجملة، لا بالمفرق.

لم يكذب سليمان النقيب عثمان، على الأغلب استغل السائق توصيته بلميس، وأخذ يمرر باسمها ما يشاء من مهربات. غير أن الرائد أكد له أن السائق لا يتجرأ على عمل كهذا، علم به عندما أوقفت دورية للجمارك السائق مع الحمولة، وأجبروه على الذهاب إلى المستودع، وكادوا أن يصادروا البضائع كلها، لولا تدخله.

لم يتصل به النقيب عثمان إلا بعد وثوقه مما كان يجري خلف ظهره، وتأكد من التجار المتعاملين معها، في السوق لا يخفى شيء، الجميع يعرفون. مازالت هناك حمولات إضافية، لم يرد إيقاف الشحنات قبل أن يعلمه بالسبب.

تركز عتب النقيب عثمان على أنه أسدى إليه هذا المعروف شخصياً، قدم له خدمة قصيرة الأجل، لا خدمة طويلة الأجل غير محددة بوقت. سليمان لم يخطئ ما لّمح إليه أيضاً، أنه لا يصح أن يستغفله بإنشاء خط للتهريب، لقد تعرض للاستغلال، المبرر الذي ساقه، أنهم في إدارة الجمارك، سيظنون أنه شريكها، أو يتقاضى عمولة منها، لا أحد سيصدق أنها خدمة لصديق ومن دون أي مقابل.

تفهم سليمان ما يطالب به عثمان، ولو أنه لم يقله، إذا أراد استمرار الشحنات، فينبغي أن يحفظ له نصيبه، لسبب لا يختلف عليه اثنان، مخاطر العملية تقع على عاتقه، ولا يعقل أن يتعرض للمساءلة، أو يُفصل من عمل يدر عليه الآلاف، إن لم يكن الملايين، من أجل خدمة مجانية.

لم يقل سليمان له إنه تعرض مثله للاستغلال، بل والخديعة أيضاً. برر مراعاته لها بأنها خطيبة ضابط شهيد، ولابد أن تجاوزاتها أملاها عليها أن لا مورد آخر لها، على كل حال بوسعه إيقاف الشحنات فوراً، وإبلاغها بأنه أوصاه بذلك.

ولكي يصلح الأمر معه، كي لا يظن أنه استغفله، أو أكل نصيبه، أن يعتبر هذه الخدمة ديناً عليه،

إذا احتاج إلى أي شيء من القصر الجمهوري حالياً، وفي ما بعد من المخابرات، فباستطاعته الاطمئنان إلى أن لديه صديقاً لم ينس معروفه.

انقلب كل ما أعدّه لها، رأساً على عقب. لميس استسلمت له بمقابل، مكافأة على تمرير شحنات البضائع. هذا هو الغرام والحب، إذا كانت تخدعه الآن في ذروة التوافق بينهما، ووعود الزواج والحياة المشتركة، فماذا عن المستقبل؟ لن تتورع عن خيانته. خطأه أنه تغاضى عن خيانتها له مع الميت.

كان على موعد معها. تمشيا في حارات أبي رمانة، تمهل عندما اقترب من السياج الذي تدلت منه خميلة ياسمين، في الزاوية التي اعتادا التوقف فيها للحظات، يضمها إلى صدره ويقبلها. لم يقترب منها، أو حتى لم يستدر نحوها، وأبلغها بإيقاف خط التهريب وصارحها لن يكون بوسعه الثقة بحبها وعواطفها، ولا بحيائها المزعوم. ما حصل بينهما لم يكن حباً، كان تجارة.

توقع أن يكون ردها عاصفاً، خليطاً من اختلاق المبررات والتذرع بالأكاذيب، كلاهما لن ينفعاها، لكن خاب حزره. لم تكلف نفسها الرد عليه، ولا النظر نحوه. فأراد أن يجرحها، بكذبة لن تزعجها بل ستؤلمها، لقد أضاعت فرصة العمر.

«كنتُ قد حددت موعداً قريباً للخطبة، وأخبرت أهلي ومعارفي، لقد ألغيته».

«تذكر، أنا لم أوافق على عرضك للزواج، لكنني لم أشأ أن أحبطك».

لم يطرف لها جفن، أو تتأثر، لديها فرص بديلة. لم تدعه يتركها ويمضي، أصرت عليه أن يوصلها للبيت، أمام الباب طلبت منه الدخول، تردد للحظات، ما الذي يخشاه؟ فدخل، أوقفته في الصالون الصغير، فتحت الباب على غرفة القعود، فوق الصوفا امرأة بدينة جالسة. صوت المرأة يتحشرج في حلقها، تحاول الكلام، نوبة من السعال تمنعها. لميس تعطيها دواءها، وتسألها إذا كانت تناولت شيئاً في غيابها، العجوز لم ترد عليها.

ارتدّ نحو الخلف، فأدركته أمام الباب، قالت له، هذا الجانب كنت فيه صادقة، أمي مجنونة،

وهي الآن في أفضل حالاتها، قاست الكثير من الآلام في حياتها. أخي لا يرسل إلينا شيئاً، لأنه لا أخ لي، وأبي هرب من البيت منذ سنوات ولم يعد، لا أخبار منه ولا عنه، ربما مات. كثيراً ما عدت من المدرسة والجامعة لأبحث عن أمي في المخافر. تخرج في غيابي وتهيم في الشوارع بمريولة المطبخ أو بروب النوم، الشرطة تجدها نائمة على الرصيف، أو فوق كرسي في حديقة، قد يأتي بها رجل عابر، يوصلها إلى البيت، إذا تذكرت العنوان. لو كنت بدلاً مني لرميتها في دار العجزة، هناك ستأكل ظهراً ما تتغوطه صباحاً، في قلبي شيء من الرحمة، احتفظت به لها، ليس لدي للآخرين شيء. أدويتها والأطباء يكلفان الكثير، هذه تجارتي. أنا وفية لأمي لأنها بحاجة إليّ، لا تسألني عن الوفاء لك أو لمروان، لستما بحاجة لأحد. إذا كنت خدعتك، فلأنكم أنتم، لم تتركوا لنا وسيلة أخرى كي نعيش. وبدلاً من أن أرثي حظي، أردت أن أجد لي مكاناً. وكي تفهمني أكثر، أريد أكثر من حاجتي. الحياة لا ترحم. أريد يوماً ما من أولادي أن يعطفوا علي ويعاملوني كما عاملت أمي.

فتحت الباب ودفعته نحو الخارج.

٢

تركت لميس ثغرة في حياته، فاتسع الفراغ العالق فيه. لم يحسب حساباً لفراقها، مع أنه تخلص منها في الوقت المناسب، قبل الوقوع في قصة حب، تليها قصة زواج. لكنه كان قد غرق. ما الذي فعلته به هذه الصبية؟ هل يعقل أنه يتعذب؟ لا، لم يكن عذاباً، مجرد أنه اعتاد رؤيتها، فافتقدها. أو كأنه يتعرف من جديد إلى نفسه المريضة بالغرام، النفس التي أصبحت مكمن ضعفه، خذلته مع رباب، ثم مع لميس. في المرة الأولى غرر به الحب، وفي الثانية، غررت به المحبوبة. في الحالتين إن لم يكن غراماً، فماذا يكون؟ هذا أقرب وصف له. مهما يكن فقد تأثر، لم يسمح له صلفه باسترضائها، نصيب الخديعة كان أقسى مما يسمح به ذكاؤه، إلا إذا كان الريفي الغبي عقد على حبه الآمال، بل الريفي الطماع، طمح إلى الزواج من فتاة دمشقية، جامعية، بعد سنوات قليلة ستصبح طبيبة أسنان. فتراءى له أنه أحبها، وربما أحبها، من يدري؟! وهل أحب رباب؟ لا يدري. في حينها أصابته لوثة، عزاها في ما بعد إلى جنون المراهقة. أما مع

لميس، فلن يكذب، أرادها منذ اللحظة الأولى، وزعم أنه استلطفها، وكان الطريق إليها غير سالك، يباعد بينهما الصديق الميت، لكنه سلبها منه. فليتحسر على جهد ذهب سدى، علاقته معها لم تدم طويلاً، أشهراً معدودات، كان عاطلاً من العمل ومازال، مأزقه تضاعف من دونها، احتلت أكثر من مكان لديه، وآنسته في حيرته، لولاها لما تعرف إلى جسد المرأة، عالم كان مجهولاً، انكشف له، ولأول مرة في بيته بمشروع دمر.

ما عاناه من أرق في الليلة الأولى، كان الدليل على ما أصابه، أدركه الصباح وهو يتقلب في الفراش. خسارته آخذة بالتفاقم، المرآة خالية منها، آثار كحلتها السوداء على الشرشف، وعلى المخدة مشحات من أحمر شفاهها، وشعرة شقراء طويلة، وقطرة قهوة سقطت سهواً. لم يذق طعم النوم، ذاق طعم هلوساته اللذيذة والمحبطة؛ لميس عارية، مستلقية على بطنها، على ظهرها، على جنبها.. مستسلمة لغيبوبتها، وصحوات لا تراه فيها، تنكأ له جرحاً ينزف تهيؤات حارة، تلتهب بفعل تصورات، لم تكن تخيلات، عن جسدين متلاصقين، جسده وجسدها، والنشوة تجمع بينهما؛ هي في عز فورانها، تترنح فوقه مغمضة العينين والعرق يسيل بين نهديها. منذئذ لم يتجرأ على دخول الغرفة، يسهر في غرفة القعود وينام على الصوفا. هذه عذابات الشهوة لا الحب.

لن يختلق لها المعاذير، ولا لنفسه الأسباب. لديه منها الكثير، مشكلته المستعصية ليست معها، وإن كانت تزيدها احتداماً، كانت مع الرئيس، ولا حل لها. الأفق مسدود، الفرصة التي منحه إياها، أعطية لا تتكرر ولا تعوّض، وعلى وشك أن تضيع. لن يغادر القصر، مأساته هناك، ومستقبله هناك. ما الذي أوصله إلى هذا الحال؟ ليت أحداً يرشده، ليندفع بلا محاذير. إذا كانت الصعوبة في الدخول إلى القصر الجمهوري، فالأصعب منها خروجه منه، لن يغفره لنفسه، ولو كان إلى المخابرات.

عاد أبو حسين وكلفه بمهمات محدودة، حقق من خلالها حضوراً لافتاً في إدارات الدولة، الأهم جولاته في الأقبية السرية للمخابرات، أكسبته خبرة إضافية سهلة ومجانية، تعرّف إلى أشخاص سريين في مراكز سرية، قدموا له كل التسهيلات، ولبوا طلباته لمجرد أنه قادم من

القصر،وأطلعوه على ما يبذلونه من جهد في سبيل أداء عملهم على أحسن وجه.

في جولاته التفقدية، كانت وسائلهم، كما بدت، من دون تعمد، عادية جداً بإسماعه صراخ المعتقلين... هذا ليس تسجيلاً، أصوات حية. كانت دماء الخونة مرشومة على الجدران... لقد جفّت. أما اللحم، فنتف تدوسها الأقدام. شحمة الأذن، وأبهام القدم... أمست وخماً ملتصقاً بالأرض، أبعدها بمقدمة حذائه. وحائط خطّ عليه بالأظافر رجل وصيته، متنبئاً أنه سيلاقي حتفه... نبوءته تحققت، اضطرنا إلى تنفيذها. سحنات ممصوصة، وأجساد مدماة، تعترضه ممزقة. كان مثل مرافقيه يتظاهر بأنها مناظر مألوفة، وإذا كان له أن يحتج، فلأنهم لم يزرعوا الدهاليز بالجثث.

اللافت في مشاهداته طرائقهم في التعبير عن تفانيهم، وجهودهم في اقتباس وتطوير أساليب ناجعة، استخدمت في روسيا وألمانيا الشرقية وكوريا الشمالية... وما أدخلوه من تعديلات عليها، أتت بأفضل النتائج. قاموا بترجمة الكرسي الألماني، التعذيب بواسطته كان يسبب صعوبة بالتنفس، وفقدان الوعي، وقد تتكسر فقرات الظهر، فأضافوا إليه شفرات معدنية على الأرجل الأمامية، كانت تسبب نزيفاً في الكاحل ورسغ القدم... أصبح يدعى بحق الكرسي السوري، حقوق الاختراع عائدة لنا. لم يكن كل ما أطلعوه عليه مستورداً، أو جرى تعديله، ابتكروا أدوات محلية الصنع: المراجل الكهربائية، المكابس المعدنية، مواقد البرافين، الحديد المكهرب... تفيد في التعذيب بحرق أجزاء من الجسم كالصدر والظهر، الأيدي والأقدام، الأرداف والأعضاء التناسلية. لم ترق له هذه الأساليب، مع أنها قاربت الأربعين نوعاً، ما دامت تقاوم بالموت.

الأقوى والأبلغ، كان التعذيب النفسي، يحصل من دون استخدام أدوات أو آلات، يعتمد بشكل رئيسي على الاغتصاب بلا تمييز بين رجل وامرأة، أو عجوز وطفل. ولا تمنعه قرابة أو عقيدة، والأفضل بين المحارم. أحياناً طبيعة المكان تبتكر أساليب للتعذيب، يكفي أن تدعها تحدث تلقائياً، كما في وجود المعتقل بزنزانة فيها شخص ميت أو يحتضر، بالكاد تتسع لهما. تصور، ليلة ليلتان، لا يفصل بينهما شيء. فأدرج أسلوب الاستفادة من المحتضرين والأموات قبل الدفن.

كان في تعرفه عن قرب إلى فروع الأمن التي يجهل بعضها فائدة كبيرة، أنه أصبح على تماس مع العمل المخابراتي الجاري في الخفاء، والتفكير بدفعه نحو المزيد من الفاعلية والتشجيع على الإبداع. جاذبيته آسرة، بقعة سوداء أتقنت الظلام، يختفي في داخلها البشر، بلا أية مسؤولية، أو حساب، ولا جدوى لمخلوق في السؤال عن قريب أو عزيز، طالما ابتلعه السواد، حتى لو استعان بوساطات مرموقة، وإن كان سفراء لبلدان أجنبية، أو احتجاجات دولية، لكن لكل حالة ثمناً. بل ويمكن لرئيس الفرع الادعاء أمام رؤسائه الكبار أنه لا يعلم شيئاً، حتى لو استفسر الرئيس، لكن هذا يلزمه أعصاب حديدية، والأهم جهاز في منتهى الانضباط، نادراً ما يتوفر.

تجددت رغبته في عمل مستقل، إذا استمر الأمر هكذا، فسوف يعزم فعلاً على العمل في المخابرات، واضعاً نصب عينيه ضمان استقلاليته في داخله، لكن قد يمتنع عليه كلية، فهو لم يعد ضابطاً، كما أن رتبة نقيب، في حال استعادها، لا تؤهله ليكون رئيساً للفرع، سيضطر للعمل تحت إمرة ضابط أعلى منه رتبة.

أصبحت المحاورات التي يعقدها في رأسه مملّة، غير واقعية، وتميعت من فرط التكرار، ودائماً في الدائرة نفسها. وكيفما اتجه، لن تتحقق أمنيته إلا بإنشاء فرع خاص به، هو رئيسه. هل يستجيب الرئيس لطلبه؟ طبعاً لا، أحلامه تجاوزت الحد المعقول، إلا إذا ابتكر جرائم تتطلب جهازاً يختص بها. المحبِط، أن الأجهزة لم تدع عملاً إلا وطالته، حتى النظيف منها، لا شيء فلت منها.

عادت الفكرة تلحّ عليه، ربما في الكشف عن جرائم نوعية تتطلب جهازاً نوعياً، ترى ما هي؟ لابد من وجود أنواع مختلفة عن السائد، لا تشملها الاختصاصات اللامحدودة للأجهزة. لا يشترط أن تكون جرائم فعلاً، مجرد كونها قابلة للتحويل بقليل، أو بكثير من الشبهات إلى جرائم كبرى، أو عظمى.

أعيته الحيلة، الأجهزة استنفدت الجرائم وغير الجرائم، الأساليب والوسائل، غير أن الحاجة أم الاختراع. عندما صرخ: وجدتها. كان قد وجدها فعلاً.

جهاز مخابرات مستقل، لا علاقة له بأي جهاز في الدولة، نسخة عن أجهزة المخابرات، أقوى منها وصلاحياته تفوقها، سرّي لا يعرف به أحد، أو القلة فقط، لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة. مركزه في القصر الجمهوري، يراقب عمل المخابرات. الدواعي كثيرة، الأجهزة تراقب السلطات التنفيذية والتشريعية مجتمعة، وتراقب أيضاً القيادات القطرية والقومية والوزارات والقضاء والجيش والشرطة، سلطاتها تتجاوز سلطة الرئيس. ماذا لوكانت تزوده بتقارير كاذبة؟ لا سيما أن الرئاسة لا تخضعها للمساءلة إلا بموجب شكوى، نادراً مايحالفها الحظ وتصل إليها.

الجهاز هو: مخابرات على المخابرات!!

من كثرة ما بدت الفكرة رائعة، أصابته صدمة، هل يعقل أن مثل هذا الجهاز لا وجود له؟ مستحيل، الحاجة إليه تملي وجوده، لو أن الله خلق الأجهزة لخلقه معها. أو أنه موجود، لا تعلم به الأجهزة.

عرض الوظيفة المقترحة على أبو حسين، لا ليختبر فكرة غير قابلة للاستغناء عنها، بل ليسبر ردة فعله عليها، في حال رفضها، فالجهاز موجود، ويمارس عمله. أبو حسين لم يُخفِ إعجابه بالفكرة، بل ووعده خيراً، لكن ليس قبل دراسة جدوى جهاز فوق الأجهزة.

لا وجود للجهاز... تلمحه في عيني أبو حسين من اهتمامه السريع، وندم لأنه فاتحه به. بعد يومين، طلبه أبو حسين إلى مكتبه، خصص الاجتماع لتوصيف ما دعي «الجهاز الخاص»، هو نفسه جهاز المخابرات على المخابرات. أبلغه عن موافقة الرئيس على إنشائه.

أدرك خطأه، بعد أن فتح شهية أبو حسين للقبض على أجهزة المخابرات في البلد، أقنع الرئيس به، وأوكل إدارته إلى المهندس، لكنه سيعمل تحت إشرافه.

لماذا وافق الرئيس على الجهاز؟ هذا السؤال لم يطرحه أبو حسين، لكن ما قاله يجيب عنه.

في الأشهر الأخيرة خسر الرئيس قدراً كبيراً من الأمان الداخلي، ثقته اهتزت بالذين حوله.

مثلما فقد من قبل، ثقته باللجان التي شكلت لمكافحة الفساد، اعتمد على أناس ظهر أنهم لا يقلّون فساداً عن الذين يحققون معهم. لذلك تشكيل الجهاز تعبير عن أعز أمانيه، في قيام دولة نقية خالية من المفاسد، وإذا كان الجهد الرئيسي سينصب على المخابرات، فلأن المسؤولين لا يمارسون عملياتهم غير القانونية من دون تغطية كاملة من ضباطه، ما يعزز فرضية أنهم شركاء تجاراتهم، والشراكة أيضاً على أمور أخرى، يخشى أن تمس بأمن الوطن والمواطن.

بالتالي، سيحاط الجهاز بالسرية القصوى، لن يُعلَن عنه، حرصاً على أداء عمله من دون تدخلات. كما لن يكون له واجهة ظاهرة للعيان، لا بناء ولا عنوان، تقليص العاملين فيه إلى أقصى حد، والأفضل بلا موظفين. قاطعه المهندس متعجباً:

«بلا موظفين!».

«ستضطلع وحدك بالجهاز».

ولم يَعُد استرسال أبو حسين بالكلام سوى أنه يلقيه جزافاً، حول منصب بلا فاعلية، وعمل بات لغزاً، ليس أكثر من تكليف وهمي، وقد لا يكون هناك جهاز، مادام لا يمكن تخيله إلا مشلولاً عن العمل.

تابع أبو حسين توضيح ماهية الجهاز الذي لم يكن سوى شبه جهاز، المهام رغم أنها رسمية، سوف تمارس بشكل شخصي، يمكن الاستعانة من وقت لآخر بالتعاقد مع شخص موثوق، لديه الخبرة والقدرة على اكتشاف مخالفات ارتكبت في قضايا مشبوهة، من دون أن يعرف الغاية من عمله.

طلب المهندس إيضاحات إضافية، فأعاد أبو حسين الشرح، مع توسعته قليلاً بعدما لاحظ فجيعة المهندس باقتراحه الذي مسخ، فأكد أن «الجهاز الخاص» سيضم بضعة أشخاص، اثنين، ثلاثة لا أكثر، لئلا تتفشى أخباره.

حدس سليمان عندما أدار أبو حسين وجهه عنه، أنه كان يخفي ابتسامته، لكن عندما ارتد إليه

كانت ملامحه صلبة، أصلب من الصخر. كان تحجيم الجهاز مقصوداً. اعترض على هذا العدد المحدود جداً الذي لا يفي برفع قضايا مدعمة بالوثائق والمستندات، الرئيس أول من يعرف أن جهازاً ضخماً من عشرات الموظفين، مزوداً بصلاحيات واسعة، سيخفق في إداء مهامه بكفاءة. وفي حال حقق نجاحاً، فهو جزئي، لضعف الوسائل. وفي النهاية، ما الضمانة لمحاسبتهم؟ على الأرجح لا عقوبات، سينالهم ما نال غيرهم من قبل. تساؤله الأخير، كان ليخلق العراقيل لاستنكافه عن المهمة.

تمحورت تطمينات أبو حسين حول لجان الكسب غير المشروع وغيرها، حول أنها لم تبد الكفاءة المطلوبة، بسبب مخاوفها، ما دفع الرئيس عن حق، إلى الإيعاز بإيقاف أعمالها، وإنهاء التحقيق مع المشبوهين بقضايا اختلاس وتزوير واحتيال. كان الإيقاف مشروطاً بأن تعاود لجان أخرى العمل نفسه، مع تلافي ما ارتكب من أخطاء بمنحها صلاحيات وضمانات أكبر. كل هذا تأجل بسبب الأوضاع السياسية، سلامة الوطن لها الأولوية.

أما الآن فالأمور تغيرت، بالنسبة للجهاز الخاص، سيتعامل الرئيس مع الذين ثبت فسادهم على أنهم يتعدون على سلطته، لن يتسامح معهم، حتى ولو كان أخوه أحدهم. وإذا كان قد تساهل من قبل مع رفاق الدرب الذين صنعوا معه الثورة وشاركوه حركة التصحيح، فمن الآن وصاعداً، ليس مضطراً لدفع ثمن ولائهم له بالتستر على فسادهم وجرائمهم. إن ولاءهم ليس له، ولاؤهم الحقيقي للمال وحده. الرئيس لديه القناعة الكاملة في أن أمن الوطن وأمنه الشخصي يمكن أن يشترى بالمال الأجنبي، لو تركا لهم.

الجهاز أصبح أمراً واقعاً.

لكن المهندس لم يكفّ عن وضع العراقيل، مادام تعداد العاملين في الجهاز لن يزيد عن ثلاثة:

«هل يمكن توفير الأمان للعاملين في الجهاز حتى إتمام أعمالهم؟».

كان في السؤال سخرية، مهما كانت الاحتياطات المتخذة لسلامتهم، فلا أمان، البحث وتقصي المعلومات وإعادة فتح قضايا وسجلات تخص رؤوس النظام، لن تبقى سراً، سوف تتسرب لا

محالة إلى أشخاص لا يتورعون عن القتل من دون أن يرف لهم جفن.

وعد أبو حسين بتوفير عناصر حماية مسلحة، كان يعرف أنها لن تشكل مانعاً، سيقتلون هم أيضاً. فتردد المهندس، ولو كان في إبداء تردده مجازفة، فقال له إنه يريد التفكير في ما إذا كان قادراً على القيام بما سيوكل إليه، مظهراً عدم حماسته للجهاز الخاص، مع تلميح قوي إلى أن من الأفضل استثناءه من العمل.

بمجرد مغادرته، طرح من رأسه الجهاز الخاص، لكن عندما جلس في مكتبه، ارتدّ ليلوم نفسه. ما باله مثل الأحمق؟ لقد بالغ بمخاوفه، هل يضيّع فرصته التي اختلقها بعد طول انتظار ويأس، إدارة مركز مصغر، ذي تأثير بالغ القوة؟ مهما يكن لا ينبغي الاستهانة به. فكر، رغم أن أبو حسين منحه جهازاً مشلولاً يفتقر إلى محققين ووسائل تعذيب جسدية ونفسية، لم يتنازل عن قيادته!!

بالنسبة إليه، لا يحتاج إلا إلى بضعة موظفين خبراء يسترشد بهم، يزود الرئيس بنسخة عما يتوصل إليه من مفاسد، قد يرمي بها إلى سلة المهملات، أما هو فسوف يحرز بنكاً للمعلومات، يحميه سواء في هذا العهد وغيره، يكون سلاحاً بيده، مصدر تهديد، يحصّنه منهم.

لن يطول ندمه، استدعاه أبو حسين قبل انتهاء الدوام، وأخبره بأن الرئيس وافق على توسيع ملاك الجهاز، على ألّا يزيد تعداده عن عشرة أشخاص. لم يجهد ذهنه، لم يبذل أبو حسين مساعيه إلا ليقطف ثمار الجهاز الخاص، على التأكيد، يفكر مثله، الاستفادة من بنك المعلومات.

كان الجهاز قد أصبح أمراً واقعاً.

أعد أبو حسين برنامجاً للمهندس على مدار أسبوعين، تضمن جولة استطلاعية على أكبر قدر من الأجهزة الأمنية والإدارات العسكرية، والوزارات والمؤسسات والنقابات المدنية، كي يتعرفوا إليه شخصياً، ويأخذوا علماً بلقبه، ومنصب غامض يخوله تمثيل القصر مع صلاحيات لا تخضع لأي تساؤل أو مراجعة، أو ممانعة، إلا في حال تبلغهم تعليمات رئاسية معاكسة.

كان من دواعي تقديمه إلى الجهات المدنية، إعلام هذه الجهات عن تمثيله للقصر الجمهوري بشكل رسمي، ما يخوله القيام بتفتيش دوري أو مفاجئ، يوجب عليهم فتح أبوابهم وخزائنهم على مصاريعها، وإطلاق يديه في ملفاتهم.

في جولاته الجديدة، توخى المهندس ألا يشير إلى مهماته، فاعتقدوا أنها جلسات تعارف مع فنجان قهوة، وبعض المجاملات. قادته مشاهداته إلى تحليلات عامة: اتحاد العمال لا يهتم بقضايا العمال، وهو أصلاً لضبطهم. والاتحاد النسائي لا يعنى بمشاكل المرأة، وإن كان يعتني بالمناسبات النسائية، ومجلس الشعب ضد الشعب، ومكان لإجراء الصفقات والمساومات. والصحافة تفتقر إلى حرية الرأي، والأدباء يراقبون الأدب ويمنعونه... فتأكد مما كان على اطلاع عليه، أن الحاجة إلى أجهزة المخابرات لم تكن اعتباطية، بل ماسة، كانت تديرهم وتدير أعمالهم، كما أنها بسيطرتها على الحزب وأحزاب الجبهة التقدمية والوزارات والمؤسسات والإدارات وكل ما هو تابع للدولة، تتصرف بالنيابة عنهم.

وبهذا لن يختلف عمله عن عمل الأجهزة، وإن وعى أمراً أساسياً، لا ينبغي الانزياح عنه، ولا التراخي فيه، أنه صاحب جهاز فوق الأجهزة، منفصل عنهم، صلاحياته غير المعروفة، تبدو بلا حدود. ولقد أصبح خلال فترة وجيزة جداً، ولم يكن قد بدأ العمل بعد، مرهوب الجانب، من ناحية تمثيله للقصر الجمهوري، قوة لا داعي لإثباتها عملياً، القول يكفي. لم تكن من مهماته الاصطدام بهم، ولا اختبار قدراته، بل قدراتهم، هل كانت على مستوى المسؤوليات الملقاة على عاتقهم؟ طبعاً سيغض النظر عن تجاوزاتهم الوحشية لعظم مسؤولياتهم الأمنية.

كان إحساسه بإمكاناته التي تتضخم على حساب مخاوفهم، قد جعله يتطلب الكثير، من دون الإفصاح عنه، الهدف ألا يضعه أحد في إطار محدد، ولقد نجح. أصبحوا يراعونه تحسباً لما يمكن أن يفعله، كانت مسؤولياته المدعاة تحيلهم إلى قدرته على البطش. كان الرقيب والممثل لسلطة عليا، الرئاسة، أي الرئيس، ما يعني أنه يتلقى تعليماته منه فقط، ولا سلطة لأحد عليه سواه، ما عزز مكانته في نظرهم.

غير أن علاقاته مع الجيش، لم تكن على مستوى علاقاته الطيبة مع إدارات الدولة. كان الجيش

في لبنان مكلّفاً بمهمة طويلة الأمد، لا يُعرف في أي مدى، منظور أو غير المنظور، سوف تنتهي. بينما الجيش المتمركز داخل الحدود عاطل من الدفاع عن الوطن، ومكلف بمهام أخرى، على رأسها حماية نظام الحكم. هل بوسعه تفتيش عمل ضباط يدّعون أنهم يدافعون عن القصر الجمهوري؟

الضابط السابق يعرف الحساسيات التي تحكم قطعات الجيش، فلم يعترض، أمام حاجز سرايا الدفاع، عندما امتنعوا عن استقباله، اتصل الضابط المناوب بالقيادة، فكان جواب قائد السرايا: اطردوه! فأدار ظهره وانطرد رضائياً. سلطة الأخ الشقيق للرئيس تفوق سلطة الرئيس في السرايا. وأيضاً قادة الفرق الذين استقبلوه على مضض، فتعرف إليهم، وإن كان يعرفهم، ولا يجهل أدوارهم في الانقلابات وفي دعم الرئيس. تقبّل عدم ترحيبهم به بكل سرور. لن يكرر خطأ الرائد مروان السنطري. أصبح كلما زار قطعة في الجيش، يترك خبراً في القصر الجمهوري عن مكانه. تفهّم أبو حسين مخاوفه، هؤلاء يستطيعون اعتقاله وإخفاءه عن الأنظار، إلى أجل غير معلوم، يدفنونه حياً ويُنسى أمره.

بعدما أسس لسلطة فضفاضة، لم تكن مطلقة إلا لكونها غامضة، بدأ تحت إشراف أبو حسين بتكوين الجهاز الخاص. اختار بشكل إفرادي، والتعبير الأدق، اصطاد من كل جهة عنصراً يعمل في موقع حساس، ليكون جاسوساً له، أعطاه وصف المراسل كي لا يكون في التسمية ما يسيء إلى مشاعر الجاسوس. فبات على صلة بالأجهزة، يزوده مراسلوه بما يجري في داخله، أغلبهم من شباب ضيعته. كما استقدم من الضيعة آخرين، وظفهم سائقين وعناصر حماية، جرى تدريبهم على استخدام الأسلحة الخفيفة والتنصت على المكالمات الهاتفية والمراقبة النهارية والليلية، يداومون في بناءٍ حديث من طابقين لا يلفت الأنظار، جرى فرزه خصيصاً للجهاز، مع سيارات سوداء، مفيمة الزجاج، وضد الرصاص، صحيح أنه تجاوز العدد المرصود، لكنه كان بالحد الأدنى.

في خضم بنائه صرح جهازه، كان مدركاً أنه سوف يستثمره لطموحه، عندما يأزف الوقت، ولم يكن قد حدده. أما الآن فالأولوية للبحث عن موظف صاحب خبرة في التجاوزات المرتكبة

في القضاء، على أن يكون نزيهاً، لا يخضع لأي تأثير، ولا يمكن شراؤه. هل يوجد مثل هذا الرجل؟ ربما في تخيلاته. لا، لن يبحث عن شخص لا وجود له.

قبل أن يضرب صفحاً عن الفكرة، تذكر القاضي الأستاذ رشدي، هذا الرجل كانت نزاهته سبب تعرض المخابرات له، إذا كان قد أصبح مستشاراً لوزير العدل، فلماذا لا يستشيره؟

٣

شهد السجن فترة تباعدت فيها العقوبات، كانت فترة ركود عابرة. قسوة الشتاء عوضت عن انتظام العقوبات وتلاحقها، رياح كانون الباردة تضرب الجدران وتهزها بقوة، أصواتها العاتية تنقضّ مزمجرة، بعضهم حلموا أنها ستقتلع المهجع، وتأخذهم معها إلى حرية من زمهرير وعواصف وليل وقصف ورعد. شدة سقوط الأمطار اقتلعت المشمع الشفاف الذي يغطي فتحات السقفف الكبيرة، باتت مفتوحة للسماء، برك المياه تتشكل في الحفر، لا سواتر تحميهم من البلل، البرد ينفذ من الأرض والهواء، ويخترق العازل والبطانيات والملابس إلى العظام. الرقابة مستمرة، حتى وهم نيام. لم تتغير صيفاً ولا شتاء، الحارس المناوب، يدق على السقف يوقظهم كل ساعة أو ساعتين. الاستيقاظ المفاجئ يبعث فيهم الرعب من عقوبة فورية، فتختلط عليهم الأمور، هل ستهبط من السقف أم تدخل من الباب؟ تراودهم شكوك تثير الأعصاب في مكان ضيق، محظّر التقلب من جانب إلى جانب. الاستيقاظ لا يحتاج إلى سبب، أحداث النهار تستكمل ردود أفعالها في الليل، هناك من يستيقظ هلعاً، يصرخ بأصوات مبحوحة، ويبكي بجعير مخنوق، مرتعش الأطراف، كأن ماساً كهربائياً سلط عليه.

في الصباح يبدأ نهار آخر، وانتظار آخر للمزيد من اليأس، هل سيقضي ما تبقى من حياته في هذا المكان؟ الحركات الوانية تكسر توتر السكون، وجلبة الخارج تحرك الظنون، بواعث الخوف موفورة، حملات التعذيب حسب المزاج، أو جراء وشاية، أو لسبب لا يعلمونه. رتابة الترقب، تجعل أتفه الأمور تحتمل تفسيرات أكثر تفاهة منها. حتى أن تأخر الأستاذ رئيف سمحوني في المرحاض أثار التقولات الجنسية عن العادة التي يمارسها الشخص سراً وحده دون شريك. لم يوفروه من ثرثراتهم، رغم أنه كان أستاذاً لمادة الديانة في الحياة المدنية، رجل في الخمسينيات من

عمره، رقيق الطباع، منطوٍ على نفسه، دائم الابتسام، يحمد الله على ما ابتلي به. لم تشفع له أن روائح المرحاض تقتل أية رغبة مهما حلّق بها الخيال.

جاءت بالأستاذ سمحوني إلى تدمر دروس الفقه التي كان يلقيها في مساجد حماه، وكانت من باب التبرع وفعل الخير، حضرها شبان من الطليعة المقاتلة من دون معرفته بميولهم المتطرفة، لم يتطرق فيها إلى الجهاد، كانت دروسه للتيسير على الناس قضاء مصالحهم. ضباط الأمن لم يتحروا صدقه من كذبه، مع أن سيرته المسالمة برأته من الشبهات القتالية. خبرتهم المخابراتية لا يستهان بها، بحوزتهم دليل عقلي لا يقبل النقض، بني على استنتاج صائب: إذا كان المقاتلون قد تتلمذوا على يديه، فلا ريب أنه واحد من قادتهم. لا حجة ولا برهان أقنعهم باقتصار دروسه على العبادات والمعاملات من بيع وشراء، بالرجوع إلى أدلتها الشرعية من الكتاب الكريم والصحيح من السنة النبوية. يتعمد شرحها بكلمات بسيطة، من دون تعقيد، كي تكون بمتناول الأفهام، فتداركوها في التحقيقات بتأويلها على أنها كانت في فقه الجهاد الميسر.

على الرغم من سخافة حادثة تأخره في المرحاض، لم تمر بسلام، أثارت الغضب، فقد تكررت، ليس في المهجع سوى مرحاض واحد مزدوج يتسع لاثنين تفصل بينهما ستارة تكشف أكثر مما تحجب، ما جعل الأقاويل تتوسع بحيث تشمل اثنين ولا تكتفي بهما، ما أدى إلى مشاجرات كلامية بين السجناء المتزاحمين خارجه والقاعدين في داخله. كلاهما لا يمكن لومهم، الذين في الداخل لن يخرجوا قبل قضاء حاجتهم، والذين في الخارج، محقّون في استعجالهم لهم. المرحاض ليس مكاناً صالحاً للترفيه عن الجسد، ولو كان تفريغاً للاحتقان.

القاعدون في الداخل، خلاف ما ظن المتزاحمون في الخارج، لم تكن حاجتهم التي يقضونها إلا خراء في خراء، لا حالة تفريغ جنسي، بل تفريغ خرائي. الأستاذ سمحوني، اضافة إلى موضوع الخراء كان يعاني من آلام معوية حادة، لا يكاد يخرج من المرحاض حتى يعود إليه تحت ضغط الحاجة نفسها، ومن شدة ما أصبح عاجزاً عن مقاومتها، يتقيأ على ملابسه، أو يتغوط فيها.

لم يسترع الحدث نظر الرقم ٧٧، إلا من حيث الفوضى التي أحدثها الزحام والصراخ، بينما نظر إليه عدنان من منظار مختلف بصفته طبيباً، الإسهال والإقياء أعراض مرضية، قد تكون

خطيرة، لا سيما المهجع موبوء، المجاري ملوثة تدل إليها روائح التخمرات والتعفنات، ومياه تسرح فيها الجراذين والصراصير، خصوصاً أنها التحقت بحالة سمحوني أكثر من حالة مشابهة، والأعراض نفسها، الإقياء والإسهال. ماذا تكون؟ عندما تكون وسائل التعقيم معدومة في جو مشبع بالجراثيم والطفيليات والفيروسات. ربما كانت... ولم يتجرأ على قولها.

عدم التصريح بمهنته الحقيقية من قبل منعه من إعلان تشخيصه، لم يكن واثقاً منه تماماً، كما لابد من الحيطة. شخصيته المتوارية خلف الرقم ٧٧ أخفت معها الطبيب الذي كانه، ووفرت عليه جرعات من التعذيب اللا إنساني، فتعايش مع رفاقه المساجين بأقل قدر من المنغصات، ملقياً عن عاتقه بكل ما قد يؤلمه، أو يحط من كرامته، أو يشغله عن أحزانه، تاركاً للرقم ٧٧ ابتلاع القاذورات، والتمرغ في السخام، وتحمل الإهانات والضرب. الرقم ٧٧ وهبه وقاية مجانية من مختلف أنواع الأذى المحتملة، لم يشأ خسرانها. لكن ماذا عما يؤذي الآخرين؟ ماذا لو كانوا مهددين بوباء مميت؟ الأعراض بدت أوضح ما تكون على الأستاذ رئيف سمحوني، كانت حالته تتفاقم باطراد نحو الأسوأ.

عند حلول وقت التنفس، اشتد الإسهال على الأستاذ سمحوني، فتخلف عن رفاقه الذين سبقوه وأعلموا الشرطي بحالته، ورجوه تحويله إلى مستوصف السجن. انتتر العسكري إلى المهجع؛ لا يبقى في المهجع إلا المساجين ذوو الجثث الهامدة. هجم عليه وجرّه من قميصه. لم يتمكن سمحوني من الوقوف على قدميه، انهار على الأرض، أخذته نوبة من الغثيان والتقيؤ، فتركه الشرطي بعدما توعده بعقوبة مسائية. قبل حلول المساء، ساءت حالته فوق ما كانت سيئة، نظرة واحدة كانت كافية للطبيب عدنان ليدرك أن تشخيصه الرهيب، يطابق حالة الأستاذ رئيف المتردية، جلد أعجف ترهّل على عظام هشة، نفس عافت الطعام، لم يزدرد لقمة منذ يومين، يشرب الماء ويتقيأه رغم شدة عطشه، الإسهال اضطره إلى ملازمة دورة المياه، أخرجوه منها محمولاً على الأيدي، بعدما تولى الشبان تنظيفه.

تراجع الرقم ٧٧ نحو الخلف، وهو يظن أنه يخلي مكانه للطبيب عدنان. في الواقع، أبعده الطبيب جانباً، وانبرى يفحص الأستاذ الغارق في عرقه ولهاثه؛ عينان غائرتان، لسان تشقق من

الجفاف، الزرقة ضربت شفتيه وأطراف أصابعه. وضع أذنه على صدره، النبض سريع، خافت وضعيف، وضعه الصحي تدهور خلال الساعات الأخيرة من بعد الظهر، ما عزز شكوكه. كان إزاء حالة مرضية، تشخيصها لا يحتاج إلى تحاليل وصور.

خبط على الباب ونادى الحارس المناوب، فجاء بعد حين حانقاً وشتمه. طلب منه إبلاغ الرقيب المناوب عن مريض لابد من نقله فوراً إلى المستشفى. دعه يموت، أجابه الحارس. بعد صراخ وخبط وتخبيط شارك فيه المساجين، جاء طبيب السجن غاضباً، وشتم الحارس لاستدعائه ليلاً من أجل سجين مريض. ثم شتم عدنان لأنه كان في مقدمة المساجين، وتوعد المهجع بعقوبة إذا كان المريض ليس مريضاً.

أخبره عدنان بحالة الأستاذ رئيف، وتطرق إلى الأعراض، من دون ذكر التشخيص، لئلا يثير الذعر بين المساجين والعسكر المناوبين. الأعراض تشير إلى وباء لا يخفى على طبيب مبتدئ. أدار طبيب السجن ظهره؛ الصباح رباح، وأجّله الى الغد. لم يدعه يمضي؛ إنها حالة كوليرا متقدمة. فارتدّ نحوه الطبيب غاضباً، من أنت حتى تشخص الحالة؟ قال له، أنا طبيب. ولكي يدلل على خطورتها أكد، إذا لم يعالج الآن، فسوف يموت خلال ساعات ثلاث لا أكثر.

بعد تردد، قال طبيب السجن: إذا لم يمت قبل الصباح فسوف تعاقب حتى الموت، ثم سمح بإخراج المصاب على بطانية. حمله اثنان من المساجين ووضعاه في الخارج على مقربة من الباب، لم يسمح لهم الطبيب بالتقدم أكثر. أضاء الحارس رأس الأستاذ رئيف بالمصباح اليدوي، قرفص الطبيب، لم يلمسه، تفصحه بالنظر. تضايق من رائحته. سأله، منذ متى لم تغتسل؟ لم يجب. نهض، وأوصى الحرس ألا يستدعوه صباحاً قبل أن تتبخر رائحته الكريهة. تركه في العراء وذهب، بعد ساعتين أسلم الأستاذ رئيف الروح.

صباحاً، عاد الطبيب، لم يكن وحده، كان الرقيب المناوب معه، قال ضاحكاً، خدعوك يا دكتور، هذا العرص نائم. حاول الحراس إيقاظه، فمنعهم طبيب السجن، كان كما تركه البارحة ليلاً ملفوفاً بالبطانية، تفوح منه رائحة الإقياء والغائط نفسها. لم يقترب منه أكثر، سد فتحتي أنفه

بيده، وفحصه بدفعه بمقدمة حذائه، لم ينبس الميت بكلمة أو آهة. رفسه الرقيب بقدمه، فلم يأت بحركة. كان الميت ميتاً فعلاً. صرخ الطبيب، قبل أن يواصل الرقيب ضربه عقوبة على نومه الثقيل: كوليرا. وتراجع إلى الخلف خشية العدوى، بينما قفز الرقيب مبتعداً.

من شق باب المهجع، شاهدوا العسكر يجلبون بطانية ثانية لفّوا الجثة بها، سمعوا الرقيب يتشاور مع طبيب السجن، يدفنونه أم يحرقونه؟ لم يستقروا على رأي. بعد جدل، حمله العسكر ومضوا به، ليدفن في تلك الحفرة المجهولة بالصحراء.

الفصل التاسع

نقاط سوداء في جبين العدالة

احتل توقيف القضاة حيزاً كبيراً من النمائم المتداولة في دوائر القصر العدلي بزعم أن المخابرات كشفت عن خلايا نائمة. الشكوك التي حامت حول الأستاذ رشدي، لم تضر بسمعته، بل أضافت إليه رصيداً من الاحترام، لكنها أوهنت عزيمته. بدا كأنه كبر عشر سنوات دفعة واحدة. أكثر ما آلمه من تداعيات قضيته، أنه على الرغم من براءته تابعت طريقها من فرع إلى فرع. لأول مرة يجد نفسه متهماً، مع أن القضية ضده أغلقت، لكن التلميحات بشأنها بقيت معلقة، ولقد أقلقته، لم يعد يشعر بالأمان، بوسعهم في أي وقت تلفيق تهمة له، واستدعاؤه إلى التحقيق؛ سنين خدمته في القضاء لم تشفع له. واذا كان قد نجا هذه المرة، فالمرة المقبلة لن يحميه أحد، هذا اذا انتظروا المرة المقبلة ولم يستدركوا الحالية. كان في تسجيل سابقة ضده، إشعار بتعطيل الحصانة التي تمتع بها جراء صداقاته ومعارفه، الذين شجعوه في ما مضى على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة القضاء.

لم أهتم بتوقيفي في المخابرات، ولا بنقلي التعسفي إلى عمل مؤقت داخل قصر العدل، ريثما يتخلصون مني. ما حدث لم يؤثر في سمعتي المتواضعة، وإن دلَّ على أنه غير مرضيّ عني. لم أكن حريصاً على تبرئة نفسي باسترضاء الأجهزة، كما أن ما طمح إليه الأستاذ رشدي، لم يعد

يستهويني في ظل هذا النظام، إذ لا شيء يمكن إصلاحه، إما أن تكون تابعاً أو لا تكون. كانوا ينظرون إلى القضاء على أنه قضاؤهم، والقضاة على أنهم صنيعتهم، يتصرفون بهم كما يشاؤون.

كان الأستاذ رشدي من جيل أوصلته انتهاكات القانون إلى أنّ العدالة في مأزق، وربما بالإخلاص والجد تنجو منه، كان المبرر الأكبر لنضاله في سلك القضاء. اعتقد أن ممارسة الانتقادات من الخارج لا تفيد، ولن تكون إيجابية. كانت فكرة النقد البناء سارية في أوساط الحزبيين والمثقفين. اختار الإصلاح من الداخل، لم يدر أن ما يحاول إصلاحه كان مقصوداً تخريبه. يسود الفساد في غياب القانون. وإذا كان قد تنقل بين الألغام من دون مخاطر جدية، فبسبب علاقاته الجيدة مع بعض الأطراف السياسية من بقايا الحزبيين أيام البراءة الأولى. كانوا مثله يحملون وهم هذا الاعتقاد، عن يقين أو عن ادعاء، مع الوقت تناقصوا، وباتوا هم أنفسهم محل إزعاج.

ما حققه كان ضئيلاً، بل وانقلب ضده، أصبحت العدالة ملاحقة، والقاضي مداناً، مع مقاربته نهاية المطاف، كانت الصدمة نموذجية، والإحباط قوياً، لكنهما لم يشلاه عن التفكير، ولم يأمل كثيراً. عزاؤه أن هذا الزمن ليس استثناء، لكنه الأقسى.

شكل إيقافه عن العمل نكسة كبيرة مؤلمة له، توجت نهاية خدمته في القضاء بالنكران، وشددت الأوامر على إبقائه تحت تصرف الوزير، فعيّنه لديه، موظفاً كبيراً، بلا صلاحيات. في منصب مستشار، وكان مستشاراً لا يستشار.

كانت عملية الاستغناء عن الأستاذ رشدي وأمثاله مطروحة منذ زمن بعيد، ومفروغاً منها، لكنها تعرقلت لأسباب شكلية، كان المظهر الخارجي للقضاء مهماً جداً، ليس لأنه كان منخوراً، وينبغي أن يظهر بشكل لائق فقط، بل حفاظاً أيضاً على قدر ضئيل من القانون. وكان وجود الأستاذ رشدي على رأس منصبه مع بضعة قضاة على شاكلته، مسوغاً لوجود جهاز القضاء، كجزء لا يتجزأ من الواجهة النزيهة لدولة باتت معقلاً للفساد. ولم يكن الإبقاء عليه بعد ما دعي بمؤامرة القضاة، أو الخلية النائمة في القصر العدلي، إلا للدواعي نفسها، ومن قبيل الاحتياط أيضاً، ربما احتاجوا إليه.

لم أهوّن عليه، لأنني لم أرد التهوين على نفسي. كنت على نحو ما رغم الفوارق بيننا شبيهاً به. لم تكن لدي أوهام ولا تعلّات. ولقد دفعتني معرفتي بأنني أعيش في عالم تحكمه مراكز القوى والوسطات والمال والرشاوى والدعارة... إلى تفهم ألّا جدوى من إحداث تأثير معاكس، وكان في المحافظة على نفسي من الوقوع في مهاوي اليأس، أمر جدير بالعمل عليه، وكأن الأمر سباق، كان كل ما حولي يدعو إلى الاستسلام. في تلك الفترة الحالكة من حياتي، أنقذني عنادي.

داومت في القصر العدلي، وكان عملي لا يزيد عن قراءة مقترحات لتعديل الإجراءات الشكلية لبعض القوانين المعمول بها والتعليق عليها، لم يأخذوا بالتعديلات، إذ لم يكن معمولاً بالقوانين أصلاً. هناك قانون آخر، قانون الاستثناءات غير المكتوب، يحابي القلة فقط. لم أرتجِ شيئاً من عمل، كان لملء الفراغ فقط، ولقد عملت بجد. كان الاستمرار على هذا النحو البائس، مهزلة، تبدو كأنها مأثرة.

هذا الإيقاع اللامجدي، أوقعني في براثن الملل، وكاد أن يزهق روحي، غير أن ظهور الموظف القادم من القصر الجمهوري ثانية، الموظف الكبير نفسه الذي أنقذ قضاة الخلية النائمة من مخالب المخابرات قبل أشهر، عاد لينقذنا من الانتظار المديد، ريثما نتحرر من العمل في الدولة. لم يكن سواه: المهندس.

لحظة وقع بصر الأستاذ رشدي عليه، خمن أنه لم يأت لزيارة عادية، بل ليتقاضى ثمن ما فعله، أو لأمر يتجاوز القوانين، وقد يضطره إلى مخالفة ضميره. لا بأس، لقد خالفه أكثر من مرة، وإن كان بدواع وطنية وقومية، من دون إيقاع خسارة بأحد، الدولة خسرت، سُرقت أراض عائدة لها، كما برأ أناساً من جرائم الاحتيال في المناقصات، كان فيها إضرار بالاقتصاد الوطني. وإن عمل جاهداً على أن تكون الخسائر في الحد الأدنى، لكن الضمير تضرر من جرائها، كانت بكل المقاييس خيانة للبلد. ترى أية مخالفة سيطلب المهندس منه تجاهلها، أو ارتكابها؟

كانت لديه حجة قوية، أنه لم يعد قاضياً.

لم يخطر له هذا الخاطر السلبي بشأن المهندس، إلا لأنه استلفت نظره في الفرع، كانت سطوته

حاضرة وقوية، وأظهر له ضباط كانوا في منتهى الفظاظة والوقاحة، منتهى اللطف والكياسة، فسأل عنه، كانت المعلومات هزيلة حوله؛ ضابط سابق، انتقل إلى القصر قبل بضعة أشهر، علاقته بالرئيس حسنة، لا يمارس عملاً محدداً، حالياً يمثل القصر.

ما توصل إليه أيضاً، أن موظفي القصر يجهلون اسمه، أُشيع أن هناك أوامر مشددة بعدم التصريح به، فلم يستعلموا عنه لئلا تؤوَّلَ تساؤلاتهم على أنها تجسس على شخصيته ومهامه المتكتم عليها. قيل إنه لم يكن مهندساً، وسواء كان أو لم يكن، فلقبه الشائع التصق به. لكن، وليكن بعلمك، كن منه على حذر، لم يتورع عن أن يؤذي أقرب المقربين إليه، إياك أن تنتقده، ولو بكلمة عابرة.

احتضنه المهندس بقوة، على وجهه ارتسمت ابتسامة جامدة، لم تكن ابتسامة، إلا لأنها ليست تكشيرة. اعتذر عن تقصيره نحوه، كان ينبغي أن يزوره عقب الحادثة ويطمئن إلى أحواله. فهم الأستاذ رشدي من خلال حديثه معه أن المهندس لم يقصر بالسؤال عنه. كانا قد تعارفا عن بعد، وإن كانت المعلومات غير متساوية.

افتراضه كان في محله، بعد المجاملات التقليدية، نحّى المهندس الرسميات المرائية جانباً، وتكلم عن آخر المستجدات السياسية، وما يتعرض إليه البلد من مؤامرات، ما يستوجب التصدي لها بتحصين الجبهة الداخلية من الخروقات، ليكون البلد قادراً على مواجهة التحديات التي تفرضها الظروف الدولية.

ما كان أبعد الأستاذ رشدي عن هذا الحديث، ليس لأنه لا يهتم بالبلد، كان الكلام لا يزيد عما اجتره المسؤولون طوال سنوات عن مؤامرات لا ينقطع سيلها، حتى المهندس بدا في حديثه أنه تلقفه من التعليقات السياسية التي تعقب نشرات الأخبار، وأعاد صياغته على نحو غير متقن، هو نفسه غير مقتنع به. وعندما تطرق إلى كواليس السلطة، لم يأت على ذكرها إلا ليؤكد على كثرة معارفه، وكان لا يقتصر على المسؤولين الصغار أو الكبار الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً، وإنما رجال القرار الذين يصنعون سياسات البلد، مع أنه لا يصنعها سوى شخص واحد. لم يكن المهندس واقعياً، إلا في أمر واحد فقط، عندما أشار إلى الفساد، تكلم عن خفض

حجمه، لا كما يُزعم دائماً، القضاء عليه.

ثم انتقل فجأة إلى موضوع فاجأ الأستاذ رشدي. تظاهر المهندس أنه تذكره، آه... كاد أن يذهب من دون التطرق إليه مع أنه جاء من أجله، يخص موضوع الفساد بالذات. وهو أمر في منتهى السرية. حالياً يجري في القصر التفكير بتشكيل لجنة من عدة أشخاص، سيتولى الإشراف عليها، أراد أن يستشيره بشأنها، حول إمكانية البحث في تجاوزات المسؤولين والضباط الكبار، ما الخبرات المطلوبة ليكون عملها فعالاً ومنتجاً؟

قال الأستاذ رشدي، الأمر يتوقف على ما يتمتع به القاضي من حرية في فتح قضايا طويت، ومن ناحية أخرى، ألّا تربط القاضي صلة بأصحابها، كي لا تؤثر فيه. أما التنفيذ فعائد لما تتوخاه الجهة التي أمرت بتشكيل اللجنة.

سأله المهندس عن إمكانية إيجاد ملفات لقضايا ارتكبت المحاكم التي فصلت فيها مخالفات، سواء في القصر العدلي أو إدارات أخرى. وهل من الممكن كشف التجاوزات حتى بعد مرور سنوات، وكتابة تقارير بشأنها، أشبه بتحقيق موثق بالمستندات، يكون دليلاً على إدانتهم.

ألقى الأستاذ نظرة عبّرت عن دهشته، طالما شُكلت لجان (من أين لك هذا؟)، أجرت تحريات، وأدين أشخاص، لم يعاقب أحد منهم، ثم لم يعد يُسمع شيء عنها. فهم المهندس معنى نظرته، وحزر ما دار في خلده، ومع هذا، تابع، هذه اللجنة، لن تكون كسابقاتها، إن الحاجة باتت ماسة إلى تنظيف الدولة من نقاط سوداء كهذه في جبين العدالة، من دون النظر إلى مكانة المسؤول أو الضابط مهما كانت. وختم كلامه بالإصرار نفسه، لا يمكن أن يقوم بهذا العمل إلا رجل نزيه، لديه الخبرة الكافية، ويستحيل شراؤه.

لم تختف ملامح الدهشة عن وجه الأستاذ رشدي، لم يخطر له، ولو للحظة واحدة أن حضور المهندس على علاقة بالنزاهة، وأن يستعمل الحجة نفسها: التنظيف، إضافة إلى التعبير الجميل والبليغ: نقاط سوداء في جبين العدالة. على أن دهشته ستبلغ مداها عندما أعلمه المهندس

بصراحة أنه لم يأت ليستشيره في هذا الأمر فقط، بل وقع الاختيار عليه لتوافر الشروط اللازمة في شخصه. أجاب الأستاذ رشدي بحدود الاستشارة:

«إنه جهد ضائع».

كما أن لديه سبباً يمنعه من المشاركة:

«تعلم أنا مستبعد من العمل بتوصية من المخابرات».

مومئاً إلى أنه استبعد للسبب نفسه، الذي اختاره بموجبه: النزاهة!! أليس هذا تناقضاً؟ لقد كفّوا يده عن العمل. طمأنه المهندس إلى أنه تكلم مع الوزير حول هذا الأمر. الوزير رحّب، ولم يمانع، بل وأيده، عندما عرف أن السيد الرئيس مهتم بهذا الموضوع.

«خلافك مع المخابرات، رفع أسهمك لدى الرئيس. ولمعلوماتك، الوزير لا يعرف شيئاً سوى أنني سأكلفك بمهمة سرية، لن يشاع عنها شيء، ستعمل منفرداً، وأعدك بأن تطلق يدك فيها، وبضمانة شخصية من الرئيس، ستلمسها عندما تباشر عملك».

الأستاذ رشدي لم يعترض، كانت فرصة طالما سعى إلى شبيه بها، لكن أن تتحقق بأمر من الرئيس، فحظوظها في النجاح جيدة، إذ لا عرقلة، ولا استدعاء إلى الأمن، أو صحافة تؤيد أو تشكك، وما دام أنها سرية، ولا شيء سيتسرب عنها.

وما كان أشد عجب الأستاذ رشدي عندما قال له المهندس، إن اللجنة لن تضم شخصاً سواه، ومن الممكن تسهيلاً لعمله أن يساعده قاض آخر، فوقع اختيار الأستاذ رشدي عليّ، ليس كي أساعده، وإنما كما ارتأى، إذا كان سيقوم بالجانب العائد إلى قضايا المحاكم، فالشخص الثاني سوف يبحث في القضايا العالقة في هيئة التفتيش.

لم يحتمل قبولي من المهندس سوى بضعة أسئلة بشأني، وجرت تزكيتي لهذه الأسباب؛ لا علاقة لي بأي حزب (لا حزب الدولة ولا غيره)، أو بالأجهزة المتنفذة (الأمنية وغير الأمنية)، ولا وساطات (قرابة أو معارف). أعجب المهندس من كوني حراً تماماً من هذه الصلات، لا جهة

تؤثر فيّ، أو تضغط عليّ. لم يكن لديه سوى اعتراض واحد:

«لكنه بلا خبرة واسعة».

«ما ينقصه من خبرة، تعوضها نزاهته، لولاها لبقي في عمله».

كان على رأس قائمة طلبات المهندس، الواجب التقيد بها: عدم تعمد أن تكون التقارير إيجابية في صالح أي مسؤول مهما علا منصبه، بل حقيقية، مهما كانت سلبية.

حتى إن الأستاذ رشدي أحس من لهجة المهندس، أنه من المحبذ أن تكون سلبية جداً.

عندما التقيت بالمهندس أصيب بالخيبة، كان عمري سبعاً وثلاثين سنة، توقعني أكبر، مع أنني أجايله. لم أستلطفه، بدا متعجرفاً، بملامحه الصلدة، يتعمد خلوّ وجهه من الايحاء بشيء. وقلت للأستاذ رشدي إن ملامح المهندس لا تجعلني أشعر بالراحة، على ماذا تدل؟

«إنه يتنكر بها».

لم يتشكل لدي انطباع واضح عنه، أو عما يريده. التعبير الوحيد الذي أظهره، ليس وجهه، بل حركات يديه البطيئة وأصابعه الرخوة، وتريثه مغمضاً عينيه، ثم إعادة ما قاله، كانت هذه طريقته في شرح أفكاره، تكرار الجملة نفسها، يتكلم بتؤدة، كأنه يأنف من الكلام.

عندما استرجعت مقابلتي معه، لاحظت كم كان حديثه المقتضب حافلاً باللف والدوران، مستخفاً بمسؤولي الدولة، من خلال تقييمه لهم. حذرني ألّا أهتم بمناصبهم، قضاياهم شأنها شأن أية قضايا أخرى، لا تتميز عنها بشيء. اعتقد أن إنجاز العمل لن يأخذ وقتاً طويلاً، طالما المسؤولون المعنيون مذنبون، السرعة مطلوبة. فحرصت على القول أنني لن أتهاون في البحث، أو أعول على السرعة. فاحتد النقاش بيننا، اعتبر إدانتهم مفروغاً منها، فقلت له، لا أستطيع مجاراتك، أنا لم أطلع على ملفاتهم بعد، قال لي وأنا أيضاً، معتمداً على أنهم معروفون بفسادهم.

ولقد أشعرني بتلميحاته الساخرة، أنني كنت متخلفاً عن العصر، لم تكن هناك لغة مشتركة بيننا،

كان عملياً جداً. وكان في حرصي على توخي الدقة، حرص على أخلاقيات العمل. لم تكن إدانة أي شخص بالأمر السهل. تحججت بأن مهنتي نفسها، تحضني على التروي، إرسال شخص إلى القضاء، يعني أنني أغامر بإرساله إلى السجن، ما يتطلب مني ألا أرتكب خطأ، مهما كان ضئيلاً.

أدركت إزاء هذه المهمة، أنني بتكريس نفسي لها، أكرسها لشيء يستحق أن يكون عملاً مثمراً لن يذهب هباء، بذلك أقتدي بالأستاذ رشدي. ومثلما لم يندم، أنا أيضاً لن أندم، على الرغم من خساراتي، التي عددتها مكسباً لي. وإذا نظرت اليوم إلى الشخص الذي كنته في ذلك الوقت، فقد كنت شخصاً عادياً، لدي بذرة من الأخلاق، لم تقض عليها تقلبات الزمن، ولكي لا أبالغ، أقول جاءتني ظروف، جعلتها تنمو، إلى ما رغبت في تحقيقه، وكنت محظوظاً، فالآمال تكاثرت. أقول هذا، لأنني شهدت موتها الواحد بعد الآخر، وما زال لدي الكثير.

في ذلك الحين، صفحت عن المهندس ارتباطه بسلطة غاشمة، المهمة نفسها أحيت في داخلي رجاء حقيقياً في أن يكون لي دور في القضاء على الفساد، بإسهامي في حملة البحث عن ملفات عائدة لأشخاص متنفذين، لأكشف عن ثغراتها القانونية، وأكتب تقارير حولها. وددت أن أكون مفيداً، بصرف النظر عمن سأتعامل معهم، لم أكن أعرف كيف سأتصرف، أو أين سأبحث عن ملفات الفساد العالقة في هيئة التفتيش، ولا كيف سأجدها، أو إلى أين سأذهب. ولولا الأستاذ رشدي لضعت هناك، قال:

«عليك بإدارة القضايا المستعجلة».

«لماذا؟».

«القضايا المستعجلة شرهة للمال».

١

لم يغب أبو حسين عن بال المهندس، كان على حذر منه، ما دام الجهاز الخاص تحت رقابته وطوع أمره، فلن يدعه يستقلّ به، نظراً إلى أن صلاحيات الجهاز تعلو على صلاحيات الأجهزة متفرقة

ومجتمعة. سيكون وسيلته للسيطرة على المتحكمين بالبلد.

أراحه قليلاً من وساوسه قدومُ أحمد من الضيعة. لم يملك نفسه، أفضى إليه بجانب منها، المنصب الذي نجح في الحصول عليه، لا تعلو سلطته سوى سلطة الرئيس، لقد دخل إلى عش الدبابير. لكن هناك من يشاركه فيه.

«أردت عملاً لم يسبقني إليه أحد، وعندما تهيأ لي، ها قد يسرق مني».

استعاد أحمد خاطراً راوده قبل سنوات حول سليمان، جوعه إلى السيطرة، تبدى منذ كانا في عمر اليفاعة. كان الوحيد بين شلة الأصدقاء الذي يعرب بفجاجة عن رغبته في تزعمهم. اختلف سليمان مع غالب مراراً. لم يلق بالاً لهذا النزاع، كان نوعاً من الولدنة، يشط قليلاً أو كثيراً، ولا يفضي إلى شيء ذي بال، لكنه تضخم، الظروف سمحت به. أكده سليمان:

«الزمن لنا؛ لماذا لا يكون زمني، إنها فرصتي».

وفسرها لصديقه المستغرب:

«هذا زمن العلويين».

«سيصيبنا بالويلات».

لم يقلها أحمد اعتباطاً، كان طموح الكثيرين من الذين هبطوا في دمشق وضاعوا فيها، التخبط بين رغبتهم في الانتقام منها، والاستحواذ عليها. عندما كان يلتقي بصديقهم عارف، تتردد في أحاديثه نغمة الانتصار، ما يبيح لهم انتهاكها، كأنهم هم الذين تغلبوا عليها، لا العسكر. ورطوا أنفسهم بكراهيتها، تحت زعم القضاء على البرجوازية. والآن تتكرر على مسامعه.

لاحظ سليمان انقباض ملامحه، قال ضاحكاً:

«لقد بالغت، إنها فكرة. مهما كان نوع العمل، المهم أن نجيده».

صديقه أحمد لا يعرف عن موهبته في تخطي المستحيلات؛ فعلُ شيء يعجز عنه الآخرون، ولو كان القتل، بل وأكثر من القتل، هل هذا ما تلمّحه الرئيس فيه؟

«هل الرئيس يعرفني أكثر مما أعرف نفسي؟».

«لا تظنه فائق القدرة».

وجود أحمد في العاصمة لم يكن بغرض الزيارة. كان كي يعيد إلى ذاكرة صديقه سليمان، الرسالة التي حمّله إياها الشيخ هاني، والتي وعد فيها الرئيس بحكم مديد، لا يقف عنده، بل سيمتد إلى ابنه، وابن ابنه... مبشراً بسلالة ملكية عائلية. الشيخ لم يتلقّ جواباً على رسالته، فحجب عنه نبوءته، ومنح ما يشبهها إلى شاب ورع من الضيعة يدعى المختار جعفر، لم يكن من رجال الدين، وإن كان متفقهاً فيه. اعتمده على أنه الإمام الناطق باسم الإمام علي. انقسم المريدون إلى جماعتين، مع النبوءة وضدها. وشطحت عالياً: إذا كان الله قد تجسد في الإمام علي، فما المانع في تجسد الإمام علي في المختار جعفر؟ دعوة الشيخ هاني تلوكها الألسن، وكما سخط عليه الكثيرون، حازت على بعض القبول والتأييد، غدت على الرغم ممن رفضوها وسخروا منها، مهيأة لأن تشطح أكثر، يبدو أن الله سيتجسد في الإمام المختار جعفر.

سليمان لم يقم للخبر وزناً إلا على أنه طرفة، لكنه أراد معرفة رأي صديقهم غالب في هذه التقليعة.

«يعتقد غالب أن سورية باتت مفتوحة للكثير من الصرعات، ما شجع المتنبئين الحمقى على استباحتها بالخرافات ما دام أنها لا تؤذي العائلة المقدسة».

لم يجد في مخاوف صديقيه ما يستحق الاعتبار، غالب لا تطلعات لديه، سوى انتقاد النظام، استسلم لتباطؤ الحياة، فأصبح أكثر تباطؤاً منها. لكنه لم يتصور أن تعليق صديقه أحمد غير الطموح، الراضي بقسمته من الحياة، القابع في الضيعة، القانع بوظيفته أستاذاً في المدرسة الإعدادية، سيلهمه من حيث لا يدري بالعمل الذي بحث طويلاً عنه، وكان عذابه. وإذ استعاد النبوءة، لطشت عقله تداعياتها، وفرضت نفسها عليه.

«هل قلت إن الله يتجسد في شخص؟».

«لا تتعجب، هذه المهزلة قد تنقلب إلى حقيقة».

من فرط ما خلبت لبّه، لم يهتم بجواب أحمد. ماذا لو وصل هذا الشاب إلى السماء، ألن يأخذ مكان الله، ولو كان في أذهان الناس؟ ألح عليه تساؤل، لماذا استحوذت عليه، وهي فكرة باطلة، بطلان العالم الروحي؟ شيء في رأسه عزف عليها، من دون إدراكها تماماً.

نهض، وترك أحمد يتكلم. وقف على الشرفة، يستنطق نفسه. نظر بعيداً، فتراكب منظر تلو منظر التقطها من شوارع حماه، عندما نجح مرتين في الإفلات من رئيسه المقدم وتجول فيها، حظي في المرة الأولى بالجنود يتزاحمون وقوفاً في خلفية سيارات الزيل، تلف بهم الشوارع والأزقة في طريقها إلى المبيت. كان استعراضاً للقوة والنكاية، خلفهم تتبعهم شاحنات التاترا والزيل محمّلة بالغنائم، يهتفون ويهللون رافعين أسلحتهم وأصواتهم عالياً:

لا إله إلا الله... حافظ ولي الله.

ولي الله؟! ما علاقته بالولاية؟ هوّة تفصل بين الرئيس، وما يهتف به الجنود. لا بأس، شيء من الايمان لا يضيره، عدا أنه ضروري للحكم، الرئيس نفسه لا يغفل عنه في المناسبات الدينية. ادعاء الإيمان ينفع في هذه الحالات.

في المرة الثانية، حظي بمنظر يفوق الأول:

ما يزيد عن مائة معتقل بقمصان ممزقة ورثّة، صدورهم عارية، يهرولون حفاة الأقدام، يعبرون شارع العلمين، الجنود على الجانبين يضربونهم بأعقاب البنادق، ويلقنونهم ما يرددونه:

قائدنا من القرداحة... بيعطي على الله لاحة.

يسوقونهم إلى المدرسة الصناعية، حيث سيعدمون، ثم تلقى جثثهم في حديقة المستشفى الوطني، ريثما تنقل إلى الحفر الجماعية.

ارتدّت الهتافات تتردد في سمعه، تهيب به إدراك مضاء مفعولها، وقوة تأثيرها، ليس في أناس لا تفقهها، بل فيه هو بالذات. ما يهللون به، ليس في أن دلالاته لا تأبه بالأديان، ولا تنقاد للعقل، بل ما هو أهم؛ الرئيس «بيعطي على الله لاحة»!! ليس هذا اكتشافاً، بل دعوة له إلى تلقف معناها الواضح، ليس ثمة أدق منها في التعبير عن المقصود منها بجلاء:

هذا الرجل لديه ملامح من الله.

شعار يتسامى بالرئيس، إلى صلاة، تعويذة أو دعاء، تهتف به جماهير خاضعة خانعة، وجنود يقتلون ويستبيحون النساء. لا يهم إن كانوا يعتقدون به أو لا، يؤمنون به أو لا. لكنه يفسر ما يتراءى لهم في ذلك الغموض النوراني الذي يحيط به.

ملامح الله!!

كشفٌ يبحث عمن يتبناه، ويأخذه على عاتقه، براءة اختراعه الأصلية من صنيع الضباط والجنود في حماه. سبق بدعة المأفون هاني والمختار جعفر. تجاهله للعقل، لا يبطل مفعوله، ما دام الناس يؤمنون بأي شيء.

الأمر ليس تحويل الرئيس من شخص عادي إلى شخص غير عادي أو خارق، بل إلى شخص يتخطى البشر بعظمته، مقدس ومعصوم من الخطأ، ما يرفعه إلى مقام الرسل والأنبياء وأكثر، إلى ما يشبه الله، رديف للرب.

ما دام لن يصدقه أحد، فليأخذ الفكرة الكبرى والأعظم: الرئيس مؤهل لاحتلال مكان الله.

أو لماذا لا يكون الله؟! أليس هو الأولى به من مهابيل الضيعة؟ دعوة تحفل بالعظمة المطلقة، ستمنح الخلود للرئيس. عندئذ من سيتجرأ على منازعة رئيس محصن بالخلود؟

الله تجسد فيه، وما ظهوره واعتلاؤه عرش سورية، إلا إيذاناً بمتغيرات تشمل الزمان السوري الآتي.

فكرة تتضاءل أمامها كل الألقاب الفخرية التي منحتها له المؤسسات والنقابات في لافتاتها، ورسمته على أنه القاضي الأول، والعالم الأول، والمثقف الأول، والجندي الأول، والصيدلي الأول... هو البريء من كل هذه الألقاب، لم تؤخذ بالاعتبار، لكنها أرضت غرور الرئيس.

وجد وظيفته، الأدرى بها، وبما سيتأتى منها، وينجم عنها، والأجدر بها، القادر وحده على القيام بها. لقد عثر على ضالته:

معبود، لن ينقصه العباد.

٢

قبل أن يتحرك إلى القصر للإبلاغ عن وظيفته التي عثر عليها أخيراً، اصطحب أحمد إلى الضيعة، عند المدخل ودّعه، وارتدّ عائداً إلى فرع المخابرات في المحافظة.

في الفرع، استقبل بما يزيد عن الاحترام والتهيب، أبلغ رئيس الفرع انزعاج الرئاسة مما وصلها من أخبار عن حراك ديني طائفي مشبوه. أبدى رئيس الفرع استغرابه، ففاجأه بما يدور في منطقته، وختمها تعقيباً على ظهور إله فيها:

«إذا كان العلويون سيحتكرون الإله، فسوف نثير علينا باقي الأقليات، ولا تنس الأكثرية السنية، سيقولون إنهم الأولى به».

خلال أقل من نصف ساعة، جاؤوا بالشيخ هاني والإمام المختار جعفر، ومن وجدوهم معهم. وبوشر على الفور بالتحقيق مع المختار جعفر، بينما الشيخ هاني والمريدون في الدهليز الملاصق، يسمعون توسلات الإمام وبكاءه، في حين يفترض، ألا يتوسل ولا يبكي ولا يتألم، مهما كيل له من الصفعات، فارتعبوا وتألموا مثله وأكثر. خيب ظنونهم، هذا الذي سيجير الناس، يستجير بالله والأنبياء والأئمة، وضباط الفرع، والغليظ الغبي حامل السوط، الذي انهال عليه ضرباً. خافوا أن يلحقهم الدور وينكّل بهم، في الفرع لا كرامة لأحد، ولو كان نبياً، أو حتى إلهاً.

أطلق سراح المختار جعفر بعد نكرانه قابلية تجسيده أي كائن أثيري، علت مكانته أو انخفضت، وتبرأ من ادعائه الصلة، أو التواصل مع أرواح الأئمة. وتعهد كتابة ألا يقوم بأي فعل لاهوتي أو ناسوتي، روحاني أو مادي، سماوي أو أرضي، بضمانة الشيخ هاني الذي تنصل منه، وأقسم بأعظم الأيمان ألّا نبوءات ولا تنبؤات بعد اليوم.

في غرفة رئيس الفرع، لا يفصله عنهم إلا جدار، حرص المهندس وهو يتبادل الحديث مع الضابط رئيس الفرع حول الأوضاع في البلد، على إطالة مكوثه بطلب المزيد من الشاي والقهوة. لم يغادر قبل الاطمئنان إلى سير الإجراءات التي أدّت إلى تخلصه من المنافس التافه لخطته المصيرية.

والآن إلى الرئيس ليبلغه الرسالة، ليس الرسالة الخالدة التي يعرفها، ويتلطى خلفها البعثيون، بل الرسالة الخالدة التي ستعهد بها إليه السماء، مرشحاً للألوهية على الأرض... من دون منازع. غير أن الرسالة السماوية تحتاج إلى بعض الخطوات الأرضية، روتين القصر الجمهوري لا يهتم بالنبوءات مهما كانت قدسيتها. سيتكتم على مشروعه السماوي، لن يبوح به لأحد، خصوصاً أبو حسين، لو أعلمه بسره، فلن يعسر عليه اختلاسه. مشروع غير قابل للشريك ولا للشراكة.

ألح المهندس على العم صبحي في تدبير موعد مع الرئيس بأقرب وقت، على ألا يُعلم أحداً بطلبه. لم يكن العم بحاجة إلى تنبيه، هذا الأحد ليس إلا أبو حسين، لم يسأله إذا كان فيه إضرار بغريمه، لكن بما أن الطلب كان خفية عنه، فلابد أنه سيسيء إليه.

كبح العم صبحي من اندفاع المهندس؛ أقرب موعد لن يحل قبل شهر. المبعوث الأميركي عاد إلى المنطقة بعد غياب شهرين، سيعقد مع الرئيس سلسلة لقاءات حول أوضاع ازدادت تدهوراً. الأجواء متوترة في القصر، الرئيس اللبناني المنتخب برعاية إسرائيلية أميركية، سيطالب بخروج الجيش السوري، الفلسطينيون مهددون بالترحيل الفوري من لبنان. المباحثات جارية لعقد اتفاقية سلام بين إسرائيل ولبنان. هل سيمررها الأميركيون رغماً عن الرئيس؟

لبنان يتأهب لسلام قسري، أو الحرب من جديد، وكانت تنتظر شرارة لتندلع.

تراجع مشروعه الخارق بضعة أسابيع تحت ضغط الأحداث. كان لاستقراره النفسي أثر في استرخاء مزاجه المضطرب. أخيراً انزاح عنه كابوس الفراغ، ما أشعره بثقل الوحدة، أحس بها تُضيّق عليه رغم مباشرة القاضيين العمل في القصر العدلي وهيئة التفتيش.

أحس بالحنين إلى ماض كانت فيه امرأة إلى جانبه، ترى ما حال لميس؟ كلف عنصرين بمراقبتها بالتناوب. فعرف أنها نادراً ما تتردد على الجامعة، مشغولة بأمها، نقلت إلى مستشفى المجتهد بحالة خطرة، كانت تلفظ أنفاسها ثم تستردّها، حسب الطبيب المعالج؛ يبدو أنها خرّفت حتى في الذهاب إلى الموت.

حالة الأم الميؤوس منها جعلته يعيد النظر في لميس، فكر في المحنة التي جمعته بها، لميس لم تكن سيئة كما بالغ، ليست أسوأ منه على الأقل، عملها بالتهريب كان لعدم توفر مورد مالي يكفيها حاجة الناس. لديها جانب حسن، يغفر لها سيئاتها، لم تتخلّ عن أمها لدار العجزة، اعتنت بها وتحملت أعباءها على الرغم من جنونها. لا يجهل ماذا يعني أن يكون المرء مجنوناً، جدته أضاعت عقلها في السنوات العشر الأخيرة من حياتها، أصبحت شخصاً آخر كلية، باتوا لا يعرفونها ولا تعرفهم، كتلة خليط من اللحم والعظم والبراز والسوائل اللزجة والشكوى والعنعنة، لو كان الأمر عائداً إليه لتخلص منها، برميها في النهر، أو دق رأسها بحجر حتى تموت، لماذا تعيش؟ كانت خارج الحياة.

لميس لا تضاهيه، تقاربه بشكل ما، هي تتسلح بالمال، وهو بالمؤهلات، وإذا كانت استغلته، واستغلّت مروان قبله، فقد تفوّق عليها من هذه الناحية بالذات. على مدار حياته، استغل الذين حوله، وضحى بهم، أين هم الآن؟ مبعثرون في السجون، وبعضهم في القبور.

لميس تريد أن تشقّ طريقاً لها في عالم، سبقها إليه، لماذا يمنعه عنها، أو يحاسبها عليه؟

عندما وصله خبر وفاة أمها، كانت المناسبة مواتية كي يعزيها. اتصل بها وسألها عما تحتاج إليه، ردت عليه بجفاء، أنها لا تريد منه شيئاً. مهما يكن، كسر الحاجز بينهما، أصبح اللقاء وارداً

معها، التقارب بعد الجفاء سيكون طبيعياً، فحضر أيام العزاء الثلاثة. لم ير أحداً من أقاربها، فقط أهالي الحي. لمحها وهو خارج، تراقب المعزين من شق الباب، فاشتبكت عيناه بعينيها. في اليوم الأخير أدركته على الدرج، عزّاها وشكرته على مجيئه.

مهّد ما يشبه المصالحة لموعد قريب في المكان نفسه؛ اللاتيرنا. أجواء لقاءاتهما الأولى كانت على حالها، والطقوس التي رافقتهما لم يطرأ عليها تغيير، الحزن والموسيقا والمواساة والذكريات، عزها ميت حديث الوفاة. إحساس لميس بالوحشة كان طاغياً، بدت أميل إلى اليأس. كانت أمها تؤنسها بحماقاتها الجنونية.

«عندما أكبر سأصبح مثل أمي».

لم يعقّب على يأسها، كانت مستمتعة به. سألها عن أحوالها. كانت على وشك إجراء انقلاب في حياتها، ستترك الجامعة، لن تكون طبيبة، هذا قرارها النهائي. تفضل العمل في التجارة، تجارة المهربات؛ مع أن مردوده المادي ليس مجزياً كما يشاع. هذا هو عملها لا غيره. نظرت إليه لترى ردة فعله. لم يستغرب. إن من يعمل بالتهريب، لا يتوب عنه. لقد أتقنت أساليبه وطرقه. ظن أنها تغمز منه وتتحداه بخرقها للقوانين. غير أنها لمّحت ساخرة إلى عقوبته بهجرانها لها. فردّ عليها بأنه كان يجب ألا تعمل في التهريب من وراء ظهره. ضحكت فضحك. مزاجها اعتدل، لم تعبأ بدفاعه عن تصرفه، علا صوتها، جد سبباً آخر، هل التهريب مسموح لكم به، ومحظر علينا؟ ابتسم، من أنتم؟ قالت، الشعب.

كانت جادة بخصوص مهنة لن تقلع عنها، نعم لا تخلو من خطر، لكنها تدر مالاً، تلعب دور الوسيط بين تجار لبنانيين في شتورة، وتجار شوام في أسواق دمشق، البضائع التي تتعامل بها مضمون تسويقها قبل وصولها إلى السوق، لا تجلب بضاعة إلا بعد الاتفاق مع المشتري. التهريب لمن اعتاده أشبه بهوس، مثل القمار، سقطة واحدة مع الجمارك، تودي إلى ضياع أرباح سنوات. حالياً تعمل على نطاق ضيق، العمل على نطاق واسع يجني أرباحاً هائلة، لكنه يحتاج إلى... تساءلت؛ هل تشاركني؟ كانت تريد دعماً عسكرياً، ليخفف عنها مخاطر المهنة، لكن ليس قبل أن تعرف حجم علاقاته:

هل لديك معارف متنفذون، أعلى من رتبة نقيب؟

استخفّت برتبته، لا تعرف أنها أصبحت من الماضي، حساباته اليوم تختلف كلية عما قبل، لن يتورط في التهريب ولو كان مأموناً. أصبح على رأس برنامج لمكافحة الفساد، منصب يتطلب نظافة الكف كأمر مفروغ منه، لن يضحي به لأنه لن يضحي بنفسه. أعداؤه إلى تكاثر، لا إلى تناقص. خلال فترة وجيزة، سيضعونه في دائرة المراقبة والاستهداف الدائم، لن يمنحهم سبباً للتشهير به، هذا إن لم يقضوا عليه. ربما كانت مخاوف، لكن يجب أخذها بالحسبان.

قال لها إنه سيوفر عليها متاعب التهريب، ويستحصل لها على إذن مرور، يسمح للسائق المهرب باجتياز خط الحدود العسكري بلا تفتيش. رفعت حاجبيها، وابتسمت، كانت ابتسامتها المغرية التي أوقعته، الابتسامة نفسها، التي كانت خجولة في ما مضى.

هل تستطيع؟ شككت في كلامه.

جربي. قالها ضاحكاً.

لم يكن في مساعدتها مشكلة، لديه مبرر قوي، مادام يساعد خطيبة شهيد. هذه الخدمة ستبقيها مدينة له، ما استمر الخط العسكري مفتوحاً.

أصاب في حزره، من ناحية مديونيتها له، وبالمقابل ستكافئه.

خط التهريب انفتح لها. أما الخدمة الأكبر، أو التعويذة التي سيزودها بها وتنقذها من أي مأزق قد تتعرض له، فرقم هاتفه الخاص، واللقب السحري: السيد المهندس.

من يكون؟ أنا السيد المهندس.

كان من غير المعقول أن ينقلب النقيب إلى مهندس خلال بضعة أشهر!!

لم تأخذ بكلامه. غير أنها بعد أيام، عندما استعملت اللقب السحري؛ السيد المهندس، اعتذر منها الضابط الذي أوقفها عند الحدود ليستعلم منها عن الشحنة التي تجرها وراءها، وتركها

تجتاز الحاجز، دون مزيد من الأسئلة، وحمّلها تحياته إليه.

النقيب السابق، كان فعلاً السيد المهندس.

عادت الليالي الخوالي بين لميس والسيد المهندس وقد اكتسبت سحراً مختلفاً عن الماضي، رغم أنه كان ساحراً بما فيه الكفاية، أصبح أكثر من الكفاية. غير أن الليالي الممتعة لم تنتظم أكثر من عدة مرات، لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة.

الحرب المنتظرة، لم تندلع من شرارة، اندلعت من انفجار هائل في مقر قيادة حزب الكتائب إبان اجتماع الرئيس اللبناني المنتخب مع أعضاء حزبه، أطاح البناء وقتل جميع من فيه. فاق ما حدث جميع التوقعات، الانتقام الآتي على عجل سينصبّ على سورية، غير أنه اتخذ اتجاهاً آخر. كان المقاومون الفلسطينيون قد غادروا لبنان. فاقتحم مقاتلو الكتائب مخيمي صبرا وشاتيلا بتسهيل من الجيش الإسرائيلي وأعملوا في اللاجئين الفلسطينيين الرجال والنساء والأطفال، طوال يومين القتل والذبح. حصيلة المجزرة الوحشية كانت مذهلة، نحو ألف قتيل.

لم تؤدّ العملية إلى استنفار الجيش السوري، كان مستنفراً أصلاً، لكنه شمل موظفي القصر، الضربة الاسرائيلية المتوقعة تأخرت، غير أن الضغوط الأميركية والرأي العام العالمي جعلا الجيش الاسرائيلي يتراجع نحو الحدود، ما شجع مقاتلي الحركة الوطنية اللبنانية وما تبقى من جيوب الفلسطينيين على استهداف الانسحاب الاسرائيلي بالكمائن والقناصة والقنابل اليدوية والسيارات المفخخة، لكن ما زال قائماً احتمال ضربات إسرائيلية وقائية وانتقامية.

لقاءاته مع لميس باتت أسرع، يختلس الوقت ليلتقي بها كيفما اتفق، يختصر زمن اجتماعه بها، على حساب المقهى والمطعم والتجوال ليلاً في الشوارع. أصبح موعدهما في بيته بمشروع دُمّر، تسبقه أو تلحق به إلى هناك. يتعانقان يتبادلان القبلات عند الباب، ثم إلى الفراش. لا يتبادلان الحديث إلا في طريق العودة، يوصلها إلى بيتها، ويتابع طريقه إلى القصر، يتسقط أخبار الاشتباكات والمناوشات.

بعد توتر دام طويلاً، اعتاد على الاستنفار، فتقاربت مواعيد لقاءاتهما وانتظمت، اتخذت أحاديثهما سياقاً أكثر صراحة، فلم تجد حرجاً في الاعتراف له بأنه بعد مقتل مروان، اعتصرها شعور باليأس ومجاورة الموت، مع أمها التي بدأت تتهاوت وتغيب عن الوعي، عقلها ضاع نهائياً، زعيقها بات يؤرقها، وشتائمها تنهال عليها، باتت تشعر بالخوف ليلاً. طمحت إلى شخص يحبها، كان في الحب إنقاذ لها. كادت أن تعيد ارتباطها بشاب كانت تعرفه من قبل.

كان اعترافها استهلالاً لتداعيات استدرجها إليها التدخين والقهوة والنشوة، وملابسهما المرمية في الممر المتلوي، وغرفة القعود، وعلى الكنبات، وفوق السجادة في غرفة النوم، ترسم دربهما اللاهث إلى الفراش، حيث المهندس عارياً مضطجعاً، يكشف عن جسد بدا مقشعراً. كان مضحكاً وهو يخفي عورته، تارة بطرف الشرشف، وتارة أخرى بكفه.

صارحته بعلاقاتها العاطفية السابقة، وبنزوات طارئة لم تستح منها. علاقة جامعية مع شاب في السنة الأولى تحضيري، لم تستمر سوى أشهر قليلة، لم تزد عن نزوات على الماشي في مختبر العلوم، ودهاليز الكلية، والحديقة بعد الغروب... بعدها ذهب إلى كلية العلوم، وهي إلى كلية طب الأسنان، وجد له حبيبة، ووجدت لها حبيباً. ثم ارتبطت بعلاقة مع زميل لها في الكلية. لم يتوفر لهما مكان، فزادت عيار المهدئات لأمها، فصار يأتي ليلاً ويبات معها إلى الصباح، صادف أمها مرة عند الفجر، فشهق مذعوراً، كانت منكوشة الشعر تطل عليهما بعينين منتفختين. فزادت عيار المهدئات. تشاركا في تعلم الجنس، كان أشبه باكتشاف قارة مجهولة، صغيرة بلا تضاريس. كادت علاقتهما أن تتطور إلى أعمق، لولا أنه قطع دراسته، سافر بعد حصوله على منحة دراسية في فرنسا، إلى أن تعرفت إلى مروان.

شطت بها الذكريات، فعادت إلى الطفولة، واستعادت ما فعله الولد الشقي، وكانت في الثامنة من عمرها، الملعون سرق مفتاح السطح، واقتادها على درج بنايتهم القديمة في المهاجرين، ليريها منظر دمشق من العالي، أوقفها عند السور. وبينما كانت تتفرج على الشوارع المتشابكة بالأبنية والأشجار الخضراء المبعثرة، ودخان بعيد يتصاعد إلى السماء، وضع رأسه تحت تنورتها، خلع عنها كيلوتها، وأخذ يتفحص تفاصيل جسدها. كانت كلما ذهبت آخر خط المهاجرين، واعتلت جبل قاسيون

ونظرت إلى دمشق، تشعر وكأن هناك من ينسل عنها كيلوتها، ويدس رأسه بين فخذيها.

لم تتعد مغامراتها في فترة المراهقة القبلات السريعة في عتمة أزقة أبي رمانة، واحتكاكات صادفتها في الباصات، بعضها لم يكن بريئاً، رجال يدّعون الشرود، وشبان زعران، وأيضاً أولاد وقحون يتحسسون بها، تتظاهر أنها لا تشعر بهم.

حديثها المنفلت، أرهقه بالوساوس، الطالبة الجامعية مولهة على الدوام، لا توفر نزوة، مراهقة متدربة، فتاة عابثة، عاشقة مكلومة، حبيبة وفية، فتاة زاهدة، ابنة بارة، ومهربة حسناء.. ماذا أيضاً؟ تتكلم ببساطة مفرطة عن خطاياها، كإنجازات رائعة في جامعة الحياة. أقنع نفسه بأنها فتاة تقدمية منفتحة وبلا عُقَد، بينما هو لم يتخلص من عقده الريفية عن الشرف والعفة، كرستها أيام التلمذة، ولم تكن إلا شعارات، أشبه بدروس التربية القومية. في الضيعة، لم تخل العلاقات بين الأهالي من النمائم، تناولت زلات فاحشة، بعضها لا يغتفر، لم يكن المراهقون يصدقونها، حفاظاً على رومانسية ليالي السرحان بين النجوم، وتجلي وجه الحبيبة ينير العتمة، في ما بعد عرفوا أن بعض ما كانوا يتناقلونه صحيحاً.

كان رجعياً، بالمقارنة معها، غير أن تقدميتها ألزمته بتفهم تسيّب علاقاتها، كانت للظفر بتجربة ما. ولم يكن ليهتم، لولا إحساسه بأنه ربما كان يحبها فعلاً، وإن كان تحت تأثير بياض بشرتها وطراوة جسدها. لكن تساؤلاته طفحت بالمخاوف: اليوم يشفع لها غرامه المشتعل، لكن ماذا عن المستقبل، ما الذي يحميه من شكوكه فيها؟ ماذا لو كانت شهوانية، ولم يستطع إشباع رغباتها، ألن تخونه؟ كيف يثق بها إذا كانت لا تضبط سلوكها مع الشبان؟ عليها أن تفهم أنه ليس مغرقاً في الرجعية ولا متزمتاً، يريد بعض الحشمة والكثير من العفة في تصرفاتها، وأيضاً لا مزاح ولا هذر مع الآخرين.

وإذا كان تحمّل صراحتها ولم يؤاخذها عليها، فلأنه أراد أن يعرف عنها كل شيء، فكان يستدرجها بصمته كي تبوح له بأكثر. ما اكتشفه كان مخيباً، صراحتها لم تكن عدم حرصها في علاقاتها، بل توقها إلى الحديث عن نفسها، تبالغ بها وتسوغ ثرثرتها بنفورها من الكذب والرياء. كان كل ما فعلته أو تعرضت له، مادة لتندرها ونقمتها، عدا الشهيد مروان، لا تجوز

عليه إلا الرحمة. كانت مثلما هي جدية، تحب المتعة، ولا بأس ببعض المداعبات اللطيفة كالقبلة، على الفتاة ألا تحرم نفسها من شيء.

بدت اعترافاتها الصادقة أكذوبة لتبرير زلاتها الصغيرة. كان الجنس موضوعاً محبباً إليها، أرادته مفتوحاً للنقاش بلا حرج، فلم توفره من انتقاداتها من ناحية أنه لا يعرف التقبيل، مع أنه أشبعها تقبيلاً. سخرت منه بأنه يجهل فنونها، فحظي بأول قبلة فنية من النوع الذي تقصده، ولم تكن لطيفة، توغلت بلسانها داخل فمه، ومثلها توغل بلسانه في فمها، كانت القبلة العميقة إحدى أساليب التلذذ لديها، استمتع بها، مع قشعريرة دهمته، هناك من سبقه إلى هذه القبلة.

بيد أن اعترافاتها الصادقة، لم تكن كاذبة، في الفراش علمته أشياء كان يظنها معيبة، وإذا بها لا تخلو من متعة، أهّلته لإرضائها جنسياً. وبات موعوداً بين وقت وآخر بشيء جديد في مجال يتوسع من لقاء لآخر، وإن استُنفد بعد فترة قصيرة، وبات الجديد قديماً، لكنه ما زال محتفظاً بروعته، ما داما أنهما يتهيجان. المثير أنه ما زال أمامه الكثير من جلسات الفراش الصاروخية. مع المزيد من التقدم، اكتشف من تلميحاتها، أنه كان يقبل عليها مثل الجحش، ولو أنها منذ البداية لم تقده، لكان أجحش من الجحش.

ضاق بصراحتها، أشعرته بتضاؤله أمامها، لازمه إحساس بالخزي، لا التقصير. أدرك أن الجنس كان مشوشاً في ذهنه، من جراء رباب، أحبطته بشكل مبكر، انزرع فيه وهم المرأة التي لا تُنال ولا تمسّ، فأصبحت المرأة هي رباب فقط، ولم تعد المرأة امرأة إلا إذا كانت طاهرة. وارتبط الطهر بالتعفف عن الجنس. ومع أنه لم يدَع هذه العقدة تأخذ حجماً كبيراً في داخله، عملت في الخفاء، فانفصل الغرام عن الجسد، فأحب وكره تحت تأثيرها، فلم يجتمع الاثنان إلا في علاقته مع لميس، وإن لم يعرف هل أحبها لأنه نام معها، أو أنه نام معها لأنه أحبها.

لم ينضج إلا عندما انطلق الحيوان الذي في داخله، ليمارس حيوانيته، لم يعد ما يقيّده إليها غرامه المشبوب أو رغبته فيها، بل شهواته، وكانت تتجدد عندما يتخيل مغامراتها مطبوعة على جسدها، ولكل منها قصة على علاقة بثدييها، أو بطنها، أو فخذيها، وقد تكون أصابع قدميها، يحرضه أنينها، بينما النشوة تأخذها منه، وغيابها بين ذراعيه يحبطه، إذ تغيب عن وجودها معه،

سارحة في عالم آخر، هو الماضي، تصطفي منه رجلاً أو شاباً، تمنحه في الخيال لذتها. كان بعض الاتزان يحميه من السقوط في مستنقع ظنونه، والثقة بعواطفها نحوه، غفلة منه. كانت غيرته تستيقظ فيغيظها، ثم تهجع، فتتعمد إغاظته.

وسوف يلاحظ تغيراً في حياته، عزاه إليها، واعترف لنفسه، لقد تذوق معها طعم الحياة اللذيذة، لولاها لما تخلص من سذاجته الجنسية، لا، لم تكن سذاجة بقدر ما كان الجنس الذي عرفه عشوائياً. غير أن هذه السذاجة أو العشوائية، لم تقتصر على الريفيين، كما كان يظن، ضحاياها أبناء المدن أيضاً، صادفهم في الجيش، يتكلمون مثله عن النساء. وكأنه خاص بهم وبنساء المدينة. لكنه كان شاملاً. الفكرة التي أعجبته، عبّرت عنها لميس، الجنس يحتاج إلى ذواقة. هذا صحيح، لكنه سرعان ما يعود ويشكك بالجنس والنساء.

في مجاهل الغابة الدمشقية، كان بحاجة إلى دليل. لم يكن هناك سوى صديقه عارف، المحسوب على المثقفين والشعراء، خبر الكثير من النساء، استغل الشعر والمعارضة في عقد غراميات سريعة مع فتيات تقدميات ونساء رجعيات، ما أكسبه تجربة في العلاقات العابرة لا أكثر، اعترف مرة، وكان سكران، بأنه لا يطاق.

في الفترة الأخيرة، بعدما انتقل إلى بيته في مشروع دمر، لم ير عارف إلا نادراً، وكلما رآه يتواعدان، ولا يلتقيان. الوعد ما زال قائماً، وحان وقت تحقيقه. لم يلجأ إليه، إلا لأن قصة غرامه باتت تطرح التباساتها. تواعدا في خمارة فريدي بشارع العابد، مكان عارف المفضل، يتميز بأثاثه الرث، الطاولات الصغيرة المتلاصقة، والكراسي الكاحتة، ما يوحي بالبوهيمية والفقر، يفتتح سهرته فيه، نحو الساعة الثامنة، لا يطول جلوسه أكثر من ساعة، ثم ينتقل إلى مكان أرقى.

لم يحتج إلى تمهيد كي يحرّض صديقه على الكلام حول النساء، وبالذات الشاميات، كانت إحدى موضوعات عارف الأثيرة، مزاجه يتفتق حولهن، مع أن سليمان تساءل عن المرأة بشكل عام من دون تخصيص.

يدّعي عارف دائماً أنه فهم هذا اللغز، ليس اعتباطاً، حسب قوله، وإنما بالمقارنة الملموسة بين

المرأة الغربية والشرقية، عقد علاقة مع فتاة فرنسية وأخرى سويدية قضين فصولاً دراسية في دمشق، من واقع تجربته، احتقر المرأة الشرقية، كان خبثها من جملة ما أورده عنها. المرأة الغربية مستقلة، وحرة في ممارسة حياتها، بلا زيف أو رياء. الفتاة السورية تشبهها، هذا ما توحي به عندما تحكي عن مغامراتها الغرامية، بجرأة وطلاقة دون أن تخفي شيئاً، تتذرع بأنها تقدمية، بينما الأمر لا تقدم ولا تراجع، المدينة تتيح لبعض الفتيات الانطلاق، المغريات كثيرة، والمجتمع والأهل بعيدان هناك في الضيعة.

الفتيات من هذا النوع خدعنه بتقدميتهن. مهما كانت الفتاة منطلقة، تبقى شرقية، لا تبوح بأسرار مغامراتها للرجل الذي تحبه وتريد الزواج منه، إذا عرف، لن يرتبط بها، وإذا تورط بالزواج منها، يحاسبها على كل كلمة قالتها. الرجل الشرقي، مهما تحلل من التقاليد، لا يتصور أن امرأته ضاجعت أحداً قبله، تملّكه لها لا يقتصر على الحاضر، بل ينسحب إلى الماضي، فيحيل حياتها إلى جحيم، وتتمنى الموت لتتخلص منه، وإذا لم يطلقها، تتمنى موته، وقد لا تتورع عن قتله. أما الرجل الذي لا تخفي عنه قصصها الجنسية، فهي لا تنوي الزواج به، ترويها له، لكي تتهيج وتهيجه.

ما استوقفه في حديث عارف، هو أنه هذا الرجل الشرقي، واستوقفه أكثر، أن لميس باحت له بأسرارها، لأنها لا ترغب بالزواج منه. ترويها فتتهيج فعلاً وتهيجه، هل هو رجل عابر في حياتها، ارتبطت به لتفريغ شهواتها الجنسية وتسيير تجاراتها المشتركة؟

فاجأه اكتشافه لأنه خضع لتأثيرها، أدخلته إلى عالم التجارة والتهريب، وجعلت له حصة من أرباح البضائع، بداية لم يهتم، لكن رصيده أخذ بالارتفاع، ولم يكن قليلاً. كان في انكشافها، انكشافه، لم يعد يستطيع التخلص منها. ورطته في خططها المستقبلية، بعدما مارست عليه ضغوطات جنسية متسارعة، ولم تعد تكتفي بتهريب البضائع من شتورة، مادامت الحدود بين سورية ولبنان مفتوحة على مصراعيها. طمحت إلى مد نشاطها إلى خارج لبنان، لماذا تأتي بالبضائع عن طريق التجار، ما دامت لديها القدرة على استيرادها من أوروبا واليابان وتايوان مباشرة، تشحن من موانئهم وتدخل لبنان من ميناء غير نظامي، ومنه إلى المستودع في شتورة،

وتعبر الحدود إلى دمشق، بلا رسوم ولا جمارك.

إذا كانت لا تريد الزواج منه، فلن يدعها لشأنها، ولن يدع قصة رباب تتكرر معه، سيدمرها بالكف عن حمايته لها، يُبلغ عنها، ويزجها في السجن، ويلفق لها تهمة الاتجار بالمخدرات والدعارة، وإذا خانته، فسوف يقتلها.

رأسه ثقل، كان يشرب بسرعة، بلا طعام، أمامه صحن المكسرات الصغير، يحتوي على قضامة يابسة، وبزر محنن. لم يكن قد ابتلع الصدمة، عندما عاجله عارف بصدمة ثانية. الشاعر الخبير أسرف في استدعاء خبراته وفلسفتها، كأنه يكتب مقالاً، أنهى منه الفقرة الأولى، وانتقل إلى الفقرة الثانية من الموضوع نفسه؛ المرأة الشامية نموذجاً، مستعرضاً حنكته في معرفة خفاياها، وهي امرأة أضافت الدهاء إلى الخبث الشرقي، لا تحرم نفسها من متعة، تمارسها في الخفاء بين أربعة جدران على ألا تكون محرمة بنص شرعي، تتعفف عن اللذائذ، تعتبرها من المنكرات، عقد الزواج يحللها، فلا تمتنع عن فاحشة، ويا لهول اللذات، وأنواعها، المنكرة والمستنكرة !!

ما أدراك؟ تساءل سليمان، وادعى أن صديقاً له، لم تحرمه صديقته الشامية من شيء.

نظر إليه عارف ساخراً: هل أنت هذا الصديق؟

فانتتر سليمان: لا.

فقال عارف: سواء كنت أو لم تكن، فكن على يقين أنها ليست شامية.

هل عَقَدَ علاقة مع فتاة مجهولة. كان سيتزوجها! طموحه كان أن تكون زوجته دمشقية، ليبرهن أن الدمشقيين لا يتميزون عنه، وأنه على سويتهم، بل وأفضل، هاهي فتاة دمشقية وقعت في غرامه، ليس أي دمشقية، بل جامعية، وربما طبيبة بعد سنوات قليلة. ماذا إذا لم تكن دمشقية، ولم تعد جامعية، ولا تريد أن تكون طبيبة؟ هل يتزوج مهربة بضائع؟ حرصاً على سمعته، لن يهدر منصباً رفيعاً، عمل رهيب ولو كان في السر. وقريباً قد يظفر بمنصب رفيع آخر، أكثر سرية وقدسية.

خرج من خمارة فريدي يترنح يميناً ويساراً.

صباحاً، ذكره الصداع الشديد بسهرة البارحة، وبتحليلات الفيلسوف عارف للمرأة الشرقية، والدمشقية نموذجاً. فاشتاق إلى لميس، اتصل بها، استقبلها عند الباب، وطارا إلى الفراش. عندما صحا من الطوفان الجنسي. لم يَدَع ما دار في رأسه البارحة يغرق في طوفان استرخائه.

بعد فنجان القهوة البارد والسيجارة، غطت لميس في النوم، غافلها وقرأ في بطاقتها الشخصية مكان الولادة: قرية درباس. أين تقع، لم يسمع في حياته بهذه القرية المختبئة في الريف القصي المجهول، بدا أن دورة المظليات حطت بها في دمشق، حيث لا يعرفها أحد، فانطلقت.

انتظرها حتى استيقظت، وسألها عن عائلتها، وكانت كالمعتاد صريحة، هناك قصة أخرى تختلف عن سابقتها، أبوها لص رائع وظريف، سرق الأغنياء ولم يعط الفقراء، كان ذكياً، أدرك أن لا أمان في هذه المهنة، فاعتبر عائلته فقيرة، وكانت فقيرة فعلاً. اشترى لهم بيتاً صغيراً أودعهم فيه، كان يتردد عليهم من وقت لآخر مع مبلغ من المال، ثم اختفى، على الأغلب في السجن. وربما تزوج ثانية. هجر أمها في بدايات جنونها، أو أن الله خلقها هكذا، على الأغلب أسهم في فقدان عقلها، كانت تفقد جزءاً منه كل فترة من الزمن. أما هي فكانت صغيرة في الثانية عشرة من عمرها. شقت طريقها وحدها وتمتعت بحريتها في المدرسة، ودورة المظليات، والجامعة التي اكتفت منها بلقب الدكتوره يخاطبها به التجار، ومن الطب بتهريب الأدوية، لا تريد أكثر.

كانت وقد انشمر روبها عن فخذيها، ولفّت رجلاً على رجل، تنفث الدخان من فمها، مستقلة عنه تماماً، ومن فرط ما كانت متحررة منه، وغير دمشقية، بدت سهلة المنال. لم يمعن في التفكير، لا يريد سوى أن ينام معها بين فترة وأخرى. لا زواج ولا غيرة. خلص إلى هذا القرار، رأى فيها صورته، كان ينظر إلى نفسه. ويتعرف إليها أكثر، لن يزعم بعد اليوم أنه يجهلها. حماقاتها ونزواتها لن تثير ظنونه. كانت تكراراً له مثلما كان تكراراً لها. لولا شراكتهما لترك الواحد منهما الآخر. صارحها بالحقيقة:

«أنت لست دمشقية».

«لم أقل لك إنني دمشقية».

وضحكت من قلبها، أدركت الخديعة التي وقع فيها، فقالت كي تناكده، لقد خدعت نفسك. وبما أنك تتساءل عني وتريد أن تعرفني، أعتقد أنني دمشقية، أتعرف لماذا؟ جئت إليها وعمري خمس سنوات، كبرت فيها، عشت كما أرغب، ولقد أحببتها. أما أنتم فتكرهونها. هذا إحساسي، لا تسألني عنه.

لم يقل شيئاً، لو أنكر، لأشبعته سخرية.

وما كان أشد استغرابه مما طرأ عليه، لم تعد الزوجة التي أرادها، وإن أدرك ان ارتباطه بها ازداد، ولن يستغني عنها. المسافة التي بينهما تناقصت إلى الحد الذي لا ترغب فيه أن تكون شيئاً منه، كان جزءاً من تجاراتها، كما كانت جزءاً من طموحاته. خسارته كانت كبيرة. سيبقى هكذا وحيداً، لأنه لا يستطيع أن يكون مع أحد. لحظتها، ربما لأنه أحس بالخواء، سألها عن الله، كان السؤال، بلا مبرر، حتى أنه تعجب من طرحه عليها، وتعجب أكثر عندما لم تستغرب سؤاله، واجابته بلا تفلسف، تكلمت على سجيتها، فكرتها عن الله جد بسيطة وطريفة، إنه موجود لكنها لا تعرف كيف ولا أين. الله لم يهتم بها، فلم تهتم به، شاءت ألا تؤمن، هذه القناعة لا تتناقض مع شخصيتها التي لا تسلم بشيء ، إنها في عشرينيات عمرها، هذه السن لا تصقلها سوى الأخطاء والخطايا. بخصوص الإيمان، كان مبكراً جداً، يفصلها عنه أكثر من خمس وعشرين سنة، تركته إلى ما بعد الخمسين من عمرها.

أما هو فتركه إلى ما بعد الموت. حالياً شعوره أنه كان موفقاً بعدم الإيمان، ولأجل غير معلوم.

٣

مأساة وفاة الأستاذ سمحوني كشفت أمره، أو أمرهما أمام رفاق السجن، عدنان والرقم ٧٧ ، أصبحا واحداً: الطبيب عدنان. لاموه في سريرتهم، وبعضهم أظهرها؛ كان بوسعه مساعدتهم على معالجة أمراضهم البسيطة بالمقارنة مع الوباء الذي اختطف الأستاذ سمحوني. لكنهم

ارتاحوا إليه، لم يعد شخصاً مريباً، كما كسبوا طبيباً بعد أن خسر المهجع قبل مجيئه عدة أطباء. بات لديهم من يستشيرونه في أوجاعهم الطارئة. أما عن عللهم المزمنة فاعتادوها، لكنه سيكون عوناً لهم في محنتهم الآتية؛ الكوليرا.

قرر عدنان ألا يزج بالرقم ٧٧ في معمعة السجن، لا بديل عنه بعد اليوم، لن يسهو عن مهنته. معاناة المعتقلين ستذكره على الدوام بأنه إنسان وطبيب، لا يجوز له التخفي وراء رقم عليل، لا يصلح للقيام بواجباته عوضاً عنه.

الفراق لم يكن سهلاً، فك الارتباط بينهما احتاج إلى ترتيبات عاطفية، تفاداها كلاهما، لئلا تثقل الوداع، أظهر الرقم ٧٧ اللامبالاة، والطبيب الاستسلام لمسؤولياته. لم يضع الفراق حداً نهائياً بينهما، وإن كان خسارة لكليهما، فالرقم ٧٧ خسر كينونته، ولم يعد شيئاً، محققاً الغرض من سجن تدمر. وفقد الطبيب ظله، الوصف الذي بدا ملائماً للرقم ٧٧. عانى عدنان من الفراق بعدما أفرط على مدار أشهر في الالتصاق والانفصال عنه، الالتصاق لأنه جزء منه، والانفصال ليتعذب عوضاً عنه. ذاق الرقم من الآلام ما لا يطيقه إنسان، إلا مرغماً، تضرر قدراً كبيراً، بلا تهيئة، سوى أنه بلا إحساس، فاستغله الطبيب.

لم ينكر الطبيب النعمة التي رتع فيها، أصابته بالبلادة، لكن نَعِمَ بالاطمئنان، جانبه الرقمي أخذ نصيبه كله من الضرب والإهانات. كان الرقم، الوجه الآخر المضطهد، لوجهه الآخر الآمن. وإذا كان كل منهما الآخر، بالنسبة لبعضهما بعضاً، فأيهم وجهه الحقيقي؟ ليس هناك غيره، هو الخائف المختبئ. لا يتمنى شيئاً، سوى أن يكون الوداع أبدياً، ولا يأتي يوم يتلاقيان فيه. في قرارة نفسه، تمنى أن يكون مؤقتاً.

لم تتوقف الكوليرا عند الأستاذ سمحوني، اخترقت السجن، وبدأت ضحاياها تأخذ طريقها إلى الصحراء. لم يُعرف ما إذا كانت العدوى انتقلت من مهجعهم إلى المهاجع الأخرى أو بالعكس، كانت فرصة لإدارة السجن للتخلص من المساجين بوباء قاتل، لن يمهلهم أكثر من بضعة أسابيع. اقترح طبيب السجن: دعوهم للكوليرا، تقتص منهم، وتقضي عليهم. العبء الذي كان على عاتقهم، أصبح على عاتق الله، قضاؤه سيتكفل بهم. ويعفي إدارة السجن من

انتظار تنفيذ أحكام المحاكم للتخلص منهم، الكوليرا أسرع، مضمونة، وتقتل بالجملة.

لاقى اقتراحه قبولاً من الإدارة، ليسوا أرحم بالمساجين من طبيب السجن.

ممرض في المستوصف، عطّل الاقتراح. قال للمساعد في قلم السجن، الكوليرا ستقضي أيضاً على أهالي مدينة تدمر؛ مجاري السجن تصب في مجاريها، وتستعمل لري المزروعات، ما يؤدي إلى انتشارها في المدينة، ومنها إلى سورية كلها. سارع المساعد ونقلها إلى العقيد مدير السجن، نبهه إلى أن الكوليرا ستصل إلى دمشق، وتقوم قائمة وزارة الصحة والحكومة والهلال الأحمر والصليب الأحمر... ويكتشفون أن مصدر الوباء هو سجن تدمر.

منعاً للعدوى، اتخذت الإجراءات بعلاج المصابين، فجرى نقلهم من المهاجع المصابة إلى مهجع أفرغ من شاغليه، دعي بمهجع الكوليرا، أشرف عليه الطبيب عدنان، انضم إليه طبيبان من المهاجع الأخرى، بينما اختفى طبيب السجن، لم يظهر إلا بعد رحيل الكوليرا.

تنقّل عدنان بين مهجعه ومهجع الكوليرا تحت حراسة فوهات بنادق القناصة عن بعد، خشية العدوى، يساعده شبان من المهجع، هاشم الممرض وحسن المراسل ووليد الطالب في كلية الشريعة وأحمد الطالب في كلية الهندسة الميكانيكية، إضافة إلى حسان وأسامة وعبد الرحمن سليمه والشيخ كريم.

مع الوقت اكتشف أن تشخيصه لم يكن شاملاً، لم يكن يواجه الوباء فقط، أغلبية المساجين، إن لم يكن كلهم مصابون، إن لم يكن بالكوليرا، فبالسل أو التيفوئيد أو يعانون من الجرب والقمل... أكثر من مرض ووباء وجائحة تسللت إلى السجن، ووجدت فيه حاضنة مثالية. هذا لم يلغ العقوبات، لكن تراجعت وخفت حدتها، بات السجانون يخافون من السجناء، اعتقدوا أن جراثيم الكوليرا تطفو على أجسادهم، وليس ما يمنع انتقالها بواسطة السياط والكابلات والعصي، بالملامسة، إن لم يكن بالهواء.

لم يختلف منسوب المهاجع من الأمان، كانت بؤراً لأمراض مستفحلة سريعة الانتشار، تخيم عليها روائح العرق الكريهة، والأبخرة المقززة المتسللة من المجاري، وزنخ الجروح الملتهبة،

والدمامل المتقيحة. وتعج بمرضى مسلولين يسعلون ويبصقون بلغماً ودماً، الكثيرون انتقلت إليهم آفة الجرب وقمل العانة، يحكون المناطق المصابة تحت آباطهم وبين أفخاذهم، حتى تسيل الدماء منها، ومنها ما يتورم ويتقيح. وثمة من يتقيأ، ويتعثر في طريقه إلى المرحاض، فينزلق على الأرض فوق الوخم والغائط...

رفاق السجن يموتون أمام عينيه، ومن أخطأهم الوباء، تضاءلت مناعة أجسادهم النحيلة، باتوا أكثر عرضة لتلقف الأمراض العابرة، إن لم تجهز عليهم أمراضهم المزمنة. أما الذين أصيبوا بعاهات دائمة أثناء الملاحقات والاشتباكات، ولم يظفروا بعلاج، فمازالت الرصاصات تنخر في عظامهم، والتأمت جروحهم فوقها، بعضهم كانوا مقعدين، يحملهم رفاقهم إلى الساحة ليعاقبوا، أو ليحلقوا ويتحمموا. فكان الموت أرأف بهم، أنقذهم من أهوال آلامهم. لم يقصر، كان علاجاً مجدياً، سواء كان رحيماً أو لم يكن.

الطبيب عدنان شكا مراراً من عجزه عن تأمين الدواء الكافي، إدارة السجن تقدم القليل منه في نوبة كرم لئيمة، أرغمهم عليه الخوف من الوباء، كان امتيازاً لا يستحقه المصابون، ويصح أن يكون عقاباً يعجل عليهم بالموت، جزاء على محاولات الشفاء، فتمتنع عن تزويدهم به بين حين وآخر.

دعم عدنان النزر اليسير من الأدوية، بالوقاية والحمية، لم يعتمد على العلاج بالدواء، إلا عندما يتوفر. أما الحمية والوقاية فكانتا وافيتين بالحاجة، أحياناً تنجح وغالباً تخفق. من ينجو من الكوليرا والسل والتيفوئيد لا ينجو من القيح والدمامل النازفة.

المساجين القدماء نقلوا إليه خبرات من سبقه من الأطباء، مروا في السجن وتركوا وراءهم تجارب أفلحت في المعاينة ومقاومة الأمراض والتغلب عليها، استعانوا بآذانهم على سماع دقات قلب المريض، واستعملوا رماد السجائر لتشكيل طبقة عازلة على الجروح، وإذا توفرت كبسولات مضادة للالتهاب، يؤخذ ما بداخلها من مسحوق، ويرش فوقها كيلا تتعفن. يجمعون حبات العنب في كيس نايلون لتتخمر، وتستعمل كمطهر. أما من كسرت يده أو ساقه، فلم تترك لتجبر وحدها، يتنازل السجناء عن جزء من حصصهم من الخبز، تعجن ثانية مع قطع

من الثياب المهترئة، وتلف حول الأعضاء المكسورة. وتبرعوا لمستشفاهم الهزيل، بما خبأوه من أشياء تافهة، قطعة عظم، عثروا عليها في مرق الطعام الخالي من اللحم، يحفونها على الجدار، ويصنعون منها الابر، أو قطع معدنية كغطاء علبة سردين أو طون، وزجاج مهشم .... عسى تنفع في الملمات، ولقد نفعت.

كانت فرجاً في ضائقة العلاج. فنجح مع زملائه الأطباء، في التحايل بها على مبضع الجراح، والخيوط الطبية، والمعقم والمخدر... بإجراء عمليات جراحية، وتفجير الدمامل. ساعدهم سجناء ما زال لديهم بعض القوة على تثبيت يدي المريض وقدميه، وكان غطاء علبة السردين، المبضع الذي شق به البطن، والابر خاطت الجرح، وعندما كان الألم يشتد على المريض، يضعون خرقة في فمه، لئلا يسمع الحراس صراخه، ثم يعقم الجرح بالدهون والشحوم الحيوانية، المستخلصة من الطعام. لكنهم فشلوا إزاء خراجات الروح، والأشواق المخنوقة، والتوق المضني إلى رؤية الأم والأب والزوجة والأبناء والأصدقاء. عشرات المساجين رحلوا وفي نفوسهم حسرة، افتقادهم لرؤية أحبتهم إلى جوارهم.

لم تمنع نوبة الربو المقدم جميل من توديعهم وهو يختنق، ليس من قلة الهواء، بل من فيضان الشوق إلى أولاده، قضى الأيام الأخيرة يقابلهم في أحلامه، فخففوا عنه. المراسل حسن، عطله عن مساعدتهم في مستشفاهم المتنقل، تسمم دمه من قيح انتشر في جسده، وطرحه أرضاً، صرخ صرخته الأخيرة وهو يرجو أمه أن تسامحه، لم يترك لها سوى الأحزان، وصله قبل عام خبر فقدان بصرها من فرط البكاء، فحفر في قلبه دملاً تفجر وقتله.

مآسٍ، ليس بوسعه فعل شيء إزاءها، تجسدت بمنتهى القسوة، ومجبر على متابعة فصولها البائسة، ولم يكن فقدانه لهاشم الممرض بالكوليرا إلا واحدة من الخسائر التي مني بها، والتي لم ينج من عدواها طالب الشريعة أحمد. رحلوا شهداء الواجب.

وإذ يجيل بصره في مهجع المرضى، يحس أنه مريض مثلهم، ومعرّض للعدوى مثلهم، إن لم يصب بالكوليرا، فقد يصاب بالسل أو الجرب أو التيفوئيد... ومثلهم كان جسده طعماً للقمل، ومثلهم كان لا يعف عن الطعام الفاسد. يعرف العلل، لا يخطئها وهي تسري وتستفحل

في أجسادهم المكدودة، تنهشهم حتى الرمق الأخير، ونادراً ما تتركهم أحياء. معنوياته إلى انحطاط؛ النظافة معدومة، الصراصير والجرذان والحشرات تخرج من جحورها، تسرح في المجاري، ومنها ما يسري على الأرض، أو يهوم في الفضاء الكالح.

مشاهد أنهكته، مرضى يتباطأ شفاؤهم، ويتسارع رحيلهم. لماذا البقاء في حياة هي عذاب؟ ما الذي يحدوهم إلى إطالة النزع؟ لم لا يسارعون إلى التحلل والفناء؟ لماذا التمسك بأنفاس موبوءة، وبآمال أصبحت مصدراً للآلام؟

في يوم بلغ فيه الكرب أقصاه، اسودت الجدران في عينيه أكثر مما هي سوداء، وباتت جزءاً من الباب الأسود. دخل العسكر مثل العاصفة، أمروهم بالتجمع في زاوية المهجع، ومن بعيد أخذوا يسوطون مرضى ليسوا أكثر من هياكل لحم وعظم وقيح ودم نازف وإقياء وبراز وبلغم وبصاق. اضطرب الهواء الراكد من شدة الرعب، وغص الفضاء المخنوق باللهاث وبشهقات أشبه بالعواء، وبزفرات لا تسمع، لا تزيد عن أنين.

كان هذا الهجوم الصاعق، لئلا يظن المساجين أن المرض يحصنهم من العقاب، إدارة السجن وجدت أن الكوليرا أصابت السجناء بالميوعة، لأنهم يتناولون الدواء، ويتألمون من تأثير الأمراض وحدها.

الدولة الظالمة، حققت أغراضها، مركز التطهير الوطني أعطى ثماره، طهر السجناء من إنسانيتهم وعقولهم ومشاعرهم ووطنيتهم وكرامتهم وذاكراتهم... وفقدان الرجاء بالعودة إلى عالم البشر.

ما الذي يأملونه بعد؟ فقط، ما يجعلهم يتحملون قسوة الجلادين.

كانت الحياة لعنة، والموت نعمة.

الشيخ كريم، أصابه الوهن، يتجول بينهم حاملاً كيس السيروم الموصول بيده، اصبروا وصابروا، الله يمتحننا في إيماننا. يشد من عزيمتهم. ويلقنهم الشهادة، عسى أن تكون آخر ما يلفظونه، فترتسم على وجوههم ابتسامة، ترى رحلوا راضين مرضيين، أم رحلوا مخدوعين؟

الطبيب لن يسأل الشيخ كريم: لماذا يضطهدهم الله بالأمراض؟ ولماذا يطيل عذابهم، ولماذا لا ينعم عليهم برحمة الموت؟ الشيخ كريم يتجاهل الحقيقة، كانت لا تحتمل. يرفع رأسه إلى السماء خفية، ويستنجد: «ربنا لا تحملنا ما لاطاقة لنا به». بعد أيام، ضبطه الطبيب يقول عاتباً بصوت كسير: ربي حمّلتنا ما لاطاقة لنا به. وعندما وقع بصره عليه، علا بصوته: أستغفر الله.

عندما تخفت حمى العقوبات والأوجاع، يراهم بوضوح... وجوه واجفة، عيون زائغة، شفاه مشققة، يتهامسون خلسة في ما بينهم، يتناولون أدويتهم، يفلون ملابسهم من القمل ويغسلونها، ينفضون حوائجهم من الأوساخ، يكنسون الأرض... تحت هذه المظاهر اليومية، لم تنقطع عباداتهم، يتحايلون على الوضوء بالتيمم، والصلاة بالإيماء، يصومون شهر رمضان، والاثنين والخميس من كل اسبوع، حلقات حفظ القرآن تتكاثر، يتبادلون سُوَره، يحفظونها بالهمس، يعدّون آياته على الأصابع، يجمعونها، يتلونها عن ظهر قلب، يقوون إيمانهم، ويستقوون به على مصائبهم؛ ذخيرتهم القرآن، من الفاتحة إلى البقرة... فرحتهم أنهم سيلاقون ربهم وقد ختموا كلماته، وحفظوها في سرهم.

في يوم الحساب عندما يكشف الملائكة عن صدورهم، لن يرى الله سوى أمراضه وقرآنه.

رضخوا صاغرين، واستسلموا لمصائرهم، لكنهم لم يفقدوا إيمانهم الأعمى برب لا يمد يد العون إليهم. رب يشيح عن آلامهم وهزالهم وكرامتهم المسحوقة. لا وسيلة لديهم إلا الدعاء له كي يرفع عنهم الشدة، يذكرونه، وكأن ذكره يُنجّي ويُشفي ويعافي... الله على كل شفة ولسان.

لا يعرفون أنهم سيقتلون طبقاً لقوانين المرض لا الإيمان. لا يدرون ما حل بهم، علل النفس تنغل في قلوبهم وأفئدتهم، يرى آثارها جلية على وجوههم، تدمر الرجاء، وتعبث بالعقل، وتورث الجنون. أرواحهم محصنة، وأجسادهم ممزقة.

لا يرثي لهم، يرثي لنفسه، الموت للمؤمن... لقاء وجه ربه ذي الجلال والإكرام.

في هدأة الليل، يقتطع شيئاً من الراحة، فتدهمه الحكة، يخلع قميص الداخلي وسرواله، يفتش

تحت الضوء الواهن عن بيوض القمل، ويسحقها بين ظفري أبهاميه. وقد يدهمه النوم، فيستغل القمل الفرصة ويتوغل في شعر رأسه، ويسرح ويمرح في أنحاء جسمه، لم يتغلب عليه إلا بحرق شعر العانة.

مع خيوط الصباح الأولى، تتردد في سمعه أصواتهم هامسة تلهج بالدعاء: بسم الله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أقول على نفسي وعلى ديني، وعلى أهلي وعلى أولادي وعلى مالي وعلى أصحابي وعلى أديانهم وعلى أموالهم ألف بسم الله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

يتحول الدعاء إلى ابتهال، فترتجف أصواتهم، وتدمع عيونهم: بك اللهم أعوذ من شرّ نفسي ومن شرّ غيري ومن شرّ ما خلق ربّي وذرأ وبرأ، وبك اللهم أحترز منهم، وبك اللهم أعوذ من شرورهم. وبك اللهم أدرأ في نحورهم وأقدّم بين يديّ وأيديهم.

«ما الذي يقرأونه؟» سأل عبد الرحمن سليمه.

«ورد الإمام النووي، يفرّج الكروب ويردّ كيد الظالمين».

«هل تعتقد به؟».

«إنه من الابتهالات المجربة، لقد خفف عني».

إذا كان ورد النووي أفلح مع عبد الرحمن، فقد أفلح مع نفس مطمئنة.

كان الله الحاضر الأكبر.

أما هو فلن يخفف عنه شيء؛ النفس المضطربة جانحة نحو اليأس. وكان في لجوئه إليه إغواء كبير، سيمنحه الطمأنينة، والرضا بالموت رافع الرأس عالي الجبين، بمعنويات عالية، بل والفوز بالحرية، إن لم يكن بالجسد، فبالروح. يستحيل الخروج من هذا المكان بلا مساعدة من أحد، ليس أي أحد، بل الله بالذات، الوحيد القادر في العالم على إنقاذه.

... وكان الله الغائب الأكبر.

اختار الحقيقة، وكانت نصب عينيه، الباب الأسود موصد، لن يغادر هذا الجحيم، إلا إلى تلك الحفرة المجهولة في الصحراء.

إدارة القضايا المستعجلة

أصاب الأستاذ رشدي عندما نصحني بالتركيز على إدارة القضايا المستعجلة في هيئة التفتيش. حسب معلوماته، كانت ترسل إليها بعض القضايا بقصد استعجال البت فيها، وعدم تعريضها لما تتطلبه من دراسة وتدقيق. الإجراءات داخلها لم تكن بسيطة، ولاعادية، كانت تخضع لاعتبارات معقدة.

حثني المهندس على أن أكون حازماً في التعامل مع الموظفين في الهيئة، وألا أستغرب، إذا وجدت بين أصحاب الملفات المشبوهة رئيس الوزراء الحالي، ووزراء حاليين وسابقين، ومسؤولين كباراً. لديهم قضايا تعالج بالتخفي عليها، كي لا تثير اللغط، يقترح المفتشون تجميدها بحجة استشارة جهات أخرى، وهي جهات عادة ما تعطل وتؤخر.

«هل رُفعت الحصانة عنهم؟».

«لا حصانة لأحد».

كان تخصيص بعض القضايا بمعاملة خاصة يتبدى في تحويلها إلى قضايا مستعجلة. كان عملي تفنيد أية مخالفة، لكن ليس بلا دليل.

سبقتني إلى مدير الهيئة توصيات المهندس بتذليل أي عائق يحول بيني وبين الاطلاع على الملفات الموجودة في أي إدارة أو قسم، مهما كان نوعها. وأخذ المدير علماً بأنني مفتش متدرب. التمست منه أن يتعاون الموظفون معي في أداء مهمتي، وألا يبخلوا بالإجابة عن تساؤلاتي.

ما تناقله الموظفون عني كان مختلفاً تماماً، ولم تكن أكثر من تخمينات توافقت على أن القادم الجديد دخيل على الهيئة، يجري تأهيله ليكون مفتشاً على المفتشين، أضيفت إليها نميمة من النوع المتداول لكل من يتصرف بثقة زائدة: لابد وراءه جهة أمنية قوية تدعمه. أي أن القصر الجمهوري وحده لم يكن كافياً.

عرفت بما يقال عني بواسطة مخبر، موظف في الديوان، زرعه المهندس في داخل الهيئة. كان ينقل إليّ ما يدور في الهيئة، وما يتداوله المفتشون والموظفون عني. أراد المهندس أن أتحرك فوق أرض لا أجهلها، وأن أكون على بيّنة مما يجري من حولي.

ولقد تحركت بثقة في الهيئة، ولم تكن زائدة. تصرفت بشكل عادي، وحاولت أن أكون حريصاً على حقوق الزمالة. عندما تبلغوا أوامر المدير بالتعاون معي، والاجابة عن استفساراتي، كتدريب على أساليب التفتيش المتبعة، انتشرت أقاويل عن الصلاحيات الواسعة التي سيتمتع بها مفتش شاب بلا خبرة، تخصه بامتيازات لا يستحقها متدرب حديث عهد بالوظيفة والتفتيش، سوف يكسب الكثير من المنافع دون المخاطرة بسمعته، الغاية من توظيفه استثماره في ملفات ضخمة.

تجاهلت ما نمي إليّ من المخبر، عوالم الوظائف في الدولة متشابهة، تحيط القادم الجديد بالشكوك، وليس من السهولة تبديدها. لم أتجاوب مع تلميحاتهم، فاعتقدوا أنني صعب المراس، فلم تفلتني نظراتهم المتفحصة. كان مبعث مخاوفهم مني ما كنت أسألهم عنه، وما أكتبه من ملاحظات قد تنعكس عليهم بالمتاعب.

في الحقيقة، لم أجد ما يسترعي النظر في إدارة القضايا المستعجلة سوى المفتشين متجهمي الوجوه، لم ألق أي ترحاب منهم. كما لم يطلعوني على الأسس التي يتم بموجبها تحويل القضية العادية إلى مستعجلة، سوى أن قسم التوزيع هو الجهة التي تسبغ صفة الاستعجال على القضايا.

سألت عن قسم التوزيع في الاستعلامات بالطابق الأرضي، فأبدى الموظف استغرابه كأنه لم يُسأل عنه من قبل. وعندما سألت العميل المخبر، استغرب هو أيضاً. في اليوم التالي، بعد أن أجرى تحرياته، دلني إلى درج يقع خلف المصعد، نزلت فيه، ومشيت عبر ممر طويل، قادني إلى درج، فممر طويل آخر، كأنني غادرت مبنى الهيئة إلى مبنى مجاور، مع أنني ما زلت في المبنى نفسه، كان نفقاً التفافياً، في نهايته مفترق طرق، رُسم على الجدار سهمان، الأول يشير إلى قسم التوزيع، والثاني إلى الأرشيف الخاص به.

اتخذت طريقي في المفرق الأول، فقادني إلى مكان مهمل، غرفة على بابها لوحة «ممنوع المراجعة». نقرت على الباب ودخلت، فهبّ مدير القسم من وراء طاولته واعترضني، كان «الأستاذ نظمي» رجلاً في الأربعينيات من عمره، قصيراً نحيلاً وعصبياً، يتكلم بأسلوب استفزازي، منعني من تخطي العتبة، وأشار بأبهامه إلى لافتة معلقة عالياً وراء كرسيه: القسم لا يستقبل مراجعين أفراداً، ولا زواراً من داخل الهيئة أو خارجها. رفض الإجابة عن أسئلتي، وخرجت أشبه بالمطرود.

راجعت مدير الهيئة، الذي اتصل به، وكان رد الأستاذ نظمي، أن الزيارة غير مسموح بها حتى بغرض التدريب، وتخضع مثل غيرها إلى إذن خاص، من جهة امتنع عن ذكرها. استفسرت مدير الهيئة عنها. قال هذه الجهة لم تعط لأحدِ الإذن بزيارة القسم، وكان جوابها سلبياً على الدوام، إلا إذا كانت الجهة نفسها وراء الطلب. سألته عمن يملك الحق بإعطائي الإذن غيرها. أجابني، ليس هناك غيرها. بدا محرجاً، وأردف بأن هذه الجهة، قد تكون عدة جهات. كان واضحاً أن الجهة هي جهاز أمن، ولا يقتصر عليها.

اتصلت بالمهندس وأعلمته، ما كان منه إلا أن اتصل بمدير الهيئة، وحثه على التصرف تجاه مدير القسم، الذي هو ليس إلا موظفاً عنده. وكان جوابه:

«لن أضحي بالهيئة من أجل تدريب مفتش».

اعترف المدير للمهندس بخجل، بأن قسم التوزيع مستقل عن الهيئة وإن كان داخلها، والموظف

نظمي خارج عن سلطته، وإن كان يتقاضى راتبه من الهيئة، يتلقى تعليمات القسم من جهة، الأفضل عدم التطرق إليها. ورمى بالمسؤولية على عاتق المهندس... لابد لديك وسائلك.

وريثما يجد المهندس حلاً، زودني المخبر بما حصل عليه من معلومات، وهي أن القسم الذي استُحدث قبل بضع سنوات، انتزع مهمة التوزيع من مكتب الدخول والديوان، وتولى استقبال جميع الملفات الواردة إلى الهيئة. في ذلك الوقت، أنشئت إدارة القضايا المستعجلة، كي تفصل في القضايا التي يخصها بها قسم التوزيع على أن تعاد إليه لتودع في أرشيفه الخاص، لتسهيل الرجوع إليها، وأيضاً منع المراجعة بشأنها، فلا تكون مشاعة لمن شاء، بل حصرية، إذ كل ملف عائد لجهة، تسمح أو لا تسمح بتداوله.

ما أن وصل إلى مسامع مفتشي القضايا المستعجلة خبر تصميمي على غزو قسم التوزيع، حتى احتجوا على محاولتي التدرب على ملفات لا يجوز الاطلاع عليها. لاسيما أنه في اليوم التالي، وقبل أن ينتهي الدوام، سارع الأستاذ نظمي إلى استرضائي بنبرة صوته المتوترة، وبعينين زائغتين وراء زجاج نظارته السميكة، وانزعاج لم يخفه، أعلمني أنه تلقى أمراً بفتح أبواب القسم لاستقبالي. على اثرها شاع في الهيئة أن الرئاسة تدرس حركة إصلاح تشمل إعادة هيكلة بعض الوزارات والهيئات والإدارات، ما يعيد قسم التوزيع إلى سلطة الهيئة. وإذا كان مفتشو القضايا المستعجلة غاظهم الخبر، وأصابهم بالقلق. فإن أغلبية مفتشي الهيئة تناقلوه مسرورين، واتفق الرأي بينهم على أن السماح الصادر لي باجتياز عتبة قسم التوزيع، إعلان صريح بوضعها تحت الرقابة، وستكون لي قريباً اليد الطولى في الهيئة، وقال أحدهم لزملائه محذراً مني، إذا كانت يده القصيرة تخوله اليوم الوصول إلى أماكن محظرة، فيده الطويلة غداً ستطال الجميع. بات لديهم ما يؤرقهم فعلاً.

قبل أن أتخطى عتبة قسم التوزيع، كنت أظن من خلال زيارتي السابقة له، أنه لا يزيد عن غرفة، ملحق بها على الأغلب غرفة ثانية لإيداع الملفات. أدهشني عندما عبرت إلى الداخل، احتواؤه على ثلاث قاعات واسعة الأرجاء، مزودة بإضاءة قوية، ومقاعد وثيرة، إحداها كانت قاعة اجتماعات، تفوح فيها رائحة سيجار معششة، وأخرى صادف أنني عندما مررت منها رأيت فيها مجموعة من الرجال يتباحثون ويتناقشون. لم يخف عليّ أنهم من رجال القانون،

عرفت أحدهم، كان أستاذاً في كلية الحقوق، قدرت أنهم يعملون لحساب الجهات المعنية التي تستعين بخبراتهم.

ما لاحظته بالنسبة إلى الملفات جميعها، أن القسم كان قناة عبورها إلى الهيئة، أما الملفات المختارة، فالعجيب أنها تصل إلى القسم موزعة، مرفقة بتنبيه، يفيد بتحويلها إلى إدارة القضايا المستعجلة، أو باحتجازها إلى مدة معلومة أو غير معلومة، أو تقييد تداولها، أو إيداعها في الأرشيف الخاص تحت الطلب. مهمة مدير القسم، اختلاق حجة، تعلل إيقافها، أو عدم البت فيها، أو تأخيرها، وإغلاقها مؤقتاً، لأسباب شتى؛ لنقصان الوثائق المطلوبة، أو لها ذيول على صلة بقضية أخرى، تستوجب تأجيل الفصل فيها... وسواء تلك التي تحول إلى الإدارة، وتتطلب الاستعجال، أو التي عطلت إجراءات التحقيق فيها، يُعتم عليها كلها، فلا معلومات عنها، ولا مراجعات بخصوصها.

ضمن هذا السياق، كان القسم أيضاً يسحب ملفات من عهدة المفتشين في الهيئة، لضرورة إعادة توزيعها. ويقوم بحفظها لديه أو إرسالها إلى من يطلبها من الجهات إياها، ولو لم يكن طرفاً فيها. على هذا المنوال، كانت القضايا تنتزع من دوائر الهيئة، وحتى من دائرة القضايا المستعجلة، بعد إبطال صفة الاختصاص أو الاستعجال عنها، دونما أسباب موجبة ولا ظاهرة.

هذا النهج لم يكن وراءه أجهزة الأمن فقط، هناك جهات أخرى لديها صلاحية توزيع الملفات وتحريكها من مكان إلى آخر. لم تكن الجهات محددة، وبذلك يمكن تصور جهات تفوق الحصر بشرط أن تكون على صلة طيبة بالأجهزة، إذ عن طريقها يكون السماح. عادة تختصر باتصال هاتفي؛ فيُسحب الملف أو تتغير وجهته حسب المطلوب، وقد يضيع أو تضيع أخباره، حسب المطلوب أيضاً. وليس من الغريب أن يستمر توقيف ملف في القسم رغم زوال الأسباب الداعية لتوقيفه، إذ للنسيان والإهمال دور مفيد في حركة الملفات.

القانون أو المرسوم الذي يحدد صلاحيات القسم، لم يصدر مع أن مدير الهيئة راجع رئاسة مجلس الوزراء عدة مرات دونما فائدة، بغية إلحاق القسم بالهيئة، أو فصله عنها، ما دام لا وجود رسمياً له في جداول ملاك الهيئة، مع أن الأستاذ نظمي محسوب عليها. أما إدارة القضايا

المستعجلة فموجودة، لكن بصفتها الاستعجالية، دونما ناظم إداري يحدد أسلوب عملها.

كانت الصيغة المبتكرة والأحدث، المتعارف عليها لتحويل أي ملف إلى إدارة القضايا المستعجلة، من دون الدخول في الأسباب والحواشي، مقتضباً جداً: إشكاليتها. أي يكفي أن يذيّلها الأستاذ نظمي بعبارة: ملف إشكالي، حتى تأخذ طريقها إلى الإدارة.

بالنظر إلى الملفات نفسها الموصوفة بالإشكالية، لم يكن التعبير دقيقاً ولا موفقاً، فهي لم تكن إشكالية، وإن كان من الممكن أن تتجاذبها تفسيرات عدة. لكن لابد من تعبير غامض، هو كلمة السر لتحويل مسارها، يساعد على حصرها ضمن نطاق ضيّق مسيطر عليه، يمنع اعتراضات أو مناقشات حول اختصاصات في أقسام الهيئة، قد تدّعي أنها الأولى بها.

كان مفتشو القضايا المستعجلة أكثر من أحس بالخوف من اطلاعي على الملفات الإشكالية، مع أنهم عملوا عليها بجد، وكما لاحظت، أصابها قدر كاف من الدراسة والتدقيق والتكييف القانوني، وانصب جهدهم على ألا يتركوا فيها ثغرة تضعهم موضع المساءلة، أو المحاسبة. ولم يكن هذا الجهد من صنيعهم وحدهم، كانت اللجنة القانونية الاستشارية في الأسفل، التي تعقد اجتماعاتها دورياً في القاعة الملحقة بقسم التوزيع، تضم أستاذاً في القانون وقاضياً ومحامياً، يشبعونها تمحيصاً بهدف تنظيفها من أي عيب في الشكل أو الأساس.

بالمناسبة، لا شيء يخفى، استفاد المفتشون في الأعلى من الملفات الإشكالية بعد إعادتها إلى قسم التوزيع. كانت باختفائها فيه، تصبح قابلة للاستثمار من دون التلاعب بمستنداتها، فهي لم تعد بمتناول أيديهم، لكن كأنها في الوقت نفسه، ما زالت تحت أيديهم، غنيمة ثمينة. فكان المراجعون المساكين أصحاب القضايا، لا يعرفون مجراها وتحولاته، فيتظاهر المفتش أمامهم بما يبعث آمالهم، باعادة النظر فيها، أو بذل المساعي لترحيلها إلى حيث تظفر بدراسة محكمة، تعيد الحق لأصحابه، فينتفع المفتش منها بالوعود فحسب، وما يزيل الشبهة عن تدخله فيها، أنها منذ أصبحت في قسم التوزيع، باتت خارجة حتى عن نطاق نظره.

وأعتقد أنه يصح لي بعد تجربتي هذه، إيراد الفكرة التي خرجت بها من الجزء الأول من مهمتي،

أن قسم التوزيع، أي تلك الغرفة والقاعات الثلاث تشكل هيئة موازية ومصغرة من هيئة التفتيش الكبرى الظاهرة للعيان. وهذا القسم أقل ما يقال عنها إن يده الطليقة قد استباحت الهيئة. وإذا كان هناك من سؤال خطر لي في ذلك الوقت، فهو ماذا لو عرف الرئيس بأمرهم؟ قال لي الأستاذ رشدي، على الأغلب يعرف. تساءلت، لكن إلى أي مدى يا ترى؟! لم يستبعد الأستاذ رشدي أن يكون الرئيس بالذات هو من طلب منهم أن تكون أعمالهم قانونية، فأعدت الهيئة المصغرة لهذا الغرض؛ مراعاة القانون، بشراء محامين وقضاة. على كل حال، لم نكلف بهذه المهام إلا كي يكون الرئيس على اطلاع بما يجري في الهيئة والمحاكم.

لم يكن الأستاذ رشدي يتكلم في الهواء، إذ حسبما وصلني من المهندس أن ضباط الأمن لم يرق لهم وجودي في الهيئة، وهم يبحثون عن طريقة لمنعي من الدخول إلى قسم التوزيع. لكنه لم يتوقع أن يسارعوا ويضعوا حداً لي.

صباحاً أمام مبنى الهيئة، وأنا على وشك الدخول، كان بانتظاري ضابط يرافقه اثنان من المسلحين، طلب مني بكل أدب الصعود الى سيارة المارسيدس الواقفة عند الرصيف، استفسرت عن السبب. قال لي: من دون سبب.

خلال أقل من دقيقة كنت معتقلاً أو مختطفاً.

في السيارة أغمضوا عيوني، ثم في مكان ما حيث أخذوني، قادني العناصر إلى غرفة، قبل أن يُغلق الباب عليّ، خاطبني أحدهم؛ اعتبرْها ضيافة مؤقتة.

١

مع حلول العام الجديد، خفتت أصداء الحرب الدائرة في لبنان، واتخذت إيقاعاً رتيباً، ومثلما الضجيج تدرج منسحباً، تسرب السكون على مهل، مهيمناً على متغيرات تجري في هدوء، إلا إذا كان الهدوء الذي يسبق العاصفة. القصر الجمهوري آخذ في استعادة عافيته، ثمة لغط مخنوق يدور في الغرف والأروقة، أعقبه حبس أنفاس طال، بدا وكأنه لن ينتهي.

إثر عودة الرئيس من جنازة الرئيس الروسي الراحل بريجنيف، عقد أبو حسين اجتماعاً لموظفي القصر وبشّرهم، الرئيس الروسي الجديد أندروبوف تعهد بمساعدة سورية في حال هوجمت. ووعد بتزويد الجيش السوري بمنظومة صواريخ للحماية من هجمات الطيران الاسرائيلي، سيتم شحنها وتركيبها على وجه السرعة، ووعد أيضاً بإرسال كميات كبيرة من الدبابات والمدافع والصواريخ والعتاد العسكري المتطور.

تنفس الموظفون الصعداء، دمشق لم تعد مهددة.

المفاوضات بين لبنان وإسرائيل ما زالت جارية. بدأت في نهاية العام المنصرم، الإسرائيليون مصرّون على عقد معاهدة لإخراج لبنان من محيطه العربي. ومثلما رفض الرئيس الهزيمة، لم يعترف بالمفاوضات، وأخذ بالعمل على إفشال المعاهدة، بتشجيع المقاومة الوطنية اللبنانية على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم. المأزق، إذا نجح الإسرائيليون في توقيع المعاهدة، ووضعوا الرئيس أمام الأمر الواقع.

فكر المهندس في استغلال هذا الظرف، والإسهام بالمعركة في اتجاه آخر، شهر شباط يقترب، تفصله بضعة أيام، هذه السنة لن يمر شباط كما أي شهر غيره. كان الذكرى الأولى للقضاء على فتنة حماه. رفع اقتراحه إلى أبو حسين: التحضير لاحتفال خطابي جماهيري كبير، تُظهر ضخامته مدى التأييد الشعبي للرئيس، يتبارى المشاركون فيه من مسؤولي الحزب والدولة، بالتشهير بالامبريالية العالمية، والتهديد بأسوأ العواقب للمتعاونين مع الاسرائيليين من الميليشيات المسيحية اللبنانية، وتوعد الإخوان المسلمين المختبئين في أوكارهم بالداخل، بالتنكيل بهم عقاباً على محاولاتهم بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد؛ الوعيد سيشمل الدول التي تحتضنهم، العراق والأردن والسعودية. هذا الربط بينهم ضروري لتوجيه الأنظار إلى المؤامرة التي تتعرض إليها سورية، الخطابات ستؤكد على توحيد الصفوف لتحقيق النصر القريب... ولا بأس من الاشارة إلى الهزيمة الحتمية لأميركا وأعوانها، كل هذا يفيد في شد العزائم.

عوّل المهندس على المناسبة، إذا حازت على إعجاب الرئيس، ربما استدعاه وحظي بمقابلة معه على انفراد. عندئذ سيفاجئه بمشروعه الأكبر، وآفاقه السماوية.

أعاد أبو حسين الاقتراح إلى المهندس مذيلًا بتعقيب الرئيس: في هذه الظروف، قد تخطئ البوصلة، لا ينبغي إيقاظ العدو الداخلي في الشهر نفسه؛ شباط!! فهمها المهندس كما ينبغي أن تُفهم: طي صفحة حماه، لئلا تستثار الذكريات، وتستفز المشاعر، وينعكس الأمر إلى ضده، يحتاج الناس إلى أن ينسوا لا أن يتذكروا.

الأفضل تأجيل الاحتفال إلى العام المقبل، أو حسب ظروف مواتية.

انتظر، آخذاً بالاعتبار أن الرئيس منقطع إلى عمل واحد، الإشراف على إعادة بناء القوات المسلحة. الأسلحة بدأت بالوصول إلى الموانئ السورية، معنوياته مرتفعة، لا يصرف أنظاره عن الجبهات، يعمل على تسخينها؛ الجيش الاسرائيلي الذي انسحب من بيروت، يعاني من العمليات الفدائية. العملية الأشد تأثيراً وإيلاماً، كانت نسف مقر قيادة أركان الجيش الإسرائيلي في صور، قتل فيها ٦٧ إسرائيلياً.

لم يطو المهندس اقتراحه، تقارير مخبري الجهاز الخاص أعادته إلى الواجهة، ثمة ما استجد في الداخل؛ فلول جماعات الإخوان المسلمين تُعّد لتحرك بمناسبة الذكرى الأولى للمجزرة، بالدعوة إلى مأتم يعم سورية. العمل جار على التغرير بالمنكوبين من أهالي حماه، يؤازرهم عامة السوريين في باقي المحافظات. ولكي يضمن الإخوان المسلمون إقبال الناس على المشاركة في المأتم، أكدوا على سلميته: لا لحمل السلاح، لا للخروج بمظاهرات، لا لإطلاق هتافات. سيتذكرون أمواتهم فقط، ويعبّرون عن حزنهم بترتيل القرآن في المساجد، وزيارة المقابر. ويعم سورية ثلاثة أيام من الحداد الشامل، يتجلى بارتداء الأسود، وإقامة التعازي في البيوت والصالات المستأجرة.

حذّر مخبرو الجهاز الخاص من المأتم الشامل؛ التحريض وجد صدى لدى عشرات الآلاف من السوريين المحزونين، الذين فقدوا آباءهم وأولادهم، عدا مئات الآلاف من المتضامنين معهم. في هذا اليوم ستعلو أصواتهم بالبكاء: إذا ترك الأمر لهم، فسوف نسمع النواح يهدر في أرجاء البلاد.

عاد المهندس، ورفع تقريره إلى الرئيس عن طريق العم صبحي. لم يدر أن تقارير أجهزة المخابرات العامة واكبته وحملت المضمون نفسه، مع التوصيات بأسلوب معالجتها؛ وكان بالقوة المفرطة.

قرأها الرئيس بإمعان، ورفع يد أجهزة المخابرات عنها. يعرفهم، ليس لديهم سوى أسلوب واحد؛ الاعتقال لكل من يذرف الدموع أو يقرأ القرآن، ولن يتورعوا عن إطلاق النار، حسب زعمهم أنهم اضطروا إليه لتعرضهم إلى استفزازات. حجة قادة الأجهزة، إذا لم يقمع المأتم، فلنتوقع الأسوأ من تداعياته. تمسك الرئيس بحساباته، الأوضاع لا تحتمل انشقاقاً في الجبهة الداخلية، يستثمره خصوم سورية في الخارج. قمع تظاهرة الأحزان بالبطش سيؤدي إلى استعادتها على نحو أكثر دموية، لكن مادام الطرف الآخر لن يرفع السلاح، فلا مبرر لتلقّنهم المخابرات درساً بالرصاص.

ومع أن الرئيس تشدد برفع يد الأجهزة، لم يغفل عن المأتم، ولو كان صامتاً يتخلله البكاء بأصوات منخفضة، ولا تعميم المظاهر السوداء، ما يشكل إجماعاً شعبياً صارخاً على إدانة مجزرة حماه، يحقق انتصاراً للإسلاميين، وفضحاً لمعالجتها التي أدت إلى مقتل الآلاف. كان إفشال ذكرى الفتنة يتطلب القمع.. على ألا يكون دموياً، ولا يترك وراءه أثراً.

العم صبحي أعاد الروح إلى اقتراح المهندس، وكان في استدعاء الرئيس له على وجه السرعة تسجيل لاختراق على حصار أبو حسين المحكم من حوله، تم من خلف ظهره. تعليمات الرئيس كانت صارمة: تطويق المأتم العام في الجمهورية وإنهاؤه، قبل أن يبدأ، وبأقل قدر من العنف، والأفضل بلا استعمال أدنى قدر منه.

وضعه الرئيس مكبلاً إزاء موقف صعب؛ هل توجد وسيلة تمنع الناس من الحزن بلا مجزرة؟ المحزونون لا يمكن التفاهم معهم، إنهم أشبه بالثوار. تساءل، هل يجوز التهديد باستعمال القوة؟ كان تساؤله متواضعاً جداً، فراعاه الرئيس:

«لا بأس باعتقالات محدودة، لكن من دون إطلاق نار».

تعهد المهندس بقمع نظيف، مطمئناً إلى أن الضحايا لا حساب لهم عندما تقع الواقعة.

لم يخف توقيت موعد استيقاظ الأحزان الهاجعة دلالته. كان في الربع الثالث من شهر شباط، في ذلك التاريخ بلغت الإعدامات الجماعية ذروتها. كان التوقيت مواتياً لرفع سوية التفجع ومستوى التهييج، وإذا كان هناك من سيروي وقائعها في يوم المأتم الموعود، فسوف يحصد البلد بكائية، ينطلق المستمعون على أثرها إلى الشوارع ليصدح النشيج أشبه بنشيد وطني، وتحطيم كل ما هو قابل للكسر... وإشعال حرائق، تلتهم كل ما تجده في طريقها.

ما التحرك القادر على إبطال المأتم الشعبي القابل للاشتعال؟

طلب من قادة الشرطة على سبيل الاحتياط، التواجد في الشوارع والتأهب لأي طارئ. أما قوته الضاربة فكانت الاستعانة بالمنظمات الشعبية ونقابات العمال والفلاحين والحرفيين، واتحاد الطلبة، ولا بأس بالاتحاد النسائي. في اليوم الموعود، كانت الخطة الموضوعة جاهزة للتنفيذ، المنظمات مستنفرة، جاهزية الجماهير الشعبية التقدمية في حدودها القصوى.

صباحاً انطلقت المسيرات في جميع أرجاء المحافظات والبلدات السورية، تجولت في الشوارع، وغطّت الساحات، وجاست في المقابر وصالات العزاء. ظهراً احتلت المساجد، اعتلى الخطباء المأجورون المنابر، أشادوا بالسيد الرئيس ودعوا إلى نصرته في معركته ضد الانعزاليين والإسرائيليين، الخونة والعملاء، والإمبريالية الأميركية... لم يتقدم النهار ويقبل المساء، إلا وبدد ضجيج الأعراس صمت المأتم السري على وقع العراضات وحلقات الدبكة المعقودة تحت لهيب المشاعل. الميادين تزينت بالأعلام الملونة، والساحات باللافتات والأضواء، وضجت الأفراح في صالات العزاء، المتظاهرون يطوفون الشوارع يهللون، ترافقهم طبول الشبيبة البعثية. أبعد قليلاً رجال الشرطة، الهتافات الحماسية تكتسح الأحزان والدموع، وتكنس الذكريات المريرة. وعلى صفحة السماء السوداء تتناثر ومضات الألعاب النارية، سرعان ما تبرق، وسرعان ما تنطفئ.

بعثت هتافات الانتصار المشاهد الأقوى مرارة، تذكر المحزونون هتافات النصر التي رافقت

مواكب المعدومين إلى الموت، والشتائم التي لاحقتهم إلى ما بعد الموت. وأسدل الستار على المأتم، دفنوا أمواتهم في الصمت، حزنوا خفية، ونشجوا بأصوات مكتومة.

قدم المهندس شهادة ممتازة على معالجة موقف كان منذراً بشلالات من الدماء، انفض من دون إراقة نقطة دم واحدة. ولقد أعجب الرئيس بحنكته، تلك التي لم يتوقعها، كذلك تقيده بالتعليمات، فكرته عنه خاطئة، اعتقد أنه متهور.

كان في استدعاء الرئيس له للمرة الثانية خلال أيام قليلة تقدير لا يحوزه إلا القلة، ولكي يسبغ على نجاحه التقدير الملائم قال له، اختبرت قدراتك على التنفيذ، لا ولاءك. أتعرف لماذا؟ كان مضموناً.

عندئذ، جاء الوقت، وكان مناسباً ليعرض أمامه مشروعه الأكبر.

قبل ذلك، وتوطئة له، عزا نجاحه، بلا تبجح، إلى اتّباعه القول الشائع: لا يفل الحديد إلا الحديد، فتذكر الرئيس القوة المفرطة التي لم يرق له استعمالها. لكن كيف استطاع المهندس قمع المأتم دون أن يسقط في فخ الحديد؟ لم يفعل شيئاً، ناظر بين الحديد والشعب فأصبح: لا يفل الشعب إلا الشعب.

ضحك الرئيس، ونادراً ما يضحك أمام مرؤوسيه، الجد طابع لقاءاته معهم، قاعدة لا تخرق، لكنه خرقها، للضحك حالات قاهرة لا يمكن تفاديها.

تشجع المهندس، ملامح الرئيس منبسطة، فاندفع بثقة، كان مسلحاً ببشارة إلهية.

خلاف ما تراءى له، خانه التعبير. وللحظات كانت مرعبة تصدعت خطته، الحماسة التي تجددت بعد عودته من شوارع دمشق التي شهدت مأثرته، فقدها، وحل محلها التأني. لم تواته الجرأة على تشجيع الرئيس ليحل محل الله. الفكرة رائعة، لكن أن يقولها له، فالجنون بعينه. لا بأس، سيؤجلها ريثما يجد الطريقة المناسبة كي يبلغها له من دون كثير عوائق، لكنها فرصة قد لا تتكرر، الرئيس رائق المزاج، ما سيطرحه عليه يبدو أشبه بمزحة، إذا مرت، فالجدية التي

ستعقبها، كفيلة بترسيخها.

بعد تردد، وشروح متلكئة، لم يعسر عليه إدراك أنه لم يف البشارة حقها من بلاغة البيان، ولم يفلح بتوصيلها، الفكرة ضخمة، هائلة الحجم، لا يتصورها العقل، العرض قصّر عنها وكان رديئاً. لكن حينما رأى الرئيس يكبت ضحكته، ربما كان مسروراً، فاسترسل، أزاح الله عن عرشه، وشطح بالرئيس عالياً نحو السماء السابعة. خمن من عبوسه المباغت، أنه فقد الاتصال به. لم يتجاوب معه، بدا من تراجعه نحو الخلف، وميلانه بجذعه إلى اليمين، كأنه فقد توازنه، إذ نبس بكلمة واحدة مستنكراً نوعاً ما:

«السماء!!».

فبادر يصلح ما أحس أنه تسرع بقوله، ويرأب الصدع بين السماء والأرض، بالمبالغة في تعظيم الرئيس، بحيث تضاءلت إزاءه المخلوقات والموجودات، وجعله يطاول السحاب، علّه يقتنع بوصوله إلى السماء السابعة. تغضنت ملامح الرئيس، وكما بان عليه، مزاجه تعكر، لم يجد رابطاً بين المديح المبتذل، وتشبيهه بالله، كان انحرافاً نحو الإلحاد؛ المهندس يلقي الكلام كيفما اتفق. تساءل بانزعاج:

«هل أنت ملحد؟».

عصر المهندس دماغه ليؤيد فكرته لا إلحاده. ما الذي يرضي الرئيس، أن يكون ملحداً أم مؤمناً، بالنسبة إليه سيان. كان يظن أن الرئيس ملحد، بينما بدا له الآن مؤمناً، فلينهج نهجه المحير.

«لا أدري، أحياناً أجد نفسي ملحداً».

تظاهر أنه يتكلم عن شيء آخر، يبرر به مصادفات إلحاده النادرة، استثمرها في البرهنة على أن السماء فارغة من الله، دليل وفره تتالي عصور مظلمة خلت من الخالق، وأجيال من شهود العيان لم يروه. غير أن الرئيس لم يتلمح في الدليل سوى خفة يجترئ بها المهندس على الله، أصلاً لا يليق التطرق إلى خالق الكون على هذا النحو من السخافة.

«حضرة المهندس، إذا كنت تقصد أن هذا القصر ليس له مهندس عمل على تصميمه وأشرف على بنائه، فأنت لا تستحق هذا اللقب».

دلت ابتسامة الرئيس الصفراء إلى أنه على وشك انتزاع اللقب منه.

«أقصد لا وجود ملحوظاً له، وهذا من طبيعة الله، ألا يظهر إلّا للمصطفين من خلقه، مثل الأنبياء والرسل وعباده الصالحين، لا يظهر لهم كشيء مادي، وإنما يحسون به، ويتخيلونه من نور مبهر يعمي الأبصار».

بعدما تدارك ما قاله، ارتدّ إلى الواقع، خصوصاً أن الله لم يعد مهدداً بالاختفاء، بل هو المهدد بالطرد.

غير أنه لم يغادر موقعه، لا يمكنه التنازل عن فكرة تعتمد بالدرجة الأولى على عدم وجود الله كي يحتل الرئيس بسلاسة محله الخالي منه، كحق لا ينازعه عليه أحد. حاول ثانية تمريرها من زاوية أخرى، بواسطة أمثلة معاصرة مستساغة، غير منفرة ولا صادمة، تتجنب الله، وتقرّب الفكرة إلى الرئيس بلا عوائق إلحادية، شواهدها واردة في عالمنا، ومبذولة في التاريخ. وقائع لا تخلو من تأليه البشر، فراعين، أباطرة، رؤساء. في العصر الحديث، هناك حالات مماثلة، دُعيت بعبادة الفرد، هذا الفرد، رجل محبوب، يستحق التقديس من فرط عظمته.

سيدي الرئيس، لا يمكن الاستهانة بمفعول هذه العبادة، قامت تحت تأثيرها دول جبارة خاضت حروباً عالمية. الفكرة لا تتناقض مع الديانات السماوية، كما لا يعتد بشبهاتها الإلحادية، إنها عبادة من نوع خاص، الدولة تساهم بها وتحض عليها.

«ما الهدف منها؟».

تساءل الرئيس، والمفترض ألا يتساءل، الهدف بات واضحاً وضوح الشمس. ألّا يكون هناك منافس له، فلا يفكر الشعب بغيره، أي لا شريك له.

تلكأ في التصريح، الرئيس لا يتفاعل معه بل يعانده، الفكرة لا تدخل إلى رأسه.

«الهدف هو الشعب، قيادتك يا سيادة الرئيس تيسّر عليه تحقيق أمانيه».

«يا بني، أنا أثق بالتاريخ».

«لكن لماذا لا تكون بمثابة...».

لم يكمل، عسى الرئيس يفهم، لكنه لم يجد في ما قاله صدى لديه، مع أنه كان كافياً، فحاول من جديد التعبير على نحو أكثر استساغة.

الشعب يا سيادة الرئيس يريد كائناً مرئياً، قريباً منه، يتوجه إليه بدعواته ورجاءاته، وإلا فلماذا تدعى أعطياتكم؟ زيادة الرواتب مثلاً، أليست نعمة أشبه بالربانية.

الفكرة بسيطة جداً، لكن شرحها ليس بسيطاً، التوسع يميّعها، والاقتضاب يزيد في غموضها، فحاول شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك، بالتأكيد على أن الفكرة بحد ذاتها في حال طبقت، وسوقت بشكل جيد، لها من الحسنات ما يغفر لها بعض التجاوزات الضئيلة، الشعب يمنح الشخص الذي يحبه مكانة عظيمة وينظر إليه كزعيم يتمتع بالخلود، وأشياء من هذا القبيل. ووجد مثالاً حاضراً: كيم إيل سونغ.

«شعبه يعبده، يعتقد أنه لن يموت».

«لكنه سيموت».

بات التخبط الذي أوقع نفسه فيه لزجاً، لا يعرف كيف يخرج منه. الرئيس يتعمد إرباكه، مع أنه كما بدا لا يصغي إليه، قدر ما كان شارداً عنه.

غير أنه سيعرف في ما بعد، أن هذه طريقة الرئيس في الاستيضاح، يبدو شارداً عن محدثه، أو لا يُعنى بما يسمعه، بينما هو متنبه لكل كلمة، ذهنه أشبه بمختبر، يقلّب الأفكار على أكثر من وجه.

في تلك المقابلة، حسبما يتذكر، قال لنفسه، إذا كان الرئيس فهم شيئاً من هذا التخبط، فلا عائق في المزيد من التخبط، فأخذ يدور ويلف حول فكرته، قد تعبر بسلام إليه، ولقد اهتدى إلى أن

نقطة الضعف فيها هي نقطة القوة، من ناحية أن البشر يتقبلونها، ويتفهمون عبادة الفرد كما يجب أن تفهم، يتواطأون معها، من دون عوائق إلحادية، ولا تستوجب التكفير.

«أي أن المعبود يبقى على قيد الحياة، خالداً إلى الأبد، لكن كرمز».

«يكفي». قاطعه الرئيس.

كان لمقاطعته مفعول فوري. لم يعد يريد سماع شيء، أي شيء. إذ أشار له بيده نحو الباب، كان الرئيس يريد أن يخلو لنفسه.

بدت قاعات القصر لحظة خروجه، رغم الإضاءة المبهرة، فاحمة شديد السواد، فلم ير الدهليز الذي يقوده نحو البوابة الخارجية، تاه في الممرات، وأضاع دربه بين الأبواب المغلقة والأبواب المفتوحة. فكرة حمقاء، كيف سولت له نفسه محاولة تزيينها له؟

لا حيرة بعد اليوم، المستقبل تحدد، واليوم التالي بات واضحاً، لا مكان له داخل القصر ولا في الجهاز الخاص، أو حتى في الجيش أو في المخابرات. إذا لم يرسل إلى السجن سيعود ناجياً بنفسه إلى الضيعة، هناك سيعمل على ألا يموت حسرة وكمداً على ما فرط به.

ليلاً توقع أن يأتي من يطرق عليه الباب، ويقتاده إلى السجن.

صباحاً عندما استيقظ ووجد نفسه في سريره، كان قد منح يوماً آخر من العيش، هل يهنأ به حراً؟ بعد قليل، اتصل به العم صبحي وحثه على القدوم إلى القصر دون تأخير. كان صوته ودوداً، فتخفف من وساوسه، إذا كان للسجن، فلن يستدعى إلى القصر، قد يتبلغ قرار طرده، أو تقديم استقالته، وإذا كان محظوظاً، فالتحاقه بمكان ما أشبه بالمنفى.

هذا لم يحصل، أبلغه العم صبحي البدء بممارسة وظيفته، لم يذكر أي وظيفة. فكّر، إذا كانت وظيفته في الجهاز الخاص، فهو يمارسها أصلاً، وإذا كان عملاً آخر، فما هو؟ تابع العم صبحي، وكان مستغرباً وهو يقول له: علاقتك ستكون بالرئيس شخصياً، تتلقى التعليمات منه فقط، والتفويض، بلا حدود.

الصدمة السعيدة ألجمته عن الكلام. ما فهمه، دون كثير تفكير، أنها تزيد عن المنح الرسمية المعمول بها، وتتجاوز إجراءات التوظيف الروتينية، إلى عملية توظيف شخصية، بإجراءات استثنائية وتفويض استثنائي، شفهي غير مكتوب، أقوى من قرارات التعيين الرسمية. أما أين سيباشر عمله، وما هي وظيفته، فالعم صبحي يجهل ما هي، أو أين؟ التعليمات سيتبلغها من الرئيس عندما يقابله. غير أنه لمّح إلى أنه سيكلفه بمهام مخابراتية، لا يريد أن يعلم بها أبو حسين، الرئيس ربما أحس بأن سكرتيره المقرب يبالغ في استثمار وساوسه.

في انتظاره، تركزت تساؤلاته حول معرفة، هل أعجب الرئيس بفكرته، ووظفه بموجبها، أم تجاهل مفعولها على أنها خيالية، واختار له عملاً آخر سيسنده إليه؟

لم يقل لأبو حسين أي شيء عما تبلغه من الرئيس، علاقتهما أصابها الجفاء بعد قمعه للمأتم الوطني. على كل حال، الرئيس حصر الأمر بينهما. وإذا عرف أبو حسين به، فسيعمل لا محالة على تخريبه، ولن يتورع عن تحريض وساوس الرئيس ضده.

سمح الرئيس بمقابلته بعد أيام. وبدا الغرض من الجلسة التي انتهت سريعاً، أن يتأكد الرئيس من تبلغه بتعيينه الثاني، لكن لا شيء بخصوصها!! وانتهت المقابلة. عند الباب وصله صوت الرئيس:

«سوف تعمل وحدك».

التفت نحوه، تريث لسماع المزيد منه، عسى يقوله. وكانت لحظات من الصمت، قطعه الرئيس:

«يستحسن أن تعمل بتأن ولا تستعجل».

كأن الفكرة الخيالية ذاتها، أصبحت واقعية. عاجله قائلاً بأنه سيقدم له بين الفترة والأخرى كشفاً عما فعله وما سيفعله. كان جواب الرئيس سريعاً، أن وقته لا يسمح برؤيته ولا بالقراءة، لكنه سيستدعيه، إذا أراد الاستفسار منه عن شيء، أو إبلاغه بشيء، أما بالنسبة... غمغم الرئيس وبالكاد لفظها:

«عموماً أخبارك ستصلني».

وحتى بعدما خرج، خالجته الوساوس، لم يتأكد تماماً، لم يكن التصريح بالوظيفة واضحاً جداً، ربما الفكرة نفسها لم تشرح بما فيه الكفاية، لو أتاح له الرئيس بعض الوقت لشذبها قليلاً وأجرى عليها بعض التعديلات، ولما كانت صادمة، كما بدت في حينها. الرئيس يرغب فيها من دون تصريح واضح، حتى أنه لم يطلب الاطلاع على تفاصيلها. هل هذا ما قصده الرئيس من غمغمته؟ سوف تتضاعف تخميناته، وتبقى قائمة، ولن تزول حيرته، أو تستقر على يقين، إلا بعد حين سيطول.

لكنه أدرك أنه لن يغيب عن أنظار الرئيس.

٢

انصبّ تفكير المهندس على عملية صغيرة تجريبية كأنموذج واعد لعمل كبير، يُعنى بتكريس الرئيس رجلاً يتميز عن البشر، وهو أمر ثابت لدى العوام، نظراً إلى ما يتميز به الرؤساء في نظرهم، وأيضاً ما يتفرد به الرئيس عن أمثاله، برهنت عليه استفتاءات الرئاسة التي قاربت نتائجها المائة بالمائة. عملية يراقب رد فعل الرئيس عليها، في حال استحسنها، يتوسع بها. لكنه آثر التمهل، لم يكن مستعجلاً، لديه متسع من الوقت، الإتقان قبل العمل.

أرجأها بسبب المهمة في هيئة التفتيش، والتي كادت أن تفشل، بعدما وصله من أكثر من مصدر استياء المسؤولين والضباط من الاختراق الحاصل في الهيئة، بلغ الغضب بهم أنهم عزموا على منع القاضي الشاب من دخول الارشيف، ولو كان للتدريب. وعزموا على تأديبه بإرساله إلى الفرع مدة كافية لينسى أين يقع مبنى الهيئة. ومع أن هناك من حذّرهم؛ الموظف يحمل تفويضاً من القصر الجمهوري، اعتقلوه من الشارع، واختفى لديهم.

في الوقت نفسه، طلب ضابط كبير في الجيش مقابلة الرئيس، ليتكلم باسم مجموعة الضباط الغاضبين، للاحتجاج على ما يقوم به موظف متدرب، وراءه جهات تريد الإيقاع بين جنود

الوطن والدولة. أما إذا كان المتدرب يتدرب فعلاً، فلماذا على هذه الشاكلة؟ إذا كان الهدف الاستغناء عنهم، فهم على استعداد للانسحاب دونما ضجيج، وعلى أي وجه يريده الرئيس، الإقالة أو الاستقالة لأسباب صحية، أو غير صحية.

كان طلب المقابلة قد حول إليه، عن طريق أبو حسين الذي أردفه بملاحظة على الهاتف: الضابط لايمثل نفسه، إلى جانبه ضباط من قطعات الجيش العاملة في لبنان، لا يمكن رفض طلباتهم. الحرب هناك مصيرية. فأعلمه المهندس، الضابط يمثل أيضاً ضباط الأمن، الذين أسهموا من جانبهم باعتقال المفتش.

بينما كانت تعليمات الرئيس للمهندس: تمهيداً للمقابلة، حاول أن تنهي المشكلة بينك وبينهم، بإطلاق سراح رجلك، وأن يعود إلى عمله، على أن ينهي التفتيش خلال خمسة أيام..

أظهر المهندس تفهماً لوجهة نظر الضابط؛ المفتش أثار قضايا، قد تنتج منها إشاعات وأقاويل، تهدد البلد بالقلاقل، إخفاء هذه الملفات كان من باب ضبط السلم الأهلي. وافقه المهندس، وتجاوب معهم على الخط نفسه، التفتيش كان خطوة تدريبية اطلاعية وللهدف نفسه، السلم الأهلي، وهو مصلحة الأطراف جميعها، والقصر سينسق معهم من الآن فصاعداً، منعاً لحدوث التباس. وبالنسبة للرئيس، وافق على طلب المقابلة خلال بضعة أيام لن تتجاوز الأسبوع. ونصح الضابط، ليكون اللقاء ناجحاً بإطلاق سراح المفتش، وعودته إلى مزاولة عمله، كأن شيئاً لم يكن، مع التعهد بعدم رفع شكوى جراء اعتقاله.

الضابط لم يعط جواباً، كان كل همه معرفة من أصدر قرار التفتيش في القصر تحت غطاء التدريب. قناعته أن من يستهدف الضباط واحد من مراكز القوى في داخله. ترى أيهم؟ مهدداً بأن المفتش قد يذهب ضحية حادث سير.

كان في قتل المفتش فرصة ذهبية لإشعال حرب ضدهم، لكن سابقة مروان لم تشجع المهندس، لن تكون هناك معركة ضد جنود الوطن، مادام الرئيس لا ينوي التعرض لهم. سيخسر المفتش، الذي لن يحظى بتأبين ولا بتسمية حضانة أطفال باسمه، ولن يحسب بين الشهداء.

لمّح المهندس للضابط، إلى أن الأمر الصادر ولو كان من شخص مقرب من الرئاسة، يمكن اعتبار أن الرئيس هو الذي أمر به. كان قد وجّه الاتهام إلى أبو حسين، إذ لا أحد يجهل أبو حسين، ومكانته من الرئيس. وحذره، إذا علم الرئيس باعتقال المفتش المتدرب، فسوف يغامر بإثارة غضبه، لكن سيسعى من طرفه إلى تقريب موعد مقابلته مع الرئيس. تظاهر بإجراء بعض الاتصالات، ثم أبلغه بأن نجح في جعله خمسة أيام بدلاً من أسبوع، فوافق الضابط على إطلاق سراح المفتش المتدرب.

بعد خمسة أيام، استمع الرئيس للشكوى التي حملها الضابط، لم يناقشه أو يستوضحه عن الموضوع. أظهرت ملامحه عدم رضاه عما جرى في الهيئة. رفع الهاتف وطلب من السكرتير إيقاف عمل المفتش في الهيئة فوراً، والعودة من حيث أتى.

كان الدرس الرئاسي بليغاً؛ الهدف من التفتيش ليس إرباك الدولة، ولا إقالة العشرات من الضباط والمسؤولين دفعة واحدة. هذه القضايا أعدت لزمن آت، وريثما يأتي، لا تهديد بعقوبات ولا تلويح بمحاكمات. في ما بعد إذا استدعت الظروف التخلص من أحدهم، يصرف من عمله مع فضيحة؛ معاقبة الفاسدين لا تجدي إذا لم يعلن عنها. يجب أن يعلم الشعب أن لجان الإصلاح تقوم بخطوات جدية.

الخطوة التجريبية الأولى لم تتأخر، كانت مع اقتراب الذكرى الثالثة عشرة للحركة التصحيحية التي قادها الرئيس في العام ١٩٧٠، سينفرد بالتحضير لها قبل حلولها بعدة أشهر، يسبق بها احتفالات الحزب وخطاباته. ستخدم مشروعه وتصبّ فيه، وما بعدها تداعيات عنها على المدى البعيد.

استهلها بحملة متدرجة من الصور؛ صورة ضخمة ملونة للرئيس، علقت على واجهة مبنى محافظة أمانة العاصمة، حجم الصورة بطول المبنى، يراها المارة على امتداد شوارع الصالحية، ٢٩ أيار، الفردوس والحجاز، مواجهة أو مواربة، يبدو فيها الرئيس بطوله الفارع يحنو على المارة بمودة بالغة، لا تخلو من دلالة رفيعة المستوى، تتعدى الأبوية، خصوصاً أنه يطل عليهم من العالي. تلتها في الأيام اللاحقة عدة صور للرئيس بالوضعية ذاتها، وبالطول والعرض نفسه

على الأبنية العالية للوزارات والنقابات.

بوقفته الشامخة، وطوله المضاعف عشرات المرات، هيمن الرئيس بوجهه البسام على العاصمة، وأسبغ على الشعب الشعور بالأمان والاستقرار. المارة أينما توجهوا يرون الرئيس بمرمى أبصارهم، يرعاهم من عليائه بعنايته، ويطمئنهم، أحوال سورية بخير.

لم تقتصر إيحاءات الصورة على هذا المعنى الرؤوم، لاسيما مع التفجير الضخم الذي طال مبنى السفارة الاميركية في بيروت، وكانت حصيلته مقتل ٨٣ جندياً أميركياً من مشاة البحرية. العملية الاستشهادية للمقاومة أضفت على ابتسامة الرئيس الخاصة بشعبه، شماتة بالأعداء، أبرزت نزعة التحدي للإمبريالية العالمية، والقدرة على إحداث أفدح الأذى بها، ولو أن سورية بمرمى صواريخ بوارجهم العملاقة. كانت تذكرة أنهم أيضاً بمتناول قبضة الرئيس التي تظهر في الصورة مضمومة، وكأنها سترتفع وتهوي على أساطيلهم الجبارة، بعد أن هبطت على رؤوسهم في السفارة.

على أثر حملة الصور، دُعي المهندس إلى اجتماع حزبي، كان من باب النكاية البعثية، القصد منه التعرف إلى القادم الجديد من الجهاز العسكري، عن طريق القصر الجمهوري، وإبلاغه ضرورة إطلاع الحزب على مثل هذه الخطوات قبل الإقدام عليها، الشوارع والجماهير والمسيرات واللافتات والهتافات من اختصاصهم، وليس لكل من هبّ ودبّ على أرض العاصمة، التعدي عليها مساس بصلاحيات الحزب. المطلوب تحذيره من المساس بالحدود المرسومة لسلطة البعث قائد الدولة والمجتمع. رسالة حازمة تشدد على أن دمشق ليست ساحة مفتوحة للمنافقين والانتهازيين الذين يرومون تسلق أعلى المناصب بمديح الرئيس. وأيضاً، وهو الأهم، معرفة الجهة التي تدعمه في القصر.

عُقد الاجتماع في فرع الحزب، وجهت إليه انتقادات حادة؛ الصور أحدثت ردود فعل غير طيبة لدى جماهير العمال والفلاحين، أحسوا أنهم محاصرون، أينما اتجهوا أو حلوا، لم يكونوا مرتاحين إلى وجود الرئيس بهذا الحجم الضخم، الطويل والعريض، متعال عليهم، الروح الرفاقية تجمع بين القيادة وأعضاء المنظمات الشعبية، والشعور بأن الرئيس واحد منهم، على قدم المساواة مع

أفراد الشعب، أب أو أخ أو صديق، ولهذا كان أحد الألقاب التي أشاعها الحزب هو: الأب القائد. هذا المعنى لا عن عبث، يخلق نوعاً من الألفة والمحبة. لم يناقشهم في معانيهم، ما دام العلو والتعالي هما الغاية، والشعور بالحصار أيضاً، والأهم، ألا يحسوا أنه مثلهم.

تركز دفاعه، ولم يكن عن حملته، بقدر ما كان اتهاماً لهم، على وزن لغو المعاني، فابتدع لغو المشاعر؛ ما تثيره صورة الرئيس، يختلف من شخص لآخر، المواطن المخلص يشعر بما يبذله الرئيس في حماية عائلته ورعاية أولاده، أما من ارتكب جرماً بحق الوطن، فمن الطبيعي ألا يستأنس بالصورة، بل يشعر بالخوف، والحصار والهيمنة، ومن الطبيعي أيضاً أن تنعكس عليه بالشلل والإحساس بانعدام قدرته على الإفلات من العقاب. غير أن ما قاله، لم يكن بليغاً بما يكفي، إلا عندما أتبعه بمثال آخر عن اللصوص، كانت أصبعه التي وجهها إليهم، قد أوصلت الفكرة تماماً.

كان الاجتماع الحزبي مناسبة لمحاضرة تركز على ما تثيره الصورة من تأويلات كثيرة. لم يقل لهم إن الرئيس لغز مستغلق على المقربين منه والعاملين معه، وإنما في أن شخصيته العميقة ثرية بالمعاني العظيمة، تحتاج إلى ذكاء جم لإدراك جزء بسيط منها. لم يختم محاضرته، قبل أن يجلب انتباههم إلى نظرات الرئيس التأملية؛ هذا الرجل ملهم، دون تحديد أن السماء مصدر إلهامه، سيأتي وقتها، وربما لن يحتاج إلى هذه الفاصلة، قد يقفز فوقها، ويركز على السماء نفسها.

تباحثوا حول اتخاذ بعض الإجراءات الرادعة بحقه، لكنها لم تتعدّ الثرثرة لرفع معنوياتهم، وإبعاد إصبع الاتهام عنهم، ثم تجاهلوه وتجاهلوها. فعلوا خيراً، عرفوا بعد التحريات، أن المهندس، حسب ما رشح عن القصر الجمهوري، يعمل بتوجيه من الرئيس شخصياً، فأصبح يدعى إلى اجتماعات الحزب، حضر بعضها، واعتذر عن أغلبها. وليختبروا ثقل وزنه في القصر، لوحوا بترشيحه للقيادة القطرية أو القومية، اعتذر عن المنصب، عمله في القصر يستهلك وقته كله.

المفاجأة غير المتوقعة، وإن كانت متوقعة بعد مفاوضات استمرت أربعة أشهر، جرى التوقيع بين الإسرائيليين واللبنانيين على المعاهدة تحت ضغوط أميركية وفرنسية. في ١٧ أيار سجل

دخول لبنان العهد الكتائبي، تحت الإدارة الإسرائيلية شبه المباشرة... وأعلن من دون إعلان: لبنان محمية إسرائيلية.

رفض الرئيس الانسحاب من لبنان، وتمسك بإلغاء المعاهدة التي وصفها باتفاق الإذعان. ورفض أيضاً الدخول في أية مساومة مع الإسرائيليين والأمريكان، ولم يتراجع عن نغمته المألوفة والتي كانت تزعجهم، رغم تندرهم عليها: سورية ولبنان بلد واحد، وشعب واحد، وجغرافية واحدة، لبنان بلد عربي، يجمعنا معاً تاريخ مشترك ومصير واحد. وأمر بشن حرب إعلامية ضد الجواسيس والعملاء والانعزاليين... وتحداهم بقوة: اتفاق الإذعان ولد ميتاً.

اشتد إعجاب المهندس بالرئيس، شدهه هدوءه، أعصابه الحديدية تقود عناده، بينما البراكين تضطرم وراء مظهره الذي يبدو بارداً. ولن يغيب عنه أن استعداد الرئيس للقتال بشراسة كان لإدراكه، إذا لم تسقط المعاهدة، فلن يفقد لبنان فقط، بل سورية أيضاً، كان هو نفسه مهدداً بالسقوط، ومعه أجهزة النظام بقضها وقضيضها، هناك الكثيرون ممن يجدون في أنفسهم الكفاءة لتشغيل جهاز الدولة؛ اللاجئون والمنفيون في الخارج، والمسجونون في الداخل.

انقلب القصر الجمهوري رأساً على عقب، أصبح مثل خلية نحل، لا يفرغ لحظة من توافد المسؤولين والسياسيين القادمين من لبنان من رؤساء الأحزاب التقدمية، وعلى الأبواب تجمهر صحافيون من الأقطار العربية يتوسطون لمقابلة الرئيس، ووسائل الإعلام تنتظر تصريحاً، ولا يحظون إلا بتصريحات رئيس الوزراء، أو وزير الخارجية، كانت على وتيرة واحدة، لا تشف عن شيء. التعبير عن الموقف السياسي، غير مخول لأحد التعبير عنه، سوى السيد الرئيس.

داخل هذا الصخب، كانت بقعة السكون محكمة التغليف، محكمة الانسداد، ترتع في صمت مطبق، الرئيس محاط بعدة أطواق عازلة من الحرس، ممنوع اختراقها أو الدخول إليها إلا بإذن منه فقط. أقام الرئيس في داخلها غرفة عمليات، جهزت بشبكة من الخطوط تجعله على اتصال مستمر بقواته الرابضة في لبنان، وشبكة من القنوات تصله بحلفائه السياسيين اللبنانيين وأحزابهم المقاتلة، كانوا قد شكلوا جبهة إنقاذ وطني، سيناضلون بالسلاح ضد الاتفاقية.

في بقعة السكون هذه، وكانت الأكثر ضجيجاً، لن يتسرب شيء مما يدور في داخلها إلى خارجها. استطاع الرئيس وبسرعة قياسية لا نظير لها، فرض سيطرته على كل الجبهات: بيروت الشرقية والغربية، ميناء طرابلس في الشمال، وادي البقاع، جبال الشوف، والجنوب.

أقام المهندس من وحي الرئيس، غرفة عملياته هو الآخر، غرفة متنقلة، عقد اجتماعاته أينما حلَّ في قاعات الحزب، نقابة العمال، شبيبة الثورة، واتحاد الطلبة، المسرح العسكري. لم يكن يخطب، كان يحمل إليهم توجيهات الرئيس التي كانت توجيهاته، من البضاعة التي ليس هناك غيرها؛ الوطن بحاجة إليكم، قوة الدولة من قوة الشعب، فلتستعد الجماهير لتلبية النداء إلى حمل السلاح، والنزول إلى الشوارع، الساحات ترتج من وقع أقدامكم، فلنشارك الرئيس الحرب على عملاء الإسرائيليين وأعوانهم، الجيش والشعب يد واحدة، البندقية بيد والمنجل أو المعول أو الكتاب أو ... باليد الأخرى.

كان يعرف وهم يعرفون، أن كل ما يقال، وما يتبادل من شعارات، ليس إلا نوعاً من الرياء والنفاق والكذب المفضوح، تلك هي اللغة السائرة، الدارجة بين مسؤولي الدولة والحزبيين، ودائماً تؤخذ بجدية، ولا تجرّؤ على التشكيك فيها، حتى أصبحت جدية فعلاً. كان واثقاً وهو يستخدمها أنها تؤتي مفعولها، ويعرف أن التنافس سيحتدم بينهم في من سيكون الأول في التعبير عن إخلاصه للرئيس.

كان الهدف من توجيهاته، حثهم على ألا تغيب صور الرئيس عن المظاهرات، بتخصيص شبان يحملونها ويرفعونها عالياً إلى جانب حملة الأعلام واللافتات، لكن بتنظيم واع، وأشد ما يكون التنظيم وعياً، عندما تكون الصور أكبر وأعلى وأكثر من الأعلام واللافتات والشعارات كلها. صورة الرئيس تعبر عنها مجتمعة، ويصح أن تكون البديل عنها، من ناحية أنها تعبر عن تماسك الجماهير حول شخصه، بحيث يبدو منظر المظاهرة من بعيد، أشبه بغابة مزدهرة بصور الرئيس.

تبارت الجهات المعنية إلى طبع الصورة المعتمدة للرئيس، ملونة وبالورق المصقول، بقياسات متنوعة، كبيرة ووسط وصغيرة، سطرت تحتها عبارات المحبة والولاء، تهافتت عليها جماهير الحزب والمنظمات الشعبية، فتزينت الشوارع بها، علقت على الأشجار والأعمدة، وألصقت

على الجدران، تقدمت المظاهرات مرفوعة بالأيدي، خفاقة نهاراً تحت الشمس، وليلاً تشق العتمة، وإذ عمت الساحات، لاح من بينها بصعوبة العلم السوري.

بلغ من فرط انتشار الصور أنها لم تعد حبيسة المناسبات القومية والوطنية والمسيرات ومؤسسات الدولة، قام المخلصون بتوزيعها على الأسواق التجارية، والمحلات الراقية والشعبية، والكراجات، والمطاعم، وبائعي الحلويات والبوظة، ودور السينما والمسارح والمخافر والسجون والمدارس والمستشفيات، وألصقت على السيارات والباصات...

الرئيس في كل مكان... مثل الله.

بلغ من نجاح الحملة، أن طباعة الصور دخلت في برامج الاحتفالات والمناسبات جميعها دون استثناء، وأصبحت بنداً رئيساً في الميزانيات السنوية، لا يناقش، إلا لرفع المبالغ المرصودة لها، في وزارة الدفاع والإدارات والنقابات والمؤسسات الاستهلاكية وكل ما يمت للدولة بصلة، لاسيما وزارة التربية والتعليم التي لم تكتف بإدراج مآثر الرئيس في صلب المناهج التدريسية، ألحقت بها صوره، وصدّر بها الجلاء المدرسي، ما أصاب أصحاب المطابع الخاصة بالعدوى والخوف، فسارعوا وطبعوها على أغلفة الدفاتر.

الأمر الذي لم يحسب له المهندس حساباً، لم يكن الإقبال على اقتناء الصورة، الذي تكفل به أعضاء الحزب وأساتذة المدارس وشجعوا عليه، بل في أنها تمكنت من التسلل إلى بيوت الدمشقيين، أشبه بتعويذة منجية ترد عنهم عيون الرقباء والمخابرات أولاد الحرام، فعلقت على جدران غرف الاستقبال في بيوتهم، إلى جانب الآيات القرآنية «الفاتحة» و «آية الكرسي»، والأغنياء منهم بجوار لوحة «عين الحاسد تبلى بالعمى»، وتوسطت في بيوت المسيحيين تمثالي المسيح على الصليب وأمه العذراء، وفي بيوت القوميين تقاسمت الجدار مع صورة الزعيم جمال عبد الناصر، بينما تخاطفتها أيدي القادمين من الساحل والجبل، المقيمين في دمشق، من الموظفين والعسكر والمخبرين، وتصدرت جدران بيوتهم بلا منازع، مع سيف علي ذو الفقار.

في غمرة حملته، عاودت المهندس الوساوس، لم تزد الموافقة على مشروعه عن إشارة عابرة من

الرئيس، فهو لم يدعه يكمل شرحه، فلم يستوعب الهدف منه، بل وغيّر اتجاه الحديث. وكلما استرجع في ذهنه مقابلته معه، تأكد أنه تعمد فعلاً، ألا يسأله عنه، هل الإشارة تكفي؟ على كل حال بات على علم به، لابد وصلته عشرات التقارير، أغلبها تنتقده ليس من ناحية مبالغاته في تدفق الصور وأحجامها، بل في تركيز الحملة على المدن، والتقصير في الأرياف، حيث جماهير الحزب المخلصة، ولا بد أيضاً طالته اتهامات بالمتاجرة بها والانتفاع المادي منها. لو أن الرئيس أخذ بها، لأوقفه عن العمل فوراً، الواضح أنها راقت له. وإذا كان في حينها عندما عرض مشروعه عليه، لم يستفسر عنه، فلأنه لا يهتم بالتفاصيل، يتركها للآخرين. غير أن وساوس المهندس لن تنطوي، ستذهب في الاتجاه المعاكس تماماً؛ الرئيس يهتم بالتفاصيل، وإن كان لا يسأل عنها، بوسعه معرفتها. الرئيس يريد تحميله مخاطر العمل كله، في حال أخفق، سيدفع الثمن، العقاب نصيبه، الحجة هي عدم معرفة الرئيس، وأن البطانة تستغله وتسيء إليه. ومن الأجدر منه بالاتهام في أنه صاحب هذا المشروع المهول، الذي يقصد منه في النهاية تنصيب الرئيس إلهاً؟ إذا لم ينجح، فالرئيس نفسه سيتنصل منه. المستحسن، الاستراحة قليلاً، انتظاراً، لردة فعل الرئيس.

الذي لم يعمل حساباً له، أن الحملة التي انطلقت، باتت تعرف طريقها، أصبح لكل كلمة يقولها الرئيس، ولو كانت عابرة، معناها المحكم والعميق. كان العمل على تسريبها عملاً وطنياً، مادام هناك من يتقبلها ويرسخها في الأذهان، ولقد أخذ المهندس مخاطرها على عاتقه.

إذا كانت حملة الصور حققت الجزء الأول من النجاح، فحملة الرئيس السياسية والعسكرية كانت توالي نجاحاتها. غرفة العمليات في القصر الجمهوري لم تفتر نهاراً ولا ليلاً عن العمل؛ المقاومة الوطنية اللبنانية أحرزت تقدماً على الأرض، مدعومة من الجيش السوري، ودحرت ميليشيات «القوات اللبنانية»، وتمكنت من نسف قيادة المخابرات الاسرائيلية في صور، بينما احتدم القصف بين شطري بيروت رافقته عمليات مناوشة وخطف بين الدروز والموارنة. العمليات الاستشهادية لم توفر الأمريكان، فتعرض مقر البحرية الأميركية لهجوم بسيارة مشحونة بالمتفجرات أدت إلى مصرع ٢٤١ من رجالها، وفي صباح اليوم نفسه هوجمت الوحدة الفرنسية في القوات المتعددة الجنسيات، انتقاماً من غارة جوية فرنسية،

بسيارة مفخخة أدت إلى مصرع ٥٦ رجلاً، بينما أصبح قصر بعبدا الرئاسي بمرمى مدفعية المقاومة الوطنية.

ارتفعت وتيرة المعارك، شنت الطائرات الاسرائيلية غارات انتقامية على منطقة البقاع، وحلّق الطيران الأميركي فوق نقاط تمركز الجيش السوري، وقصفت حاملة الطائرات نيوجرسي من البحر مواقع المقاومة اللبنانية، الرئيس الفرنسي ميتران هدد بالانتقام. غير أنه لا القصف ولا التهديدات ادى إلى تحسين مواقف الأميركان والفرنسيين، كان انقلاب الموازين يميل إلى صالح الرئيس، حتى أن مقدمات انتصاره بدأت تلوح؛ تناهى إليهم في القصر أن الرئيس اللبناني حفاظاً منه على منصبه، مضطر إلى الذهاب إلى دمشق، ومقابلة الأسد ليعلن استعداده لإلغاء اتفاق ١٧ أيار.

كان هناك منتصر آخر؛ المهندس، الأقدار وقفت إلى جانبه، وعلى وشك أن تهبه أروع نجاح لخطته، كان يستعد لمواكبة انتصار الرئيس في لبنان، بما أعده للاحتفال بذكرى الحركة التصحيحية، سيتوّجها بدعوة الشعب إلى تجديد البيعة للرئيس، هذه المرة ممهورة بالدم. كان الشعب معيار النجاح الكامل لأكثر الأفكار شذوذاً، ولن يكون كافياً، إلا في حدوده التي ما بعدها حدود، الرئيس في يوم مقبل سيمثل الله. والتعبير عن الولاء، لن يكون أقل من العبودية له.

وإذ قارب الرئيس أن يحصد نتائج معركته المظفرة، سقط مريضاً، ونقل الى مستشفى الشامي في حالة خطيرة، أودعته غرفة العناية المشددة.

٣

مع مجيء الصيف، شهد المهجع تغييراً طفيفاً في برنامج السجناء اليومي. كان ذلك في يوم الاثنين مع شروق الشمس، بعد استيقاظهم فجراً، سمعوا وقع أقدام وخشخشة مفاتيح، أطل الرقيب من كوة الباب، قرأ في لائحة يحملها أسماء لمعتقلين، أمرهم بلملمة أغراضهم، المحكمة ستصل اليوم من دمشق، ستنظر بأمرهم، ثم حسب الحكم الصادر؛ إما أن يطلق سراحهم،

أو ينقلوا إلى سجن صيدنايا، وقد يعودون إلى المهجع لإكمال عقوبتهم. تكرر هذا صباح يوم الاثنين الذي تلاه. أصبح ضمن برنامجهم انتظار قدوم يوم الاثنين، أضيف إليه يوم الخميس في الأسبوع الثالث، رافقه خبر أن الرئيس أمر بإعادة محاكمة المحكومين سابقاً بالإعدام، ومعهم الذين لم يبت القضاء بأمرهم، والذين ما زالوا قيد التحقيق.

كان أغلب المساجين من الذين صدرت ضدهم سابقاً أحكام مختلفة، لم يتأكدوا ما إذا كان القاضي صادقاً، أم مهوّلاً في حكمه عليهم بالإعدام أو المؤبد، كان القضاة يبثون الرعب في قلوب الموقوفين، بالتسلي بإطلاق الاحكام كيفما اتفق، حتى أن هناك من كانوا موعودين بالمشنقة، أطلق سراحهم، وآخرون هيأوا أنفسهم للخروج من السجن، فذهبوا إلى المشنقة. ومنهم من كان يجهل محكوميته، فلم يعرف الاتجاه المتوقع إرساله إليه.

في الأسبوع الأول، لم يرجع أحد إلى المهجع، ما يعني أنه أفرج عن بعضهم، ونقل الآخرون إلى سجن صيدنايا، كان الانتقال من سجن تدمر إلى أي سجن، يعادل الانتقال من الجحيم إلى النعيم. راودتهم الآمال، وإن لم يظهروها، أن تحالفهم حظوظ من سبقهم، عندما يأتي دورهم. انطوى كل منهم إلى جانب، يحلمون بيوم مشابه، يتخيلون أن الذين أفرج عنهم، وصلوا إلى بيوتهم، واستقبلوا بالقبلات والدموع، وهم الآن بين عائلاتهم يحتضنون أولادهم.

عدنان لم يقتنع بما راودهم، ما شهدوه وعانوا منه لا يبشر بالأحلام الوردية، الواقع الأقرب منالاً هو الكوابيس الجهنمية. لا يعقل أن يكون الحظ قد حالف الجميع، تجاربهم السابقة في المعتقلات والسجون لا تسمح ببارقة خلاص من دون سبب معقول؛ التعقل والحكمة تمليان توقع الأسوأ لا سيما في تدمر. ولقد حاول تعليل ما يجري، ربما حصل شيء أملى على الرئاسة إصدار أوامر حازمة تقضي بمراعاة القضاة الرأفة في أحكامهم، أوامر لم تكن مزاجية ولا اعتباطية، بل جراء ضغوطات دولية، ومطالبات من منظمات حقوق الانسان، أو نتيجة مصالحات داخلية جرى الاتفاق فيها على أن يلقي المقاتلون الاسلاميون السلاح، بالمقابل تبدي الدولة حسن نواياها بالعفو عن المعتقلين بعد محاكمات شكلية... تلك كانت أفضل الاحتمالات، تقود غالباً إلى سجن آخر، أو إعادة التحقيق في عدة فروع، أما الإفراج عن

السجناء، فالمتوقع ضئيل.

غير أن التفاسير التي تداولها رفاق السجن كانت أكثر دقة وتفاؤلاً، شملت تعديل الإجراءات القضائية، والتسامح في العقوبات؛ الدولة اضطرت إلى إلغاء الأحكام الجائرة كلها، فشملت المحكومين بالإعدام وأصحاب المدد الطويلة، حتى أن من ثبتت عليه التهمة مهما كانت، سوف يصدر عفو رئاسي عنه. اللغط المثار احتمل الكثير من التمنيات، وأكمل دورته في المهجع عدة مرات، وأخذوا يتعاملون معه على أنه خبر موثوق تسرب من الخارج، ورغم حصول شبه إجماع على تصديقه، لم يوحدهم على رأي، واختلفوا في التفاصيل. غير أن النفوس أمّارة بالشك، وصلت إلى مسامعهم أصوات غير عادية، وعلى وجه التحديد من الساحة السادسة.

انقسم المهجع إلى متفائلين، لم يلقوا بالاً إلى الأصوات، ومتشائمين داخلتهم بعض الشكوك، سرعان ما تضخمت، وبالغوا فيها، حتى آلت إلى ظنون قوية، أفرزت توقعات مغرقة في اليأس. لم يجرؤوا على إعلانها، لكنهم لّمحوا بخوف إلى إعدامات تجري خفية داخل السجن، إذا كانت الإدارة لا تعلن عنها، فهذا لا يعني أنها لا تحدث، بل استؤنفت من جديد، بعد أن توقفت لفترة طويلة. كما أن الأصوات التي تتردد في أيام المحاكمات لا توحي بانعقاد محكمة؛ تشغيل سيارات، ولغط وتحركات غير مألوفة، وأشياء ترمى، أو تسقط على الأرض... خصوصاً أن أحداً لم يعد!! هل يعقل أن الذين لم يفرج عنهم قد نقلوا جميعهم الى سجون أخرى؟ غير أن المتفائلين، لم يعدموا الأسباب. الاتجاه في الدولة إلى اغلاق سجن تدمر بسبب سمعته السيئة، الانتقادات حول سوء المعاملة فيه تناولته الصحافة الاجنبية مراراً.

كان التشديد على الممنوعات قد خفّت حدته بعدما حلت سرية حراسة جديدة بدل القديمة، فزادت كمية الطعام، وقلت الرقابة عليهم. انعكس هذا عليهم، بقدر محدود من الحرية والكلام، فالحلقات التي تعقد، كانت مبعثرة، كل منهم يجلس أو يتمدد في مكانه، عيناه تتنقلان بين السقف والباب، أغلب المتفائلين يهجسون بيوم المحاكمة، أما المتشائمون فيتكلمون همساً، يتبادلون اليأس في ما بينهم. وأكثر من كان ينزعج منهم الشيخ كريم، لمَ يستغربون؟! الله على كل شيء قدير، يمر أمام حلقاتهم، يهيب بهم؛ تفاءلوا بالخير تجدوه، ما

دام الخير رافق الدفعات كلها.

مع وصول معتقلين جدد، توقف التفاؤل، حتى الشيخ كريم تناهبته الظنون. دخلوا كالمعتاد، شحطاً إلى داخل المهجع، مهشمين ينزفون دماً. تلقفوا ما حملوه معهم من أخبار مضى عليها شهران، أي منذ بدء المحاكمات، ولم تكن على مستوى توقعاتهم؛ الناس يعتقلون على أقل شبهة، لا مراسيم عفو، ولا أوامر بالرأفة، السلطة لم تتراجع عن مواقفها المتشددة. أما المصالحة الداخلية مع المقاتلين الاسلاميين فلا أساس لها من الصحة، لا يوجد مقاتل واحد في سورية كلها، والفارون منها لا حول لهم ولا قوة. نعم يشاع عن مفاوضات دائرة بين النظام والاخوان المسلمين خارج سورية، وأنهم على وشك التوصل إلى اتفاق، لكنها لم تحقق أي تقدم... عموماً كلها أقاويل.

انقسم المهجع ثانية إلى فريقين، فريق مؤيد لقيادة الاخوان المسلمين، والآخر للطليعة المقاتلة. جدد الأول انتقاداته لقادة الطليعة واتهمهم بتوريط التنظيم بحرب طائفية من جراء عملية مدرسة المدفعية، وما مارسوه من اغتيالات، أدت إلى فقدان التنظيم لمعظم كوادره، واعتقال الآلاف من المدنيين الأبرياء، كانت إرضاء لطموحات شخصية، لم يجنِ منها البلد إلا القضاء عليهما معاً، وتشريد أعضائهما بين السجون والمنافي. الفريق الثاني الموالي للطليعة المقاتلة جدد أيضاً انتقاداته لقادة الاخوان المسلمين وحمّلهم مسؤولية انتكاسة العمل العسكري في الداخل، واتهمهم بأنهم كانوا يجمعون الأموال في الخارج بالمتاجرة بدماء شهدائهم، وإذا حصلت مصالحة مع السلطة، فلا يعني أنهم طرف فيها، لن ينصاعوا لها، ولا شيء يلزمهم بها، إنهم على موقفهم، وغالباً ما ينهي النقاش بينهم واحد من شباب الطليعة بالآية الكريمة «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» صدق الله العظيم.

ومع أن الفارق تلاشى بين المتفائلين والمتشائمين، ما زال الأمل يداعب بعضهم، ولا يتجرأون على الإفصاح عنه، مع أنهم جميعهم، لم يكن لديهم أدنى شك، في أن تفاؤلهم مصدره شائعة، لم تسرب من إدارة السجن، إنما التمنيات اختلقتها.

عبد الرحمن سليمه الوحيد الذي لم ينضم إلى المتشائمين أو المتفائلين، ولم يشارك في الحوارات

بين الطليعة والتنظيم، أو ينضم إلى اصحاب الأمنيات والآمال. تمحور اهتمامه حول يومي الاثنين والخميس، كان واثقاً أنه لا محكمة، بل مشنقة. عندما ودع الدفعة الأخيرة، كان من بينهم رفيقه طالب الكباش، قضيّتهما متشابهتان، الكباش أيضاً آوى مطلوباً في بيته، وحكم عليهما معاً بالإعدام. لو كان الأمر إعادة محاكمة، فالمفترض استدعاؤهما معاً. لقد بُدئ بتنفيذ الأحكام، وما تأخره عنه، إلا بضعة أيام، توقع أنه سيكون في عداد الدفعة القادمة، واستعد لها، فأعلن الصيام وعكف على قراءة القرآن. وعندما طلبوه للمحاكمة صباحاً، غادر صائماً طاهراً. ووعد المساجين جميعاً أن يرسل لهم إشارة، في حال صدق يقينه، قبل منتصف النهار.

بعد نحو ساعتين، السكون مهيمن على المهجع، الجميع صامتون مطرقون برؤوسهم، ينتظرون الإشارة تدخل من الباب، أو لا تأتي أبداً. الإشارة لم تتخلف، سمعوها بآذانهم تخرق الجدران، صدح الصوت بقوة: أنا عبد الرحمن سليمه، ابن زكريا سليمه، أموت مظلوماً في سبيل الله. الله أكبر. وانقطع الصوت بغتة. في السكون حشرج الصوت، كانت غرغرة الموت، أو أنهم تخيلوها، لكنها صكت آذانهم.

في الصمت، اغرورقت العيون بالدمع، انتفى الخلاف وسحقت الآمال، واتحد المساجين في فريق واحد، وعلى خيار واحد؛ اليأس. الموت على مقربة منهم، وسوف ينتزعهم الواحد بعد الآخر. ليتهم لم يعرفوا. هزّ صوت الشيخ كريم الجدران:

«ربي إنهم يقتلوننا ظلماً وبهتاناً».

لم يعد وقع الأقدام وخشخشة المفاتيح عند الفجر إلا الخطوة الأولى نحو رحيل بلا عودة.

انفضح السر، كانت الإعدامات تجري شنقاً في الساحة رقم ٦ القريبة من المهجع، ما سمعوه من لغط وما يسقط على الأرض، كان تركيب أخشاب المشانق، ثم فكفكتها، جمعها وإعادتها إلى المستودع. أما هدير السيارات، فصوت الشاحنات تنقل جثث المعدومين إلى حيث مثواهم الأخير، تلك الحفرة المجهولة في مكان ما من الصحراء.

بعدها أصبح التكبير: «الله أكبر» تقليداً على منصة الشنق.

انتقل الشيخ كريم إلى جوار عدنان، احتل المكان الذي تركه عبد الرحمن سليمه شاغراً. أصبح على مقربة من حسان أيضاً. كانت محنة الكوليرا قد أصلحت بينهما. ارتاح حسان إلى وجوده بين الطبيب والشيخ، كان مضطرباً وبحاجة إلى كليهما، هناك ما تصدّع في داخله، ولم يصرح به، فحققا له التوازن. صار يُسِرُّ لكل منهما بما يخالجه على حدة، ما يصرح به للشيخ كريم يخفيه عن عدنان، وما يبوح به لعدنان، لا يتجرأ على التلفظ به أمام الشيخ كريم.

شكا لعدنان، هل تخلى الله عنا؟ نحن لم نقصر في إعلاء كلمته، لم يُعِنّا في ثورتنا ولا على محنتنا. وسوف يكون أكثر صراحة معه، ويعترف بأن خوفه على أسامة أكثر من خوفه على نفسه. أسامة محكوم بالإعدام. هذا ما حرك في داخله شكوكاً حول الله كان بغنى عنها.

عدنان لم يعزز أي أمل لديه، قريباً سيغيب صديقه أسامة عن عينيه، ويجب أن يعد نفسه للفراق، وإن كانا قد مهّدا له قبل أشهر، بيد أنها لم تكن كافية. لاحظ ذلك، عندما أصبحا يلتقيان مؤخراً، ولو لدقائق، ينخرطان فوراً في مناقشة حادة، كأنهما لم يتعديا مرحلة المراهقة، يتشاجران حول أمور تافهة، لم يحاول معرفة فحواها، لم تكن في السجن سوى أمور تافهة.

غير أن ما التقطه بشكل عابر، لم يكن تافهاً، كان مستحيلاً؛ جعله يحس بالأسى تجاهه، كان يريد منع أسامة من الموت!! هل كان صديقه ينوي الانتحار، وحسان يسعى جاهداً لثنيه عن عزمه؟ إذا كان حزره صحيحاً، فأسامة يستبق موته، ويريد من حسان مساعدته على هذا الأمر، وكما سمع خلسة، يحاول منعه من الاستجابة لنداء الرقيب يوم الإعدام!! وأسامة لا يأبه لما يطلبه منه... كأن الأمر بيديهما، أو يجدي!!

تظاهر عدنان بأنه لا يعرف ما يدور بينهما، خلافهما لا يخضع لأي منطق. حسان أخفى عنه ما يدور بينه وبين أسامة، كان يائساً، لكن ليس لهذا السبب، تساؤله سرعان ما تجدد، هل كنا على خطأ؟ نفسه تحدثه بالنكول عن الايمان بما قاتل من أجله، لكن فات الأوان، لن تورثه هذه الصحوة سوى الشعور بالذنب. عدنان لم يؤازره في هذا المنحى، وإن قال له، لست وحدك، كلنا على خطأ، حتى أنا الذي لم أشارك بشيء، لقد تركنا العسكر يستولون على السلطة، ولم نتصدّ لهم منذ البداية، تركناهم يحكموننا بالأكاذيب، وكنا نعرف ذلك، واليوم يسومونا العذاب والموت.

استمرأ حسان حريته في التساؤل، وكان في ما توصل إليه خطر على ما جاهد من أجله، وكانت حياته فداء له، النكران يتهدد روحه، في خسارتها، عذاب لا يحتمله، كان إيمانه الحق الذي لا يأتيه الباطل، ماذا لو أنه كان الباطل؟ فاجأه هذا السؤال، وما تداعى عنه، لا سيما عندما قال حسان: ربما كان الله خصمنا ونحن لا ندري.

لم يسايره وإن ودّ ذلك، لعبة لا يدري مدى ما تخلفه في داخله من تخبط، كانت تعبث بطمأنينة روحه، حسان لا يحتمل عداوة الله، ولا فقدانه. عزا عدنان التياثه إلى غياب أسامة القريب، كان يحز في نفسه، الإعدامات تتلاحق دفعة وراء دفعة، رحيل أسامة يقترب، ولو كان غير معروف موعده، ما أخرجه من دائرة الصواب، وأخذ يهرف بما يقال ولا يقال.

بالرغم من الشكوك، وكانت تتفاقم، أخذت حسان حمى الصلاة في النهار والليل، أراد طرد شيطان الاحتجاج من رأسه، وإصلاح ما أصاب روحه من ضياع، لم يعد يتحكم بلسانه، يلوم الله ثم يتوسل إليه، يتهمه ثم يستغفره. في الصباح بعد قيام الليل، يهبّ إلى صلاة الفجر، يركع ويسجد والأماني تداعبه، الله سيستجيب له، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تنهار رجاءاته، صلاة ولا مجيب، تساؤلاته تحفر فيه حتى المساء.

خشي عليه، لو أن الله خذله فقد يصاب بمس في عقله.

الحقيقة هي أن الله ماض في خذلان الجميع، لم يستثن محكوماً بالإعدام، هل هناك برهان أقوى من وجود أكثرهم هنا، ليسوا بانتظار الموت، بل مستسلمون له، وكأنهم ماتوا قبل الموت؟ بينما حسان يأمل وييأس، يسارع إلى هوة لا يتحرز من السقوط فيها، كان لابد من ضربه على رأسه ليصحو، ولقد قسا عليه، حسب منطق الإيمان والكفر معاً؛ الله لا ترجى منه رحمة ولا شفقة، وحذّره:

«اقطع أي أمل منه، لكن لا تنكره».

هل كان يسمعه؟ يسمع ولا يستوعب، وعلى وشك ارتكاب حماقة، لا يمكن توقع ماذا تكون؟ حسان جاهز لما لا يخطر على بال، أية حماقة في السجن تودي به إلى عقوبة مميتة.

كان حازماً وحانقاً عندما قال له: لو كان الله موجوداً، فلن يغير المكتوب في سجلاته المحفوظة من أجلك. حسان رد عليه، هذا السجن ليس خارج ملكوته، ولا خارج قدرته، لكنه لا يفعل شيئاً. انظر حولك، قل لي، ألسنا بشراً، لماذا لا يرأف بنا؟ ألم نتحمل أكثر من طاقتنا؟ لماذا لا يخفف عنا هذا العذاب؟ ما باله لا يغضب؟ في هذا المكان يُهان ويشتم كل يوم عشرات ومئات المرات!!

«لا تحاول أن تفهم، لله حكمته».

«ماذا تكون؟ إذا كانت بهذا الغموض، فلن ندركها نحن البشر».

حتى هو لم يعد يدري بما يتفوه به، زلّت به الكلمات، وتغلب عليه يأسه من الله، ولم يكن من الصعب عليه أن يجد تفسيراً، فتكلم ربما بلسانه أو بلسان آخر:

«نحن تحت سيطرة الشيطان، تغلّب عليه، إنه في داخلك».

نمّت ملامح حسان عن الأسى.

«هل تصدق ما تقوله؟».

«أنا لا أصدق شيئاً» أجابه ناقماً على نفسه..

غير أن ما استغربه، هو كثرة لقاءات حسان مع الشيخ كريم، ويبدو أن حسان قال له عما دار بينهما، فهاجمه الشيخ مواربة منتقداً آراءه المشوشة، لكنه لم يكفّره أو يصطدم معه. كان لدى الشيخ أيضاً عتب على الله. لكنه سيحث حسان:

«لا تستسلم للضلال. إياك والانقياد للوسواس الخناس».

ونصحه بالمواظبة على الصلاة، وقراءة القرآن، والإكثار من الذكر والتسبيح والدعاء.

ومع هذا كانت قناعة عدنان، أن ما بلغه حسان من ضياع لن يطول، لا خيار لديه إلا أن

يكون مؤمناً تقياً. كان صالحاً وورعاً، لا يفتر عن ذكر الله، قطع شوطاً في حفظ القرآن، وصام قبل مجيء رمضان شهري رجب وشعبان استجابة لنصائح الشيخ كريم، كان في أعماقه متديناً بلا احتجاجات، لكنه عجز عن مواجهة ما حاك في صدره، الأسئلة أمعنت في تمزيقه، ولم يجد لها جواباً، فانهار بلا مقاومة، كانت قد فاجأته في ظرف عسير، فأفرط في شكوكه، وفرط بها لقاء لا شيء. لخبطته وشوشته، وزعزعته إحباطاته، كانت قوية، ولم تكن قاضية، إيمانه أقوى، ما منحه القدرة على اتخاذ قرار مستحيل، هذا ما سيعلم به بعد أيام قليلة.

ما أثار استغرابه أن صلة حسان مع أسامة التي تجددت، لم تكن عامل تهدئة، بل ازدادت تشنجاً، بدا وكأن كلّا منهما لا يريد التراجع عن رأيه. وكما لاحظ، لم يحاول الشيخ كريم التدخل بينهما، ولا اعترض على أسرارهما، مع أنه حذرهما منها سابقاً، وافتعل قصة كبيرة منها.

خلال تلك الأيام المتوترة، أدهشته تحولات الشيخ كريم نحوهما، لم يسع إلى معرفة ما يدور بينهم. تصور أن ما احتدم بينهما خلاف حول شيء ما طرأ مؤخراً، الشيخ كريم مطّلع عليه. لكن كتمان حسان أقلقه، وأزعجه بعدما كان لا يخفي عليه شيئاً، بات يتجنبه، مع أنه لا يفصله عنه إلا مسافة من بضع خطوات، بات أسهل عليه لو أراد معرفته، أن يسأل أسامة، لن يخفيه عنه، أسامة شاب خجول. لكنه لم يشأ إحراجه بسؤال عن أمر خاص، ربما كان شديد الخصوصية.

الفصل الحادي عشر

الملفات الاشكالية

الضيافة المؤقتة في المخابرات لم تدم طويلاً. أمضيت يومين ونصف يوم في غرفة مكيفة، مع وجبات طعام جيدة، والذهاب إلى المرحاض، غير المحدود بوقت، يرافقني عسكري، فلم أشعر بوطأة الاحتجاز، فقط وطأة الوحدة. سمحوا لي باستعمال الهاتف، على أن أقول لزوجتي إنني في مهمة عمل خارج دمشق لبضعة أيام.

خرجت من الفرع مغمض العينين، وأوصلوني إلى بيتي مفتوح العينين، تلقيت إثر دخولي اتصالاً من المهندس، بالعودة إلى الهيئة، ومتابعة عملي كالمعتاد، غيابي بُرر على أنه إجازة، المدة المسموح بها لبقائي هناك خمسة أيام فقط، خلالها علي إنجاز جميع أعمالي، يعرف أن المدة غير كافية، لكن تعليمات القصر لا تسمح بتجاوزها.

تعقيباً على ما حدث، كان رأي الأستاذ رشدي أن الرئيس ضالع في التفتيش، يريد إبقاءه سراً، وتطويقة بحيث يعتقدون أنه مجرد تدريب. في هذه الفترة، لا يريد إحداث شوشرة لا تحتمل خلافاً مع ضباط الجيش والأمن بسبب أحداث لبنان، إبعاد الشبهات عن العملية كان ضرورياً. ومن الغريب، كما لاحظتَ أن هناك ملفات احتجزت لصالح القصر الجمهوري كي ينتفع منها أقرباؤه، وموظفون مقربون إليه. ترى هل الرئيس يعرف أم لا يعرف؟ وإذا كان لا

يعرف، فهل يحميهم؟

عموماً كانت حصيلتي جيدة، فقررت الانتقال إلى قسم الأرشيف، القاعة المجاورة لقسم التوزيع، فاتخذت دربي إلى القبو، وعدت إلى مفترق الطرق في عالم الأدراج والممرات.

فاجأني، حسبما وصلني من المخبر، أن أعصاب المفتشين في الإدارة لم تهدأ بعد ابتعاد الخطر عنهم، شكوكهم لم تفتر. في الحقيقة، كانوا أدرى مني، توقعاتهم السيئة أصابت، اهتمامي بالارشيف الخاص كان للاطلاع على الملفات الاشكالية بكل أنواعها.

لم يستكينوا لما سمعوه، الخضّات المتلاحقة شدت من عزائمهم، وحدّتهم الضراء، بينما السراء كانت تفرقهم. قدّر المفتشون في الأعلى والمستشارون القانونيون في الأسفل عواقب الخطر الناشئ عن دخولي إلى عالم الأرشيف، كانت أسوأ مما سبق. كان تطفلي عليه بمنظورهم العملي، لا يحيي قضايا ميتة فقط، بل ويفتش في أسباب موتها، ما يوقظ الأموات ويقض مضاجع الأحياء.

باشروا مساعيهم المضادة لخطتي، واختلقوا الأسباب لعرقلتها. لم يعدموا وجهات نظر قوية؛ كانت حسب زعمهم أسباباً إنسانية، هذا الجانب كان صحيحاً: لماذا تثار حساسيات مضى وقتها؟ القوانين الاقتصادية تغيرت، ما كان يُعاقب عليه من قبل، أصبح يشجع عليه فيما بعد، الممنوع قبل سنوات، مسموحٌ به اليوم! ألا يحرض النبش في الأرشيف، العودة بالذاكرة إلى الظلم الذي أصاب أناساً حوكموا على أعمال عُدّت تجاوزات تخرق القانون وفي حكم الجرائم، ثم باتت أعمالاً قانونية؟ الكثيرون تأذوا منها، بعضهم مازالوا يعانون من أمراض نفسية جراء ما تعرضوا إليه من أوضاع مهينة أضرّت بمكانتهم الاجتماعية. هذا عدا الذين ذاقوا مرارات السجن، وأصبحوا سجناء سابقين، يشار إليهم على أنهم من أصحاب السوابق، يرزحون تحت وطأة آلام مزمنة، أو هاجروا، إن لم يموتوا كمداً. ماذا عن الورثة؟ هؤلاء الذين فقدوا آباءهم، وأقرباء أعزاء عليهم، وورثوا ديونهم مع الغرامات المستحقة عليها!!

لم تكن دفوعهم الإنسانية مقنعة، كانت تلطياً وراء آلام المنكوبين. الأكثر إقناعاً، أن هذه القضايا التي حولت إلى القضاء وصدرت أحكام فيها، أو لفلفت سواء عن حق أو عن باطل،

أنهكت أصحابها من فرط ما دفعوا من أموال؛ عمولات، رشاوى، أعطيات، هدايا، وتنازل عن ملكيات، بعضهم اليوم في أشد حالات العوز، ومن استنزفهم ليس المفتشون وحدهم، الذين لم ينالوا سوى الفتات. هل سيحاسبون على الفتات؟ ماذا عن الآخرين؟ الدولة لن تطالهم، وأجهزة الأمن شركاء لهم. الخلاصة، لا أحد يتجرأ عليهم..

ما دعا المفتشين إلى المزيد من التكاتف، لكي يكون الإنقاذ جماعياً.

المفاجأة، أن الأستاذ نظمي كان مدير قسم الأرشيف الخاص أيضاً. قطع هذا الجدل، وأعلن بصرامة، تعذّر الاطلاع على الملفات جميعها، سيخصص لي جزءاً منها، يكفي لأتدرب عليه. وكان الواضح أنه سيستثني الملفات الإشكالية، فتنفس المفتشون المتحدون الصعداء، بينما خرجت عن طوري، وسارعت إلى القبو، وأمرت بفتح أبواب الأرشيف على مصاريعها، وإلا...

حاول مدير الهيئة عقد مصالحة بيني وبين الأستاذ نظمي، كان كلانا غير مستعدٍ لها. اشتكى الأستاذ نظمي لمدير الهيئة عن تعرضه لتهديد مني بإحالته إلى التحقيق، كنت قد استعملت تعبيراً لا تخفى مدلولاته السيئة في الهيئة:

«سأجعل منك ملفاً».

ولئلا نعيد الكرّة، وألجأ أنا إلى المهندس، ويلجأ هو إلى الجهات إياها، تدخّل مدير الهيئة ليسترد بعض الاعتبار للهيئة التي يرأسها، واتصل بمسؤول كبير في الأمن، يبدو أن عدة جهات أوكلت إليه مسألة الملفات الإشكالية، يتميز حسب مدير الهيئة بأنه متفهم وطويل البال. شرح له الخلاف بيننا، وكان السؤال هل يُسمح لي بالاطلاع على الملفات كلها أو بعضها؟

لم يكمل سؤاله. قاطعه المسؤول ... المنع يشمل ملفات الأرشيف كلها. لا تسألني، من يتذكر الآن ما كان يهمنا أو لا يهمنا أمره في الشهر الماضي، فما بالك قبل سنوات؟ اسألني عن البارحة، قد أتذكر الملفات التي أشكلت من التي لم تشكل، ولا ضمانة، لا يخفاك هناك ملفات عادية، قد تُشكل بين ليلة وضحاها، من يدري؟!. عدا أن هناك قراراً بالمنع صادراً عن جهاز أمن الدولة.

اضطررت إلى الاتصال بالمهندس، أعلمته بأن الكشف على ملفات أرشيف قسم التوزيع ممنوع

استناداً إلى تعليمات صادرة عن جهاز أمن الدولة، فأجرى اتصالاته، واتُفق على السماح لي بالدخول إلى الأرشيف، للمدة المحددة السابقة التي نقصت يوماً وأصبحت أربعة أيام.

ومع أن المدة تضاءلت، لم يعسر علي تبين أن الأرشيف كان بالنسبة لرجال الأمن بؤرة صالحة لاصطياد القضايا الدسمة، دليلهم إليها الأستاذ نظمي، وفّر عليهم البحث عنها، كان لديه الكثير منها، تمكنت من إحصاء أنواع عدة منها، يسهل التمييز بينها، إحياء ملفات حولت إلى الأرشيف عمداً بدلاً من القضاء، لتستثمر من جديد بعدما استنزفت في التفتيش، تولت التحقيق فيها أجهزة الأمن، ثم أحالتها إلى الهيئة ليس للنظر فيها، وإنما للإيداع فقط، لتمنح غطاء قانونياً ومأوى رسمياً. وملفات رُحّلت تعسفياً للتحقيق في المخابرات، رغم براءة صاحبها، يضاف إليها قضايا أسندت إلى المفتشين، وعطلتها جهات أمنية متنفذة، سواء أنجزت، أو لم تنجز، وأصبح إغلاقها حكراً عليهم، بعدما حققت المقصود من أشكلتها، وهو إبقاؤها مفتوحة، مصدر تهديد لأطرافها، ما يوفر ابتزازاً طويل الأمد.

بعد أربعة أيام شاقة كان الأمر يدعو إلى الضحك، ولو كان تدريباً مؤلماً على أهوال الارشيف، القضايا عموماً استُكملت داخل أجهزة الأمن، البت فيها لا يزيد عن جلسات تهديد وتعذيب، لإسباغ الضرورة الأمنية على نهب الدولة والشعب. أرسلت إلى قسم التوزيع لاستيفاء شروطها الإجرائية، بعدما حسمت في أقبية أجهزة الأمن، لكن لابد من الهيئة لإخراجها بشكل قانوني.

كانت الحصيلة ضخمة جداً، طالت القسم الأكبر من مسؤولي الدولة ووزرائها، وضباطاً كباراً وصغاراً، وتجاراً مرموقين ورجال أعمال... خلال ما يزيد عن عقد من الزمن، كان من النادر ألا يحظى أحد بمنصب في الدولة ولا يستثمره بما يدر عليه المنفعة، أغلبهم حتى اليوم يمارسون مسؤولياتهم السياسية والعسكرية، وتجاراتهم المزدهرة، أما من مات منهم، فلا يستبعد أن بعضهم رحل في ظروف مريبة.

١

مرض الرئيس واختفاؤه عن الأنظار في «مستشفى الشامي»، حير موظفي القصر، وكأن

الرئيس لا يمرض، وإذا مرض فبالسر، وفي حال تعافى فلا يحس به أحد. في الأيام الأولى لم يرشح خبر عن وضعه الصحي، أحيط بالكتمان. عناصر الحماية ببدلاتهم السوداء الأنيقة ضربوا حول المستشفى نطاقاً من بنادق الكلاشنكوف والوجوه المحتقنة، والعيون الزائغة. شاركت في الحراسة أجهزة الأمن، فأضافت عدة أطواق من العناصر المسلحة. أنبأ عن وضعه الخطير ما تسرب عن وجوده في غرفة العناية المشددة، يحف به الأطباء. الذهول الذي خيم على الوجوه، ما لبث أن انقلب إلى رعب.

وكما انهار الرئيس، كاد أن ينهار المهندس، بات مشروعه في فراغ، يفتقد حامله.

برر أبو حسين المقرب إلى الرئيس جهله بحالة الرئيس المرضية بأنه سر رئاسي، كما هو شأن عائلي، يخص أسرته، لا يجوز الاطلاع عليه، فمُنع أي مسؤول من الدخول إلى المستشفى. انضم المهندس من فرط التعتيم عليه الى مروجي الشائعات، نفى ما راج حول غيابه المفاجىء، اعتبر مرضه وعكة صحية بسيطة، الرئيس بحاجة الى راحة.

بدا من حالة الصمت المحكمة حول الرئيس، أن احتجابه سيطول إلى أجل غير معلوم، وانتصاره اللبناني سيبتلعه الصمت. الخوف لم يعم القصر فقط، بل وقيادات الحزب والجيش وأجهزة الأمن والشرطة... الدولة ستضيع، ما سوف ينعكس على سياسات سورية الخارجية، وصراعاتها في المنطقة، تأثيراتها السلبية آتية؛ الجيش الإسرائيلي سيعود إلى بيروت، وتأخذ المعاهدة طريقها إلى النفاذ، وترجع الأساطيل الأميركية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، المعارك الدائرة على الجبهات ستدخل في الفوضى والعبث، سيصبح النهب للنهب، والسلب للسلب، والقتل للقتل... بلا هدف آخر. لا أحد سواه يتحكم بالمسألة اللبنانية، أو بمقدوره إدارتها على الوجه الصحيح؛ كان هذا فحوى الهمس الساري في القصر، دوامة لا تفتر عن ترديد اللغو نفسه.

صور الرئيس في الشوارع والساحات، لوّحتها الشمس، ونصل لونها، بات تجديدها معلقاً على قيامه من فراش المرض. زاد في وساوس المهندس تخيلات سوداء تواطأت مع المرض؛ إذا أسلم الرئيس الروح، فروحه ستلحق به... عزرائيل لهما بالمرصاد. تهيأ لإلقاء النظرات الأخيرة على

مشروعه الذي تعطل في بداياته.

بعد حسابات أفرطت في التكهنات، كان من القلة الذين تلقفوا النزر اليسير والمطمئن عن صحة الرئيس، الخطر زال. ومعه خبر لن يعفيه من القلق؛ الرئيس كلف لجنة سداسية بالإشراف على البلد، غيابه سيأخذ بعض الوقت.

التخيلات المتشائمة لم تتلاعب به كثيراً، حتى جاءته الأخبار المتفائلة، اللجنة السداسية كُلفت بالإشراف على الأوضاع الداخلية، أما الخارجية فما زال الرئيس متفرغاً لها، كان في حالة استجمام وراحة قسرية، لا تمنعانه من متابعة الأزمة اللبنانية، لحظة بلحظة، يديرها من منتجع توافر فيه الهدوء والهواء الطلق والنسيم العليل، وطبيعة حافلة بألوان تريح النظر، طبقاً لنصائح الأطباء.

صحته في تحسن، لكن التحسن لم يكن مطرداً، فلم ينجح الادعاء في وسائل الإعلام أنه خضع لعملية الزائدة الدودية، انكشف أنها استؤصلت قبل عشرين عاماً، أو ظهوره في افتتاح جسر جديد، ولا حضوره لاجتماع في قيادة الأركان؛ التسجيلات قديمة.

تلتها أخبار سيئة، لم تأت من المستشفى، ولا من المنتجع المزعوم، جاءت من أوساط مخابراتية: مسؤولو القيادة السداسية لجأوا إلى قائد سرايا الدفاع الذي استثناه الرئيس من اللجنة، مع أنه أخوه. والتمسوا منه تسلم زمام الأمور في الداخل والخارج. ما أكد أن وضع الرئيس حرج، إن لم يكن في خطر، أو على وشك الموت، غير أن الطب سيحاول إطالة عمره، ريثما يُعثر على حل يجنب البلاد خضة عواقبها كارثية.

طلبت اللجنة السداسية من الأخ القائد ترؤس اللجنة. خلافاً لما أوصاهم به الرئيس، لم يتمسكوا بوصيته، لئلا يقوم القائد بانقلاب، يذهبون ضحاياه. الحل الآخر، إن لم يقتلوه، قتلهم جميعاً، صحيح أن عددهم ستة، لكن لا حول لهم ولا قوة. فتوددوا إليه، ليس لأنه الأخ الذي رافق الرئيس في مسيرته الانقلابية والتصحيحية، وقضى على خصوم الثورة، ورسخ حكم أخيه، بل لأنه كان قائد القوة الضاربة الأكبر والأقوى في الجيش؛ سرايا الدفاع، التي يفوق تعدادها وتسليحها ملاك فرقة.

لم يكن المهندس بحاجة لتكهن أسباب أخرى، لمخالفتهم أوامر الرئيس سوى أن حالته ميؤوس منها. وسبب آخر، ترتيب أوضاعهم مع خليفته الأكثر احتمالاً لخلافته، لا ليقود البلاد نحو الأمان، وإنما لأنه لا جدوى من منازعته على منصب أمره محسوم. خطوتهم الاستباقية في وقتها ومحلها.

عانى المهندس فترة من التردد والحيرة، ساورته نفسه بالانضمام إليهم، لم يكن لديه مانع في عصيان الرئيس المشرف على الموت، والانحياز إلى أخيه القائد الحي، مع أنه يعرف بأن الوصية كانت للحالتين، غيابه أو موته. لكن لا وسيلة تصله بالقائد، وحتى إذا توفرت، فلن يهتم بضابط كان صغير الرتبة قبل بضعة أشهر، ولاحقاً موظفاً في القصر، والوظيفة مجهولة. أحس بالندم، أضاع طوال السنين الماضية أكثر من فرصة سنحت له ليعقد صلة معه، أو ليتعرّف إليه عن قرب. فتركز أمله على شفاء الرئيس.

استغرب إلّا يولي أبو حسين غياب الرئيس اهتماماً، وإن كان حريصاً أمامه على أن يبدو حزيناً على عظيم الأمة وربانها الأمين على مصالحها، افتقده، لكن على أنه بات من الماضي. كان أبو حسين يتجهز للمستقبل، مستقبل يخلو من الرئيس، فاهتز رجاء المهندس من شفائه، لاسيما عندما قال له إن خبراً جاءه من المستشفى؛ الرئيس في حالة غيبوبة!! كان في حكم الميت سريرياً، إعلان خبر موته بات مسألة وقت. من أين يأتي أبو حسين بالأخبار؟ لا اتصال مع المستشفى. ما الخبر اليقين؟ أقدم المهندس من شدة غيظه منه على وضع اتصالاته تحت المراقبة، مطمئناً إلى أنه لن يخطر له أن الجهاز الخاص الذي هو تحت إشرافه، يتجسس عليه، ويتنصت على مكالماته، لكنْ للضرورة أحكام.

احتياطاً، قبل أن يدهمه الوقت، جدّ باحثاً عن وسيلة يثبت فيها ولاءه للأخ القائد، لئلا يصنف من أعداء القائد. ما هجس به لم يكن حدساً. التفكير بالمسارعة إلى تبديل موقعه، أملته عليه صور القائد بلباس المظليين، بدأت بالظهور لدى مؤيديه، على نسق صور الرئيس، الأخ الأصغر أتقن تقليد الأخ الأكبر؛ الابتسامة نفسها، وإن كانت أوسع، الموحية بنبع لا ينضب من المعاني الوطنية والرجولية، ألصقت على زجاج سيارات المارسيدس السوداء، وانتقلت

إلى الباصات والسيارات الصغيرة، وعلقت في ثكنات سرايا الدفاع ومواقعها، وأماكن سكن ضباطها وجنودها، وأخذت تغزو الشوارع والمحلات التجارية، تزاحم صورة الرئيس، في بعض الأماكن ألصقت فوقها، كانت إيذاناً ببطلان أي زعم، خالجه في ما مضى بقابلية الرئيس للبقاء حياً لزمن بلا حساب، السلطة لا تطيل العمر. الانتشار الحثيث لصور القائد، كان الاشارة الأكيدة إلى قرب مغادرة الرئيس للعالم.

ما فاجأه، حسب التسجيلات وتقرير المراقبة، أن أبو حسين يستقي أخبار المستشفى من سرايا الدفاع، كانت اتصالاته تجري مع مكتب القائد، واقتصرت في الساعات الأخيرة على القائد بالذات بهدف تنسيق العمليات بينهما؛ بعض ضباط الجيش عارضوا ترشيح القائد، لابد من مراقبتهم، كما أن الذين وافقوا على تسلم القائد السلطة أظهروا تردداً.

الحديث المسجل كان حول عزم القائد على القيام بانقلاب يضع الجميع أمام الأمر الواقع، على أن يتولى أبو حسين تأمين الانتقال السلس من الأخ الأكبر للأخ الأصغر. الثمن المرتقب، المحافظة على موقعه، وعلى أن يصبح في عداد الدائرة المقربة من الرئيس الجديد الذي سيباشر مهامه على الفور.

خطة سير الانقلاب كانت من تصميم الداهية أبو حسين، العقل المفكر للانقلاب: غداً تنطلق وحدات سرايا الدفاع وتسيطر على مبنى الأركان، والتلفزيون، ورئاسة الوزراء، ومجلس الشعب. ظهراً يدخل القائد الى القصر الجمهوري مع فريق تلفزيوني، أبو حسين في استقباله عند المدخل، هل يتجرأ أحد من موظفي القصر المساكين العزل على اعتراضه؟ سيعلن القائد في نشرة أخبار الظهيرة عن عدم قدرة الرئيس على ممارسة صلاحياته، ويحل محله، ريثما ينتخب من الشعب.

انقلاب؟ فليكن! قرر المهندس التصرف.

سيكون الانقلاب انقلابه، ويسبق أبو حسين إليه. سوف يتصل بجميع الموظفين وعلى رأسهم العم صبحي، ويطلب منهم الحضور غداً قبل الدوام الرسمي بساعتين، لأمر هام. يعقد معهم اجتماعاً، يحثهم على وضع أنفسهم تحت تصرف القائد، لضمان انتقال سلمي للسلطة، ما يوفر

تمثيلية الانقضاض على القصر واحتلاله، تحميهم من الطرد العاجل والآجل، وذلك بإرسال برقية فورية إلى القائد، مع بدء تحرك سرايا الدفاع، يعلنون ولاءهم للعهد الجديد. البرقية نداء عفوي ومخلص لإنقاذ البلد من الفوضى، ودعوة إلى القصر الجمهوري. بادرة لم يسبقها تنسيق مع أحد، لن ينساها القائد أبداً، والمكافأة مضمونة.

خطرت له هذه الفكرة وهو في ساحة الأمويين، تلك الموحية بالانقلابات والدبابات. كان في طريقه إلى بيته، دار المهندس بسيارته في الساحة، وقرر العودة إلى القصر الجمهوري. سيسهر الليلة هناك، يرتب اتصالاته، تمهيداً للغد. من بعيد لاح القصر، كان يرفل بالأضواء، بعد تعتيم طويل.

لقد تأخر، القائد عجّل بانقلابه!!

لا، لم يسبقه القائد، الرئيس سبق الجميع، وصل قبل ساعات قليلة إلى القصر، لممارسة عمله كالمعتاد، ولآخر الليل.

لم يغادر الرئيس الحياة، حتى عاد إليها. اختفاؤه عن الأنظار، أوهم حتى المقربين إليه باقتراب رحيله، بينما كانت صحته تتحسن، وعندما قاربت نقاهته على الانتهاء، قطعها ليستدعي اللجنة السداسية، ثم ضباطه الكبار ويوبخهم على تصرفهم، لعدم التقيد بوصيته؛ كانت لديه كل الشكوك بأن أخاه سيذهب بالبلد إلى الأميركان. انقلاب القائد أُحبط قبل ساعة الصفر بساعات... وكأن شيئاً لم يكن.

عودة الرئيس بشرت بمعركة كانت انتصاراً على خصومه في لبنان وحلفائهم، ولو متأخراً قليلاً، ففي اليوم الأخير من شباط، كانت الذروة، وصل الرئيس اللبناني إلى دمشق وأعلن قرار حكومته بإلغاء اتفاق ١٧ أيار مع الاسرائيليين.

فترة الركود لم تدم طويلاً، عاودت المهندس حالة أخرى من القلق والشك؛ النزاع بين الرئيس والقائد لم ينته، على الأصح بدأ. كان سلمياً وأصبح عسكرياً، وسوف يعاني المطلعون عليه من تحركات سرايا الدفاع من مواقعها واقترابها من العاصمة. عاشوا على أعصابهم خشية ما قد يؤول إليه من صدام مسلح. وسوف يراقب المهندس مضاعفاته يومياً طوال الأشهر

الأربعة اللاحقة.

وقف على الحياد بينهما، من دون أن يعلن الحياد، توارى عن الأنظار فقط، لن يغامر بمستقبله قبل الخاتمة، وبما أن لا أحد يعبأ به، ولا هو مؤثر في الخلاف بينهما، لن يتنطع للانحياز لأي طرف. وإذا كان له أن يختار بينهما، فالرئيس. لكن في حال انتصر القائد، لن يرحمه، من ليس معه فهو ضده، سيرميه خالي الوفاض إلى الشارع، لمجرد أنه يعمل في القصر، أو إلى السجن مداناً، إذا ثبت أنه من بطانة الرئيس، كيف سيعرف؟ سيتكفل أبو حسين بتصنيف الموظفين: مع العهد الجديد أو ضده.

منذ معاودة النزاع الثاني بين الأخوين، لم تنقطع اتصالات أبو حسين بالقائد. التنسيق بينهما، قائم لم ينقطع. مخاوف المهندس كانت حقيقية، ميلان أبو حسين إلى القائد، كان بحكم صلاته الوثيقة بالاثنين، وإذا كان اختار القائد، فلأنه الأقوى.

اضطر المهندس إلى انتظار نتيجة صدام الأخوة، كان واقعاً بلا ريب. نفسه نازعته إلى الاتصال بالقائد عن طريق عميله أبو حسين، وإعلان مؤازرته له، لكن لم يتجرأ، اللعبة خطرة جداً، ولا يمكن الوثوق بأبو حسين. كان عقله مع القائد، وعواطفه مع الرئيس. سيتبع حدسه: الرئيس.

ما جعله يأخذ جانب الرئيس أيضاً، غيظه من أبو حسين، اللعين كان من فرط خبثه، آمناً، سواء انتصر هذا أو ذاك، منصبه مضمون لدى الأخوة الأعداء، ومكانته محفوظة في الدائرة الضيقة لكليهما. بالمقارنة معه، كان مغبوناً، مهما حصل سيبقى أبو حسين في مركزه، عقبة في وجهه، كما كان من قبل، واليوم، وغداً. ليته يتخلص منه.

حسم أمره، وأرسل إلى الرئيس ضمن مغلف مختوم، تسجيل اتصالات رجله المقرب إليه، متوقعاً ألا يرى السكرتير المخلص بعدها. لكنه في الأيام التالية، سيراه في مكتبه، على رأس عمله، لم يتزحزح من وراء كرسيه، الرئيس لم يتخذ أي إجراء بتوقيفه.

أدرك، ويا لغبائه، أن أبو حسين إلى جانب الرئيس، وإذا كان فتح قناة مع القائد، فلأنه مدسوس عليه. طبعاً هو الذي أخبر الأخ الأكبر بانقلاب أخيه الأصغر. هل يوقفه عن عمله

في المكتب جراء التنصت على مكالمات أبو حسين؟ سيدافع عن نفسه بأنه قام بواجبه، عمله المخابراتي يسمح له بأن يشك بأي شخص، حرصاً على سلامة الرئيس. لن يصيبه أكثر من عداوة أبو حسين وانقطاع الصلة بينهما، أما العواقب، فعلى المدى البعيد، والاحتراس منه على الدوام.

عندما استدعاه الرئيس، اعتقد أنه سيؤنبه ويشيد به في آن واحد على ما اقترفه. أشار الرئيس إلى الكرسي الأقرب إليه ليجلس عليه، لم يرحب به، لبث يحدق إليه طويلاً. بعد مضي دقيقة أو دقيقتين على هذا الحال، أحس المهندس من صمت الرئيس أن شيئاً ما سيحدث، لا طاقة له به.

«التسجيلات التي أرسلتها غير مزورة. أبو حسين خانني، لم يكن سكرتيري فحسب، كان رفيق دربي أيضاً. عمالته لأخي صدمتني».

أخذ نفساً، ثم تابع بحدة:

«لكن أنت، لماذا تأخرت، كان يجب أن تبلغني بأمره فور عودتي؟».

«سيدي الرئيس، اعتقدت أنه يعمل لحسابك، نازعتني نفسي، وكدت ألا أرسل اليك التسجيلات، لكن شكوكي كانت قوية، فقررت أخيراً، عرض الأمر عليك، وتركه لك».

«ما الذي ترتئيه بشأنه؟».

«السجن، ريثما تفصل المحكمة بقضيته».

«لا سجن ولا محاكمة، سيتوسط له الكثيرون، أقارب، ورفاق سلاح... سيطالبونني بالإفراج عنه، سأتعرض إلى إحراج كبير».

سكت، وانتظر، ليرى تأثير كلامه على المهندس الذي أصيب بالخرس، مهما كان المانع، يجب على الرئيس إيقاع العقوبة القصوى عليه، لا يجوز في قضية تجسس أن يكون للإحراج مكان أو مانع. لم يتكلم إلا لأن الرئيس كان ينتظر منه تعليقاً ما:

«سيدي الرئيس، ما فعله لا يغتفر».

«لن أثير قضية حول خيانته. الأفضل أن تبقى ضمن نطاق ضيق جداً، لكن لابد من حل».

كان من المبالغة الظن بأن الرئيس يطلب مشورته، لذلك لم يفكر معه، بل أخذ يفكر بما كان يقوله الرئيس في تلك اللحظات بهدوء وروية:

«للأسف أبو حسين يعرف الكثير، أكثر مما ينبغي، ائتمنته على أسرار الدولة».

نهض واقفاً، عرف الحل الذي ارتآه الرئيس؛ أوكل أمره إلى الجهاز الخاص.

مساء اتصل بأبو حسين، وقال له إن الرئيس كلفه بإبلاغه بأمر هام، لا يحتمل التأجيل، سيوافيه إلى بيته. توقع رؤيته وحيداً. لم يقل له سوى بضع كلمات، الرئيس عرف بخيانتك، وقبل أن يفتح فمه، كان قد أخرج مسدسه الكاتم للصوت، وألقمه ثلاث رصاصات في رأسه. لم يخرج قبل أن فتش البيت، في غرفة النوم، كانت هناك صبية في العشرين من عمرها عارية في الفراش، من حس حظها أنها كانت نائمة، وضع في رأسها رصاصتين، وخرج.

في اليوم التالي، أبلغ الرئيس بأنهم وجدوا أبو حسين في بيته جثة هامدة وقد أصيب بعدة رصاصات في الرأس، كما وجدوا جثة هامدة لصبية مجهولة، حرصاً على سمعته أرسلت إلى البراد ليجري التعرف إليها.

... والمصادفة، حسبما قال للرئيس، البارحة زار المرحوم شخصياً، ويبدو أنه بعد مغادرته، دخل أحد عناصر الخلايا الإرهابية المسلحة وأرداه قتيلاً بمسدس كاتم للصوت.

أما الأخ القائد، فلن يفعل شيئاً، سيتابع انقلابه في ظلام.

٢

لم يطل الوقت، بلغ النزاع ذروته بين الأخوين، الرئيس والقائد. لم يصل إلى خط النهاية إلا وسقطت دمشق في كوابيس الرعب، الشوارع محتقنة، حركة السير ضعيفة، تنازل الدمشقيون عن سيرانهم الأسبوعي يوم الجمعة، يأوون إلى بيوتهم مع غروب الشمس، يتداول الأهالي خبراً عن اجتماع عقده الأخ القائد لعناصر سرايا الدفاع قال فيه، إنه عندما سيحتل العاصمة، سيقصفها بالمدفعية وراجمات الصواريخ بالتناوب ليوم وليلة، ثم تقوم كتائب المشاة بتمشيط أحيائها، ونهب بيوتها، سيبيحها لهم مدة ثلاثة أيام بلياليها. ما يسلبونه حلال زلال لهم، بعدها لا فقير ولا محتاج في السرايا، وإذا طلب جندي مساعدة أو اعانة، فسيقطع رأسه قبل يده.

لم يتأكد، هل هذا ما نقل عن لسان الأخ القائد، أم إشاعة تروجها المخابرات لصالح الرئيس؟ عاد التهديد والوعيد على الاثنين بالفائدة، أرهبا الأهالي.

في اليوم ما قبل الأخير من شهر آذار، تحركت قوات سرايا الدفاع وتمركزت في دوار كفرسوسة، واحتلت الحدائق بين فندق الشيراتون وقصر الضيافة الجديد، وطوقت فندق المريديان ومكاتب القيادة القطرية. على الطرف المقابل، انتشرت على طول نهر بردى، القوات المساندة للرئيس من الفرقة الثالثة والقوات الخاصة، تمركز بعضها في معرض دمشق الدولي، الجنود بملابس الميدان الكاملة، الدبابات مواجهة الدبابات، والمدافع مواجهة المدافع، بينما احتل القناصة من الطرفين أسطحة الأبنية العالية، ولم يبق سوى ارتكاب خطأ صغير، كي يبدأ إطلاق الرصاص، وقصف المدافع.

راقب المهندس الموقف المتدهور عن كثب من القصر الجمهوري، وعرف بقرار الرئيس الشجاع، مقابلة أخيه الذي أرسل تحذيراً بأنه في حال اعتراضه بالقوة، فسوف يحرق دمشق. اتفق الرئيس مع أخيه على اللقاء في نهاية طريق أوتستراد المزة، ومن هناك توجها إلى الطريق المحلق ومن ثم إلى دوار كفر سوسة، حيث دبابات سرايا الدفاع رابضة هناك. دار جدل حاد بينهما، حاول الأخ الأصغر تذكير الأخ الأكبر بما قدمه له، كان أكبر مساعد له على الوصول إلى السلطة، تصدى لأعدائه الذين أرادوا النيل منه، ولاحقهم إلى خارج البلد، وقضى عليهم

الواحد بعد الآخر. لولاه لما كان رئيساً للجمهورية. بالمقابل ذكره الأخ الأكبر بأنه هو الذي صنعه، لولاه لما كان أكثر من ضابط صغير مثل الآلاف غيره ممن هم أقدم منه رتبة، ولما تجرأ على مقام الرئاسة، أو عصيان الدولة.

ما يخوله محاكمته ميدانياً، وإيقاع العقوبة القصوى عليه، الإعدام رمياً بالرصاص.

ستنهي حنكة الرئيس النزاع بلا خسائر، وتتغلب عاطفة الأخوة على الخلاف وأسبابه، ويرضخ الأصغر للأكبر، وتعود القوات إلى مواقعها الأصلية، ويغادر الأخ القائد سورية، مع ترضية مالية كبيرة، عدة ملايين من الدولارات، كانت بداية جيدة لحياة أخرى مرفهة في أوروبا، لكنه فيما بعد سيندم، دمشق لا شيء يعوضها، هذا ما سيردده في ماربيا وباريس وجنيف، لا لم تكن دمشق، ولا سورية، بل السلطة، السلطة المطلقة.

خلال المحنة، عايش المهندس تقلبات مزلزلة، مُهَدداً بخسارة ما كسبه، وكل ما طمح إليه، لو لم تنته الأزمة، وينتصر الرئيس. لولاه، لن تكون حياته بأمان في أي عهد آخر قادم، كان المجهول فقط، وبداية أسوأ من الصفر. وإذا واتته الشجاعة، فقد يخوض مغامرة أخرى غير مضمونة النتائج ولا العواقب.

وكان درساً بليغاً، لو كانت لديه القوة أو المكانة المعتبرة، لما استطاع أي عهد الاستغناء عنه. وإذا أراد ألا يكون عرضة لمثل تلك التقلبات التي عاشها خائفاً وحانقاً، فالأوان لم يفت، الوسائل متوافرة، الجهاز الخاص. أما مشروعه فيحتاج إلى اعتراف الرئيس به بشكل جلي وأوضح.

جاء الاعتراف يسعى حثيثاً إليه. استدعاه الرئيس، وأبدى رضاه على ما قام به من دون تحديد. لم يرض المهندس بهذا التعميم. جلب نظر الرئيس إلى حملة الصور بالتحديد، هذا العمل أخذ جلّ وقته قبل الأزمة، وأثبت نجاحه خلالها، كانت الصور الشيء الوحيد الذي ذكر الشعب برئيسه، وأبقاه في الأذهان، وفي كل مكان.

«سيدي الرئيس، الكثيرون رفضوا تعليق صورة القائد، ولم يقبلوا بديلاً عن صورتك».

فابتسم الرئيس مسروراً ولم يعلق بكلمة. فتابع المهندس بإصرار:

«في صراع الصور، كنت أنت الفائز».

فهم من نظرة الاستحسان التي رمقه بها، أن الحملة لاقت صدى جيداً لديه. وإن تجنب إبداء رأيه. لن يلح على جواب حيّره زمناً؛ الرئيس يتعمد ألا يفصح عما يدور في داخله، غير أن أسلوبه انكشف، بعد أن تكرر، كان يترك لرجاله حرية التصرف، يدع لهم المجال لاستغلاله، في حين كان يستغلهم، ينفذون على مسؤوليتهم ما يرغب فيه، على أنه ما يريدونه، وكلما بالغوا بإتقانه، كان دليلاً على ولائهم له، وفي حال إخفاقهم، فقد أخفقوا وحدهم، والحساب عسير!!

أكد له صواب ما توصل إليه، ما خطر للرئيس فجأة، ودفعه إلى تمديد الجلسة، لم يكن سوى تشجيعه على المضي في مشروعه الذي استحسنه بنظرة ذات مغزى. كان هذا اعترافاً بأنه عمله الرئيسي، وأي شيء آخر يعتبر في المرتبة الثانية. كان بتحاشيه الكلام عنه يصر على عدم اللغو فيه. لم يكن الهدف سهلاً، كان خطيراً: الدخول في عقول الناس، وترسيخ إنسان ما، ولو كان رئيساً، على أنه ملهم، ومقدس أيضاً، أمر لا ينبغي على المرء التحدث فيه مع نفسه. العاقبة، إن لم تكن قطع رأسه، فالحرق، جزاء السحرة.

انتقل الرئيس إلى موضوع آخر، في صوته مرارة، لم يُخْفِها، الازمة الأخيرة أثّرت فيه، وفقد ثقته في أقرب الناس إليه، لم يتوقع أن يفكر أخوه جدياً بالقيام بانقلاب ضده، عبّر عنها باسترجاعه للماضي، وقد تسلسل بسرعة خاطفة، نحو تلك النهاية المؤسفة؛ مواجهة الإخوة على خط التماس، دبابات سرايا الدفاع وجهت مدافعها نحو القصر، أليس لتدميره فوق رأسه؟ أحس في دوار كفرسوسة، بأن سلطته تزعزعت، عندما لم ينصع الضابط قائد سرية الدبابات لأوامره بإبعاد قواته، حتى أنه أمره ثانية، ولم يستجب. عندئذ قفز أخوه إلى الدبابة وصفع الضابط، وأجبره على طاعة الرئيس.

كلفته هذه المعركة التي كادت أن تطيح البلد، قدراً من الألم، فقد أخاه الذي رافقه قبل رحلة التصحيح وبعدها، كان سنده في الأوقات الصعبة، لكنه أحرجه مراراً أمام أصدقائه وخصومه،

كان على علاقة وثيقة مع السعوديين، ما فعله لا يبرره الطيش ولا التسرع، إنها الخيانة.

استدعت الفضفضة عن النفس التعريج على أبو حسين صديقه المقرب إليه، خانه أيضاً، كان رجل أخيه، رغم صداقتهما الطويلة كان يخطط معه للانقلاب ضده. كان مهووساً بالعمل في الخفاء. فعل خيراً بانتحاره، لكن أليس غريباً أن ينتحر؟ لم يصدق أحد إقدامه على فعلته.

كان الرئيس يحمّله المسؤولية عن انتحاره. لقد سجل عليه جريمة، الدليل عليها لا ينقض، من يتجرأ على ألا يأخذ بأقوال الرئيس؟ لم يتجاهل الإيماءة إليه على أنه لغز محير.

«سيدي الرئيس، من المستحيل معرفة الحقيقة».

تأكيداً على أنه لن يتفوه بكلمة عنه مهما حدث.

اضطره نزاع الأخوين، الرئيس والقائد، إلى الانقطاع عن لميس، لم يتمكن من رؤيتها طوال الشهر الأخير، كان مستقبله وحياته مهددين. كان الحدث اللبناني أقل خطراً من السوري، انحصر اللبناني على أرضه، بينما السوري كان سيقلب الأوضاع في البلدين، ويطيح الرئيس لو لم يتحرك بسرعة في اللحظة المناسبة، ويتخذ موقفاً حازماً.

وهكذا بعد توتر دام طويلاً، انتصر الرئيس.

٣

لم يدم الانفراج في المهجع، إدارة السجن شددت إجراءاتها. وألغت الحرية المنقوصة التي تمتع بها السجناء لزمن لم يزد عن شهر، واستعادت المحظورات السابقة سيرتها، في مقدمتها منع الكلام بين السجناء، فاستعاضوا عنه بالهمس، وكان أشبه بالفحيح. ما أسهم في التباعد بينهم، انعكس على علاقة الطبيب بحسان، مزيداً من الجفاء.

ارتكبتُ خطأً جسيماً، سيقول عدنان لنفسه بعد حين لن يطول. كان حسان بأشد الحاجة إليه، هو لم يعرف، وحسان لم يصرّح. لم يتوقع ما يمكن أن يقدم عليه، وحتى لو حاول تخيله،

فلن يخطر له. جاء اليوم الذي ندم فيه على أنه لم يسع إلى إصلاح العلاقة معه. لكن لو عرف، هل كان بوسعه منعه؟ ربما نصحه كي يفكر ملياً في خياره المميت، على التأكيد كان ساعده. لكنه أسهم بموقفه اللامبالي منه بالقرار الذي اتخذه، حتى أنه لم ينتبه إلى ما كان يدور من حوله، وإن ضاق بنوبات حسان الايمانية الهوجاء: استيقاظه ليلاً وقراءة القرآن، بكاؤه، تلاوته أدعية الاستغفار. وفاته أن يربط علو نبرة تديّنه مع أحاديثه الجانبية الجارية مع أسامة والشيخ كريم، لم تسترع انتباهه، وإن اهتم بها اهتماماً عابراً، لم تستوقفه، إلا ليعتب عليهم لأنهم لم يشركوه بها.

عندما سيستعيد مجريات ما حدث، سوف يركز على هذه الفترة، آنئذ بدأ حسان بالاستعداد لما عزم على فعله بالاشتراك مع أسامة ومساعدة الشيخ كريم. بينما كان إلى جوارهم غافلاً عنهم، لم يدرك أن شيئاً آتياً على عجل، إلا عندما أزعجه حسان بتصرف آذى مشاعره.

مساء يوم الأحد اعترضه، كانت ملامحه محتقنة، اقترب منه، وهمس بصوت أجش اصطنعه، إياك إذا لاحظت شيئاً غداً أن تفتح فمك بكلمة. استغرب أن يتكلم معه بهذه اللهجة الغريبة، كان يفتعلها ويفتعل معها قطيعة، ما الذي ينبغي السكوت عنه؟! هناك شيء ما، لم يحاول تمحيص ما بدا له، ويستجلي الذي لم يبد له؛ وهو أن أي تصرف يدور في ذهن حسان، لابد أن يكون أسامة محوره، لم يخطر له، لأن الشيخ كريم كان ثالثهم.

كما كان عليه أن يتذكر أن يوم الأحد يسبق يوم الاثنين.

لم يردّ عليه، التفت نحو الشيخ كريم، يشهده على تطاول من أصبح مريده، ولابد بتحريض منه. كان يصلي العشاء فانتظره، لكنه أطال الصلاة ركعتين، ثم أشاح بوجهه عنه، تناول القرآن، وأخذ يقرأ فيه. حسب أنه يتهرب منه. كان الشيخ يبيّت استخارة، سمع طرفاً منها: اللهم إن كان فيه خير لديننا ودنيانا فيسّره لنا، وإن كان غير ذلك فاصرفه عنا، واصرفنا عنه، إنك على كل شيء قدير.

تعدّت الاستخارة أكثر من واحد، فظن أنه يُبيّتها لحالة المساجين جميعاً. أدار الشيخ ظهره إليه،

كان عازفاً عن الكلام معه.

صباحاً، فتح عينيه على حركة إلى جواره، رأى حسان وأسامة حول الشيخ كريم، وقد أمسك بيد كل منهما، يشد عليها، يقول لهما، توكلوا على الله، صدري انشرح لما أنتم ماضون فيه. ربت كتف حسان: الخيرة فيما اختاره الله. ما الذي يحثهما عليه، ويدفعهما إليه؟ خيار، نسبه إلى الله!!

لم يتسنّ له التفكير ملياً بما سمعه، بعده بدقائق، كانت الصدمة.

يوم الاثنين، حسب المعتاد، مع إطلالة الفجر المشؤوم، ظهر الرقيب من النافذة الصغيرة في باب المهجع، وتلا أسماء المطلوبين للمحكمة كي يجهزوا أنفسهم.

نسي عدنان موعد الشنق المصادف في يوم الاثنين، الشهر كان رمضان. اعتقد مع الكثير من السجناء أن الإعدامات ستؤجل إلى ما بعد انتهاء الشهر الفضيل وعيد الفطر، لم تكن إلا ظنوناً خامرتهم، لا أمان للكفرة، لم يبالوا بحرمة رمضان، ومع هذا هناك من المساجين من تمنى أن يكون موته في هذا الشهر، على أمل أن يفطر على مائدة الرحمن برفقة الرسول.

حصة المهجع من القائمة كانت شابين من حلب، وثلاثة من إدلب، وواحداً من دمشق، أما الذي من حماه، فكان أسامة؛ سارعوا إلى الوضوء والصلاة.

تلفّت. لم ير أسامة، مع أنه كان قبل قليل على مقربة منه، هرع يبحث عنه ليودعه، ويغتنم لحظات معه، بضع كلمات مواسية، وعناق كان أكثر ما يشق في الوداع. رآه من بعيد برفقة حسان والشيخ كريم واقفين في الزاوية يتحادثون، لمحوه قادماً فتفرقوا، توغل كل منهم في اتجاه. استغرب تبعثرهم السريع، كأنه كان متعمداً، ولم يكن مجرد ظن، حسان مرّ بقربه، دون سلام، تجنبه بالاندساس بين المطلوبين الستة للإعدام، يريد توديعهم، ولحق به الشيخ كريم، بينما أسامة اختفى.

اختلط عليه، وهو يرى حسان يتوضأ مع المطلوبين، ويصلي ركعتين سنة الشهادة، المفروض أن يكون أسامة من يتوضأ ويصلي. استغرب بادرة حسان المشاركة بطقوس ما قبل الشنق. راقبه

يتوجه إلى فراشه يفرد حوائجه، يخلع قميصه وبنطاله ويرتدى قميصاً بالياً وبنطالاً ممزقاً، ثم ارتدّ إليه، ورمى له بقميصه وبنطاله، متبرعاً له بهما، كما يفعل المحكومون قبل المضي إلى المشنقة.

ظن أن حسان من فرط تأثره بفراق أسامة، يتقمص دور محكوم بالإعدام، ويشاركه مصيره، كأن الشنق سيطالهما معاً، فاندمج في الأداء، استغل المشهد، وصالحه بالتخلي له عن قميصه وبنطاله، خصّه بهما، معتذراً عن الجفوة بينهما، صداقتهما عادت إلى سابق عهدها.. ولم يتوقع لهذه التمثيلية أن تطول أكثر من لحظات معدودات. غير أن أسامة تأخر، ولم يلتحق بالمطلوبين للاعدام، هل سيلاقي ربه بلا وضوء وصلاة؟ حسان أيضاً لم ينتظر شريكه، أو يرفع بصره باحثاً عنه.

التبس عليه ما يجري، ثمة شيء غير عادي، ولا أحد يلتفت إليه، أو يحس به!! السجناء مشغولون بتوديع رفاقهم، يتعانقون ويبكون، ويوصونهم بالتوكل على الله، ويتواعدون على اللقاء في الجنة. ما استغربه أن الشيخ كريم عانق حسان وودعه دامع العينين. فظن للحظات أنه أخطأ السمع، وأن المحكوم بالإعدام هو حسان لا أسامة، فاقترب نحوهما، ما الذي يجري؟ قال للشيخ كريم، الذي اعترضه ودمدم في وجهه، وهو يبتعد: حاذر أن تفتح فمك بكلمة. فتذكر الكلمات نفسها التي قالها له حسان البارحة. فالتفت نحو حسان متحيراً: ما الذي يجري؟

حسان لم يجب، فتلفت عدنان يستفسر السجناء من حوله، علّ أحدهم يقول شيئاً. كانوا جماعات، كل جماعة تحلقت حول أحد المطلوبين للاعدام، يتشبثون به، يستمهلونه كأنهم يملكون أمره، ثم يشدون من أزره؛ الله رزقك الشهادة، لا تنسنا من الشفاعة. ينقل بصره بين المطلوبين وهم يتهيأون للمغادرة، المنية اقتربت، الدموع تترقرق في عيونهم، يوصون من حولهم بعائلاتهم وأولادهم.

أراد وقد رأى الدموع تسيل على وجنتي حسان، تكذيب خاطر مرّ في ذهنه، فقال بصوت خافت لم يسمعه سوى حسان، ألم يتأخر أسامة؟ أريد أن أودعه. حسان لم يجبه. عانقه وبكى. هتف نافد الصبر، قل شيئاً. قال، ودّعني، لم يبق وقت. وشده إليه ثانية. فهاجمه خاطر، أسامة المتواري عن الأنظار، لن يظهر، حسان أخذ مكانه... حسان سيشنق بدلاً عن أسامة.

الجميع تواطأوا على أن حسان هو أسامة، وتظاهروا أن هذا هو ذاك. خدعة جازت على السجانين، فهم لا يعرفون أسماء المساجين، كانوا أرقاماً بالنسبة إليهم، أو ما يلقبونهم به من ألقاب مهينة. ثم من يتوقع أن يحل سجين محل آخر في الشنق؟ كاد أن يصرخ كاشفاً خدعة الاثنين، لكن حسان أبعده عنه قليلاً ورشقه بنظرة حادة. نبس عدنان غير مصدق:

«ما الذي فعلته؟!».

حدق حسان إليه وسأله:

«ماذا لو لم يكن هناك رب؟».

لم يشعر بالخوف من المشنقة، كان الله يؤرقه، في وقت فات الأوان فيه على الايمان والشك والكفر والإلحاد. اجتاحت عدنان رغبة كاسحة في أن ينفّث عن حنقه منه، وكان حانقاً على الله أكثر. أراد أن يقسو عليه ويصارحه؛ ليس هناك رب في المكان الذاهب إليه. الكلمات علقت في حلقه، هل يصدمه بخسارة لا تعوض عنها تضحية من دون جزاء، إذا كانت هذه رغبته الأخيرة، فقد نال ما تمناه، شهيد بلا أجر ولا ثواب، ويشمت به لمجرد الانتقام من الله.

غير أنه لم يلمح على وجهه كل ما تسارع في ذهنه بلا رقيب. أطرق برأسه، خشي على حسان أن تخور قواه لحظة يخرج من المهجع.

«ستجده، أو شيئاً آخر».

«ماذا يكون؟».

قال له مواسياً:

«إن لم يكن الله، فرباً غيره».

صفن حسان برهة:

«هل ينصفني؟».

«لا تقل لي إنك غير مؤمن».

أدار حسان رأسه يخفي دموعه.

«إيماني لا يسعفني».

كان قد انكشف. لن يدعه، سيعضده حتى النهاية، هما الآن على عتبتها، لا يجوز أن يفقد حسان الله في هذه اللحظات، فارتدّ إليه:

«لم ينصفك في الدنيا، سينصفك في الآخرة».

لا ينبغي أن يرحل مغموماً مكسوراً. لكن هل يتسع الوقت لسؤاله، لماذا تبرع بحياته لأسامة؟ أعاد سؤاله عاتباً:

«ما الذي فعلته؟».

«لا تسألني».

أدار حسان ظهره، وانضم إلى رتل المحكومين، وترك الجواب معلقاً.

تابعه ببصره، صوت الرقيب يجرش في سمعه، يستفسر المطلوبين الواحد بعد الآخر عن أسماء آبائهم وأمهاتهم، بينما العسكري يضع عصابة على عيني كل واحد منهم، يقيد أيديهم إلى الخلف، ثم يغلق الباب.

لن يرى حسان بعد الآن، لكن لحظة فقدانه لم تحن بعد، مازال هناك بقية، حسان ما زال حياً، ولن يتراخى عن تتبعه من مكان إلى آخر، ولم يكن مجرد تخيل، قبل شهر عاد سامر الحداد من على بعد خطوات من المشنقة، بعدما اكتشفوا خطأ في الاسم. وروى لهم رحلته القصيرة جداً والطويلة جداً إلى الساحة السادسة، وعودته منها منهاراً.

راح يتعقب حسان خطوة خطوة في طريق لن تطول مهما كان الزمن سخياً.

المحكومون من المهاجع الأخرى، ينضمون إلى الموكب متعثري الخُطى، الطماشات تحجب عيونهم، لا يرون طريقهم، يجمعونهم في غرفة المشغل، عددهم لا يقل عن الخمسين. ضابط برتبة كبيرة يتلو عليهم حكم الإعدام شنقاً. يوقفونهم أمام الجدار؛ يدب الرعب في قلوب بعضهم، تتقصف قدما رجل كبير السن، ويقع أرضاً، الروماتيزم ينخر في ركبتيه، يهرع الحراس ويضربونه بالخيزرانات، تمتد أيدي رفاقه إليه تتلمسه، وتساعده على النهوض، فيتحامل على أوجاعه، ويعتدل واقفاً.

نادى الرقيب على أسماء المجموعة الأولى، فتعالت أصواتهم تحض بعضهم بعضاً على الثبات والشجاعة، أحدهم عندما سمع اسمه، خذلته رباطة جأشه وانسطح أرضاً. سارع العسكر إلى ضربه، لم يأت بحركة، شحطوه من يديه على الأرض، حتى المشنقة، ذهب أحدهم إلى الضابط وقال له، إنه ميت، هل يرمونه في الشاحنة. الضابط رفض. عاد العسكري، تعاون مع رفاقه، رفعوه إلى المشنقة، فلت من أيديهم، جاؤوا بكرسي، اعتلاه أحدهم، أدخل رأسه في المشنقة، فتهاوى. كان بلا حراك للمرة الثانية.

الله أكبر، الشنق بدأ، والتحدي بدأ.

كلما نادوا على سجين، ودّعه رفاقه. يقوده العسكر إلى المشنقة، يذهب مستسلماً لهم، خائفاً أو شجاعاً، لكن مصلياً طاهراً وصائماً، يلتف حبل المشنقة حول رقبته، يسارع العسكر إلى إنهاض قوائم المشنقة ليمنعوه من التكبير، التسابق يجري بينهم في كل مرة، أحياناً يفلحون، تطبق المشنقة على الرقبة، فتبتر الصيحة قبل أن تطلق، وتسمع حشرجة تقطع نياط القلوب، وربما يغمى على السجين، فلا يحس بالموت، أو يلفظ أنفاسه قبل الموت، أو يعاندهم فيشدّون قدميه إلى الأسفل لتحكم الأنشوطة عقدتها حول الرقبة.

يرحلون الواحد بعد الآخر، صرخة الله أكبر، تُذهب عنهم الخوف، تدوي بين آونة وأخرى في فضاء الباحة، تلعلع في الأثير، تخترق الجدران، تبلغ الرفاق برحيلهم إلى ملكوت الله، تنبئهم

بصعود الروح ظافرة إلى السماء... وكأن حسان مات في السكون الواجف، لم يسمع له حس، تخلف عنهم، أو شنق في الصمت بلا صوت، رافضاً ومرفوضاً، لا يرتجي شيئاً من الله.

لكن صوته كان الأقوى، هدر مكبراً، الله أكبر.

هبطت السكينة على عدنان، رحل حسان حاسماً صراعه مع الله، في لحظاته الأخيرة لم يكن بائساً ولا يائساً.

وإذ يمتد الصمت، يصبح السكون أشد إيلاماً، تعبث فيه أصوات تفكيك المشانق، وجمع أخشابها لنقلها إلى المستودع، يرافقها تنادي العسكر لحمل الجثث ورميها في الشاحنة. بعدها صوت المحرك، ثم إلى مثواهم المجهول، تلك الحفرة في الصحراء.

أخفى وجهه بالبطانية وأجهش بالبكاء.

لم يدرك أنه مخير بين الرحيل أو الاختفاء، إلا بعد ساعة أو ساعتين، فقد الإحساس بالزمن، تعالى الهمس من حوله، والحياة عادت إلى طبيعتها، كل منهم انتحى في مكان، انطوى على آلامه، يجتر أوجاعه، يترقب الدفعة التالية بعد أسبوع أو يومين، عسى أن يأزف الرحيل.

دهمه شعور آنسه، غمره واستولى عليه، الرحيل إلى العالم الآخر، بات فرجاً، عالم من هناء وصفاء، عالم يخلو من رجال حفرت الدموع أخاديد على وجوههم، ورسمت التجاعيد ملامحهم، يلعقون جراحهم النازفة، ولا يكفون عن البقاء. متى يغادر هذا العالم، عالم العذاب والعسف والجنون؟

تنبه إلى أن هناك من ينظر إليه. تأمله، كان واقفاً أمامه، ينتظر مغادرته ليدخل، كأن لا مكان يجمعهما. يترقب إشارة منه، كي يستقل كل منهما بعالمه، الأول يخرج، والثاني يحل محله.

كان الرقم ٧٧ يستعجله.

ما أدركه وبكامل وعيه، أنه كان أدنى إلى أن تزل به قدمه وينقلب ثانية إلى رقم، ويرتاح من

شقاء مؤبد، يوفر عليه عذابات لن تفلته إلا تحت التراب، خطوة واحدة وينجو من حبل المشنقة. خطوة واحدة، وتحجبه عن الرعب المقيم. خطوة واحدة، وينطلق إلى عالم يخلو من الإحساس وأمراضه.

غير أنه تاه عنه، كأنه ليس الرقم ٧٧ الذي تعايش معه في جسد واحد، في زمن صعب، كان امتداده زمناً أصعب، ومادام الزمن لم يتغير، فعودته كانت بالرغم عنه وأقوى منه، عاد بفعل الزمن، لا بقواه الذاتية، وربما كان موجوداً معه، لم يفارقه. مجرد أنه تحرر من الغياب، وأغلق مشهداً أرهقه الحر والقهر والخوف والإعياء.

أدرك، وهو لا يزال في كامل وعيه، أنه لن يدير ظهره لهذا العالم، وينساق إلى الخفاء.

لكنه تأخر، لم ينفعه توقع الخطر، كان في الخطر.

الرقم ٧٧ احتل مكانه.

فليودع هذه اللحظة. بعدها لن يرى شيئاً إلا من خلال رقم، كان قد أصبحه... تهاون معه فسقط في حبائله.

ولقد كان تأثيره فيه قوياً، مختلفاً عن المرة السابقة، حتى أنه حوّله إلى كتلة من الغم والقنوط، وحوّل الأشخاص في المهجع إلى أشياء بالية ومنهكة. بات كل ما بوسعه فعله هو اللحاق به، متنقلاً وراءه بين أمكنة، بدت ضيقة مهما اتسعت، يهيم معه بلا وجهة ولا اتجاه. الرقم لا يهدأ على حال، واثقاً من نفسه، متشككاً بمن حوله، وناقماً على الهواء والضياء... في جحر اختنق بالسواد.

الحالة التي وجد نفسه فيها كانت نشازاً، يعيها، ويعي أنه لا يتحكم فيها. كانت في ما مضى لعبة وفرت عليه العذاب، بينما الآن أصبح هذا الذي لا وجود له عذابه الخالص، وإذا كانت له تجليات، فمشكوك فيها، إن لم تكن مزعومة، لا تخلو من تواطؤ شارك فيه بالنصيب الأوفى، إن لم يكن افتعله كله. الرقم ٧٧ جزء منه، شيء من نفسه، فلت منه، ذهب بعيداً،

واختفى، وعندما عاد، عاد بلا صواب، ليقوده إلى فقدان عقله، لكن لماذا لا يزال محتفظاً بقدر منه يفكر فيه؟ .

لم يفهم، هل أصبح مجنوناً، لكن لماذا ليس مجنوناً بالكامل؟ لماذا نصفه يعي، والنصف الآخر لا يعي؟ كان أسيراً لمأزقه الطائش، وللآخر حامل الرقم ٧٧ المنطلق على هواه، ولم يكن هواه إلا العبث بقوانين السجن، يأمر وينهى، يشتم ويسبّ، يتلفظ بما شاء له، دون أن يتمكن من ضبطه.

لم يعد غريباً عن حاله، كان يضمحل، ويكاد يتلاشى، في المرة السابقة كان الأقوى، فاستخدمه. الآن أصبح الأضعف، الرقم٧٧ يستخدمه.

حركاته غير المألوفة، وكلامه المشتت، استرعيا الأنظار والمسامع، رفاق السجن أخذتهم الدهشة، وأشفقوا عليه، لا يعرفون أن ما يستغربونه، لم يقدم عليه الإنسان، بل الرقم. يتأملونه ويهزّون برؤوسهم، يرثون لحال الطبيب المجنون، ساعدهم بالأمس في محنة أمراضهم السارية والمميتة، واليوم بات بحاجة إلى من يساعده، غير أن الإصابة في عقله، المرض تمكن في روحه، وليس بوسع أحد مدّ يد العون إليه، سوى في تهدئته، والدعاء له بالشفاء.

في كل يوم، يحقق تقدماً ملحوظاً في الجنون، يسعى إلى التخلص مما يربطه بالمكان وبالماضي وبالبشر، يسعى إلى إدراكه بلا إدراك، لا يعبأ بالعقاب في سبيل التخلص من بقايا العقل، إن كان صفعة أو رفسة أو لسعة كرباج. يدعه يفعل ما يشاء، لم يترك له جسده فقط، بل وروحه أيضاً، التنكيل بها أجدى. الإهانات كفيلة بسحقها.

هكذا الحياة، بلا روح، أسلم.

انسحب إلى داخله الأعمق غوراً، مسافراً بخياله إلى أماكنه، التجأ إلى حياته، يذهب صباحاً إلى المستشفى، يعود ظهراً إلى البيت، زوجته والأولاد بانتظاره، يتحلقون حول المائدة، يتناولون الغداء، يضطجع ساعة القيلولة، بعد الظهر يداوم في العيادة.

أليس هذا جنوناً آخر، استرجاع زمن، إن كان أم لم يكن، سيان؟ هل كان حقاً ذلك الطبيب

الذي يداوي الرجال والنساء والأطفال، لماذا لا يعالج نفسه، مادام الرقم ٧٧ داءه، أم أنه لا يعرف؟ كانت معرفته بلاءه الشاق، ولا تغلّبَ عليها. لن يستطيع مساعدة نفسه، وإن كان يعي أن المجنون ليس هو، بل ذاك، ليس بمقدوره ردعه، ولا الدفاع عنه.

لكن كان ثمة نهاية.

اقتادوه من شعره سحلاً إلى الساحة، وضعوه في الدولاب، وانهالوا عليه ضرباً بالكرباج، كي يسمعوا منه صرخة استجارة واحدة، لم يتلفظ بها، أخرجوه من الدولاب، وتتالوا عليه دعساً ورفساً ببساطيرهم، أفلت منهم، أو تركوه يزحف مبتعداً عنهم بأكواعه وركبتيه الداميتين فوق الاسفلت، إلى أن تمدد بلا حراك، إلا من نفس ضئيل يتخافت، وعلى وشك أن يهمد.

اتسع له السكون، ليدرك ان الرقم ٧٧ لم يكن مجنوناً، كان دواءه، لا داءه. يطلب العذاب، لأنه تواق إلى الموت. واتسع له السكون، ليعترف بأن ظنونه لم تكن في محلها، الرقم ٧٧ لم يكن يستخدمه، بل كان يلقنه ما لم يتجرأ على الإقدام عليه؛ قتل النفس.

اقتلني، هذا ما تمنيته وأردتُه.

قبل أن يغمض عينيه، ذرف دمعة، المسكين كان البديل، يسعى إلى أن يحقق له أمنيته بالانتحار، تلك التي لم يتجرأ عليها، أخذها الرقم على عاتقه، وتحمل صنوف العذاب لكي يموت هانئ البال.

وإذ يندلع اللغط، يسمع وقع أقدامهم، يقتربون منه ويحملونه، وينطلقون به إلى المهجع.

سيقتطع من اللغط لحظة سكون، كانت لحظة الحقيقة، لن يدعها تمر، من دون أن يستوقفها، إن لم يواجه موته فقد يفوته، هذا لا يحدث إلا مرة واحدة.

الفصل الثاني عشر

دولة موازية وفاعلة

أُوقفتُ عن العمل فجأة بتعليمات فورية صادرة عن الرئاسة، هذا ما بدا، بينما كنت قد أنهيته في الوقت المحدد. لو لم يُطوّق الاضطراب الذي حصل في الهيئة، والهيئة الموازية في القبو، لهددت تداعياته العلاقة بين الرئاسة والأجهزة الأمنية والجيش. ما سبب ارتياحاً لجميع الأطراف الذين أحسوا بالخطر، ولا أستثني نفسي. المهندس طمأنني إلى أنه لن يصيبني أي أذى. نتائج التفتيش لن تثار حالياً بسبب الأوضاع السياسية غير الملائمة، للرئاسة أولوياتها.

طلب مني التكتم على مهمتي، واعتبار التفتيش ليس أكثر من تدريب، كما أُعلن منذ البداية، وسوف يبقى على اتصال معي. في قابل الأيام، سوف يستعين بي في مهمات مماثلة، وقد أتابع البحث في ما تركته ناقصاً. ويسعده إذا احتجت لأي شيء، مهما كان، ألا أتردد، سوف يساعدني، لقاء ما قمت به من أجل الوطن.

ولقد أعدت النظر في ما كُلفت به، لولا المهندس لما تمكنت من إنجازه، ولو أنه لم يكتمل. في الواقع، ما بدا معركة بينهم، لم تنتج شيئاً ذا بال، فالمفتشون ومعهم الجهات الداعمة والأطراف الفاعلة، الراشية والمرتشية، لم يصبهم مكروه. أصبحوا ملفاً لدى الرئاسة، ورُحِّلوا إلى زمن غير منظور.

كذلك الأستاذ رشدي خرج من مستودع الارشيف في القصر العدلي بعدد كبير من القضايا، تدين مسؤولين في الدولة والقضاء. لم يجد عنتاً في توثيقها، كان مطّلعاً على أغلبها من قبل، فدعمها بالأدلة بلا صعوبات تذكر، فهو من رجال القضاء، أي من أهل البيت، يعرف مسالكه ومخارجه. أنهى عمله بلا ضجيج، من دون الاصطدام مع أحد. وأعتقد أيضاً أن الملف الذي أعدّه ذهب إلى ذلك الزمن غير المنظور.

ومهما كان ما جرى، وما قمت به، فقد أصابني بالأسى، صورة البلد انكشفت في العمق، كانت ممزقة، تتقاسمها إقطاعيات نافذة، تسعى للاستيلاء على كل ما يدر مالاً: تعهدات، استيراد سيارات، دعاية، سياحة، آثار، حفلات فنية، درامات تلفزيونية، مخدرات.... قد تتشابك المصالح وتتناقض، وتشتد المنافسات والخلافات، تحصد ضحايا ضعفاء، أما الأقوياء فآمنون. الصورة مرعبة، لا مكان لنا فيها، ومضادة لأي تغيير إلا في الاتجاه نفسه.

الدولة التي نعرفها أو لا نعرفها، في اضمحلال لصالح مراكز القوى المتسللة في وضح النهار إلى مؤسساتها ومرافقها، في كل يوم تقضم شيئاً منها. لم تكن السيطرة على الهيئة والقضاء إلا نموذجاً شبيهاً لما يحدث في قطاعات الدولة المختلفة، تتراوح نتائجه بين الاحتلال الكامل والاحتلال الناقص، ولم يكن نقصانه إلا تمهيداً لاستكماله. فقسم التوزيع والأرشيف، كانا هيئة تفتيش مصغرة، تستخدم وسائل الهيئة لحسابها، وفي أية لحظة، بوسعها الانقضاض على هيئة التفتيش واحتلالها بالكامل.

يستحيل على أي شخص مطلع أن يرجو شيئاً إلا نحو الأسوأ. البلد ذاهب إلى الفقدان.

هذا لا يوحي، بقدر ما يؤكد تشكل دولة داخل الدولة، موازية وفاعلة، ولاؤها مجيّر لطموحات أفرادها. وما السجون والمعتقلات والمحاكم والجيش إلا للحفاظ على البلد ملكية خاصة.

المؤسف أن آمال الأستاذ رشدي خدعته، اعتقد أن ما فعلناه سوف يؤتي مفعوله، فكان مستوى الإحباط لديه مرتفعاً. توقع أن نتائج تحقيقاتنا ستكون مقدمة لإصلاح شامل. المهندس صارحه بأن كشفها مؤجل، لئلا تستغلها المؤامرات الخارجية.

أدرك الأستاذ رشدي أن الملفات التي أسهمنا بها ستكون يوماً ما سيفاً مسلطاً على أصحابها لضمان عبوديتهم. أصبح أكثر إيماناً بأن عجلة الفساد لو أصابها عطب لتوقفت الحياة في البلاد. لقد حافظنا على ديمومتها، وحسن دورانها. كنا نعمل ضمن الشبكة الكبرى للفساد، وساعدنا على ترسيخ ما نحن ضده.

بعدها، أصر الأستاذ رشدي على التقاعد، وسُمح له بالانسحاب من عالم القضاء، بوساطة من المهندس. كانت الخدمة الوحيدة التي طلبها منه، للفساد فوائده أيضاً.

لم يعتزل الأستاذ رشدي القضاء إلا لأنه أراد اعتزال الحياة أيضاً، كان يتهيأ للموت.

لم أنقطع عن زيارته، ومن المؤسف أن الوقت لم يسمح بالكثير، تبادلنا بعض ذكريات مشوار صعب، بذلنا فيه وسعنا، وإن لم نفلح. ولقد اعتذر مني لأنه تركني وحيداً مع المهندس، ولم تكن تلك رغبته على الإطلاق. لم أجهل أن وضعه الصحي متردّ، مرضه القاتل كان العدالة، ربط حياته بها، حتى وصل به الحال إلى العجز، لم يعد لديه ما يقدمه لها؛ هل كرس حياته لهدف وهمي؟ لا، كانت العدالة ممنوعة من العمل.

رحل الأستاذ رشدي عن عالمنا، وكان في أشد حالاته سوداوية.

١

شهدت علاقة المهندس مع لميس تقدماً ملموساً من جانب، وتراجعاً بطيئاً من جانب آخر. التقدم كان تجارياً. اقتحمت لميس عالم رجال الأعمال وامتدّ نشاطها إلى الاستيراد من بلدان المنشأ؛ أوروبا وتايوان واليابان... أسطول من السيارات والشاحنات يقوم بنقل البضائع من بيروت إلى مستودعاتها في شتورة، ثم تنقل بالتقسيط إلى الشركة في دمشق، ليجري توزيعها بالجملة في أسواق سورية. كانت أي صفقة تعقدها تشكل اعتداء على إقطاعيات الآخرين، وكانوا يراعونها من أجل المهندس. كانت تقول له ضاحكة: حصتك محفوظة. ومع أنه لم يلق بالاً إلى حصته، وكانت مناصفة كما وعدت، لم يطالبها بها، كانت ديوناً عليها، تستغلها في

توسيع أعمالها. لكنه حذرها من التورط في المخدرات، على الرغم من أرباحها الكبيرة، لئلا يسيء إلى موقعه في القصر. لميس راودتها نفسها بارتياد مجالات التجارات الخطرة، ما دام لا خطر سيلحقها منها، لكن بإشراكه فيها، وجوده معها كان الأمان. لم يشأ المهندس التورط، لئلا يوضع على قوائم وكالة الاستخبارات الأميركية، كان اهتمامه متركزاً على الداخل.

عندما بدأ المهندس يرتاد بيوتات لعب البوكر، لم يكن لولعه بالقمار، بل للانخراط والتعرف إلى مجتمعات الضباط والمسؤولين الكبار، وتجار السلاح والمخدرات، حيث تعقد الصفقات الكبيرة التي تتجاوز البلد إلى المناطق المضطربة في العالم. كانت السياسة هي الاتجار بالسلاح والمخدرات أيضاً، علاقتها وثيقة بالإرهاب والحروب الأهلية والإبادة الجماعية، وأحياناً التحرير. فاضطر إلى أن يأخذ من لميس دفعات كبيرة من المال على الحساب، ليسدد ديونه، إلى أن جاء وقت نبهته إلى الاقتصاد في الخسائر، فاختصر جلساته، وواظب عليها بقدر أرباحه من تجارات لميس، فلم تف بما أراد الحصول عليه من معلومات.

مداخيله الأخرى لم تكن أقل، وكانت أكثر أماناً، تعقد شفهياً، بلا عقود ولا أوراق، تتم من خلال الهاتف، يتاجر بقضايا تحل في دهاليز أجهزة الأمن، والمحاكم الاقتصادية، أو على أعلى المستويات؛ وكان على سويتها، كتذليل قضايا عالقة في الدولة، والإفراج عن موقوفين وسجناء، منهم زوار عرب ارتكبوا مخالفات، أو جرماً فاضحاً في سورية العلمانية، كان أهاليهم يدفعون بالدولار، يدّعي أن الجزء الأكبر منها يذهب إلى ضباط الأجهزة الأمنية.

أما التراجع البطيء فكان من نصيب علاقته العاطفية معها، لميس تحولت، أو أنها تطورت إلى رجل أعمال محنّك، تشغلها مشاريعها أكثر من الاهتمام به. ومع أن علاقتهما دخلت في طور الفتور، حاول كل من جانبه استعادة زخم غرامهما في بداياته الأولى، لم يفلحا، كانت محاولاتهما من قبيل رفع العتب، ومجرد خاطر يلح من وقت لآخر، من دون بذل جهد. هموم لميس التجارية احتلت حياتها، في الوقت الذي سرقت فيه مهامه المصيرية النصيب الأعظم من وقته.

لقاءاتهما الدورية باتت غير منتظمة، تتأجل وتتباعد. وحتى عندما ينجح اللقاء بينهما، ينهمك كل منهما بما يفكر فيه، يتفوهان ببضع كلمات، تنتزع من سياق يعود إلى زمن كان فيه اللقاء

متوهجاً بالعري والتحلل ورائحة العطر الممتزج بالعرق. لم يعد يجذبها، كما لم تعد تجذبه، يمارسان الجنس بحكم العادة، لم يعد للقهوة والسيجار اللذة نفسها في الفراش، كان الهاتف يعفيهما أحياناً من لقاء يتوقعانه ثقيلاً، فيعتذر لها، أو تعتذر له.

الحياة اختلفت، أو أنه أخذ يتعرف على حياة المدينة بسرعة محمومة، خمن أن تكون لدى لميس علاقات مع رجال آخرين، قالت إنهاعلاقات عمل؛ الجنس عمل أيضاً. ما الذي يمنعها؟! كانت شكوكه حاضرة. تولد لديه هذا الشعور، لأنه أخفى عنها علاقاته الكثيرة والعابرة، اعتبرها علاقات عمل، وكانت بالفعل علاقات عمل، مع نساء كان يلبي لهن طلباتهن، ويدفعن مقابلها ما يلبي رغباته. لم يحبذ هذه الطريقة في الدفع. بالنسبة إليه، رغم أنها ممتعة، فهي خسارة. وبالنسبة إليهن، أوفر.

لم تعد لميس تشكل عليه عبئاً تجارياً ولا جنسياً. بات يعمل بارتياح أكبر على المهام المنوطة به، لاسيما المقدسة منها، تنشطت بعد افتتاح المكتبة الوطنية في ساحة الأمويين، وظهر تمثال الرئيس متربعاً عالياً في المدخل، جالساً يمسك بيده كتاباً مفتوح الصفحات، متحفزاً جامد القسمات، منتصب الجذع متقدماً به إلى الأمام قليلاً، ينظر بعيداً يستجلي الأفق، يحمل بين كتفيه رأساً، يحار الناظر إليه، ترى بماذا يفكر؟ كان عقلاً جباراً.

أطلق المهندس على أثره حملة التماثيل، بالإيعاز إلى محافظات المدن والقرى تزيين مداخلها وساحاتها بتمثال الرئيس بطل الحرب والسلام. انتشرت الحملة إلى أوسع وأبعد مما قدر لها، بعد سنوات سيبلغ تعدادها الآلاف. المنظمات الشعبية تساعده دون أن تدري أنها تعمل ضمن مخططاته، يكفي أن يرسل إشارة حتى يسارع كل من تلقّاها إلى التنفيذ باندفاع وتفانٍ، لا يقتصر على التلقي، تجاوزه المحتالون إلى المبادرة لصناعة لوحات نحاسية دق عليه الوضع الجبهي والجانبي لوجه الرئيس، تولّته عصابات من فناني الأرصفة ومعهم شبان من فروع مخابراتية أكثر احتيالاً منهم. بعد شيوع التماثيل النصفية والجانبية والوجهية، وإشباع المحلات والمؤسسات بها، لم يعدموا نماذج إضافية متنوعة لتماثيل الرئيس وصوره بمختلف الأوضاع.

لا أسرار في عمله، سوى حاجته إلى التفكير الخلّاق، لينطلق أي مشروع كالصاروخ فور وضعه

قيد الاستعمال، لا يحث أية جهة، يتنافس على ترويجه الأمناء على رسالة البعث.

ألحقه بمشروع واعد، كلف صديقه عارف بكتابة سيرة حياة الرئيس، هذا عمل يقوم به المثقفون. قبل عارف على ألا يذكر اسمه على أنه مؤلف الكتاب، لأنه محسوب على المعارضة، لا يمكنه الا أن يكون معارضاً، اجتهد سنين طويلة في تطويب سمعة كانت ماركة مسجلة للمثقف النقدي، تميزه عن عملاء النظام. رياح المعارضة كانت مواتية أكثر، منحته المصداقية والشهرة معاً. لم يجد أي عناء في تدبيج الكتاب، المعلومات متناثرة في الصحف، جمَعَها وبوّبها، وتقاضى مبلغاً كبيراً، وصدر الكتاب باسم مستعار.

هذه الشرارة، أطلقت سلسلة كتب عن حياة الرئيس منذ كان في المدرسة الإعدادية، مع التركيز على نشاطه الحزبي في الثانوية، وخروجه في المظاهرات واصطدامه بتنظيم الإخوان المسلمين، الكلية العسكرية، تخرجه ضابطاً طياراً، تدرجه، دورة تدريبية في روسيا، مناقبه في الجيش، مغامراته في الطيران الليلي، قصفه مواقع إسرائيلية، النضال السري...إلخ. وكتبٌ عن النواحي الفكرية في خطابات الرئيس، ومن أقوال الرئيس، وهكذا قال الرئيس... إضافة إلى قصائد الأشعار، وكلها في مديحه.

ثم مشروع آخر، لا يحتاج إلى عناصر أو مال، كان كلما دعي إلى مكان أو اجتماع أو مؤتمر، أحال الجمادات الضخمة، الجسور والسدود ومشاريع الطرق... إلى عطاء من الرئيس، الشعب مدين بوجودها إليه، لولاه لما كانت، ولم تكن الدعوة إلى إطلاق اسمه عليها، إلا اعترافاً بإنجازاته، ودلالة إلى عصره، عصر الأسد؛ يقولها بانفعال يملي على السامعين إزجاء آيات الشكر والعرفان للسيد الرئيس... كانت عربون وفاء لرئيسنا المفدى، رئيسنا الذي يستحق أن نبذل الغالي والرخيص كي نفيه مكرماته الجمة.

لم يدر أنه أطلق المشروع الأكثر طموحاً؛ في العاصمة لم تعد المكتبة الوطنية، بل مكتبة الأسد، وأطيحت معها المسميات القديمة، تلقفته قطاعات الدولة كلها: التربية والتعليم، الرياضة، الخدمات السياحية، المواصلات، الصناعة، التجارة، الزراعة... طارت تسمية «الأسد» وانتشرت، طالت الجسور، السدود، البحيرات، الضواحي، المدارس، المساجد،

الساحات، الملاعب، الصالات، المحطات، المصانع، المشاتل، الغابات، المداجن ... كان اللاهثون إلى مهر منشآتهم وأعمالهم بـ«الأسد» أكثر من أن يحصوا، وفاء لديون الرئيس، دون أن تفيها حقها.

في غمرة تنقلاته بين الاجتماعات والمؤتمرات، طلبت لميس مقابلته على وجه السرعة، في فترة لم يعد يراها إلا نادراً. تبادر إلى ذهنه أنها ستدخل السباق، كانت مهما تأخرت سبّاقة على الدوام، تريد حصتها من علامة الأسد لمشاريعها الخاصة بها. تصور أنه سيجد عناء في اقناعها بأن الاسم مخصص لمشاريع عمرانية كبرى على علاقة بالدولة، وليس تجارية خاصة، ولا يجوز بأي حال استخدام علامة الأسد غطاء تجارياً لبضائع غير نظامية. كل ما دار في رأسه كان تخيلات تحت تأثير رواج العلامة.

فاجأته لميس بتعرفها إلى ضابط قبل فترة وجيزة، عرض عليها الزواج. سألها بآلية، كأن لا سؤال غيره؛ من هو؟ ففاجأته، ما الذي يهمك منه؟ خشيت أن يفتك به. لاحظ من أسلوب تحديها له، أنها هي التي أوقعت الضابط في حبائلها، واعتقدت أنه يطالبها بالتخلي عنه، بينما لم يأبه به. لم يجد تعبيراً في ذهنه كي ينقم عليها سوى أنها خانته.

تابعت تحديها له، لم تُعلمه به إلا من قبيل الألفة التي جمعت بينهما، لأنه عشيقها، لا لأخذ رأيه، ليس من اللباقة أن يعلم بعزمها على الزواج من رجال المخابرات. لم تكن تستأذنه، ستتزوج، لقد تقدمت في العمر، بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها.

أحس أن انزعاجه لم يكن في محله، ربما لأنه تصور أنها أحبت الضابط، لكنه يعرفها بطيئة في الحب، تنازل عن هذا التصور، غاظه أن علاقتها بالضابط حدثت من وراء ظهره... هل عليها أن تعلمه بكل شيء؟ حسناً ظفرت بعلاقة ناجحة انقلبت إلى زواج. شعر بالارتياح، فاستغرب، المبرر هنا في داخله، رغبته في التخلص منها، راودته مرات، ولكي يسوغها، توقع أن يكون لديها علاقة أو أكثر، أحياناً يمر أسبوع وأكثر، لا يسأل أحدهما عن الآخر. منذ أكثر من سنة ترك علاقتهما للانفصال التدريجي، واثقاً أنها ستنتهي دونما متاعب عاطفية، ها هي سترحل عنه بلا ضوضاء.

قال لها، إنه سعيد من أجلها، ولكي يطمئنها، لم يسألها عن اسمه.

ترددت كثيراً، قبل أن تفاتحه بزواجها. وإذ رأته تقبّل الخبر ببساطة بعد قليل من التوتر، بررت زواجها، ليس إلا نوعاً من الأمان، وعلى علاقة بالعمل، بات ظهورها في المجتمعات الدمشقية، وبين رجال الأعمال، يتطلب رجلاً إلى جوارها ذا صفة شرعية، لئلا ينظر إليها كفريسة سهلة. الزواج يحميها من سماجة المتطفلين.

لم يعترض ولو مجاملة، أو يظهر أسفه. فأحست بالخديعة، مخاوفها منه كانت بلا أساس، فهو لم يهتم، أو حتى يتأثر. كانت اللحظة مواتية لتقول له، إنه لو طلب الزواج منها، لاضطرّت إلى الموافقة، إكراماً للعشرة الطويلة بينهما فقط، مع أنها لا تحبذ ولا ترغب في الارتباط به، وفي هذا تضحية منها، فهو كعشيق لا يحتمل، فما باله كزوج.

أدرك من عصبيتها أنه أساء لكرامتها، فطيّب خاطرها، بأنهما لن ينفصلا، تجاراتهما المشتركة ستبقي الصلة بينهما قائمة، لكنه لم يحدد نوع الصلة الجديدة، كان في غنى عنها.

في اللحظات التالية، لبثا صامتين. هجسا معاً، في المرة المقبلة سيلتقيان كأغراب، ربما ليفصلا شراكتهما. هذه المرأة التي ستصبح زوجة، كأنها لم تكن شيئاً في حياته، ولم يكن شيئاً في حياتها. هل قرأت في وجهه ما قرأه في وجهها... النهاية الكئيبة نفسها؟

قالت كي ترضيه: لقد أحببتك.

اعترافها جاء متأخراً ويعرف أنه ليس حقيقياً، للحظة ضعف مرت بها، فكان يجب أن يثأر لكرامته، تخلت عنه بخفة، واختارت ببساطة رجلاً آخر:

«أنا لم أحبكِ».

فاستدركت قائلة: لم أقلها إلا لأنني أشفقت عليك.

وتركته يأكل نفسه. فارتدّ إلى فكرته الرئيسة، لقد تخلص منها.

إنجازاته المتلاحقة عوضت فقدانها، انتهى ما كان ينبغي أن ينتهي منذ زمن بعيد. لكن عكّرها عليه علمه بخبر سفرها لقضاء شهر العسل في ربوع لبنان، قرأه في المجلة التي أرسلتها إليه عشية مغادرتها دمشق، في باب أخبار المجتمع. على غير ما توقع، استولت عليه مشاعر الغيرة، نكدت عليه يومه. افتقدها بشدة، لمجرد رؤيته صورتها مع عريسها الأسمر اللون والقوي البنية، والشعر القصير، والوجه المتورم، عرفه كان ضابطاً من أبطال الوحدات الخاصة، قبل أن ينتقل الى المخابرات، فرع المداهمات. شارك في الانزال بالهيلوكوبتر على جسر الشغور، وابتدع هناك مأثرة، كان يعدم لا أقل من عشرين شخصاً، لقاء أي حزبي اغتيل، يلملمهم لا على التعيين من الطرقات وهم ذاهبون الى الجامع للصلاة، أو يأتي بهم من البيوت، بالبيجامات ينتعلون الشحاطات. هذا هو البطل الذي سيقتله، لم يتمرن على إطلاق النار إلا من أجله.

اتصل بها بعد قدومها من شهر العسل، صمم على أن يجبرها على الطلاق، وإذا مانعت فسوف يقتل زوجها المخابراتي أخصائي المداهمات. عندما رآها اندفع نحوها، تعانقا، كانت امرأة جميلة، لن يتركها ثانية، ولن يدعها لغيره، مارسا ما كانا يمارسانه، كأنه لا زواج ولا شهر عسل. قراره برد، لن يفاتحها به. لم يفقدها، مازالت تحت يده.

اتخذت علاقتهما الجديدة النمط القديم نفسه، رغم تجددها الحار، وعادت تراوده من حين لآخر، مثلما من قبل فكرة التخلص منها، ويطالها التأجيل، كانت هي أيضاً تمر في الحالة نفسها. اقتنع كلاهما، بأنهما سيحافظان على هذا المنوال، في البعاد يفتقد الواحد منها الآخر، وفي القرب يزهقان من بعضهما. أدركاه متأخرين. أصبحت جزءاً منه، مثلما أصبح جزءاً منها. تذكر نبوءته عنها، عندما أمعن النظر فيها مرة، ورأى نفسه، كانت وجهه الآخر، مثلما كان وجهها الآخر، فلماذا لا يعتريهما السأم من وجه كان واحداً، لكن كيف ينفصلان؟

عادا إلى ما كانا أسيرين له، لم تكن الرغبة تقوده إليها أو تقودها إليه. كان لقاؤهما نوعاً من تقليد يجمع بينهما ليضطجعا قليلاً، ثم مع القهوة والسيجار، يتبادلان القليل من الكلام، ويمعنان في التفكير وهما ينظران إلى السقف، وكان السقف يأخذهما إلى ما كانا يفعلانه، فيتضاجعان على وجه السرعة، بحكم اضطجاعهما الواحد بجوار الآخر؛ عمل ينبغي إنهاؤه بالقيام به.

لم يكن في عودتها إليه حب ولا شفقة، أو تقصير من الزوج الصنديد. كانت حريصة على تجاراتها، لن تخسرها لقاء علاقة لم تشكل عبئاً عليها، كانت جزءاً من حياة اعتادتها، وأصبحت ضرورية من أجل صحتها النفسية، بعد اللقاء كانت تسترخي.

٢

إنجازاته لم تكن متواضعة، أمامه أفق بلا نهاية، فالرئيس ارتبط بالحداثة، وبكل ما هو حديث الظهور، وما دام هناك مشروع جديد في أية محافظة أو مدينة أو قرية، فالتسمية المرجوة هي الأسد. احتدمت الخلافات من فرط إقبال الشعب أيضاً. أوجب التنافس على الاسم في المحافظة والمدينة والبلدة والقرية الواحدة، بل وفي الشارع نفسه، وضْعَ حدٍ لهذا السيل من الطلبات، أغلبها إن لم يكن كلها، لا تُخفى انتهازيتها، يرومون لافتة خط عليها «الأسد»، يقارعون بها الشرطة والجمارك والمالية والأمن ودوريات المحافظة والبلدية... التسمية أغرت أيضاً جهات ذات أسماء تقليدية كانت عنوان تاريخ قومي ونضالي ووظيفي، اقترحت تعديلات عليها: كل فروع حزب البعث، والأمن، واتحاد طلبة سورية، اتحاد العمال، الاتحاد النسائي، وشبيبة الثورة..... استمزجت رأي القيادات الأعلى منها، بالتغيير إلى حزب الأسد، فرع أمن الأسد، اتحاد طلبة الأسد، اتحاد عمال الأسد، اتحاد فلاحي الأسد، اتحاد نساء الأسد، شبيبة الأسد، طلائع الأسد... ولو كان فيها إلغاء للبعث والثورة. لم التعدد، ما دام أنها اجتمعت في واحد هو الأسد؟ وكان جوابه على هذه الرغبة العارمة، في منتهى التأني والحصافة، كل كلمة محسوبة عليه: من المبكر، دمغ الأسد بمؤسسات لم تنفصل عنه إلا لتكون ركائز له، في مرحلة بناء الدولة، ولئلا يُلغى دورها، في حين الوقت آت لتلتحم به.

على كل حال، لِمَ العجلة؟ سورية كلها اختصرت بـ... سورية الأسد.

وسوف يكون لطلبه التريث الفضل في إنهاء خلافات نشأت عن تنازع الجهات المختلفة على التسمية النبيلة، لم تقتصر على تبادل الشتائم والتهديدات، بل امتدت إلى مشاجرات وتماسك بالأيدي، وإطلاق الأعيرة النارية في الهواء، فُضت بترجيح طرف على آخر، فانتفع الكثيرون،

كان الطرف الذي يحوز الاسم لا يبخل بإرضاء من سهّلوا له الحصول عليه، فأصبحت التسمية مصدراً للارتزاق.

عموماً جرى إكبار التهافت على الاسم، والتسامح مع التعديات وما أدت إليه من خصومات، عزيت كلها إلى المحبة التي يكنّها الشعب للسيد الرئيس. لكنها أفرزت إشكالات متعبة، لا يجوز التغاضي عنها، تطلبت إيجاد حل لها، الطلبات المستمرة أحرجتهم، ونشأت مخاوف من الامتناع عن تلبيتها، ما كبلهم عن اتخاذ إجراء باصدار قرار بوقفها، ما دام الوازع محبة الرئيس.

كان الحل في وضع لائحة تُعنى بتنظيم منح تراخيص حيازة الاسم، فاشترط أن يكون البناء ذا قيمة معنوية، مسجداً أو منتدى ثقافياً، أو معلماً سياحياً بارزاً، ومثلها الضواحي، استثنيت منها الضواحي العشوائية لرثاثتها وقذراتها، لكن ضاحية صغيرة ملحقة ببلدة قدسيا، تدعى العرين، التحقت بالأسد، فأصبحت عرين الأسد. فصدر الأمر بالمنع، غير أن سكان الضاحية كانوا من ضباط وجنود القصر الجمهوري، بلغ بهم العناد العسكري، ادعاءهم أنهم لا يقصدون الرئيس الأسد، بل ملك الغابة الأسد. وكان فيها عار أي عار، إلى جوار الرئيس الأسد، لا أسد غيره، ولو كان ملكاً. فاضطروا صاغرين إلى استثنائها.

بالتالي، حظرت التسميات المتعلقة بالمهن، كحلاق الأسد، ملحمة الأسد، سوبر ماركت الأسد، فرن الأسد، حلويات الأسد... لكن الإشكال كان شائكاً مع المؤسسات الصاعدة، والمشاريع الرائدة، والاستثمارات الآتية من الخليج، لوّحوا بسحب مشاريعهم، كذلك الجمعيات الخيرية، هدد المساهمون فيها بالامتناع عن فعل الخير، أما الدينية فكانت حاجتها إليه ضرورية للتبرك باسمه. وحدهم المانحون الأجانب، لم يصرّوا على الأسد، حتى عندما عُرض عليهم.

استجرّت لائحة الأنواع المحددة المشمولة بالسماح، إرباك السلطات المختصة، ففي وقت واحد كان هناك طلبات لعشرين مسجداً، وخمسة معاهد تعليمية، وثلاثة سدود، وثلاثين مدرسة، وعشرين مركزاً ثقافياً... وغيرها، موقوف افتتاحها على إعلان الموافقة. لم يكن الإرباك حول أن الاسم لا يغطي احتياجات الجميع، كان يتسع لهم وللمئات والآلاف غيرهم، لكن يخشى

من الخلط بين مسجد الأسد ومسجد الأسد!! فتفتقت الأذهان المبدعة عن اقتراح إضافة أرقام: مسجد الأسد١، مسجد الأسد٢، مسجد الأسد٣.... وبما أن الأرقام الصاعدة مفتوحة إلى ما لانهاية، أقلها بالملايين، فسوف تغطي مساجد العالم كله، وبذلك يعم الأسد العالم كماركة سورية مسجلة. غير أن هذا الحل أوقف فور اقتراحه، قبل العمل فيه، كانت الخشية منه أعظم، إذ ليس هناك إلا أسد أوحد، تعدده يشي بأكثر من واحد.

في الوقت الذي وصلت فيه مسألة التسمية إلى طريق مسدود، اقتحم التنافس المتجدد حادث جلل، وفاة ابن الرئيس الأكبر في حادث سيارة مفاجئ نتيجة السرعة، كان لجانبه المدوي صدى شديد الإيلام، وشارك الشعب رئيسه مصابه المفجع، غير أن موته كان له مردود كبير، في جدل التسميات الدائر والذي لم يهدأ، إذ فتح لهم المجال لاستعمال اسم المرحوم الشاب، فصدق المثل القائل: مصائب قوم عند قوم فوائد، وأصبحت مصائب الرئيس، عند الشعب فوائد، إذ شهد اسم الابن إقبالاً كبيراً، لا نظير له، إلا الإقبال على اسم الأب، وكان لما شهده من تسهيلات، أن يتفوق عليه خلال زمن قياسي، ما اضطرهم إلى التدقيق في كيفية استعماله، ألّا يكون كيفما اتفق، وأن يجري تضييقه إلى رمز شبابي وطني، وتذكار رفيع الشأن، يليق بابن الرئيس المحبوب.

الهزل الذي ابتدعه طال وتشعب، لم ينحرف إلى ضده، رغم الثغر التي اعتورته، لكن انقلب إلى طرفة سخيفة، كان وياللسخرية، يُناقش بكل جدية من مسؤولين جادين، وحصد سجالات امتدت شهوراً على هذا الطراز العجائبي، ولا تمييز بين الحسن والأحسن، والسيئ والأسوأ. صار المسؤولون يتقبلون أي صرعة، إذا كان الرئيس طرفاً فيها، وفي هذا استمرار للهزل، على منوال عقيم، مهما كان مبتكراً، إلا إذا تعطل العقل. فوجئ المهندس، كان النجاح الذي أحرزه سليل أغرب الأفكار، تلك التي لا يمكن أن يتقبلها المنطق السليم، كانت ولو أنها سخيفة، تأخذ جواز المرور إلى أرجاء سورية إذا التصقت بالأسد.

فات المهندس أن الواقع يتحرك بسرعة جنونية، ويسبقه بمراحل، وكل ما يفعله هو أن يجاريه. الشعب لا يجد بأساً في إرضائهم، إذا كان فيه إرضاء للرئيس، وفي هذا سر، لم ينكشف له، إلى

أي حد هو حقيقي؟ مؤقتاً، يكفي أن يطلق شرارة، لتعم الحرائق السهل كله.

نجاحه بعث فيه الهمة على متابعة ما أحرزه، ومع هذا لم يبخس الآخرين عملهم في هذا المضمار، واعترف بأنه ليس الوحيد فيه، كانت وزارة الإعلام تعمل بجد على بث أخبار الرئيس اليومية في الجرائد الثلاث الصادرة في العاصمة، عدا جرائد المحافظات. يستحيل أن تخلو جريدة أو مجلة من صورة للرئيس على الصفحة الرئيسة، إضافة إلى ظهوره التلفزيوني اليومي، يستقبل أو يودع، يجتمع مع مسؤولين من الداخل أو مبعوثين من الدول الشقيقة، أو الدول العدوة، أو التي ستصبح عدوة.. غير أن ما نبهه إلى نقصان الحملة هو المناهج التعليمية لمادة التربية القومية في المدارس والجامعات، جرى تعويضها بالإيعاز إلى الهيئة التدريسية، بالتركيز على السيد الرئيس أكثر من حزب البعث، والحركة التصحيحية أكثر من ثورة ٨ آذار، وأن تاريخ سورية بعد الاستقلال، كان رجعياً، ولم يصبح تقدمياً حقيقياً إلا مع ظهور السيد الرئيس، وأن سورية الحديثة، هي سورية الأسد، والتاريخ السوري يبدأ فعلياً مع الرئيس، وما قبله لم يكن تاريخاً يعتد به، والحكام قبله كانوا استعماريين رجعيين باعوا الوطن. وإذا كان التاريخ المعاصر تأخر عن المجيء، فلأنه كان بانتظار سيادة الرئيس.

لم تكن الصور وحدها تملأ فضاء سورية، متوزعة في الأماكن كلها، بل وكان سيادة الرئيس يتردد على المسامع منذ الصباح حتى المساء، في نشرات الأخبار والأناشيد والأغاني الوطنية، تذكرة للناس بأنه الخالق لسورية الحديثة، والأهم في خطبة يوم الجمعة يتردد اسمه في المساجد، بيوت الله، وأيام الآحاد في الكنائس. يقترن بالله، اقتران الخالق بالخالق.

تمهيداً لتقديسه وقداسته، كانت الخطوة التالية شرارة أطلقها المهندس في عدة اجتماعات متلاحقة في المنظمات الشعبية والحزب.... لم يذكره على أنه سيادة الرئيس، بل الرئيس الخالد، كررها عدة مرات أثناء لقاءاته، كان وكأنه أصدر تعميماً له قوة القانون، فأخذ يتردد على ألسنة المسؤولين، وفي الاجتماعات الحزبية، والجرائد والتلفزيون... بالصيغة نفسها: الرئيس الخالد.

كان الرئيس، قد اقترن بالخلود.

كان الرئيس، قد ارتبط بالأبد.

٣

في الساحة فاته الموت، لم يواجهه.

فتح عينيه، طالعه أسامة، منحنياً عليه، يمسح بخرقة مبللة بالماء ما علق من تراب وأوساخ على يديه وقدميه، ثم الدم المتجمد على الحاجب الأيمن، كان الجرح غائراً ونازفاً، ضمده بالابرة والخيط. لم يحس عدنان بالألم.

لماذا أسامة؟ لم يتساءل كثيراً. كان متعباً. بعد قليل، بدأ الألم يأكل جسده.

في الليل، تذكر أنه أصيب في الساحة، جاؤوا به من هناك، تراءت له نعال بساطيرهم، والإيقاع المجنون للكابل الرباعي فوق ظهره. كانوا يعاقبونه، لماذا؟ ليس مهماً، لابد غاب عن الوعي. لمح في العتمة عيني أسامة تحدقان إليه، سمع صوته يسأله، إذا كان بحاجة إلى شيء. أين حسان؟ لماذا أسامة احتل مكان منامته؟

لا، لم يأت من الساحة، كان عائداً من مكان بعيد، بعيد جداً، من اللامكان كانت عودته، هذه المرة إلى نفسه، من زمن كان فيه رقماً، يتذكر الرقم ٧٧. كان يائساً، ترى هو أم الرقم؟ تذكر أن أحدهما حاول الانتحار، الرقم ٧٧ لم يمت، غادره، وأبقاه على قيد الحياة.

أسامة لازمه، رعاه وأطعمه بيديه. الشيخ كريم تنازل له عن حصته من الطعام، وبقي على مقربة منه، يقرأ له القرآن على نية الشفاء. عاوناه على المشي، اتكأ على ذراعيهما في فسحة التنفس. يمشي الهوينى، لا يكمل، يتربع على الأرض، يستند بظهره إلى الحائط، لا يمهله الحرس أكثر من دقائق، يطردونه إلى المهجع. تحسنت حالته بعد أيام، عقله يعمل ببطء شديد.

سأل أسامة عن حسان، هذا ما أخذ ينقر له رأسه. جهد أسامة وهو يشرح له أن حسان بات في عداد الشهداء. تابع الشيخ كريم المحاولة بمقدمة طويلة عن أنواع الجهاد، عندما وصل إلى بيت القصيد، حسان اشترى الآخرة بالدنيا، وظفر برضوان الله وجَنّته. لم يدعه عدنان يكمل

كلامه، تذكر ما ينبغي أن ينساه؛ حسان والمشنقة وما دُبر من ورائه.

أدار ظهره لهما، وامتنع عن الكلام معهما.

رفض سماعهما. لديه روايته التي يثق بها، رواها لنفسه: حسان ذهب مخدوعاً وراضياً إلى المشنقة، كيف تمكنا من إقناعه؟ الشيخ كريم استغل ما أشيع عن علاقته بأسامة، وطالبه بالتكفير عنها. أسامة لعب دوراً أيضاً، طالبه بالبرهنة عن صداقته البريئة نحوه... كلاهما قتلاه، غررا به إن لم يكن بالوعود، فبالوعيد، نعيم الجنة أو نار جهنم. خديعة جازت عليه، لا سيما الاستخارة التي بيّتها الشيخ كريم، وانشرح لها صدره. فكانت المبادلة، أجبر عليها حسان. نطق الشيخ باسم الله، وأرسله إلى حتفه.

لا عدالة في استئثار أسامة بالحياة، والمشنقة من نصيب حسان، لا مساواة بينهما، ولا تكافؤ، كان الموت عقاباً على أقاويل، وحتى لو كان صحيحاً ما اتهم به، لماذا حسان وليس أسامة؟.

حاول الشيخ كريم ثانية أن يشرح له ما جرى، لكنه صدّه. يعرف لو ترك له الكلام، فقدراته الكلامية غير محدودة، بحوزته ترسانة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، يستعملها بما يحقق أغراضه.

أغلظ له بالكلام. لكنه ندم، بعد أيام سيق الشيخ كريم إلى المشنقة.

وندم أيضاً، لأن جزءاً من الحقيقة مات معه، الجزء الآخر لدى أسامة، محكوميته التي اختلسها من حسان، قاربت على الانتهاء. وفيما لو ظل مصرّاً على القطيعة، فسوف تخرج الحقيقة من السجن وتضيع في العالم. أرسل إلى أسامة، فخف إليه، لم يشأ أن يبقى موضوع حسان ملتبساً بينهما.

كان أسامة متأثراً ، بدا مخطوف اللون، لن يدافع عن نفسه، ولا هو مدين لأحد بتفسير ما جرى، لكن إكراماً لذكرى حسان، إذا كان هناك ما يعتز به فهو صداقتهما في هذا العالم. لن يخفي شيئاً، الحقيقة كاملة، أقسَم لن يكذب.

فكرة تبادل المصائر بينهما، كانت فكرة حسان التي ابتدعها وتشبث بها.

«أصر على عدم اطلاعك أنت بالذات على العملية، خشية أن تثنيه عما اعتزم فعله، توقع أنك ستكون ضدها، وخاف أن تقنعه بالعكس».

خطرت الفكرة لحسان، بعد وصول دفعة من المعتقلين، من بينهم شاب اعتقل على الحدود الاردنية، أرسله قادة إسلاميون فارّون من سورية، ومنشقّون عن الاخوان والطليعة، كلفوه بالاتصال بمن يعرفون من جماعتهم وتحذيرهم من الاشتراك في أية عملية انتقامية من رجال الدولة. معلوماتهم تقول أن التنظيمين، سواء الذين في الاردن أو العراق، مخترقان بجواسيس من النظام. السلطة تتوقع عمليات كهذه، وهي مستعدة لها، وسوف تستغلها لإفناء ما تبقى من الإسلاميين، ولن يوفروا عائلاتهم.

كانت مهمة الشاب أيضاً لملمة شمل الخلايا القديمة، والعمل على تماسكها بالحد الأدنى، من أجل رعاية أسر الشهداء، والنهي عن أي مخاطرة تكبد التنظيم شهداء جدداً، والعمل على المدى البعيد، على تجنيد الشبان وتثقيفهم دينياً، وإبعاد فكرة العمل المسلح، بالعودة إلى العمل الدعوي. النظام يريد إفناء الاسلام، والمطلوب إبقاء شعلة الإيمان.

لم يكن بين المساجين أصلح من أسامة للقيام بهذه المهمة، كان على معرفة بالخلايا التي تبعثرت وانفرطت، وعلى علاقة شخصية بالمسؤولين عنهم، وموثوقاً به، كما أن أفكاره بعد هذه السنوات، طرأ عليها تحول في تدمر، لم يعد من مؤيدي النضال المسلح. غير أنه محكوم بالإعدام. فعرضت المهمة على حسان لأنه موعود بالإفراج عنه قريباً، على أن يزوده أسامة بتوصية منه. كذلك الشيخ كريم رغم كونه ضد مهادنة النظام المجرم، حقناً لدماء المسلمين، تبرع بتزكيته لدى بعض الأشخاص. ادعى حسان أنه ليس كفؤاً لها، لجهله بأمور التنظيم، وغير معروف فيه، فتفشل العملية كلها. واقترح أن يأخذ دور أسامة في الإعدام، أسامة رفض الفكرة.

«صدقني لم يخطر لي هذا الخيار أصلاً».

بعد إلحاح حسان الشديد، اضطر أسامة إلى تحكيم الشيخ كريم الذي تردد أيضاً، ولم يتجرأ على اتخاذ قرار، لكن إزاء عناد حسان، بيَّت أكثر من استخارة، تاركاً الأمر لله.

لم يأخذ عدنان بقصة أسامة ولا بحججه، يقينه لم يتزعزع، استعاد علاقتهما وما قيل فيها، كلاهما استغلا حسان، كان من فرط محبته لأسامة، أن أخذ مكانه في الموت.

«كان خياره، وألزمني به».

«لا تقل لي من أجل التنظيم والإسلام».

«لم نفعل شيئاً من أجل أنفسنا».

عدنان لم يُخفِ ما أراد قوله.

«مات لأنه أحبك أكثر من نفسه».

احمرّ وجه أسامة، كاد أن يرد، لكنه ارتبك. انتظر قليلاً، ضبط أعصابه، قال:

«ليس كما تظن».

لن يتراجع عدنان عن تفسيره، كان فعل القتل جلياً في ذهنه.

«لقد قتلته. لم تحبّه كما أحبك».

«أحب واحدنا الآخر في الله».

في ذهنه، توضحت بشدة تضحية المشنوق، فتابع:

«إذا كان فعلها بإرادته، فلأنه أراد التكفير عن عشق آثم».

«لا تسئ إليه، إنه بين يدي الرحمن، حسابنا عنده».

«دعنا في هذه الدنيا».

«لا تشط في التأويل، علينا بالظاهر والله يتولى السرائر».

«الظاهر هو أن الكثيرين لاحظوا أن علاقتكما غير طبيعية، وأوّلهم الشيخ كريم، لا أدري إذا كان الله سيسامحه، وافقكما على هذا العمل، بدافع أن الحسنة تمحي السيئة».

«لن أخفي عنك، حسان صارحني، الأقاويل شوشته وأرهقته، أصبح يشك في نفسه، بات لا يعرف تماماً حقيقة مشاعره نحوي، بسبب ما راج من إشاعات حولنا. كنا ضحية السجن، فلا تساعد السجانين».

«لماذا أنت؟!».

«تمنى لو يكون له أخ، فكنت أنا. هل أخطأ؟ لم يرد أن يشهد موتي، كان حائراً بين مشاعره نحوي، وشعوره بالذنب على شيء لم يقترفه. يعرف هذه الحقيقة، لكنه لم يثق بها، وأراد التخلص مما بات يقلقه حولنا. فلا تظلمنا، تلاحقه بظنونك إلى ما بعد موته».

أحس بالحسرة تجاه حسان، نعم حتى إلى ما بعد الموت. لم يفهم أن تَبْلُغ التضحيةُ بالنفس هذا المبلغ؛ الرضا بالموت على منصة الشنق، لا يمكن أن يحدث إلا بفعل الحب الأعمى، نقم عليه. لم يستطع التخلي عن أسامة إلا بالموت.

«كيف احتملت موته؟».

«لابد لأحدنا أن يموت. وكان أقوى مني، كان ينبغي ألا أقبل، لكنني تخاذلت أمام الحياة».

«ليتك لا تنساه».

«سأحمل اسمه إلى يوم مماتي».

لم يعد يرغب في قول شيء. هل هذا ما حدث فعلاً؟ هل كانت علاقة غامضة، لم يدر كلاهما

كنهها، وربما كانت تضحية حسان غامضة حتى على أسامة؟ لم يعد يريد إثارة أية شكوك أخرى، حسان والشيخ كريم استشهدا. وأسامة سيطلق سراحه، بانتظاره مهمة صعبة، قد تكون مميتة.

وكي يغلق النقاش بينهما قال له:

«لا أتصور أنْ تبلغ التضحية طلب الموت من أجل أحد، إلا إذا كان الحب، ما أنا متأكد منه، أنني مستعد كي أموت فداء لأولادي، أو لزوجتي، على ألا يصيبهم مكروه».

«تقول هذا لأنك لم تؤمن بفكرة. لقد عرفت شباناً يجاهدون لا طمعاً بالجنة، ولا بالحور العين، بل لأنهم يرفضون الظلم، ويعتقدون أن أسمى ما في الحياة هو الموت لتحقيق عدالة الله على الارض».

لم يستوعب ما كان يسمعه، وهو يتبادل الأخذ والرد مع أسامة، ارتجت عليه عدالة الله، افتقدها وفقد معها توازنه، ربما لأن الرقم ٧٧ الذي ظنه اختفى، لاح على مقربة منهما، لم ينطو في العدم، رجع ليحميه من اضطرابات النفس، وخورها. ويحمل عنه يأسه، يأتي في اللحظة المناسبة لينقذه من لوثات بصيرته.

تخوف من أمر واحد، إن لم يكن عقله تشوه، فقد تضرر، تحت تأثيره لا تأثير رقم لا تهمه هذه الأمور. أما هو الذي تعنيه، فقد عاد عليه بالفجيعة، فلم يعد الإيمان مقنعاً ولا قادراً على إرسال المؤمن إلى الطمأنينة، جميعهم كانوا يعرفون إذا لم يذهبوا إلى العدم، فإلى المجهول.

لا، لن يقتنع، البشر يجهلون دوافعهم، وقد يموتون وهم لا يعرفون، ما إذا كانت خياراتهم خطأ أم صواباً، خياراتهم صنيعة المصادفة، ويجهلون إن كان موتهم على حق، ما الصواب أو الصحيح في عالم أعمى وبلا عقل، لا هدف ولا غاية له؟ ومهما كانت الحقيقة، فهذا العالم لا يفرز غير القتل، ولو كان قتل النفس. وما التضحية إلا هوس أرعن بالموت، وسواء كانت ملتبسة، أو لم تكن، فليست إلا انتحالاً لنهاية قاتلة.

الحقيقة لن يعرفها، وسوف تعذبه وحده.

الفصل الثالث عشر

حازم

أن يبلغ شاب في سورية الثامنة عشرة من العمر، ليس بالحدث السعيد، إنه الموعد مع الوعي، ومواجهة الحقائق القاسية. الأطفال منذ يدخلون المدرسة يدخل الخوف إلى قلوبهم، ويكبر مع تدرجهم في السن. مع الوعي يبدأ الاختيار. حازم بلغ سن الرشد، هناك حقيقة قاسية إضافية عليه أن يعرفها، ولم أكن راغباً في قولها له.

قدم حازم فحص البكالوريا آملاً الانتساب إلى الجامعة، كلية الحقوق، طامحاً إلى أن يكون قاضياً، وهو أمر لم أشجعه عليه. كانت كلية الحقوق بالذات غير مرغوبة من الشبان، يطلقون عليها مأوى العجزة. ثم ما فائدة دراسة الحقوق في بلد لا حقوق للناس فيه، سوى للقلة المختارة؟

أنا الذي مارست القضاء، أقول لم تعد مهنة جديرة بالتطلع إليها. وإن خطر لي أن ضياع الحقوق نهج لن يبقى سارياً، فسينجلي يوماً ما، ولا أدري إن كان في حياتي. وإذا كان لحازم اختيار القضاء، فلا يشترط أن يكون في سورية. حازم رفض، سيبقى في بلده. قلت له سورية كانت قدري. أما أنت فاختر قدرك، لو كنت في سنك، لكان بلدي حيث العدالة تأخذ مجراها، ما نفع القضاء والقضاة عندما لا سيادة للقانون؟ في الحقيقة، لم أنصحه بما لا أرضاه لنفسي، إلا خوفاً عليه.

لم أكن مخطئاً، لقد تتالت أزمنة، تراوحت في قسوتها، بين الشديد والأشد. سورية سجن كبير، الناس مستهدفون بالاعتقال، ومهددون في عيشهم ورزقهم ولقمتهم. جاء زمن، كانوا من شدة خوفهم لا يرتادون المساجد، ولا يصلّون علناً، وإذا صاموا فعلى وجل. سيطرت المخابرات على الدين وتفسيره، وأصبح للدولة مشايخها، يحثون الناس في خطبهم أيام الجمعة على طاعة أولي الأمر. حتى أصبح هناك دين معزز بالآيات والفتاوى، هو دين الخضوع.

لم تُنسني الأيام ما عزمت على قوله لحازم، حان وقته. حمل ثقيل، أردت إنزاله عن كاهلي، كلما خطر لي، أحسست بغصة، ومع هذا لابد من مفاتحته بالحقيقة التي أخفيتها عنه. قد يخفف جمال الصباح من ثقل ما سأبوح به. وإن كنت أحسست بشيء من الطرافة القاسية عديمة الرحمة، هذا الموقف لا يمكن أن يحدث إلا في مشهد ميلودرامي من فيلم سينمائي، لكنه كان حقيقياً، أنا وحازم أبطاله، وفجيعتنا لا تمثيل فيها.

كان لديّ اليقين أنه يعرف شيئاً عنها، تناهى إليه منذ زمن بعيد، وكان طفلاً، خلال زياراتنا المتباعدة إلى حماه. في ذلك الوقت نفيت الأمر، لكنها تركت أثراً غامضاً فيه، انعكس على تصرفاته بنزق وشرود. ضبطته أكثر من مرة، صافناً فيّ، يراوغ وسواساً يدور في داخله، يحاول أن يستجليه في ملامحي.

ولقد لازمني التردد زمناً، إلى أن قررت مصارحته. وكان في الأيام الأولى من حزيران، نسيمات صباحية تخفف من حر الصيف. جالسين على الشرفة، نطل على أحواض الأزهار والورود والأشجار في حديقة جيراننا، السكون من حولنا، لا يقطعه سوى اهتزاز أغصان الشجر وحفيف أوراقها الخضراء. كان تفتُّح الأزهار والورود، يوحي بتجدد الحياة. إذا كنت سأرحل عن هذا المكان، ففي وجود حازم استمرار للحياة فيه. لم أكن اتنبأ بموتي، وإنما لا حال يدوم.

أطلعته على ما حدث في حي الكيلانية، صباح يوم من أيام شهر شباط، قبل ثمانية عشر عاماً. ارتسم الذهول على ملامحه، خلال لحظات أصبحتُ عمَّه لا أباه، وجم لدقائق تحت تأثير أن جده وأمه وأخوته لقوا مصرعهم في حماه. ثمة ما تصدع في تصوراته، وكان عاجزاً

عن استدراكه. فتح فمه يريد أن يسألني، وكنت عاجزاً مثله. عندئذ جاءت زوجتي بألبوم الصور، وكنت قد خبأته في مكان محكم لا تقع عليه الأنظار. ورأى لأول مرة، جده بلباسه الحموي، وأباه الطبيب بردائه الأبيض، وأمه بوجهها ذي التقاطيع الرقيقة، صبية في الرابعة والعشرين من عمرها، وإخوته أكرم وحنان وسهام، بملابس العيد ومراييل المدرسة. كبت دموعه، حتى خلته سينفجر، ويملأ الدنيا صراخاً، بينما كنت أنا الذي سأنفجر، الصرخة التي كبتّها، مزقت أحشائي.

احتضنتْ زوجتي حازم، فبكى على كتفها.

سألني، وكان لا يزال تحت تأثير الصدمة؛ مَنْ بوسعه أن يكون متأكداً من أنهم ماتوا فعلاً، ما الدليل على ذلك؟ قلت له، من أنقذك، انتشلك من بين الأموات.

حاولت أن أهوّن عليه، وأترك له أملاً ضئيلاً، ولو تلميحاً:

«لكننا لم نعرف مصير أبيك».

أشد ما آلمني، أن الذي كان ابني أصبح يتيماً، بلا أب ولا أم.

«ليتني قتلت معهم» قال.

فهمت ما يقصده، إذ خالجني هذا الشعور وقتها، تمنيت لو شاركتهم المصير. لكن كان لبقائي جدوى. أجبته:

«القدر اختار أن تعيش».

نهرته، ليدرك أن الحياة ثمينة، لا ينبغي التفريط بها.

وكما قال لي، عرف بطرف مما حدث من أقربائنا أقرانه في السن، وكان صغيراً، اعتقد أنه حظي بقصة تشبه ما كان يراه في أفلام الكرتون، عن أولاد فقدوا آباءهم، ثم وجدوهم. فتخيل في صباه، أنه سيرى أباه يفتح الباب ويدخل إلى غرفة نومه، فسهر مراراً في انتظاره، لكنه لم يره إلا

في أحلامه. عندما أراد التأكد مما سمعه، كان قد كبر، فظن أنها من تهاويم الطفولة. تهيب من مفاتحتي، خشي أن تكون الحقيقة.

حاولت جاهداً ألا أحمّله عبء هذه المأساة لئلا يتنكب عناء أحزان لا قدرة له عليها، وقد يفكر في ثأر لا يمكنه الوفاء به، لو اشتبهوا به لقضوا عليه. القتلة مازالوا أحياء، يمسكون بأيديهم زمام السلطة، وباستطاعتهم حرمانه من الحرية والحياة. وربما كانت مخاوفي أنا وزوجتي مبالغاً فيها من فرط خشيتنا عليه، لكنها أبعدت عنه أفكاراً سوداء تراود المراهقين.

ما جعل هذه القصة لا تصل إلى نهاية محددة، وتضع حداً فاصلاً بين ما مضى، وما هو آت، أن الأموات لم يُعترف بموتهم. اعتبروا مفقودين. ولقد نازعتني نفسي مراراً طوال السنين الماضية، أن أخي ربما ما يزال حياً. غير أن ما جعل هذا الافتراض عسيراً، ليس تشاؤماً لا مبرر له، ولا بعده عن اليقين، كان الطريق إليه مسدوداً، إذ ما زالت الأوضاع على حالها، لا يمكن مراجعة أحد بشأنه، ولا السؤال عنه، ولا شيء يثبت هذا أو ذاك. بما أنه لم يظهر حتى الآن، فالأغلب أنه لاقى حتفه.

لم يكتف بها صارحته به، سألني السؤال الذي حاولت تجنبه، لماذا قتلوا؟ قلت له، لم تسمح الظروف لي ولا لغيري بمعرفة السبب. ولم أفكر يوماً في التحري عنه. ما أعرفه أن الجيش لم يميز بين المقاتلين والأهالي، وأن الأوامر كانت جعل حماه عبرة للسوريين جميعاً.

وربما نازع الأمل ابن أخي أيضاً، مثلما نازعني، أن أباه ما زال حياً. لم أشأ أن أنقل إليه ما يراودني من حين لآخر.

استمر إيقافي عن العمل في المحاكم، ولم أسرح من سلك القضاء بموجب توصية من المهندس. تابعت العمل معه على قضايا كان يكلفني بها من حين لآخر، حتى اعتقدت أن مهمتي ليست إلا تبويب ملفات أنواع الفساد. ومع هذا تمنيت ألا يذهب جهدي عبثاً، في يوم ما، قد يستعينون بها قمت به، فأكون بذلك قدمت خدمة لبلدي. لكن مع تقدمي في العمل، لم يخالجني الشك في استحالة فتح هذه الملفات، سيعود بالخراب على بلد بات قائماً على الفساد.

وكما توقعت، ظلت الملفات حبيسة الأدراج. مؤخراً حسب تقديري، استعملت لأغراض

داخلية. كان الرئيس يُعد ابنه الثاني ليحل محله، بعد وفاة ابنه الأكبر في حادث سيارة، ولئلا يعرقل أحد ما عزم عليه، سُلطت الملفات على هؤلاء الذين قد يفكرون بمعارضة فكرة التوريث، لاسيما أنه يورثه دولة.

عمل الرئيس حسابه للمستقبل، وأزاح الأشخاص الذين قد يشكّلون عقبة في حال غيابه، ومع هذا كانت وفاته مفاجأة للناس، لم يتوقعوها، كان مريضاً في الخفاء، ومعتماً عليه، أمراض سرية، لا يجوز الاطلاع عليها لضرورات الأمن القومي... تحاوطوها بالكتمان وفضحها الموت.

١

مات الرئيس بعد صراع طويل مع المرض. فوجئ المهندس بنهايته على الفراش. تصور أنه سيقاوم الموت لا أقل من عشر سنوات أخرى، واعتقد أن الخلود سيهبه طاقة على قهر أمراض يدعيها، إن لم يكن يبالغ بها؛ وهن الذاكرة ومرض السكر وسرطان الدم، خدع بها الأميركان لحثهم على التعجيل بإيجاد حلول تفاوضية مع الإسرائيليين لإنهاء احتلالهم لمرتفعات الجولان. حتى بعدما نُقل الرئيس إلى العناية المشددة، ظن المهندس أنه مصاب بانفلونزا كانت تعاوده. كان واثقاً أنه كالمعتاد سيخرج من المستشفى على قدميه، ويرجع إلى القصر بعد استراحة بضعة أيام، ثم يخطط لشن معركة في مكان ما داخل البلد أو خارجها، كان الأعداء جاهزين.

حسب توجيهات الرئيس، استغل المهندس هذه الأمراض لتحذير القريبين والبعيدين من عدم عرقلة نقل بعض الملفات السياسية الحساسة إلى ابنه، تمهيداً لتسليمه مقاليد السلطة تدريجياً. ولم يكن بالأمر السهل إزاحة رجاله الأقوياء في المخابرات والجيش والدولة.

في ذلك الوقت، حاول سبر غور الرئيس، ظن أن هذا الإجراء توطئة لمتغيرات عميقة في الدولة، وهذا ما استدعى تساؤلاته، ماذا عن مصيرهم، صحيح أنهم نهبوا الدولة، لكنهم كانوا رجاله الأوفياء، رافقوه عدة عقود في مسيرته، سواء في طريقه إلى السلطة، أو في الدفاع عنها؟ ما لاحظه من خلال متابعاته، أن سبب إبعادهم عن مناصبهم، كان اعتقادهم عدم قدرة الابن الشاب على الحلول محل الأب، وأنهم الأحرص على متابعة نهجه. كل هذا لم يفت الرئيس.

مدركاً أنهم على خطاه، طالما كان حياً. قال للمهندس إنه حريص على حياتهم، لئلا تختتم على نحو سيئ.

اعتقد المهندس أن عملية توريث ابنه لن يقيض لها النجاح، إدارة دولة تحتاج إلى خبرات هائلة، لا تأتي بالتعلم، بل بالتجارب القاسية. الموت أفشل محاولاته مع ابنه الأكبر، وما محاولته مع ابنه الثاني إلا تحدياً للقدر. أما ما أشيع، فهو أن الرئيس يريد تجنيب سورية صراعاً دامياً على السلطة، ذلك أدعى للاستقرار، وكان في إزالة العقبات أمام ابنه، وتدريبه على الحكم، سعي لنقل آمن للسلطة.

لم يستبعد المهندس أن يحل دوره قريباً. لكن ما دام الرئيس بحاجة إليه، فلن يبعده عن مناصبه السرية ... لم يدر أن الرئيس كان يدلف إلى الموت بخطوات سريعة.

لم يخدع الاميركان، ولا الإسرائيليين، كان قد خدعه.

انهار المهندس إثر الخبر، وغاب عن الوعي لدقائق، وفي الطريق الى المستشفى، بمجرد أن صحا، تجاذبته الأفكار السوداء، موت الرئيس كان انهياراً لمشروع الخلود؛ الخالد خذله وتخلى عن الحياة. أراده أن يتمتع بفكرة بقائه إلى الأبد، لكنه لم يصمد.... وهكذا من فكرة لأخرى. لو استمر على هذا المنوال، فسوف يلحق به. نهض وقال، عارض بسيط. فعادت به سيارة الإسعاف من حيث جاءت به.

لم يصعب عليه قراءة وجوه الناس في الشوارع، كانوا مأخوذين، عيونهم تحدق في الفراغ، ملامحهم واجفة، وأيضاً شامتين؛ كل نفس ذائقة الموت... وخائفين، الجيش سيحتل العاصمة، عند أقل بادرة شغب، الجيش سيفتح النار في جميع الاتجاهات انتقاماً لموت الرئيس. الناس يتلفتون بحذر، كأن هناك من يلاحقهم، يهرعون الى بيوتهم، ليرصدوا الحدث على شاشة التلفزيون، كان المهندس الأكثر تماسكاً رغم الحزن من حوله وهيستريا البكاء الزائفة. عصر على وشك الزوال سيدفن مع صاحبه.

غير أن الذي ووري في الثرى، لم يترك أمراً للمصادفة، سيدير سورية من تحت التراب: مسرحية

التوريث ستمضي على أحس وجه، وفقاً لما أعده من ترتيبات رسمية علنية، حُضّرت مسبقاً؛ تعديل الدستور، انتخاب ابنه رئيساً، يمين القسم ... لم تكن إلا إجراءات شكلية.

الرئيس كان أبعد نظراً مما تهيأ له، فكرة التوريث تبلورت سراً طوال سنوات في عقله الجبار، ولم يشارك أحداً بها، الفكرة ليست غريبة عن الأبد، سيبقى في مسار الخلود.

لم يفته تبيّن خطئه، ربط مشروعه بشخص فإن، بينما كان الرئيس أكثر واقعية منه، ربط الخلود بسلسلة من الورثة، هم الأمل في سلطة، لا تفنى بفنائهم، هذا هو الخلود؛ تأبيد الوراثة، بقيام السلالة الأسدية، تلك التي ستحكم سورية طوال العقود المقبلة، في سعيها إلى الأبد.

بدت الفكرة الواقعية أكثر خيالية من فكرته؛ الرئيس الابن غير قادر عليها.

كان الأب الراحل قد أعطى ابنه ما جمع بينهما من أسرار. عندما قابل الرئيس الابن، أشار مبتسماً إلى الصورة الضخمة للراحل، وما حولها من صور، تتوازع جداراً كان متحفاً للصور.

لن ننساك، إنك أحد الأشخاص الذين أدركوا مكانة أبي العظيمة.

قال له إنه لم يفعل إلا القليل. غير أن هذا القليل، كان كثيراً، فالابن عاصر وإن عن بعد، حملة الصور والتماثيل والتبجيل، ترى هل سيحفظ له حقوق ابتكار الفكرة؟ هذه المرة سيكون على حذر، إذا طلب منه الرئيس الابن تصنيع معجزة أخرى، فسوف يعِده، لكنه سيعمل للنظام الذي اخترعه الأب، النظام أطول عمراً من البشر، السلالة الأسدية قد تخذله. وكما لاحظ، الرئيس الابن، لم يكن يطمح للخلود. طموحه يتلخص في البقاء رئيساً، لدورة واحدة، ريثما يقتلعهم أو يقتلعونه، وإن ألح على طموحاته المؤجلة، الإصلاح، القضاء على الفساد، الحريات.... والكثير من هذا الهراء.

ولم يكن انطباعه عنه بالمستوى المطلوب، كان الابن لطيفاً ولبقاً، يتكلم كثيراً ، ويعد كثيراً، ويهدد كثيراً، ويتوعد كثيراً، بينما الأب لا يفيض بالكلام إلا حول التاريخ، يلغو به ساعات وساعات، يُتعب محاوره، ويضيّع الوقت، ولو كان وقفاً لإطلاق النار.

كان أحد الذين استثنوا من الإقالة. لكن بعد ثلاثة أشهر، تلقى خبر إحالته الى التقاعد، وإنهاء مناصبه السرية، وإبقائه تحت تصرف الرئاسة، بلا عمل، مع حفظ جميع امتيازاته، من سيارات ومرافقة... وتعهد بعدم تعرضه للمساءلة عما قام به طوال عمله في القصر الجمهوري.

نقم على الابن، بيد أن نقمته على الأب كانت أكبر. اعتبره من جملة المنتفعين غير المرغوب فيهم، الذين ينبغي تنظيف جهاز الدولة منهم. والأسوأ، موعد التخلص منه، لم يكن بشكل مبكر، في القائمة الأولى. تركه لما بعد، شملته القائمة الأخيرة، كتحصيل حاصل، كان من غير المؤثرين، الذين لا يُخشى منهم. أهميته في الدرك الأدنى من المشتبه بهم.

هذا بدلاً من أن يمنحه عدة أوسمة سرية تليق بإنجازاته السرية.

بلغ به الغيظ مما طاله من غبن، أنه أراد تقديم كشف حساب للرئيس الابن عن جهوده التي بذلها لأبيه في وقت صعب، بعد مجزرة حماه، حين كان لا يليق بأبيه إلا لقب المجرم السفاح، سفاك الدماء... كانت الأدلة صاعقة. الجيش دمر حماه وقتل الآلاف بأوامر منه. خلال سنوات قليلة، اعتبر الرئيس المجرم، عظيماً، وخالداً إلى الأبد. هذا كله مدين لي.

لم يتصور أن يبلغ اللؤم بالراحل هذا الحد من نكران الجميل. في السنوات الأخيرة كان لصيقاً به، تعرف إليه عن قرب، كان يقدر عمل من حوله، ويجزيهم ثمنه هبات ومناصب، خاصة أمثاله رجال المهمات السرية. أهذا جزاؤه؟ أما إذا كان لم يخلد إلى الأبد، فلأنه لم يستحق منحة الخلود.

كان أكثر ما أثار قلقه، أن مناصبه السرية ستذهب إلى غيره، حقوق الفكرة سرقت منه، سوف ينتحلون أساليبه، وتهدر حقوقه. على عكس ما توقع، أمر الرئيس الابن بعدم تعميم صوره. لم يأخذها المهندس على أنها لفتة حضارية، تصور أنه سيستبدلها بفكرة أخرى، لا تقل عنها، أكثر عصرية، وبالغة الحداثة. أخطأ، هذا الشعب اعتاد الإلهامات السماوية والرسل والأنبياء، لا يرضى بأقل منها، ينظر الى الرئاسة على أنها موطن الآلهة، هل بمقدور الابن اختراع إله آخر؟

في اليوم الذي غادر فيه القصر صادف العم صبحي، كان مثله قد تبلغ قرار الرئاسة بإنهاء

خدماته، وفي طريقه إلى الخروج من القصر. كانت الفرصة مناسبة ليتبادل معه الشكوى من هذه المعاملة. بالعكس، العم صبحي، كان سعيداً، تقاعده ولو جاء متأخراً جداً، أعطاه حرية طالما نشدها، لن يكون تحت طائلة استدعائه الى القصر في أية ساعة في الليل أو النهار.

اتسع الوقت للمهندس كي يقول له بعضاً مما جال في رأسه منذ تبلغ القرار. هوّن عليه العم صبحي، قال له، إقصاؤك لا علاقة له بثقة الرئيس بك، ما حدث يختلف عما دار في خلدك، وأهم منه بكثير، لقد عرفت أكثر من رئيس، وما تميز به الراحل، كان بوسعك معرفته وحدك. اقترب منه وهمس:

«ما قدمته له، هل تظنه يتخلى عنه، ولو لابنه؟».

لم يكن العم صبحي كما ظنه لا يعرف شيئاً، كان مطلعاً على الكثير من الأمور، ودقيق الملاحظة. فاجأه:

«أراد الرئيس الراحل الاحتفاظ بالخلود والأبد لنفسه، وألا ينازعهما فيهما أحد. لن يجيّرهما لأحد غيره. المسألة لديه هي التاريخ. حجز مكانه فيه على هذه الصورة».

وإذ رآه مذهولاً من روعة الفكرة، تابع العم صبحي:

«من هذه الناحية، على الابن أن يشق طريقه وحده في التاريخ».

هذا ما غاب عن ذهنه، انغماسه في الشكوى أعماه عن أهم ما يمتاز به الرئيس: بعد النظر. أحياناً كان الرئيس من فرط ما كان بعيد النظر، لا يرى الواقع من حوله، البشر الذين يقتلون، لا يرى سوى ذلك الواقع البعيد جداً الذي لا تطاله الأنظار. ولقد رأى بعيداً، ولهذا أقاله من مناصبه وأرسله إلى التقاعد.

أنقذه العم صبحي من وساوسه.

٢

انتظرت لميس وضوح توجهات العهد الجديد؛ تنصيبُ الرئيس الابن صاحبته وعود بالإصلاح والتغيير ومكافحة الفساد وإطلاق الحريات... فخشيت على مصير تجاراتها. المهندس طمأنها، ليس هناك ما يستوجب مخاوفها، الرئيس وعد بتقديم تسهيلات لرجال الأعمال تساعدهم على توسيع أعمالهم، وتمنح المستثمرين الأمان لمشاريعهم. أما التغيير الآخذ بالتسارع، فهو تعميم التوريث، أصبح النهج المعمول به لاستمرار الدولة في جميع مستوياتها، السياسية والاقتصادية والفنية. المسؤولون والضباط اقتدوا بالراحل العظيم، أعدوا أولادهم لوراثتهم وهم على قيد الحياة، أفضليات التجارة والتهريب والتعهدات والمشاريع الجديدة حجزت لهم، فورث الرئيس الابن ولاء الأبناء، بلا قيود أو شروط.

عندما شملته التغييرات في القصر الجمهوري صارحته:

هل عليَّ البحث عن قناة أخرى؟

هذا السؤال بات يعنيهما معاً. خرج من القصر وفي رأسه فكرة صدمته. كان بحاجة إلى البوح بها لمن لا يؤتمن عليها سواها؛ حول الرئيس الخالد. سردها على لميس بواقعية، لا أثر فيها لخرافات الخلود والأبد. واعترف بغرور، بأنه هو الذي أنعم عليه بها، فحرضته ليستعيد مكانته، تسويق الفكرة لدى الرئيس الابن؛ السماء ترحب به مثلما رحبت بأبيه. أجابها، لكنها لا تتسع لاثنين.

السؤال الذي أرهقه: ما الذي سيبتدعه الأفاقون الجدد؟

لم يجذب سؤاله اهتمام لميس، متاعبه جزء من متاعبها، لماذا لا يفكر فيها؟ تحول المهندس إلى متقاعد ثرثار وشكاء، صحيح أنه مازال ذا شأن كبير. لكن في ما بعد، ما حاله؟ ربما حاسبوه. كان رأيها أن يدع السماء في حالها، ويلتفت إلى الأرض مادامت تتسع للجميع.

معنويات المهندس الهابطة، أودت بلميس الى التفكير فيه، بات مشكلتها. بدا مشوشاً ومنكوباً، عالمه تهاوى. تأثرت من أجله، عانت شيئاً شبيهاً بهذه الحالة، زواجها انهار، ولم يمض عليه

أربع سنوات، أصيبت بارتجاج نفسي، مصطلح لم يجد الطبيب أفضل منه للتعبير عن حالتها، أعراضه الثرثرة وتهويل أي حدث، ولو كان تافهاً. مصيبتها لم يستوعبها عقلها. تعاطف معها المهندس، ولم يوفرها من سخرياته، إلى أن تماثلت للشفاء، وأصبحت مقاومة للصدمات.

لم تبرأ تماماً، ما أصاب زوجها، كان كارثتها. تعرض لحادث إرهابي، ليته كان مميتاً. فقدته على أثره مع أنه لم يُقتل، خسرت الرجل الذي كانه زوجها بعدما رزقت منه بصبي.

ذهب الضابط عصام صباحاً إلى الفرع، وعاد مساء من مهمته الأخيرة في ريف دمشق إلى المستشفى العسكري على محفة، بعد أن طارد ثلاثة مشبوهين سلفيين، يركبون سيارة بيك آب سوزوكي، نجحوا في الاختباء في بيت يقع على أطراف قرية خان الشيح. حاصرهم وسد عليهم المنافذ، تناوش معهم بالأسلحة الخفيفة، وعندما حاول اقتحام معقلهم، خرج أحدهم وفجر نفسه، فكان أحد المصابين.

أقعدته الحادثة شهرين في المستشفى، أجرى سلسلة من العمليات، عالج الجراحون الأعضاء المصابة من جسده، يديه وقدميه، والتهتك في الفص الأيمن من رئته، والفتق في معدته، والكسر في كتفه، أعادوا تشغيلها ليس بالكفاءة المعتادة، فقط بما يساعده على المشي ببطء مع عرج ظاهر، وتناول الطعام بتؤدة مع عسر في الهضم، والتنفس غير العميق مع حشرجة في الصوت. ولم يفلحوا مع عضوه التناسلي، فقد اقتلع من جذوره. ركزت لميس جهدها على معالجته، مع محاولة شفاء نفسها من الارتجاج الذي أعقب صدمتها به، والإرهاق من فرط عنايتها به، بينما كان يتقلب هانئاً بين الموت والحياة، ملفوفاً بالشاش لاسيما نصفه الأسفل. كان في شفائه شفاؤها. ولقد نصحها الطبيب؛ لا تربطي متاعبك النفسية به، أنت ستتعافين، أما هو فشفاؤه التام بعلم الغيب، أي لن يشفى بالكامل، نصفه الأسفل، كان نكبة لا علاج لها.

أرسل إلى مستشفى في باريس، هناك اخترعوا له ثقباً يبول منه، أما العضو، فلا أمل، لم يسمحوا له بعضو فرنسي، ادعت لميس أنه لو كان ضابطاً فرنسياً لما بخلوا عليه به، وإن اقترحوا عضواً بلاستيكياً دائم الانتصاب، يُلبس ويخلع عند الحاجة، وهذا ما رفضه زوجها الضابط في وحدة

المداهمات الخطرة، كان البلاستيك الصناعي لا يليق بما كانت عليه مؤهلاته الطبيعية.

كان الضابط عصام يتأهب لنيل ترقية على شجاعته في مكافحة الإرهاب، باتت بعد مأثرته أكثر من مضمونة، المخابرات لا تبخل على ضباطها الأبطال بالأوسمة والمكافآت. لكن خسارته الجسدية، كانت الأعظم، جسده المعطوب لا يسمح بالمجازفات التي اعتاد عليها. المانع الأقوى كان كرامته، حالت بينه وبين العودة إلى العمل، ولو كان إلى قسم الإمداد والتموين. قصة المنطقة الفارغة من جسده والثقب، انتشرت بين زملائه الضباط، ما أشعره بالخزي على الرغم من جرأته الغابرة.

شاركت لميس زوجها تعاسته، صدمها أن زوجها الطويل العريض، ذا القوام الرياضي المشوق، والوسيم إلى حد ما، والمحسودة عليه من زوجات معارفها، مقارنة بزملائه الضباط الجلفين، تماثل أخيراً واقفاً على قدميه، كتلة مشوهة متحركة، تمفصل اللحم مع العظم، وآخذة بالتآكل، بالكاد يشبه ما كانه قبل الحادثة المشؤومة، أشبه بشبح انتابه رعب مقيم، يتلطى خائفاً منها في الظلام. كل يوم، تمضي وقتاً في البحث عنه في أرجاء البيت والحديقة، وغالباً ما تظفر به مختبئاً خلف خميلة، أو متسلقاً شجرة...

ساعد المهندس على إرساله للمعالجة في فرنسا ثانية، برفقة زوجته. في باريس، بعدما تأكدوا من شفائه جسدياً، أحالوه إلى طبيب نفسي. إحساسه الفادح بالنقصان، شُخّص على أنه جنسي، كأنه كان بحاجة إلى تشخيص: للأسف، ما يتميز به عنكِ، أصبح من دونه!! والسبب أنتِ. زوجك يخشى أن تطالبيه، بما تطلبه المرأة من رجلها، أو حسب معتقداتكم الشرقية، ما يتبرع به الزوج لزوجته لتهدئة أعصابها. دفعه إلى التواري عن أنظارك؛ حاجتك إليه، وتقاعسه عنك، كانا مرضه.

هل كان زوجها من هذا النوع؟ طبعاً. أما حاجتها إليه فلا تثقل عليها، فهي تدبر أمورها. المشكلة هل سيعيش رجلها مختبئاً منها، ومرعوباً على الدوام؟

كي تستوعب محنة المصاب، أعاد الطبيب إلى ذاكرتها عقدة الخصاء التي عانت منها عندما

شاهدت أخاها يبول في المرحاض. ومع أنها لم تره، إذ لم يكن لديها أخ حسبما تزعم أحياناً، ظنت تحت تأكيد الطبيب، أنها مرت بهذه العقدة، ربما وقع بصرها على ولد في الحارة يبول على الجدار.

كان زوجها يعاني من هذه العقدة، مع أنه ليس امرأة، لمجرد تذكره العضو الذي فقده. عقدة الخصاء تربعت في رأسه، وتغلغلت في أعضائه، وشلته عن التفكير والعمل. كان ما يقوله الطبيب صحيحاً، حتى تلك الأعمال الصغيرة، كاستعمال فرشاة الأسنان، أو حلاقة الذقن... طاله كسل، استحكم به، فاستنكف عنها.

الأدهى، كما لاحظ الطبيب، ما طرأ على جسده من تحولات مضادة للرجولة، تهدل ثدييه، تساقط شعر صدره، اختفاء شعر ذقنه. تميز زوجها على المرآة وجهه الأجرودي مترافقاً مع نعومة صوته، فتدهورت حالته. طلب منها الطبيب، إبعاد نظره عن المرآة.

غير أن التصورات شطحت بزوجها بعيداً عن المرآة. التصور الأول: أنه مجبر على أن يكون امرأة لا رجلاً. الثاني: أقرب إلى امرأة من نوع خاص، ليس لها ما للنساء، أي من دون استكمال عناصر البنية التشريحية الأنثوية، الأثداء وحدها لا تكفي، لابد من شيء آخر، هل يحصل؟!. الثالث: أو لا رجل ولا امرأة، فالثقب وحيد ولغرض أوحد.

الطبيب لم يكترث لمخاوف تصوراته، الخصاء يستتبع تحولات كهذه، الهرمونات الأنثوية تحتل مواقع لم تكن لها. فهو لن يصبح امرأة، وإذا كان قد اعتقد هذا فينبغي انتزاع الفكرة من رأسه لئلا يحبط نفسه والآخرين. نصحها لاستعادة زوجها صحته الجنسية ولو شكلياً، بتشجيعه على ممارسة أساليب جنسية نوعية تؤثر في الشهية الجنسية، يتخفى عليها الرجال وينكرونها، ويدّعون أنهم يشمئزون من ممارستها. لكن إذا كان زوجها يحبها فلن يستحي من إتيانها، وإذا كانت تحبه، فواجبها تحريضه عليها. وسوف يكون مردودها الجنسي عليها فعالاً، ومردودها النفسي على زوجها إيجابياً، لاعتمادها عليه كلية، وينعكس تأثيرها فيه بنشاط لا معهود، يُشعره أنه استعاد السيطرة عليها، بامتلاك جسدها، وإن ليس بالوسيلة الشائعة المعتادة. لن يستعير أداة خارجية، سيستعمل أعضاءه المحلية، أصابعه وأجزاء من وجهه. وهي معروفة لدى

العشاق الذين يبغون إبقاء جذوة الحب مضطرمة في الخلوات الملتهبة، كالمداعبة بالشفتين، واللحس باللسان، والعضعضة بالأسنان؛ تنويعات، تعوض عن مباطحات يذهب طول استعمالها بالحب إلى التعب والملل.

ستظفرين بشهر عسل جديد. أكد الطبيب الفرنسي، وإذ لاحظها مترددة، لم يبخل عليها ببعض الحوافز، فصور لها بكل تجرد وبشكل عملي، مستعيناً بالصور الفوتوغرافية، وقع استعمالاتها المثيرة على الأجزاء الحساسة من جسد المرأة.

البيان العملي لم يكن على مستوى وسائل الإيضاح، فبعدما احتالت على زوجها وأقنعته مثلما أقنعها الطبيب، وأكثر قليلاً، وكان القليل وعداً باستعادة قواه، والأكثر قليلاً، عودة المضاجعة ليس إلى سابق عهدها، لكن تأدية الغرض منها..

النتيجة كانت مفحمة ومفجعة، عبر عنها زوجها بأسى بالغ وهو يهذي في كوابيسه، هل انحط تفوقه في العراك الجنسي إلى تفاهة دس يده، أو رأسه بين فخذي زوجته؟ ادعى أن فحولته أهينت، مع أنها تلاشت بالانفجار.

ارتد انكساره عليه بانعدام الرغبة، مجرد اقترابه منها يعني أن ما يستجديه منها، أو تُكرمه به، لا تبعث نتائجه سوى الحسرة في داخله، والإذلال لافتقاره إلى ما يستحيل من دونه الاستئثار بنشوتها والتحكم برعشتها، ولو حاولت خداعه والتظاهر بالرضا والاكتفاء الجنسي. ولقد جربت أن تعكس الأدوار وتتولى الجانب الإيجابي من العملية، وكان في اضطجاعه، باستلقائه على ظهره متخشباً، لا حول له ولا قوة، إيلام له، واستخفاف به، بينما يقع على عاتقها استنهاض شيء ما من تلامسات واحتكاكات، دارت في عتمة أيام مضت، عسى أن تحرك الكهرباء الساكنة فيه، شرارة تسري في مسامات يديه وعانته التي قاومت تساقط الشعر بضراوة، لكن بأحاسيس بليدة.

الشرارة اندلعت، لكنها أججت افتقاده البروز الذي زال، والانتصاب الذي كان، ما ضاعف الأزمة له ولها.

كان في الاتفاق بينهما على إيقاف هذه المحاولات زعمٌ بتأجيلها مؤقتاً إلى فرصة أفضل، كانت إلى أجل غير مسمى، ولم تكن إلا إعفاء من إخفاقات لا يمحوها الزمن، ولا يصلحها العلم، ومع أن الطب كان في تقدم مستمر، لكنه كان عاجزاً. كان الأمل تسويفاً غير مجد لرجاء ميت لا يحييه الإرجاء. الحقيقة النهائية والدامغة، انتهاء العهد بالرجولة، وهذا أصعب مما يمكن احتماله، أو الاعتراف به، فبقي الرجاء قائماً في الخيال إلى ما لا نهاية، مع أنه انتهى.

مع مرور الوقت، انغمس في كآبة أعراضها كانت تتفاقم وتتراجع طبقاً لآلية مجهولة، عللها الطبيب الفرنسي نفسه، في جلسة العلاج الوداعية، بأن النفس الإنسانية عالم مجهول، ولا غرابة، نفس المريض مجهولة أسوة بالنفوس كلها، فما بالك يا سيدتي، حالة زوجك، أضيفت إليها عقدة، قابلة لتوليد دزينة من العقد. النتيجة، لا يمكن التنبؤ بما قد يقدم عليه، ربما الانتحار.

خلافاً لتكهنات الطبيب حتى الجزافية منها، قادته مصيبته في دمشق إلى الله غير المجهول، المطلوب رقم واحد في عالم المخابرات السورية. كان الضابط المعطوب عندما لم يكن معطوباً، لا يعرف الله، ولا حتى بالإشارة، ويلاحق أعوانه المؤمنين في القرى والحقول والمساجد، ويتصيدهم على الحدود اللبنانية والعراقية. يربط أيديهم بالأسلاك الشائكة، يعذبهم قبل أن يقتلهم، أو يرميهم من طائرة الهيلوكوبتر وهم أحياء، عادت أشباحهم تطارده، الدم يسيل من معاصمهم، حفاة أو بالجرابات، عزلاً، صدورهم العارية، أحدث الرصاص فيها فجوات حمراء قانية.

اتصل الضابط المعقد برب العالمين، ليس على أنه الله المطلوب والمطارد، بل الله القادر على كل شيء. كان في التجائه إليه تكفير عما ارتكبه من أخطاء، اعترف بأنها كانت جرائم، فقد قتل أولاداً لم تتعدّ أعمارهم العاشرة، وفتيات محجبات، ونساء يخفين وجوههن وراء نقاب. الله لم يغفر له، رغم دفاعه عن نفسه، أنه في وقتها كان القتل قياماً بالواجب، فالنساء إرهابيات، والأولاد مشاريع إرهابيين، وجودهم أحياء يهدد وحدة الوطن. بدا بعدها من صمت الله، أنه أمهله إلى يوم القيامة، هذه مسائل تفصل فيها محكمة العدل الإلهي. فلجأ إلى رب المسيحيين. بعد أكثر من محاولة، أجمع الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والموارنة والإنجيليون، على أن

ما ارتكبه يشقّ على أي رب مسامحته عليه. أما السبب الحقيقي فهو، لماذا يتبرع ربنا بمنح المغفرة لقاتل مسلم؟ إذا كنا ندعي نقصاً لدينا في الخارجين على القانون، فلأننا نتكتم عليهم، فليتكفل المسلمون بمجرميهم ونتكفل نحن بمجرمينا.

فعاد إلى رب المسلمين، كان على دراية به أكثر، فتواصل من جديد مع المشايخ، وكان صبرهم قد نفد منه، وصارحوه بأنهم عندما كانوا يفتون ويفسرون كلام الله، تعدوا على صلاحياته، لا وساطة بين العبد وربه... لا حاجب ولا بواب بينك وبينه، اقصده مباشرة!! وابتدأت رحلته إليه، صلوات مناشدات أدعية ... أحياناً تتهيأ له وعود مبشرة بالصفح عنه، فترتفع آماله بالغفران، وأحياناً تغلق أبواب السماء في وجهه، فيضربه القنوط.

عندما اكتشفت لميس تدينه، كان قد بدأ يتدروش، لم تأبه بتحوله نحو الغيب، ليست سوى ألاعيب، لن تمر على الله الذي إذا أشفق عليه، وأعاد ترميمه بالكامل، سيعود زوجها إلى سيرته القتالية، ولن يوفر أتباع الله من القتل. تحت زعم لا يتغير؛ تنفيذ الأوامر. فذكرته بما ينفي مسؤوليته عن الدماء التي سفكها تحت الزعم نفسه:

يا حبيبي، هل نسيت؟ كنت تنفذ الأوامر.

حسب رأيها، وفرت عليه مخاطبة إله لا يسمع، وإذا تكلم فلا يسامح.

جادلها بأن الله أنقذه من الموت وابتلاه؛ ليراني أنا عبده، شاكراً أم ناكراً، أخضعني لتجربة هي امتحان لا يصبر عليه إلا من عرف عظمة الله وحكمته. رجائي ليس في هذه الدنيا، وما أفعله استدراك لحساب الآخرة. ثم أعلن التحاقه بالآخرة، وسألها اللحاق به. وكان أجبن من أن ينفّذ ما اعتزم عليه.

بعد انصرافه إلى هلوساته الدينية، ومشارفة نقاهاته الطويلة والمتلاحقة على الانقضاء، انهالت عليه أعطيات القيادة، عمل إداري رفيع، راتب ممتاز، تعويض إصابة، ووسام بطل. لم تخرجه من عزلته، كان قد أسلم زوجته أموره الأرضية.

لم يكن مأزقاً، كان بلاء مستديماً، في البيت زوج رعديد يخطر له كل يوم خاطر جنوني، لا بأس إذا كان روحانياً، سقفه السماوي؛ العذاب بنار جهنم!! المشكلة مع الأرضي، سقفه المنخفض، يراوح بين الاختباء في السقيفة أو المرحاض أو التمترس في الحمام، وأحياناً الصراخ طلباً للنجدة. لماذا؟ رجال ملتحون مزنرون بأحزمة ناسفة يطاردونه.

عطّل عليها أعمالها المالية، والأسوأ خلخل مخططاتها الغرامية، كانت تريد التفرغ لها قليلاً، على حساب البيت لا العمل. ففكرت بإرسال زوجها إلى مستشفى المجانين، وكادت أن تفعلها. لكن المهندس أوقف سعيها، لم يكن جنونها يقل عن جنون زوجها، لو أنها فعلتها، فسوف تخسر عطف القيادة... لن يتسامحوا معها، إذا كانوا يعالجونه على أنه يعاني من ضيق نفسي، فلأن الاعتراف بجنونه غير مسموح البتة.

يستحيل إيداع بطل في مستشفى المجانين، حتى لو كان مجنوناً.

٣

في أحد الأيام، دونما تحديد، فالأيام تشابكت وضاعت بعضها في تلافيف بعض، لم يدر عدنان أو الرقم ٧٧، فهو ليس بوارد التمييز بينهما، مع أنه أحدهما، ومثلها الفصول، إن كان في الصيف، أم في الشتاء. أفرج عن حسان حسب قيود السجن، بينما الذي أُطلق سراحه كان أسامة. لملم أغراضه القليلة، قميص وبنطال وحذاء، ورجاه قبول ساعته كتذكار، وكانت تشير إلى الأشهر والأيام إضافة إلى الوقت. عدنان فقد الإحساس بالدقائق والساعات، مثلما فقد الإحساس بمرور الفصول والسنين. لِمَ الارتباط بزمن لا يطرأ عليه تغيير، التغيير الوحيد هو ما يجري في السجن، ودائماً نفسه؟

كان ما يحصل خارج السجن يفوق المتغيرات، والانقلابات أيضاً. المعتقلون الأحدث، جاؤوا بأخبار جسام، سقوط الاتحاد السوفياتي، وانهيار جدار برلين!! مضى عليها أكثر من عام. توقعوا، ما دام العالم يتغير، فسوف ينعكس على سورية لا محالة. ما جرى أنهم في السجن أجبروهم على مبايعة الرئيس لفترة رئاسية أخرى، وأرغموهم على توقيع عريضة بالدم، قالوا

إنها ستساعد على إخلاء سبيلهم.

تفكك الجمهوريات السوفياتية لم ينفعهم، ولا البصم بالدم.

خطر له أن يرسل مع أسامة خبراً لعائلته، عن وجوده في تدمر. تردد طويلاً وتراجع أخيراً. لن يبث فيهم أملاً كاذباً. بعدما اعتادوا غيابه، والأغلب موته. لو أنه كان واثقاً من خروجه من السجن لأعلمهم بأنه حي يرزق، لكنه كان على موعد، ربما مع المشنقة. لن يكون أي خبر عنه، سوى أنهم سينتظرونه من جديد، بينما هم ينتظرون من دون أن يعلموا، خبر موته، ما سيجدد معاناتهم.

حتى في حال الإفراج عنه، من الذي سيغادر، هو أم الرقم ٧٧ ؟ لم يعد على ثقة أي منهم يتحكم بالآخر، قد يخرج الرقم، ويبقى هو في تدمر إلى الأبد، إلا إذا نجح في النفاذ ليس من الأبواب الحديدية فقط، بل وأيضاً من براثن الرقم، من دون التعويل على سلامته. الرقم تسلل إلى داخله وأصبح له حصة فيه. إذا خرج أحدهما، فمشوهاً، كأنه لا هذا ولا ذاك، ماذا يكون؟ الإنسان الذي لا يعرف نفسه.

لم يتذكر عدنان متى كانت عودة الرقم ٧٧، وربما لم يغادر حتى يعود. في الحقيقة، لم يحتمل الحياة من دونه، حتى بعدما قطع النظر إلى الخارج والماضي، كلاهما عذاب. الرقم أشفق عليه، وتولى أمره. استعاد سيرته وحمل عنه عناء السجن، والعقوبات، والصلاة، والاتصال بالله، والقطيعة معه، والجنون، والرعب، والملل، وأيام تطوي بعضها بعضاً، لم يتبين عدنان من تواليها، سوى يومي الاثنين والخميس، كأن الاسبوع لا يحتوي غيرهما، ترى في أي يوم منهما سيتردد اسمه من كوة الباب. عندئذ يفارقه الخوف، ولا أذى بعد اليوم. سيأخذ الرقم على عاتقه السير به إلى المشنقة، تلك مهمته الأخيرة. بعدها يظفر كل منهما بحريته.

وفي يوم آخر، لا يعرف إن كان في الربيع، أو في الخريف، كلاهما لا يمران في السجن، المطر ينهمر من فتحة السقف والريح الباردة تهب من الفتحة نفسها. (كان في الشتاء). الرقم ٧٧ يذرع الطاروق في المهجع، يخوض في المياة المتجمعة حافي القدمين. الرقم يرفع يديه يشكر الله على نعمته... المطر!!

الرقم لم يكتف بالشكر، طلب من الله المغفرة!!

اللئيم، سيدفع الله إلى الإحساس بالذنب، فكر عدنان، من أين له هذا الخبث الألمعي؟

وقف الرقم، ما الذي استوقفه؟ نظرات الرفاق المحملقة إليه، كانت فرصة ليلقي عليهم خطبة عصماء من وحي المطر والبرد... لا تنحو باللائمة على الله، ما حل بنا من سوء نوايانا.

لم يتصور عدنان أن يدافع الرقم عن الله بهذه الحدة، جرى الاتفاق في المهجع، لئلا يصيبهم اليأس على تحييد الله عما يجري، حكمة الله لا يمكن إدراكها، الضرورة تملي عليهم عدم إطلاق أية أحكام حول إدارته لشؤون البشر على الأرض، فما بالنا في سجن منعزل في صحراء. كانوا على قناعة أن الله مطّلع على أحوالهم، ومتعاطف مع مآسيهم، ولم يئن الأوان لتدخله. في داخل كل منهم شعور بالغضاضة، لماذا لاينظر بأمرهم؟ وجودهم في السجن برهان على أنهم لم يرضوا غيره إلهاً ولا حاكماً، ولم يتزعزع إيمانهم به حتى اللحظة الأخيرة: الله أكبر.

أزاح الرقم عن الله أية مسؤولية في ما آلت إليه أمورهم من شقاء، وحمّل الدولة وحدها مسؤولية عذاباتهم، وحرضهم على الانتقام منها، وألّا يدعوا حساب الظالمين للآخرة، بل هنا في هذا العالم، عالم البشر. كان قد أعلنها ثورة صامتة.

اعترض عدنان في سره، اعتراضاً صامتاً، وربما الآخرون أيضاً: هذا ليس عالم البشر، الذين خارج هذا الباب، كانوا بشراً، وأصبحوا سجانين. والذين أرسلونا إلى هنا، كانوا بشراً وأصبحوا محققين، والذين يقاضوننا، كانوا بشراً، وأصبحوا ظالمين، والذين يحكموننا، كانوا بشراً وأصبحوا طغاة مجرمين... فكفّ عن دعوته عالم البشر.

هذا المكان هو الذي صنع منك رقماً، لولاه لكنت أنا وحدي، وكنت أنت مجرد رقم يصلح للتعداد. هذا المكان، ما الذي كانه، وما الذي أصبحه؟ كانت تدمر مملكة حاربت في زمن الملكة زنوبيا الامبراطورية الرومانية، وأصبحت سجناً لا منافس له في التعذيب والموت.

كانت دموعه لا المطر تسيل على خديه، يخشى والرقم يتلاشى. أن يمضي العمر به هكذا مسجوناً معذباً، ولا يحين ظهور الرقيب ينادي باسمه.

الجزء الثاني

عالم جديد

رجل قادم من القبر

بعد ثلاثين عاماً، في يوم شبيه بذلك اليوم الدمشقي أوائل شهر آذار، وقف عند العتبة رجل في عز برد كانون، يرتدي قميصاً وبنطالاً باليين ومرقعين، تهدلا على جسده النحيل، برزت عظمتا وجنتيه في وجه شاحب، ورأس حليق الشعر، غارت عيناه، ذقنه ترتجف، وتشققت شفتاه... كأنه خارج من قبر.

خلته متسولاً، نظراته تجاوزتني إلى داخل البيت، وتسمرت حدقتاه خلفي، لم يهتز له رمش. عيناه الكليلتان تسعيان إلى اختراق الجدران، لم يتلفظ بكلمة. أثار حيرتي بهيئته الغريبة وملابسه الرثة وفضوله المريب، وإن ارتحت إلى ملامح وجهه، رغم اعتقادي أنني لم أره من قبل.

خطفت نظري لمحة تبدت على وجهه، لم أستطع تحديدها، تبدو أليفة، تذكرني بشخص أعرفه تمام المعرفة. بحثت في ذهني عمن يشبه، فلم يرد على بالي شبيه به. فجأة، لفحني خاطر، لم أتجرأ على ترداده في داخلي. لبث يراودني للحظات أصبحت دهراً. قلبي يخفق في صدري، أسمع دقاته تضرب أذنيّ. كان الرجل يتمايل أو يزيغ أمام عينيّ، ويصيبني بالدوار.

ملامحه عاندتني، كانت تنحو إلى التطابق مع ملامح أخي، هل كان يشبهه؟ حملقت فيه، بل

كان أخي؛ تقاطيع وجهه نفسها، أو ما تبقى منها. خفت أن أصدق أنه هو، لئلا أفجع به ثانية. وكنت أريد أن أصدق. أردت أن يكونه، وخشيت ألا يكونه، فيتلاشى من أمامي. روعني ترددي، خشيت ألا يكون عدنان، كنت موشكاً على الإغماء.

لفظ اسمي، فكان صوته.

أمسكت به قبل أن يتبدد، وعانقته، أحسست بملمس خده على خدي، رائحته التي لم تتغير، رائحة الأخ، كيف يمكن وصفها؟ جسده الهزيل بين ذراعيّ، أتلمس عظامه، مرفقه، كتفه، قصبات صدره الناتئة. صوته المضطرب اختنق في حلقه. كان أخي عدنان. تعثرت الكلمات في فمي، فكتمت ما جاش في صدري. عانقته، تشبثت به، رأسه منتصب، وجسده متصلب. أخذت أقبله. أنا أبكي وهو يبكي.

كفكفنا دموعنا بصعوبة، وارتدّت نظراته تحاول اختراق الباب والجدران خلفي. استجمع قواه، نبس وبصوت مرتجف، تبينت ما قاله بصعوبة، كان يسألني عن أبيه. قلت له، الله يرحمه.

أفسحت له الباب، دخل وجلس على أول كنبة. سألني، أين هم؟ يقصد زوجته سناء والأولاد. وهززت رأسي بأسى، عسى يفهم، وانهمرت الدموع من عينيّ. فقرأ على وجهي فجيعة تشكلت خلال لحظة. أدرك من دموعي وامتناعي عن الكلام، أنه لم يعد لديه زوجة ولا أولاد. أخفى وجهه بين يديه، وأطرق برأسه أرضاً، وانخرط في نوبة صامتة من البكاء.

أُفرج عن أخي قبل يومين، وكان قد نقل من سجن تدمر إلى سجن صيدنايا قبل سنوات، جرى خلالها تأهيله للحياة المدنية، واعتاد بالتدريج على انتصاب القامة في المشي، ورفع الرأس عند الكلام، وتدرب على التلفت يمنة ويسرة، ليتمكن من عبور الشارع.

بعدما أبلغ بإطلاق سراحه، أخذوه مع غيره إلى المخابرات العامة، ألقى عليهم ضابط كبير محاضرة في الوطنية، وأعلمهم أنهم سيعودون إلى بيوتهم، سيادة الرئيس عفا عنهم.

في الطريق إلى حماه، تراجعت سنوات عذابه إلى الذاكرة، مجرد أيام مضت. وكأن زهرة شبابه

والقسم الأعظم من عمره لم يتبددا في السجن. فرحة شعوره بالحرية، واقتراب جمع شمله مع زوجته وأولاده، حضروا دفعة واحدة، ترى ما حلّ بهم؟ هل سيتعرف إليهم فور وقوع بصره عليهم، زوجته تجاوزت الخمسين من عمرها، ابنه أكرم في الثانية والثلاثين من عمره، الصغير قارب الثلاثين، الفتيات تزوجن. سنين سجنه الطويلة تجاوزها، إزاء حياة ارتدت إليه وأراد أن يعيشها من جديد. عاش حلماً لم يطل. لم يدر أن أباه وزوجته والأولاد الثلاثة، كانوا كما تركهم في الذاكرة صباح ذلك اليوم البارد.

الوحشة طالعته في حماه. لم تكن مدينته التي يعرفها، تغيرت إلى حد ظن أنه في مدينة أخرى، حارات بكاملها اختفت. كأنه ضاع في مدينة كانت خلاء قاحلاً، أو ربما أخطأ طريقه إلى الكيلانية. لم يكن للحي وجود، أزيل نهائياً، واستبدل بآخر. بماذا استبدل، ما الذي حل محله، شارع، فندق، حديقة، ملعب كرة قدم...؟ لا أثر للعائلة، ولا للجيران. لم يعرف من بقي من أهل الحارة، هل هم أحياء أم أموات، أين ذهبوا؟ كانوا قد تشردوا تحت الأرض وفوقها، داخل حماه وخارجها. كان يمشي فوق أرض اختلط أديمها برفات جثث جيرانه ومعارفه من رفاق الصبا والشباب وزملاء الجامعة. فشد الرحال إلى دمشق.

الآن يستطيع أن يتخيل سناء والأولاد، مجرد صور، كما تركهم، لم يتغيروا. ويعرف أنه مشى فوق رماد جثثهم. تساءل مذهولاً:

«لماذا أطلق النقيب عليهم الرصاص؟».

«لا يريدون شهوداً».

اعتقدت أنه ما زال هناك ما يعوضه عن خسائره، ولو قليلاً، قلت له:

«حازم حي».

رفع رأسه مستغرباً وكأنني وضعته أمام معضلة. كان في ذهوله قد نسيه:

«من يكون؟».

«ولدك الصغير، أصبح محامياً».

«لماذا عاش؟!».

«إرادة الله».

لكن ما أراده الله، لم يرده أخي. عثر على ابنه، وشاء أن يفقده في اللحظة نفسها.

ظروف السجن القاسية لم تغادر مخيلة أخي، ظهرت عليه أعراضها بتصرفات انطوائية، الخلود إلى الصمت ساعات طويلة، السير على غير هدى، الانزواء في غرفته والبكاء... لم أتصور أن آثارها ستكون من الغرابة أنه في بعض الأحيان، وهذا ما قاله لي، يصبح شخصاً آخر، أو شخصين في آن واحد، هو والآخر، وأحياناً ثلاثة أشخاص، هو وهما، يراهما على مقربة منه. مع أنه تخلص من الآخر قبل خروجه من السجن، ولم يكن سوى رقم جمعته به علاقة غامضة اختلقتها الآلام والهذيان، أكثر منها قصة طريفة، خلّفها سجن تدمر. كان خائفاً أن يتلبّسه الرقم، ويطويه في داخله، ولا يعود له وجود.

كان لمخاوفه أساس، الرقم عاوده بعد غياب سنين، رجع لحظة علم بمقتل أبيه وزوجته وأولاده، فقدانهم بدد أملاً عاش عليه خفية طول مدة سجنه الطويلة. كانت صدمة، رغم أنه اعتاد الفقدان، خسر في السجن رفاقاً لا عدّ لهم ولا حصر، سيقوا واحداً بعد الآخر إلى المشنقة، أو ماتوا بين يديه. وكلما غاب واحد منهم، أحس شيئاً منه يغيب معه. كان قد شاركهم يأسهم من الحياة، وشقاء بلا حدود.

عاد الرقم كي يحمل عنه عبء الفقدان!!

أصابني الشك، وخيل إليّ أنني أتعامل مع الرقم وليس مع أخي. القسوة التي لم تصرعه حبيساً في السجن، نالت منه طليقاً. لم يأمل استعادة حياته من دونهم. وكان من الطبيعي ألا يثق بقوانين الدولة وعدالتها، مادامت لا تجد طريقها إلى الناس. ولم أستغرب انحيازه إلى رفاق السجن الذين آمنوا بالله الواحد الأحد، وآل بهم الحال إلى رجال عاجزين مرضى ومشوهين،

الله وحده أعانهم على محنتهم، والإيمان منحهم السلام والاستسلام، وتغلب يأسهم على ما راودهم من آمال. كان موتهم تقرباً حميماً إلى الله.

ندم على بقائه حياً، وأسف على أنه لم يلحق بهم إلى مثواهم المجهول. تحسر على فرص كثيرة سنحت له لإنهاء حياته. كان الموت بمتناوله، ليته اعترف بما اعتبر جريمة تستحق الإعدام. كان وفّر على نفسه حياة باتت تقهر أي رجاء. وعالم خرج إليه، وكان سجناً آخر.

بدأ أخي رحلة تدمير الذات، واستسلم لأمراضه التي تخفّى عليها ولم يعترف بها، انبثقت دفعة واحدة، تاركاً لها جسده الأعجف تنغل فيه.

أحس حازم بنفسه منبوذاً من أبيه. لاحظت تأثيره فيه متأخراً. وإن ارتضاه أخي ابناً له، في الحقيقة لم يقتنع به، ولم يقبل أن يكون نصيبه مما تبقى من عائلته. عرفه صغيراً في القماط، ملامحه لم تتكون بعد، توقف به الزمن هناك، عند الرضيع، وتنكر له كبيراً. بل وراودته الظنون أنني أشفقت عليه، وتبرعت له بابني، بعدما سمّيته باسم ولده، لأخفف عنه فقدان أولاده. وحتى عندما أقسمت له بأغلظ الأيمان، أن حازم ابنه، كان تصديقه لي، يذكره بمأساته.

رغب حازم في تعويض أبيه عما يصعب التعويض عنه، ومع هذا حاول. كان يصطحبه معه ليروّح عن نفسه، يتمشيان في شوارع دمشق. يتكئ الأب على ساعد ابنه، ويسرح ببصره، يقلب النظر في الناس والمرئيات، غير أن الزجاج والجدران أحبطاه. وجهه ينقبض، وأنفاسه تختنق. ينظر إلى حيث تقع نظرات أبيه، فيرى ملصقاً عليها صورة الرئيس الأب قاتل عائلته، وإلى جواره صورة الرئيس الابن، الذي صعد فوق جثثهم.

لن يغفر، لكن ما جدوى عدم غفرانه؟ كان أخي أقرب منه إلى القبر منه إلى الحياة.

قلت له، كانت مرحلة سوداء في تاريخ البلد، وأن أموراً كثيرة تغيرت. قال لي، من يعيد الحياة إلى الأموات الذين قتلوا ظلماً، أو يعوض القابعين في السجون، عما أصابهم من ضيم يستحيل إصلاحه، لا لم يتغير شيء بعد.

إذا كنت قد أردت خداعه، فلأن الحياة لا تحتمل مزيداً من البؤس والنكد. حاولت إقناعه بأن شيئاً ما على ما يرام، ربما يضرب صفحاً عما عاناه، ويبدأ حياة لا يخاف منها، تعاش على نحو ما.

١

لم يكن الظلام دامساً، مع أن الشمس غربت قبل ساعة من الزمن. ترك المهندس طريق دمشق بيروت الدولي، وانعطف بالسيارة إلى اليمين نحو الطريق المؤدي إلى بلدة يعفور. الأضواء الأمامية العالية تضيء معالم تتوالى مثل ظلال هاربة، سرعان ما تختفي. بعد قليل، لاحت من بعيد الأنوار متناثرة وباهتة، تنبعث من مئذنة المسجد وسلسلة المحلات المتلاصقة في الشارع الممتد أمامه. كانت وجهته الشارع الرئيسي المؤدي إلى منطقة الفيلات، دقق النظر في اللافتات الصغيرة، إحداها ستقوده إلى مزرعة رجل الأعمال الدمشقي رئيف عثمان.

تمحورت أفكاره حول لائحة العفو الأخيرة عن المعتقلين الذين شملتهم المكرمة الرئاسية. ابتسم ساخراً من تعبير المكرمة، مع أنه من ابتكاره، كان أول من خطط لهذه اللغة المكرسة للعلاقة بين الرئيس والشعب، بالتركيز على تكييف مختلف للقوانين والمراسيم، على أنها آلية الكرم الرئاسي، هبة، تقدمة، عطاء بلا مقابل، فرفع الرواتب ليس لأن الغلاء استفحل، وزيادة العطل ليست لأن موظفي دوائر الدولة ومؤسساتها في عطالة، والعفو عن المساجين ليس لأنهم أمضوا فترة العقوبة المقررة وأزود، ولا مسوغ قانونياً لبقائهم محتجزين في المعتقلات... كانت كلها منحة شخصية من الرئيس.

العهد الجديد استفاد منها، لأهداف شتى، مؤخراً رسائل إعلامية موجهة إلى الغرب، لتحسين سمعة النظام، وإبراز الوجه الحضاري للبلد، بإشاعة أن الرئيس الابن يعمل جاهداً على تنظيف السجون ضمن خطة رحيمة وجادة على مدى سنوات. تسامح الرئيس وغفرانه يمنحان صورة عن بلد قلب صفحة الماضي، إلى سورية البلد الأكثر أماناً واستقراراً في العالم، دعوى استغلت على الوجهين، القتل والعفو، ولصالح الرئيسين: ما اضطر إليه الرئيس الأب، لا يحتاج إليه الرئيس الابن.

ثم إن من يفرج عنه، لا خطر منه، لم تثبت عليه تهمة الانتساب إلى حزب الإخوان المسلمين المحظور، أما من ثبتت عليه فأعدم منذ زمن طويل. بالنسبة للذين يطلق سراحهم، فهم بمعنى ما أبرياء، صُفح عنهم لارتكابهم هفوات طفيفة وتافهة، كمساعدتهم بالمال لعائلات المعتقلين، أو لصلة ربطتهم بالمطلوبين، أو احتجزوا بدلاً عن أبن، أو أخ فار، أحياناً يطوهم النسيان، كما حدث مع الكثيرين. وإن كانت مثل هذه الخطوات التي تخص الأبرياء غير محبذة كثيراً، ربما تسيسوا في السجون وخرجوا أكثر عداوة للنظام. عموماً الغالبية العظمى منهم يغادرون السجن مرضى ومعلولين. لا ينفع معهم علاج، يلزمهم ترميم لا يغفل عضواً من أجسادهم، ليستعيدوا شيئاً مما كانوا عليه. عادة تكتمل فرحتهم بموتهم في أحضان زوجاتهم وبين أولادهم، كما تمنوا في ظلمات اليأس.

غير أن ما شغل باله، أنه قرأ بين أسماء المفرج عنهم اسماً لرجل يدعى عدنان الراجي، مهنته طبيب. تاريخ اعتقاله خلال فترة حصار حماه!! ماذا لو كان الطبيب الذي أرسله إلى حقل الرمي؟ المشكلة أنه نسي اسمه في اللحظة التي سأله عنه. اهتمامه كله انصبّ على العائلة التي اصطفت أمامه، بأجيالها الثلاثة، الجد، والأم، والأولاد. اللافت أكثر ما يدل إليه الاسم، ربما كان الطبيب قريباً للقاضي سليم الراجي، لن يتوقع شيئاً قبل حسم العلاقة بين الطبيب القديم، والطبيب المفرج عنه، مع أنه نفى الصلة بينهما، المصادفات لا يمكن أن تكون بهذه الحذاقة، ولا يعقل أن يفلت الطبيب من إعدام، كان نصيب دفعة المعتقلين بأجمعها، المفترض أن يكون قد شبع موتاً. إذا كان بعث حياً، فهذا يعني أن هناك خديعة استمرت ما يزيد عن ربع قرن.

تشتتت أفكاره للحظات، أهو القدر؟ لم يخطر له القدر إلا لأنه يريد خصماً أشد مراساً من سجين سابق، لا يعدو أن يكون هيكلاً عظمياً، خرج إلى الحرية ليلتقط أنفاسه الأخيرة ويلفظها في آن واحد.

قبل أن يخرج من البيت، اتصل بالقاضي، وعرف منه أن الطبيب المفرج عنه أخوه، وهو يعيش معه، فوعده بزيارة قريبة ليبارك لأخيه بسلامته. ما يتيح له التحقق بنفسه.

أبطأ من سرعته، اقترب بسيارته من المدخل. كان منارا، المصابيح المضيئة ارتفعت فوق الأعمدة

الحجرية إلى جانبي البوابة، فتح الناطور البوابة المتحركة. مزاج المهندس لم يكن مواتياً لتلبية الدعوة إلى حفلة الكوكتيل. دعوات رجال الأعمال كثيرة، لا يحضرها إلا نادراً، مع أن صاحب الدعوة رئيف عثمان صديقه وأحد شركائه. لولا لميس لما جاء. اتصلت به وأصرت على رؤيته، لتستشيره بأمر ضروري، فاضطر للحضور.

قبل أن يصعد الدرج الرخامي، حاول تذكر مناسبة الدعوة، ليهنئ صاحبها على ما كانت الحفلة من أجله. لا بأس، سيهنئه من دون تخصيص، النجاحات أكثر من أن تحصى، والمناسبات عموماً، لا تُعنى بالأسباب. كانت المجال الملائم والأفضل للتعارف وتبادل الرأي والأخبار والشائعات، وإنشاء علاقات يُدفع ثمنها مسبقاً، أو لاحقاً سواء أفلحت أو لم تفلح.

تأخر في الوصول، المدعوون سبقوه، وتوزعوا حلقات في أرجاء الصالون الفخم، المتسع الأرجاء؛ ثلاث قاعات مفتوحة بعضها على بعض، علقت على جدرانها لوحات زيتية كبيرة؛ ديانا آلهة الصيد، ماسح أحذية، غجرية حسناء، ومنمنمات إسلامية، وفي الأرجاء كنبات لا يدري أي طراز، فخمة ووثيرة، وشمعدانات من الكريستال، وفي الصدر تمثال رامي القرص. السقوف زينت حوافها بزخارف نافرة ومذهبة، في المنتصف تدلت ثلاث ثريات ضخمة. بينما امتدت الموائد إلى يمين مدخل الصالون، على طول الجدار، احتوت على صحون المقبلات الصغيرة، مع تشكيلة متنوعة من المشروبات؛ عصير، صودا، ويسكي، نبيذ...

كان الحضور من التشكيلة الفضفاضة نفسها، تزيد أو تنقص قليلاً؛ تجاراً وصناعيين معروفين، أصحاب تعهدات ضخمة، ملوك الاستيراد والتصدير والتجارات المسموحة والممنوعة؛ ضباطاً كباراً متقاعدين، في جعبة كل منهم بضع مئات من الملايين، يبحثون عن مشروع مضمون، مربح ومريح. أما ضباط الجيش والمخابرات فيبحثون عن تجارات مشبوهة تحتاج إلى حماية، ومسؤولين في الدولة قادرين على تزويدهم باستثناءات وإعفاءات.

بدا الحفل متكاملاً، لا ينقصه الجنس اللطيف، تواجد فيه عدد غير قليل من النساء، بعضهن يرافقن أزواجهن، وأخريات ممن يوصفن بنساء الأعمال، لسن جميلات، وإن كن أنيقات، لديهن من الأنوثة ما يفتح لهن الأبواب الموصدة فقط، أما تسهيل أعمالهن، فلابد من المال.

أسبغت أصواتهن الناعمة طلاوة مستساغة على أحاديث بدت مكهربة، وأضفت رقة إيماءاتهن الطراوة على معدلات تحويل الدولار، لولا وجودهن لطغى جو العمل المقيت وحده، ولارتفعت الأصوات عالياً بمبالغ من عدة ملايين بالعملات الصعبة. الأصوات المنخفضة لم تخف ما يكال من اتهامات وشتائم للقوانين الاقتصادية المحابية للشبان أولاد المسؤولين، وانتقاد التسامح مع سرقاتهم ونزواتهم.

شمل القاعة بنظرة متّئدة، لم يكملها، صديق قديم ربت كتفه. كان ضابطاً وأحيل إلى التقاعد بعد صفقة معدات إلكترونية للجيش، كان طرفها الثاني شركة أوروبية، وراءها مخابرات دولة أجنبية، قيل إنها إسرائيل. نصحه ضاحكاً ألا يديم التحديق بالنساء. لم يعلق على ما قاله، لو استجره للكلام، فسيطلب منه بعد قليل خدمة، ويتصل به يومياً يسأله عما تم بشأنها.

تركه إلى ضابط مخابراتي، آثره المهندس على غيره، لم يتخل عنه الرئيس الابن رغم تقدمه في السن، يطيب له أن يبدو عاشقاً محترفاً للنساء، غرامياته لا تتعدى التغزل البذيء بهن عن بعد. نكاية به، عدد المهندس ما تتحلى به نساؤنا السوريات من فضائل أهمها الاقتصاد، طورنه من شأن منزلي إلى شأن يتجاوز حدود الدولة إلى ما وراء البحار. أصبحن ثروة اقتصادية، بينما نحن ثروة قومية مفلسة.

أطلق صديقه ضحكة عالية، ثم لوح لأحدهم بيده، قال قبل أن يتركه مستعجلاً:

«لم أفلس بعد، ما زلت أفعل الأعاجيب».

أغلب الضباط كانوا على طرازه، أوغاداً وجشعين. لا يخلو الجيش من أغرار طيبين، ضابط كان معه في الكتيبة، تورط بقصة حب مع امرأة متزوجة. قالت له، في ذروة سعادتها، إنها ستتخلى عن زوجها وأولادها من أجله. فسقط في الفخ. أرسل زوجته إلى الضيعة مع ولدين أحدهما في القماط، ومنعها من العودة تحت طائلة الطلاق. وتزوج من الحبيبة، بعد ولادتها بالصبي، طالبته بطلاق زوجته الأولى وتسجيل البيت باسمها، كأنه سيموت غداً. تحقق ما بشرته به، مات في الحرب اللبنانية مع أنه كان في الخطوط الخلفية.

تحاشى المهندس أن تسقطه مغامراته في فخاخ الغرام، كان ينجو بنفسه في الوقت الملائم، قبل النقطة الحرجة بقليل. لميس أنقذته من مزالق هيام لا يدوم، إلا إذا أراد له الاستمرار تحت عنوان: الشقاء السخيف. لم يسمح لامرأة بدفعه إلى هذا الدرك، فلم يتعرض للامتحان، توفر النساء كان المانع أيضاً.

ما الذي جعل هذه الخواطر تتداعى؟ المرأة البدينة التي تلبس فستاناً أسود محتشماً، لمحها من بعيد، تحيط عنقها بطوق ثخين من الذهب تتدلى منه قلادة ضخمة. التفتت فرأته، هزت له رأسها، ثم أدارت وجهها عنه، هذا ما بقي من القصة كلها؛ اسمها بهيرة، الاسم لم يعد لائقاً اليوم، يخاطبونها بمدام، أو أم سامي. أعادته إلى سنوات عمله في القصر الجمهوري، كانت نحيلة القوام أشبه بالفراشة. كادت العلاقة بينهما أن تكون طويلة الأمد، لم يقل لها شيئاً عن وظيفته السرية، فتركته وتزوجت ضابطاً متقدماً في السن، إن لم يكن مات، ففي البيت يتفرج على التلفزيون، بينما تبحث عن مستثمر لأموالها.

تجنبت النظر إليه، لئلا يذكّرها بالماضي، أي ماض؟! الماضي مات، لن تتذكره لئلا تتذكر عمرها!! إذا كان قد تجاوز الستين، فهي قاربتها. في كل مرة، كانت القصة مهما اختلفت، تمضي إلى النهاية نفسها. نعم كان حيسوباً بالعواطف، لم يفرط بها. وعرف ما يختار، لأنه لم يؤمن بهذه الخرافات، رأى الحياة كما هي، وعلى الأصح كما رآها صانعو الثورات، يُستولى عليها، أو تنتزع، أو تغتصب.

تلك كانت قصص الحب الدارجة مع لابسي الخاكي في وقت كانت شعارات الثورة والتحرير والمقاومة تلعلع في الساحات وتصدح في الأغاني. كان هذا هو نمط النساء اللواتي حررهن حب كان المكافئ للثورة. كلاهما أخفقا. ونجح كل ما هو مضاد لها. اعتقدن أن رتبة ضابط في الجيش تهيئ لهن الطريق إلى التحرر من زوج متزمت، إلى زواج ثان، وكان الثاني أسوأ من الأول. في ما بعد، اكتشفن أن رأس الضابط أغلظ من رأس بغل. لم يعد الزواج من ضابط مأثرة، بل حماقة، ذهب الزمان الذي كان الحب سمعة تتباهى بها النساء، ويودي الى الانتحار. الدنيا تغيرت، أصبحت قصص الحب الجميل، قصص الفضائح الجنسية ومادة للتشهير. وفي أحسن الأحوال عملاً من الأعمال الممتعة.

أما النساء الصغيرات، اللواتي يخطرن الآن بين الرجال، فكنّ أكثر دراية وخبثاً، ممن سبقهن من النساء العاشقات، اقتحمن عالم الأعمال، من دون جعجعات الطلاق وورومانسيات الغرام، والزواج الحلال. حصّنّ أنفسهن بزوج يتفهم طبيعة مهنة تتطلب المنافسة والخوض في مستنقع المناقصات والعقود. أما اللواتي استغنين عن الزواج، فلا يضيرهن أنهن عانسات أو أرامل أو قبيحات، المال يتجاوز جميع العقبات.

إذا كان قد اجتاز هذه المخاضة، بلا خسائر، فلأنه لم يُضِرّه أن يكون وغداً مع النساء، فتصرف بشكل مريح، دونما ادعاءات وبلا عوائق، ولا التورع عن اقتراف أي حقارة، كان عمله في القصر المساعد الأكبر على أن يكون في منتهى الحقارة.

شمل المكان بنظراته، لم ير لميس، تخلفت عن الحضور. طلبت منه القدوم مبكراً، جاء هو متأخراً، أما هي فلم تأت. عزم على الخروج، بعض المعارف رأوه، وحيوه من بعيد. لا يمكنه الاعتذار والمغادرة فوراً. سينتظر بعض الوقت، ثم ينسحب خلسة، لن يفتقدوه.

تناهت إليه الأحاديث متنوعة، وهو يتنقل بين مجموعات المدعوين، كانت عن الوكالات الحصرية المزورة، والتجهيزات المستعملة التي تباع على أنها جديدة، والشركات اليونانية والتايوانية الوهمية، والمحتالين الطليان... تخللتها السياسة على غير المعتاد، منذ متى يلقى حدث سياسي يجري في بلد عربي بعيد كل هذا القلق والاهتمام في حفلة كوكتيل؟! حتى المجاملات تأخذ حيزاً ضئيلاً، الأفضلية للأعمال.

كانت الأحاديث متمحورة حول الاضطرابات في تونس!!

٢

تباطأ في المغادرة، يجيب عن تساؤلاتهم عما يجري في تونس، اهتمامهم انصبّ على معرفة تقييم الرئاسة. يظنون أن صلته التي كانت قوية بالرئيس الأب، ما زالت على المستوى نفسه بالرئيس الابن، لمجرد أنه ما زال يتردد على القصر الجمهوري، مع أنه عندما أبعد مع حفنة من رجال

الحرس القديم عن الواجهة، أعفوا من مهامهم الأساسية الفعالة، بات ظهورهم في العلن يستجر الانتقادات، لا عمل، لا أضواء، لا إشارات عنهم في الصحافة. لكنها لم تسئ إلى تجاراتهم، انصرفوا إليها مع التسهيلات. الإشاعات التي راجت عنهم، وصفتهم بأنهم عثرة في وجه الإصلاح والتحديث، إلى أن انكشف الإصلاح وطوي التحديث.

كان التخلص من الحرس القديم خدعة، في الأزمات كانوا يستشيرونهم حول ملفات عالقة، ويكلفونهم بمهمات سرية، لا يحظى بها غيرهم، كانت استكمالاً لعمليات ومهمات قديمة، مطلعين عليها وشاركوا فيها، تحتاج إلى ماض غير متوافر إلا لهم. أحدها إحياء الجهاز الخاص، فكان أن أعيد تكليفه بإدارة حملة تفتيشية، لكن على المدى الطويل، تابع لما سبقها، ضمن سياق ما جرى الاعتياد على التهديد به، لا المحاسبة عليه. مرفقة بالاشتراطات الخاصة بها؛ ألا يُحدث شوشرة، جهاز بسيط من الموظفين، الأهداف معروفة، والتجاوزات معروفة، فقط للتأكد. ولا بأس إذا علم بها بعض المسؤولين ورجال الأعمال، وتداولوها في ما بينهم، على ألا تصبح خبراً رئيساً.

لم يشأ أن يصحح لمعارفه معلوماتهم عما آل إليه وضعه، كان أميل إلى أنه يوقع في أذهانهم أنه مازال تحت تصرف الرئيس؛ امتيازات من دون منصب. فلم يُحسب على أحد، فكان غير مكشوف، وبما أنه كان على صلة قديمة بالرئاسة، ظنوا أن الرئيس يحتاج إليه أكثر من غيره، وأخفى عن أقرب المقربين إليه، أن الرئيس لا يستخدمه ولا يستشيره، والجهاز الخاص مهمل، مع أن العمل فيه لم يتوقف.

خلال تنقله من جماعة إلى جماعة، ريثما يصل إلى الباب، توقف عند مجموعة تضم ضابطاً من مخلفات الرئيس الراحل، برفقته ضابط شاب في أحد الفروع الأمنية، وضابط في الأركان. الضابط المتقاعد قصير ومترهل الجسم، نجا سالماً من حربين، سمج وبطيء الحركة، ساعده تباطؤه على الوصول متأخراً إلى المعركة، بعد انتهائها، فلم يشارك بالهزيمة، شارك فقط بالتراجع الكيفي، فكان انتصاراً. بينما عادت عليه الحرب الأهلية اللبنانية بأموال طائلة.

المتقاعد الخبير بالانتصارات، اتهم الرئيس التونسي بالجبن، لتراجعه في خطابه البارحة عن خطابه السابق:

«... لم يمض عليه يوم واحد. هل هو أحمق؟!».

أراد أن يقول له، لا شيء يعفي أي رئيس من أن يكون أحمق أو جباناً. لكنه ابتسم. ضابط الأركان وافق وزاود، وأردف شارحاً وجهة نظره، الرئيس زين العابدين أقال الحكومة، ووعد بانتخابات تشريعية مبكرة وإجراء إصلاحات ديموقراطية واسعة، لكن الانتخابات ستطيحه، لن تمهله ليجري إصلاحات ديموقراطية أو غير ديموقراطية.

قاطعه الضابط المتقاعد، سائلاً المهندس:

«هل ينفذ ما وعد به؟».

«إنها نوايا، من يدري؟».

«أعلن أنه لن يكون رئيساً لمدى الحياة».

«سيعيده الشعب إلى الحكم».

كاد أن يعلق، على أن يفبرك شعباً يتظاهر من أجله. لكنه امتنع.

«ألا يُخشى من انتقال الشغب إلى سورية؟».

ضابط المخابرات وكان صامتاً طوال الحديث، لم يجب، فقال المهندس بتؤدة:

«هذا مستبعد تماماً».

«استمرار الاحتجاجات ونجاحها يشجعان على تقليدها».

«هذه أمور يصعب تقليدها». قال ضابط الأركان.

«ربما شجع شراذم المعارضة على القيام بتحركات مشابهة».

«هذا يتطلب أولاً وجود معارضة». أكد المهندس.

ما دامت الدولة لا تعترف بوجود معارضة، فلن يعترف بها. كان حريصاً على ضبط كلماته، كل ما سيقوله سينقله عنه ضابط المخابرات. استطرد مستبعداً حدوث أي شيء مماثل، حتى المظاهرات التي تجددت في القاهرة لن تفضي إلى شيء.

الضابط المتقاعد قال لضابط المخابرات، متقصداً ألا يخفي سخريته:

«من المستحسن اتخاذ بعض الاحتياطات كي لا تفاجئكم الأحداث، المعارضة ليست حكيمة».

«لا شيء سيحصل، الأجهزة مستنفرة» رد ضابط المخابرات باعتداد.

لم يجد طريقة للتخلص منهم، إلا بتذكيرهم بما قاله الرئيس في حديث صحافي عشية رأس السنة الجديدة؛ عزا الاضطرابات في المنطقة إلى الفجوة بين السياسة التي تتبعها الدولة ومعتقدات الناس ومصالحهم. عقب منهياً الحديث:

«هذه الفجوة غير موجودة في سورية».

تلفّت قبل أن يغادر، يبحث عن رجل الأعمال رئيف عثمان وحسن سعدي الضابط في العمليات. كان قد شكّل معهم مجموعة صغيرة منذ أكثر من عقد، ربطت بينهم مشاريع سياحية، منتجع على الشاطئ، وفندق ومطعمان. كان بوسع الاثنين الاكتفاء بقوتهما المالية والعسكرية. لكن المنافسة دفعتهما للاستقواء به في كواليس القصر الجمهوري.

عثر عليهما وقد انتحيا إلى جانب تمثال رامي القرص. عندما رأياه، تقدماه بخطوات قصيرة وسريعة وخرجا من الصالون، ولحق بهما إلى غرفة المكتبة.

«هل هناك جديد حول تونس؟!» تساءل الضابط سعدي .

«لم يتسرب شيء من القصر حتى الآن».

«ألم يتأخروا؟» تساءل رئيف.

«كن على ثقة، لا يهملون شيئاً».

لا داعي لتخمين ما يطبخ في القصر، يعرف أسلوب عملهم، يتابعون ما يجري لحظة بلحظة، التقارير تردهم عن طريق قنوات سرية، ومن عدة جهات داخلية وخارجية، وإذا تريثوا، فلأن الوضع لم ينجل بعد.

وضّح فكرته لهما، ثم انتقدها، ما يرفع إلى الرئاسة تقارير يومية عادية، تحتوي على ردود فعل الصحافة العالمية، حتى التقارير التي ترسلها سفاراتنا، لا تنقل صورة واضحة عما يجري، والقنوات السرية موسوسة بمؤامرات ومخططات. أما التقارير الاستخباراتية، فتراعي ما ترغب فيه الرئاسة، فتبسط أو تهول. الغموض يلف الموقف، لكنه غير مخيف. الأمر يعود إلى الرئيس، يعتمد على مصادره، العائلة والمقربين منه، ثم يستمزج رأي الإيرانيين.

عقّب الضابط سعدي: إذا كان الوضع سيئاً، فهذا يتطلب المبادرة إلى اعتقالات. لكن الأوامر مازالت على حالها؛ عدم التحرش بالمعارضين.

«يجب القيام بإجراءات سريعة احتياطية» عقب رئيف.

ارتأى المهندس ألا مبرر لإجراءات أمنية، إذا كانت ظاهرة للعيان فسوف تلفت الأنظار إلى مخاوف النظام، وقد تستثير تحركات على وزن مظاهرات تضرب أرجاء البلاد، إشاعة صغيرة تدفع الأهالي إلى المخابز وتموين الرز والسكر... لا يجوز التسرع بهذا الاتجاه، اقتراح احتياطات مبكرة سيثير الذعر في الشارع، ولنتذكر أن الاحتجاجات في بلد عربي، يبعد عنا آلاف الكيلومترات.

خرجوا من المكتبة وانضم كل واحد منهم إلى حلقة. عزم المهندس على الانسحاب، اتخذ طريقه نحو الباب. كان اختراق زحام الحضور بسرعة مستحيلاً. النقاش محتدم، وقد يورطونه ببعض

الاستفسارات. تقدم ببطء شديد، وانضم وهو في سبيله للخروج إلى بعض الحلقات، شارك بالقليل من الملاحظات والتعليقات. لاحظ أن ضباط المخابرات لا يأبهون كثيراً بما يجري، بينما رجال الأعمال بالغوا بمخاوفهم، أجمعوا على وجوب طمأنة الشعب، يقصدون طمأنتهم. اقترح بعضهم تقديم شيء ما للموظفين، رفع الرواتب مثلاً، أو استبدال قانون الطوارئ بآخر أقل وطأة. هناك من اعترض، لا ينبغي إفلات البلد في هذه الظروف، إلا إذا ألغي وظل سارياً على الأرض.

النسوة نصحن بتخفيف الرقابة على المسلسلات التلفزيونية الكوميدية الانتقادية، فهي لا تحدث أضراراً، مجرد أنها تتندر على المسؤولين، تضحك المشاهدين وتلطف المزاج، وتخفف من الاحتقان، مفعولها لا يزيد عن إثارة تخمينات الناس؛ ترى أي من رجال الدولة والمخابرات هو المقصود؟

سارع بخطواته نحو الباب، لمّا قارب على الوصول إليه، رأى لميس تدخل منه، وتتوجه نحوه. بادرها قائلاً إنه متعب، سيتفقان غداً على موعد قريب. لم تصغ إليه، وعدت ألا تضايقه. لا فائدة من الاحتجاج، ستضجره بإلحاحها، لن تفلته. إذا فتحت فمها فلن تتوقف، ولن يكون الاستماع إليها ممتعاً.

سكت، ربما غيرت له مزاجه. كان من النادر أن يلتقي في هذه الأجواء بامرأة متهورة مثل لميس، تقول أحياناً أشياء مهمة، ولا تسرف في استعمال أدوات التجميل.

٣

لميس صديقة العمر، وإن أصاب علاقتهما بعض الفتور لارتباطاتهما بمواعيد وصفقات ولقاءات. لكن في لحظات الغم والبهجة والمنافع... ولم تكن قليلة، ليس لأحدهما غنى عن الآخر، لسبب وحيد، أن يبوح الواحد منهما للآخر بما لا يتجرأ على البوح به لأي إنسان، ما زال شعوره نحوها هو أنه يتحدث إلى نفسه، سواء حدثته بالسوء أو بالخير. مازال على عهده معها يراعيها، العلاقة الوحيدة التي صمدت في حياته رغم ما رافقها من صعود وهبوط، وكانت

متعادلة في أغلب أحوالها.

لميس لم تتغير، وإن كانت مخاوفها من المستقبل في ازدياد، وكأن المستقبل الذي كانت خائفة منه قبل ثلاثين عاماً، لم يأت ويذهب، وجاء غيره، ودائماً أكثر أماناً؛ مشاريعها مشمولة بالحماية المباشرة للدولة، تجاراتها مبرمجة بالتوازي مع الخطط الخمسية. لا يبخل عليها بالنصائح، ما أبطل مخاوفها. أما هو فمخاوفه كانت أعمق، وحساباته كانت أدق، النساء طماعات، طالما خشي على أعماله منهن. لميس مختلفة، وإن سطت على معارفه من المسؤولين المتنفذين، فأصبح معارفه معارفها. وحتى في ذروة تفاهماتهما، امتد بهما الظن في الفراش ذي القوائم النحاسية، والغلالات الشفافة تعزلهما عن عالم الأعمال والأموال، وقد تخايلا على الجدار متداخلين في عناق لا ينفصم، أن هذه الشراكة متعددة الوجوه، قد تتطاير أشلاء، مع اعتقاده أنها غدت استثماره الرابح في المستقبل، وأصبحت الأمثل لما تبقى من عمره.

ورغم أن الحب لم يربط بينهما إلا فترة محدودة، امتلأت بالشكوك. لم يحتاجا إليه بعدها، هناك ما هو أقوى منه يشد أحدهما إلى الآخر؛ النجاح والطموح إلى ما هو أبعد منالاً. كما أقنعتهما القطيعة والمصالحة، ألّا انفصال محتوماً بينهما. اعتاد كل منهما أن يذهب، ثم يعود. النزوات لا تصمد طويلاً.

من دون اتفاق، توافقا على تجاهل أمورهما الجنسية. بلغ التعقل بهما، أنهما تجنبا التعرض إليها من قريب أو بعيد، لئلا تثير حساسيتهما، ونجحا في برمجة الفقرة الجنسية من علاقتهما إلى الحد الأدنى، فلم يعيدا النظر في تقييم انسحاب تم بلا ذيول، كي لا تصبح له ذيول، ويُحمّل الواحد منهما الآخر مغبته، ولئلا يتبادلا الاتهامات، هل رفضته أم رفضها؟ تخلت عنه أم تخلى عنها؟ خانته أم خانها؟ وتثار تساؤلات تبعث على الغيرة ممن حل محل كل منهما، قصتهما أصبحت وراء ظهريهما.

الوضع الاقتصادي الصاعد حضهما على استثمار إمكاناتهما المالية، ما عوضهما عن قدراتهما الجنسية المتراجعة. ومثلما الاقتصاد يتجنب الخسائر، تأبى الشهوات الاعتراف بالتراخي، وكان ما اعتقداه ليس إلا وهماً؛ الميزان التجاري الرابح يعوض النقص والعجز معاً. وارتدّت الروح

إلى حياة كادت أن تتصحر.

انتهت علاقتهما الجنسية بهدوء بلا أكاذيب وتأجيلات ورسائل اعتذار وعنعنات وادعاءات بالمرض، وصمدت علاقة العمل، وأصبحت نظيفة، فتطارحا همومهما دون اصطفاء أو تحديد، يبثها متاعبه، وكانت متنوعة عملية وسياسية ونفسية. وتبثه شجونها وكانت متنوعة التنويع نفسه، لكنها تخلو من السياسة، وهذا عيب كبير، نمّ عن قصر نظر. فقدم لها نصيحة ثمينة، اقتبسها من المرحوم الشهيد أبو حسين؛ يرتبط العمل، أي عمل، بالشأن العام ارتباطاً لا يعتوره انفكاك. استفادت منها لميس برفع اهتمامها بما ينقصها، وهذا ما ندم عليه. منذ ذلك الوقت ابتلي بآرائها السياسية، تنقر بها رأسه بتوقعات صاخبة ومتشائمة. وعندما عزم على نصحها بألا تقرب السياسة. كان الأوان قد فات.

لذلك لم يستغرب عندما قالت له:

«التوانسة لا يصدقون وعود بن علي، يريدون تغييراً حقيقياً وإلا حمام دم».

بعد أن جهد طوال السهرة في تهدئة مخاوف التجار الجبناء، وتحريض الضباط الأشاوس على التروي، جاءت لميس لتشعل النقاش حول تونس من جديد. ارتدت قائلة:

«الاخبار... سيئة جداً».

«ألهذا الأمر جئتِ؟».

«لا، لأمر آخر سأقوله لك بعد قليل».

أحس بالندم، لأنه لم يغادر قبل أن تأتي، تابعت تسأله:

«تونس مقبلة على خراب، ألا تسمع الأخبار؟».

ماذا تكون الأخبار أكثر من أن الرئيس بن علي وعد بعدم الترشح للرئاسة، مجرد وعد، سيطلبون منه البقاء لفترة انتقالية، لئلا يحدث فراغ في السلطة، لكنه لن يقبل بأقل من الدولة

بالكامل. ما سمعه من أخبار قبل مجيئه، كان عن تجمع بضعة آلاف من المتظاهرين أمام وزارة الداخلية والمصرف المركزي يحاولون اقتحامها، فتصدت لهم قوات الأمن بالقنابل المسيلة للدموع. سألها:

«هل اقتحم المتظاهرون وزارة الداخلية والمصرف؟».

«أخبارك قديمة».

«إنها أخبار الظهيرة».

«إنهم يطالبون بتنحيته».

«فليطالبوا ما شاء لهم، لكن من يستمع إليهم؟».

رن جرس هاتفها الجوال، تناولته وأخذت تصغي دون أن تتكلم. انتظر لحظات، ثم أخذ يتراجع خطوة إثر خطوة. كانت منشغلة عنه. استدار ومشى على مهل. قبل أن يصل إلى الباب، سمعها تناديه. وقف والتف إليها. أدركته قائلة:

«بن علي غادر تونس، إنه الآن في طائرة تحلق به في الجو، يبغي مكاناً يهبط فيه، الرئيس الفرنسي رفض أن يستقبله».

تجمدت الأفكار في رأسه... بهذه السرعة؟!

«هل تمزحين؟».

«عزيزي إنها سابقة خطيرة في المنطقة كلها».

«ما الخطير فيها؟».

«مصر باتت على القائمة، وسورية لن تكون بمنأى عما يجري».

تمالك أعصابه واغتصب ابتسامة:

«شطحتِ بعيداً».

«لا، غريزة المرأة».

فسارع خارجاً من الصالون، لم تتركه لحقت به.

«حديثي لم يبدأ بعد».

رافقته إلى السيارة، ستعود معه إلى دمشق.

في السيارة، تابع نشرات الأخبار، الخبر الرئيسي مغادرة الرئيس زين العابدين بن علي لتونس، وكالات الأنباء لم تؤكد الخبر بعد.

لميس أكدته، وتنبأت أن الرئيس بن علي العالق في الجو، لن يستقبله بلد، وسيضطر إلى العودة والهبوط في مطار تونس. لن يدخل العاصمة، سيقبض عليه الجيش ويعدمونه في قاعة الاستقبال في المطار مع زوجته الطرابلسية سبب مصائبه. وإذا دخل العاصمة، فسيذبحه الثوار المجرمون أو المسلحون الإسلاميون، ويسحلوهما في الشوارع.

«من أين تأتين بهذه الأفكار؟».

«هل تتصور أن يفعلوا غير ذلك؟».

ولم يحل بعد دور حديثها الخاص، خمن أنه سيكون على صلة بحديث سابق، مؤخراً لمحت له بنواياها الغرامية، فاستشف أنها مقبلة على حدث كبير في حياتها، علاقة بشاب وسيم يعمل لديها، اصطادته من مستودعاتها، ونقلته إلى قسم المحاسبة إلى جوار مكتبها. وجدت لديه ما افتقدته عند غيره، توسمت لديه الأمانة، لقد اختبرته، لا مطمع لديه بمالها.

الحمقاء ربما وقعت في الحب، ولم تتجرأ حتى الآن على مفاتحة الشاب بما تكنّه نحوه. ما ذكّره

بشيء عنها، أحياناً كان الشك يخامره في أن شخصيتها تنطوي على قدر من الهبل، لاحظه عندما تندفع في الثرثرة، فلا تملك زمام أمرها، الأمر تكرر في العواطف، جربه معها في شبابه، أو عن مشاكلها العائلية الدائمة، حماقات ابنها في الجامعة، يتصرف وكأنه ابن مليونيرة، يريد سيارة آخر موديل، مع أنه لم يمض عام على شرائها سيارة له. وفي البيت مازال زوجها الرعديد، ينتقل من طور إلى طور، وكل واحد أسوأ من الآخر. الآن غارق في الموالد الدينية.

ترى أي منها يؤرقها اليوم حتى ألحت على لقائه دونما تأخير؟!

يمكنه توقع أكثر من مشكلة، وكلها من الأنواع التي تصر على أنها بلا حل، ثم يظهر أنها سخيفة. تنطبق على المنزلية منها فقط، كانت بلا حل فعلاً، فلا ابنها سيرتدع عن حماقاته الجامعية، ولا زوجها سيكف عن نوبات جنونه.

قبل فترة، ساعدها على حل مشكلة أعاقت تسيير أعمالها، فحضها على الرشوة وحذّرها، الأصوات بدأت تتعالى تشكو من بخلها. كانت تستقوي به، وتدفع القليل، تظن أنها معفية من هذه العادة الوظيفية الذميمة. فأفهمها بأن تسهيل أمورها ببعض المال ليس رشوة، بل إكرامية، المنافع يجب أن تعود على الجميع. تحججت بأنهم يريدون سرقتها، بل هي التي تسرقهم، لكل شيء ثمن، والتسعيرة معروفة.

توقعاته كلها لم تصب، كان لشكواها علاقة بالجهاز الخاص، وبإشاعة تتجدد من وقت لآخر: حملة التفتيش!!

ليس لديها وسائلها، هناك من أخبرها. الحكومة تعدّ لحملة تفتيش واسعة، الحملة جدية وخطيرة، القيادة أمرت بها وأصرت على تنفيذها بمنتهى السرية، لن تستثني حتى المقربين من القيادة والقصر الجمهوري. كانت خائفة، لأول مرة تواجه تهديداً يمس بأعمالها.

«تصور أن أتعرض في هذا العمر للمحاكمة والسجن».

احتاط، لم يخبرها بأنه المسؤول عن الحملة. ضحك وقال لها ألّا تشغل بالها بها، الفكرة ألغيت.

أدرك أن الذي أيقظ الشائعة، الاضطرابات الجارية في المنطقة، إذا اراد النظام ألا تمتد إليه، فلا بأس بحملة ضد الفساد. إذا كان ما يفكر به صحيحاً، فالأجهزة وراء الشائعة.

أصرت لميس على أن مصادرها موثوقة.

«حتى ولو كانت صحيحة، فالحملة استعراضية. لا تهتمّي، سأعرف أعضاء اللجنة».

بعدما أنهت شكواها، لم يكن لديه أدنى استعداد ليرهق نفسه بنوبة ثرثرة. رأسه يعج باحتمالات متناقضة، وساوسه تفاقمت من تداعيات ما يجري في تونس، ولم تعد وساوس، رغم أن رحيل الرئيس بن علي إشاعة، ما زال في تونس وسيفتك بالمتظاهرين، النتيجة عدة مجازر في العاصمة والمدن الأخرى. المحتجون بالغوا بهتافاتهم، طالبوا برحيله، لا معنى لها سوى طرده. لن يرحل ولن يقبل بطرده، مهما بلغ حجم الاحتجاجات. الرئيس بن علي يعد لضربة قاصمة تنهي الأزمة.

تمنى ألا تعاود لميس الحديث عن تونس، لئلا تشوش أفكاره، يكفي ما تنبأت به. لا تدرك أن المظاهرات لا تسقط رئيساً عربياً.

في المزة فيلات غربية، نزلت لميس من السيارة أمام بيتها، ونسيها على الفور، واستعجل الوصول إلى البيت ليتابع أخبار قناة الجزيرة.

في البيت، سمع الخبر اليقين: أعلن الديوان الملكي السعودي عن ترحيب المملكة بقدوم الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، وتتمنى الخير للشعب التونسي.

المستحيل تحقق، الرئيس فرّ هارباً ومعه زوجته، وترك تونس لأعدائه المتظاهرين، هؤلاء الذين لا يحسب لهم أي حساب. بقي المستحيل الأسوأ، مصر ... وماذا أيضاً؟

الفصل الثاني

القدر

لا يخفى على المهندس شيء، علم بوسائله الخاصة بخروج أخي من السجن، فطلب زيارتي للتهنئة بإطلاق سراحه. كان نادراً ما يزورني، وبخصوص العمل فقط. طلبه بادرة طيبة، وإن مجاملة. تطلب مني إعداد أخي لزيارة مسؤول كبير، من الطبيعي أن يُكِنَّ كل منهم العداء للآخر، أخي سجين النظام والمهندس مقرب من النظام. قلت لأخي؛ هذا الرجل يقود حملة ضد الفساد، منذ ما يزيد عن عشرين سنة، المؤسف أنها لم تفض إلى ما يرجوه منها، العمل توقف أكثر من مرة، لكنه مازال مواظباً، أبعدوه عن منصبه، لكن إرادة الاصلاح أعادته إليه. يوماً ما، ويؤمل أن يكون قريباً، عندما يكشف عما بحوزته من ملفات، فسوف يتصدع صرح الفساد.

اعتقدت أن هذا التعريف به سيحسن من نظرة أخي إلى البلد، الإشارات واعدة وتوحي بمتغيرات قريبة، لا سيما بعد مضي عشر سنوات على تولي الابن رئاسة البلد، وفي يوم قريب ستدرك الدولة ألا بديل عن رد المظالم والتعويض على أصحابها.

صادفت زيارة المهندس الأيام الأولى من شهر شباط، وهو تاريخ مؤلم بالنسبة إلينا، خصوصاً لأخي. لم أنتبه أنه كان أيضاً يعني الكثير للمهندس، إلا بعدما سلم على أخي، وجلس إلى

جواره، لم يكن قد بدأ حديثه مع أخي، حتى تعلقت عيناه به، وأمعن النظر إليه، بدا عليه عدم التركيز، كأن هناك ما شتته، فتقطعت أسئلته. ومثله أخي، لم يكن طبيعياً، لم يحوّل عينيه عنه. بدا كل منهما متحفزاً، متسائلاً ومأخوذاً.

أخي لم يعرفه، فقد تغير المهندس كثيراً، بات يشبه غيره من المسؤولين، بديناً ووجه متورد الخدين. بعد ثلاثين عاماً ما الذي بقي من النقيب الذي كانه يوماً ما؟ لم يبق سوى عينيه، والنظرة الشامتة التي حدجه بها في الباحة التي عقدت فيها المحكمة الميدانية، بينما الآن يواجهه بنظرة متسائلة، لم يرتح إليها، لم يستطع إسكات تساؤلات قانطة وغامضة أخذت بخناقه.

سأله المهندس لمجرد السؤال، في أي يوم اعتقلت؟ أجاب أخي والكلمات تخرج من فمه ببطء شديد: في الثاني والعشرين من شباط ١٩٨٢ . ثم سأله عن الاتهام الذي وجه إليه. فقال أخي إنه لم يواجه بأي اتهام، اتهموا الرقم ٧٧.

من هو؟ تساءل المهندس. أجاب أخي، اسأله عندما يأتي.

حسبه المهندس يمازحه، فوضع ابتسامة على وجهه. لم يسأله ثانية، كان وجه أخي المكفهر لا يغري بالسؤال. ألقى المهندس نظرة إليّ مستغرباً. فقلت له، أخي مريض.

استغرب المهندس حالة أخي النفسية. كظم ما اعتمل في داخله. بينما أخذ أخي يروي قصة عن نقيب أرسله زوراً وبهتاناً إلى الموت متهماً إياه بجريمة لم يقترفها، وفي غيابه قتل عائلته.

لم أنتبه إلى أن المهندس كان يغلي من الغضب، إلا عندما عبس. لأول مرة أرى ملامحه تخلت عن تصلبها. لم يكظم غلّه، انفجر مدافعاً عن نفسه قائلاً لي:

«أخوك الطبيب إرهابي، كان يداوي جرحى العصابات الإسلامية».

فوجئت بغضبه واستغربت اتهامه. سارعت قائلاً وقد ارتج عليّ ما سمعته: أنت مخطئ، أخي ليس إرهابياً، عانى كثيراً ، وكاد أن يعدم، بقي سنوات مُهدداً بالشنق. كما أن مقتل عائلته أطاح صوابه، لم يعلم به إلا قبل أيام.

وإذ التفتُّ الى أخي، ملامحه تغيرت، يكاد أن ينفطر من شدة الألم. سارعت قائلاً للمهندس: «أرجوك، اعذره، أحياناً لا يكون هو».

ما أدركته لحظتها وإن بغموض، أن المهندس لو لم أكن موجوداً لأطبق بيديه على عنق أخي. لا أدري من أين جاءني هذا التصور، تصرفه التالي أوحى لي، وهو يتلمس خصره وتحت ابطه، أنه يبحث عن مسدس أغفل حمله. لكنه قفز من مكانه وهرع نحو الباب. في ما بعد، فسرت تصرفه المفاجئ، خشي أن يستغل أخي وجوده في البيت وينتقم منه. كان ما تخيله أبعد ما يكون عن ذهن أخي. لحقت به، كان قد صفق الباب وراءه وخرج.

التفتّ نحو أخي، وجهه أصفر اللون، جاحظ العينين، يتكلم مع نفسه وهو يتمايل يمنة ويسرة، على وشك السقوط. تراءى لي أنني أجهله. خمنت أنه ارتدّ سجيناً يحمل الرقم ٧٧. سمعته يقول:

«هذا الضابط قتل أبي وزوجتي وأولادي».

فلم أصدق، قلت له، هذا مهندس. رد عليَّ، هذا قاتل.

أطرق برأسه وقال بصوت منخفض، كأنه يسأل شخصاً غير موجود بيننا، ويعاتبه:

«لماذا جمعني القدر به بعد هذا الزمن؟»".

تساؤل لم أخطئ فهمه، القدر وضعه أمام مسؤولية، لم يكن راغباً فيها.

القدر أيضاً وضعني أمام القاتل الذي تعاونت معه على كشف الفساد. فهمت لماذا لا يمكن لأي إصلاح أن يحدث، ما دام المجرمون هم أنفسهم المصلحون. وإذا فكر المجرم بالإصلاح، فليمنعه.

هذا ما أنهى علاقتي بالمهندس، لم آسف، أنا لم أخسر صديقاً.

أمضى أخي يومين من الصمت المطبق، ترى كان يستعذب الصمت أم التفكير؟ لا هذا ولا

ذاك، لم يكن هو، كان الآخر.

وهكذا شاءت المصادفة ألا تحرمني من التعرف إلى الوجه الآخر لأخي، الوجه المعذب المبتلي بالآلام. لم يكن الصمت مطبقاً، إلا لأنه لم ينبس بكلمة، بينما في داخله كان ينزف اوجاعاً وذكريات. في اليوم الثالث خرج من البيت صباحاً باكراً، حاملاً معه حقيبة صغيرة تحتوي على حاجياته القليلة.

خامرني احتمالان لا ثالث لهما، إما أن الرقم طواه في داخله، وذهب به بعيداً، أو أنه صحا على نفسه، بعدما عرف القاتل، وأخذ طريقه إلى الثأر...

اتصل بي المهندس، بعدما عرف بمغادرة أخي، كان المنزل تحت المراقبة. قال لي، في حال ظهور أخي علي إبلاغه تسليم نفسه.

قلت له، أخي عاف السجن، ذهب ولن يعود.

١

شقّ على المهندس استيعاب وجود الطبيب حياً، صحيح أنه بدا كالشبح، لكنه كان حقيقة واقعة. مهما مرّ من الزمن، يستحيل تكذيب ما رآه بعينيه، لم يكن الطبيب الواقف في مؤخرة شاحنة الزيل ذاهباً في نزهة، بل إلى الإعدام رمياً بالرصاص في حقل الرمي، أعدم الجميع ما عداه!! بقي حياً يتنقل من فرع لآخر، ثم حط في سجن تدمر، ولم يشنق!! نجا بمعجزة أكثر من مرة، وبما أنه ظهر، فالمعجزة المستمرة، انتهى مفعولها. لكنه اختفى.

اتصل بالقاضي، وقال له إنه لن يؤذي أخاه، كرمى لعلاقة العمل بينهما، ولن يستقوي على رجل معلول ومعاق في عقله، سجله في المعتقلات والسجون، يؤكد أنه مجنون. لكنه إذا ارتكب حماقة، فلن يتسامح معه ولو كان مجنوناً، ستكون نهايته على يديه. وطلب منه إعلامه في حال عودته.

ترى أين ذهب هذا المعتوه؟!

نفى أدنى شك قد يراوده في قدرة المهبول الفار على أن يثأر لمقتل عائلته، لابد أنه يبحث عن جحر يختبئ فيه، عيادة في قرية نائية من الريف. لم يعد أكثر من رجل شاحب هزيل ومذعور. أحدثت تدمر خللاً في رأسه وعطباً في جسده. عموماً لم ينج من تدمر سوى القلة، كانوا أول ما يفكرون به بمجرد خروجهم منه مغادرة البلد. إذا تحسنت صحة الطبيب المعتوه، واستعاد عزيمته بما يساعده على الحركة، لا على المزيد من البلادة، ستتجه أفكاره إلى الخارج، لا شيء عاد يربطه بسورية، حماه لم تعد له فيها حارة ولا بيت، لا زوجة ولا أولاد، لم يبق من عائلته سوى أخيه... والرضيع الذي أصبح شاباً. ترى هل وجده؟ ربما، إذا كان حياً، فهو الشخص الوحيد الذي سيربطه بالبلد. لو أنه يكثّف البحث عنه، فقد يجدهما معاً.

وزع أوصاف الطبيب على المعابر الحدودية، ودوريات المخابرات. لا يريد سوى معرفة أين هو، قد يحالفه الحظ ويصادف ابنه معه. لن يعتقلهما، سيضعهما تحت الرقابة، وإذا كان لابد من إجراء حاسم، فلن يكون الاعتقال، ولا السجن.

رن جرس الهاتف.

في الساعات المتأخرة من الليل، لا يتصل به سوى لميس، فلم يرفع السماعة. بعد قليل، رن هاتفه الجوال. لم تكن لميس، القيادة على الخط. سمع صوتاً قال له:

«سيعقد اجتماع غداً الساعة التاسعة صباحاً في المقر».

لم يقل له سبب الاجتماع. خمن، محور النقاش، ما أصبح يدعى في القنوات التحريضية بالربيع العربي. في القيادة بعدما تظاهروا باللامبالاة، وأنكروا علناً الخطر الآتي، قرروا الاحتياط سراً من العدوى. غداً سيعترفون به ولو في قاعة مغلقة. لم يجربوا أزمات داخلية، ما عانوا منه أزمات خارجية في لبنان والعراق، وأفلحوا في إبقائها خارجية، لم تعبر الى الداخل.

كي لا تسبقهم الأحداث، شكلت القيادة لجنة استشارية مصغرة برئاسة ضابط برتبة لواء، جاؤوا به قبل سنوات من فرقته على الحدود الأمامية، بعدما انتقد خروج الجيش السوري غير

المشرف من لبنان. وضعوه بما يشبه الإقامة الجبرية في وزارة الدفاع وأرهقوه بملفات التسليح. لم يُخفَ عليهم أن إلحاحه على التدريب والمشاريع بهدف رفع الجاهزية القتالية للجيش، لإعادة لبنان إلى حضن سورية الأم، وليحصد شعبية بين الضباط الصغار. منعهم من إقالته دفاعه الشرس عن النظام، ومو الاته العمياء له. الزعيم الراحل كتب بقلمه أمام اسمه: لا يستغنى عنه. وصية الراحل، بمثابة الآية، تنزيل من الخالد. فنقل من الأركان إلى القصر الجمهوري، وأسند إليه منصب مستشار للشؤون العسكرية، كالمعتاد لم يُستشر. وبما أن اللجنة التي شكلت استشارية، كان منصبه على رأسها مضموناً، العقبة أنه برتبة لواء، بينما ضابط متقاعد مشاغب من أعضاء اللجنة، كان قائد فرقة برتبة لواء. تجنباً لحساسية الرتبة، وعدوا اللواء المستشار بالترفيع إلى رتبة عماد في الدفعة المقبلة، الرتبة الأعلى في الجيش، وقف اللواء المتقاعد أمامها صاغراً من فرط ثقلها، قلة من يحظون بها. وبما أن لوائح الترفيعات لم تصدر بعد، سمحوا له باستعمال الرتبة داخل اللجنة حصراً.

ضمت اللجنة أيضاً ثلاثة من قادة الفروع الأمنية، وخبيراً شاباً مقرباً إلى الرئيس، سيسجل خلاصات للأفكار التي ستطرح، وينقلها إلى الرئاسة. اقترح منذ البدء تناول جائحة المظاهرات في المنطقة العربية والتي قد يتعرض إليها البلد، تحت عنوان: المؤامرة التي تستهدف سورية.

خلال كلمته، لم يتطرق العماد رئيس اللجنة إلى تونس إلا لماماً، بعد مضي شهرين على اندلاع ثورتها، بدا وكأنها أصبحت من الماضي، وإنْ أشار باحتقار إلى الهروب الجبان للرئيس زين العابدين بن علي، وركز على التنحي القسري للرئيس المصري حسني مبارك؛ ليس الشعب المصري من أسقطه، الأميركان غدروا به. لهيب الثورات سيتوقف عند هذا الحد، رغم محاولة الغرب إشعال ثورة قبل أيام في ليبيا، لن يفلحوا، الرئيس القذافي سيتعامل مع العملاء مثيري الشغب بأسلوب حازم. الأمر اللافت كان في دمشق؛ مظاهرة سوق الحريقة التجاري.

كانت مظاهرة الحريقة هي السبب المباشر للاجتماع، استعرضها ضابط مخابرات من الأمن القومي، بدأت بمشادة بين شاب ورجال من شرطة المرور، تطورت إلى اعتداء عليه بالضرب. استغاث الشاب بالناس المتواجدين، أدت المشاجرة إلى تجمع المارة، وشكلت ما يشبه المظاهرة،

طالبوا بالإفراج عن الشاب. توافد ضباط من الشرطة لتطويق الموقف، كان الرد عليهم بالهتاف «حرامية حرامية». حضر وزير الداخلية، فتحول الهتاف إلى «بالروح والدم نفديك يا بشار»، بعضهم تابعوا هتافاتهم الاستفزازية. تدارك الوزير الموقف بالحسنى، أطلق سراح الشاب، وانفضت المظاهرة. الحادثة كانت من دون تدبير مسبق، المعارضة لم تكن وراءها، وإن حاولوا تجييرها لهم، ثم اعترفوا بأنها عفوية.

العرض المفصل، لم يهمل المكان الذي حدث فيه التجمع، فهو يقع في مدخل الحريقة والدرويشية، وهي منطقة يأتي إليها القرويون من ريف دمشق ليتبضعوا لوازمهم رخيصة الثمن من الخردوات والأواني المنزلية والحلويات... وتشهد كثيراً من المارة العابرين إلى سوقي مدحت باشا والحميدية. وما إغلاق التجار لدكاكينهم إلا لخوفهم في العجقة على بضائعهم من السرقة. كذلك الهتاف الرئيسي، «الشعب السوري ما بينذل». وهو هتاف سائر، له تاريخ أطلقته مظاهرات الوطنيين ضد الانتداب الفرنسي. بالنسبة إلى هتاف «لا إله إلا الله»، السوريون عموماً يرددونه في الجنائز والأعياد، بمناسبة وبلا مناسبة. حادثة سوق الحريقة لا دلالات لها، وإذا وضعناها في نصابها، فهي شجار تجمّع الناس حوله من باب الفضول، وكان سبب الازدحام ضيق الرصيف... الأمر كله لا يعدو مصادفة.

أجمع النقاش الذي أعقبه على أن سورية ليست تونس ولا مصر، دولة لها خصوصيتها، لا تشبه أي بلد عربي، لديها المناعة من شغب كهذا، مهما بلغت مضاعفات الأحداث حولها، فلن ينعكس في داخلها إلى ما يمكن وصفه بحراك شعبي. توجه غالبية أعضاء اللجنة بالنقد الشديد إلى وزير الداخلية لمعالجته الموقف بالحسنى. لا مبرر لاسترضاء المتظاهرين، الأجدى معاقبتهم بموجب قانون الطوارئ الذي يمنع التجمعات. قد تشجع هكذا معالجة هزيلة المعارضة على استغلالها، وتجربة حظوظها.

لم يرق النقاش للمهندس، هذا الاجتماع ليس لترديد ما يهدئ الخواطر، بل لإثارتها؛ ما الذي يمنع المظاهرات من الامتداد إلى سورية، هناك عناصر تشابه مع تونس ومصر ليست اعتباطية، يعرفونها جميعاً، وموغلون فيها، الحال واحد: يسيّر الدولة وزراء ينفّذون الأوامر فقط، يعملون

بإشراف الأجهزة الأمنية، تحت غطاء حزب ضعيف ومنافق لا حول له ولا قوة. رجال الأعمال المرضي عنهم من الرئاسة، يمتلكون ثروات هائلة، الرئيس أوكل الاستثمارات إلى أقربائه، عائدات العائلة الحاكمة تكاد تبتلع البلد. بماذا نختلف عنهم؟! ... هذا اذا شئنا أن نفكر بتجرد.

ما يجري لا يعنيه وحده، يعني أيضاً هؤلاء المتحلقين حول الطاولة، بعضهم يتثاءب، وبعضهم يحك رأسه، كل منهم ورد اسمه في ملف بصفقة أو عمولة، إن لم يكن لديه ملف خاص به، إذا حدثت ثورة، فرؤوسهم مطلوبة. لا يمكنه أن يقول لهم أنتم متورطون، ولا أن يطلعهم على ما هم مطلعون عليه، إلا إذا كان النقاش في منتهى الصراحة، وفي حال اتخذ هذا المنحى، فاجتماعهم سيبدو لا أقل من مؤامرة على النظام. وعلى هذا لن يطرح هو ولا غيره ما ينبغي تداركه قبل فوات الأوان، يتكلمون كأنهم في ندوة انعقدت لنفي الحقائق كلها، الخشنة والناعمة.

كاد أن ينفضّ الاجتماع على رأي خلاصته أن متغيرات حدثت في تونس ومصر، وهذه المتغيرات ضرورية، يُنصح بتأييدها. وإن كانت لا تعنينا، ولن تمسنا، سورية يحميها نهجها المقاوم والممانع، الخلاصة: الشعب درع الدولة.

الشعب!! كان أكثر ما أزعجه. عندئذ طلب الكلام، رغب في إيراد ملاحظة صغيرة لا يصح إغفالها؛ ما حدث في البلدين، لم يحصل بانقلاب عسكري، دموي أو أبيض، ولا مؤامرة داخلية أو خارجية، ولا بتحريض من أحزاب مناوئة، وليس وراءه الإسلاميون، أو الليبراليون أو العلمانيون أو الشياطين. تم بلا تفجيرات واغتيالات، أو طَلَبَ تدخلٍ من دولة أجنبية، أو نجدة من جيش عدو. ما حدث ثورة شعبية!! وبالتالي علينا أن نكون حذِرين من الشعب.

كان قد وجه الاتهام إلى الشعب!!

هذا الشعب، مثيله بالذات، كان في سوق الحريقة.

كان الرد عليه هجومياً وشرساً، شنّه عليه الخبير الشاب، آزره الحاضرون؛ يقف الشعب قلباً وقالباً إلى جانب الرئيس، التشكيك بالشعب يخدم الأجندات الغربية...

لم يتنازل لشن هجوم معاكس على الولد الخبير، استسخفه، شاب من الحرس الجديد، لم يفلح هو وجماعته طوال تسنمهم لمناصبهم المؤثرة، سوى في تصدير شعار واحد، نسبوه إلى الشعب، لم يزد عن كلمة واحدة «منحبك». هذا أقصى ما استطاعوا ابتكاره: الشعب واقع في غرام الرئيس!! كأن هذه العلاقة الحميمة، ستعمي الناس عن العسف والنهب. عجزوا عن تغييب لقب «الخالد» عن الرئيس الراحل، على الرغم من محاولات إخفاء آثاره. ما يقومون به، بهرجات إعلامية دعائية، لتجميل عهد، لولا إنجازات العهد الذي سبقه، لما كان.

إزاء هذا الهجوم، سيتبرع بتعريف هذا الولد بما يجهله؛ ليس الشعب سوى كتلة عمياء بلا عقل، تنقاد لمن يقودها. عاصره في أكثر من مرحلة، وكان بعضها قاسياً جرت فيه الدماء كالأنهار، اضطر الرئيس الخالد إلى إخضاعه بالقوة والسلاح والمشانق، المحاكم الميدانية كانت تصدر حكماً واحداً لا غير: الإعدام، أكوام الجثث أفلحت في إخفائها الصحراء والمقابر الجماعية.

فمن يا ترى يعرف الشعب؟ أنتم؟! هذا الشعب ليس بريئاً، ينتظر فرصة سانحة لينقض على الدولة. الأمر الجيد هو أن الشعب لم يعد مقدساً، كما كان في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ولا مطواعاً كما يبدو لكم. بصريح العبارة: لا يتورع الشعب ناكر الجميل عن أي شيء، لقد فعلها في تونس ومصر، وقد يفعلها في سورية.

احتدم النقاش ثانية، بلغت الحدة بالخبير الشاب، أنه عرّض بالحرس القديم، العقبة الوحيدة في وجه الإصلاح. الرئيس يثق بالشعب، والشعب يحب الرئيس. وآخر دليل قبل أيام في ساحة المرجة، أمام وزارة الداخلية، اعتصم من يزعمون أنهم ناشطو الحريات وحقوق الإنسان وأهالي المعتقلين، مجموعة من السفلة، بلغ عددهم نحو مائة شخص، وطالبوا بالإفراج عن سياسيين عملاء خونة مثلهم، من الذي تصدى لهم؟ الشعب من أصحاب المحلات المجاورة والمارة وبعض الشبان، هجموا عليهم، ضربوهم بالعصي، وشحطوهم من شعورهم على الأرض.

لم يرد عليه، وإلا حدثت مشاجرة، كان الذين هجموا عليهم مجموعة من زعران المنظمات الشعبية، طلبة جامعيين بعثيين، ومخبرين، وعسكر بملابس مدنية... حرضهم شبان الحرس الجديد، كانت المشاهد العفوية من إخراجهم.

انتهى الاجتماع. بعد اتفاق الأغلبية على ما كان منسجماً مع أقوال الرئيس؛ لن تنتقل الفوضى إلى البلد. سورية مستثناة من هذا الحراك.

خرج غير راض عما اتُفق عليه، لأنهم فعلياً لم يتفقوا على شيء، ولم يكن مهماً، الرئاسة غير معنية بهم، ولا بما توصلوا إليه. حسبما يعرف، الرئاسة لن تعتمد القمع، إلا إذا أحست بخطر جدي، ولو كان مجرد نوايا.

عند الباب لحق به الشاب. استوقفه، وعلى عكس مداخلته، عبّر عن إعجابه الشديد بما قاله، ثم أخرج من جيبه بطاقة صغيرة، أعطاه اياها قائلاً، إذا احتجت إلى شيء من الرئيس، فاتصل بي. وسأله عن نوع العمليات التي يرتئيها لمعالجة الوضع فيما لو ساء. فقال المهندس وقد تعمد أن يبدو غامضاً: عمليات نوعية. واعتذر بأن لديه موعداً.

بعد أيام، وجد البطاقة في جيبه، قرأ الاسم، خالد... كان الشاب من أقرباء العائلة المالكة، سمع باسمه عدة مرات، ولم يهتم به، العائلة ومن يحفّ بها من فرط ما توالدوا، أصبحوا طائفة ضمن الطائفة، وكل منهم يستعمل اسم العائلة السحري. إذا لم يصبح مركز قوة ونفوذ، شكل عصابة تشبيح مختصة بالتهريب والسرقة والخطف. لم يعرف من أي نوع هذا الشاب، الأول أم الثاني، سأل عنه من باب الفضول. كان الجواب مختصراً: هذا الشاب من الحثالة الراقية، لا الرثة. من الأعوان المخلصين والمقربين إلى الرئيس، يتماهى معه ويقلد نبرة صوته وحركاته، هذا التشابه ليس عن عبث، كان يتكلم باسم سيادته، بلا أية صفة رسمية. يدلي بآراء لا يعلنها الرئيس علناً، بل وينكرها، في حين لا يحتاج خالد إلى التراجع عنها، ويعني ما يقوله تماماً، فكان بالوسع تكهن ما ينوي سيادته القيام به، من دون أن يفصح عنه.

المثير أن كل من سأله عنه، قال إن الشاب يتمتع بالذكاء، قيّموا ذكاءه بالمقارنة مع أمثاله من الأقرباء السفلة الأغبياء، الذين لا يتميزون إلا بالقسوة والشراهة والنذالة، كانوا من القماط يحصلون على ما يريدون، فلم الذكاء؟

٢

غادر عدنان منزل أخيه قاصداً حماه. أسامة رجاه عندما غادر السجن أن يزوره عندما يطلق سراحه، فوعده وكأن الافراج عنه أمر ممكن. كان ضرباً من الخيال، لن يتحقق. عبّر عنه حينها بأسى، ما الفائدة؟ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم.

هل أنت أكرم من الله؟ قال أسامة.

ولقد كان الله كريماً، وأُفرج عنه. نسي وعده لأسامة، حتى أنه عندما ذهب إلى حماه، لم يتذكره. ألح عليه الوعد بعد لقائه بالمهندس، لن يساعده غيره. فخطر له الوفاء بوعده، ليبرر اللقاء به. تعثره بالقاتل، وضعه في قبضة القدر، فتحدد طريقه، لم ينج من الموت إلا ليثأر لنفسه وعائلته.

قبل أن يأخذه القدر إلى أسامة، تخفف مما يثقله، فك ارتباطه بالرقم ٧٧، ليس من الأمانة تحميله عواقب قراره الشخصي، يكفيه ما أخذه على عاتقه من أعباء قاسية. من الآن فصاعداً، لا بدائل على الإطلاق. الرقم وليد السجن، قبله لم يكن له وجود، وإذا لازمه، فكأنه ما زال سجيناً. وكما تحرر منه، حرره أسوة به. هذا الفعل يتصل بحياته، سيرسم مسيرة ما تبقى منها، لن يخاف مما سيأتي. إن لم يستعد ذاته في هذا المفترق، فلن يستعيدها أبداً.

في الصباح الباكر، انطلق من كراج القابون إلى حماه.

عثر على أسامة في العنوان الذي احتفظ به سنين في ذاكرته. الشاب الذي نضج في السجن أصبح رجلاً قارب الخمسين من عمره، إن لم يكن تجاوزها، وخط الشيب شعره، أسس مع أخيه الأصغر ورشة للتمديدات الصحية، على زجاج الواجهة كتب «لصاحبها حسان الحموي». أنجب صبياً وبنتاً، الصبي في المدرسة الابتدائية، والبنت تتعلم المشي. أما ابنه الذي تركه جنيناً في بطن أمه، ففي السنة الأولى من كلية الصيدلة.

واجه أسامة بعض الإشكالات بعد خروجه من السجن. في المعاملات الرسمية اسمه

حسان. ضمن عائلته، والحي الذي يسكنه، أسامة. تواطأ معه الأهل والمعارف على أنه حسان. بالنسبة لأولاده، حسب سجلات دائرة النفوس، ولده الأكبر ابن أسامة، بينما الصبي والبنت أبوهما حسان.

أشد ما واجهه، بعد غياب عشرين عاماً، أن امرأته لم تتعرف إليه، أنكرته من فرط ما تغيرت هيئته وملامحه. بالنسبة إليها، كان الرجل الغريب القادم من العدم، بعدما سبقته قبل سنوات أخبار عن إعدامه. جاء يحمل اسماً آخر. لم تسمح له بدخول البيت، أو تجمعهما خلوة، إلا بتدخل أهله وأهلها، أكدوا لها أنه زوجها الغائب، عقد شيخ قرانهما عرفياً. بعدما استرد ملامحه، حصل دخول. طلبت الطلاق من زوجها المتوفى أسامة، وتزوجته رسمياً تحت اسم حسان. اعترف أسامة لزوجته عن مديونيته بحياته لصديقه الشهيد، وتعهده لرب العالمين ألا يقصر إزاء ذكراه بما يرضي روحه. سيرافقه حسان إلى المهات، أباً لولدين من أولاده، ولو بالاسم فقط.

أمام نظرات عدنان، تجددت آلام أسامة، وكأن الطبيب عاد ليسأله عن الحقيقة، سنين بطولها، لم تنسهما حسان، تشاركا بموته، الطبيب بتجاهله في الأيام الأخيرة من حياته. وأسامة بتضحيته به. ما زالت القصة عالقة بينهما، كلاهما لم يتجاوزاها. عدنان تساءل بصمته، فقال أسامة:

«ما كان بيننا، كان في سبيل الله».

هذا الجواب سمعه في السجن، ولم يضع حداً لما حاك في صدره، احتفظ بشكوكه، الحقيقة لم تعد تهمه. أسامة، بدا أكثر تصميماً على الاقتراب منها:

«إذا كنتُ نادماً على شيء، فلأنني لم أحبه كما أحبني. ما أنا على يقين منه، لا صداقة إن لم يخالطها قدر من الحب، كيف يمكن فهم أن يمنحك إنسان عزيز عليك روحه؟! لهذا عذبني هذا الحب، خشيت أن يكون فيه عصيان لله. بعد خروجي من السجن، لم تكن مخاوفي كما تصورتها. تذكرته ليلاً، عندما كنت أسمع أدعيته واستغفاره ورجاءاته وبكاءه، يستصرخ الله مساعدته على ما نوى عليه، وأن يكون قيامه به خالصاً لوجهه. صوته يسري متشنجاً في هدأة الليل، فأحس كأن هناك ما يشتعل فيّ، شوقه الفائض نحو الله أضاء ظلام روحي. ولقد استعان بالإيمان، ليشد

من عزمه. لم أعرف في ذلك الوقت، سوى أنه كان متيقناً من أنه على صواب. أنا أنكرت هذا الصواب، لم أفهمه. كان خائفاً أن يحسب موته على أنه فرار من السجن، ولم يكن أمامه سوى حبل المشنقة كي يعبر عما ضاق به صدره. ربما استغلني، كنت وسيلته للرحيل. دعني أشك، لقد خلطت بين الحب والتضحية والايمان، ولم أميز بينهم. قدرة حسان الهائلة على التضحية وجدت تعبيرها في الحب. وإذا كانت هناك حقيقة أخرى، فأنا أجهلها....».

الطبيب لم يعلق، تذكر رعب حسان الهائل قبل الذهاب إلى المشنقة، ما يفسر شوقه إلى كائن من شدة ما شغف به، خشي ألا يجده. غير أنه سكت، لم يرد إضافة تفسير ولا تبرير؛ الحقيقة ليست ملك أحد حتى تكون ملكه، ولا بوسعه الوصول إليها، أو الفصل فيها. لو كان مؤمناً، لتمكن من تقدير ليس الحب، بل كنه هذا الإيمان الذي يتشوق فيه الإنسان إلى الله. الإيمان الذي يلهمهم، لا يعرفه، ليعرف مدى تأثيره فيهم، ومقدار هيمنته عليهم. الحقيقة ممتنعة، حتى أصحابها يجهلونها. لن يفكر فيها، ولن يختلف معها، إنها حياة إنسان.

لم يُخف أسامة عن صديقه الطبيب أن الحرية التي تخلى عنها حسان له، أدّت الغرض منها. في حماه لم يعثر على خلايا نائمة، الحزب انكشف كلياً، من لم يستطع الهرب إلى الخارج، سيق إلى السجن. الموت عقوبة كل من يقبض عليه. نشاط الحزب معدوم تماماً. الشبان الجدد من الاسلاميين المتشددين قلة، مشلولون، يتحركون بمنتهى السرية. لم يحاول الاتصال بهم، يجمعه معهم الاختلاف على كل شيء، من مسائل الايمان إلى الجهاد. أعادوا إلى ذاكرته جماعة الطليعة التي أودت بالحزب إلى الخراب. لكن مهماته العاجلة نجحت، استطاع تأمين قناة سُربت من خلالها أموال المساعدات من الخارج، وكفى حاجة الكثيرين من عائلات الشهداء، وعمل على تنشيط الدعوة إلى إسلام متسامح، تنحو إلى التأثير في الناس. راهن على الزمن، سيأتي اليوم الذي يجد فيه النظام نفسه معزولاً عن الشعب.

لن يتردد الطبيب، سيصارح أسامة بسبب قدومه إلى حماه، لقد عثر على المجرم الذي قتل عائلته وأودى به إلى السجن. لن يستطيع المضي في الحياة إن لم يقتص منه. المجرم يتولى منصباً كبيراً في القصر الجمهوري... كما أنني أصبحت مستهدفاً منه.

هل تساعدني؟

٣

بعد أيام قليلة، سينهار كل ما فكر فيه المهندس بخصوص الطبيب، لقد استهان بقدراته كثيراً.

ليلاً، راجعاً من سهرة البوكر، أشعل وهو في طريقه إلى غرفة النوم، ضوء الصالون. فوقع بصره على رجل جالس على الكنبة؛ كان الطبيب نفسه المعتوه والهزيل، مصوباً المسدس إليه. بدا كما رآه قبل أيام، لكن هادئاً، على وجهه ملامح متأمل بريء مع مسحة من السكينة، كأنه لا يصوب نحوه مسدساً ولن يطلق النار عليه بعد قليل، وربما فوراً.

عندما دخل إلى الفيلا، لم ير عنصر المرافقة المناوب، ظنه نائماً، عادة لا يوقظه عندما يأتي متأخراً، وإن كان يوبخه في اليوم التالي. لابد أن الطبيب قتله، الآن جاء دوره.

بدا الموت الجالس على كنبة قد استهلك مفاجأته. لم تخالج المهندس أي فرصة بالنجاة إزاء فصيل إعدام يتألف من شخص واحد، لديه كل الأسباب كي يقتله. لا مبرر لسماع الحكم، يعرف جريمته وعقابه، لكنه لأول مرة في حياته يطبق عليه خوف هائل؛ ميت لا محالة، استغرب أنه لا ينوي المقاومة على الإطلاق، هذه هي الخاتمة، وكأنه توقعها منذ أطلق النار على عائلة هذا الرجل، وقتها لو أنه عرضت عليه هذه النهاية مقابل تلك المقتلة، لما تردد، وإن تحسر الآن، ليته لم يفعلها. دائماً ما تراءى له موته عاصفاً، لا داخل هذا السكون الواشي بموت سخيف، من جراء رصاصة طولها لا يزيد عن سنتيمترات.

تماسك أمام الموت الآتي. فجلس، لم يستحسن تلقّي الرصاصة القاتلة واقفاً، سيُشج رأسه بمسند الكنبة وهو يسقط، ويصطدم جبينه بالأرض، يتوسد البلاط، فاتحاً ذراعيه وتسيح تحته بركة من الدماء. بينما منظره صريعاً، وهو جالس على الكنبة، رأسه إلى الخلف، أو مائل إلى الجانب، أفضل، يعطي للناظر فكرة عن مواجهته مصيره بشجاعة وجهاً لوجه، وإن افتقدها، لمجرد تباطؤ الطبيب في قتله، لابد أنه يرغب في إلقاء مرافعة تبث فيه الرعب.

لم يخطئ في أن الطبيب لم يكن مستعجلاً، لكن ليس كي يرافع مثبتاً عليه جرائم تستحق الموت. كان عدنان قد اشترط بينه وبين نفسه، أن يأخذ انتقامه وقته كاملاً، قتل مديد، لا اغتيالاً بلحظة خاطفة. ساعده أسامة برفقة أصدقاء له على تسهيل تسلله إلى الفيللا. لولاه، لما كان الآن يسدد نحوه مسدساً كاتماً للصوت، بينما العنصر المناوب في الكولبة، مربوط اليدين، متورم الجبين، مغلق الفم بلصاقة، والشبان الثلاثة اختبأوا بين الأشجار، ينتظرون خروجه سالماً، يعرفون أنه سيطيل مكوثه في الداخل.

الحساب يرافق القتل، سيذيقه الموت بالتقسيط، رصاصة إثر رصاصة، كل واحدة تصيبه في موضع غير قاتل، ليموت على مهل، ببطء شديد، يبدأ بإصابة قدمه اليمنى، فاليسرى، ثم يده اليمنى وهكذا... الدماء تسيل، تبلل ملابسه، وتتناثر على الأرض والجدران، جاهداً في إطالة عذابه، والتشفي برؤيته يلفظ أنفاسه، نَفَساً إثر نفس، المنية تدنو منه بتؤدة، تتقدم من لحظة لأخرى، نزع ولا موت. احتضار ممطوط وممل، إلى حين تستقر الرصاصة الأخيرة في جبينه، بين العينين تماماً.

لن يضغط على الزناد قبل أن يتذكر أباه، ثم زوجته فرصاصة، الأولاد، ولداً ولداً، ورصاصة إثر رصاصة، يستأنس بقتله على دفعات، ويذيقه مخاوف الانتظار. هذا المجرم حظه أفضل منه، سيعاني في هذه الجلسة فقط، لو أن بوسعه تعذيبه على مدار سنوات. إذاً فليكن احتضاره طويلاً، طويلاً جداً، يتسع له الليل بطوله.

كان توقه إلى رؤيته ميتاً، تشوش عليه رغبة كانت في حدودها القصوى؛ الاستمتاع بدموعه ودمائه، يحفران أخاديد على وجنتيه، ومراقبة الرعب في عينيه المعلقتين على إصبعه والزناد. يرى الموت في فوهة المسدس، قبل انطلاق الرصاصة.

بعد فاصل من الشجاعة، انهار المهندس.

الأوامر كانت أنهم لا يريدون أحياء، خرج صوته مرتعشاً.

صم أذنيه عنه، حتى ولو كان صادقاً، لن يشفق عليه، وإذا تردد، ولو للحظة واحدة، فليتذكر

أن هذا المجرم قتل بلا سبب، رجلاً كبيراً في السن، وامرأة صبية وأولادها. وأن الرجل هو أبوه، والمرأة هي زوجته، والأولاد الصغار أبناؤه. كانوا بردانين، جائعين، لم يتناولوا طعاماً. أعدوا أنفسهم للخروج من البيت، بحثاً عن منفذ آمن، يوصلهم إلى ملجأ قريب، ربما وجدوا ما يأكلونه. ليت أرواحهم تحضر، ليشهدوا إذلال المجرم الذي قتلهم بلا مبالاة.

كنت ضابطاً في الجيش، التمرد على الأوامر، خيانة عظمى. الصوت المرتعش نفسه.

ولقد حضروا، أو أنهم اقتحموا المكان، أبوه العجوز، زوجته سناء، أولاده. ينظرون إليه مستغربين، والخوف يطل من عيونهم. لبثوا أمامه، لا يتزحزحون عن مجال رؤيته، لا يتمكن من النظر إليه بمعزل عنهم، ولا التفكير به دونما أخذهم بالحسبان. كانوا في جانب، والقاتل في الجانب المقابل. هذا الذي إذا كان ينفذ الأوامر، فبلا قلب، ولا رحمة.

الظروف وضعتني في موقف لم أرده.

غير أنهم في ثباتهم على هذا الحال، ردوا إليه النظر والعقل، فعاد إليهم، مثلما عادوا إليه، وارتدّ إلى نفسه، إنساناً مثل الآخرين.

سامحني. الصوت المرعش يرجوه.

في اللحظة التي كاد أن يضغط فيها على الزناد، تخيله ميتاً بلا حراك، لافظاً جميع أنفاسه. فأحس بالغبن الشديد، هل هذا خاتمة المطاف؟ أراد أن يصرخ بصوت يهز الجدران ويخترق السقف، ويبكي ليشق بكاؤه عنان السماء... الثأر ليس على قدر الجريمة. قتله لا يعادل موتهم. لا تكافؤ، المقايضة بينهما ظالمة، إذا كانت هذه عدالة، فكم هي مجحفة. الحياة ظالمة، لا تتيح انتقاماً عادلاً. لو كان من أجله، فسوف يقايض عذاب ثلاثين سنة، تحت وقع الكابلات والسياط والبساطير والإهانات والشتائم... بمنظره صريعاً على الأرض.

هذا القصاص ليس شأنه وحده، إنه شأنهم.

لم يحسب أن العدالة ستخضع لحقيقة، تظهر فجأة، لن يستطيع إلغاءها، ولا إيقافها عن

التدخل. إذا قبل بهذا القصاص، فقد أحال العدالة إلى انتقام، وخسر قضيته كلها. العدالة التي أرادها وسعى إليها، لن تكون عادلة. وإذا كان ثمة من مساواة بينهما، فسوف تكون أشد إيلاماً من القتل.

صوته الكريه يأتيه من مكان سحيق.

إذا قتله فقد سدد المهندس ثمن جريمته، وبذلك يتساويان، وتنتهي قضيته، إذ موته لا يعوضه عن عائلته. القضية، انفصلت عنه، ولم تعد تحت سيطرته. باتت تحت تأثير الذاكرة. ما حاول نسيانه، يهبّ كما العاصفة، عما قاساه غيره. حان أوان روايته لهذا الذي سيرديه قتيلاً. فخطر له الجمّال بائع الحلويات في باب سريجة!!

احتُجز الجمّال بديلاً عن أخيه الفار، المتهم بالاعتداء على مركز للمخابرات. كان مصاباً بالسل، حالته في مراحلها الأخيرة، يبصق دماً. حاول عدنان جهده التخفيف من آلامه. المسكين كان يتخفى على مرضه، بعد إغلاق مهجع الكوليرا، لم يكن مسموحاً بالمرض ولا بالموت.

المسكين الجمّال تقيد بالأوامر،لا ينبس بكلمة، أو بأنّة ألم، يكتم سعاله، لئلا يسمعه الحراس، ولا ينام مستلقياً على ظهره، لئلا يختنق بالبلغم، فيقضي الليل قاعداً. عندما فاجأه نائماً، كان ملوي الجذع، مائلاً إلى جانبه الأيمن، وقد كبا على وجهه. هزه، كان جثة هامدة بلا حراك.

أدرك أن الجمّال عندما أحس بالموت، جهد في إخفائه عن السجانين، وترك على ورقة صغيرة بضع كلمات مشوشة خطها بأصابع ترتجف؛ سلموا على أولادي، لا تقولوا لهم إنني مت.

غافلهم ومات في الخفاء، من دون إصدار صوت... حُرم حتى من الموت العادي.

إذا كان قد رواها له، فلأن القضية باتت أكبر منهما، لم تعد تسوية حساب بين اثنين، إذ لا تقتصر عليهما. بل تتعداهما، وتتعدى أباه وزوجته وأولاده. وتتعدى هذا السافل المذعور إلى الرئيس والجيش والمخابرات والسجون والمعتقلات وأجهزة القتل... والعمى، العمى الكامل للآلات

الخالية من الإحساس، منفذي الأوامر، بلا عقل ولا قلب ولا روح.

العدالة ليست الثأر ولا الانتقام، إنها تدمير الدولة الظالمة... ينبغي محوها من الوجود. هذه هي العدالة، ألا يتكرر ما أصاب مئات الآلاف من تنكيل، وأصاب بلداً يرزح تحت دبيب الموت والخوف.

لا، لن يحيل مأساته إلى جريمة يقترفها بيديه.

نهض من مكانه، من حوله تبعثرت أشلاء أفكاره الدموية إلى نفايات، المؤلم أنها علقت في ذهنه، وعاش عليها زمناً.

تلامح المهندس وقد تجمدت ملامحه على تعبير واحد، مذهولاً حتى العظم. الطبيب لم يلتفت إليه، سار ببطء نحو الباب، مغادراً المكان.

من خلف الزجاج، وقف المهندس يراقبه. كان يمشي الهوينى، بينما يخرج رفاقه من بين الظلال، ينضمون إليه الواحد بعد الآخر، ويغيبون في الظلام.

٤

ظفر المهندس بحياة جديدة، منحه إياها كابوس لن ينساه، لكنه كان بحاجة إلى نسيانه مؤقتاً. نجاته كانت معجزة، لم يفصله عن الموت مقدار أنملة واحدة. ربما كان الطبيب جباناً، ضعيف القلب، لا سبب لديه ليعفو عنه، سوى أنه مجنون، فشكراً للجنون.

تسارعت الأحداث على الأرض، بدأت ببادرة مستميتة قام بها مجموعة من المعارضين الناشطين الشبان بإعلان يوم الخامس عشر من آذار «يوم الغضب السوري». تجمع خمسة أشخاص أمام بوابة الجامع الأموي بدمشق، واندفعوا نحو سوق الحميدية، يهتفون «الله سورية حرية وبس»، دعوا المارة إلى المشاركة: «وينك يا سوري وينك». انضم إليهم بضعة أشخاص من المارة العاطلين من العمل. تابعوا سيرهم إلى سوق الحريقة: «الشعب السوري ما بينذل» هاجمهم

رجال شرطة مخفر الحريقة، ردوا عليهم: «سلمية سلمية». طلب رئيس المخفر تعزيزات أمنية. قبل وصولهم، كان المتظاهرون قد تفرقوا في دخلات السوق الجانبية.

«يوم الغضب» كان محاولة فاشلة، أخفقت في تشكيل مظاهرة بالحد الأدنى، تصمد حتى وصولها إلى السرايا في ساحة المرجة.

كان هذا فحوى التقرير المرسل إلى المهندس. ومع هذا لم يخفف من مخاوفه. ثمة ما يحوم في الجو، نار تبحث عمن يشعلها. صدق يقينه؛ اندلعت بعد أيام قليلة جراء حادثة تافهة، رجال الأمن في درعا اعتقلوا قبل نحو أسبوعين، أولاداً طلبة مدارس لا يزيد عمر أكبرهم عن خمسة عشر عاماً، كتبوا على الجدران عبارات: «الشعب يريد إسقاط النظام»، «جاك الدور يا دكتور». أخضع الأولاد للتعذيب. توسلت الامهات رئيس فرع الأمن السياسي، فطُردن. تدخل وجهاء ومشايخ درعا، لم يكتف بالرفض، بل ورمى بعقالاتهم في سلة المهملات، وأهان عاداتهم العشائرية. راجعوا المحافظ، ولم يكن أقل منه غطرسة.

تجمع الأهالي أمام مقر المحافظة، وطالبوا بإقالة رئيس الأمن السياسي والمحافظ. استخدم رجال الأمن الرصاص الحي في تفريقهم. تلقف الناشطون الحادثة، واتخذوها حافزاً للاحتجاج الجماعي، مفتتحين بها أيام الجمع بـ«جمعة الكرامة». وهكذا انطلقت المظاهرات من المدينة التي لا يمكن توقعها؛ درعا، شارك فيها الألوف، فاستدعيت القوات الخاصة. جاؤوا على متن طائرات مروحية. حصيلة يوم «جمعة الكرامة» مقتل شابين درعاويين.

استصرخ أهالي درعا البلدات المجاورة والعشائر: «وينكم يا أهل الفزعة». فتدفقت الجموع من البلدات المجاورة، شاركوا بالتظاهر والتشييع. انتشر القناصون فوق الأبنية العالية، القنص أعطى نتائج جيدة، سقط قتلى، ما جدد المظاهرات في اليوم التالي في مواكب التشييع، المشاركون تزايدوا رغم الرصاص والضحايا، أعدادهم بلغت عشرة آلاف، أحرقوا مقر حزب البعث.

تلاحقت الاجتماعات في قيادة اللجنة الاستشارية المصغرة منذ اليوم الأول للأزمة، مؤخراً كادت أن تكون في حالة انعقاد دائم. البلدات والأرياف القريبة من درعا استمدت من تأييد

الشغب الحاصل مادة لمظاهراتها: «يا درعا حنا معاكي للموت»، وترددت أيضاً في أرياف دمشق وحلب... علق المهندس؛ إذا استمرت الاحتجاجات فالبلد على أبواب انتفاضة.

خطورة الوضع أملت على الحكومة المبادرة إلى التهدئة، دفعت المحافظ إلى الاجتماع مع أهالي درعا في جامع المسالمة ليستمع إلى مطالبهم، أجابهم عنها بعنجهية. فضربوه أثناء خروجه من المسجد، فنقله شخص على دراجة نارية حافياً من دون حذاء. ومثله فر هارباً رئيس الأمن السياسي.

بينما أوصت اللجنة بالقمع بشدة، وألّا يكتفى بالوعيد، خراطيم المياه لا تنفع، ولا الهراوات، ولا الرصاص المطاطي ولا القنابل المسيلة للدموع. الاحتجاجات احتضنتها المساجد، والجنازات تحولت إلى مظاهرات، المئات يسيرون خلف التابوت، هتافاتهم لا تخفي الدعوة إلى الجهاد؛ امنعوا مواكب تشييع القتلى، الموتى لا حصانة لهم.

لتخفيف السخط الشعبي، أُقيل المُحافظ ورئيس الأمن السياسي. وأطلق سراح الطلبة الصغار الذين كتبوا شعارات ضد النظام على الجدران، لكن من دون جدوى. الاحتجاجات امتدت إلى بلدات المحافظة: جاسم ونوى والصنمين والشيخ مسكين، انخل وطفس وغيرها. احتاطت السلطة وأرسلت أرتالاً من المدرعات والدبابات لمحاصرة درعا. أقامت نقاط تفتيش مشددة الحراسة، وقطعت مُعظم الاتصالات عنها.

الأزمة تتفاعل من ساعة إلى ساعة، وتنتقل بسرعة من طور إلى طور.

لم ترق للمهندس معالجات تتبعثر وتتعثر كل منها في اتجاه، وقد تخطئ هدفها من كثرة تناقضها، فبينما كان القناصة يصطادون المتظاهرين، كانت الوفود الرسمية القادمة من العاصمة تطلق الوعود للوجهاء، وبما أنها مجرد وعود، تفاقمت المظاهرات وامتدت إلى أرجاء البلاد.

الخبر الأخير، اعتصم المحتجون في المسجد العمري، لن ينهوا اعتصامهم قبل تحقيق ما اتفق عليه، نصبت الخيام حول المسجد، وأقيم مستوصف في داخله، توافد الرجال والشبان للانضمام إلى رفاقهم، يؤازرهم مشايخ درعا. أصبح المسجد غرفة عمليات يقودها متمردون. ما أنذر بانفجار الوضع.

كانت فرصة المهندس لاختبار الشاب خالد رجل الرئيس. اتصل به مقترحاً عملية نوعية، تشكيل غرفة عمليات معاكسة، مستوحاة من نهج الرئيس الخالد باستعمال «علاج حماه»، على أن يأخذ هذه المهمة على عاتقه. رد خالد، لكن الزمن تغير. فقال له، إذا كنت مقتنعاً بهذا، فعلينا أن نحزم حقائبنا ونرحل.

بعد أقل من ساعة تلقى الجواب: تصرف بالتنسيق مع الأمن العسكري في درعا، فانطلق من فوره إليها.

لم يكن في ذهابه إلى الخطر مغامرة. كان إحساسه أنه ضد الموت قوياً، لم يصرعه عندما لم تفصله عنه خطوة واحدة، والآن مهما اقترب منه، فلن يؤذيه. طوال الطريق، كانت الفرصة تلوّح له سيستعيد مكانته كاملة في القصر الجمهوري. كان يرنو إلى الحلقة الضيقة.

ظهراً وصل إلى مدخل درعا. لم يسمح رقيب الحاجز بمرور السيارة إلا بعد مراجعة رؤسائه. هرع ضابط برتبة عميد إلى استقباله، أبلغه المهندس بمهمته. كان لديه علم بها، فسلمه القيادة. قرر القيام بجولة في المدينة، قبل أن يجتمع بالجهات الأمنية المسؤولة عن حصار المسجد العمري.

مباشرة بعد الحاجز، ظهرت آثار الصدامات بين المتظاهرين ورجال الأمن، أحجار، دواليب محروقة، زجاج محطم، فوارغ قنابل مسيلة للدموع، عصي، أحذية مبعثرة... الشوارع خالية، الأسواق فارغة، المحلات مغلقة، لا أناس على الشرفات، ولا سيارات في الطرقات. عناصر الجيش والمخابرات يحملون الرشاشات، يشغلون كل ساحة ومفترق طرق.

المنظر الذي استثاره أكثر من غيره، كان في المدينة الرياضية، صورة عملاقة للثلاثي الرئيس الأب والرئيس الابن والابن الشهيد. تمثال الرئيس الأب منتصباً بكامل هيبته، وصور الرئيس الابن تهيمن على درعا، معلقة على جدران النقابات والجمعيات والتعاونيات وسيارات الجيش والأمن وفرع الحزب. العجيب، عندما تفقّد مخفر الشرطة والمحكمة المحترقين، وحدها صورة الرئيس الابن كانت سالمة...ثمة تعويذة تحميه.

لاحظ خلال جولته، أن المخابرات طورت أساليبها، بواسطة الملثمين المسلحين راكبي

الدراجات النارية يطلقون النار على التجمعات، كانوا من الزعران والشبيحة الخارجين على القانون، في الإعلام الرسمي عُزيت أفعالهم إلى مندسّين يحرضون على الشغب.

أنشأ المهندس على عجل بالتعاون مع ضباط الأمن غرفة عمليات على مقربة من الجامع العمري المحاصر. في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، أمر الجنود بإطلاق النار من دون إنذار وبلا تمييز، النيران اشتعلت في الخيام، المعتصمون هربوا إلى الداخل، تساقط بعضهم بين قتلى وجرحى. صوت الشيخ يعلو من المئذنة يطلب المساعدة. منع المهندس سيارات الإسعاف من التقدم نحو الجامع. ثم أعطى أوامره بالاقتحام. دخل الجنود قوضوا الخيام، داسوا فوق الجرحى، مزقوا صور الشهداء. أطلقوا النار على المعتصمين دون تمييز. في المستشفى الرئيسي، كانت التعليمات اعتقال أي جريح يؤتى به، وقتله في حال قاوم، التبرع بالدم ممنوع على الأهالي. صباحاً تلقى المستشفى وحده خمساً وعشرين جثة.

انتشر خبر المجزرة ليلاً. الانتفاضة انتهت، طبقاً لـ«علاج حماه»، لا متظاهر بعد اليوم.

عند الفجر توافد الآلاف، جاؤوا من ناحية القرى الشرقية ومن غرب درعا، اجتمعوا في المحطة قرب دوار البريد القريب من فرع حزب البعث. كان للمجزرة تتمة، طلب المهندس من الجيش السماح لهم بالدخول على أن يستقبلهم بالرصاص، فدخلوا وعادوا على أعقابهم، مخلفين وراءهم عشرات الجثث. في اليوم ذاته، حاولت عربة طبية مسرعة الوصول إلى المسجد، فأصليت بالرصاص، كشفوا عليها، وجدوا في داخلها أربعة قتلى بينهم طبيب ومسعف. العدد الإجمالي للقتلى تجاوز المائة.

هذا اليوم أطلق عليه الناشطون «الأربعاء الدامي».

أشرف المهندس على البيان الرسمي الذي عمم على وسائل الإعلام: «قامت عصابة مسلحة بالاعتداء المسلح بعد منتصف ليل أمس الثلاثاء - الأربعاء على طاقم طبي في سيارة إسعاف قرب جامع العمري في درعا، ما أدى الى استشهاد طبيب ومسعف وسائق السيارة. تصدت قوى الامن القريبة من المكان للمعتدين واستطاعت أن تصيب عدداً منهم، واعتقلت بعضهم،

وسقط شهيد من قوى الأمن. وقد قامت العصابة المسلحة بتخزين أسلحة وذخيرة في جامع العمري واستخدمت أطفالاً خطفتهم من عوائلهم كدروع بشرية». بث البيان في التلفزيون صوراً للأسلحة المصادرة، تضمنت قنابل وبنادق كلاشنيكوف وصناديق ذخائر، إضافة الى رزم من النقود، ضبطت في الجامع. المخابرات فبركت الشريط التلفزيوني.

لم يغب عن المهندس أن المحتجين ليسوا بغافلين عن كذب الرواية، عدم الغفلة كان مطلوباً، لتصل الرسالة بشكل واضح: العقاب هو الموت.

عاد إلى دمشق حاملاً معه لقب بطل «الأربعاء الدامي». تاركاً وراءه الأوامر النهائية؛ إطلاق الرصاص دون مراعاة، لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال. ولا حرمة لمسجد أو جنازة.

أرسل تقريره إلى خالد ليرفعه إلى الرئيس، وأكمل طريقه إلى الفيلا، ليستريح راضياً عن نفسه؛ كان قد وضع الأزمة في الطريق الصحيح على مستويين، الأرض والإعلام.

لحقت به الأخبار، مستشارة الرئيس، أكدت أن الأوامر صدرت بعدم إطلاق النار على المتظاهرين بعد اليوم. اتصل بالشاب خالد ثانية، المجنونة، خربت ما قمنا به!! فطمأنه، الأمور ليست كما تظن، للتهدئة فقط. استغل الشاب الفرصة وهنأه على العملية النوعية.

الخبر الذي تلاه، حشود كبيرة من الأهالي تجمعت عند الجامع العمري، مطمئنين إلى أن أحداً من الأمن أو الجيش لن يتعرض لهم. شيعوا الشهداء إلى المقبرة. واتخذوا طريقهم إلى ساحة المحافظ، في طريقهم، تلقوا خبر مجزرة وقعت في الصنمين قبل ساعات قليلة، سقط أكثر من ٢٠ شهيداً، فجنّ جنونهم. هجموا على تمثال الرئيس الراحل، ضربوه، وأخذوا يهزونه حتى أسقطوه. لم تنج من التمزيق الصورة الكبيرة للرئيس الابن، واقتحم المتظاهرون بيت المحافظ، وأحرقوه.

تحطيم التمثال وتمزيق الصور، كانا الخبر الأسوأ، لم يكن لخبر سواه أن يجعله يتشاءم، إنجازه الرفيع حُطّم، وداسته الأقدام. الشبان يهللون، أحدهم اعتلى تمثال الرئيس المحطم. كيف تجرأوا؟ تخيل الساحات خالية من تماثيل الرئيس، والشوارع والمكاتب والمحلات والمؤسسات والإدارات، لا تزينها صوره... ما عمل عليه ورعاه، جهد سنوات ضاع هدراً،

عصر بكامله دمر.

دليل الخلود بات مبعثاً للنقمة والانتقام. ما بدأ لن ينتهي.

غير أن الخبر الذي لم يعلن هو أن الحل الأمني لم ينفع، سربه إليه العماد في أول اجتماع به، الرئيس هدأ من غضب الوفود الشعبية القادمة من درعا وريف دمشق، ووعد بدراسة طلباتهم التعجيزية، تلك التي لم يكن أحد يخطر له طرحها، أو حتى التفكير فيها قبل أسبوعين؛ الأغلب أنه سيوافق عليها، لتجنيب البلاد كارثة الفوضى.

الأزمة تتجه نحو الانفراج.

٥

الخبر الذي هدّأ من غضب المهندس، حمله إليه الشاب خالد؛ الرئيس يعمل بتأنّ شديد، لن يتسرع، القرار النهائي بشأن الأزمة مؤجل، سيعلنه في الخطاب الذي سيلقيه في مجلس الشعب.

وريثما يحل موعده، حظي المهندس بأسوأ أيام ثلاثة مرت عليه في حياته. انفراج الأزمة يعني تفعيل القانون في حال رَفَعَ المحتجّون رايته، فسوف يطاله، ويطال معه جميع هؤلاء الذين دافعوا عن النظام طوال أربعين عاماً، ويزج في السجون بالمئات من المسؤولين الذين تعاقبوا على الحكم. أما المساجين مناهضو الدولة، فالبراءة وإعادة الاعتبار. وتبدأ رحلة تبادل الأدوار.

التلويح بالانفراج استدرج أيضاً مخاوفه من الطبيب الفار، هذا الرجل لديه قضية حقيقة ضده، يُحييها القانون. من سيتفهم أن ما جرى كان مصادفة؟ لم يكن بينه وبين العائلة أية عداوة شخصية، ما ارتكبه كان تمريناً على القتل من أجل نظام لا يمكن أن يستمر إلا بالقتل. عدا أنه لم يخالف القانون إلا من أجل الرئيس الخالد، وفي درعا من أجل الرئيس الابن.

أقلقته مجدداً تصريحات نائب الرئيس ومستشارته، أكدا أن الرئيس سيرسم في خطابه خطة

لتنفيذ إصلاحات ترضي الجميع. هناك سلة من القرارات تلبي تطلعات المواطنين إلى مزيد من الحرية والشفافية... تنفيذ القرارات سيبدأ فور صدورها، لا مهل ولا تأجيلات.

لم تشذ التحليلات عنها، سيسجل الرئيس افتتاح مرحلة جديدة في سورية على قاعدة تفهم التحولات العاصفة بشعوب المنطقة، لن يلجأ إلى المسكنات والوعود، والمعالجات بالترقيع والمراسيم الغامضة. سيتخذ قراراً جريئاً، بالإفراج عن آلاف المساجين، ويطوي صفحة حكم الحزب الواحد. وذهبت التسريبات الى حد التأكيد أن الرئيس لديه كل الثقة بأن محاسبته لكبار المسؤولين ستضع حداً لاستشراء الفساد في مفاصل الدولة.

كانت الملفات التي عمل عليها لسنين طويلة، في عهد الأب امتداداً إلى عهد الابن، قد خبئت لهذا الموقف، لتكون عامل إنقاذ للرئيس، بالتضحية بالضباط والمسؤولين الذين قدموا خدماتهم له ولأبيه، مع أن الملفات لم تكن للاستعمال، كانت للتهديد فقط، لئلا يتجرأ أحد على العصيان. حان وقتها، لتسويد عهد راحل، وتبييض عهد آتٍ.

لم يكن وحده... العماد رئيس اللجنة كان غاضباً أيضاً، بعد انتهاء الاجتماع، استبقاه معه في القاعة، لم يكن هناك غيرهما. شكى بعدما لاحظ من تلميحات المهندس أن الأمور ذاهبة إلى استسلام الرئاسة. وسأله عن مدى صحة ما يترامى إلى المسامع. تظاهر المهندس باللامبالاة؛ التسريبات لا تقدم ولا تؤخر، الرئيس سيكشف عن موقفه في خطابه بعد أيام، نهاية الشهر الحالي.

ماذا إذا كان ما يتردد حقيقة؟ تساءل العماد نافد الصبر.

لم يجب فوراً. فكر، العماد التقى به على حدة، يبدو أنه ناقم، تشكيل اللجنة كان ذريعة لسجنه في قاعة مغلقة بإحكام، الآن فارغة، ولا يتوقع أن تمتلئ قريباً. حالياً أوقفت الاجتماعات مؤقتاً، بانتظار الاجتماع الختامي. سيغدو العماد بلا عمل، استخدموه، دون أن يعرف لأي هدف، وبما أنه بدأ يعرف، كان قد استنفد. العماد يطمح إلى القيام بعمل ما، ليسترد لياقته العسكرية. الرتبة تتطلب، ماذا بوسعه فعله؟ لا شيء. عناده لن ينفعه. ثم إن أحداً لا يسمعها، فوضعه

إزاء الخطر الداهم.

«يبدو أن الرئيس سيقود انقلاباً ضد النظام».

المتوقع من العماد كضابط أن يفكر بالقيام بانقلاب معاكس. العسكر لا يستطيعون التفكير إلا على هذا النحو، لا بديل في أذهانهم غيره. لكن ليس لديه قوات، وبما أنه متهور، فقد يقدم على حماقة. لماذا لا يختبره، ويسأله المشاركه بعمل مضاد؟ إذا قبل، فسوف يفعلان شيئاً مؤثراً. لا يرقى إلى مرتبة الانقلاب، وإن كان أقوى مفعولا منه. تابع بحذر:

«يستحسن إفشال الانقلاب».

بحلق العماد، ماذا لو...

قاطعه قبل أن يضع العراقيل.

«لا حاجة إلى تحريك الجيش من مواقعه».

فتهلل وجه العماد، واشتد فضوله؛ إفشال انقلاب... بلا عسكر!!

تبلورت الخطة في رأس المهندس، وهو يتكلم معه، لم يرغب في الإفصاح عنها. وإن أكد أنها مضمونة، سيعلمه بها في اليوم الذي يسبق الخطاب. عندئذ تكون اكتملت في رأسه، وإن طمأنه:

لا تحتاج إلى متآمرين، ولا أعوان.

فأصر العماد على معرفة شيء عن هذه الخطة الجهنمية، يُفترض أنها تحتاج إلى مشاة ومظليين ومدرعات وطيران... لم يدعه المهندس يكمل: ربما لا أحد غيرنا!!

فغر العماد فمه مدهوشاً، فزلّ المهندس قائلاً:

في حال تأكدنا، فاغتيال الرئيس.

انصعق العماد، من هذا الإيجاز الدقيق، ما يوفر فعلاً تدخل الجيش.

سأعلمك بالخطة عشية الخطاب، لابد سيتسرب مضمونه، ونعرف موقف الرئيس.

الجانب الآخر من الخطة، لم يصرح به للعماد، استمزج رأي بعض قادة الأجهزة الأمنية. كانوا قلقين رغم أنهم تحرزوا في الكلام. إذا كانوا يفكرون في ما كان يفكر فيه، وهو على وجه التحديد، مصائرهم؛ سيحيلهم الرئيس دفعة واحدة، أو بالتقسيط إلى القضاء، وقد يجمعهم في قاعة ويفجرهم بالجملة، حادث عارض، قامت به جهة مجهولة، ينظف بهم عهده وعهد أبيه. وما سيعلن، قيل مراراً، لا هو ولا أبوه كانا على علم بجرائم الأجهزة.

لم يستبعد المهندس تحويلهم إلى أشلاء، قادة الأجهزة على أنواع، هؤلاء ليسوا من الحلقة الأقرب إليه، ولا من أقربائه، الاستغناء عنهم بالموت، يعني تحميلهم خطايا النظام كلها.

ما طمأنه في جولته، ولم يكن خافياً عليه، لكنه لم يظنه بهذا العدد والحجم، أن الأجهزة الأمنية وفروعها، عقدت المئات من غرف العمليات، وكلها تعمل بدأب ونشاط على تحشيد قواها، وجمع الأنصار، واستئجار أصحاب السوابق، واستدعاء المتقاعدين، وتجنيد الطلبة والعمال، وبث العملاء للتحريض على استمرار معركة بدأت، ولن تنتهي، وكلما بردت أججوها.

إنهاء الأزمة ليس بيد الرئيس، هذا ما أدركه، وإن عبّروا له عن مخاوفهم بشكل موارب، سيفتدون الرئيس بأرواحهم، وإذا كانت الأزمة ستسوء أكثر، فسوف ينصحونه بمغادرة دمشق مع عائلته والمقربين إليه. على أن يعود بعد القضاء على التمرد. من يقنعه؟ الأحداث وحدها ستقنعه، لن يدَعوا الخطر يقترب إلى أبواب القصر الجمهوري.

كانوا غير غافلين عن اللحظات الحاسمة، عملوا حساب الأجهزة المقربة من الرئيس، مثلما عمل الرئيس حسابهم. وعملوا أيضاً حساب خوفه ومحاولته الهرب مع عائلته على متن طائرة، وتركهم للجماهير الغاضبة، فاستعدوا لها. ربما كانوا يفكرون بخطة مماثلة لخطته، وسواء فكروا باغتياله أو لم يفكروا، من يسبق، يسارع الآخرون إلى تأييده.

ليلاً، اتصلت لميس تريد رؤيته. وأضافت بثرثرتها إلى ضائقته ضائقة أخرى. لم يفهم ماذا تريد منه، لم تكن تتكلم بقدر ما كانت تولول، كانت ثائرة غاضبة ومجنونة.

حذرتك، سورية على أبواب ثورة، ما بدأ في تونس، لم يتوقف في مصر، ولا في ليبيا، لقد وصل إلينا. ما بنيته بعرق جبيني سيدمرونه، إن لم ينهبوه، سيسلبوني كل ما أملك، هذا إذا لم يسجنوني، ويحاكموني، لماذا؟ هل سرقت الشعب؟

كانت مأخوذة بتصوراتها المرعبة، أمبراطوريتها إلى انهيار، سيضربونها بالصرامي، ويشدّونها من شعرها في الشوارع. استعادت في هذياناتها، سيناريو توقعته للرئيس التونسي وزوجته، لم يتحقق هناك، سيأخذ مجراه هنا.

هدّأها، أسوأ ما يمكن حدوثه، لن يضيرها، بوسعها تصفية أعمالها في دمشق، وتهريب أموالها إلى لبنان، بوسعها نقل أعمالها إلى الخليج.

هل تكفي أيام ثلاثة؟

لا تتصوري أن الأمور ستنقلب بهذه السرعة، لن يتخذ أي اجراء ضدك بين ليلة وضحاها، لديهم قضايا أهم منك، أنا على سبيل المثال.

لكن، وأكد لها، لن يحدث شيء على الإطلاق.

سكتت بعد منتصف الليل، بعدما أعياها الكلام.

اتصل بصديقه عارف ليستطلع الأوضاع من حوله، والأهم موقف المعارضة، سيصبحون طرفاً معترفاً به في الأزمة. أحس ولأول مرة، أنه بالمقارنة معه كان أحمق، حسابات صديقه كانت أذكى وفي محلها، عرف كيف يكون في الجانبين معاً، موالياً في السر، ومعارضاً في العلن. وعندما تحتدم الأزمات، يتخذ موقف المحايد الموضوعي. كان موفقاً في مراهنته على المعارضة، حجز له مكاناً في الآتي من الأيام.

التقى معه في مطعم بدمشق القديمة، انتحيا مكاناً هادئاً. كان بحاجة إلى سماع حسابات عارف. لم تكن مريحة، شابها بعض القلق، ليس لأن مواقفه قد تنكشف، هذا غير مهم، بوسعه الإنكار. مشكلة النظام الحقيقية تكمن في خوفه من أن يعطي المحتجين شيئاً، ثم يطالبوه بأكثر، كما حدث في مصر، كلما قدم النظام تنازلاً طالبوه بالمزيد، لن يرضوا بأقل من كل شيء. في حال أظهر النظام ضعفاً، فسوف تبدأ خساراته بالتراكم.

«ما موقفك إذا حدث صدام بين النظام والمحتجين ووصل إلى نقطة اللارجوع؟ هل بإمكانك التذرع بالحياد الموضوعي؟».

«عندما تصبح الأمور حدية، لا خيار أمامي».

عارف ليس في وضع ملائم ليلعب مع الطرفين. الظرف السياسي دقيق، لا يسمح له الجمع بين المعارضة والموالاة. خلال الأيام الماضية، اتخذ قراره، على الأصح اكتشفه.

«سأقف مع النظام».

«ألن يكون موقفك ضدك كمثقف؟».

«بالعكس الثقافة تزودك بالمبررات والذرائع لأي موقف تتخذه».

كانت قناعته كاملة، لابد من قمع المظاهرات بأية وسيلة، ولو بلغت التكلفة عشرات ومئات، بل وآلاف الضحايا.

«لا أريد لهذا النظام أن يتغير، ولا أتصور غيره، أتعرف لماذا؟ لأنني طائفي، أجزم بذلك. كنت أظن أنني بمنأى عن هذه المشاعر، لكن الأمر أقوى من أن يكون مشاعر، لن أتقبل ألا نكون نحن الحكام. هذه الدولة دولتنا. انظر إلى الأمر في حقيقته الصرفة، لقد استولينا على السلطة، ما المبرر لنسلمها لغيرنا. إذا كنا لصوصاً، فهم أيضاً لصوص. أخشى من أمر واحد، أن يعطيهم الرئيس مُلكاً لم يحصل عليه بعرق جبينه، لقد ورثه دونما عناء».

يا إلهي من قال إن المثقفين ليسوا على مستوى الموقف؟!

حسابات عارف كانت واقعية، أي إصلاح حقيقي يعني بداية النهاية للنظام. الحل في أن يعطيهم الرئيس شيئاً ما يرضيهم به، ولعبة الوقت كفيلة به، مادام هناك ما سوف يعطّله، أو يؤجله. لن ينفذ إلا على المدى البعيد، وإذا حان أوانه فلا يفيد، النظام يواجه الشعب، أناس عاديون لا مطامح لهم، سوى قدر معقول من العدالة والكرامة، النظام غير قادر على تلبيتها، النظام يرشو أعوانه بالتكسب من هذا التفاوت، فيصعد طرف على حساب طرف، ويستبيح طرف الطرف الآخر، وإلا كيف تكون الامتيازات؟ المناورة شرط النجاح، جماعتنا أتقنوها. بإمكانهم تسكين مطالب الناس بالوعود لا أكثر، عدا ذلك، لا. هذا إذا أردنا أن نعرف الأمور على حقيقتها، لا يمكن أن يحدث تغيير إلا تحت إشراف السلطة، وألا يفرض عليها فرضاً، وإذا انصاعت لضغط داخلي أو خارجي، رسمت نهايتها.

مادام لدى الثقافة عن كل سؤال جواب، فسوف يعطيه إجابة شافية عن خطوة الرئيس المقبلة، هل سينفذ انقلابه؟ فقال عارف وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح:

«لن يستطيع الرئيس الانقلاب على النظام، الرئيس والنظام شيء واحد لا انفصال بينهما، النظام يصنع الرئيس، وأي تنازل يقدمه أحدهما، يخسره كلاهما. يسقط أحدهما فيسقط الآخر. والطائفة لا تستطيع شيئاً، إنها مرغمة، سوف تقف مع الرئيس، ليست مخيرة، شبان الطائفة في الجيش والمخابرات والشبيحة، عدا وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة. أمست بالرغم منها جزءاً من النظام».

رغم قلقه، كان عارف متفائلاً، حتى لو خسر رهانه الأكبر على الرئيس، لديه هامش من الأمان على الطرف الآخر، سيتذرع ببعض الأمور الإنسانية واللحمة الوطنية.

أما المهندس فيراهن على نفسه، لا طرف آخر يلجأ إليه.

صباح اليوم السابق لخطاب الرئيس، كان العماد مرتدياً ملابسه العسكرية كاملة، على صدره الأوسمة، ينتظره في قاعة الاجتماع الفارغة. اعتقد أن الخطة ستبدأ فوراً... فاستعد لتدشين

الخطوات التي ستسبق اغتيال الرئيس باللباس الرسمي. هدّأ المهندس من حماسته، ما تسرب عن الخطاب متساوٍ، قيل الرئيس سيرضخ لطلبات المتظاهرين، وقيل إنه سيتشدد ولن يعطيهم شيئاً. القرار النهائي لم يحسم بعد.

ضايقته أسئلة العماد، كان يعيد السؤال أكثر من مرة، كأنه لا يسمع. اضطره عدة مرات إلى تأكيد أن العملية سارية، والخطة جاهزة، في حال كان خطاب الرئيس استسلامياً. سيطلبان مقابلته لأمر هام جداً بعد عودته إلى القصر الجمهوري. سيدخلان معاً، ويعترضان على قراره. خلال اللقاء، سينتهي كل شيء.

العماد استفسر، هل الاغتيال مضمون؟ أكد المهندس، مضمون تماماً.

ألن تستعين بأحد؟

لا أحد غيرنا.

ماذا عن...؟

سأنفذه بيدي.

أعاد عليه السؤال ثانية، فكرر المهندس الجواب.

أما مهمة العماد، فجمْع ضباط الأركان وقادة القطعات القريبة وإعلان اغتيال الرئيس وموته. ويطلب منهم المشاركة في الإعداد لليوم التالي.

أحس بضيق من استفسارات العماد، لم تتوقف، خصوصاً أسئلته حول الاغتيال، كأنه لم يصدقه، يريد التأكد فعلاً أنه سيطلق عليه الرصاص، ولن يكلف أحداً غيره، أو يتراجع مهما حدث. واحتمالات تدور حول ماذا لو...؟

في تلك اللحظات، لم يخطر له سوى أن العماد الأحمق، لا يعرف أن ليس له أي وزن في العملية كلها، مجرد أن الخطة بحاجة إلى ضابط برتبة كبيرة كي يتلو البيان الأول، ولإرضاء العسكريين

بوجود ممثل عنهم.

ألقى نظرة من النافذة، كانت دمشق تعيش عرساً متفائلاً مع اقتراب حل الأزمة.

الفصل الثالث

المارش الأخير

صادف يوم نزولي الى وسط دمشق، مع انطلاق المظاهرات الكبرى المؤيدة للرئيس. الباصات والميكروات وسيارات الشحن الصغيرة تتدفق كالسيل على طول طريق أوتوستراد المزة، من الضواحي القريبة؛ السومرية والجديدة والمعضمية... والأرياف البعيدة محملة بالرجال والشبان وطالبات المدارس. العلم السوري وعلم البعث، يرفرفان عالياً إلى جانب اللافتات البيضاء، بينما صور الرئيس الابن والرئيس الراحل تعج في الفضاء. المواكب متجهة صوب ساحة الأمويين، قاصدة ساحة السبع بحرات، الأصوات تتعالى من النوافذ «بالروح، بالدم، نفديك، يا بشار».

اتخذت طريقي إلى الساحة ليس للمشاركة في التظاهر، كنت على موعد مع أخي. منذ أن خرج لم يعد، كان البيت مراقباً. اتصل أخي بحازم، وضرب لي موعداً في السبع بحرات. فاقترح حازم على أبيه، بما أنه اختار الساحة، أن يكون لقاؤنا في مكتبه القريب منها. أراد أخي رؤيتي قبل أن يغادر دمشق، تمنيت ألا يكون الوداع إلى أمد طويل.

لماذا اختار الساحة، وفي هذا اليوم؟ كان أخي حريصاً على ألا تفوته مشاهد لم يحظ بها منذ ثلاثة عقود. اعتدنا عليها، تطورت في غيابه إلى ما يطلق عليه المسيرة أو التظاهرة المليونية،

مع أنها لا تزيد عن بضعة آلاف، يخرج فيها الشعب بمختلف فئاته، في المناسبات القومية أو الوطنية، تأييداً للنظام، واحتجاجاً على المؤامرات الأميركية والإسرائيلية. الحزب يدعو إليها، لكن الذين يشاركون فيها، سواء عن قناعة أو من دون قناعة، مجبرين أو غير مجبرين، مضطرون، وإلا لحقتهم المتاعب جراء التخلف عنها، أقلها وضعهم تحت الشبهات. يعبرون عن مشاعرهم، سواء كانت ابتهاجاً أو غضباً، وفقاً لتعليمات الحزب، وتزودهم مكاتب المنظمات الشعبية بالهتافات التي سيصرخون بها. يتجمعون في ساحة، تحيط بهم شعارات الحرية والوحدة والاشتراكية، ثم تضاءلت لتكتفي بصور الرئيس وبعض اللافتات التي تشيد بسورية الأسد. يلقي بعض المسؤولين الخطب الحماسية، ثم يتفرق المتجمهرون، فيظفرون بيوم عطلة. كان فرصة لانفلات الفتيات والشبان في الشوارع.

في السنوات الأخيرة، تكاثرت المسيرات على وقع الأحداث السياسية المعادية، وأصبحت روتينية، بحيث بدت سورية المكرسة للرئيس، تعيش أعياداً دائمة، وانتصارات لا تنقطع، ومناسبات تاريخية جليلة.

رأى فيها أخي بعد انقطاع طويل عنها، حسبما تذكر، أنها على النمط الذي كان شائعاً ومطلوباً، لإعلان الإخلاص للرئيس الأب، وكان في ذلك الوقت يدعى «قائد المسيرة»، يبدو أنها ما زالت على المنوال نفسه للرئيس الأبن، مع اختلافات بسيطة، الاسم فقط.

ما الذي تغير في سورية؟

أطللنا من شرفة المكتب الصغيرة، الجماهير احتلت ساحة السبع بحرات والطرق المتفرعة عنها والمؤدية إليها في جميع الاتجاهات، على الأبنية تدلت صور الرئيس العملاقة، ولافتات كتب عليها «استقرار سورية مصلحة وطنية وقومية» و«لا للفساد نعم لمشروع الإصلاح» و«الله معك الشعب معك». المتظاهرون الشبان يلوحون بالأعلام السورية، بعضهم اعتلى الأشجار، وآخرون تسلقوا أعمدة الكهرباء، وقد وقف على منصة واسعة ممثلون عن المنظمات الشعبية والنقابات، والوزارات والمؤسسات، موظفون وعمال، طلبة مدارس وجامعات، ونساء سافرات ومحجبات. واصطف المحامون بأروابهم السوداء، والأطباء بمرايلهم

البيضاء... وفي المقدمة، عشرة رجال دين يمثلون مختلف الطوائف، شبكوا أيديهم للتدليل على الوحدة الوطنية.

شق الضجيج صوتٌ جهوري: هذا الاحتفال يعقد تحت شعار الوحدة الوطنية وإفشال المشروع الطائفي. ثم قال ما معناه، إن هذه الجموع هبت في هذا اليوم العظيم لتعبر عن وفائها للرئيس والوطن. ثم صدح الغناء من مكبرات الصوت: «أنا سوري، آه يا نيالي». الزغاريد تتصاعد من حلقات الدبكة، سيارات المخابرات توزع الأعلام والملصقات.

عاد الصوت الجهوري: الشعب يرفض محاولات بث الفتنة التي تستهدف نموذج العيش المشترك بين أبناء سورية. يقطعه التصفيق. ثم توالى الخطباء وعبروا بدورهم عن تأييدهم للرئيس. الأرز يرشق من الشرفات والنوافذ. لافتات كتب عليها باللغة الإنجليزية «سوري، أنا سوري».

كان القرف من هذه المظاهر الزائفة قد استولى عليّ من زمن بعيد، الناس لا يجهلون كذبها، ويضيقون بها، وليس بوسعهم الاستنكاف عنها. لم تعد تؤثر فيهم، شيء من طبيعة هذه الحياة التي يعيشونها، وليتها تكتفي بهذه المظاهر.

حاولت أن أنقل لأخي تفاؤلاً، ما كان أبعدني عنه، مبعثه التحليلات التي قرأتها في الصحف السورية واللبنانية؛ وهي أن الرئيس التقط هذه اللحظة التاريخية، وعزم على ألا يتخلف عن انطلاقة الربيع العربي، سيقدم على خطوة لم يتجرأ غيره من الزعماء عليها، بدخول العصر بإنجاز مؤثر وملموس. قلت لأخي، وأنا أحاول إقناع نفسي بصحة ما أقوله:

إنه ابن عصره، لا عصر أبيه، يريد أن يعيش مع شعبه في زمن الديموقراطية والتعددية.

ولقد رفع ما كنت أقوله من درجة تفاؤلي حتى أنني أكدت لأخي إن زمن الأقبية والسجون والمعتقلات والمحاكم الاستثنائية قد ولّى. لم أقل هذا ادعاء مني، هذا ما كان يلهج به سياسيون ومحللون مقربون من الرئاسة.

كان أخي يستمع إلي وعيناه معلقتان على لافتة امتدت على طول البناء المجاور كتب عليها تلك الكلمة التي وجد فيها شبان النظام ما يعرب عن مشاعرهم وولائهم المطلق للرئيس: «منحبك». تحيط بها لافتتان «أينما تدوس نحن نركع ونقيم الصلاة» و«خلقنا لنموت في سبيلك».

فجأة تصاعدت من الساحة أصوات: «مندسّ... مندسّ»، كان بضعة شبان قد أحاطوا بشاب صغير في السن يضربونه بالعصي، يحاول الشاب الهروب، فيقع على الارض مدمّى الوجه. يبرز رجال الأمن، يمسكون به ويأخذون بصفعه وركله، ثم يرمونه في صندوق السيارة، لتنطلق به بعيداً عن الساحة.

كان خاتمة الاحتفال الجماهيري.

المنظر عكّر لحظات الوداع، توقع أخي أن غيابه سيطول، ليس خارج البلد.

قال لي لن يعطي الرئيس أي أمل للشعب، لأنه لا يستطيع. هذا النظام متحجر، إما أن تمجد الرئيس، أو تداس بالأقدام. النظام سيسحق أي تحرك يطالب بالتغيير، ولن يسمح بأي احتجاج. إذا استمرت المظاهرات، فتوقع الكثير من الدماء.

سألته: إلى أين ستذهب؟

قال، إلى حيث يحتاجون طبيباً يعمل في ظروف صعبة.

لا، لم آمل كثيراً. ومع هذا تمنيت أن تنجلي المحنة بسلام. علقت آمالي على خطاب الرئيس، لكن ما جرى في اليوم التالي في مجلس الشعب، كان منافياً للعقل والمنطق، لم يعلن الرئيس عن أية إصلاحات، واتهم بالتآمر كل من يطالب بالحرية، لم يجد في احتجاجات أهالي درعا سوى أنهم كانوا أدوات لمؤامرة تحاك ضده.

ليس أن الرئيس لا يريد أن يقدم شيئاً، بل لا يريد الالتزام بشيء.

الأمر الذي لم أتوقعه على الإطلاق، مهما بلغت درجة تشاؤمي، قد حدث:

أعلن الرئيس الحرب على الشعب.

١

بدا العماد في أفضل حالاته استرخاء وانبساطاً، مع أن الفرصة لم تواته لإذاعة بيان اغتيال الرئيس، وكان موعوداً بتلاوة البلاغ رقم واحد أيضاً، فاته أن يصبح رجل البلاد الأول ولو لبضعة أيام، أو ساعات. كان سروره فائضاً عن الطبيعي، ربما لأن المهندس لم ير على وجهه من قبل ما ينبئ عّن السرور. السبب إعجاب العماد الشديد بخطاب الرئيس، بدا من تقريظه له من الناحية العسكرية؛ الرئيس الابن خاض معركة حربية، استخدم فيها تكتيكات ذكية، واكتسح خصومه بنصر مؤزر.

شاركه المهندس مديحه للخطاب، وكاد أن ينفجر غيظاً من مبالغة العماد في تقديره الشديد لحنكة الرئيس الشاب وحكمته، وإشادته بوطنيته الصادقة، ورؤيته الاستراتيجية؛ خطاب تاريخي، كشف فيه عن المؤامرة المدبرة ضد سورية، مستشهداً بمحتويات الخطاب، كأنهما لم يسمعاه معاً: المؤامرة تعمل عليها مجموعات منظمة مسبقاً في الخارج وجدت لها معبراً إلى الداخل، مجموعة إعلام، مجموعة تزوير، مجموعة شهود العيان.... نبه الرئيس إلى خطر الفتنة الطائفية، من لا يعمل على وأدها، هو جزء منها. وحدد الأعداء، لا مكان لمن يقف في الوسط. وخلبت لبه سخرية الرئيس من صرعة الثورات العربية. أحد النواب في مجلس الشعب، أصاب بقوله للرئيس، إن الوطن العربي قليل عليه، يجب أن يقود العالم. ما جدد إطناب العماد في المديح.

«ابن أبيه بحق» ختم العماد أنشودته.

كانت ثرثرته شهادة جيدة لا مراء فيها، من ناحية واحدة، الرئيس خالف ظنونهما. الجانب السيئ منها، العماد وجّه كلامه إليه بالذات، ليبرئ نفسه من شراكتهما، ويضعه موضع المتهم، كأنه لم تجمعهما الظنون نفسها في مؤامرة واحدة، حمّله وحده وزرها، بحيث تقع الجريمة على

عاتقه وحده. أحس أنه مدان، وبسبب جوهري لا يغتفر، أسلم السر إلى شريكه العماد.

أما وقد انفرطت الخطة، بخطاب الرئيس، فالشراكة بينهما انتهت، العماد لم يشر إليها بكلمة، لا يرغب في الإتيان على ذكرها، لئلا تشير إلى أنهما فكرا بالانقلاب عليه. الفصل التالي، العماد سيغدر به في وقت قريب، ليس ببعيد، كي يمحو عن نفسه زلة تفوق الجريمة، لذا من الضروري تهدئة مخاوفه، وأن يطمئنه إلى أنهما بأمان، ليس في الاعتصام بالصمت، بل في اللجوء إلى النسيان. لكن هذا أمر لا يُنسى، العماد لا يعرف الصمت. ولا يمكن تجاهل شراكتهما، الأجدى العمل على تقويتها، وتحصينها باتفاق آخر، المؤامرة التي جمعت بينهما كانت بداعي الحرص على الوطن، سينقله إلى ما يليها؛ الحرص على الرئيس بالذات، فتكلم بصيغة الجمع، فكان أن تعهدا بدعم الرئيس تجاه الفريق المتردد والمشكك بالحل الأمني.

لم تتخلف وطنية العماد، جاراه ووصف المترددين بالجبناء الطائفيين، والانتهازيين الوصوليين... المعركة ليس أنها آتية، بل أصبحوا في أتونها، معركة ستطول، الرئيس بحاجة إلى الأعوان الأوفياء، كانت أنشودة العماد الثانية.

بعدما اطمأن إلى أن شراكتهما الجديدة لن تنفصم قريباً، تركها لزمن لن يطول.

كان تعاونه مع الشاب الذكي خالد قد تطور ببطء، تسارع بعد خطاب الرئيس وأصبح أقوى، أدركه من طلبه منه المزيد من العمليات النوعية، فأعلمه بأنه يعمل على مخطط لم ينضج بعد، سيعلمه به قريباً. لم يفته أن خالد يستثمره، وقد ينسب النجاحات إليه، لم يكن تغاضيه عنه، إلا لأنه ذكره بشبابه، هذا الشاب يعيد سيرته على نحو ما، طموح، تهيأ له منصب في بطانة الرئيس، ولم يتهاون به، يسعى إلى تعزيزه بكل السبل، إذا تصارحا يوماً ما، فسوف ينصحه بالقتل، هناك مهمات لا توكل إلى الغير.

بالعودة إلى العماد، حسب توقعات المهندس، خلال الفترة المقبلة، ستتضاعف العصابات الإرهابية مرات ومرات. وربما تحتدم الفتنة، سيتحمل جعجعاته الوطنية. في هذه الأجواء المضطربة، لن تشكل شراكتهما، ضماناً لحياة العماد. المسكين سيستهدفه الإرهابيون.

لميس ارتدّ إليها عقلها، تورّد خداها، الابتسامة لا تفارق شفتيها، في ثرثرتها غنج مستحب، مكانتها محفوظة، رغم غلاظاتها. استعدت للاحتفال بالخطاب بالذهاب إلى الكوافير، مع طبقة رقيقة من الماكياج، فاستردت جزءاً لا بأس به من جمالها. وأجبرته على دعوتها إلى العشاء في «نارنج» مطعم بدمشق القديمة، كان العشاء فاخراً والنبيذ معتقاً. وجهها تضرج بالاحمرار، بدت شهية، فغازلها وغازلته، مستأنسين بماضيهما الغرامي. لكنها خذلته إثر خروجهما من المطعم. اعتقدت وقد أحاطها بذراعه، ومال عليها وهو يترنح، أنه سيقضي الليلة عندها، ويفجعها بما آل إليه حاله، كان مفعول الحبة الزرقاء في جولاتهما النادرة الأخيرة مرهقاً بالنسبة إليها، يستلقي على ظهره ولا يأتي بعدها بحركة، ويدع العبء عليها، فتتحرك عوضاً عنه.

قالت له، لن نحاول، لا أنت ولا أنا. ما يخفقان فيه، ينجح مع غيرهما. كانت قد واعدت الشاب المحاسب الذي يعمل عندها، جربت أمانته في العمل، وكان جيداً، جنسياً، لن تخفي عنه، يحتاج إلى بعض التدريب. أطلت نظرة الحسد في عيني المهندس، فقالت، إنه شاب، إذا لم يكن هكذا، فما نفعه؟

لم يعتب عليها، كان في غنى عنها. لكنه حسدها، ما زال الجنس يهبها المتعة، والشبان يمنحونها السعادة، ولو ليلة كل أسبوع، طالما كانوا أمناء. أما هو، فالجنس ليس أكثر من لحظات، وامرأة ترهقه بسخافات، ليس أولها ولا آخرها الغيرة.

لا بأس بقليل من الراحة بعد ثلاثة أيام من الأعصاب المشدودة.

٢

في اجتماع اللجنة الختامي، حاز الحل الأمني على تأييد الأعضاء، الحل السياسي لن يفضي إلى حل واقعي، وسيطيل من عمر الأزمة. وبما أن تأليف اللجنة لم يكن إلا استشارياً، للبحث في الحلول السياسية، فقد انفرطت وعاد كل منهم إلى الجهة التي جاء منها.

كانت العملية العسكرية التي قادها المهندس في درعا، وانتهت بفرط الاعتصام في المسجد

العمري قد عادت عليه بسمعة طيبة في القصر الجمهوري، رجحت مزايا الحل الأمني، العملية استبقته وبشرت به. استغلها. لم يحبذ طلب مقابلة الرئيس، تجربته السابقة والوحيدة عندما التقاه، لم تكن مشجعة، الرئيس يتقمص شخصية أستاذ مدرسة ابتدائية، يلقي دروساً غير مفيدة، تجاربه بغنى عنها.

وفّر عليه خالد هذا الخيار الممل. عندما طلب الاجتماع به، للاتفاق على أساليب العمل، ما يتطلب جلسة مطولة، فاتفقا على اللقاء في الجهاز الخاص. كما توقع، كان الشاب على مستوى الأزمة وتداعياتها، ولهذا تقمص الجانب الديناميكي من شخصية الرئيس. بداية أعلمه بأن الرئيس على علم بما قدمه لأبيه، ويحمل له تقديراً خاصاً على ما بذله من جهد سابق ولاحق. على الرغم من الشهادة الإيجابية، حبذ خالد أن تكون علاقته مع الرئيس من خلاله.

ولقد كان الشاب ذكياً فعلاً، نبهه أن الحديث بينهما، لا يجوز تأويله إلا على وجه واحد، فهو يحمل توكيلاً من الرئيس بسماع رأيه، ولديه الصلاحية للتصرف من دون الرجوع إليه. بداية، بالنسبة للجهاز الخاص سيبقى العمل فيه مستمراً، من دون التعويل عليه بخصوص الأزمة. أما تعاونه مع أجهزة الأمن وهو العمل المطلوب، فإعادة ارتباطه بها، وتزويدها بالأفكار الخلاقة؛ الحاجة ماسة فعلاً إلى عمليات نوعية، أكدتها موقعة المسجد العمري.

وافق المهندس، خالد على استعداد لسماع اقتراحاته مهما كانت، فمضى الحديث على سوية عالية من التفهم. الخطوات التي ينصح بها مبدئياً، هي إطلاق العنان لجميع الوسائل القمعية كي يستعيد النظام هيبته. المظاهرات نالت من سيادة الرئيس بأقذع الشتائم، وطالبته بالرحيل، ولم توفر الزعيم الخالد، هتاف «يلعن روحك يا حافظ» نقلته القنوات الفضائية، وسرى على الألسن. لا أقل من الإعدام الفوري لكل من يضبط متلبساً بالتلفظ به، ما يملي التغاضي عن جميع التجاوزات التي سيرتكبها عناصر الأمن، ولو كانت جرائم منقولة بالصوت والصورة. من المبكر توريط الجيش بأسلحته الثقيلة، فقط المشاة بأسلحتهم الخفيفة؛ بنادق ورشاشات. حالياً المسارعة إلى التوسع في تشكيل ميليشيات من المؤيدين، وإن كان بدفع رواتب ومكافآت مقابل أعمال تسند إليهم. وأن يُضم إليهم الموثوق بهم من عمال الدولة والمؤسسات والإدارات،

تحسب كعمل إضافي مأجور.

الأهم، فتح الأبواب أمام الشبيحة على مصاريعها للعمل تحت إمرة الأجهزة الأمنية. الشبيحة في الساحل بادروا طوعياً للتصدي للمظاهرات، نعم يتميزون بالعنف والشراسة، وهم في جميع الأحوال يمارسون الجريمة بأنواعها ولا يحاسبون عليها. المطلوب أن يرتكبوا جرائم لحسابنا، على ألا يخضعوا للقانون الجنائي، فقط قانون الأزمة، لن يكلفونا شيئاً، تمويلهم من رجال الأعمال، دفاعاً عن مصالحهم. وأيضاً تشجيع ظاهرة الملثمين راكبي الدراجات النارية مطلقي النار من دون تمييز، والاعتماد على المندسين المتنكرين باللحى، وتزويدهم بهتافات على وزن «المسيحية عَ بيروت، والعلوية عَ التابوت»، وتسليحهم بالمسدسات والخناجر، لاصطياد المتظاهرين المتحمسين، لابأس ببعض الضحايا من المسيحيين والعلويين، لتسعير المشاغبات والمشاجرات، لن يعدموا استدراج الكثير من المجانين السنة إلى الانتقام.

تظاهر الشاب الذكي بالامتعاض، كان استعمال الوسائل بهذه الفجاجة، صريحاً جداً، ما استلزم منه إبداء بعض الاستنكار لهذا النفس الطائفي. المهندس كان متهيئاً لهذه اللفتة الاستنكارية، فلم يبخل على الشاب الذكي بدرس لن ينساه أبداً، الشبيحة وأولاد المسؤولين وجماعات المنظمات الشعبية وطلاب الجامعات والمدارس من الشبيبة واتحاد الطلبة هاجموا أبناء بلداتهم ورفاقهم في الجامعة، من دون أوامر ولا تعليمات، ضربوا وقتلوا ووشوا، ومنهم فتيات جامعيات رقصن فوق زملائهم الشبان المحتجين الجرحى، وشاركوا رجال المخابرات بدعسهم بالأقدام، هؤلاء لا تنقصهم الدوافع.

الواقع يبتدع حلوله، كل ما نفعله أننا نتحكم بهذا الواقع لحسابنا.

ولكي يدعم ما اقترحه، ذكّره بالرئيس، هو الذي ابتكر قصة الفتنة الطائفية في خطابه، وبالتالي ينبغي استغلالها، وألّا ندعها بلا استثمار، المنحى الذي ستتخذه الأزمة يتطلب معالجات حاسمة، ما يعني أننا يجب أن نضم إلى صفنا طوائف بحالها، الاحتجاجات ستنحو إلى الطائفية، الأكثرية ضدنا، السنة أغلبية. إذاً مهمة الحزب والأمن والجيش حماية الأقليات. يجب الإيحاء بأن الفتنة الطائفية على الأبواب. والأفضل أن تكون حقيقية، حتى لو لم تكن موجودة، يجب

اختلاقها، لسنا مخيرين، هذا ما يجب العمل عليه.

إن صياغة سيناريوهات عن المؤامرة والحرب الأهلية والهجمات الحاقدة على النظام، تطلب ابتكار إرهابيين وهابيين وسلاح ودماء وضحايا، كي يصبح سحق الاحتجاجات مشروعاً، ومباركاً من الغرب الكاره للإسلام والخائف من الإرهاب.

غادره خالد حاملاً معه اقتراحاته. كانت صريحة جداً وواضحة جداً، توقع ألا يصله الرد عليها إلا بعد أيام من المراجعة والمناقشة حولها، وقد يستدعونه لإيراد حججه. أدهشه أنه قبل أن يحل المساء، تلقى اتصالاً بالموافقة عليها، أوحى إليه الشاب الذكي، أن الرئيس لو اطلع عليها، لن يوافق عليها غالباً، أي أنه سيتحمل تبعات نجاحها أو إخفاقها. ما أعاد إلى ذهنه طريقة عمل الرئيس الراحل، هل الرئيس الحالي يسير على هديها؟ ربما، أو أن الأزمة نفسها أطلقت أيدي الجميع. أوكل إليه خالد التحضير للعمليات النوعية والمباشرة فيها فوراً، سبقه الإيعاز للأجهزة الأمنية بالتعاون الكامل معه.

الأزمة التي اتخذت مسارها على الطريق الصحيح، سمحت للمهندس الالتفات لتصفية حسابه مع العماد السابق، لم ينسه، كان قد عاد إلى الأركان برتبته القديمة لواء، مثل عشرات الألوية في القوات المسلحة. أثبت أنه لا يستحق أعلى رتبة في الجيش، فاللجنة لم تقدم شيئاً سوى الهراء. اللواء لم ينس طعم رتبة العماد، خشي المهندس أن يسارع إلى استعادتها بالوشاية به. تابعه عن كثب، ووعده ليأمن شره، العمل على فرزه إلى الجهاز الخاص، وتعهد له ببذل مساعيه في استرجاع حقوقه في رتبة عماد. ولقد وفى بوعده وانتقل اللواء إلى الجهاز وأصبح تحت إشرافه المباشر، أما الرتبة فلحلول موعد الترفيعات، وحتى يحين وقتها، كلفه بمهمات في جبهات الأحياء الساخنة، ينقل منها مشاهداته على الأرض، مشفوعة بملاحظاته واقتراحاته، أضفى عليها المهندس أهمية كبرى، فهي التي ستقرر خطة القضاء على الاحتجاجات، عسى تصادفه رصاصة طائشة.

تحمس اللواء لمهمته، وبلغ من فرط استهانته بالناشطين العزّل أنه تقدم الميليشيات المؤيدة، مخترقاً المتظاهرين الشبان مفرقاً صفوفهم بإطلاق النار. لم تصادفه رصاصة، وإنما ضل طريقه

في أزقة دمشق الضيقة، وهو يلاحق شاباً بعينه، كان يقود المظاهرة معتلياً الأكتاف، فوجد نفسه وحيداً معه في دخلة مسدودة، أطلق عليه النار وأخطأه، فتخلص منه الشاب بإغماد سكين في صدره.

وكما تنبأ المهندس تماماً، قضى اللواء المرشح لرتبة عماد ضحية الإرهاب.

٣

أحرزت العمليات النوعية نجاحاً منقطع النظير، الشاحنات لا تفتر عن نقل الأسلحة إلى المناطق العلوية، عملاء الأجهزة يحرضونهم على جيرانهم السنة بالإيحاء بأنهم مهددون منهم. بالنسبة للطوائف الشيعية والمسيحيين والدروز، الحبل على الجرار، وإن ليس بالتسارع نفسه. وكما المتوقع، في المناطق السنية، استنفر الأهالي لحماية قراهم من هجمات الشبيحة، واستعدوا للقيام بهجمات معاكسة، بالاستعانة بالجنود المنشقين عن الجيش. أصبح قمع المظاهرات والمداهمات سارياً على أن يتم قتل الناشطين السلميين تحت التعذيب، وإرسالهم إلى أهاليهم مع التمثيل بجثثهم، عبرة لغيرهم. توزيع الفيديوهات المصورة بالهواتف الجوالة التي تحتوي على مشاهد حية لإذلال الأهالي الأبرياء وغير الأبرياء، بالتنكيل بهم صفعاً بالأيدي ودعساً بالاقدام، كانت عرضاً حياً وواقعياً، من اللحظة التي يقبض فيها على الناشط أو المشتبه فيه، إلى لحظة الختام، أحياناً كثيرة، يجهزون عليه برمي الأحجار على رأسه، المشوار من الحياة إلى الموت، لا يستغرق سوى دقائق معدودات.

علّق المهندس في مهمة دائمة، كلما بردت الفتنة في منطقة، انتقلت إلى أخرى، لتعاد أسطوانة تحريض الأقليات بتخويفهم من الأكثرية السنية. غير أن الأزمة طالت، كانت المراهنة على انتهائها خلال بضعة أيام، ثم بضعة أسابيع. أجهزة الأمن والشبيحة أخفقوا. الضباط يلحون على الرئاسة مشاركة الجيش العقائدي بكامل ثقله، ويطالبون بتحويل الاشتباكات الى حرب مفتوحة تستعمل فيها جميع أنواع الأسلحة من دبابات وطائرات ومدافع وصواريخ، ما سوف ينهيها خلال وقت وجيز لا يتعدى بضعة أسابيع، إن لم يكن أيام. موافقة الرئاسة، كان مفروغاً

منها، الفرقة الرابعة يقودها أخو الرئيس، شارك منذ بداية الأزمة بقمع المظاهرات. الجيش العقائدي زج في المعركة.

لم يستطع المهندس التمسك بعملياته النوعية كحل وحيد للأزمة. العائلة المالكة في حالة دفاع عن النفس، ويجوز استعمال حتى الأسلحة المحظورة، لئلا تسقط سورية فريسة للمؤامرة الكونية، ولكي يدعم نزول الدبابات، اقترح العمل في الإعلام على تحويل الانتفاضة السلمية إلى ثورة مسلحة، تمهيداً لتحويلها إلى إرهاب إسلامي.

في زحمة الأحداث، جاء أحمد يحمل خبراً، فسرته ملامحه على أنه في منتهى السوء، فرع الأمن قبض على صديقهم غالب، إثر إخبارية كيدية؛ إثارة شقاق وطني. التحقيق معه استدعى تحويله إلى أحد أجهزة الأمن في دمشق. طلب أحمد منه التوسط لإطلاق سراحه. جريمة غالب، إجراء المصالحة بين القرى المتجاورة السنية والعلوية، ليمنع الاقتتال في ما بينهم. كما نجح في إبطال عملية انقضاض كانت مجموعة من الشبان تنوي القيام بها ضد قرية سنية. فأبلغ عنه الحزبيون فرع المخابرات، هل في هذا إثارة شقاق وطني؟!

أعاده أحمد إلى ما قبل الصفر، وكأن الدفاع عن اللحمة الوطنية التي يلغو بها النظام في الإعلام ليل نهار، حقيقة يُسعى إليها، كانت هي وغيرها قد أصبحت وراءهم، لا عودة إلى ذلك الزمن، إذ لم يوجد قط. اعتقال غالب ليس بالخبر السيئ على الإطلاق، غالب وقع أخيراً في الفخ الذي نصبه لنفسه. ألم يجعل همه ترويج مقولاته اليسارية الوطنية، لم يراع تغير الزمان، وتحولها إلى مقولات طائفية، سنة وعلوية، اليوم ما يجمع سورية، هو الفرقة والتقاتل.

الأمر الأسخف، أحمد لم يأت من أجل غالب فقط، جاء من أجل أمر آخر، سورية مقبلة على خراب، إن لم تجر المسارعة إلى إنقاذ العلويين. ما جعل المهندس يعتقد أن لدى أحمد أخباراً عن إعداد القرى السنية لحملة ضخمة ضد القرى العلوية!!

خلافاً لتوقعه، أعلمه أن رجال الأمن ينظمون الشبان ويسلحونهم ويحرضونهم على الإغارة تحت حمايتهم على جيرانهم السنة، ويعدّون لهم الخطط لقطع الطرق وخطف النساء

والأطفال ... بغية توريط المنطقة في فتنة طائفية، وفي هذا استجرار للطائفة إلى حرب هي خيانة لسورية واحدة.

كان يريد إنقاذ العلويين من براثن النظام!!

لم يفهم المهندس كيف توصل أحمد إلى هذه التخريجة: إنقاذ العلويين من النظام!! لم يستطع ضبط أعصابه، آن الأوان ليصفع هذا الغافل المغفل بالحقائق؛ العلويون مضطرون، إنهم ملزمون بهذه الدولة، لولا النظام لم يكن لهم مكانة في سورية. هذه حقائق، لو عادت السلطة إلى السنة بعد حرمانهم منها خمسة عقود، فسوف ينتقمون منا؟ لديهم ألف سبب.

حاول أن يبدو هادئاً وهو يُفهم صديقه أن الأزمة الجارية في جوهرها تتطلب فهماً أعمق، ليس هذا الذي يبدو على السطح؛ مؤامرة وممانعة، علينا نحن العلويين إدراك أن السلطة حكر لنا، لا تقل لي إنك تجهل ما قدمه لنا الرئيس الخالد. منح الطائفة كل ما حرمت منه؛ المال والنفوذ، المؤهل الوحيد لأي واحد منا، أنه علوي. الرئيس الابن لم يقصر، سار على نهج أبيه، أعطى العلويين تجارات وتعهدات ومناصب، وفتح لهم خطوط التهريب والممنوعات، لم يحاسبهم على جرائمهم وسرقاتهم وعصاباتهم. وأفسح لهم المجال لاحتلال مختلف المواقع في الجيش والمخابرات والدولة والإعلام والصحافة... من الوظائف الصغيرة إلى الكبيرة. حتى المعارضة لم تخل منهم، كانوا وحدهم سورية، وبلا شريك. غيرهم من الطوائف لم يكونوا سوى ملحقين بهم، لم نرضهم سوى بالفتات، وإذا كان أكثر، فنحن شركاؤهم، لنا الحصة الأكبر مما يكسبون. هذه نعمة، ينبغي المحافظة عليها والدفاع عنها. اعترض أحمد:

«الكثيرون منا لم يحاولوا الانتفاع، كانوا فقراء وما زالوا».

«حتى الفقر انتزعناه منهم. لم يجر الاعتراف إلا بفقرائنا، كأن لا فقراء سوانا».

هل سيفْهمُ صديقه الغبي الطيب، أن موعد السداد حان؟

«ليس بلا مقابل، لقد أعددناكم لهذا اليوم».

ظن أحمد أن صديقه غير مطلع كفاية، ولا يدرك أن النظام غرر بشبان الطائفة:

«جثث قتلانا لا تكف عن التوارد إلى القرى».

«إذا كانوا يَقتلون فسوف يُقتلون».

احتد النقاش بينهما، ولم يكن أحمد ذلك الغبي، أبدى بعض النباهة، اتهمه بأنه كان يستدعي شبان القرية، ويوظفهم في العاصمة، كي يحولهم إلى مجرمين. طوال سنوات وهو يرعى في داخل الطائفة مناصرين قتلة. فجأة أوقف أحمد النقاش معه.

«لن نتفاهم أو نتفق على شيء».

سليمان أيضاً لم يرغب بإطالة الحديث معه، ولا إقناعه بشيء. خسران الصداقات القديمة في مثل هذه المواقف، أفضل من التظاهر باستمرارها. طلب منه العودة إلى الضيعة، وسوف يهتم بقصة غالب، إذا لم يلحق به خلال يومين، فلابد أن قضيته كبيرة، هذا يعتمد على التهمة الموجهة إليه، وعلى ما اعترف به. لم يغب عن أحمد تلكؤ سليمان، فسأله:

«هل تستطيع؟».

«قد لا أستطيع».

«بل تستطيع، المهندس يستطيع».

غادر بعدما وضعه أمام خيار، لن يحيره. غاظه فقط، إشارته لأول مرة إلى لقبه المهندس، أي أنه يستطيع لو أراد، كان يعرف عن سلطته، وقدرته على فعل ما يعجز عنه غيره.

المشكلة لم تكن في إطلاق سراح غالب، بل في غالب نفسه، هل يرضخ لمعروف يقدمه له من دون مقابل، سوى القبول بمبدأ الشيطان.

في الفرع، جاؤوا بغالب معصوب العينين، موثق اليدين، أوقفوه عند الحائط وخرجوا. آثار

دماء على كوعيه، وجهه متورم. كان حديث العهد بالفرع، لم ينل بعد إلا عدة صفعات، ودولاب مع فلقة، والزحف في الممر حتى الزنزانة، لم يقلعوا أظافره بعد. منظره صالح كي يتصرف معه بأريحية، وينقذه من اعتقال يدوم بضع سنوات، إن كان محظوظاً، أو الموت قبل أن يشم عبير الحرية.

خاطبه ليشعره بوجوده، قائلاً له إنه سينزع الطماشة عن عينيه، فانتتر غالب لحظة سمع صوته: دعها.

تفهم موقفه الدرامي المتشنج، في هذا المكان إما أن تكون سجيناً أو سجاناً.

اعتصم غالب بالصمت، كان هذا افضل ما فعله، لو أنه تكلم، فسوف يساعده الموقف على التفوه بالكثير من العبارات الخطابية التي يمقتها. غالب كأمثاله، يفوزون ببغيتهم عندما يعتقلون، لا يثورون إلا ليذهبوا إلى السجون. إذا كان لا يريد رؤيته فليس لأنه السجان، بل لأنه يكرهه. كانت رغبته عارمة في أن يُري السجين شماتته به. لكن طبيعة العلاقة بينهما، لا تجيز أجباره. حسناً سيقبل بهذه القسمة، إذا أراد السجين أن يُطلق سراحه، فعليه أن يتوسل سجانه.

بعد دقائق من الصمت، مازال غالب مصراً على ألا يتكلم معه. أما هو فلن يضيع الوقت، سيشرح وجهة نظره: الطائفة ليست مخيرة في الدفاع عن النظام فحسب، بل عن خطر يتهدد وجودها، حتى لو لم يلح بعد، مجرد أنه متوقع. وحتى إذا لم يكن متوقعاً، عليها الاعتقاد أنه قادم. لو تخلت الطائفة عن النظام، فسوف يسقط خلال ساعات، لن أبالغ وأقول، إنها مبرر وجوده، هو أيضاً أصبح مبرر وجودها، إنقاذ النظام، إنقاذ لها. يجب عليها الاعتراف بجميله. النظام لن يسمح بأن تفقد الطائفة هويتها وكينونتها.

افهم، لقد غامرت بدعوة مميتة، المصالحة تعني تذويب الطائفة في بحر من السنة. لو كان في غير هذا الظرف، فلن نكترث. أما الآن فالأمر مختلف تماماً، إنها الخيانة العظمى. .. دافعت عنك سابقاً، اليوم لن أرحمك. أنا غير ملزم نحوك، أصلاً لم نتفق على شيء. أنت في مكان لا يصلح إلا لما هو أصلاً، مكان اتهام وتحقيق وتعذيب...

لم يقل له، إنه المكان الصحيح، لفصم صداقة، لم تكن صداقة.

قال له، هذه نهاية المطاف بنا. وافقه غالب بهزة من رأسه.

قبل أن يخرج تذكر أحمد، فليكن، لقد تخلص من الآخر، وتخفف من الصداقات المعوقة.

بما أن المهندس والمعتقل من ضيعة واحدة، سأله العقيد رئيس الفرع:

«هل يهمك أمره؟».

«لا يهمني أبداً».

٤

لم يبق الكثير من الحسابات المفتوحة، مهما كانت ينبغي تصفيتها، الطبيب على رأسها، ولو أنه مختف، هل يبلغه برسالة عن طريق أخيه؟ لم تستهوه الفكرة كثيراً، لماذا الرسائل، ما دام أنه لن يظهر أبداً؟ الأفضل طي قصته، وعدم الالتفات إليه. إذا كان قد انضم إلى المحتجين والجنود المنشقين، فمأواه معهم، ومقتله إلى جانبهم. لا مبرر لكي يخشاه، أمام الباب جيش من الحراسات والحمايات المسلحة بالرشاشات الأوتوماتيكية.

غير أن حساباً أكبر، ظهر عقب اتصال المخبر المراقب؛ المحامي الشاب حازم ابن القاضي اختفى أيضاً. خطر له أنه التحق بعمه الطبيب، يبدو أنه تأثر فيه خلال فترة إقامته معهم. أعاده الخاطر تلقائياً إلى وسواسه القديم، بعدما ظن أنه تخلص منه بالتقادم، عاد منتعشاً بفكرة خارقة لمعت في ذهنه كالبرق، ربما كان حازم هو ابن الطبيب لا القاضي، عمره ملائم ليكون هذا هو ذاك. توارد مدعماً بأكثر من دليل، أحدها أن من أخذ الرضيع، سيسلمه إلى عمه، كيف لم يواته هذا الخاطر من قبل؟ اذا لم يمت، فقد أصبح شاباً.. أصبحت زيارة القاضي ضرورية، ليستعلم عن هذا الموضوع بأسلوب مخابراتي.

على غير ما عهده، لم يستقبله القاضي بالترحاب. الطبيعي أن تصاب علاقتهما بالجفاف، قتَل

عائلته، وأودى بأخيه إلى السجن. هل يرسل القاضي إلى الفرع؟ لن يدع هذه الحماقة تستولي عليه، كان يحترمه، القاضي تعاون معه بأمانة. لا يريد خسارته، مازال بحاجة إليه. كان الإنسان الوحيد، إضافة إلى المرحوم الأستاذ رشدي، اللذين أقنعاه باستقامتهما، ولم يغبطهما عليها، وكانت مفيدة.

بدا القاضي مغموماً، مثقلاً بالهموم، كأنه مصاب بصدمة، لديه أسبابه؛ فقد أخاه، ثم ابنه أو ابن أخيه. سيصلح الأمور معه ويطيب خاطره، ولو مؤقتاً، القاضي لا يشكل خطراً على الإطلاق، كما الطبيب خطره ليس عاجلاً، يحتاج الى وقت طويل ليشفى من أمراضه المتراكمة، ربما مات قبل أن ينجو منها. سيمرر رسالته إليه، ولن تكون مزعجة، تحذير بسيط، توطئة لسؤاله عن الرضيع. لكن ليس قبل أن يستفسر عن المكان الذي رحل إليه الطبيب، ربما وصله خبر منه.

القاضي لم يتردد في الإجابة:

«ذهب أخي ليشارك الناس مصائرها، سنوات السجن لا تبيح له التخلي عنهم».

أي ليمارس الدور الذي فاته في حماه، لمجرد أنه دفع ثمنه مقدماً.

«هل تعتقد أن بوسعه تقديم شيء لهم؟ لو أنه ساعد نفسه، لكان أفضل».

«ليس الأمر ما نعتقده أنا أو أنت، بل ما يعتقده».

صراحة القاضي فاقت توقعه، وهذا ما دعاه إلى التراجع عن تقصي أثر المحامي الشاب، خشي أن يكون هو نفسه الرضيع، إذا كان قد نجا منه عندما كان بلفافة عمره أشهر، فلن يظفر به، شاباً قادراً على حمل السلاح، لا يريد لأسوأ احتمالاته أن يتحقق، فليكن الأمر غامضاً، لئلا تكبر وساوسه. يوماً ما قد يجد الطبيب، ويصادف الشاب أيضاً، سواء كان ابنه أو ابن القاضي.

سأل القاضي عن رأيه في الأحداث، واثقاً أنه لن يتكتم عليه. وكان عند حسن ظنه، تكلم كما اعتاد على سجيته عن أوضاع البلد:

خطاب الرئيس، فرصة تاريخية ضاعت، كان بوسعه إرضاء المحتجين والمتضررين، بإجراء بعض الإصلاحات تؤدي إلى إيقاف المظاهرات، قد لا تزيد عن إصلاحات متدرجة على المدى الطويل، تذهب بسورية تحت قيادته إلى الديموقراطية. كان اجترح مأثرة، دخل بها التاريخ من أوسع أبوابه، أفلت فرصة لا تعوض، واختار معالجة الأزمة بالرصاص والمخابرات.

بالمقابل أراد المهندس التعبير عن رأيه:

ليس بوسع الرئيس التهاون إزاء مؤامرة تبغي تقويض النظام، ولا المساومة على الحكم، أبوه لم يورثه إياه فقط، لقد أورثه سورية أيضاً. هذا البلد هو سورية الأسد، لا أحد يجوز له أن يفكر مجرد تفكير، بإنهاء حكم سلالة الأسد بعد أول وريث. أي خطوة نحو الديموقراطية تعني بدء التنازل عن سورية. لمن؟! لا تقل لي إلى الشعب. من هو الشعب؟ إنهم البشر الذين تراهم في الشوارع والأسواق، يسعون لتأمين مصادر عيشهم، لا يهمهم من يحكمهم. الرئيس لن يتنازل عن الحكم إلى معارضين، بلا تجربة ولا خبرة. ما الذي سيحدث؟ الفوضى وخراب البلد. لن ندع أنفسنا تحت رحمة القادمين، سيصمون حمايتنا للوطن والشعب بانها كانت جرائم: حماه، تدمر، جسر الشغور... ويحولون إنجازاتنا إلى إثراء لا مشروع، مع أن النهب كان صنيع حفنة من الأشخاص. في الدفاع عن أنفسنا، لن نتورع عن أي فعل، كما في حماه، الآن يواجهنا أكثر من حماه، قد يأخذ الأمر بعض الوقت، بضعة أشهر أو سنة، لكنه سوف ينتهي. لن يمتد أكثر... لا تظن أن هناك مستقبلاً آخر لسورية.

كان ما قاله كافياً كي يستعيد القاضي فكرة توصل إليها قبل أيام، لم يخفها عن المهندس؛ إذا كان النظام حسم أمره بهذه الطريقة، فلأنه لا يستطيع التصرف إلا كما تصرف في حماه. بالمقابل الناس حسموا أمرهم، لن يسلموه رقابهم ثانية، لا عودة إلى ما كانوا عليه.

أصيب المهندس بخيبة أمل، اعتقد أن القاضي سيعطيه انطباعاً آخر، لا يقل واقعية عما يجري في أرجاء البلاد كلها. القاضي أخذ بجد تصميم المحتجين على مواصلة الانتفاضة، ربما لأشهر أخرى، تحت زعم أنهم أسقطوا جدار الخوف، وفي هذا مبالغة لا تليق بقاض، عدالة الشارع

تختلف عن عدالة القضاء، في الشارع لا حساب على ما يبدأ فيه وينتهي فيه، ما القتل إلا الفعل الخالص للعدالة في الشارع.

كان وقد بات في خضمّ القتل والشارع، تذكر المحامي الشاب، إذا كان هو الرضيع، فالنهاية غير محسومة، والمستقبل ليس مضموناً. ليته يكون ابن القاضي لا الطبيب. لا، لن يخدع نفسه، أو يراوغ، كان يقينه نهائياً، حازم ابن الطبيب، اختار أن ينتقم لأبيه، إذا ظفر به فسوف يقتله ويقتل أباه، لن ينجو أحد منهما.

لم يكن القاضي ينظر إليه، كان ينظر بعيداً، سمعه يقول:

سورية ذاهبة نحو المجهول.

وقال شيئاً آخر أيضاً. لم يلتفت إليه المهندس. غادر على حين غرة. لم يشعر بالأمان.

في طريق عودته مساء، تذكر كلمات القاضي التي ختم بها حديثه عن ذلك المجهول الماضية إليه البلاد:

ربما كان عظيماً ورائعاً، لن يعود شيء إلى ما كان عليه، سيكون بلداً آخر. ليته يتسع للجميع.

٥

صباحاً في المكتب، اطلع على تقرير البارحة الميداني؛ حماه عادت إلى الواجهة بقوة، قوات الجيش دخلت إليها مرة أخرى، مظاهرات عارمة في ساحة العاصي، خسائر المدنيين كبيرة، ولا أرقام دقيقة. لم يصبر الحمويون المجانين طويلاً، شاركوا بالانتفاضة، انزلقوا إلى تكرار مأساتهم القديمة مع أهازيج وعراضات، قادها مغنّ يدعى القاشوش. عندما قيل له إنهم قبضوا عليه، أمرهم، اقتلعوا حنجرته، وارموا جثته في نهر العاصي. تلك هي لمسته النوعية. لم يُذبح لأنه طالب الرئيس بالرحيل، بل لأن مئات الآلاف رددت وراءه «يللا ارحل يابشار».

أوضاع الجبهات الأخرى مشابهة؛ في حمص حصيلة الاشتباكات مع المتظاهرين في حي بابا

عمرو عشرون قتيلاً ، الجثث مازالت على الأرض. بلدة تفتناز اقتحمتها سرية دبابات وعربة مصفحة وعشر حافلات كبيرة محملة بالجنود. مقتل امرأة في بلدة سرمين، سقوط أربعة قرويين قتلى في بلدة بنش بنيران عشوائية. في دير الزور، الدبابات وناقلات الجند المدرعة فتحت نيران رشاشاتها الثقيلة على أحياء الشيخ ياسين والجبيلة والموظفين. حملات مداهمة واعتقال في ريف دمشق... لم يكمل، الأوضاع نفسها، عشرات الجبهات مشتعلة.

أما التقرير السياسي، فحملات التنديد تتوالى من بلاد العالم وعلى رأسها أميركا التي طالبت الرئيس بالتنحي، تركيا أعطت النظام فرصة أخيرة للتراجع عن الحل الأمني، البلاد العربية سحبت سفراءها من دمشق للتشاور. دول أوروبا بدأت بخطوات مماثلة، وهددت بعقوبات اقتصادية، بعضها بدأ بالتنفيذ وشمل رجالاً من أعمدة النظام. عموماً العالم ما زال يعول على أن يقوم الرئيس بالإصلاحات المنشودة.... فلينتظرها.

قضى نهاره في التخطيط لمجزرة لافتة على قرية سنية، بالتنسيق بين قوات من الجيش وجماعات من الشبيحة، لا يكفي أن يكونوا مؤيدين، بل مجرمين. القتل بإطلاق الرصاص، ثم التمثيل بالجثث، مع الكثير من الدماء.

نظر الى الساعة، الوقت تعدى الظهر، غداً سيتصل بمخابرات المنطقة، ويستطلع رأيهم، وينسق معهم. لملم أغراضه، سيغادر بعد الاطلاع على التقرير العسكري لهذا اليوم، كان قد ظهر على شاشة الكومبيوتر.

على غير موعد، دخل الشاب خالد إلى المكتب، رافقه لغط من الخارج، لم يهتم، يرافق خالد عناصر المرافقة، فيحدثون بعض الضجيج. هذه المرة جاء مستعجلاً. بدا مضطرباً، بعض الأمور ليست على ما يرام. سارع المهندس، واستعرض الأوضاع الميدانية، تقدم الجيش في أغلب الجبهات يسير ببطء شديد، انشقاقات الضباط والجنود ساعدت على حماية المتظاهرين، وباتت تؤهلهم للتمدد إلى مناطق أخرى. اقترح إجراءات تصعيد إضافية، المجزرة على رأسها، وأن تفكر القيادة جدياً، الاستعانة بالإضافة إلى الخبراء الإيرانيين، بمقاتلين من حزب الله، وزج المتطوعين الشيعة في المعارك، هذا يساعد على التحشيد عسكرياً وطائفياً، أن يدرك الجيش

والشبيحة أنهم ليسوا وحيدين في المعركة.

لم ينبس خالد بكلمة، كان يحدق إليه بعينين جامدتين، بدا شارداً لا يصغي إليه. فأكد على المقترحات، لا يجوز أن يتأخر التحرك في هذا الاتجاه طويلاً. حامد لم يحول بصره عنه، ولم يبد رأياً. تابع قائلاً: عناصر حزب الله مدربون بشكل ممتاز، سيسجلون انتصارات سريعة، ترفع معنويات الجيش.

أخرج خالد من جيبه آلة تسجيل صغيرة، ووضعها على مقربة منه، وكبس زر التشغيل. استغرب المهندس هذه الحركة، تمت من دون كلام. لم يلحق أن يتساءل، كان صوته طالعاً من المسجلة، للوهلة الأولى لم يتميزه. عرفه عندما سمع صوت الشخص الآخر؛ اللواء الشهيد المرشح لرتبة عماد. كان يتكلم معه، اللواء يستفسره عن الخطة. صوته يطمئنه، إنها جاهزة. اللواء يسأله ثانية. فيؤكد له، العملية مضمونة. اللواء يلح في السؤال عن التفاصيل. يقول له، سيغتال الرئيس. يسأله، ألن تستعين بأحد. يرد، لا، لا أحد. اللواء يعيد السؤال، بيدك؟! يجيبه، بيدي.... لم يتابع السماع، الصاعقة التي ضربت رأسه أحدثت ضجيجاً أصابه بالصمم. أحس بدوار، المرئيات تميد من تحته وفوقه، تمنى أن يغمى عليه، يسقط أرضاً ولا ينهض أبداً، إلا إذا كان هذا الموقف مجرد كابوس.

كان كابوساً، لكن لا علاقة له بالدوار ولا بالنوم، كان صاحياً تماماً. اللواء الحقير لم يكن واثقاً منه، حمى نفسه بتسجيل مؤامرة الاغتيال، واحتفظ به للمستقبل. الورثة تقربوا به إلى الرئاسة. أراد الاحتجاج على هذه المهزلة، لن يكون ضحية ثرثرة عابرة.

لم يجد سوى هذه الكلمات يقولها.. لو كنت مكاني، والوطن في خطر... لم يكمل، لا شيء يشفع له، هذه الديباجة لن تؤخر؛ الوطن، الولاء، العملاء، المخاوف... لن يصدقوه.

لم يُظهر خالد أدنى تأثر من أجله. ملامحه اكتست بلاتعبير.كان يؤدي واجبه فقط. توقع أن يدافع عنه، أو يعرض حلاً، اللاتعبير لم ينبئ عن شيء من هذا القبيل، هذا الولد يشبهه إلى حد لا يطاق، حنق عليه، ربما كان ذكياً جداً، وفي مقتبل العمر، لكنه ليس محظوظاً، أعمى أكثر منه.

سيعيد سيرته على نحو أسرع، وربما أبطأ. لو كنت مكانه، لم يسترسل...

«لا أظن أن الرئاسة أخذت بالتسجيل على محمل الجد».

أخرج خالد مسدساً، لم يصوبه نحوه، وضعه على الطاولة. قال له، حاول أن تتصرف خلال خمس دقائق، بعدها سوف يتصرف الشبيحة، إنهم في الخارج، لن يستعملوا الرصاص ولا القنابل... السكاكين فقط، لئلا يصدروا أصواتاً.

خيره بين المسدس بيده، أو السكين بأيدي الشبيحة، لم يُعط هذا الخيار لمتآمر قبله، عادة يجبرونه.

قال له، لكي يتذكر في يوم قادم كلماته الأخيرة:

«قدمت للرئيس خدمات كثيرة».

قالها، يستعطفه، تصرف على نحو يدعو للشفقة.

«لا أحد يجهل خدماتك، إنها محل تقدير الرئاسة».

«مازال بوسعي أن أقدم الكثير، صدقني سأرحل وأنا قلق على أوضاع البلد، لو يترك أمري لما بعد انتهاء الأزمة، الآن سورية في خطر».

«اطمئن، لا تراجع عن الحل العسكري، ولو اضطررنا ألا يبقى في سورية حجر فوق حجر».

كان بهذا قد أغلق أمامه جميع الأبواب، فوجد نفسه يقول بأسى:

«لقد جعلت من الرئيس الخالد أسطورة».

ارتد خالد نحوه بعدما توجه نحو الباب. سارع المهندس:

«ابنه كان أمانة في عنقي، لا يعقل أنني...».

«تعرف لا شيء شخصي».

فأحس بالغضب:

«هل تعتقد أنني قد أغتاله؟».

«نحن متأكدون أن هذا أمر يستحيل أن تقدم عليه، حتى لو أردت».

«استحق أن يغفر لي، ما دمت لن أفعلها».

«لا، لن تفعلها».

«إذن، لماذا؟».

«هذا لمجرد أن الفكرة خطرت لك».

رافقه صامتاً نحو الباب، قبل أن يخرج قال خالد:

«أعدك، سأبذل جهدي، وأضمك الى قائمة الشهداء الذين اغتالهم الإرهابيون».

كان عرفاناً بالجميل على خدماته.

وإذ أغلق الباب خلفه، الدقائق الخمس بدأت.

ألقى نظرة من النافذة، كانوا قد اقتلعوا كولبة الحراسة من مكانها، وسحبوا السيارات، لملموا العاملين في المكاتب، ومعهم جنود الحراسة والحماية، انتزعوا أسلحتهم، وحشروهم في الباص، لم يتجرأ أحد منهم على رفع بصره إلى أعلى، الرشاشات مصوبة نحوهم.

خطر له الطبيب، لم يطلق عليه النار، تركه لهم. لم يكن محظوظاً وقتها، فلت منه، ولم ينج من سوء طالعه. الرضيع، لم يعد مهماً، إذا كان قد مات، أو أصبح شاباً، ليته يكون خطراً على نظام لا يعفو عن المخلصين له. كان القاضي على حق. هذه الجولة ربحها غالب، ولو كان ميتاً، لا جولة أخرى، عارف فاق الجميع ذكاء، حياة بكاملها ذهبت هباء. نعم، اختار حياته، لا يمكن أن تكون إلا هكذا. هل كان بوسعه اختيار غيرها؟ لو أنه يستطيع إجراء تعديل صغير

عليها. لا، كانت تحتاج إلى أكثر من تعديل، انقلاب غير قادر عليه. الوقت يتسارع، لا يتسع لشيء. لميس ستصاب بالجنون، عشرة عمر، سيتحول الى مادة لكآبتها، لن تنساه، سوف تتاجر بالشهيد...

نظر إلى الساعة، ما زال هناك دقيقتان، وليس بوسعه فعل شيء. تمنى شيئاً واحداً، لو أن الرئيس يدعه يعيش في قبو تحت الأرض مع الجرذان والصراصير والقمل، ونزر يسير من الطعام، وبصيص من الضوء، ليكرس عمره الباقي للعمل له ليل نهار، دونما انقطاع. فقط مقابل أن يموت موتاً عادياً. يا إلهي السجين الذي حدثه الطبيب عنه، لم يحظ بموت عادي.

خطف نظره، تقرير اليوم العسكري على شاشة الكومبيوتر، مرّ عليه ببصره،: آليات قوات الجيش غادرت حماه، بعدما استتب الأمن فيها. في حمص إطلاق النار مستمر. الجثث والجرحى في الشوارع لم يسمح الجيش بإسعافهم. في إدلب وريفها، أنهت وحدات الجيش السوري خروجها ظهراً ـ في دير الزور، الانفجارات لم تنقطع. في ريف دمشق، حصيلة حملة الاعتقالات المئات من المشبوهين...

لن يتابع القراءة، هناك نحو مائتي موقع ما بين مدينة وقرية، لا يكاد الجنود يخرجون منها حتى يعودون إليها، الجيش الذي خرج من حماه قد يدخل إليها بعد أيام، ومثله الجيش الذي أنهى عملياته في ريف إدلب، قد يجددها بعد أسبوع، أما حمص فالاشتباكات لن تتوقف...

هذه البلاد، لا يؤسف عليها، لن يبقى حجر فوق حجر. يعرفهم، أليس واحداً منهم؟ يرى بوضوح ما بعده وضوح، الآلاف المؤلفة من القتلى والجرحى والمفقودين وذوي العاهات. لا تأسف، هذه البلاد بلاد الخلود والموت، المجد والخوف. لم يعان من الخوف، ولم يظفر بالمجد، الخلود لغيره، والموت له.

كل هذا الموت والدمار، ما كان ليحدث، لو أننا... وضغط على الزناد، لئلا يندم.

حزيران ٢٠١٤

المؤلف

فواز حداد، روائي سوري.

صدر له:

- **موزاييك «دمشق ٣٩»**، رواية، دار الأهالي، ط١، ١٩٩١، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.
- **تياترو «١٩٤٩»**، رواية، إصدار خاص، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.
- **الرسالة الأخيرة**، قصص، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.
- **صورة الروائي**، رواية، دار عطية، ط١، ١٩٩٨، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.
- **الولد الجاهل**، رواية، دار الكنوز الأدبية، ط١، ٢٠٠٠، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.
- **الضغينة والهوى**، رواية، دار كنعان، ٢٠٠١ ، طبعة ثانية، ٢٠٠٤، طبعة جديدة رياض الريّس للكتب والنشر ٢٠١٠.
- **مرسال الغرام**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.
- **مشهد عابر**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٧.

- **المترجم الخائن**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٨. (القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠٠٩)
- **عزف منفرد على البيانو**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٩.
- **جنود الله**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠١٠.
- **خطوط النار**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠١١.

فواز حداد

السوريون الأعداء

«لم يكن توقه العارم إلى إطلاق الرصاص، قابلاً للتفسير في هذه العجالة، سوى أنها ينبغي أن تتم بسرعة، ومن دون تلكؤ. كانت البرهان لنفسه لا لأي شخص، على أنه غير عاجز عن القتل، الشفقة لا تحبط هذه الرغبة، بل تضايقه، وكأنه يحتاج إلى مبرّر يفوق الكراهية العمياء، كراهية بلا حدود، مع أنه لا يكرههم فعلاً، كما أنهم لا يأتون بأدنى حركة تسوّغ قتلهم، وهو سبب لكي لا يعفو عنهم. لن يحفل بجميع الموانع، ولن يستدعي الأسباب. إذا لم يجهز عليهم، حقد على نفسه. لن يدعهم عثرة أمام تحقيق رغبة، باتت عارمة؛ قتل عائلة بكاملها، ولو كانت تنقص واحداً؛ لا ضير، الأب أمسى في حكم الميت.

والريح تتراخى وتخفت إلى حد التلاشي، بات السكون مثقلاً بوقفتهم البائسة، عيونهم الجاحظة تتضرع إليه، يهيبون به أن يدعهم، تواقتت مع رغبته بإزاحتهم عن مرمى بصره بسرعة، لكن لا بأس في التأني، كانوا بمتناوله، والمنظر مواتٍ لاستنفاد القتل وجهاً لوجه. الفرصة سانحة، من الحماقة خسرانها بالتساؤلات.

الهدوء المفعم بالصمت، أتاح له ملاحظة تعابير وجوههم. ترى كيف ستكون لحظة تلقي الموت؟ الرعب بدأ يمنح ملامحهم طابعاً غريباً، غرابة الموت نفسه، اللحظات التالية، سيشوبها شيء غريزي، لن يزيد عن لمحة خاطفة، لابد أن تكون خارقة، سيتنبه لئلا تفوته. أحس من برودة أعصابه أن العملية كلها، مهما تفاقمت حرارتها، ليست أكثر من مراعاة الدقة في التصويب، لا القدرة على ارتكاب مجزرة صغيرة لا حسيب عليها ولا رقيب، بات من الجبن عدم الإقدام عليها».

من الرواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 978-9953-21-590-7
9 789953 215907